تريزا الأﭬيليَّة

المؤلفاتُ الكامِلة



كِتابُ السِّيرة

بيروت ١٩٩١

كِتَابُ السِّيرَةِ

لا مانع من طبعه

بولس باسيم
النائب الرسولي للاَّتين في لبنان
بيروت ١٦ تموز ١٩٨٥

توزيع الرهبانية الكرملية في لبنان
دير سيدة الكرمل
الحازمية ص.ب. ٢٨٥
ت ٤٥٣٠٩٣ - ٤٥٣٠٩٤

الطبعة الأولى ١٩٨٦
الطبعة الثانية ١٩٩١

صورة الغلاف :
القديسة تريزا يسوع
بريشة ڤيلاسكيث - القرن السابع عشر
مدريد - اسبانيا

تريزا الأفيلية — المؤلفات الكاملة ١

كتاب السيرة

نقله الى العربية

انطوان سعيد خاطر

طبعة ثانية منقحة

بيروت ١٩٩١ — تراث الكرمل ١

في الأصل الاسباني

TERESA DE JESÚS: *Libro de la Vida*
in *Obras Completas,* 5a ed.
(Burgos, Ed. Monte Carmelo, 1987)

راجعه ودقّق فيه :
الأبوان اسطفان طعمه وشاهين ريشا والاستاذ انطوان خاطر.

وضع المقدِّمات وعناوين المقاطع والحواشي :
انطوان خاطر والاب شاهين ريشا

الفهرس

كتاب السيرة

توطئة

تريزا الأڤيلية بالعربية؟

أجل! فكثيرون يعرفون ابنةَ كرمل «ليزيو»، تريز الطفل يسوع، والعهد بها قريب. أما تريزا الأم، المعلِّمة، مُصلحة الكرمل، فرغم القرون الأربعة التي تفصلها عنّا، ما زالت معاصرةً لنا، وقليلون يعرفونها عن قرب.

لقد أبلغت القديسةُ تريزا إخوتَها الرهبان الكرمليين الحفاة، بتكليفٍ من الربّ، رسالةً جاء فيها أَنَّ عليهم «أن يعلّموا بأعمالِهم أكثرَ من تعليمِهم بأقوالِهم».

أما الأعمال فتبقى مرتبطةً بكلِّ فرد، وكلُّ فردٍ عالَمٌ بذاته له مواهبه الخاصة وتلك التي يؤتيه إيَّاها الروح. وأما الأقوال فليس منها ما يوازي أو يقارب تعاليم القديسة تريزا نفسِها بساطةً، ووضوحًا، وعمقًا، وأصالةَ روحانيَّةٍ، وتأثيرًا. إنها الينبوع الذي منه ننهل جميعًا. وعليه فقد صارت مؤلّفاتُ القديسة تريزا، الى جانب مؤَلَّفات القديس يوحنا الصليبي في الأساس العميق من تراث الكرمليين الروحي ومن تراث الكنيسة الجامعة التي جعلت منها، وهي «أمٌ ومعلِّمة»، معلِّمَين جامعَين من معلِّميها.

والرهبانية الكرملية في لبنان، أمانةً منها على هذا التراث الثمين، وهي

من القيِّمين عليه ، وتجاوبًا مع داعي رسالتها ، ورغبةً منها في إشراك المؤمنين من قرّاء العربية بغنى الروائع الروحية لذَينِك المعلِّمَين القدّيسَين ، أخذت على نفسها بأن تنقلَ آثارَهما الى لغة الضاد ، الى جانب آثار القديسة تريز الطفل يسوع (+ ١٨٩٧) ، والطوباوية اليصابات للثالوث (+ ١٩٠٦) ، وأن تنشُرَها في سلسلةٍ تحت اسم « تراث الكرمل » ، فلا يبقى شرقُنا محرومًا من الاطّلاع بيُسرٍ على هذا المَعين الدافق قداسةً ، وسموًّا روحيًّا . وتبذل الرهبانية جهودًا حثيثةً في هذا المجال رغم الصعوبات العديدة . وها إننا نستهلُّ هذه السلسلة بكتاب السيرة للقديسة تريزا الأفيلية ، الأمِّ ، ومصلحةِ الكرمل ، التي شقَّت أعمالُها ، وبالتالي رسالتُها الروحيَّة ، طريقًا واسعًا نحو الشرق الأقصى عبر ترجمتِها الى اليابانيَّة والكوريَّة والصينيَّة والتاميل ، وسواها من اللغات .

وغنيٌّ عن البيان ما استأثرت به الأمّ تريزا ومؤلّفاتُها من اهتمامِ معاصريها ، لاهوتيِّين ، ومعلِّمين روحيِّين ، وأساقفةٍ ، وقضاةِ تفتيشٍ وغيرِهم ، ومعاصرينا من علماءِ نفس ، ولاهوتيِّين ، ومرشدين روحيِّين ، ومؤرخين للصوفيِّين وللأدب الاسباني ، فما انفكّت المقالات والأبحاث والدراسات والترجمات والطبعات تتوالى حتى بات مجموعُها يشكِّل مكتبةً قائمةً بذاتها .

ونأمل أن تَسُدَّ هذه الترجمة بعضَ الفراغ في مكتبتنا الروحيّة العربيّة ، وتكونَ وسيلةً لأن نَعرف عن قرب وجوهًا ناصعةً في تاريخ الكنيسة جعلت من التأمّل والصلاة غِذاءَها ، ومن محبَّةِ القريب وخلاص النفوس همَّها الدائم ، ومن خدمةِ الله وحبِّه حتى الاتِّحاد به أقصى غاياتِها ، وجوهًا رسمت طريقَ القداسة أمام المؤمنين سهلاً محبَّبًا لأن « نيرَ الربِّ طيِّبٌ وحِملَه

خفيف» ، فحُقَّ أن تقدِّمَها لنا الكنيسة قدوةً وتجعلَ من تعليمها قاعدةً ومنارةَ هدًى لنا.

ورجاؤنا أن نوفَّق في مسعانا بفضل من أعاننا بأعمال الترجمة ، والمراجعة ، والتدقيق ، ونخصّ بالذكر الأستاذ أنطوان خاطر الذي ترجَمَ عن الأصل الاسباني باكورة هذه السلسلة الكرملية.

والله ولي التوفيق.

الحازمية ١٥ تشرين الأول ١٩٨٥
عيد القديسة تريزا الأڤيلية

الأب اسطفان طعمه
الرئيس الإقليمي
للرهبانية الكرملية في لبنان

الطبعة الثانية

بعد نفاذ الطبعة الأولى ، ونظرًا لما لاقى مؤلّف القديسة تريزا الأول ، أي **كتاب السيرة** ، من اقبال كبير ، لم نر بدًّا من اعادة طبعه بعد اعادة النظر فيه وتنقيحه.

ويبقى نهجنا في هذه الطبعة كما حدّدناه في الطبعة الأولى ، وهو الذي نعتمده في الترجمات اللاحقة ، حسب القواعد التالية :

١. الدقَّةُ في التعبير عن المعنى وتأديته بأسلوبٍ عربيٍّ سليم.
٢. إعتمادُ الكلمة العربية عينِها ، ما أمكن ، لترجمة الكلمة الاسبانية نفسِها تسهيلاً للدرس والمقارنة.
٣. اعتمادُ مصطلحاتٍ تلائمُ مفهومَ القدِّيسة تريزا للحالات الصوفيَّة التي تَصِفها مراعاةً للواقعِ الثقافي الذي عاشت في جوِّه والذي يرتبط بجوهر تراثنا المسيحي.
٤. الاحتفاظُ بتقطيع الجمل وبالجمل الاعتراضية في أماكنها ، إلَّا حيث يفرض التركيبُ العربيُّ خلافَ ذلك ، حرصًا على دقَّة المعنى وتجنُّبًا لاضطراب بعض العلاقات الدلالية ، وأمانةً منَّا على أسلوب الكاتبة.
٥. اعتمدنا لهذه الترجمة ، كنصٍّ أصليٍّ ، الطبعةَ الاسبانية للأعمال الكاملة للقديسة ، التي حقَّقها ووضعَ حواشيَها الأب توماس دي لا كروث الكرملي في طبعةٍ ثالثة ، في بورغوس (اسبانيا) سنة ١٩٨٢ ، مع

مقارنتها بالطبعة التي حقَّقها الأبوان : EFRÉN de la Madre de Diós, C.D. y Otger STEGGINK, O. Carm. وسنذكرها في باب «المصادر والمراجع».

فترقيمُ المقاطع الذي تبنَّيناه هو المعتمَد في طبعة الأب توماس ، وهو نفسُه اعتُمِدَ في الطبعة العلميَّة لأعمال القديسة تريزا التي حقَّقها الأب سلڤيريو للقديسة تريزا والتي صارت مرجعًا لا غنى عنه للبحث العلمي في نتاجها وفكرها وتعليمها.

فنأمل أن تصبح هذه الترجمة مرجعًا يُعتمد في أبحاث التصوُّف المقارن ، المسيحي الإسلامي . وما أحوجَنا اليوم الى مثل هذه الأبحاث سعيًا وراءَ الأصالة في الايمان والفكر والثقافة . فلا يضُنَّنَّ علينا أصحابُ الكفاءة في هذا المضمار بسداد الرأي وتقويم النقد.

ش . ر .

١٥ آب ١٩٩٠

أهم الحوادث في حياة القديسة تريزا الافيلية

١٥١٥ في ٢٨ أذار في مدينة آفيلا (اسبانيا) مولد تريزا دي أهومادا أي ثيپيدا. عُمِّدَت في ٤ نيسان، يوم تدشين دير التجسد للراهبات الكرمليات في المدينة.

١٥٢٢ محاولة هربها مع أخيها رودريغو الى «بلاد المغاربة» للاستشهاد.

١٥٢٨ موت والدتها بياتريث دي أهومادا.

١٥٣١ دخولها دير ومدرسة سيدة النعمة كطالبة داخلية.

١٥٢٨ – ١٥٣١ إقبالُها على مطالعة كتب الفروسية.

١٥٣٢ مرضها وخروجها من دير سيدة النعمة.

١٥٣٣ – ١٥٣٥ نضوج دعوتها الرهبانية بتأثير صحبة عمِّها پدرو ومطالعة رسائل القديس إيرونيموس.

١٥٣٥ ٢ تشرين الثاني: هربها من البيت ودخولها دير التجسد.

١٥٣٦ ٢ تشرين الثاني: إتِّشاحها بالثوب الرهباني.

١٥٣٧ ٣ تشرين الثاني: إبرازها النذور في دير التجسد.

١٥٣٨ مرضها الخطير: تخرج من الدير للمعالجة؛ تطالع **الأبجدية الثالثة** لأوسونا.

١٥٣٩ تعود في تموز الى آفيلا. قبيل عيد انتقال السيِّدة (١٥ آب) تُصاب بغيبوبةٍ طويلةٍ أربعةَ أيام فيظنُّونها ميتةً. ثم تستفيق، وتعود الى دير التجسُّد، وتبقى ثلاث سنوات كأنها كسيحة.

١٥٤١ اغناطيوس دي لويّولا يؤسِّس جمعية اليسوعيين.

١٥٤٢ شفاؤُها بفضل القديس يوسف.
ولادة خوان دي پِيِس (القديس يوحنا الصليبي).

١٥٤٣ موت والدها. بناءً على نصيحة معرِّفِها الأب بارّون، تعود الى حياة التأمل.

١٥٤٤ – ١٥٥٤ حياة تريزا تتأرجح بين الحرارة والفتور.

١٥٥٤ أمام تمثال المصلوب المثخن جراحًا تَحوُّلٌ جذريٌّ في حياتها.

١٥٥٤ – ١٥٦٠ تتضاعف الظواهر الخارقة، كالانخطافات والرؤى والأحاديث، وتأمل السكينة والاتحاد.

١٥٥٦ نعمة الخطوبة الروحية.

١٥٥٧ لقاؤها القديس فرنثيسكو بورخا (فرنسيس بورجيا).

١٥٥٩ أول رؤيا حظيت بها عن المسيح.
رئيس محاكم التفتيش ڤالديس يمنع الكتب الروحية باللغة الاسبانية لمحاربة المُنَوَّرين «Alumbrados»، وهم جماعة من المشعوذين.

١٥٦٠ رؤيا جهنّم.
رؤيا الكاروبيم يطعنها بحربة الحب الإلهي.
مشروع تأسيس دير القديس يوسف للإصلاح. لقاء القديس پدرو دي ألقنطره.
تكتب **التقرير الأوَّل**.
رؤيا المسيح القائم من الموت.

١٥٦٢ تقضي فترةً في منزل السيدة لويسا دي لاثيردا في توليدو.
حزيران: تنتهي من وضع كتاب **السيرة**.
آب: تأسيس دير الإصلاح على اسم مار يوسف في آڤيلا.
تباشر كتابة **طريق الكمال**.

١٥٦٣ آب: تنتقل الى دير القديس يوسف، حيث تكتب **رسوم الراهبات الكرمليات الحافيات**.

١٥٦٥ تنتهي من كتابة **السيرة**، صيغةً ثانيةً أي الحالية.

١٥٦٦ تكتب **خواطر في حب الله**.

١٥٦٢ – ١٥٦٧ فترة راحة وسلام وتأليف في دير مار يوسف في آڤيلا.
شعورها بضرورة وجود رهبان يمارسون نمط الحياة السائد في دير القديس يوسف.

١٥٦٧ رئيس الرهبانية العام يفوِّضها تأسيس أديرة مثل دير القديس يوسف.
آب: لقاؤها الأب يوحنا للقديس متّيا، وإقناعُه ببدء الإصلاح بين الرهبان.
سلسلة الأديار المؤسَّسَة:
١٥٦٧ مدينا دِل كمپو.
١٥٦٨ مالاغون – ڤاليادوليد. دوروِيلو للرهبان.
١٥٦٩ توليدو وپاسترانا.
١٥٧٠ سلمنكا.
١٥٧١ ألبا دي تورمِس. تُعيَّن رئيسة على دير التجسد في آڤيلا.
١٥٧٣ تباشر تدوين **التأسيسات**.
١٥٧٤ سيغوڤيا. تعود الى دير مار يوسف.
١٥٧٥ بِياس وأشبيلية.
قضاة التفتيش يصادرون مخطوط كتاب **السيرة**.

١٥٧٧ ٢ حزيران – ٥ تشرين الثاني: تكتب **المنازل** أو **القصر الداخلي**.
يشتدّ الاضطهاد على تريزا وراهباتها ورهبانها مدّة سنتين، ثمّ بعدها تكوينُ اقليمٍ مستقل للكرمليِّين الحفاة.

١٥٧٩ ١٥٨٢ زيارة الراهبات وتأسيس الأديار.

١٥٨٠ تأسيس دير ڤيلانويڤا.

١٥٨١ تأسيس دير صوريا. انتخاب تريزا رئيسة على دير مار يوسف.

١٥٨٢ نيسان : تأسيس دير بورغوس.
٢٠ أيلول : تصل مريضةً منهوكةً الى ألبا دي تورمِس ، وتلزم الفراش.
٤ تشرين الأول : عند التاسعة مساء تفيض روحها «ابنة للكنيسة».

١٥٨٣ يُفتح التابوتُ ويُنقل جثمانُها الى آڤيلا.
نشر كتابها **طريق الكمال**.

١٥٨٦ بأمرٍ بابويّ يُعاد الجثمان إلى ألبا دي تورمِس حيث يَرقد الآن.

١٥٨٨ نشر مؤلّفاتها الكاملة بدعم الأب يوحنا الصليبي ، وإعدادِ الأب لويس دي لِيُون الأَغسطيني.

١٦١٤ البابا بولس الخامس يعلنها طوباوية.

١٦٢٢ البابا غريغوريوس الخامس عشر يعلنها قدِّيسة.

١٩٧٠ ٢٧ أيلول البابا بولس السادس يعلنها أول امرأة «معلّمة الكنيسة».

مقدمة

إن إعلان تريزا الأڤيلية « معلِّمةً للكنيسة » ، وهي أوّل امرأةٍ مُنِحت هذا اللقب ، دليلٌ على « القيمة المميَّزة والحيَّة دائمًا لروحانيَّة هذه الراهبة التي عاشت في القرن السادس عشر ؛ وإنَّ شخصيتَها الغنيَّة فَتَنت مَن عرفوها في حياتها وتَفتُن دائمًا أولئك الذين تعلَّموا أن يتقرَّبوا إليها ، ولو غير مسيحيين ، عبر كتاباتها ، ومصنَّفاتها ، وعلى الأخص عبر رسائلها »[1] .

والواقع أنَّ شخصيتَها المتعدِّدةَ الوجوه والغنيَّةَ الملامح تجعل منها مثالاً في النساءِ نادرًا . **راهبةٌ** همُّها الكمال ؛ **رئيسةٌ** قويّةُ الشخصيَّة على تواضعٍ ووداعة ؛ **مُصلِحةٌ** مقدامٌ لا تهونُ أمامَ الصعوبات ؛ **مشغوفةٌ** بالربّ تَكِلُ الى عنايته كلَّ همومها بثقةٍ عمياء ؛ **مؤلِّفةٌ** تكتب للضرورة وتلبيةً لواجب الطاعة فتعكِسُ ذاتَها في ما تكتب بأسلوبٍ ساحر ؛ **مؤسِّسةٌ** تزرع أديار الكرمل رياضَ قداسةٍ في أرض اسبانيا ؛ **معلِّمةٌ** صوفيَّة غاصت في أعماق الروح من خلال ذاتها ، وألقتْ تعاليم تلقَّتْها من الربّ عبر اتصالها به بالتأمُّل والحبّ ؛ **إنسانٌ** يُحِبُّ القريب ويرى في الصلاة خير وسيلةٍ للتعبير عن هذا الحبِّ وتنميتِه ، وأنَّه بالصلاة يعطي القريب أكثرَ ممّا يُعطي ذاته .

---

١. SEROUET, P., «Thérèse d'Avila», in *Encycl. Universalis*, vol. 16, p. 17c.

اولاً : ملامح من حياتها

١ – ١. نشأتها وحداثتها

هي ابنة ألونسو سَانْتشِيثْ دِي ثِيبيدا وبياتريثْ دي أَهومادا ، زوجتِه الثانية بعد ترمُّلِه ؛ وُلدت في آڤيلا في ٢٨ آذار سنة ١٥١٥ ، تعمَّدَت بعد سبعة أيام من مولدها وأعطيت اسمَ جدَّتِها لأُمِّها ، تريزا ، وشهرةَ أُمِّها ، دي أهومادا. نشأت في عائلةٍ كبيرةٍ ضمَّت ثلاث أخواتٍ وتسعةَ إخوة.

تميّزت منذ حداثتها بحميَّةٍ عجيبة. في السابعة من عمرها اتَّفقت وأخاها رودريغو على أن يذهبا الى «بلاد المغاربة» ليُقتلا من أجل المسيح ، لكنَّ عمَّها فرنثيسكو أفشلَ الخطَّة. ثم راحت وأترابًا لها يمارسون أعمال التقشُّف والإماتة والإحسان كالرهبان.

حين بلغت الثانيةَ عشرة فَترت عبادتُها فأقبلت على مطالعة قصص الفروسيّة ، والاهتمام بالتبرُّج ، لكنَّ انقلابًا جذريًّا حصل لديها حين تُوفِّيت والدتُها (١٥٢٨) ، فمضت الى صورةٍ للعذراء وتوسَّلت إليها بدمعٍ غزيرٍ كي تصيرَ ، هي ، أُمَّها (سيرة ١ ، ٧).

في السادسة عشرة من عمرها عهد بها أبوها الى راهبات القديس أغسطينوس يؤدِّبْنَها ويدرِّبْنَها على الأعمال المنزليَّة والممارسات التقويَّة.

١ – ٢. في الرهبانية : على دروب الكمال

وعانت من حَيرةٍ في أمر دعوتها خرجت منها إثر مطالعتها كتبًا روحيَّةً قدَّمها لها عمُّها الوَرِع پدرو ، خصوصًا رسائلَ القديس إيرونيموس ،

فأسرَّت إلى والدها بعزمها القاطع على دخول الدير، فكان أقصى ما سمح به الوالد أن تفعلَ بعد موته ما تشاء. إلَّا أنَّها لم تُطِق الانتظار، فهربت من منزل أبيها في ٢ تشرين الثاني ١٥٣٥ وفي نفسِها شعورٌ بأن الموت ليس بأشدَّ من هذا الانفصال، ودخلت ديرَ التجسُّد للراهبات الكرمليّات. ولم يستطع الوالد التقيُّ إلَّا أن يُبلغَها رضاه ويُقدِّمَ لها مهرًا حين كتبت له بما فعلت.

مارست حياة التأمّل والتقشُّف والإماتة فعَلَّت حتى ظهرت عليها علاماتُ الموت (١٥ آب ١٥٣٩)، ولكانت دُفِنت لولا معارضةُ والدِها الشديدة لأنها «ليست بميتة». وكانت عودتُها الى الحياة أعجوبةً نسبتها الى القديس يوسف فراحت تَنشر عبادته وتكريمه.

مرَّت تريزا بأزمةٍ روحيَّةٍ استمرَّت ثمانيةَ عشر عامًا نتيجة صراعٍ بين تصميمٍ على ممارسة التأمل والإماتات وعجزٍ عن استجماع قواها للتأمل، فكانت تتمزَّقُ حزنًا (سيرة ٨، ٧)، لكنَّ مطالعتَها **اعترافات** أغسطينوس ساعدتها على الاحتمال؛ وزالت الغَمَّة إثر مشاهدتها تمثال المصلوب مُثخنًا جراحًا (سيرة ٩، ١)، فصارت امرأةً جديدةً تدرك أن لا شيءَ ينفع ما لم نضع ثقتَنا كلَّها بالله. وما انفكَّت مذ ذاك ترى الله، بمخيِّلتها وفكرها، دائمَ الحضور فيها.

أقبلت على الحياة بفرحٍ هو طَبعٌ فيها، فأثارت حذرَ المترمِّتين، والمُنَوَّرون «Alumbrados» كثيرون يدَّعون الرؤى والاتصالَ بالله. عرضت أمرَها على مرشدين فرأَوا في الظواهر التي روت وساوسَ شيطانيَّةً. فتألمت أَيَّ ألمٍ وصارت حياتها بكاءً متواصلاً. ثم استشارت راهبًا يسوعيًّا (الأب دييغودي ثتينا (Diego de Cetina) فارتاحت نفسُها لأنه كان

« يُركِّز على حبِّ الله » . وتعرَّفت الى القديس فرنثيسكو بورخا فشجَّعها على التأمل في ناسوت المسيح . واسترشدت يسوعيًّا آخر ، الأب خوان دي برادانوس (Juan de Prádanos) فحقَّقت تقدُّمًا في الكمال بلغ بها الى « القِران الروحي » وكأن قوَّةً داخليَّةً حرَّرتها من كل ما في الأرض ، وصوتًا رقيقًا يقول لها « لا أُريدُكِ بعدُ أَن تُحادِثِي الناسَ بل الملائكة » (سيرة ٢٤ ، ٥) .

وانتقل الأب برادانوس من آڤيلا واسترشدت الأب بلطاسار ألڤاريث ، اليسوعي الشاب الذي حذَّره رئيسُه الأب ديونيسيو ڤاثكيث من « راهبة التجسُّد » ، فكان يرى ، ويَرى آخرون معه ، أنَّ ما تدَّعيه من منن ومن ظهور المسيح لها إنّمَا هو من عمل الشيطان . فراحت نفسُها تتمزَّق من العناء ، لكنَّها حظيت في تلك الأَثناءِ بنعمةٍ خاصةٍ حين طَعن ملاكٌ قلبَها بسهمِ الحبّ الإلهي ، وبانخطافاتٍ عدَّة أَكَّدت لها استقامةَ طريقها وضلالَ حُكم الناس . وصدف أن مرَّ الراهب الفرنسيسكاني القديس پدرو دي ألقنطره في آڤيلا (١٧ – ٢٥ آب ١٥٧٠) فعُرِض عليه أمرُ تريزا ، فحكم أمام من حذَّروه منها بقوله لها : « إذهبي يا ابنتي ، إنكِ في طريق الحق » (سيرة ٣٠ ، ٥) .

وفي هذه الأَثناء أُعطِيَتْ أن ترى صورة جهنَّم الراعبة فنذرت « أن تعملَ دائمًا في سبيل الأكمل » وصمَّمت على أن تحفظ قانونَها على الوجه الأمثل .

١ – ٣. حملة الإصلاح الرهباني

وصارحت اذ ذاك صديقاتٍ لها وراهباتٍ برغبتها في إنشاءِ ديرٍ تتميَّز

فيه الحياة بالفقر، والخلوة، والتأمّل[٢]؛ فشجّعتها صديقتُها دونيا غِيومار دي أُولْيُووَا وتبنّت المشروع. ولقيت صعوباتٍ ومقاومةً من جهاتٍ، ومساعدةً من جهاتٍ أخرى، من رهبانٍ مرشدين، ومن شقيقتها وصهرها، ومن الأب ألقنطره وغيرهم. وكان أَن دَشَّنت ظاهرة الإصلاح الكرملي برعاية مطران آڤيلا في البيت - الدير الجديد المُنشأ على اسم القديس يوسف في ٢٤ آب ١٥٦٢. ورغم هيجان الناس في المدينة وإثارة راهبات دير التجسُّد الرئيسَ الاقليميَّ عليها، فإن هذا، حين استمع الى دوافع التأسيس، ارتاحَ ووعدَها بالمساعدة.

وقام الرئيس العام للرهبانيّة بزيارة مدينة آڤيلا كي يرأسَ اجتماع إقليم قشتالة، فزارتْه (نيسان ١٥٦٧) وأطلعتْه صراحةً وبالتفصيل على كلِّ ما جرى. فأُعجبَ بهذه الصورة الأصيلة عن الرهبانيّة الكرمليَّة ورعى مشروعَها، وأمر بأَن يُنشأَ ما أمكن من أديارٍ بواسطة راهبات دير التجسُّد، وأن لا يُعيقَ أحدٌ من الرهبانية سعيَها، بل وبناءً على إلحاح القديسة، أجاز أن تُنشأَ أَديارٌ للرهبان على هذه الطريقة الإصلاحية بالإتفاق مع رؤساء إقليم قشتالة.

وانطلقت عمليَّةُ الإصلاح فأثارت القديسةُ في سبيله حميَّة معرِّفِها السابق الأب بلطاسار ألڤاريث، فكان الديرُ الثاني في مدينا دِل كمپو (١٥ آب ١٥٦٧)؛ كما أخذت عهدًا من الراهبَين خوان دي سان ماتِّيا وأنطونيو دي هيريديا بأن يُباشرا حملةَ الإصلاح في رهبانيَّة الرجال. وراحت في سعيٍ دائبٍ ونشاطٍ لا يعرف الكلل تجوبُ المدن والمقاطعات، تلبّي دعوة نساءٍ ارستوقراطيّات، وأميراتٍ ورهبان... لتؤسِّسَ ديرًا، وتثيرَ

---

٢. أنظر «مُصلِحة الكرمل ومؤسِّسة الأديار» في مجلة **نور وحياة ٤٣** (١٩٨٣) ص ١٨.

حميَّةَ هذا أو ذاك من الرهبان فيشاركَ في المبادرة الإصلاحيّة. وكرَّت سُبحةُ الأديار المُنشأة للنساء، وللرجال أيضًا، بسهولةٍ حينًا بناءً على طلبٍ مُلِحٍّ، وحينًا وسطَ صعوباتٍ ماديَّةٍ لم تكن لتأبهَ لها، ورغم مقاومةٍ ومؤامراتٍ من داخل المؤسسة أحيانًا (١٥٧٥ مثلاً، رُفعتْ شكوى ضِدَّ الكرمليات الحافيات الى محكمة التفتيش وقرَّر المجمعُ العام للرهبانية المنعقِد في بلاسنثيا Plasencia – اسبانيا، فرضَ العزلةِ أو السجنِ على القديسة)؛ وكان من شأن هذه العراقيل أن تثبِّط العزيمةَ لولا إيمان القديسة بصواب الطريقة واتّكالها المطلق على عناية الرب. حتى كان جُملةُ ما أَنشأَتْه من أديار الكرمليات في مدى عشرين سنة (١٥٦٢ – ١٥٨٢) ستَّة عشر ديرًا ما عدا أديرة الرهبان، أوَّلُها دير القديس يوسف في آڤيلا وآخِرُها في بورغوس (١٩ نيسان ١٥٨٢) بعد طول انتظارٍ وعناء.

١ – ٤. الرحلة الأخيرة، النهاية، المجد

ما وَهنت عزيمةُ الأم تريزا قطُّ أمام صعوبةٍ، فكان تجوالُها الإصلاحيُّ المتواصل في أسفارٍ ذاقت فيها التعب، والمرض، والمعاكسات، والمحاربات، ينتهي بتحقيق ما يمجِّد الله. لكنَّ رحلتَها الأخيرة من بورغوس (٢٦ تموز ١٥٨٢ الى ڤالِنثيا، فڤاليادوليد، فمِدينا دِل كَمپو، فأَلبا دِي تورمِس (٢٠ أيلول) المحطَّةِ الأخيرة، لم تكن رحلةَ الانتصار الكبير في عيون الناس كما قد يُخال، بل كانت «انسحابًا حزينًا جدًّا؛ وكأنَّ الله كان يصوغ لها بذلك أواخرَ الجواهر في الإكليل المعدِّ لها بعد «جهادِها الجهادَ الحسن وإتمامِها سعيَها».

وتسارع تدهور حالِها في أَلبا. ففي ٢٩ أيلول أَلَحَّ عليها النزفُ من

جديد فأَوت الى فراشها ولازمته حتى لفظتْ نَفَسها الأخير «إبنةً للكنيسة» ويداها كِلْتاهما تُمسكان بالمصلوب، الذي كان غالبًا موضوعَ تأَملها وعزاءَها في الشدائد. كان ذلك مساء ٤ تشرين الأول ١٥٨٢، الذي صار، بمقتضى الإصلاح الغريغوري للروزنامة، ١٥ تشرين الأول، وهو اليوم الذي تُعَيِّد لها فيه الكنيسة.

في ٢٤ نيسان ١٦١٤ أَعلنَها البابا بولس الخامس طوباوية. وفي ١٦ تشرين الثاني ١٦١٧ إعتبرها مجلسُ المملكة الاسبانية شفيعةَ اسبانيا.

وفي ١٢ اذار ١٦٢٢ رفعها البابا غريغوريوس الخامس عشر الى مرتبة القداسة في ضمّةٍ من الأخيار: إيزودورو الأشبيلي، واغناطيوس دي لَوَيُّولا، وفرنسيس كزاڤييه، وفيليبس نيري.

وكان للبابا بولس السادس الفضلُ في منحِها لقبَين: ففي ١٨ أيلول ١٩٦٥ أصدر براءةً، «نور اسبانيا»، يعلن فيها القديسةَ تريزا شفيعةَ الكتّاب الكاثوليك في اسبانيا. وفي ٢٧ أيلول ١٩٧٠ منحها في احتفالٍ مهيب لقبَ «معلِّمة الكنيسة الكاثوليكية»، وهو لقبٌ يُعطى امرأةً لأَول مرَّةٍ في تاريخ الكنيسة. أَوَلا تعتبرُها الكنيسةُ «أُمَّ الروحانيين»؟ فحُقَّ لها هذا اللقب.

ثانيًا: تريزا الكاتبة

من الكثير المُعجِب لدى القديسة تريزا توفيقُها بين مقتضيات الحياة التأمّلية والحياة العمليّة، بين ممارسة التأمّل أو محاولتِها بعنادٍ ممارستَه أو العودةَ إليه والغوصَ فيه حين يجتاحُ نفسَها الجفافُ ليُقصيَها عنه، وبين كثرة

الأسفار والتجوال لإنشاء ديرٍ أو زيارةِ جماعةٍ من راهباتها، وتآليفها مصنّفاتٍ روحيَّةً هي من الروائع في ما كُتب في هذا المجال. وكلُّ هذا دليلٌ ساطعٌ على التناغُم الجذّاب في مواهبها، والتوازنِ التام في مقوِّمات شخصيَّتِها.

والحقيقة أنَّ كتاباتِها منذ أن ظهرت لأول مرَّةٍ كانت مادةً سائغةً للمطالعة لدى متذوِّقي الجمال الأدبي والباحثين عن القيم الروحانية الكاثوليكية، وما زالت «توفر لمؤلِّفتِها مكانةً مميَّزةً ليس فقط في الروحانيات بل في الأدب العالمي أيضًا».

٢ – ١. مطالعاتها وتأثُّراتها

أولُ ما تجدرُ الإشارةُ إليه أنَّ القديسة تريزا تعلَّمت على ذاتها. وأنّى لها إذ ذاك أن تتابعَ دروسًا عاليةً أو أن تتخصَّص!؟. لقد أفصحت تريزا، منذ حداثتها، عن ولعٍ بالمطالعة بدافعِ فضولٍ أنثوي ورغبةٍ في المعرفة، وساعدها على ذلك أنَّ مكتبةَ والدها كانت تحوي خيرَ الكتب المعروفة في عصرها. في صِغَرِها أقبلت على سِيَرِ القديسين في **مروج الأخيار**، ثم مالت في حداثتها الى قِصص الفروسيّة، وعرفت في صباها **رسائلَ** القديس إيرونيموس التي أثَّرت فيها تأثيرًا كبيرًا؛ وانحصرت مطالعاتُها أو كادت، منذ أن بلغت العشرين، بالكتب الروحية.

في قِلّايتِها في دير التجسُّد (آفيلا) كانت تقتني أشهرَ الكتب الروحية. وعندما وَضعت قانونَ دير القديس يوسف، أو الأديار المُصلَحة التي أنشأتها، فَرضت على الرئيسةِ الاهتمامَ «بتوفير كتبٍ مفيدة»، وتذكرُ بنوعٍ خاص **الكرتوسي**، (أي **حياة المسيح** للكرتوسي لودلف السكسوني)،

ومروجَ الأخيار أو حياةَ القديسين ، و**الاقتداء بالمسيح** (المنسوب الى توما الكمبيسي) ، و**صلاةَ الرهبان** (لأنطونيو دي غيڤارا) ، وكتب الأب لويس دي غرانادا ، والأب پدرو دي ألقنطره ، دون تحديد ، ذلك «لأن اقتناءَ الكتب الى حدّ ، ضروريٌّ للنفس ضرورةَ الطعامِ للجسد» .

وهي لا تنفكُّ تشير في مؤلّفاتها ، بين الحين والآخر ، الى كتبٍ روحية لعدّة مؤلِّفين يمثِّلون تيَّاراتٍ متنوِّعةً طالعتها فتركت في نفسها ، وفي مرحلةٍ ما ، أثرًا خاصًّا . فمن الآباء **رسائل** القديس إيرونيموس ، **واعترافات** القديس اغسطينوس ، **وأخلاقيات** القديس غريغوريوس ؛ ومن الكتّاب الروحيِّين في القرون الوسطى **حياة المسيح والاقتداء بالمسيح** ؛ ومن الكتّاب الروحيِّين المعاصرين لها ، قائمةٌ طويلةٌ من المؤلَّفات أَشهرُ أصحابِها أوسونا ، لاريدو ، ألونسو دي مدريد ، پدرو دي ألقنطره ، لويس دي غرانادا ، خوان دي آڤيلا الخ ...

وإذا أمكننا أن نحدِّد ما استمدَّته من مطالعاتها ، ولو أَنها صَهَرته في نفسها ، فهناك مجرًى ، أفادت منه دون أدنى شكٍّ ، نجد أنفسَنا أعجزَ من أن نُبيِّن التأثّراتِ التي نَفذت منه إلى آرائها ، هو التعليمُ الشفهيُّ لمعرِّفيها ومُرشديها . فقد عرفت تريزا كبارَ اللاهوتيين في عصرها واتَّصلت بهم وحادثَتْهم (دومنغو بانييث ، مولينا ، وغيرهما ممَّن يكفي التعريفُ بهم بأَنَّهم من أساتذة سلمنكا) ؛ وارتشدت لدى معرِّفين كثيرين من الاكليروس الأبرشي ومن رهبانياتٍ مختلفةٍ وبالتالي ذوي مذاهبَ في الحياة الروحيَّة متنوِّعةٍ ؛ واتَّصلت بأناسٍ مشهورين بالعلم وقداسة السيرة مثل الأب لويس دي غرانادا ، والأب پدرو دي ألقنطره ، والأب فرنثيسكو بورخا ، ويوحنا دي آڤيلا ، وعلى الأخص الأب يوحنا الصليبي ، الأقربِ إليها . فالتحدّثُ إليهم والحوارُ معهم في مسائلَ محدَّدةٍ ، ونصائحُ هؤلاء المرشدين ساعدت

حتمًا، أكثر ممّا كانت تفعله الكتب، على إيضاح الحقائق، أو إزالةِ الشكّ من ذهن القديسة، وعلى توفير الطمأنينة لروحها. وهي كانت تكِنُّ للعلماء كلَّ تقديرٍ واحترام، وترى فيهم منبعَ فائدةٍ يوفِّرونها لأيٍّ طالب، وتعجبُ لوجود أُناسٍ لا يستفيدون منهم[3].

على أنه مهما تعدَّدت مواردُ المعرفة لدى تريزا، يبقى الموردَ الأغنى والأسمى اختبارُها الروحي عبر اتصالِها الشخصي بالمسيح، معلِّمِها الحقيقيّ الأوحد. وهي تعترف بذلك في كلِّ سانحة: «لقد كان دائمًا، عزّ وجلّ، معلِّمي»؛ وهو كان يُفهِمها الأمورَ بلحظةٍ وبوضوحٍ حتى تستطيعَ شرحَها... (سيرة ١٢، ٦)؛ «وقد فهمتُ فيما بعد أنه لو لم يكن الربّ دليلي، لما استفدتُ من الكتب إلّا القليل، لأنَّ ما كنتُ أفهَمه لم يكن شيئًا الى أنْ كشفه لي، جلّ جلاله، بالاختبار، وما كنت أدري حتى ما أَفعل» (سيرة ٢٢، ٣). وهو الربّ نفسُه الذي طمأَنَها، حين منعَ ڤالديس، المفتِّشُ العام في اسبانيا (سنة ١٥٥٩)، كتبًا تقويةً عديدةً موضوعةً باللغة الرومنسية، وقال لها: «لا تَحزني، فإني سأُعطيكِ كتابًا حيًّا» (سيرة ٢٦، ٥).

٢ – ٢. الكاتبة ودوافعها الى الكتابة

شعرت تريزا بميلٍ أدبيٍّ منذ حداثتها. ففي الرابعة عشرة من عمرها، وكان خيالُها مشبعًا بقصص الفروسية، وضعت قصَّةً في هذا الموضوع لتتسلّى وأترابها بها.

---

٣. يَظهَر مدى تقديرها لهؤلاء العلماء في سيرة ١٣، ٢٠.

لكن مهمَّتَها ككاتبةٍ روحيّة «إنطلقت منذُ أن بلغت مرحلةَ النُضج الإنساني والمسيحي، واتسعت متوافقةً مع نشاطاتِها كمؤسِّسة ومُصلِحة»؛ بدأت مع شروعِها بتأسيسِ أوَّل ديرٍ مُصلَح (١٥٦٠) بأوَّل **حسابات الضمير** وكتاب **السيرة**، وانتهت قبيل موتها بالفصل الأخير من **التأسيسات** وحديثِها عن إنشاء دير القديس يوسف في بورغوس.

لقد أُوتيت موهبةَ الكتابة، موهبةً كانت تسهِّل لها أن ترويَ بعفويَّةٍ «معايشاتِها» الباطنية، أي تلك الأحداثَ التي كانت تحصلُ في العميق من نفسها أو تلك التي كانت تَحدُث فيما حولها. والشاهدُ على هذه الموهبة مؤلفاتُها المتعدِّدة ورسائلُها الكثيرة.

وما كانت القديسة لتكتبَ، ربَّمَا، لولا دوافعُ خارجيةٌ، – بورِكت تلك الدوافع – أبرزُها طلبُ معرِّفيها ومرشديها، وطلبُ بناتها الراهبات. فقد كان من شأن تواضعها أن يقف حائلاً دون ذلك؛ وحُكْمُها على نفسها بعدم جدارتها، لنقصٍ في اللغة وقُصورٍ في الدروس، لشرح أسرار الحياة الروحية وتفسير اختباراتها الروحية ذاتِها، كان من شأنه أن يحولَ دون تصدِّيها للكتابة. فهذه المُهِمَّة مخصوصةٌ، في رأيها، باللاهوتيِّين والعلماء، وهي بعيدةٌ بالتالي عن رسالة راهبةٍ وضيعةٍ يجب أن يكون شغلَها الشاغل الصلاةُ والعملُ لتقديسِ ذاتها. يُضاف الى ذلك أنها كانت تَعرف وتُعلِنُ أنَّ هناك الكثيرَ من الكتب لمعلِّمين روحيِّين مشهورين طالعتها، هي، واستفادت من توجيهاتها في حياتها.

٢ – ٣. توجّهات كُتبها

تَجري مؤلَّفات القدِّيسة في اتجاهاتٍ عدَّةٍ وأنواعٍ «أدبيَّةٍ» مختلفةٍ

يَجمعُ بينها قاسَمٌ مشترك هو في أساسِها جميعها : التغني بمراحم الله. وتنسابُ كتابتُها بعفويَّةٍ بالغةٍ فيشعر القارئ أنَّها تُخاطبه كما تُخاطب أخواتِها الراهبات في غرفة الاجتماع أو في النزهة.

أ) أُولى مؤلّفاتِها تمتاز بطابَع السيرة الذاتية وتبدأُ ببعض **التقارير** أو **حسابات الضمير**، وتبلغُ الذروةَ في تقريرها الكبير أي كتاب **السيرة**. وهي صفحاتٌ إستبطانيّةٌ، شهاديّةٌ، تنطوي على نقدٍ ذاتي، ولُمعاتٍ تعليمية، لكنَّ مداها الأوسع مخصَّصٌ للتغنّي بمراحم الله.

ب) ومن مؤلَّفاتها اثنان يمتازان بطابَعٍ تعليميٍّ ويشكِّلان النواة المركزية لتعليمِ القديسة هما : **طريق الكمال** و **القصر الداخلي** أو **المنازل**، وقد وضعتهما من أَجل التنشئة الروحيَّة لراهباتها. وتعليمُها ليس نظريًّا بل إنه إفصاحٌ عن قناعاتٍ وتعبيرٌ عن اختباراتٍ ذاتيَّة.

ج) والنوعُ السرديّ أو الروائيّ يطبَع قسمًا من كتاب **السيرة** لكنَّه يميِّز كتاب **التأسيسات** الذي وضعته على مراحل رافقتْ مراحل تأسيسِ الأديرة بما أَلزمتْها من القيام بأسفارٍ، ومجابهةِ صعوباتٍ، وتحقيقِ أمانٍ. إنها تبسُط تاريخًا وليس روايةً تقويَّةً. ومع هذا، فمن فيض حياتها الروحيَّة تطلُع باستطراداتٍ لتتحدَّث عن الشأن الروحي في نصائحَ للرئيسات، ومشوراتٍ في الطاعة، وإرشاداتٍ في التأمُّل والحبِّ الأخوي.

د) وهناك مؤلَّفان يتناولان شؤونًا قانونيَّةً وإداريَّةً هما : **القوانين** التي وضعتها، أساسًا، لأوّل ديرٍ أنشأتْه (دير القديس يوسف في آفيلا) ثم أعادت النظرَ فيها لتجعل منها قوانينَ عامةً لأديارِها جميعًا ؛ **وطريقة زيارة الأديرة**، وهو مؤلَّفٌ وضعته بناءً على طلب الزائر الأب غراثيان وفيه تُبيِّن له الطريقةَ التي تتمنَّى أن يعتمدَها المسؤولون في زيارة أديار الكرمل لتكونَ

منسجمةً مع نسق الحياة الرهبانية الذي بثّته هي والقائمِ على الوداعة، والتأمّل، والمحبة، واختبارِ الله في الحياة الباطنية.

هـ) وهناك كتاباتٌ متفرِّقة: **خواطر في حبِّ الله** وهو شرح **لنشيد الأناشيد**. أَمَرَها فيما بعد أحدُ معرِّفيها. الأب دييغو يانغواس الدومنيكي بإحراقه (١٥٨٠) ففعلت في الحال. لكن لحسن الحظ كان هناك بعضُ نسخٍ منه فأمكن العثور عليه.

ونجاوى، وقد جمعها الأب لويس دي لِيون وضمَّنها طبعتَه لمؤلّفاتِ القديسة، (سلمنكا ١٥٨٨)؛ أما الأصلُ، بخطّ القديسة، فضائع؛ والنجاوى فوراتٌ عاطفيَّة روحيّة بحسب الحالات.

و) وللقديسة مجموعة **قصائد**، على إقرارها بأنها ليست بشاعرة، بعضُها أناشيدُ مناسباتٍ لغِنائها في عيد الميلاد أو في أعيادٍ أخرى، أو احتفالاتٍ، أو زيَّاحات؛ واثنتان منها نَظَمتْها ولا شكّ بتأثير حالةٍ روحيَّةٍ صوفيَّةٍ خاصَّة: «أعيشُ دون أنْ أَحيا في ذاتي» و«أيُّها الجمال...».

ز) أما **الرسائل** وتُعتبَر من أثمن نِتاجها، فلم يُحفَظ من الآلاف التي كُتبت، في تأكيد الباحثين، إلّا النزرُ اليسير (ما دون ٥٠٠). وهي موجَّهةٌ الى أصدقاء، وأقرباء، ومرشدين، وراهبات، وكبارِ القوم وصغارهم. وطبيعيٌّ أن لا تقتصر على موضوعاتٍ محدَّدةٍ بل إنَّ كونَها كتاباتِ مناسَباتٍ يَجعلها متنوِّعةً بتنوُّع تلك.

٢ - ٤. فوائد كتبها

لعلَّ أبلغَ ما قيل في مؤلَّفات القديسة تريزا ما كتبه الأب لويس دي

لِيون الأغسطيني ، إحدى الشخصيات الفذَّة في الآداب الاسبانية في القرن السادس عشر ، اللاهوتي ، والكتابي ، والشاعر ، الذي كان أوَّلَ من نشر بالطبع آثارَها الكاملة في سلمنكا سنة ١٥٨٨ ، وذلك في رسالةٍ وجَّهها الى الأم حنَّة ليسوع ، رئيسةِ دير مدريد والى راهباته. قال :

«أنا ما عرفتُ الأُمَّ تريزا ليسوع ولا رأيتُها أثناء حياتِها على الأرض. أما الآن ، وهي حيَّةٌ في السماء ، فإنني أعرفها وأكادُ أراها دائمًا في صورتين حيَّتين تركتْهما لنا عن ذاتِها هما : بناتها ومؤلّفاتها...».

«إن فضيلةَ الأمّ تريزا وقداستَها ، وكان يمكن أن يكونا موضوعَ شكٍّ وشُبهةٍ لي لو رأيتُها وهي على قيد الحياة ، هما ثابتتان وواضحتان لديَّ وأنا لا أراها الآن بل أرى كتبَها ، وأعمالَ يديها التي هي بناتها...».

«وإذا تركنا جانبًا الفوائدَ الكثيرةَ والكبيرةَ التي يجنيها قرّاءُ هذه الكتب ، فإنَّ فائدتَين ، في رأيي ، تبدوان أكثرَ تأثيرًا من غيرِهما. إحداهما تسهيلُها طريقَ الفضيلة على نفوس القُرَّاء ، والأُخرى إضرامُ هذه النفوس بالرغبة في الفضيلة وبحبِّ الله».

«إنه لأمرٌ معجِبٌ ، من جهة ، أن نرى كيف تُقدِّمُ (هذه الكتبُ) اللهَ أمام عيني النفس ، وتصوِّره سهلاً الوصول إليه ، بالغَ العذوبة ، وافرَ الصداقة للذين يجدونه ؛ ومن جهةٍ أخرى فإنَّها بكلِّ كلمةٍ من كلماتها ، وليس فقط بمُجملها ، تُضرِمِ نارَ السماء في النفس فتُلهِبُها وتُذيبُها. وإذ تنزع من عينَي النفس ومن الحواس كلَّ الصعوبات الحاصلة... تَدَعُها... وقد خفَّ حِملُها ، وزال فتورُها ، متحمِّسةً الى الخير ومتشوِّقةً اليه ، فتطير نحوه برغبةٍ جيّاشة. إنَّ الحبَّ الكبير الذي كان يقيم في ذلك الصدر المقدَّس خرج مُلتصقًا بكلماتِها فإذا بها تُثير لهيبًا حيثما تَمرّ» (**الأعمال الكاملة** ، ط. BAC ، مدريد ، ١٩٥٠ ، ص ١٣١٤).

٢ – ٥. أسلوبها وآراء النقّاد فيه

من النافل الإفاضةُ في الكلام على أسلوبها والبحثُ في روعة خصائصه، فنترك للقارئ تذوُّقَ عذوبةِ هذا الأسلوب المميَّز بنفسه. على أننا نكتفي بإيراد بعض شهادات لضمَّةٍ من أرباب الكتابة والنقد تُغني عن الإفاضة في التحليل.

– **الأب لويس دي ليون (١٥٣٧ – ١٥٩١)**: «إنها في سموِّ الأمور التي تَبحثُ وباللطافة والوضوح اللذين تعالجها بهما تتفوّق على عباقرةٍ كثيرين. وأشك في أن يكونَ في لغتنا أثَرٌ يعادِل كتاباتِها صيغةً في القول، وصفاءَ أسلوبٍ على سهولة، وظرفًا في الكلمات، ورزانةً، وأناقةً صِرفًا تُمَتِّع أيَّ إمتاع» (من رسالته الى الأم حنة ليسوع، في **أعماله الكاملة** طبعة BAC، مدريد، ١٩٥٠، ص ١٣١٤).

– **الأب إيرونيموس للقديس يوسف** الكرملي (١٥٨٧ – ١٦٥٤): «إن اسلوبَها سهلٌ، بسيطٌ عائليٌّ، وهو أيضًا سامٍ، سِرِّيّ، إلهيّ... ينساب خطابُها وتتلاحق عباراتُها دون تعثُّر، بسهولةٍ، وبرشاقةٍ ممتَنِعة. تبدأُ بموضوعٍ وحين يخطرُ ببالِها موضوعٌ آخر ذو أهميَّة، تنقطِع من ذاك الى هذا ثم تعود الى الأول وتربط بينهما ببراعةٍ فنيَّة حتى تجعلَ منهما نسيجًا متجانسًا عجيبًا في كونهما أحيانًا مختلفَين كلَّ الاختلاف، فتأسر إرادةَ القارى وعقلَه. ما أروعَ عفويتَها في إيضاحها أمورًا غامضةً كلَّ الغموض! ما أدقَّ شرحَها لها! ما أعجب تنظيمَها إياها وتنسيقَها! ما أشدَّ حيويَّتَها في تمثيلها لها، وحميَّتَها وعذوبتَها في الإقناع بها!». (**تاريخ الكرمليين الحفاة**، مدريد، ١٦٣٧، الكتاب ٥، فصل ١٦).

– **مرثلينو مِنِنْديث إي پلايو (١٨٥٦ – ١٩١٢)**: «ليس في العالم

نثرٌ أو شعرٌ يعادل أو يقارب ولو من بعيدٍ، أيَّ فصلٍ من فصول **السيرة** التي لا شبيهَ لها، حيث تروي بتواضعٍ عفويٍّ تمامًا المنن الفريدةَ التي تكرَّم بها الله عليها، وتتحدَّث عن أسمى الرؤى الصوفيَّة ببساطةٍ وإهمالٍ رفيعٍ في عباراتِها فتُمتِّع وتُحبِّب». (**دراسات ومقالات في النقد التاريخي والأدبي**، الطبعة الوطنية، الجزء ٦، ص ٢٥٩ – ٢٦٠).

– **رامون مِننْديث بيدال** (١٨٦٩ – ١٩٦٨): «إنَّ القديسة تريزا، وقد أَلزمتْها الطاعة بأن تكتبَ، تعتمدُ الأسلوبَ المهمَل كضمانةٍ لتواضعِها. وهذا العزوفُ التام عن الفضول يفسِّر لنا كيف أنها، على ما كانت عليه قبلاً من شَغَفٍ بمطالعة كتب الفروسية... ما أخذت منها أيَّ ملمحٍ أسلوبيّ... ومع أنّ تريزا كانت تَلتهمُ، حياتَها كلَّها، الكتبَ الروحيةَ الرفيعةَ المستوى، لا تجري على أسلوب أيٍّ منها، ولا تطمحُ بمساواة المؤلِّفين «المثقّفين». فالكتابة، لدى القديسة تريزا، على طريقةِ الكلام المحكي، تبلغُ أقصى غاياتِها... على أنَّ العفويةَ الصارمة لدى القديسة إنما هي عفويةٌ فنيّةٌ أصيلة؛ فالقديسة، وإن أرادت اجتنابَ الزخرفة في الكتابة، كاتبةٌ بارعةٌ في استخدام الصُوَر. إن التعابيرَ المجازيَّة تندفع وافرةً، وبعضُها يتلبَّس غنًى منوَّعًا عجيبًا قد يكون مستلهمًا من كتَّابٍ سابقين، إلَّا أنَّها تأتي دائمًا ملوَّنةً بلونٍ خاص متوافقةً والموضوعَ الخاص الذي تعرضه القديسة...» (**في لغة القرن السادس عشر**، سلسلة أوسترال، ١٩٤٢، ص ٨٩ – ٩١).

– **خوسيه مَرتينث رويث** (أثورين) (١٨٧٤ – ١٩٦٧): «لا تدركُ، أحيانًا كثيرةً، اليومَ أو الشهرَ الذي تكتُب فيه. تنسى كلَّ شيء. لا الزمانُ موجودًا بنظرها ولا المكان. غير أنَّ نثرًا بكرًا، صافيًا، خلوًا من

أيٍّ عنصرٍ من عناصر الصَنعة، يروح ينبعث مباشرةً من أعماق روحها... إنها في أُسلوبها إنسانيةٌ، انسانيةٌ بعمقٍ، مباشرةٌ، عفويّة بسيطةٌ كالماءِ الزُلال... وكتاب **السيرة**... هو أعمقُ كتابٍ، وأكثرُ الكتب كثافةً ونفاذًا ممّا في أيٍّ أدبٍ أوروبي. بإزائه يبدو مُحلِّلو «الأنا» الأكثرُ دِقَّةً... أطفالاً دون خبرة» (**الكلاسيكيون من جديد**، سلسلة اوسترال، ص ٤٠ - ٤١).

إنّها عندما كانت تكتب، إنما كانت تُفكِّر في راهباتها ومثيلاتهنَّ مِمَّن لن يحظَيْنَ بثقافةٍ لاهوتيَّة. لهذا امتاز أسلوبُها بسهولةٍ وعفويَّةٍ، وجاءت تشابيهُها مُستوحاةً من الحياةِ اليومية.

- **خوان لويس البورغ** (مؤرّخ للأدب الاسباني، معاصر):

«لغتُها لغةُ العامة في قشتالة القديمة... على احتفاظٍ بصيغٍ بدائيَّةٍ كان الشعب يتداولها. كأنها تجري على المبدإ النَهضَوي «أَكتبُ كما أَتكلَّم»، معدِّلاً تعديلاً عميقًا لأنَّ شعورَها الديني يحملها على تجنُّب التخيُّر اللفظي لتصغيَ باهتمامٍ إلى إلهام الله في داخلها. وإكثارُها من استعمال صِيَغ التصغير جزءٌ جوهريٌّ من طريقتها في التعبير، ومن الظرف واللطافة اللذين يميِّزان أسلوبَها. (**تاريخ الأدب الاسباني**، الجزء الأول، مدريد، ١٩٦٦، ص ٥٠٥ - ٥٠٦).

والحق يقال، اذا كان الأسلوب هو الرجل فلا أصحّ من هذا القول في تطبيقه على القديسة تريزا. إن أسلوبها صورةٌ حيَّةٌ متعدِّدةُ الألوانِ والخطوطِ عن شخصيَّتِها الغنيّة.

ثالثًا : كتاب السيرة

كتاب **السيرةُ** واحدٌ من الأعمال الكبرى التي أَلَّفتها القديسة تريزا[٤] ، وهو باكورةُ نِتاجها ، وضعته وقد اكتمل نضجُها الإنساني والروحي لدى مشارفتِها الخمسين من عمرها ، وكانت قد اختزنت معطياتٍ وافرةً عن اختبارٍ غنيٍّ من كافة النواحي .

والكتابُ ثمرةُ الطاعة لمعرِّفيها ومرشديها ، وضعته بناءً على أمرهم لتروِيَ طريقَتها في التأمّل ، والمنن التي خَصَّها الربُّ بها « (تمهيد **السيرة** ، ١) ، وإطاعةً لأمر الربّ كي تقصَّ عظائمَه وأَنعامَه تمجيدًا له وإفادةً للنفوس (**سيرة** ٣٧ ، ١) .

٣ - ١. ماهيَّة الكتاب

ليس الكتابُ سيرةً ذاتيَّةً بالمفهوم الشائِع كما قد يُظَنّ. وليس هو قصَّة حياة. فليس هناك ترتيبٌ زمنيٌّ للأحداث ولا تسلسل لها ، كما أنَّ تحديدَ أوقاتِها لا يُستطاعُ تحقيقُه في أكثر الأحيان إلّا عن طريق دراسةٍ مقارنة ؛ والأشخاص الأساسيُّون في هذه **السيرة** لا يُذكَرون بأَسمائهم بل يُشار إليهم تلميحًا ، وبإشاراتٍ عامَّةٍ ، أو يظلُّون مُغْفَلين ؛ والأماكنُ التي تجري فيها الأحداثُ المعروضة لا تُذكر بخصائصها .

---

٤. يصنِّف الأب توماس دي لاكروث أعمالَ القديسة في فئتين :
- أعمال كبرى وتضمّ : ١. كتاب **السيرة** ؛ ٢. **طريق الكمال** ؛ ٣. **القصر الداخلي** أو **المنازل** ؛ ٤. **التأسيسات** .
- وأعمال صغرى وتشمل سائر مؤلّفاتها .

إنه يقصّ مسيرتَها الروحية في مرحلةٍ طويلةٍ من حياتها[٥] ويشكّل الجذعَ الأساسيّ في البناء الأدبي - الروحي التريزي، ولو أنَّ المجاريَ الفكريَّة الصوفيَّة «لأُمّ الروحانيين» لا تنضب معه. فقد ظلّ قلمُ قدّيسة آڤيلا يغوص على عالمها الذاتي فتكتب **تقارير** تشكّل مجموعةً متفاوتةً من الصور الظرفيّة تُلقي أَضواء على اختباراتها الروحيّة وحياتها الصوفيّة، وتُفصِح عن مواقف وآراء وتعاليم يزيدُ من قيمتِها كونُها تتجاوز حدودَ سيرتها الكبرى في الزمن، وتنسجُ قِصَّتها الروحيّة طيلة تسعةَ عشر عامًا حتى سنة ١٥٨١ أي إلى سنةٍ قبل وفاتها.

٣ - ٢. تكوُّن الكتاب ووضعُه

كتاب **السيرة** كان يجبُ أن يكونَ في الأصل مجرَّدَ عرضٍ بسيطٍ لحالاتٍ روحيَّةٍ، فتكوَّنَ كتابًا بعد مخاضٍ بطيءٍ وشاقٍّ. نشأَ ونما في جو الحياة الصوفيّة التي عاشتها المؤلِّفة واكتمل نسيجُه في العِقد الأول من اختباراتها الروحيّة عبر مراحل لا عهدَ بها لكاتبٍ أو لِكتاب.

بين سنتي ١٥٥٥ و١٥٦٢، إثر انكباب القدّيسة تريزا على ممارسة التأمّل، غمرت حياتَها موجةٌ من النعم الصوفيّة، وتوالت عليها حالاتٌ خارقةٌ (انخطافاتٌ، رؤىً، أحاديثُ حميمةٌ بين الربّ وبينها)، وكانت هذه «المنن» و«الأفضالُ» تَحدث لها غالبًا أثناءَ التأمل فتنعمُ بفرحٍ ومتعةٍ روحيّةٍ، وتشعرُ بازدياد حبِّها للربّ، وغيرتها على خلاص النفوس، وتصممٍّ على التقدُّم في الكمال. على أنَّ طبيعةَ هذه الحالات كانت خافيةً عليها، فاضطُرَّت الى تسجيلِها كتابةً وعرضِها على أُناسٍ مختصِّين ليُمعِنوا

٥. من سنة ١٥١٥ حتى سنة ١٥٦٢، عندما انتهت من وضع الكتاب في صيغته الأولى.

النظر فيها ويصدِّقوا هذه الاختبارات بأحكامٍ يوثَقُ بها توفِّر الطمأنينةَ لنفسِها ، إذ تتثبَّتُ أنَّها في الطريق الصحيح ؛ خصوصًا أنَّ « المنوَّرين » ، ومدَّعي الرؤى والاتصال بالأُلوهة أَحدثوا في ذلك العهد بلبلةً في الأفكار فطاردتهم محاكمُ التفتيشِ بقسوة. لم تُوفَّقْ تريزا في إراحةِ ضميرِها إثر اتصالٍ أوّل بكاهنٍ أبرشيٍّ (غسبار داثا) ، فاضطُرَّت الى أن تعرضَ حالَ نفسها على مستشارين ، يسوعيِّين ودومنيكيين ، وهم أشهرُ اللاهوتيين والمعلِّمين الروحيِّين في ذلك الوقت ، فراحوا يطلبون منها تقاريرَ مكتوبةً مفصَّلةً.

لكنَّ عائقًا صعبًا كان يقفُ حائلاً ، على مستويَيْن ، دون بلوغها الهدوءَ الروحيَّ الذي كانت تَنشُد :

فعلى مستوى شخصيّ كانت اللغةُ تخونُها. فالقدّيسة لم تحظَ بثقافةٍ عاليةٍ ، فكانت بالتالي «عاجزةً عن قول كلمةٍ للإفصاح عن تلك الأنعام» ؛ وما استطاع كلامُ « الأشخاص الروحيِّين» تسهيلَ الأمر عليها ، على اهتمامهم بإفهامها ، «لأن جهلَها كان ، في الحقيقة ، كبيرًا» **(سيرة ١٢ ، ٦)** ؛ كما أن حاجزًا كان يقف بين ما تعيشه في صميمها وبين أفكارها الخاصّة ، إذ كانت وهي تفهمُ ، لا تعرف كيف تفهم» **(سيرة ١٨ ، ١٤)**.

أمَّا على مستوى الآخرين ، فما كان العلم وحدَه كافيًا وإن كان في نظرها « كنزًا ثمينًا للتأمُّل بأمور السماءِ وآياتِها ، وبالله وحكمتِه العظيمة » ؛ فمُختبر الحياة الصوفيَّة هي الذات الحميمة في اتِّصالها بالله ؛ لذلك حين اتّصلت بالقدّيس پدرو دي ألقنطره ، وهو رجلٌ عانى ما عانت ، وجمعَ الى العِلم اختباراتٍ ذاتيَّةً متجانسةً واختباراتِها ، حصلت الظاهرةُ المعجِبة

من التناغم المتبادَل : وجدت أنّه يفهمُها «بفضل اختباره» وأنه ، هو ، قادرٌ أن يفهمَ ماهيَّة الأمر وينيرَها ، فحصلت على اليقين في أمر اختباراتها ، وهو ما كانت تتوقُ إليه ، وصارت قادرةً على فهم هذه الأمور وشرحها (**سيرة** ٣٠ ، ٤).

وهكذا يكون كتاب **السيرة** كأثرٍ صوفيٍّ قد مرّ ، في تَكَوُّنِه ، في مراحل ثلاث ، كما يُستفاد استنتاجًا من كلام القديسة ؛ وجاءَ ثمرةَ موهبةٍ خاصَّةٍ مثلَّثةِ الوجوه أُعطيت لها كي تختبرَ في ذاتها مِننَ الربّ ، وتَفهمَها ، وتُحسِنَ التعبير عنها : لأن «إعطاءَ الربِّ نعمةً هو نعمةٌ ، ونعمةٌ أخرى أن نُدرِكَ أيَّةَ نعمةٍ هي تلك وأيَّةَ عطيَّةٍ ، ونعمةٌ ثالثةٌ معرفةُ شرحِها وإدراكُ فحواها» (**سيرة** ١٧ ، ٥).

٣ – ٣. قصة المخطوط الى الطبعة الأولى

كانت القدِّيسة تريزا درجت على وضع تقاريرَ موجزةٍ تَعرُضُ فيها حالة نفسها على مرشديها الروحيِّين وتستشيرهم في أمرها ، وهي تقاريرُ ذاتُ طابعٍ شخصيٍّ سرِّيٍّ ، كانت تنتهي طعامًا للنار ، لكن أُنقِذَ البعض منها الى جانب كتاب **السيرة** في صيغته النهائية.

ومخطوطُ كتاب **السيرة** ذو قصَّةٍ مثيرة. فعلى كونه وُضِعَ لمطالعةٍ شخصيّةٍ ينتهْي عندها أمره وتُطوَى صفحتُه ، كانت له سيرورةٌ حافلةٌ بالمفاجآت ، تكاد تشبه المغامرات ، فاشتُهِر أمرُه في اسبانيا كلِّها على الصعيدَين الديني والدنيوي لينتهيَ الى المطبعة ستَّ سنواتٍ بعد وفاة القدِّيسة.

وضَعت تريزا الكتابَ في صيغته الأولى في توليدو سنة ١٥٦٢

(انتهت منه في حزيران كما يرِدُ في ذيلِ الكتاب) وسلَّمته للأب غرثيا دي توليدو الدومنيكي، لكنَّ الأصلَ فُقِد. وعادت فوضعت قصّةَ حياتها مفصَّلةً، بناءً على أمر معرِّفيها الدومنيكيين، في آڤيلا في دير القديس يوسف الذي أنشأته وضَمَّنَت **السيرةَ** خبرَ تأسيسه.

كان همُّها أن تعرفَ بيقينٍ طبيعةَ اختباراتها فتَطْمَئِنّ، فرأت أن تَعرُضَ الأمرَ على واحدٍ من أَشهر المعلِّمين الروحيِّين آنذاك، الأب خوان دي آڤيلا، بناءً على نصيحة قاضي التفتيش فرنثيسكو دي سوتو إي سالاثار. لكنَّ مشروعَها اصطدم بمعارضة معرِّفها الأب دومنغو بانييث الدومنيكي؛ فرضَخت وانتظرت، ثم كلَّفت، وهي في أحد أَسفارها، صديقتَها لويسا دي لا ثيردا أن توصِلَ المخطوط للمعلِّم دي آڤيلا سرًّا وبسرعة؛ وكتبت له تخبُره بذلك، فأجابها أن لا موجِبَ لإخضاعه لفحصه «بعد أن نظر فيه أشخاصٌ مشهورون» (رسالة في ٢ نيسان ١٥٦٨). وتتسلَّمُ القدِّيسة جوابَ رجل الله في تشرين الثاني ١٥٦٨ وفيه يُثني ثناءً عَطِرًا على مضمون الكتاب.

ويبدو أنَّ من وكلت إليها القدِّيسةُ إيصالَ الكتاب للمعلِّم دي آڤيلا إستنسخته عن فضولٍ أو عن إعجابٍ (إذ كانت القدِّيسة قد وضعت صيغتَه الأولى في قصرها في توليدو) فتسرّب من ثَمَّ، وتعدَّدت النُسَخُ المتداولة بين أيدي مرشدين روحيِّين، ومعلِّمي لاهوت (برتلماوس دي مِدينا، الأستاذ في سلمنكا)، وشخصيَّاتٍ دُنيويَّةٍ رفيعةٍ: دوقَة أَلبا وأخيها الدوق دون فِرْنَانْدُو، وعلى الأخص أميرة إيبولي، أميرةِ التَرَفِ والمناورات والمؤامرات؛ هذه اطَّلعت على الكتاب بعد إلحاحٍ، ثُمَّ شكت أمرَه الى محاكم التفتيش بعد خلافٍ مع الراهبات الكرمليَّات لأَنَّهُنَّ تركن منزلاً كانت الأميرة قدَّمته لهنَّ لانشاءِ دير.

ولحسن الحظِّ ، أَوكلِ ديوان التفتيش أمرَ النظر في المخطوط الى الأب بانييث ، بتدخُّلٍ من المفتِّش دي سوتو إي سالاثار الذي كان قد أشار على القدِّيسة أن تعرُضَ الكتاب على الأب القدِّيس خوان دي آڤيلا . فأصدر بانييث حكمًا دفاعيًّا عن الكتاب ألحقه بالأصل بتاريخ ٧ تموز ١٥٧٥ .

وجُمعت النسخ المعروفةُ كلُّها ، ما عدا تلك التي كانت بحوزة دوقة أَلبَا بإنعامٍ خاصّ، على أن تصونها بتحفُّظٍ كبير.

وأُتيحَ للقدِّيسة أن تتَّصل شخصيًّا بكبير المفتِّشين ، الكردينال كيروغا (١٥٨٠) ، فسمعت منه ثناءً بالغًا على الكتاب وسمح لها بسحبه من سجلِّ ديوان التفتيش ساعةَ تشاء ، لكنها لم تُفلح في الأمر.

إثر موت القدِّيسة تكاثرت النسخُ ، ليس فقط في ديورة الكرمل بل بين أساتذة جامعة سلمنكا. وحصلت الأمبراطورة ماريًّا شقيقة الملك فيليب الثاني على نُسخةٍ فأظهرت رغبتَها بأن يُطبع الكتاب ، وحثَّت على ذلك الأمَّ حَنَّة ليسوع ، مؤسِّسةَ دير مدريد الحديث العهد ورئيستَه. وسُلِّم الأصلُ الى الأب لويس دي لِيون الأغسطيني ، أستاذ اللاهوت والكتاب المقدّس ، فنشره في سلمنكا سنة ١٥٨٨ ، وكانت الطبعة الأولى[٦] . ثمَّ أُودِع المخطوطُ الأصلي بأمر الملك فيليب الثاني مكتبةَ الإسكوريال حيث ما زال بحالٍ جيِّدةٍ ، وأُضيف إليه آنذاك العنوان الذي يحمله حتى الآن :

سيرةُ الأمِّ تريزا ليسوع ، مكتوبةٌ بيدِها بموافقة
الأب المعلِّم دومنغو بانييث ، معرِّفِها وأُستاذ اللاهوت في سلمنكا

---

٦. سبق هذا التاريخ نشرُ مؤلّفاتٍ متفرِّقة للقدِّيسة ، إلّا أنَّ الأب لويس دي لِيون أشرف على طبع **الأعمال الكاملة** التي شملت : **السيرة** ، **التقارير** ، **طريق الكمال** ، **تنبيهات** ، **القصر الداخلي** ، **نجاوى** .

لم تضع القدِّيسة عنوانًا للكتاب بل تدعوه حينًا « الكتاب الكبير » ، وحينًا آخر « نفسي » ؛ كما تقول في إحدى رسائلها إنَّها وضعت عنوانًا لهذا الكتاب « مراحم الله » .

٣ – ٤. بُنْية الكتاب

ليس كتاب **السيرة** هذا في بنيته التأليفيَّة موجَزًا تعليميًّا روحيًّا عاديًّا مصوغًا في قوالبَ جامدةٍ ، خاضعًا لتصميمٍ معيَّن ؛ ولا يُستشفُّ من أجزائه ترابطٌ منطقيّ يدلّ على مذهبٍ محدَّد. وقد يرجع عدمُ تكامله التأليفي الى الباعث على تصنيفه ، إذ طلب إليها بضعةُ أشخاصٍ في أوقاتٍ مختلفةٍ من حياتها أن تسجِّلَ اختباراتها في حياة التأمل ، والى الزمن الذي تمّ فيه وضعُه ، والى المراحل التي قطعَها حتى بلغَ هذا النصَّ النهائي .

ومهما يكن من أمر ، فإنّ الخطوط البنيويّة العريضة للكتاب تبدو كما يلي[٧] :

أ) **عناصر تاريخيّة ومرتبطة بسيرتها** : (الفصول ١ ؛ ٣ ؛ ٤ – ١٠ ؛ ٢٣ – ٢٤ ؛ ٣٠ – ٣٤ ؛ ٣٥ – ٤٠)

تَعرُض مراحل حياتها من زاوية نظرٍ روحيَّة – ممارسة الفضائل والتأمّل – حديثها عن المنن والاختبارات الخارقة – استشارات وتبادُل انطباعات مع المرشدين والمعرِّفين – ذكر مشروعها والمعارضة التي لقيت.

مرحلة أولى : طفولتها وفتوّتها ، فصل ١ – ٣ .

٧. أخذًا عن Enrique LLÁMAS ، في دراسته عن كتاب **السيرة** في الكتاب المشترك : *Introducción a la lectura de Santa Teresa*, Ed. de Espiridualidad, Madrid, 1978, p. 222.

مرحلة ثانية: السنوات الأولى في الحياة الرهبانية، **فصل ٤ – ١٠.**
مرحلة ثالثة: تقدُّمُها وارتقاؤُها في ممارسة التأمّل، **فصل ٢٣ – ٢٤.**
مرحلة رابعة: الخطوط الكبرى في سيرتها الروحية قبل تأسيس دير مار يوسف في آڤيلا، **فصل ٣٠ – ٣٤.**
مرحلة خامسة: ذروة سيرتها الروحية منذ تأسيس دير مار يوسف، **فصل ٣٥ – ٤٠.**

ب) **عناصر تعليميّة – روحيّة:**

١. التأمل ودرجاتُه الأربع، **فصل ١١ – ٢٢.**
٢. تفسير الأحاديث الداخلية للنفس وظواهر صوفيّة أخرى، **فصل ٢٥ – ٣٠.**
٣. تعليمُها عن المفاعيل التي تَثبُت في النفس بعد أن يُعطيَها الله أنعامًا فائقةً، **فصل ٣٧ – ٤٠.**

٣ – ٥. طابع الكتاب: كتاب تصوّف

أ) التصوّف والاختبار الصوفي:

استعملت القديسة تريزا غير مرَّةٍ في كتاب **السيرة** عبارةَ «اللاهوت الصوفي» (Teología mística) للدلالة على حالٍ روحيَّة (شعورها بحضور الله في داخلها وبكونه يغمرُها كلّيًّا، **سيرة ١٠، ١**) وليس بالمعنى الذي بدأً يشيع منذ أوائل القرن الخامس عشر مع جان جِرسون، الأستاذ في السوربون.

والصوفية في المفهوم المسيحي حال، أو اختبارٌ حياتيٌّ مباشر لله وللأمور الإلهية عن طريق المعرفة والمحبّة بتأثيرٍ خاص من الروح القدس.

وهذا يعني أن النفسَ تشعر بالله حاضرًا في أعماقِها ومفارِقًا، يُظهِرُ لها سرّه مباشرةً وبنورٍ خاص جديد، وأنه هو العامِلُ فيها من حيثُ إنّ الروحَ القدس، بنعمةٍ خاصة، يجعل الإنسانَ قادرًا على أن يتقبَّلَ هذا الظهورَ الإلهي ويقابله بأفعالٍ ملائِمة.

وعلى كون الظاهرةِ الصوفيّة معقّدةً، فمن المستطاع أن نتبيَّنَ عناصرَها المُكوِّنة. إنها اختبارٌ يمتاز:

- **بالانفعالية**: فالله يغمرُ النفسَ، كما تقول القديسة تريزا، أو يجتاحُها. على أن هذه الانفعالية أبعدُ من أن تكونَ جمودًا يصيبُ النفس، بل إن الإنسانَ ينعمُ بقوَّةٍ أشدّ من ذي قبل، تأتيه من هذا «الآخر» الحالِّ فيه أو من النور والنعمةِ اللذين حوّلاه من حالٍ إلى حال.
- **وبالمعرفة**: فعلى كون الحقيقةِ المدركة مُغلقةً بذاتِها لأنها مرتبطةٌ بالسرّ الإلهي، فالصوفي لا يعلمُ فقط بل يعرِف بمعرفةٍ حَدْسِيّة. إنها معرفةٌ اختبارية ولذيذةٌ، أي إنها نشاطٌ يمتاز بالمعرفة والمحبّة.
- **وباللحظات الشديدة الاستثنائية**: وهي قصيرةٌ عادةً، تحدُث في إطارٍ محدَّدٍ من المكان والزمان. وتكون نقطةَ انطلاقٍ لاختباراتٍ أكثرَ عمقًا، كما أنها قد تكون جذريَّةً فلا تتكرَّر (الانخطاف، الغيبوبة، القران الروحي...).
- والاختبار الصوفي ينتهي الى **خلق** «**حالةٍ**» تعطي انطباعًا بتخطِّيها الزمان، وتُحَرِّرها من كل ما يرتبِط بالعابر والفاني، أي بالموت عن كلّ ما ليس الله.
- ومن لواحق الاختبار الصوفي **الرمزية**، تُعتَمَد وسيلةً لا غنى عنها لنقل شيء عن السرّ الذي يُختبَر والذي لا يوصَف، وذلك نتيجةَ العجز عن

الإفصاح عنه بكلامٍ بَشريّ. وهذه الرمزية تُعبِّر عن انغلاقِ السرّ واستحالةِ وصفه بلغةٍ ملائمة.

واليوم يُطلَق **التصوُّفُ** بشكلٍ حَصري على اختبارِ الظواهر الخارقة. أصبحتْ دراسةُ هذه الظواهر عِلمًا قائمًا بِذاتِه يتناول علائِمَها، ومسبباتِها، ونتائجَها، ومصداقيَّتَها، وعوارضَها النفسية الصحيحة والمَرَضِيَّة.

ب) مسيرة المسيحي في التصوُّف

يُجمِعُ دارسو التصوُّف المسيحي علِى أنَّ من سار قُدُمًا في طريق الكمال الإنجيلي أو سعى إلى الإيمان بجدِّية، يمرُّ في مراحلَ تصاعديَّةٍ ثلاث:

١. مرحلة المبتدئين، وهم السائرون في طريق التطهُّر، وهي مرحلةٌ إعداديّة بالزهد والتقشّف لتأهيل الإنسان للاتحاد بالله. وتتميَّزُ هذه المرحلة بالجهد الذاتي الفاعِل والتأمّل بالاستدلال العقلي والتفكير.

٢. مرحلة المتدرِّجين أو المتقدِّمين وهم السائرون في طريق الاستنارة. لقد قطعوا شوطًا، وبدأ الربُّ يُسبغ عليهم مننًا ساميةً وأنوارًا بها يعرفون اللهَ وذواتِهم معرفةً اختبارية؛ نذكُرُ من المنن تأمّل السكينة وتأمّل الاتحاد والانخطافات.

٣. مرحلة الكاملين أو الآخِرين وهم السائرون في طريق الاتحاد. ينعمون باختبار الاتحاد بالله وقد يدوم لحظاتٍ، أو ساعاتٍ، أو أكثر، وفق نموِّ المتصوِّف الروحي. وفي هذه الحالة تبقى النفسُ منفعلةً بعمَلِ الله لا فاعِلة.

ومعروفٌ ان القديسة تريزا بلغت اسمى درجات التصوّف هذه.

ج) قيمة الكتاب الصوفية

إن افتقارَ كتاب **السيرة** الى المنهج العلمي في التأليف لا ينال من قيمة الكتاب ، بل إن اعتمادَ الكاتبة أُسلوبَ الرواية والوصف لا التحليل النظري يجعل الكتابَ صورةً عن الواقِع الذي عاشَتْه تريزا وحاولت وصفَه بدقَّةٍ وصدقٍ وشمول ، فيُصبحُ وثيقةً تاريخيَّةً نفسيَّةً من الطراز الأول.

١. نجد في كتاب السيرة **روايةً لاختبارٍ** صوفيٍّ أصيل ، فنرافق تدرُّجَ النفس في هذا الاختبار السامي ، ونُحِسُّ في أعماقِنا هذا الصراعَ الباطني الذي ينتهي بانتصار نعمةِ الله على تردّد الإنسان وبؤسِه.

٢. ونجد كذلك **وصفًا شاملاً** ، **دقيقًا** ، **مفصَّلاً** للأحوال التي تتقلَّبُ فيها النفسُ وقواها. فهناك:

- تأمّل السكينة وتأمّل الاتحاد (**سيرة ١٥**–١٨)
- والانخطافات (**سيرة ١٨**، ١٠)
- والكلمات الباطنية (**سيرة ٢٤**، ٥)
- والرؤى الخيالية والذهنية للمسيح (**سيرة ٢٧**–٢٩؛ ٣٩)
- والاندفاعات القويّة في الإرادة (**سيرة ٢٠**)
- والعناء والآلام لاحتجاب الله (**سيرة ٢٠** – ٢١)
- وطيران الروح والارتفاع عن الأرض (**سيرة ١٨**؛ ٦–٢٠؛ ٢٤)
- والجراح الصوفية (طعنة الكاروبيم، (**سيرة ٢٩**، ١٣)
- والنبؤات ومعرفة المستقبل (**سيرة ٢٦**، ٢–٣؛ ٢٧. ١٩؛ ٤٠).

٣. ولا تكتفي تريزا بوصف هذه المنن السامية ، بل تحاول جاهدةً فهمَ ماهيَّتِها وإفهامَها واستجلاءَ مسبّباتِها ومراقبةَ ظهورِها . وبسط مفاعيلها الجسميَّة والنفسيَّة والروحية. فوضعت بعملِها هذا مقاييسَ

عمليَّةً لتمييز الأرواح واكتشافِ الظواهِرِ المزيَّفة ، والتنبُّهِ الى العوارض المَرَضِيَّة في الحياة الروحية.

٤. والقديسة تريزا قبل كلِّ شيء «معلِّمةُ تأمّل» كما يصفُها بيوس العاشر ، وهي تَقيس درجاتِ الحياة الروحية بمقياس درجاتِ التأمّل. وقد بلورتْ اختبارَها الشخصي الذي تحلِّله بنفاذِ بصيرة ، ولم تتردَّد في تقديمه كنموذجٍ كليٍّ في نظامٍ متكاملٍ عِبر تشبيهٍ زراعي يقومُ على رفعِ الماء من البئر وطرائقِ الريّ (الفصول ١١ - ٢٢) :

- الطريقة الأولى : يُرفع الماءُ الأول بعناءٍ بواسطة الدلو ويقابله التأملُ الاستدلالي.
- الطريقة الثانية : يُرفع ماءٌ أغزرُ بالناعورة وبعناءٍ أقل ، يقابِله تأمّلُ السكينة.
- الطريقة الثالثة : يُرفع الماء بالقنوات ، يقابله تأمّل يتميّز بـ«سُبَاتِ القوى».
- الطريقة الرابعة : يهطل مطرُ السماء بغزارةٍ يقابله تأمّل الاتحاد والتطلّع [٨].

٥. في هذه المحاولة التنظيمية تظهر تريزا الآڤيلية معلمةً من طرازٍ خاص ولو لم يُطلَبْ إليها أن تعلِّمَ وتخوضَ في مواضيعَ مجرّدة ؛ وهي نفسُها تقرّ بأنها لا تُحسِنُ الكتابةَ أي التأليف (**سيرة** ١٨ ، ٨) ، وعلى جهلٍ بالاصطلاحات (سيرة ١٨ . ٢) وبالتعابير الدقيقة (١١ ، ٥) ولم تحصِّل علمًا (١١ ، ٥) وانها جاهلة ، وعقلها بليد (**سيرة** ١٨ ، ٦)

٨. وفي كتابها الآخر **المنازل** ستضع نظامًا آخرَ للتدرُّج في التأمّل وطريق الكمال ، يَعتمدُ سبعَ منازل للبلوغ الى منزلة الملك أو مقرِّه في وسط القصر الباطني أي في عمقِ أعماق النفس.

لكنَّها متيقِّنة من أنَّها بلغتْ درجةً من المعرفة لا ريب في صوابها وذلك بالاختبار (**سيرة** ٢٧ ، ١١) وهي مدينةٌ بذلك للربّ الذي هو خير معلّم ، والذي بدونه ما كانت لتفهمَ شيئًا.

لقد خَطَتْ في تعليمها الخطوات التالية :

- اكتشفتْ اختباراتِها الروحية
- حاولتْ فهمَها بجميع الوسائل المتوفِّرة
- حاولتْ إفهامَها لمعرِّفيها ومرشديها ومعلِّميها
- تضايقتْ من النظريّات فانطلقت من «حالِها» واكتشفت في نفسها عِلمًا لم تكتسبه بالدرس والتحصيل بل كان عطيةً من الله ساميةً. فانبرتْ تُحاجّ معارضيها وتجابِه المشكِّكين بصدقِ اختبارها.

وجاء تعليمُ تريزا واقعيًّا ينطلق من معاناةٍ ذاتية ، ويتقرّب الى كلِّ انسانٍ لينقلَه من البؤسِ الروحي إلى واقع الحرية الروحية والانقياد الواعي لعمل الروح الفعّال.

وهذا التعليم يتَّخذ شكل نداءٍ ملحّ تطلقه هذه الأم الغيور ، تحثُّ فيه القارئ على الإسراع في ولوج بابِ التأمّل لأنه «بابٌ ملوكيٌّ» نكتشف من خلالِه أسرارَ الله ، ونختبر حكمتَه ، ونتذوَّق سعادتَه ، ونرِثُ مجدَه.

٣ - ٦. موضوعات الكتاب

إنّ الموضوعات التي تتناولها القديسةُ تريزا في كتاب **السيرة** لا تنحصرُ فيه. فاللهُ ، والمسيحُ الانسان ، والعذراءُ ، والقربانُ ، والنعمُ ، والسماءُ ، وجهنَّم... وإن كانت تمثّل ثوابتَ في الكتاب فليست مقصورةً عليه. فالقديسة تعود إليها في مؤلَّفاتها كلِّها لكون مؤلَّفاتها انعكاسًا أمينًا لاختباراتها

وتعبيرًا حيًّا عنها. وسنكتفي بالاجمال والإشارة[٩] إلى أبرز الموضوعات التي تشكِّل حلقاتٍ أساسيةً في تأثيرِها على مجرى الروحانيَّة التريزيّة وطابَعِها المميَّز، والتي تساعدنا على فهم كتاب **السيرة**.

١. يشكِّل **التأمّل** «Oración» [١٠]، أو الصلاة العقلية «Oración mental» [١١] في تعليم تريزا، الأصلَ ومحورَ الحياة الروحيَّة كما يمثِّل جوهرَ هذا الكتاب. فحديثُها الطويل عنه (الفصول ١١ – ٢٢ و٢٥ – ٣٠) أساسيٌّ لأنه «الصفةُ التي تعرِّف الكتاب إذ هو الصفة التي تعرِّف حياةَ القديسة نفسها؛ وكتابُها ليس إلَّا سيرةَ ذاتِها الروحية»[١٢].

والتأمّل عندها «ليس مجرّد ممارسةٍ تقوم بها الروح، أو وسيلةً للكمال الشخصي، أو مولّد غبطةٍ ذاتيّة، بل إنه البحثُ الدائب عن إلهٍ نُريد الاتحادَ به لنعطيَه للآخرين، ونريدُ مخاطبتَه لنحدِّثَه عن الآخرين»[١٣].

---

٩. تناول «روحانية القديسة تريزا» بشكل عام Jésus CASTELLANO, في كتاب: *Introducción a la lectura de Santa Teresa*, Madrid, 1978, pp. 105-201.

١٠. راجع انطوان خاطر، «القديسة تريزا دافيلا «أم الروحانيين» ومعلّمة الصلاة»، في **المنارة**، ٢٣ (١٩٨٢)، العدد الثالث، ص ٤٣١ – ٤٣٨؛ والأب اسطفان طعمه، «رحلة تريز دافيلا مع الصلاة»، في مجلة «**نور وحياة**»، ٤٣ (١٩٨٣)، ص ٣٠.

١١. هذه الكلمة تقابل ما تدعوه القديسة تريزا بالاسبانية (Oración) «الصلاة» و (Oración mental) «الصلاة العقلية». وإبعادًا للالتباس اكتفينا بكلمةٍ واحدةٍ للعبارتين هي التأمّل لأن المقصود واحد. واستعملنا كلمة «تأمّل» لأنها «المعروفة» في الكتب الروحية. ولا نعني بالتأمل. طريقةً في ممارسة التأمّل تُسمّى في الفرنسية (Méditation) أوفي الإسبانية (Meditación)، وقد تكوِّن الجزء التفكيري أو الاستدلال العقلي في التأمّل.

١٢. Enrique LLÁMAS، المرجع المذكور، ص ٢٢٤.

١٣. P. SEROUET، المرجع المذكور، ص ١٨ ج.

والتأمّل في تعريفها إيّاه «هو الحديثُ مع الله»، وقد كان البابَ الذي ولجتْ منه لتصلَ الى الألفةِ الحميمة معه. والسُلَّم الذي بلغتْ به إلى أسمى درجات التطلّع والاتحاد بالله، والسبيلَ الذي اكتشفت بواسطتِه أسرارَ حبِّ الله ونعمتِه، والاستعدادَ الأمثلَ لتلقِّيها مِننَ الربّ. وقوَّتَها في الصعوبات والشدائد بين الناس وفي معاركها ضدّ الشيطان. «هو كلّ شيء في الكتاب لأنه كان كلّ شيء في حياتها» (سيرة ٨).

التأمّل أساسٌ متينٌ للرسوخ في الفضيلة ووسيلةٌ لمعرفة الطريق الى السماء. والخلاصة أن التأمّل يشكّل نقطةَ الدائرة في روحانيتها؛ فهي تتناولُ طبيعتَه، وموضوعَه، وصِيَغَه، والصعوباتِ التي تعترض من يمارسُه، ومنهجيَّته ودرجاتِه؛ وتقدِّم نصائحَ، وتحذِّر من المبالغات زيادةً أو نقصانًا، وتحثّ وتردَعُ؛ وهي في كلّ هذه المواقف تنطلق من ذاتِها ومن اختباراتِها.

يقول الكاردينال بَلِّيستريرو: «قصة تريزا كلّها هي اكتشافُها ان الصلاة يمكنها أن توحِّد الحياة، وأن تعطيها استمرارًا وانسجامًا، وأن تنقلها من الأعماق الى آفاقٍ أرحب يومًا بعد يوم في تواؤمٍ مثالٍ أعلى وحدسٍ عميق» (١٤)

لا بدّ هنا من إيضاح كلمةٍ وردت وستَرِدُ في الكتاب وهي كلمة «تطلّع» وتوازي كلمة «Contemplación»؛ فالكلمة الاسبانية تعني هدف التأمّل النهائي وهي حالة ترتقي فيها النفس من المعرفة العقلية الى أن تغمر الله بنظرةٍ وديّةٍ هادئة، وتمكث هناك في سلامٍ عظيمٍ عُرضةً للأشعّة

---

١٤. Ballestrero, Anast., «Santa Teresa di Gesù nella spiritualità contemporanea», in *Teresa d'Avila, una donna di Dio per il mondo di oggi*, Ed. Dehoniane, Napoli, 1982, p. 13.

الإلهية. هذا المضمون لا نجده في كلمة «مشاهدة» الشائعة في الكتب الروحية، كما لا نجد هذا المعنى في كلمة «تبصُّر»[١٥]، بل في كلمة «تطلّع» من «تَطَلَّعَهُ أي نَظَرَ الى طَلعَتِه نِظرةَ حبٍّ، وطَلعةُ الرجل ما بان منه»[١٦]. فيكون التطلّع النظرَ بشغفٍ وحبٍّ، وهو المعنى الحصري الذي يعطيه القديسان يوحنا الصليبي[١٧] وتريزا الآفيلية لأعلى درجات التأمّل[١٨].

٢. **والله** الخالقُ كلِّي القدرة، وهذه الصفة تُجْمِل عظائمَه كلَّها، وقدرتُه تُحِسُّها النفس، وتجعلُ سهلاً ومرغوبًا فيه كلَّ ما يبدو مستحيلاً. كلُّ شيءٍ عطيَّةٌ منه وجودُه أعظمُ من الشرور جميعِها. والله على جلالِه وسموه قريبٌ منَّا، موجودٌ معنا، ويفهَمُنا وهو أمينٌ جدًّا فلا يُرخي بنا الأيدي. وكلامُ الله والأعمالُ واحد. وهو موجودٌ في الخلائِق وفاعلٌ فيها.

٣. وتَعرُضُ **لناسوتِ المسيح** ودورِه في التقدُّم في التأمُّل مدافِعةً عن الاستعانةِ بصورةِ الناسوت خِلافًا لبعض المؤلِّفين الذين «يَحثُّون على إبعاد كلِّ صورةٍ جسميَّةٍ، ولو كانت صورةَ ناسوتِ المسيح»، لأنَّها تُعيقُ المتقدِّمين أو تمنعهُم عن الوصول إلى أكمل حالاتِ التطلُّع» (سيرة

---

١٥. **معجم اللاهوت الكاثوليكي**، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٥، ص ٦٦.

١٦. **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨، حرف العين، ص ٢٣٦.

١٧. يقول القديس يوحنا الصليبي في كتاب **شعلة الحب المتّقدة**: «فالله عندما يجد نفسا طيّعة يروح بكل هدوء وصمت يملؤها بالحكمة والمعرفة الواجدة، من دون أن يصدر عنها أعمال نوعيةٍ إلّا في ما ندر ولفترة ما. وهكذا يبقى على النفس أن تسير نحو الله باهتمام واجدٍ بسيط فلا تحدِّد نوع أفعالها، وان تسلّم أمرها كليًا لله فلا تقوم من جهتها بأي سعي، بل ترنو إليه بنظرة حب بسيط جدًا كمن يفتح عينيه بنظرة حب» (شعلة ٣، ٣٣).

١٨. ملاحظة الأب اسطفان طعمة.

٢٢ ، ١). وترى في صورة المسيح حافزًا يساعدُ على الارتقاء في الأفكارِ والتأمُّل، دون أن «تُناقِضَ هؤلاءِ الكتَّاب» «لأن اللهَ يقودُ النفوسَ في دروبٍ وطرقٍ مختلفة» (**سيرة** ٢٢ ، ٢). واستنادًا الى اختباراتها فقد كانت هذه الطريقةُ ذاتَ فائدةٍ جلَّى لها.

٤. وتُحسُّ **حضور المسيح** في الافخارستيّا «خصوصًا بعد التناول». نعرف أنه فينا ويكون «سيدًا لذلك المسكِن» الذي هو النفسُ، حتى إنّ النفسَ المتعبِّدةَ «تخال ذاتَها تذوب في المسيح» (**سيرة** ٢٨ ، ٨).

٥. وتتناولُ **الفضيلة** فتنبِّهُ الى أنَّ الشيطانَ يستغلُّها أحيانًا ليسهِّلَ، بالإغراءِ، الشرّ الذي يقصُد. وعليه يجبُ أن نخافَ حتى نُصبحَ راسخين فيها وعندئذٍ تكونُ أسبابُ الخطيئةِ ضعيفةَ التأثير (**سيرة** ١٣ ، ٩ ؛ ١٩ ، ١٤ — ١٥ ... ؛ ١٩ ، ٣ ...).

أما **العبادة فلا تقوم** على إتقانِ عباداتٍ ولا على مطالعةِ الكتب التقويَّة بل تكون بعدمِ إهانة الله، وبمحبَّتِه وبمطابقةِ إرادتِنا على إرادتِه، والاستعدادِ لعملِ كلِّ خير. «وقانا الله من العبادات البلهاء» (**سيرة** ١٣ ، ٦).

٦. **والكتاب المقدَّس** منطلَقٌ أساسيٌّ لروحانيتها. ففيه توجدُ حقيقةُ الروحِ الصالح، ومعرفته تُفيدُ فائدةً جلَّى للكمال؛ «فالشرُّ الكبيرُ الذي يصيبُ العالمَ ناجمٌ عن كونِه لا يعرِفُ حقائقَ **الكتاب المقدّس** معرفةً حقًّا» (**سيرة** ٤٠ ، ١). وعليه فهي حريصةٌ على أن يكونَ كلُّ ما تقولُه مطابقًا **للكتاب**، كما أنَّها على استعدادٍ لأن تموتَ ألفَ ميتةٍ في سبيل أيِّ حقيقةٍ من حقائقِه (**سيرة** ٣٢ ، ١٧ ؛ ٣٣ ، ٥).

٧. والى جانب **الكتاب المقدس** تضعُ تعليمَ الكنيسة كمنارةٍ

وضمانةٍ لها على صحَّةِ ما تعرف وتختبر. فالنفسُ المؤمنةُ إيمانًا قويًّا «تسعى دائمًا لأن تسيرَ وفقَ تعليمِ الكنيسة، فتسألُ هذا وتستفسر ذاك، فتكون راسخةً بقوَّةٍ في الحقائق، بحيثُ إنَّ الايحاءاتِ التي قد تخطُرُ لها، مهما كثرت، ولو رأت السماءَ مفتوحةً، لا تزيحُها قَيْدَ أُنملةٍ عن تعليمِ الكنيسة». فالاتِّفاق مع تعليمِ الكنيسة وتَوافقُ النعمةِ التي تَدَّعي، مع **الكتاب المقدس**، ضمانةٌ لصحَّةِ العقيدة (**سيرة ٢٥، ١٢ – ١٣**).

وهي على يقينِها من أَنَّ الرؤى والإنخطافات التي نعمتْ بها كانت حقيقيَّةً وأنَّها من الله، حرصتْ دائمًا على معرفة رأيِ ذوي العلمِ والخبرة سعيًا منها، ليس لطمأنةِ نفسِها فحسب، بل لإزالة أيِّ سببٍ لِعَثْرة. والقواعدُ التي وضعتْها كمعاييرَ لصحَّةِ الرأي، وللتأكُّدِ من المصدرِ الإلهي لتلك الرؤى، أكَّدها لها غيرُ واحدٍ من اللاّهوتيين وخصوصًا المعلم دي آفيلا[١٩].

وعليه حُقَّ لها أن تُطلِقَ قولَها، وروحُها على وشك أن تفيض: «وأخيرًا أموت بنتًا للكنيسة».

وتجنُّبًا للإطالة نكتفي بالقول إنَّ خيرَ وسيلةٍ للتعرُّفِ إلى روحِ تريزا، وفكرِها، وتعليمِها، هو الاتِّصالُ المباشرُ بينابيع روحانيَّتِها الفائضة مِن أعماقِ ذاتِها وقد غمرتْها أنعامُ الربِّ، بمطالعةٍ واعيةٍ لآثارِها، وفي الطليعةِ باكورتِها هذه أي كتاب **السيرة** أو كتاب **مراحم الله**.

---

١٩. في رسالته الجوابية بعد أن فحصَ كتاب **السيرة**، يقول موجزًا: «وما دامَ الكلام مطابقًا للكتاب الإلهي ولاعتقادِ الكنيسة وتعليمِها فإن الكلامَ المثبتَ في الكتاب هو من الله».

تريزا ومسيحي اليوم

يصحُّ أن يتساءل المرء :

وهل مِن رسالةٍ يُمكِنُ أن تبلِّغَها تريزا الى القارئ المسيحي العصري والشقَّةُ الزمنيَّةُ الفاصلةُ بينَه وبينها تجاوزت أربعةَ قرونٍ مع ما انطوتْ عليه من تقدُّمٍ علميٍّ ، وانقلابِ مقاييس ؟

الواقع أنّه في خضمٍّ الأدبِ الروحيِّ المعاصر ، مع تقلُّباتِ الزَخمِ الروحي لدى المسيحيين بين انخفاضٍ ، وهدوءٍ ، واندفاعٍ أحيانًا ، ما تزالُ مؤلّفاتُ القديسة تريزا تحتلُّ مكانةً لا بأسَ بها ؛ فقد وُضِعَت ترجماتٌ حديثةٌ ، ونُشِرَت آثارُها بالاسبانية في طبعاتٍ عدَّةٍ ، وظهرتْ أبحاث أَلقت أضواءً جديدةً على تفاصيلَ في حياتِها وتوجُّهاتٍ في تعليمها . ولا يعودُ هذا الى إعلانِها معلّمةً للكنيسة فحسب ، بحيث تَظهَرُ الرابطةُ بين حادِثَين ، بل إنّ الأسبابَ كامنةٌ في بعدٍ أعمق يتَّسِم بتجاوبٍ حياتيٍّ بين إنسانِ العصر ، والمسيحي بنوعٍ خاص ، وبين القدّيسة . وسرُّ هذا التوافُقِ يرتَكِزُ على ميزتَين خاصَّتَين بالرسالة التريزية : فهي تروي اختبارًا ذا طابعٍ إنساني عميق ، واختبارُها ذو بعدٍ مسيحيٍّ أصيل .

فعبر اختبارِها الإنساني تَقْرُبُ من القارئ أكثرَ من اقتراب أيّ كاتب عاديّ ، لأن اختبارَها أكثرُ أصالةً وعمقًا ، وهو بشفافيَّته عارٍ من الضبابيَّات المبتذَلة ، بعيدٌ عن عبوديَّة المخيَّلَة ، ويمثِّل « شهادةً شخصيَّةً نابعةً من أعماقِ ذاتِها وليس من محيطِها ، وهو تعبيرٌ عن حياةٍ ملتزِمة كلَّ الالتزام بما ترويه » .

واختبارُها ذو جوهرٍ مسيحيٍّ « فتتوافقُ تريزا معنا ، انطلاقًا من أسس الايمان نفسِها ، في وجودِنا المسيحي المتشابِك ، وتخاطِبُنا عن الحقائقِ

نفسِها : الله – المسيح – النعمة – الصلاة – الصليب – المحبة... تريزا امرأةٌ ومسيحيةٌ ، دمجَتْ في اختبارٍ عميقٍ إيمانَها وحياتَها ، فهي تحاوِرُنا على صعيدِ الايمان والحياةِ المسيحية نفسِها»[٢٠] .

يقول ترومن ديكِن ، الكاتبُ الانكليكاني ، في كتابه عن تريزا الأڤيليَّة : «إن المعضِلَة الراعوية الأشدَّ إلحاحًا في يومِنا هذا ، هي تعليمُ المسيحيين الصلاة»[٢١] . ومن لهذه المُعضِلَة سوى تريزا ، محترفةِ الصلاة؟

إنها بحياتِها وصلاتِها وكُتُبِها دليلُ المصلّي . وأيُّ دليلٍ آمَنُ ممَّن خَبَرَ معارجَ الطريق وتجاوزَ مزالِقَها وبلغَ نهايتَها؟ تريزا ، وهي من القلائل الذين بلغوا قِمَّة الاختبار الصوفي ، بوسعِها أن تكونَ ذاك الدليل .

وما تزال العلاماتُ التي خبَرَتْها لتمييزِ الأرواح واستجلاءِ معالمِ المسيرة الروحية صالحةً لأن تكونَ مقاييسَ عَمليَّةً يعتمدها من انجذبَ بحبِّ الله ، ومحاذيرَ تَقِيه شرَّ الانحرافِ والانجرافِ في الأنانية .

وكما كانت تريزا أمًّا لراهباتٍ عَكَفْنَ على ممارسة التأمل فغذَّتْهُنَّ بتوجيهاتها الحكيمة وبعِلمها النيِّر ، فهكذا سَيُسَرُّ بتعليمها من جاعَ الى بِرِ الله والتمَسَ لنفسِه غذاءً روحيًّا يسدُّ به جوعَه ويصلُبُ به عودُه .

لقد عاشت في عصرٍ كثرَ فيه التكالبُ على ذهب العالم الجديد ، وانتشرت المذاهب الروحية المختلفة فاجتاحت الكنيسةَ عاصفةٌ هدّامةٌ هزّت أسسَها وصَدَّعت وحدتها ، وتفشّت في النفوس روحُ الشكّ والكبرياء ، واعترى الرهبانياتِ موجةُ فتورٍ وانحطاط ، فاذا بتريزا ، المرأة

٢٠. خيسوس كستيليانو Jesús CASTELLANO ، المرجع المذكور ، ص ١١٠ .

٢١. أخذ عن اسطفان طعمه في «رحلة تريزا مع الصلاة» في مجلة **نور وحياة** ، ٤٣ (١٩٨٣) ، ص ٣٣ .

الواقعيّة المتجرّدة ، الباحثة عن جوهرةِ الله الثمينة ، تختارُ النصيب الأفضل فتضعُ اللهَ في المقام الأول من حياتها ، ضمانةً لتقديس الذات وتقديس الآخرين .

وبلغت تريزا هَدَفَها الأقصى وحقَّقت رسالتَها في الكنيسة بشهادتِها على استمرار سرّ التجسد في الكنيسة وفي النفس ، وعلى فعاليَّةِ هذا السرّ في تحويل الانسان من خليقةٍ ضعيفةٍ الى ابنٍ لله يشارك الخالقَ في السعادة والمجد .

واذا «بأمٍّ الروحانيين» تصبح إحدى منائر الكنيسة المشعَّة وتصيرُ معلّمةً ومعزّيةً في الصعوبات ، «وشاهدًا على الفرحِ المسيحي» كما جاء في إرشاد بولس السادس «إفرحوا بالربّ» .

أ . خ . وش . ر .

المصادر والمراجع *

أولا : أشهر الطبعات للأعمال الكاملة للقديسة

١. *Los libros de la Madre Teresa de Jesús, fundadora de los monasterios de monjas y frayles Carmelitas descalços de la primera regla.* En Salamanca, por Guillelmo Foquel, 1588.

وهي الطبعة الأولى « الكاملة » التي أشرف عليها الأب لويس دي ليون الأغسطيني وأشرنا إليها في المقدمة.

لكن وصف **الأعمال** بـ « **الكاملة** » هو نسبي. فقد تضمّنت الطبعة، في جزئين، كتاب **السيرة**، و**التقارير**، و**طريق الكمال**، و**تنبيهات**، و**القصر الداخلي**، و**النجاوى**.

٢. *Obras de Santa Teresa de Jesús*, editadas y anotadas por el R.P. Silverio de Santa Teresa, O.C.D. Burgos, Tip. «El Monte Carmelo», 1915-1924, 9 vols.

---

* اعتمدنا للمصادر والمراجع مقياسًا انتقائيًّا. فبالنسبة الى الطبعات بالاسبانية، اكتفينا بذكر الطبعة الأولى وأخذنا بعين الاعتبار الطبعات الأكثر رواجًا الى جانب دقّتها العلميّة وحداثتها. أما الترجمات، فاكتفينا بذكر الأكثر حداثةً والأقرب منالاً.

وأما الدراسات، أكانت تلك التي تتناول **السيرة** أو فكرَ القديسة وتعليمَها، فقد أثبتنا منها الأهمّ. وانطلقنا من سنة ١٩٦٠ الى يومنا، واقتصرنا على الكتب دون المقالات والأبحاث في المجلات والدوريّات، على أهمِّية هذه المقالات والأبحاث، معتبرين أنّ هذا يفي بالغرض من طبعتنا هذه.

وهذه الطبعة تُعتبَر أصلاً لا غنى للباحث المتخصِّص عن العودة إليه. ويُعتبَر الأب سيلڤيريو، ناشرُها، حجَّةً في الدراسات التريزية.

٣. SANTA TERESA DE JESÚS, *Obras completas,* Nueva revisión del texto original con notas criticas. Biblioteca de Autores Cristianos.

في ثلاثة أجزاء في منشورات (مكتبة المؤلّفين المسيحيين) المعروفة بـ BAC (مدريد).

– **الجزء الأول**، سنة ١٩٥١، رقم ٧٤، أعدَّ طبعتَه وأشرفَ عليها الأبوان EFRÉN DE LA MADRE DE DIÓS, O.C.D. y OTÍLIO DEL NIÑO JESÚS, O.C.D.

ويتضمّن سيرة القديسة في عصرها، وكتاب **السيرة** للقديسة.

– **الجزء الثاني**، سنة ١٩٥٤، رقم ١٢٠، أعدّ طبعته الأب EFRÉN DE LA MADRE DE DIÓS, O.C.D.

ويتضمّن: **طريق الكمال**؛ **المنازل** أو **القصر الداخلي**؛ **حسابات الضمير (تقارير)**؛ **ملاحظات**؛ **خواطر في حبّ الله**؛ **نجاوى**؛ كتاب **التأسيسات**؛ **القانون**؛ **زيارة الكرمليات الحافيات**؛ **تنبيهات**؛ **تحدٍّ روحي**؛ **تكدير**؛ **قصائد**؛ **نظام أخوية**.

– **الجزء الثالث**، سنة ١٩٥٩، رقم ١٨٩، أعد طبعته الأبوان EFRÉN y OTGER STEGGINK, O. Carm.

ويشتمل على: مقدّمة عامة؛ **الرسائل**؛ **تذكارات**؛ **رسائل مستلمة**؛ **أقوال**.

٤. وأعاد الأبوان EFRÉN و OTGER طبعة **الأعمال الكاملة** في جزء واحد، وفي «المكتبة» نفسها تحت الرقم ٢١٢، ابتداءً من سنة ١٩٦٢. والطبعة الأحدث التي في حوزتنا والتي عُدنا إليها للمقارنة هي السابعة، الصادرة سنة ١٩٨٢.

٥. TERESA DE JESÚS, *Obras Completas*. Texto revisado y anotado por Fr. TOMÁS DE LA CRUZ,. C.D., 3a edición. Editorial «Monte Carmelo», Burgos, 1982.

الطبعة في جزئين: يشتمل الأول منهما على **الأعمال والمؤلّفات الصغرى**، ويضم الثاني **الرسائل**. والأب توماس يستند في طبعته الى المقاييس التي اعتمدها الأب

سيلڤيريو الذي وضع ما يمكن اعتباره «أصلاً»، وهي الطبعة التي اعتمدنا عليها لترجمتنا مع مقارنتها بنصّ الطبعة التي تحدثنا عنها في الرقم ٤. أما الاختلاف بينهما فيقوم على ثلاثة أمور عرضية:

١) يعتمد الأب توماس الكتابة الإملائية الحديثة فيما الطبعة السابقة تبقي النص على لغته الأصلية.
٢) هناك بعض الاختلاف في ترقيم المقاطع في الفصول. فالأب توماس يتبنّى ترقيم الأب سيلڤيريو.
٣) تقطيع الجمل يختلف أحيانًا، باعتبار أن القديسة ما كانت تعتمد علامات الوقف من فواصل وقواطع وغيرها.

ثانيًا: ترجمات

1. S. TERESA DI GESÙ. *Opere,* Postulazione Generale O.C.D., 7ª ed., Roma, 1981. Trad. dal P. Egidio di Gesù, O.C.D.
2. THÉRÈSE D'AVILA, *Œuvres complètes,* trad. par Marcelle Auclair (Paris, Desclée de Brouver, 1974).
3. S. THÉRÈSE DE JÉSUS, *Œuvres complètes,* Ed. du Seuil, Paris, 1980, trad. du Père Gregoire, O.C.D.
4. S. THÉRÈSE D'AVILA, *Œuvres complètes,* 4 vol., Les Éditions du Cerf, Paris, 1982, traduction des Carmélites de Clamart.

تريزا الآڤيلية. **المؤلّفات الكاملة** ٢: **المنازل**. ترجمة انطوان خاطر بيروت ١٩٩١.

ثالثًا: دراسات تتناول سيرة القديسة

– ALVAREZ, Tomás, «Santa Teresa de Jesús contemplativa», in *Ephemerides Carmeliticae,* 13 (1962), 9-62.

نشير إلى هذا المقال استثنائيًا باعتباره فتحَ آفاقًا جديدةً في تفسير روحانية القديسة تريزا وتعليمها وقلبِ مفاهيم متداولة.

– AUCLAIR, Marcelle, *La vie de Sainte Thérèse d'Avila. La dame errante de Dieu,* Paris, Éd. du Seuil. Plusieurs éditions à partir de 1950...
– CRISÓGONO DE JESÚS SACRAMENTADO, O.C.D., *Vida de Santa Teresa,* 5ª ed. Madrid, Editorial Espiritualidad, 1963, trad. fr. par le P. Joseph Gicquel, O.C.D., 1981.

- EFRÉN DE LA MADRE DE DIÓS y STEGGINK, OTGER, *Tiempo y vida de Santa Teresa,* Madrid, La Editorial Catolica, 1968.
- JOBIT, Pierre, *Thérèse d'Avila,* Paris, Bloud et Gay, 1964.
- JORGE PARDO, Enrique, S.I., *Estudios Teresianos,* Comillas [Santander], España, Universidad Pontificia, 1965.
- MUÑOZ SANCHEZ, José-Maria, *Santa Teresa de Jesús: sintesis de su vida, sus patronazgos,* Avila, 1961.
- MURCIAUX, Christian, *Thérèse de Jésus,* Paris, Éditions France-Empire, 1968.
- SALVADOR DE LA VIRGEN DEL CARMEN, O.C.D., *Teresa de Jesús,* Vitoria, 1964-1968, 2 vol.

رابعًا : دراسات حول فكر القديسة

- AGAESSE, Paul et SALES, Michel, «Mystique», in *Dict. de Spiritualité,* t. X, col. 1980-1984.
- ALVAREZ DE CÁNOVAS, Josefina, *Psicopedagogia de Santa Teresa* (ensayo), Madrid, Ed. Studium, 1961.
- ALVAREZ, Tomás y CASTELLANO, Jesús, *Teresa de Jesús, enséñanos a orár,* Ed. Monte Carmelo, Burgos, 1981.
- BARRIENTOS, Alberto y Colabor., *Introducción a la lectura de Santa Teresa,* Madrid, Ed. de Espiritualidad, 1978.
- BERNARDO, Pablo de, *Santa Teresa. La oración y la contemplación,* Madrid, Ediciones Paulinas, 1977.
- CASTELLANO, Jesús, *Guiónes Teresianos.* Apuntes sobre la figura y doctrina espiritual de la primera doctora de la Iglesia, Valencia, 1970.
- CRISTINO, Garrido J., *Experiencia de la vida sobrenatural en la vida teresiana,* Burgos, El Monte Carmelo, 1969.
- DI RIENZO, Cirillo, *La direzione spirituale negli scritti di S. Teresa d'Avila,* Teresianum, Roma, 1965.
- DOMINIQUE DE SAINT-JOSEPH, O.C.D., *L'oraison; regard et chemin d'après la doctrine de Sainte Thérèse d'Avila,* Montréal-Paris, Fides, 1960.
- EFRÉN DE LA MADRE DE DIÓS, O.C.D., *Santa Teresa por dentro,* Madrid, Espiritualidad, 1975.
- ENRIQUE Y TARANCÓN, Vicente, *El magisterio de Santa Teresa,* Toledo, Editorial Catolica Toledana, 1970.
- GABRIEL DE SANTA MARIA MAGDALENA, O.C.D., *El camino de la oración; exposición y comentario de la obra «Camino de perfeción», de Santa Teresa de Jesús,* Burgos, Ed. El Monte Carmelo, 1965.

- García Ordas, Angel María, O.C.D., *La Persona divina en la espiritualidad de Santa Teresa,* Roma, Ed. Teresianum, 1967.
- Gonzalez Martin, Marcelo, *Santa Teresa de Jesús, madre y maestra de la Iglesia de hoy,* Barcelona, 1970.
- Guillet, Louis, O.C.D, *Ce que croyait Thérèse d'Avila,* Paris, Mame, 1972.
- Guillet, Louis, O.C.D., *L'eau vive: la prière d'après Thérèse d'Avila,* Tours, Maison Mame, 1971.
- Herraiz García, Maximiliano, *Solo Diós basta. Claves de la espiritualidad Teresiana,* Madrid, Ed. Espiritualidad, 1981.
- Lauzeral, Pierre, *Une femme, un maître: Thérèse d'Avila,* Apost. des Éditions, Paris, 1979.
- Léonard, Augustin, «Expérience spirituelle», in *Dict. de Spiritualité,* t. IV, col. 2004-2026.
- Martí, Jesùs, *Diccionario del Pensamiento de Sta Teresa de Jesús,* Valencia, Edicep, 1981.
- Moriónes, Ildefonso, *El Carisma teresiano, Estudio sobre los orígenes,* Roma, Ed. Teresianum, 1972. Trad. fr. , *Le charisme Thérésien,* par Joseph Gicquel, O.C.D., Ed. Teresianum, Roma, 1973.
- Pablo Maroto, Daniel de, *Dinámica de la oración. Acercamiento del orante moderno a Santa Teresa de Jesús,* Espiritualidad, Madrid, 1973.
- Panakal, Justine, *The Theology of private revelations according to the Teresian school,* Roma, Università Lateranense, 1966.
- Range, S., *An introduction to the writing of Saint Teresa,* Chicago, 1963.
- Renault, Emmanuel, O.C.D., *Sainte Thérèse d'Avila et l'expérience mystique,* Paris, Éd. du Seuil, 1970.
- Renault, Emmanuel, O.C.D., *Thérèse d'Avila, aux sources d'eau vive,* Paris, Éd. du Cerf, 1978.
- Ricard, Robert et Pélisson, Nicole, *Études sur Sainte Thérèse,* Paris, Institut d'Études Hispaniques, 1968.
- Rodríguez, Isaías, *Santa Teresa de Jesús en la espiritualidad española,* Madrid, C.I.S.C., 1972.
- Ruano, Argimiro, *Lógica y mística. La dimensión de la razón, notificando lo trascendente en Teresa de Avila,* Madrid, Artes Graficas Banzal, 1970.
- Steggink, Otger, O. Carm., *Experiencia y realismo en Santa Teresa y San Juán de la Cruz,* Madrid, Ed. Espiritualidad, 1974.

«تريز دافيلا» في مجلة «**نور وحياة**» **٤٣ (١٩٨٣)** (عدد خاص).
– أبونا، ألبير (الأب)، **الكرمل**، بغداد، ١٩٧٨.
– أبونا، ألبير (الأب)، **القديسة تريزة الكبيرة**، بغداد، ١٩٨٣.

كِتَابُ السِّيَرَةِ

(تمهيد)

غرض الكتاب

١. لقد تلقَّيتُ أمرًا ، وأُطلقتْ حرّيتي لأعرض ، كتابةً ، طريقتي في التأمّل والمنن التي خصَّني الله بها. ولَكَم ودِدتُ لو أُجيز لي كذلك أن أروي خطاياي الكبيرة ، وأقصَّ حياتي البائسة ، بتفصيلٍ ووضوح ! لكان الأمر يوفِّر لي تعزيةً كبرى. لكن أُولي الأمر لم يوافقوا على ذلك ، بل وضعوا لي قيودًا كثيرة. لذا أرجو مَن يُطالع قصَّة حياتي هذه أن يضع نصب عينيه ، حبًّا بالربّ ، أنّ حياتي كانت من السوء بحيث لم أجد لي عزاءً في أيٍّ من القدّيسين الذين تابوا الى الله. فقد رأيتُ أنَّهم انصرفوا عن إهانة الربّ بعدما دعاهم الى الهداية. أما أنا ، فما كنت أعود الى حالٍ أسوأ فحسب ، بل كأنّي كنت أجتهدُ لأقاوم المنن التي يمنحني إيّاها عزّ وجلّ. فكأنّي كنت أراني ملزمةً بأن أخدمه أكثر ، فأُدرك عجزي عن إيفائه ، بذاتي ، أقلَّ ما يتوجَّب عليّ نحوه.

٢. تبارك الله إلى الأبد لطول انتظاره إيّاي. فإليه أتوسّل بكل قلبي أن يؤتيني نعمةً لأكتب ، بكلٍّ وضوحٍ وصدق ، هذه الرواية التي أمرني بها معلِّمو اعترافي – وأعلم أنَّ الربّ نفسه يريدها منذ زمان ، غير أنّي لم أجرؤ على ذلك – ولتكون وسيلةً لتمجيده وتسبيحه ولإنارة مرشديّ فيُبادروا ، من الآن فصاعدًا ، إذ يكونون قد عرفوني معرفةً أفضل ، الى إعانة ضعفي لأقوم ببعض واجباتي تجاه الربّ. فلتسبِّح جميع الخلائق إسمه الى الأبد. آمين.

---

(١) الأحرف الأولى باللغة اللاتينية لعبارة تفسيرها «يسوع مخلص البشر»

الفصل الأول [١]

تروي كيف بدأ الربّ يوقظ هذه النفس، منذ طفولتها، على الفضيلة، وكيف ساعدها على ذلك كونُ والديها فاضلين.

مثل الوالدين

١. إن تحدُّري من أبوين فاضلين يخافان الله، مقرونًا بما كان يسبغه الربّ عليّ من نعم كان من شأنه أن يكفيني لجعلي صالحةً، لو لم أكن على قدرٍ كبير من الحقارة. كان أَبي يَهوى مطالعة الكتب الصالحة، وكان يقتني الكثير منها موضوعًا بالرومنسية[٢] كي يُتيح لأولاده أن يطالعوها. فإلى جانب اهتمام أمي الكبير بتعويدنا الصلاة والتعبُّد للسيّدة العذراء وبعض القدّيسين، أخذتْ هذه الكتب توقظ في نفسي

(١) كتبت تريزا صيغة اولى لسيرتها الذاتية سنة ١٥٦٢ بإيعاز من الاب إيبانييت الدومينيكاني ثم الأب غرثيًا دى توليدو. ثم أمرها المعرّفون وأحدُ المفتشين ان تعيد النظر في المخطوطة وتضيف اليها ما تراه مناسبًا لتعليم راهباتها طريق التأمل. فاعادت العمل في سنة ١٥٦٣ وانتهت منه في حزيران ١٥٦٥ في دير القديس يوسف في آفيلا. لكن النسخة الأولى فقدت، ولم يصل الينا سوى الثانية.

وافق أكبر لاهوتيٍّ ذاك العصر على هذه السيرة فعُرضت على محكمة التفتيش. وبعد أن مرّت المخطوطة عبر أيدي العديدين أودعت في مكتبة قصر الإسكوريال، ولمّا تزل محفوظةً هناك. وقد اعتمدنا في ترجمتنا نصَّ هذه المخطوطة الأصلية التي كُتبت بيد تريزا نفسها.

(٢) الرومنسية هي اللغة العاميّة الاسبانيّة آنذاك، القشتاليّة اليوم، تمييزًا لها عن اللاتينية التي كانت لغة العلم ومعظم الكتب الروحية.

روح التقوى وأنا ، على ما أذكر ، بين السادسة والسابعة من عمري . وكان يساعدني أنّي ما كنت أرى في والديّ إلاّ رغبةً في الفضيلة . لقد كانا يتحلّيان بفضائل كثيرة .

كان أبي كثيرَ المحبة للفقراء ، وافر العطف على المرضى بل وعلى الخدم ، وكان من عطفه هذا أن لم يستطعْ أحدٌ اقناعه باقتناء العبيد ، لشدّة ما كان يُشفق عليهم . صدف ان كانت في بيتنا عبدةُ أحدِ أشقّائه ، فدلّلها تدليلَه أولاده . وكان يقول إنّه ، عن شفقةٍ ، لا يطيق رؤيتها غير حرّة . كان صدوقًا ، فما سمعه أحدٌ يحلف قط ، أو يأتي نميمة . وكان مُستقيمًا ، بالغ الاستقامة .

فضائل أمّها

٢. كانت أمّي أيضًا تتحلّى بالعديد من الفضائل وقد أمضت حياتها تعاني أمراضًا شديدة . كانت رفيعة الحشمة . فعلى وفرةِ جمالِها لم يبدُر منها قطّ ما يُشيرُ إلى أنّها تأبه له . ومع أنّها ماتت في ربيعِها الثالث والثلاثين ، كانت ترتدي زيَّ النساءِ المتقدِّمات في السنّ . كانت لطيفةً جدًا وراجحًا عقلُها . قاست طوال حياتها كثيرًا من المحن ، وماتت ميتةً مسيحيةً مثالية .

طفلة مدلّلة

٣. كُنّا ثلاثَ شقيقاتٍ وتسعةَ أشقّاء . ولقد نسج جميعهم ، بنعمة الله ، على منوال والديهم في التحلّي بحسن الخصال ، باستثنائي أنا ، على كوني طفلةَ أبي المُدَلَّلة . وقبل أن أَبدأ بإغاظة الله ، أَظنُّه كان مُحِقًّا ، نوعًا ما ، في تدليلي . لذا آسَفُ عندما اتذكَّرُ الميول الصالحة التي حباني أيّاها الربّ وكم أسأتُ الافادةَ منها .

توقٌ الى الاستشهاد ومحاولة الهرب

٤. ولم يكن يبدر من إخوتي ما يَصرفني عن خدمة الله . كان أحدهم يَقْرُبني

في السنّ[٣] ، فكنت أجتمع وإيّاه لمطالعة سِيَر القديسين (وأخي هذا كنت أحفظ له مودّةً خاصة ، على حبّي إخوتي جميعًا حبًا كبيرًا ومبادلتهم إيّاي هذا الحب) . وإذ كنت أتأمّل العذابات التي كانت الشهيدات القدِّيسات يقاسينها ، كنت أرى أنّهنّ يَبتعن سعادة التمتّع بالله بثمنٍ يسير ، فأتمنّى أن أموت تلك الميتة ، ليس عن حبّي الله حبًّا واعيًا ، بل رغبةً في التنعّم بأسرع ما يكون ، بخيور السماء العظيمة التي كانت تحدِّثني عنها تلك الكتب . فكنّا نتداول ، أنا وأخي ، الوسيلةَ التي تُحقِّق لنا تلك الأُمنية . فاتّفقنا على الذهاب الى بلاد المَغاربة ونحن نستعطي لوجه الله ، حتى يقطعوا رأسنا . وإخالُ أنّ الربّ كان يمنحنا الجرأة على حداثتنا ، لو وجدْنا الى ذلك سبيلاً ؛ غير أنّنا كنّا نرى في الوالدين العائق الأكبر .

كان يَهولُنا قولُ تلك الكتب إن العذابِ والمجد يدومان أبدًا . ولطالما تداولْنا ، أنا وأخي ، هذا الموضوع ؛ وكان يطيب لنا أن نردِّد مراتٍ كثيرةً : إلى الأبد ، إلى الأبد ، إلى الأبد ! وعندما نفرغ من تكرار تلك العبارة مرّاتٍ عديدة كان الربّ يمنحني نعمةً تجعلني أفهم ، على حداثة سنّي ، دربَ الحقيقة .

تقليد النسّاك

٥. وإذ تبيَّنتُ استحالة الذهاب الى حيث أُقْتَلُ في سبيلِ الله ، قرّرنا التنسّك . فكنّا نعمل ، بما يتوفّر لنا ، على بناء صومعتين لنا في حديقة بيتنا ، فنرصف أحجارًا صغيرة بعضها فوق بعض ما تلبث أن تنهار . وهكذا ما كنّا نجد وسيلةً ما لتحقيق رغبتنا . وما زلتُ الى الآن أشعر بتأثّرٍ شديدٍ عندما أرى أنّ الله قد حباني ، في سنٍّ مبكرة ، نعمةً أَضَعْتُها بذَنْبي .

رغبة عابرة في الترهّب

٦. كنت أُحسِنُ الى المساكين ما استطعت الى الإحسان سبيلاً ؛ وكنت

(٣) رودريغو ، ذهب الى أميركا سنة ١٥٣٥ واستشهد في إحدى المعارك ١٥٣٧.

أستطيع القليل. كنت أَنشُد الوحدة لتلاوة صلواتي العديدة، لا سيّما مسبحة الورديّة، وكانت أمّي متعبِّدةً لها وتعمل على ترسيخها في قلوبنا. ولَكَم كان يحلو لي في فترات اللعب مع أترابي أن أُشيِّد أديارًا وكأنَّنا راهبات! وأَظنُّني كنت أرغب في أن أَترهَّب، إلّا أنَّ قوّة هذه الرغبة، كانت دون قوَّةِ ما ذكرتُ من رغبات.

إتّخاذ العذراء أمًّا

٧. أذكر أنّي حين تُوفِّيت والدتي، كنت في حوالي الثانية عشرة من عمري. وإذ بدأتُ أَعي فداحةَ الخسارة التي أصابتني، مضيتُ محزونةَ الصدر الى صورةٍ[٤] للسيدة العذراء وتوسَّلتُ إليها بدموعٍ غزيرة لتكون أمًّا لي؛ وأَعتقدُ أنّ طلبي، على البساطة التي صُغْته فيها، لَقِيَ لديها قَبولاً؛ فقد لقيتُ استجابةً لدى هذه العذراء السامية كلَّما توسَّلتُ إليها، حتّى جعلتْني، أخيرًا، في خاصّتها. أما الآن فيؤلمني أن أرى وأفكِّر في ما حالَ دون استمراري وفيَّةً بكلِّيَّتي للرغبات الصالحة التي بدأتُ بها.

شكر واستغفار

٨. فيا ربّ! إذْ كنتَ قد صمَّمْتَ، كما يبدو، على أن تخلِّصَني، (فلتتحقّق إرادة جلالتك!)، وعلى أن تَغمرَني بمننك كما فعلتَ، فلِمَ لمْ يَحسُن لديك، ليس لغُنْمٍ يعود عليّ بل إجلالاً لك، أن لا يلوِّث الرِجسُ مسكنًا كنتَ ستَحلّ فيه على الدوام؟ ويا ربّ! إنَّ مجرَّد ذكري هذا الأمر يُؤلمني! فأنا أعرف أنَّ الذَنْبَ كلّه ذَنْبي؛ فأنت لم تأْلُ جهدًا لتجعلني بكلِّيَّتي منذ هذه السنّ المبكرة، ملكًا لك. أمّا أن أَتشكّى من والديّ، فهذا محال؛ لأنني لم أكن أَلمس لديهما إلاّ كُلَّ صلاحٍ وكلّ اهتمامٍ بخيري.

وبعد أن تجاوزتُ هذه السنّ، أخذتُ أعي الهبات الطبيعية التي حباني إيّاها الربّ، وكانت وفيرةً، على ما كانوا يقولون. بيد أني، بدلاً من أن أَقضي حقَّ الشكر على أَنعامه تلك، رحتُ أستعين بها كلِّها لإهانته، كما سأروي في ما يلي.

(٤) كانت الصورة في الواقع تمثالاً لا يزال محفوظًا الى اليوم.

الفصل الثاني

تروي كيف أخذت تفقد تلك الفضائل شيئًا فشيئًا وتُبيِّن أهمية معاشرة الأطفال أشخاصًا فاضلين .

وَلَعُها بكتب الفروسية وأثره عليها

١. أظنّ أنّ ما سأرويه الآن أحدثَ لنفسي أذًى كبيرًا . أفكّر أحيانًا بفداحة الشرّ الذي يرتكبه الآباء حين لا يُعنون بأن يرى أولادُهم دائمًا أدلّةً على الفضائل المختلفة . ومع أنَّ والدتي كانت فاضلةً جدًا ، كما قلتُ سابقًا ، فما أخذتُ عنها من الصلاح ، حين بلغتُ سنَّ الرشد ، إلّا القليل ، بل كدتُ أن لا آخذَ شيئًا ؛ وما أخذتُه من شرٍّ آذاني كثيرًا . كانت تهوى مطالعة قصص الفروسية[1] ، لكنّها ما كانت تُسيء استخدام هذه التسلية كما فعلتُ أنا ، لأنّها ما كانت تقصِّر بواجباتها ؛ أمّا أنا وإخوتي ، فقد كانت مطالعة تلك القصص شغلنا الشاغل . ولعلّ أمّي كانت تفعل ذلك سلوانًا لشدائِدها الكبرى ولتشغل أولادها ، بتلك المطالعة ، فلا يكونون ضحيّة أخطارٍ أخرى . أما والدي فكانت تلك الكتب تكدِّره بحيث نَحرص على إخفائِها عنه .

أخذتْ عادة مطالعة تلك الكتب تتملّكني ، وبدأ ذلك الخطأ الطفيف الذي لاحَظتْه فيَّ والـدتي يُضعِف رغائبي الخيّرة حتى شرعتُ أتهاون في سائر الأمور . فما

(١) قصص خيالية تدور حول مغامرات عاطفية ، راجت في القرن السادس عشر.

كنتُ أرى ضَيرًا في قضاء ساعاتٍ طويلةً من النهار والليل في هذه الأُشغولة الباطلة، ولو خِفيةً عن أبي. وبلغ وَلعي بهذه المطالعات أنّني ما كنتُ أجدُني راضيةً إن لم تتوفّر لي قصّةٌ جديدةٌ من هذا النوع.

حبّها للتبرّج وعلاقتها بأبناء عمّها

٢. بدأتُ أتبرّج وأسعى لأُثير الإعجاب بمظهري، فأُعنى عنايةً كبرى بيديَّ وبشعري، وأهتمّ بالعطور وسائر التُرَّهات المتاحة لي، وكانت كثيرةً، لأنّني كنت كثيرة التأنّق. ما كنت أفعل ذلك عن سوء نيّةٍ لأنني ما كنتُ لأرضيَ أن يغيظ اللهَ أحدٌ بسببي. ولازَمني طوال سنواتٍ عديدةٍ ميلٌ شديدٌ الى الإفراط في النظافة، وأشياءُ أخرى لم أكن إخالُ فيها ظلَّ خطيئة. أمّا اليوم فإنّني أتبيّن كم كان ذلك قبيحًا.

كان لي أبناءُ عمٍّ عدّة، وكان أبي على جانبٍ من الحذر فما أجاز لغيرهم من الشبّان دخولَ بيته، وليتَه اتّخذ الموقف نفسه تجاههم، هم، أيضًا؛ فأنا أدركُ الآن مقدارَ الخطر الذي تتعرّض له النفوس في مرحلةٍ من العمر ينبغي أن تتعوّد فيها على الفضائل، إذا ما عاشرت أشخاصًا لا يعرفون بطلانَ العالم، بل بالأحرى يوقظون الآخرين للانزلاق فيه.

كان أبناءُ عمّي أترابًا لي، أو يكبرونني قليلاً. كنّا دائمًا معًا. وكانوا يحبّونني حبًّا كبيرًا؛ فكنتُ أُحادِثهم بكلِّ ما يَروق لهم، وأُصغي الى ما يروونه من هواياتهم وصبيانيّاتهم البعيدة عن الصلاح. وأسوأُ ما في الأمر أنَّ نفسي مالت الى ما صار سببَ ضَيرها كلِّه.

أثر العشرة الرديئة على حياتها

٣. لو قُيِّض لي أن أنصح الآباء، لنبَّهتُهم الى ضرورة الحذر من الأشخاص الذين يعاشرهم أولادُهم في هذه المرحلة من العمر، فإنّهم يتعرّضون الى خطرٍ كبيرٍ لأن طبيعتنا أشدُّ ميلاً الى الشرّ منها الى الخير. وهذا ما حصلَ لي. كان لي شقيقةٌ

تكبرُني بالسنِّ كثيرًا[٢]. وكانت طاهرة الذيل، فاضلةً جدًّا، فلم آخذ عنها شيئًا؛ بل أخذتُ الأذى كلَّه عن نسيبةٍ لنا كانت تتردَّد غالبًا على بيتنا. كانت نَزِقَةً جدًّا في تصرّفاتها فحاولتْ والدتي جهدَها لتُبعدها عن بيتنا، تنبُّهًا منها على ما يبدو، للأذى الذي قد يلحق بي من معاشرتها. إلاّ أنَّ محاولات والدتي فشلت لكثرة المناسبات التي كانت تُتاح لتلك النسيبة كي تزورنا.

هَويتُ معاشرة هذه النسيبة، وكنتُ أستسيغ محادثتها والحوار معها لأنَّها كانت تيسِّر لي كلَّ أنواع التسليات التي تروقني، بل وتدفعني إليها، وتُطلعُني على أحاديثها وسخافاتها.

حرصُ تريزا على كرامتها

أعتقد أنني الى حين عاشرتُها، وكان ذلك في سنّي الرابعة عشرة أو بعدها بقليل (أي حين توثّقت صداقتها لي وأطلعتْني على أمورها)، ما انفصلتُ عن الله بذَنْبٍ مُميتٍ ولا فقدتُ مخافة الله؛ ولو أنَّ خوفي على كرامتي كان أكبر، وهو الذي أمدَّني بقوَّةٍ حتى لا أخْسرها كليًّا؛ وأعتقد أنَّ لا شيء في الدنيا كان يمكنه أن يزعزعني في هذا المضمار، ولا أيّ حبٍّ بشريٍّ أن يُوهن عزيمتي. الاَ ليتني أُوتيتُ في الحفاظ على كرامة الله ما كان في طبيعتي من الشجاعة للحفاظ على ما كنتُ أعتبره كرامةً دُنيوية! ولم أكن أعي أنَّني أخسر هذه الكرامة بطرائق أخرى متعدِّدة!

إستياء أبيها من علاقتها

٤. كنت شغوفةً بالْتِماس هذه الكرامة، ولم أكن أعتمد أيَّة وسيلةٍ ضروريّة للمحافظة عليها؛ بَيْدَ أنّي كنتُ حريصةً كلَّ الحرص على ألاَّ أَضِلّ كلّيًّا.

كان أبي وشقيقتي مُستائيْن جدًّا من هذه الصداقة، وغالبًا ما وجّها إليَّ اللوم

(٢) هي دونا ماريا دي ثِيدا أختُها لأبيها من زواجه من كاتالينا دِلْ بيسو وهيناو، المولودة سنة ١٥٠٦.

عليها. ولأنهما كانا عاجزَين عن إزالة المناسبات لتردُّد تلك النسيبة علينا، كانت إجراءاتُهما تذهب أدراج الرياح؛ فقد كنت على كثيرٍ من البراعة في صنع السوء، مهما كان نوعه.

يَروعُني أحيانًا ما ينجم عن العشرة الرديئة من ضرر؛ ولو لم أختبر الأمر بنفسي، لما كنت أُصدِّق ذلك. ولا شكَّ في أن الضرر الذي تُحدثه في فترة المراهقة بنوع خاص يكون أشدّ منه في غيرها. فأتمنّى أن يتّعظ الآباء بما حصل لي ليكونوا كثيري اليقظة في هذا الموضوع. والواقع أنّ هذه العلاقة غيَّرتني بحيث لم تُبْقِ فيَّ شيئًا، تقريبًا، من طبيعةٍ صالحةٍ ونفسٍ فاضلة. وأَظنّ أنَّ هذه النسيبة ورفيقةً لها تأْخذُ بالتسليات نفسِها كانتا تطبَعان في نفسي ميولَهما.

هاجس الصيت

٥. على ضوء هذا أَفهم النفع الكبير الذي تُحدثه العشرةُ الصالحة. وأنا على يقينٍ من أَنّني لو عاشرتُ، في سِنيَّ تلك، أشخاصًا فاضلين، لكنتُ كاملة في ممارسة الفضيلة؛ لأنه لو أُتيحَ لي آنذاك من يُعلِّمني مخافة الله، لكانت نفسي اكتسبت قوّةً تُجنِّبها السقوط. وبعد أن فقدتُ مخافة الله تمامًا، بقيَ لديّ الخوف على صيتي فكان هذا هاجسي في كل ما أفعل. غير أن تفكيري بأَن تصرّفي سيظلّ خفيًا كان يُجَرِّئني على إتيان أعمالٍ كثيرة تنال من صيتي وتُهين الله.

تأثير الخادمات

٦. تلك كانت، في اعتقادي، الأمور، التي آذتْني في بادئ الأمر؛ وما كان الذَنْبُ ذَنْبَ من ذكرتْ، بل ذنْبي أنا، لأن مَكري في صنع الشرّ كان كافيًا. يضاف إليه وجودُ خادماتٍ في بيتنا كنت ألقى لديهنّ كل مساعدةٍ على فعل السوء. فلو انّ احداهنّ أحسنتْ نصحي لكنتُ أَفدتُ، ربّمَا، من نصائحها؛ لكن المصلحة كانت تعميهنّ كما كانت العاطفة تعمي بصيرتي. بَيد أني لم أكن ميّالةً أبدًا الى ارتكاب الكبائر - لأني كنت أنفر بطبيعتي من الأمور السافلة - بل الى

تمضية الوقت في المحادثات المؤنسة. إلّا أنّ الظروف التي كانت تحيط بي كانت تجعل الخطر داهمًا، فأُعرِّض بذلك سمعةَ أبي وإخوتي. وقد أنقذَني الله من تلك المحاذير بطريقة تدلّ على أنّه كان يعمل ضدّ إرادتي ليحول دون ضَياعي كليًّا، مع أنّ تصرّفي لم يكن من الخفية بحيث يخفِّف النيل من سمعتي ومن ارتياب أبي بأمري.

إدخالها الدير

لم يكن قد مضى على اتّباعي تلك الأباطيل ثلاثة أشهر، على ما أذكر، عندما أدخلوني الى أحد أديرة [٣] المدينة تُعنى راهباتُه بتربية بناتٍ من أمثالي، وان كُنَّ دوني سوءًا في عاداتهنّ؛ وتمّ الأمر بتكتُّمٍ كبير، فما اطَّلعَ عليه غيري وبعضُ الأقرباء؛ وانتظر أهلي سنوحَ فرصةٍ لا يبدو فيها دخولي الدير أمرًا غريبًا. وبالفعل، فقد تزوّجت شقيقتي [٤] ولم يعد مناسبًا أن أبقى وحيدةً في المنزل من دون أمّ.

براعتها في التستّر

٧. كان من حبِّ أبي إيَّاي حبًّا فائقًا ومن براعتي في التستّر ما أبعده عن إساءة الظن بي، فلم أفقد الحظوة لديه. وبما أن فترة طيشي كانت وجيزةً، فإنه، ولو رشح الى الأسماع شيء من أمري، ما كان يمكن التأكُّدُ منه؛ ذلك أنّ حرصي على كرامتي جعلني أستخدم كلّ براعتي في إخفاء تصرّفي. ولم أكن أَفطَن الى أنه لا يخفى على من يَرى كل شيء. فيا إلهي! ما أعظم الضرر الذي تُحدثه في العالم الاستهانة بهذه الحقيقة والظنّ بأن نُكرًا ضِدّك قد يبقى خفيًّا! إني موقنةٌ بأننا نتجنَّب شرورًا كبيرةً لو فهمنا أنّ مصلحتنا لا تقوم على محاذرة الناس، بل على أن نخشى إغاظتك أنت.

---

(٣) دير راهبات القديس اغسطينوس في آڤيلا في ١٣ تموز ١٥٣١.

(٤) ماريا دي ثِپيدا.

أيّامها الأولى في الدير

٨. في الأيام الثمانية الأولى حزنتُ لاشتباهي بذيوعِ تصرّفاتي الطائشة أكثر من معاناتي الإقامة في ذلك الدير. فقد كنت تعبةً، وما أَنفكُّ أشعر بوجلٍ كبير من الله كلّما أغظتُه فأسعى الى الاعترافِ عاجلاً. لقد كانت نفسي مضطربةً غاية الاضطراب، بحيث إنه لم تمضِ ثمانية أيام، لا بل أقل من ذلك على ما أظن، حتى أضحيت أسعد فيه منّي في بيت والدي. كانت رفيقاتي جميعًا راضياتٍ عنّي، لأن الربّ منحني نعمة إرضاء من أُعايشهم فأحظى بحبِّهم. ورغم عداوتي الشديدة وقتئذٍ لاعتناقي حياةَ الترهّب، كنت أفرح برؤية راهباتٍ كاملاتٍ كراهبات ذاك الدير، على قدرٍ كبير من اللطافة، والتقوى، والخشوع.

ومع هذا فما كان ابليس ينفكّ يجرِّبني، ويدفع بعض الناس من خارج الدير الى تعكير صفو نفسي برسائلهم. وإذ لم يكن مجال لمثل هذه الاتصالات، فقد انقطعت عنّي عاجلًا، وأخذتْ نفسي تتعوّد من جديدٍ خِصالَ طفولتي الصالحة، وعرفتُ النعمةَ العظيمة التي يمنحها الله من يجعلهم يعايشون ذوي الصلاح. فكأنّه، جلّ جلاله، كان يفحص ويتحرّى سبيلاً يتيح لي الرجوع اليه. تباركتَ ربّي، يا من احتملتَني بطول أناة! آمين.

براءة تصرّفها

٩. ثمّة أمرٌ قد يُعذِر، نوعًا ما، تصرّفي الماضي – لو لم أكن مُثقلةً بالذنوب – وهو أنَّ تلك العلاقة كانت مع من كان يمكن أن تؤدّي، في ظنّي، عن طريق الزواج، الى خاتمةٍ صالحة. واستشرتُ معلِّم اعترافي وأشخاصًا آخرين فطمأنوني أنّ سلوكي، في أمورٍ عديدة، ما كان يغيظ الله.

١٠. كانت إحدى الراهبات(٥) تبيت في مهجعنا، نحن الطالبات العلمانيات، ويبدو أن الربّ أراد بواسطتِها أن يرسل إليّ نوره، كما سأروي فيما بعد.

---

(٥) ماريا دِي بريثانيو Maria de Briceño (١٤٩٨ – ١٥٨٤) ابنة احدى عائلات آفيلا الشريفة. توفّاها الله برائحة القداسة.

الفصل الثالث

تروي كيف أن العشرة الصالحة ساهمت في إيقاظ رغائبها من جديد وبأيّة طريقة بدأ الربّ يكشف لها شيئًا فشيئًا غيّها السابق

تأثير راهبة فاضلة

١. بدأتُ أتذوّق حديث تلك الراهبة التقوي الصالح. فكنت أنشرح لسماعي إيّاها وهي تفيض في جيِّدِ البيان عن الله، فإنها كانت رزينةً قديسة. وأذكر أنني ما فقدتُ لذّة الاستماع الى حديثٍ كهذا قط. شرعتْ تخبرني كيف انتهتْ الى حياة الترهّب لمجرّد قراءتها الآية الانجيلية: «**إنَّ المدعوين كثيرون والمختارين قليلون**»[1]. وكانت تحدِّثني عن الثواب الذي أَعدَّه الربّ للذين يتركون كلّ شيء حبًّا به.

أخذت هذه العشرة تقتلع من نفسي العادات التي كانت العشرة الرديئة قد غرستها فيها، وتوقظ من جديدٍ في فكري الرغبةَ في الخيرات الأبدية، وتخفّف من شدّة كُرهي لأن أصير راهبةً بعدما كان ذلك الكره قد بلغ فيّ حدًّا كبيرًا. فصرتُ، إذا رأيتُ راهبةً تذرف الدمع وهي تصلّي، أو تمارس إحدى الفضائل، أحسدها أيَّما حسد، لأنّ قلبي كان من الصلابة بحيث لو قرأتُ قصّة آلام المسيح الكاملة لما ذرفتُ دمعةً واحدةً؛ وهذا ما كان يشجيني.

---

(١) متى ٢٠، ١٦.

نشوء ميلها الى الترهب

٢. مكثتُ في ذلك الدير سنةً ونصف سنة فتحسّنتْ حالي كثيرًا. بدأتُ أتلو الكثير من الصلوات اللفظية وأسأل جميع الراهبات أن يطلبنَ الى الله ليهديني الى الحالة التي عليّ أن أخدمه فيها. غير أنّي ما كنت أرغب في الترهّب، أو في أن يؤتيني الله هذه الدعوة، ولو أنّي كنت أخشى الزواجَ أيضًا.

في ختام إقامتي هناك، صرتُ أشعر بميلٍ الى الترهّب، وإن لم يكن في ذلك الدير نفسه، بسبب ما سمعتُ فيما بعد، عن ممارساتٍ تقويّةٍ شاقّةٍ كنت أرى فيها تطرّفًا ومغالاة. كانت بعض الراهبات الشابات يؤيِّدْن رأيي؛ ولو استقامتْ جميعهُنّ على رأيٍ لكنتُ جنيت فائدةً كبرى.

وكان لي أيضًا صديقةٌ[٢] عزيزةٌ جدًّا في ديرٍ آخر، فكان هذا حافزًا لئَلَّا أترهّب، لو عزمت على الترهّب، إلّا في الدير الذي تقيم هي فيه. لقد كنتُ أَنشُد ما يوافق لذّتي وعُجبي أكثرَ من نُشداني ما يلائِم خيرَ نفسي. كانت هذه الخواطر الصالحة في الترهّب تراودني أحيانًا، ثمّ لا تلبث أن تتلاشى، فما كنت أستطيع أن أقطع عزمي على الأمر.

مرض خطير

٣. ولَئِن كنتُ في هذه الأثناء غير متوانيةٍ عن مداواة نفسي، فإنّ الربَّ كان أشدّ رغبةً منّي في أن يعدّني لخيرِ حالةٍ تناسبني. فابتلاني بمرضٍ خطيرٍ ألْزَمني العودة الى البيت الوالدي. وحين تعافيتُ، نقلوني الى بيتِ شقيقتي – وكانت تقطن في الريف – لزيارتها، وكانت تحبّني حبًّا جمًّا بحيث لو عاد الأمر الى رغبتها لما فارقتُها أبدًا. وكان زوجُها يحبُّني أيضًا حبًّا كثيرًا، أو يُبدي، أقلّه، اهتمامًا كبيرًا بي. وأنا مدينةٌ، حتى بهذا، الى الربّ – فحيثما وُجدتُ لقيتُ رعايةً واهتمامًا بي – لكنّني كنت أقابله بمقتضى طبعي.

(٢) خوانا خوارث Juana Juarez، وكانت راهبة كرملية في دير التجسّد.

في ضيافة عمِّها

٤. في الطريق الى منزل شقيقتي، كان يسكن عمٌّ لي راجحُ المعرفة، وافرُ الفضائل. كان أرملَ، وكان الربّ أيضًا يعدّه لخدمته؛ وعندما تقدّم في العمر ترك كلَّ ما يملك ودخل الرهبنة، وماتَ ميتةً صالحةً بحيث أعتقد أنّه ينعم بالله[٣].

لقد استبقاني عمّي هذا لديه بضعة أيام. كان يقضي وقته بمطالعة كتبٍ صالحةٍ موضوعةٍ بالرومَنْسيّة، وكان حديثه يدور، أكثر ما يدور على الله وعلى بطلان العالم. كان يطلب اليّ أن أقرأ له، ومع أنّ كتبه ما كانت تروقني، كنت أُفصِح عن ارتياح؛ فقد كنتُ أبالِغ في إرضاء الآخرين وإن كان ما أعمله لهذه الغاية يشقّ عليّ؛ حتى إن الاحتمال، وهو يُعتبر لدى الآخرين فضيلةً، صار لديّ خطأً كبيرًا لأنني كثيرًا ما كنتُ أُمارسه دون تمييز.

أَعاذَني الله! ما أحسن السبل التي كان يوجِّهني فيها، جلّ جلاله، لبلوغ الحالة التي أراد أن يستخدمني فيها حتى إنه، على غير إرادةٍ مني، أرغمني على التحلّي بالقوة! فليكن مباركًا الى الأبد. آمين.

قرارها الترهّب

٥. ولَئِن كانت الأيام التي قضيتُها في منزل عمّي قليلةً، فبفضل التأثير الذي كان يُحدثه في قلبي كلامُ الله الذي أقرأه وأسمعه، وتأثيرِ العشرة الصالحة، رحت أفهم الحقيقة التي عرفتُها في طفولتي وهي تفاهةُ كل شيء، وبطلانُ العالم، وسرعةُ زواله، وأخاف، اذا ما متّ، من أن أصير الى جهنم. ومع أنني لم أكن قد وطّنتُ النفس بعدُ على الترهّب، فقد رأيت أنّه خيرُ حالةٍ وأضمنها؛ وهكذا أزمعتُ شيئًا فشيئًا على قسرِ نفسي على اعتناقه.

---

(٣) هو عمّ القديسة، بدرو سانشيث دي ثِپيدا، اشتهر بتقواه، وبعد ترمّله توفّي راهبًا في دير رهبان مار ايرونيموس.

قرار عقلاني

٦. دام هذا الصراع ثلاثة أشهر ، وأنا أُغالبُ ذاتي بهذه الحُجّة : إنّ مشقّات الترهّب وعناءه لا يمكن أن تتجاوز مشقّات المطهر وعذاباته ؛ وأنا قد استحققت أن أصير الى جهنم ؛ فليس بكثيرٍ أن أقضيَ ما بقي من حياتي كأنّي في المطهر ، ثم أمضي تَوًّا الى السماء ، وهي هي أُمنيتي.

وأرى أنّ ما كان يحدوني ، في هذا الصراع ، الى اعتناق الرهبنة ، كان خوفًا عبوديًّا وليس محبّتي الله. لقد كان إبليس يُوهمني بأنني لن أُطيقَ تحمّل مشقّة الحياة الرهبانية لكوني تعوّدتُ رغد العيش. فكنت أَحتجّ بما عانى المسيح من آلام ؛ فليس بكثيرٍ أن أَحتمل بعضها من أجله. ولعلّي فكَّرت بأنه ، هو نفسه ، قد يعينني على تحمُّلها. غير أنّي لا أَتذكّر ذلك يقينًا. وعانيت تجاربَ كثيرة في هذه الفترة.

ممانعة والدها

٧. لقد تعهّدتْني الحُمَّى مصحوبةً بخَوَرٍ شديد ؛ فقد طالما كنت ضعيفة البنية. لكن تعشُّقي الكتبَ الصالحة أبقاني على قيد الحياة. كنت أُطالع «**رسائل**» القديس أيرونيموس فتشجّعني بحيث صمّمْتُ على مفاتحة والدي برغبتي في الترهّب ، وكان هذا الموقف يعادل تقريبًا لبسيَ الثوب الرهباني ؛ لأنني كنت على عزّة نفسٍ تَحول دون تراجعي عن أمرٍ إطلاقًا ، إذا ما وعدتُ به.

وكان أبي يحبّني محبّةً عظمى ، فلم أُفلح في إقناعه ولم تنفع توسُّلاتُ أشخاصٍ وسَّطْتُهم لديه. وكان أقصى ما حصّلوه منه أن أَعمل ، بعد وفاته ، ما يطيب لي. لكنّي كنت أَخاف من نفسي ، وأَخاف من ضعفي أن يُثنيني عن قصدي. ورأيت موقف والدي لا يناسبني ، فحاولت بلوغ هدفي بطريقةٍ أخرى ، كما سأروي في ما يلي.

الفصل الرابع

تروي كيف أنَّ الربّ ساعدها لقَسْرِ نفسها على لبس الثوب الرهباني ، وتتحدّث عن الأمراض الكثيرة التي بدأ جلّ جلاله يبتليها بها .

هربها الى الدير وصراعها المرير

١ . في تلك الأيام ، وفيما كنت أتداول تلك القرارات ، أقنعتُ أحد اخوتي[١] بالترهّب موضحةً له بطلان العالم . واتّفقت وإياه على أن نذهب ذات يوم بُكرةً الى ذلك الدير[٢] حيث كانت تقيمُ صديقتي تلك التي كنت أكِنُّ لها مودّةً كبيرةً . وتصميمي هذا الأخير كان يعني استعدادي للذهاب الى أيِّ ديرٍ أعتقد أنني أخدم الله فيه بصورةٍ أفضل ، أو يُعَيِّنه لي والدي . فإنّ أكثر ما كان يهمّني ، كان خلاص نفسي ؛ أما راحتي فما كنت أُعيرها أيَّ اهتمام .

أذكر ، وهذا في اعتقادي كلّ الحقيقة ، أنّني حين غادرت المنزل الوالدي تملّكَتْني غصّةٌ لن تفوقها ، في ظنّي ، غصّتي ساعة الموت . حسبتُ أنَّ عظامي ينفصل

(١) خوان دي أهومادا . دخل دير مار توما لرهبان عبد الأحد ، في آفيلا . ولبس الثوب الرهباني . وكان راهبًا صالحًا ، ومات في الدير نفسه . (راجع

P. Efrem, *Tiempo y vida de Sta Teresa*, BAC, Madrid, 1972², p. 41-42.

(٢) دير التجسّد في آفيلا . دُشِّنَ سنة ١٥١٥ ، وفيه ترهّبت صديقتها الكرملية خوانا خواريث .

بعضُها عن بعضها الآخر. وما كان حبِّي اللهَ آنذاك ليتغلّب على حبِّي والدي وأهلي فوجدتُني أَضغط على نفسي بقوّةٍ بالغة بحيث لو لم يساعدني الربّ، لقَصَّرت اعتباراتي عن دفعي قُدُمًا في سبيلي. لقد أولاني الربّ شجاعةً لأَنتصر على ذاتي فوضعت مقصدي موضع التنفيذ.

الربّ يكافئها بفرح دائم

٢. حين لبستُ الثوب الرهباني، أفهمني الربّ أيّة أفضالٍ يمنحها للذين يُكرِهون أنفسَهم على خدمته؛ لكنّ أحدًا ما كان يتصوّر في نفسي مغالبةً بل عزمًا كبيرًا. وشَعرتُ توًّا بفرحٍ غامرٍ بحالتي الرهبانية، فرحٍ ما فاتني قطُّ حتى اليوم؛ وبدَّلَ الله يبوسة نفسي برقَّةٍ كبيرةٍ نحوه. كنت أجد متعةً في ممارسات الحياة الرهبانية جميعًا. والواقع أنّي كنت أحيانًا أقوم بأعمال الكناسة في وقتٍ كنت، فيما سبق، أَستخدمه لزينتي وتبرّجي، فأتذكّر أنّني قد تحرّرت من كل ذلك، فأشعر بسرورٍ جديدٍ يُثير حَيرتي ولا أَعرف له مصدرًا.

عندما أَتذكَّر هذا، لا أَتردَّد في اقتحام أيّة صعوبةٍ تعترضني مهما كانت خطيرةً. لقد اختبرتُ الأمر غالبًا: فإذا ما أَرغمتُ ذاتي منذ البدء على فعلِ شيءٍ لوجه الله وحده، يريدُ الله أن تَشعر النفس بتلك الرهبة كي يزيد استحقاقها؛ وبقدر ما تكون الرهبةُ كبيرةً، يكون الثواب أكبرَ وأعذب، فيما بعد، متى تمّ الانتصار عليها. وهو تعالى يؤتينا الثواب أحيانًا حتى في هذه الحياة، بطرائق لا يفهمها إلّا من ينعم بها. وقد خَبَرْتُ الأمر بنفسي، كما قلت، في أمورٍ كثيرةٍ خطيرةٍ جدًّا. وهكذا، لو كنت مُخوَّلةً إبداءَ رأيي، لما كنت أَنصح أبدًا بالإقلاع، بدافع الخوف، عن تنفيذ إلهامٍ صالحٍ مِلحاح. فعندما يكون الله وحده مقصدَنا، لا خوف من الفشل، لأن الله على كل شيء قدير. تبارك الى الأبد، آمين.

صلاة شكر واستغفار

٣. يا خيري الأسمى وراحتي العظمى! لكانت تكفيني نعمك التي غمرتَني

بها الى الآن ، فقادتْني رحمتُك وقدرتُك في منعطفاتٍ كثيرةٍ الى حالةٍ آمنةٍ كهذه ، والى مقرٍّ كثرتْ فيه خادماتُك وكلُّهنَّ يَصْلُحْن لي قدوةً لأنمو في خدمتك ! لا أدري كيف أتابع حديثي ؛ عندما أَتذكَّر حفلة نذوري (٣) ، وبأيِّ شجاعةٍ وسرورٍ أَبرزتُها ، وخطبتي إيَّاك ، لا يسعُني ذكر ذلك دون أن أذرف دموعًا. يجب أن تكون دموعًا من دم وأن ينكسر قلبي ، فلا يفي هذا الندم الإهانات التي سبَّبْتُها لك من بعد.

إخالني الآن كنت على حق بأن لا أطمح الى مقامٍ رفيعٍ كهذا لأنني كنت سأُمْعن في إساءة استخدامه. غير أنك ، يا ربّي ، إرتضيتَ ، خلال عشرين سنة تقريبًا أَسأتُ فيها استخدام هذه النعمة ، أن تتحمَّل الاهانات لأُصلح ، أنا ، شأني. كأنَّني ، يا إلهي ، إنّما وعدتُ أن لا أحفظ واحدًا من عهودي لك ، وإنْ لم تكن تلك نيَّتي آنذاك. وأَنظُر الى أعمالي فيمَا بعد فلا أدري أيَّ نيّةٍ كانت نيّتي ليظهر في جلاءٍ مَنْ تكون أنت ، يا عروسي ، ومن أكون أنا. والحقيقة ، انَّ ندمي على كبائري غالبًا ما يُخفِّفه الفرح الذي يُحدِثه في نفسي أنْ تُعرَفَ مراحمُك الوافرة.

٤. فيمن تُراه يمكن أن تتألّق ، كما تتألّقُ فيّ ، يا ربّ ، مراحمُك العظمى التي بدأتَ تغمرني بها فأَغرقتُ ، أنا ، في تَغْشِيَتِها بأفعالي السيِّئة؟ وَيْحَ نفسي ، يا خالقي ! إذا التمستُ لنفسي عذرًا ، فاتني العذر. إنَّمَا الذنبُ ذَنْبي دون غيري ! فلو انّي بادلتُك شيئًا من الحب الذي كنتَ بدأتَ تُظهره نحوي ، لما أمكنني أن أُحبّ سواك ، ولكان حبّي هذا دواءً لكلِّ شيء. ولأني ما استحققتُ هذا الحبّ ، ولا نَعمتُ بهذه السعادة ، ألاَ كانت الآن رحمتُك ، يا ربّ ، عونًا لي.

مرض خطير آخر ورحيلها الى الريف للاستشفاء

٥. إن اختلاف نمطِ الحياة وأنواعِ الأطعمة أَضرَّ بصحّتي. فعلى كونِ سروري كبيرًا ، لم يردَّ عنّي غائلةَ العِلّة. بدأتْ تزداد حالاتُ الإغماء ، وأصابني أَلمٌ عنيف في القلب فصار منظري يَروعُ من يراني. واعتورتني آلامٌ أخرى كثيرةٌ معًا. فقضيتُ السنة

(٣) أبرزت تريزا نذورها الأولى في ٣ تشرين الثاني سنة ١٥٣٧ وعمرها ٢٢ سنة.

الأولى في حالةٍ صحيّةٍ بالغة السوء ، ولو أنني ، في اعتقادي ، ما أغظتُ الله كثيرًا في هذه الفترة.

ولمَّا كان الألم شديدًا بحيث أَكادُ أن يُغمى عليّ دائمًا ، بل كنت أفقد الوعي تمامًا أحيانًا ، كان والدي يبذل أقصى الجهد لمعالجتي ؛ وبما أَنَّ الأطبّاء هنا ما أصابوا العلاج ، فقد سعى لأن ينقلني الى ناحيةٍ اشتهرت بأنّ قومًا فيها يُبرئون من أمراضٍ أخرى ؛ وقيل له بأنهم يُبرئونني أيضًا. فصحبتني تلك الصديقة التي تحدَّثتُ عنها ، وهي إحدى راهبات الدير القدامى، فما كانت الراهبات في ذلك الدير يَنْذُرْن التحصّن.

مكوثها لدى شقيقتها

٦. مكثتُ في تلك الناحية قرابة سنة ، قضيتُ ثلاثة أشهر منها وأنا أُكابد أشدّ الألم من العلاجات القويّة التي أُعطيتُ بحيث لا أدري كيف احتملتها. والخلاصة ، إذا كانت نفسي قد تحمَّلتْ تلك الشدائد ، فإنَّ جسدي عَجِز عن تحمُّلها كما سيأتي القول.

كان يجب أن تبدأ المعالجة في مطلع الصيف ، أما أنا فذهبت في أوائِل الشتاء. فقضيت تلك الفُسحة في القرية أنتظر أن يأتي نيسان ، في بيت شقيقتي التي ذكرتُها سابقًا ، لأنه كان قريبًا من تلك الناحية ، فأُعْفى مشقّةَ الذهاب والإياب.

كتاب الأبجدية الثالثة وتأثيره عليها

٧. لدى ذهابي الى تلك الناحية ، أعطاني عمّي الذي ذكرت ، وكان بيته في الطريق إليها ، كتابًا عنوانه : **الأبجَدية الثالثة**[٤] ، يحاول تعليم التأمل والإختلاء. لقد كنت قرأت خلال هذه السنة الأولى كتبًا جيّدةً وما رغبتُ في مطالعة غيرها لأنّني كنت أعرف الضرر الذي كانت قد سبَّبته لي ؛ غير أنّي ما كنت أعرف ممارسة التأمل

(٤) عمّها بدرو دِي ثِبيدا. أما الكتاب الشهير فعنوانه **القسم الثالث من كتاب الأبجدية الروحية** وهو من تأليف الراهب الفرنسيسكاني القديس فرنثيسكو دي أُوسونا.

أو الخلوة مع النفس. فسررتُ بذلك الكتاب أيّما سرور وعزمتُ على أن أتّبع، بكل قواي، الطريقة التي يوصي بها. وبما أنَّ الربّ كان قد منحني موهبة الدمع، وكانت المطالعة تَطيب لي، أخذتُ أَنعم بأُويقاتِ خلوةٍ، وأُكثر من الاعتراف، وأتبع ذاك الطريق معتمدةً ذلك الكتاب معلِّمًا لي. فأنا ما وجدتُ معلِّمًا، أعني معرِّفًا يفهمني، مع أنّي بحثتُ عنه خلال عشرين سنةً تلت هذه الفترة، فسبّب لي ذلك ضررًا بالغًا، بحيث إنّي كثيرًا ما عدتُ القهقرى، بل عرَّضتُ نفسي للضَياع تمامًا. ان مرشدًا كَفُوءًا كان يمكنه، على الأقل، أن يساعدني لأتجنَّب الظروف التي بها أُغيظُ الله.

بدء اختباراتها الروحية

وشرع، جلّ جلاله، يغمرني بفيضٍ من مننه في البدء بحيث إني، في أواخر اقامتي هنا (وقد استمرّت تسعة أشهر في تلك الخلوة، وانا أدنى الى اغاظة الله منه الى ما يعلّم الكتاب؛ غير أنّي كنت أتجاوز ذلك، فقد كنت أحسَب الاحتراز التام ضربًا من المستحيل؛ على أنّي كنت أَحذر اقترافَ خطيئةٍ مميتة. ألاَ رضيَ الله أن أبقى على هذا الحذر دائمًا. أما الخطايا العرضيّة فما كنت أُعيرُها اهتمامًا، وكان ذلك سببَ خرابي)... شرع الربّ يدلّلني في هذا **الطريق** حتى إنه حباني نعمة **تأمّل السكينة**، بل وصلتُ أحيانًا الى **تأمّل الاتحاد** (٥)، ولو أنّني كنت أجهل هذه وتلك، وعظمةَ قيمة كلٍّ منهما، على اعتقادي بوفرة النفع لي من تلك المعرفة. في ظنّي، والحقُ يُقال، أنّ هذا الاتحاد كان يدومُ فترةً قصيرةً جدًّا لا أدري اذا كانت تساوي تلاوة السلام الملائكي؛ إلاّ انّي كنتُ أجني منه مفاعيل رائعة؛ فعلى كوني لم أبلغ العشرين من عمري (٦)، كنت إخالُ العالم تحت قدمَيَّ، وأذكر أنني كنت أُشفق على الذين ينقادون له حتى في أمورٍ مشروعة.

---

(٥) الطريق هو طريق التأمل والاختلاء، الذي يعلِّمه أوسونا في كتابه؛ أما تأمل السكينة وتأمل الاتحاد فهما شكلان ساميان من أشكال التأمل والاختبار الروحي ستتحدّث عنهما مطوّلاً في الفصول اللاحقة من هذه السيرة أي فصل ١٤ – ١٥ و ١٨ – ٢٢.

(٦) وعلى الأصحّ الثالثة والعشرين أو الرابعة والعشرين تقريبًا.

طريقتها في التأمل

كنت أستفرغ طاقتي في تأمّل يسوع المسيح، خيرِنا وربّنا، حاضرًا فيّ: تلك كانت طريقتي في التأمّل. فاذا تأمّلتُ مشهدًا من مراحل آلامه، كنت أتمثّله في باطني. لكنّي كنت أقضي الوقت الأطول في مطالعة الكتب الصالحة فأجد فيها خيرَ ترويحٍ لنفسي. فالله لم يؤتِني موهبة الاستدلال بالعقل، ولا الاستفادة من المخيّلة؛ فمخيّلتي خرقاء بحيث إنّي كنت أجِدُ في تمثّل ناسوت الربّ واستحضاره فيمتنع عليّ الأمر. ومع أنّ الذين لا يستطيعون الاستدلال بالعقل يبلغون الى **التطلّع**[7] بشكل أسرع اذا ما ثابروا على الأمر، إلّا أنّ ذلك يكلّفهم جهدًا وعناءً كبيرَيْن. فإنه إذا فات الانسانَ انشغالُ الإرادة ووجودُ موضوعٍ حاضرٍ يُشغِلُ الحبّ، تبقى النفس وكأنّ لا سند لها ولا ممارسة، وتُحدثُ فيها الوحدةُ عَناءً وجفافًا بالغَيْن، وتعاني الأفكارُ من تصارعٍ خطير.

التأمل واختلاف الأطباع

٨. إنّ أشخاصًا على هذه الحال تلائِمهم نقاوة الضمير أكثر ممّا تلائم مَنْ يستطيعون استخدام العقل. فمَن يتأمّل حقيقة العالم، وواجباتِه نحو الله، وفداحة آلام المخلِّص، وتهاونَه في خدمة الله، وما يمنحُه الله لمُحبِّيه، بوسعه أن يستنبط إعتباراتٍ ليردَّ عنه الأفكار الخبيثة، وظروف الاثم والأخطار. أما من يعجز عن إستخدام هذه الوسيلة فهو أدنى الى الأخطار، ويلائمه الإكثارُ من المطالعة إذ يتعذّر عليه وحده استخلاصُ أيِّ اعتبار. إنّ هذا النهج لذو مشقّةٍ عظمى. لكنَّ المطالعة، وإن كانت قليلةً، تساعد كثيرًا من يتبع هذا النهج على استجماع أفكاره، وتكون بديلاً للتأمُّل الذي لا يسعه القيام به. فإذا كان المعلّم الروحي يشدِّد عليه الاستمرارَ طويلاً في التأمّل دون مساعدة المطالعة، يستحيلُ عليه ذلك؛ واذا تشبّثَ المعلِّم بموقِفه سبَّبَ له ضررًا لأنَّ الأمرَ شاقٌّ جدًّا.

---

(٧) التطلّع ترجمة كلمة Contemplación. انظر المقدمة.

الكتاب رفيق أثناء التأمل

٩. أعتقد الآن أنَّ الربَّ دبَّر ألّا أُصادف مَنْ يعلِّمُني. فلو أنَّني صادفتُه لكانَ تعذَّر عليّ، في ظنّي، أن أستمرّ ثمانية عشر عامًا في هذه المحن واليبوسات الروحية الكبيرة لعجزي عن الاستدلال العقلي. وما كنتُ أَجرؤُ على مباشرة التأمُّل من دون كتاب، طوال هذه الأعوام، إلّا بعد التناول. لقد كانت نفسي تتهيّب القيامَ بالتأمّل من دونه كما لو كانت ماضيةً لمغالبة جمهرةٍ من الأعداء. كنتُ أجد في الكتاب علاجًا وتعزيةً؛ بل كان لي رفيقًا أو درعًا أصدُّ به ضربات الأفكار المتواترة.

لم يكن الجفاف الروحي حالةً دائمةً لديّ، بل كان ينتابني كلَّما أعْوزني الكتاب، فتضطرب نفسي وتذهب افكاري كلَّ مذهب؛ وبالكتاب كنت أعود فأجمع أشتاتَها، وبه أُلاطف نفسي وأَفتُنها. وكثيرًا ما كنت، إذْ أفتح الكتاب، أجدُ به الكفاية. كنتُ، أحيانًا، أُطالع قليلاً، وأحيانًا أخرى أُكْثِرُ من المطالعة بحسب ما يؤتيني الربّ من نعمة.

إفتقارها الى مرشد

كنت إخالُ، في بداية عهدي هذا، باستعمالي كتبًا وإعتمادي العزلة، أنْ لا خطر يمكنه أن يُبْعِدني عن ذلك الخير العميم. ولكان حصل ذلك بفضل الله لو تيسّر لي معلِّم أو مرشد ينبِّهني الى الهرب من الظروف الخطرة متى لاحت بوادرُها، ويساعدني على الخروج منها سريعًا إذا تورَّطتُ فيها. ولو أَنَّ إبليس هاجمني جَهرًا، لما كنت أعود، في ظنّي، الى إتيان كبيرةٍ في أي حال. لكنّه كان على قَدْرٍ من الدهاء، وأنا على قَدْرٍ من الغباء، بحيث إنّ عزائمي قلّما أفادتني، وإنْ تكن قد وفَّرت لي فوائدَ جمّة أيّام خدمت الله، لأتحمّل ما ابتليتُ به من أمراضٍ ثقيلة بصبرٍ خارقٍ يَسَّره لي الله، جلّ جلاله.

الله يستر نقائصها

١٠. كثيرًا ما فكّرْتُ، مذهولةً، بجودة الله الفائقة واستمتعتْ نفسي بتأمُّل

سموِّ عظمته ورحمته. تباركَ في كلِّ شيء! فقد تبيّنتُ أنّه ما انقطعَ عن إثابتي، حتى في هذه الحياة، عن كلِّ رغبةٍ صالحة. فمهما كانت أعمالي سيِّئةً وناقصةً، كان سيّدي هذا يُصلحها، ويُكمِّلها ويُضفي عليها قيمةً. أما أخطائي وآثامي فكان يُسرع في سَترها. وهو، جلّ جلاله، يُعمي عنها نواظرَ من شاهدوها، ويبدِّد أثرها من ذاكرتهم. إنَّه يُذَهِّب أخطائي، ويُلألئُ فضيلةً وضعَها فيَّ الربُّ نفسه مرغِمًا إيَّاي تقريبًا على قَبولها.

عجزها عن امتداح أعمال الربّ

١١. وأودّ الرجوع الى الموضوع الذي أُمِرتُ بالكتابة فيه، فأقول: إنّه لو كان عليّ أن أَعْرُضَ عرضًا مفصَّلاً كيف تصرَّفَ الربُّ معي في أوَّل عهدي، لكان يلزمُ عقلٌ غيرُ عقلي لأتمكَّن من تقدير ما أنا مدينةٌ له به، وأُبيِّن عقوقي الكبير وسوءَ تصرُّفي، لأنَّني نسيتُ كلَّ ذلك. فليكن مباركًا أبدًا، لأنه احتملني طويلاً. آمين.

الفصل الخامس

تتابع رواية الأمراض الخطيرة التي قاستها والصبر الذي آتاها الربُّ لاحتمالها وكيف أنّه يُطلع من الشرور خيورًا ، كما سيُرى في حادثةٍ حصلت لها في المحلّة التي قصدتْها للاستشفاء

اضطراب في سنة الإبتداء

١. نسيتُ أن أذكر أنّي ، خلال سنة الإبتداء ، عانيتُ إضطراباتٍ كبيرةً بسبب أُمورٍ قليلة الأهميّة بذاتها . كثيرًا ما كانوا يوبّخونني ولم آتِ ذنبًا ، فكنت أتحمّل اللومَ بغمٍّ وبنقصٍ كبيرَين ، ولو أنّي ، لسروري العظيم بكوني راهبةً كنت أتجاوز كلَّ ذلك . وإذ كانوا يَرونني أسعى الى الانفراد ، ويرونني أبكي خطاياي أحيانًا ، كانوا يظنُّونني مستاءةً ، ويتحدَّثون بذلك .

كنت أهوى الأمور الرهبانية كلَّها ، لكنّي ما كنت لأُطيقَ أمرًا يبدو إحتقارًا لي . كنت أفرح بأن أكون معتبرةً ، وأُتقنُ كلَّ أعمالي ، وإخالُ كلَّ ما أفعل فضيلةً ولو لم يكن لي في ذلك عذرٌ ، لأني كنت أُحسن البحث عن رضاي في كل شيء ؛ وهكذا ما كان جهلي ليعفيني من الذنْب . ولعلَّ بعض عذري أنَّ حياة الدير لم تكن مبنيَّةً على كمالٍ رفيع ؛ غير أنِّي ، لحقارتي ، كنت أميل الى ما أراه خطأً وأُعْرض عمّا هو صالح .

قدوة راهبة مريضة

٢. كانت آنذاك إحدى الراهبات مصابةً بعلَّةٍ فادحةٍ مضنية. ظهر في بطنها، إثر كتامٍ أصابها، خرّاجاتٌ كانت تَفرز كلّ ما تأكل. وما لبثتْ أن قضتْ بسببها. وكنت أرى أنَّ جميع الراهبات يخشيْنَ ذاك المرض. أما أنا فكنت أَحسدها كثيرًا على صبرها، وأسأل الله إذا أعطاني صبرًا نظيره أن يبتليَني بما يشاء من أمراض. ما إخالُني كنت أخاف أيَّ مرضٍ اذ كنت مصمِّمةً على كسب الخيرات الأبدية مهما كلَّف الأمر. ويَهولُني تصميمي هذا لأنّي لم أكن أملك بعد، في اعتقادي، حبَّ الله مثلما مَلكْتُه، على ما أظن، بعد أن أخذت أمارسُ التأمل، بل كان لي نورٌ أرى معه قليلَ القيمة كلَّ شيءٍ زائل، ورفيعةَ القدر الخيراتِ التي يمكن أن أكسِبها بذلك الحبّ لأنها خيراتٌ أبدية.

وقد استجابني جلَّ جلالُه أيّمَا استجابة. فلم تمضِ سنتان حتى أُصِبتُ بمرضٍ، وإنْ لم يوازِ ذاك، لا أظنُّه أخفَّ منه وطأةً وألمًا، مرضٍ لازمني سنواتٍ ثلاثًا كما سأذكر فيما بعد.

ضرورة العلم للمرشدين

٣. عندما حان وقت علاجي الذي كنت أَنتظره في منزل شقيقتي، نقلَني الى المكان المعيَّن، بعنايةٍ كبرى براحتي، أبي وأختي وصديقتي الراهبة[1]، تلك التي كانت قد صحبتْني، لأنها كانت تحبّني حبًّا جمًّا.

هنا بدأ الشيطان يعكِّر صفاءَ نفسي، وإن يكن الربّ أَطْلع من ذلك خيرًا جزيلاً. كان في تلك القرية، حيث مضيتُ للاستشفاء، كاهنٌ ممتاز، حادُّ الذهن، مثقَّفٌ على غير عمق، فبدأتُ أَعترف لديه لأنّي كنت أُقدِّر دائمًا ذوي العلم، مع أَنَّ المرشدين من أنصاف المتعلّمين أنزلوا بنفسي ضررًا كبيرًا، وما كنت لأحظى بمرشدين على مستوىً علميٍّ يوافق رغبتي. لقد تبيَّنتُ بالإختبار أَنْ خيرٌ لهم أن لا يملُكوا من

(١) خوانا خواريث، راجع سيرة ٣، ٢.

العلم شيئًا ، على أنْ يكونوا فاضلين أنقياءَ السيرة ، فإنَّهم عندئذ لا يَركنون الى رأْيهم ، دون أن يسألوا أصحابَ المعرفة ، ولا أنا أطْمئنّ إليه. وما أضلَّني قطُّ ذو علمٍ حقٍ. فالآخرون أيضًا ما كانوا يرمون الى خداعي لكنّهم لم يكونوا يعرفون أكثر من ذلك ؛ أمّا أنا ، فكنت أَظنُّهم عالمين وما عليَّ إلّا أن أصدِّقهم ، خصوصًا أنّهم كانوا متساهلين معي يُفسحون حريتي. فلو شدَّدوا عليَّ ، لكنت ، لحقارتي ، بحثت عن مرشدين آخرين. كانوا يقولون عن الخطيئة العرضيَّة إنها لا شيء ، وعن الخطيئة المميتة إنها عرضيّة. وآذاني تصرُّفهم أيّمَا أذىً ؛ فلا عجب من أن أتحدَّث عن الأمر هنا تحذيرًا لنفوسٍ أخرى من هذا الضرر الجسيم. إنّي لأعرف أنْ لا عذرَ لي أمام الله ؛ فقد كان يكفي أن يكون الأمر من طبيعته غير صالحٍ حتى أُمتنع عنه. وفي اعتقادي أنّ الله سمح ، بسبب خطاياي ، أن ينخدع مرشديَّ فيُضِلُّوني. وأنا بدوري ضلَّلتُ كثيراتٍ بإخباري إيّاهنّ ما كان مرشديّ قالوه لي.

أعتقد أنّي استمرّيت على هذا العَمَه أكثر من سبعة عشر عامًا الى أن بيّنَ لي ضلالاتٍ عدَّةً أَحدُ الآباء الدومنيكان ، وهو عالِمٌ كبيرٌ [٢] ، ثم الآباءُ اليسوعيون الذين بلغوا الحدَّ في تخويفي مُبيِّنين لي مخاطر هذه البداية ، كما سأروي ذلك فيما بعد.

علاقتها الوديّة بمعرِّفٍ سيِّئ السيرة

٤. حين شرعت أعترف لدى الكاهن المذكور تعلّقَ بي كثيرًا ، إذْ كان يسيرًا ما عليّ أن أعترف به ، مثله في بدءِ حياتي الرهبانية ، إذا قورن بما حصل لي فيما بعد. لم تكن مودَّتُه إيّاي شرِّيرةً ، لكنّ الإفراط فيها كاد يحيد بها عن الصلاح. لقد فهم منّي أنّي لا أرضى اقتراف خطإٍ جسيمٍ ضدّ الله مهما كلَّف الأمر. وكان ، هو ، يؤكِّد لي موقفًا مماثلاً ، فكانت محادثاتنا متواترة. وبقدر ما كنتُ حينئذٍ مفتونةً بالله ، كانت أوفرَ مباحثاتي متعةً تلك التي يكونُ اللهُ موضوعَها. فوقفني هذا ، أنا الفتاةَ في مقتبل العمر ، أثار حَيْرته. ولكثرة مودَّته لي راح يكشف لي حالة الضياع التي يتردّى فيها. ولم

---

(٢) Vicente Barron فيثنتي بارّون ، لاهوتي مشهور.

تكن قليلةَ الشأن ، إذ قد مضى عليه سبع سنوات تقريبًا وهو في حالةٍ خطيرةٍ جدًّا ، يعاشر إمرأةً في القرية نفسها مولعًا بها ؛ ومع هذا كان يقيم القداس . وكان الأمر مشهورًا حتى فقد كرامته وصيته ، وما كان أحدٌ يجرؤ على تقبيح سلوكه . فأثار وضعُه الشفقةَ في نفسي إذ كنت أكِنُّ له مودةً كبيرةً ، فقد كان من طيشي وعماي أنْ أَعتبرَ العرفان والوفاء نحو من يحبّوني فضيلةً . ملعونةٌ هذه القاعدة التي تتَّسع لتناقض ناموس الله ! هناك حماقةٌ شائعة في العالم تُثير فيَّ الجنون : نحن مدينون لله بكلّ الخير الذي يصنعه الآخرون معنا ، ونعتبر عدم قطع صداقتِنا لهم فضيلةً ولو كانت هذه الصداقة ضدَّ الله . ما أشدَّ عمى العالم ! حبّذا ، يا ربّ ، لو أنّك رضيتَ فكفرتُ بالعالم كلِّه ولم أُنكِرْ عهدك قيْدَ أُنمُلة ! لكن بسبب خطاياي ، حصل العكس تمامًا .

رأي في المرأة

٥. حاولتُ أنْ أَعرف وأَزيد معلوماتي عن حاله من ذوي بيته ، فزدتُ علمًا بضياعه ورأيتُ أنّه دون ما يبدو ذنبًا . فإنَّ تلك المرأةَ الشقيّة وضعتْ له رُقْيَةً في دميةٍ من نحاس وسأَلته أن يعلّقها ، حبًّا بها ، في عُنُقه ، ولم يقدر أحدٌ أن يقنعه بانتزاعها .

أنا لا أعتقد اعتقادًا ثابتًا بصحّة ما يروونه عن الرُقَى ، بل أروي ما شاهدتُ ليحذر الرجالُ نساءً يَسعينَ لمثل هذه المعاشرة ، وليعلموا أنّهنّ ، إذْ يفقِدن الحياء أمام الله وهنّ ملزماتٍ بالحشمة أكثر من الرجال ، لا يَعُدنَ أهلاً لأدنى ثقة . فهنّ لا يتورَّعن عن شيءٍ من أجل تحقيق رغبتهنَّ وذاك الهوى الذي يدسُّه الشيطان فيهنَّ . أمّا أنا ، وإن كنت بائسةً ، فلم أسقط في هفوةٍ كهذه ، ولا نويتُ أن أفعل السوء قطّ ، ولا أريد ، حتى لو استطعتُ ، أن أُرغِم الآخرين على حبّي لأنّ الربّ عصمني من هذه الأمور . وهو لو تخلّى عنّي ، لفعلتُ السوء فيها كما في غيرها ، اذ لا مجال للثقة بي في شيء .

سعيها لهداية المعرّف

٦. لما اطَّلعتُ على أمر الدُمية أخذتُ أُظهر له مزيدًا من الوُدّ . كانت نيّتي

صالحةً أما تصرُّفي فسيِّئًا. وما كان ينبغي أن آتي أدنى سوءٍ لأفعل خيرًا مهما كان كبيرًا. كنت أُحادثه دائمًا عن الله. لقد أفاده ذلك وإن يكن تعلُّقُه بي أحدث فيه تأثيرًا أكبر. فإرضاءً لي سلَّمني تلك الدمية فألقيتُ بها في النهر. وما إن تملَّص منها حتى أخذ يتذكَّر، كمَنْ يستيقظ من سباتٍ ثقيل، كلّ ما فعله خلال تلك السنوات. فراعَه حالُه، وندم بألمٍ على ضلاله، وبدأ يكره المرأة التي أَغْوته. ولا شكَّ أن السيدة العذراء ساعدَتْه كثيرًا، لأنه كان وافرَ العبادة لسرّ الحبل بلا دنس ويقيم احتفالاً مَهيبًا بهذا العيد؛ فانقطعَ أخيرًا، نهائيًّا، عن رؤية تلك المرأة وما كان ينفكّ يشكر الله على هدايته إيّاه.

ومات بعد سنةٍ تمامًا من أول يومٍ اِلتَقيتُه، سنةٍ قضاها في خدمة الله خدمةً نصوحًا لأنّ المودَّة الكبيرة التي كان يكِنُّها لي ما حسبتُها سيّئةً قطّ وإن كان مُمكنًا أن تكون أكثر صفاءً. وحصلتْ مناسباتٌ كانت حدثتْ فيها إهاناتٌ جسيمةٌ لله لو لم نتمثَّلْ نفسَيْنا في حضرتِه. وأُكرِّر ما قلته: ما كنت لأرضى أبدًا أن أفعل ما أعرف أنّه خطيئةٌ مميتة. ويبدو لي أنّ استعدادي هذا كان يحمله على محضي مودَّته. ففي اعتقادي أنّ جميع الرجال يهوون من النساء، أكثر ما يهوون، اللواتي ينزِعْنَ الى الفضيلة، مما يجعل الفضيلة خير وسيلةٍ لكسب احترامهم، كما سأُبيّنُ ذلك فيما بعد. إنّني لواثقة بأنّ الكاهن المذكور في طريق الخلاص؛ مات ميتةً صالحةً وقد تحرّر تمامًا من ظروف الخطأ. كأنّ الربّ أراد أن يتحقّق خلاصُه بتلك الوسائل.

وصف دقيق لأوجاعها

٧. أقمتُ في تلك المحلّة ثلاثة أشهر عانيتُ خلالها آلامًا مبرِّحة لأنّ العلاج كان أقوى مما تتحمَّلُه بُنْيَتي. بعد انقضاء شهرين، كادوا أن يقضوا على حياتي من فرط الأدوية. واشتدَّت أكثر من ذي قبل حِدّةُ وجع القلب الذي مضيتُ لمعالجته حتى بِتُّ إخال أحيانًا أنّهم يمزّقونه بأنيابٍ حِداد، وخشي قومي أن أكون مصابةً بالكَلَب. ووهنتْ قواي لأنّي ما كنت أستسيغُ غِذاءً خلا السوائل، لشدّة قَرَفي؛ ولازمتني الحمّى، وبراني السُقم لمثابرتي يوميًّا، طوال شهرٍ تقريبًا، على جرع

المسهِّلات ، فَضَرِمت أحشائي وأخذتْ أعصابي تتشنَّج وتُسبِّب لي آلامًا لا تطاق ، حتّى لم أجد راحةً ليلاً ولا نهارًا. وتملّكني حزنٌ عميق.

تَضاعُف أوجاعها وصبرها

٨. بهذا المكسب رجع بي والدي إلى البيت ، وتواترَ الأطباء يعودونني ، فأيْأسني جميعهم من الشفاء إذ قالوا إني ، إلى أمراضي العديدة، مصابةٌ بالسلّ. ما كنتُ لأبالي بأحكامهم إلّا قليلاً ؛ إنّما الأوجاع كانت تُنهك جسمي كلّه من قمّة رأسي الى أخمصِ قدميّ ؛ وآلام الأعصاب ، في رأي الأطبّاء ، لا تطاق. وكانت أعصابي كلُّها تتقلّص ، فكان لي من ذلك عذابٌ أليم لم أُحسن الاستفادة منه بذَنْبي.

لم تستمرّ معاناتي هذه أكثر من ثلاثة أشهر ، فقد كان احتمال هذا القدْر من الأمراض معًا يبدو مستحيلاً. وأدهَش الآن ، وأعتبر الصبر الذي آتاني الربّ نعمةً كبرى ؛ فقد كان واضحًا أنّها من لدنه. وأفادني كثيرًا لممارسته كوني طالعتُ قصّة أيّوب في «**أدبيّات**»[٣] القديس غريغوريوس. **فكأنّ** الربّ ، بهذه الوسيلة ولكوني بدأت أمارس التأمّل ، أعدّني لِأتمكّن من احتمال تلك الأوصاب وفقًا لمشيئته. كانت محادثاتي كلُّها معه ، وكنت أردِّد غالبًا في ذهني كلماتِ أيّوب وألفظها «**ما دُمْنا نَقبلُ الخيرَ من الله لمَ لا نحتملُ الشرَّ**[٤] ؟». كان هذا الكلام ينفحني بالشجاعة.

غيبوبة طويلة

٩. حلَّ عيد العذراء في آب[٥] بعد عهدٍ من العذاب دام منذ شهر نيسان ، وإن كان قد اشتدّ في الأشهر الثلاثة الأخيرة. عجّلتُ في طلب الاعتراف وقد طالما

---

(٣) هو كتاب مشهور للبابا غريغوريوس الأول معلم الكنيسة ، (٥٠٤ - ٦٠٤ م) وهو مجموعة شروح وتعليقات على سفر أيوب.

(٤) أيوب ٢ ، ١٠

(٥) ١٥ آب ١٥٣٩.

كان يطيب لي أن أُكثِر من الاعتراف. ظنّ القوم أنّي أفعل ذلك خوفًا من الموت، فاعترض والدي أمري حتى لا ٱلتاع. يا له من حبٍّ بشريٍّ مُفرِط، وإن كان حبّ والدٍ كاثوليكيٍّ راسخ الأيمان كثير الفطنة – وكان كذلك في الواقع وليس عن جهل – يمكن أن يسبب لي أذىً كبيرًا! واشتدّت بُرَحَائي تلك الليلة فانتابتْني غيبوبةٌ استمرّت دون الأربعة أيامٍ قليلاً، فمنحوني سرّ المسحة وكانوا يظنّون أني سأَلفظ نفَسي بين لحظةٍ وأخرى، فما كانوا ينقطعون عن تلاوة قانون الأيمان كأنّني أعي شيئًا مما يقولون. وكانوا يحسَبونني أَحيانًا فارقت الحياة، فإنّي وجدت فيمَا بعد قِطَعًا من الشمع على عينيّ.

إستعادة وعيها واعترافُها

١٠. والتاع والدي لأنه ما أتاح لي الاعتراف، فراحَ يُطلق تنهّداتٍ ويرفع صلواتٍ كثيرةً الى الله. تبارك الربّ لأنه استجابها! فالقبر في الدير ظلّ مفتوحًا يومًا ونصفَ يومٍ في انتظار جثماني، وأُقيمتْ صلاة الجنّاز في ديرٍ لرهباننا خارج المدينة. إلاّ أنَّ الرب شاء فاستعدتُ وعيي، وطلبتُ في الحال أن أعترف، وتناولت القربان والدموع تنهمر من عينيّ، دموعٌ لا أحسَبها نجمتْ عن ندامةٍ وألمٍ لأنّي أهنت الله فحسب – على كونهما كافيَيْن لتوفير خلاصي، لو لم يَفِدْني الخطأُ الذي زجّني فيه مَن قالوا لي إنّ بعض الأمور لم تكن خطيئةً مميتة وعرفتُ فيما بعد أنّها مميتة – بل كانتْ دموعي ناتجةً أيضًا عن آلامٍ لا تُطاق لازمتني. كان وعيي خفيفًا، إلاّ أنّي اعترفتُ اعترافًا كاملاً، في اعتقادي، بكل ما اعتبرتُ أنّي أهنتُ به الله. فمِن النعمِ التي منحنيها، جلّ جلاله، أنّي منذ قرباني الأولى، ما أغفلتُ الاعترافَ بما أحسَبه خطيئةً ولو عرضيّة. ومع هذا فأَعتقد، بدون شك، أنَّ خلاصي كان معرّضًا للخطر لو قضيتُ نحْبي آنذاك، لأن معلِّمي اعترافي كانوا ضعيفي المعرفة من جهة، ولشقائي من جهةٍ ثانية، ولأسبابٍ أخرى عديدة.

حثّ النفس على تدارك الهلاك

١١. والحقيقة الثابتة، إذ انتهيتُ الى ما أنا عليه ورأيت كأنَّ الربّ بعثني من

الموت ، أنّ الهلع ينتابني حتى لأشعرَ بأنّ فرائصي ترتعد. فيجدر بكِ ، يا نفسيٍ ، أن تنظري الخطر الذي نجّاكِ الربّ منه ، وأن تَنْثَني عن إهانته خوفًا ، إن لم تكُفِّي عن ذلك حبًّا به ، لأنه قادر على إيرادِك الهلاكَ ألف مرةٍ أخرى وأنتِ في حالٍ من الخطر أدهى. ولا أَحسَبُني أبالغُ كثيرًا إذا قلتُ ألفَ مرةٍ أخرى ولو أَنحى عليَّ باللوم مَن أمرني أن أُلطِّف رواية خطاياي ؛ فهي منمَّقةٌ أيّما تنميق.

فأرجو صاحب الأمر هذا ، حبًّا بالله ، أن لا يحذفَ شيئًا من ذنوبي لأنها تُظهر بأجلى مظهرٍ عظمةَ الله ومقدارَ صبره على النفس. تباركَ الى الأبد ورضيت عِزَّته أن أضمَحِلّ قبل أن أنقطع عن حبِّه.

الفصل السادس

تتحدّث عن كثرة ما تدين به للرب إذ اعطاها نعمة تَوافُقِها مع مشيئته في مشقّاتِها الشديدة، وكيف اتَّخذت لها وسيطًا ومحاميًا القديس يوسف المجيد والفوائد العميمة التي جنتها.

نتيجة الإستشفاء

١. عقِب أيام بُرَحائي الأربعة صرت الى حالةٍ لا يعرف إلاّ الله مقدارَ ما قاسيت فيها من عذاباتٍ لا تُحتَمل. فلساني تمزّق لكثرة ما عضَضْتُه؛ وجفَّ حلقي لانقطاعي تمامًا عن الطعام ولشدة ضعفي، فكنت أكاد أختنق بل لم أَعُد أستطيع جرعَ الماء. كنت إخالني مفكَّكةَ الأوصال بكلّيتي؛ وأَصاب رأسي إختلاطٌ مريع. مجمّعًا كان بعضي على بعضٍ كَمِكَبٍّ من خيوط. إلى هذه الحال انتهت بي أَوصابي في تلك الأيام فبِتُّ عاجزةً عن تحريك ذراعي أو رجلي أو يدي أو رأسي، وكأنني ميتةٌ، ما لم يساعدني على ذلك أحد. كنت أستطيع تحريكَ إصبعٍ واحدة من يدي اليمنى فقط على ما أذكر. وما كان من سبيلٍ الى ملامستي، إذ كان جسمي كلُّه يؤلمني فلا أُطيق لمسًا. وإذا أرادوا تغيير وضعي عمدتْ اثنتان الى شرشفٍ تُمْسك كلٌّ منهما بأحد طرفَيه.

إستمرّت حالي هكذا حتى الفصح المجيد. أما إذا لم يلمسوني، فكانت آلامي تنقطع غالبًا؛ وإذا أُتيح لي أن استريح قليلاً إعتبرتُ نفسي شُفيتُ لأني كنت

أخشى أن أفقد الصبر. فشعرت بسرورٍ كبيرٍ إذ رأيتُني وقد بارحتْني الآلام الحادة المتواصلة، ولو أنّ برديّة حمّى الربع[1] وحمى الغِبّ[2] الشديدة التي لازمتني ما كانت تطاق. وأخذ السأم منّي مأخذًا.

مقعدة ثلاث سنوات

٢. ألححتُ من ثمّ على الإسراع في عودتي الى الدير، فنُقلت اليه وأنا على هذه الحال. وتلك التي كانوا ينتظرونها ميتةً إستقبلوها وهي على قيد الحياة. إلّا أنّ الجسد كان أَسوأ من جثّةٍ هامدة، فمنظرُه كان يُثير الأسى. بلغ به الهُزال حدًّا لا يُوصف إذ لم يبقَ منه إلّا العظام.

بقيتُ على هذه الحال أكثر من ثمانية أشهر وأقعدني المرض ثلاث سنوات مع أنّني كنت أتحسَّن خلالها. وعندما بدأتُ أَدبُّ على الأرض كنت أُمجِّد الله. قضيت هذه السنوات كلّها مستسلمةً تمامًا الى الله؛ ولولا آلامي الأولى لقلت: بفرحٍ كبير؛ لأني كنت أعتبر أيّ ألمٍ كَلاَ شيء إذا قورن بآلامي وأوصابي التي قاسيتها في البدء. كنت مستسلمةً تمامًا لمشيئة الله حتى لو أبقاني دائمًا على ما كنت عليه.

أَظنُّ أنّ كلّ رغبتي في الشفاء كانت لأمارس التأمل على انفرادٍ كما تعوّدتُ، لأنّ ذلك لم يكن ليتوفّر لي في المشفى. كنتُ أواظب على الإعتراف وأُكثِر من الحديث عن الله بحيث إن الراهبات تأثّرن بمثَلي. وكان يُدهشهنَّ الصبرُ الذي آتاني الله. فلو لم يكن ذلك من لدن عزّته لكان استحال عليّ احتمالُ ذلك الألم الكبير بهذا السرور الجزيل.

نموّ الفضائل بالتأمّل

٣. لقد كانت مِنّةً عظيمةً النعمةُ التي أولاني إيّاها الله في التأمّل. فالتأمّل

---

(١) حمّى الربع أو حمّى ربع هي التي تأخذ يومًا وتدع يومين ثم تجيء في الرابع.
(٢) حمّى الغبّ وحمّى غبّ التي تأخذ يومًا وتدع يومًا.

جعلني أفهم معنى حبِّنا إياه. في ذلك الوقت القصير لاحظت ظهور هذه الفضائل فيّ ولو لم تكن راسخةً لأنها قصَّرتْ عن تثبيتي في البِرّ. ما كنت أَطعَن في أحدٍ بشيءٍ مهما كان تافهًا، بل كان من عادتي إجتنابُ قولة السوء لوعيي تمام الوعي أنَّه يجب أن لا أريد للغير أو أَقولَ فيه ما لا أريد أَن يقوله فيَّ. كنت أحرص على ذلك أشدّ الحرص في المناسبات العارضة، وان لم يكن التطبيق من الكمال بحيث لا أخرج عليه بعض الشيء، أحيانًا، عندما تكون الظروف قاسيةً. وأقنعتُ بهذا النهج عشيراتي وخُلَطائي فتعوَّدوه. وتيقَّن الجميع من أنّ وجودي في مكانٍ ما ضمانةٌ لسمعة الغائبين، وكذلك وجودُ صديقاتي وذوات مودَّتي واللواتي أُعلِّمهنّ، وإن أَكن في أمورٍ أخرى، ملزمةً بتأدية حسابٍ أمام الله عن مثَلي السّيئ.

ألا تلطَّف الله فسامَحني؛ فقد كنت سببًا لشرورٍ كثيرة ولو لم يكن سوءُ نيّتي بمقدار سوءِ الفعل الحاصل.

نموّ حبّها لله

٤. تمكَّنَ منّي التوقُ الى الخلوة وحبُّ الحديثِ عن الله والبحثِ في شؤونه حتى إذا ما وجدت محاورًا أُذاكِره فيها شعرتُ بفرحٍ وسرورٍ يفوقان كلَّ اللياقات – بل بالأحرى السماجات – في الأحاديث الدنيوية. وثابرتُ على التناول والإعتراف المتواترَين أكثر من ذي قبل، وقَويتْ فيهما رغبتي؛ وأُولعتُ بمطالعة الكتب الصالحة. ما ان كنتُ أُغيظ الله حتى يأخذني ندمٌ شديدٌ بحيث إنّي، كما أَذكر، لم أكن أَجرؤ، مراتٍ كثيرةً، على مباشرةِ التأمّل لأنّي كنتُ أخشى الألم الكبير الذي سأَشعر به، كعقابٍ ثقيلٍ على إغاظتي إيَّاه. وراح هذا الإستعدادُ ينمو فيّ، فيما بعد، حتى بلغ حدًّا أَعجز معه عن مقارنة هذا العذاب بشيءٍ آخر. وما أَخذني خوفٌ قط، كبيرٌ أو صغير، بل عندما كنت أتذكَّر المسرّاتِ التي كان الله يُنعم عليَّ بها في التأمّل وكثرةَ ما أدين له به، وكم أسأتُ جزاءه، ما كنتُ لأُطيقَ سوءَ تصرُّفي هذا، وكنت أسخطُ سخطًا بالغًا لذرفي دموعًا غزيرةً على هفواتي دون أن أُصلِحها. وما كانت قراراتي وجهدي تَحُول دون سقوطي عندما أتعرَّض للظروف الخطرة.

كانت دموعي تبدو لي خادعةً فإخال ذنْبي فيمَا بعد أكبر، إذ أرى النعمة العظيمة التي يمنحني الله لأذرف تلك الدموع ولأشعر بندمٍ عميق. كنتُ أحاول الإعتراف عاجلاً وأبذل مستطاعي للرجوع الى حالة النعمة.

كان الشر، كلُّ الشر، يكمن في عدم ابتعادي عن الظروف تمامًا، وفي مساعدة معلّمي إعترافي الضئيلة. فلو أنهم بيّنوا لي الخطر المحيق بي والتزامي بقطع بعض العلاقات، لكان الأمر عُولج يقينًا؛ فلو أدركت الأمر لمَا كنت أَطَقتُ البقاء طوعًا، مهمَا كلّف الأمر، في حال الخطإ المميت يومًا واحدًا.

لقد أوتيتُ علاماتِ خوف الله هذه كلَّها بواسطة التأمّل. وأكبر هذه العلامات أنّ هذا الخوف مشبعٌ بحبِّ الله لأني لم أكن لأُعير العقاب اهتمامًا. لقد حرصت على السهر، طوال مدّة مرضي، لأَعصم ضميري من خطإٍ مميت. عفوَك اللهمّ! لقد كنتُ أتمنَّى الصحة لأَزداد إندفاعًا في خدمته، فكانت علَّةَ كلّ الضرر الذي نزل بي.

رغبتها في الشفاء

٥. واذ رأيتُني واهنةً وأنا في مُقتبَل العمر، ونظرتُ الحالة التي انتهى بي إليها أطبّاءُ الأرض، عزمتُ اللجوءَ إلى أطبّاء السماء علّني أنال الشفاء. ولئِن كنتُ أتمنّى إستعادةَ الصحة، فقد كنتُ أحتمل المرض بفرحٍ كبير، بل كنت أفكِّر أحيانًا: إذا كانت الصحَّة ستقودني الى الهلاك فخيرٌ لي أن أَبقى على حالي. بيدَ أنّي كنت أُفكِّر تارةً أخرى: إذا صحَّ جسمي فبإمكاني أن أخدم الله الخدمة الفضلى. هذا هو وهْمُنا: أن لا نُسلِّم أمرنا كلّه لإرادة الله الذي يعرف خير معرفةٍ ما يلائمنا.

شفاعة القديس يوسف

٦. أخذتُ أمارس عباداتٍ، من سماع قدّاساتٍ وتلاوة صلواتٍ حَثَّتْ عليها الكنيسة. فأنا ما أحببتُ قطّ العباداتِ التي يزاولها آخرون، والنساءُ خصوصًا، بطقوسٍ لا أستطيع تحمُّلها وهي تبعث فيهم التقوى. فقد تبيَّن أنَّها غيرُ مناسبة وأنَّها خرافية. واتَّخذتُ لي محاميًا وشفيعًا القديس يوسف المجيد ووكلتُ اليه ذاتي كلَّها.

وانكشف لي أنّ أبي هذا وشفيعي هو الذي أَنقذني من المرض ومن مخاطر أَدهى تهدِّد كرامتي وخلاصَ نفسي ، وآتاني خيرًا يفوق ما كنت أُحسِن طلبَه منه . لا أذكر ، حتى الآن ، أنّي سألتُه شيئًا إلّا استجابني . إنه لأمرٌ يثير الدهشة ما غمرني به الربُّ من نعمٍ بواسطة هذا القديس السعيد ، وأخطارَ النفس والجسد التي أَنقذني منها . يبدو أنَّ الله أعطى قدِّيسين آخرين نعمةَ مساعدتنا في حاجةٍ معيَّنة ، أما هذا القديس المجيد فأعرف ، بتجربتي الخاصة ، أنه يساعدنا في احتياجاتنا كلِّها . فالربُّ يريد أن يُفهِمَنا أنه كما كان خاضعًا لهذا القديس على الأرض ، اذ كان يدعوه أبًا باعتباره مدبِّرًا فكان بإمكانه أن يأمره ، هكذا أيضًا يفعل في السماء كلَّ ما يطلبه اليه .

وهذا ما تحقّقه أيضا أشخاصٌ آخرون إستشفعوه الى الله بناءً علىنصيحتي . وهناك الآن كثيرون حديثو التعبُّد له يتبيَّنون صحَّة هذا القول .

حثٌّ على العبادة للقديس يوسف

٧. كنت أبذل عنايتي للاحتفال بعيده بكلّ ما أستطيع من فخامةٍ تطغى فيها الأُبَّهة على الروح ، وهميٍّ في ذلك ، على حسنِ نِيَّتي ، أن يأتي الاحتفال منتظمًا يثير الإعجاب . على أنَّ نقصًا كان يلازمني . فعندما كان الرب يهبني نعمةً فأصنع عملًا حسنًا كان عملي يأتي مليئًا بالنقائص والشوائب . لقد كنتُ بارعةً حاذقةً في الشرّ والفضول والعُجب . سامحَني الربّ !

بودّي أن أحثّ الجميع على التعبّد لهذا القديس المجيد لخبرتي الواسعة في النعم التي ينالها لنا من لدن الله . فما عرفتُ من يتعبَّد له عبادةً حقيقيّةً ويُكرمه إكرامًا خاصًا الّا ورأيته متقدِّمًا في الفضيلة . إنه يُفيد النفوس التي تستشفعه فائدةً عظمى . أذكر أني منذ سنواتٍ عدّة وأنا أسأله كلّ سنةٍ في عيده حاجةً ، وقد حقَّقها لي دائمًا . وإذا كان الطلب ملتويًا فهو يقوِّمه لخيري الأكبر .

٨. لو خُوِّلتُ الإذنَ بالكتابة لكان يسرّني الإسترسال في الحديث بطيبة خاطر ، حديثًا مفصّلاً ، عن الأنعام التي أغدقَها عليّ وغمر بها آخرين هذا القديس المجيد ؛ إلّا أني ، كي لا أتجاوز حدودَ ما أُمِرْتُ به ، سأوجز الكلام في نقاطٍ عدّة

أكثر مما كنت أتمنّى وسأسهب في أخرى أكثر ممَا يجب ؛ أي إنني سأفعل كأيّ انسانٍ يتصرّف بقليلٍ منِ الرصانة في أيِّ عملٍ صالح. إنمَا أطلب ، حبًّا بالله ، أن يختبرَ ذلك من لا يصدِّق كلامي فيرى بتجربته الخاصة الخير الكبير في استشفاع هذا الأب المجيد والتعبُّد له. إن الذين يمارسون التأمّل بنوعٍ خاص يجب أن يكونوا دائمًا أهلَ ولائه . فأنا لا أدري كيف يمكن أن نوجِّه الفكرَ الى سلطانةِ الملائكة في حياتِها على الأرض وما كابَدتْه مع الطفل يسوع دون أن نؤَدّي الشكر للقديس يوسف على مساعدته الفعّالة لهما . من لا يجد مرشدًا يعلِّمه التأمّل فليتَّخذ هذا القديس المجيد معلِّمًا له ولن يضلَّ الطريق . عسى أن لا أكون شططْتُ في تجرُّئي على الحديث عنه ؛ فإنّي وان كنت أعلن تعبّدي لهذا القديس فقد طالمَا قصّرتُ في اكرامي له والاقتداء به . إنه ، وهو مَنْ هو ، أظهر قدرته عندما جعلني أنهض وأمشي ولا أبقى مقعدة . أما أنا ، فلكوني من أنا ، فقد كشفتُ عن قدرتي في إساءة استعمال هذه النعمة .

إبتهال وإعتراف بالجميل

٩. من كان يتصوّر أنّي سأسقط سريعًا بعد الأفضال الكثيرة التي منحَنيها الله وبعد أن شرع ، جلّ جلاله ، ينفحني بفضائل كانت ، هي ذاتها ، تحثُّني على خدمته ، وبعد أن رأيتُني أشرفتُ على الموت وفي خطرٍ من الهلاك داهِمٍ ، وبعد أن بعثَني نفسًا وجسدًا ، حتى تعجَّبَ كلٌّ من رآني على قيد الحياة !

ما أعجبَ هذا الأمر ، يا ربّي ! أَفعلينا أن نعيش في حياةٍ كهذه محفوفةٍ بالأخطار؟ إني أتصوّر نفسي ، وأنا أكتب هذه الأمور ، قادرةً بفضلكَ وبرحمتك ، على تردادِ قول القديس بولس ، ولو باسلوبٍ دون اسلوبه كمالاً : «**لَستُ أنا أحيًا بل أنْتَ ، يا خالِقي ، تحيا فِيَّ**»[٣] . فإنَّك ، منذ بضع سنوات ، على ما اعتقد ، تأخذني بيدك ، وأرى فِيَّ رغباتٍ وعزائمَ على أن لا أصنع شيئًا يخالف إرادتك مهمَا يكن صغيرًا ، وقد اكّدتْ ذلك تجربتي في أمورٍ كثيرةٍ خلال هذه السنوات وإن كنتُ

---

(٣) غلا ٢ : ٢٠.

أرتكبُ إهاناتٍ كثيرةً ضِدَّ جلالك بدون معرفة. وأرى أيضًا أن لا شيء يَعرضُ لي من أجل محبَّتك إلّا وأُقدِم عليه بتصميمٍ قاطع. وإنما أنت ساعَدْتَني في تحقيق أمورٍ كثيرة. لا أُريد العالم ولا شيءَ من العالمِ، ولا أَرى ما يرضيني خارجًا عنك. كلّ ما عداك صليبٌ لي ثقيل.

قد أُخطئُ التقديرَ فلا أملك الاستعدادات التي ذكرت، إلّا أنَّك، ربّي، تراني، على قدر فهمي، لا أكذب. وإني لأخشى، عن حقٍ، من أن تعود فتتخلّى عنّي، لأني أعرف مدى قوّتي وفضيلتي الضعيفة إذا لم تعطِنيها وتساعدْني حتى لا أتركك. فعسى، ربّي، أن لا أكون، في هذا الوقت بالذات، هَمْلاً[٤] لديك فيمَا أراني على هذه الاستعدادات.

لا أدري كيف نريد أن نحيا على هذه الأرض ما دام كلّ شيء مريبًا. ربّي! لقد كنتُ أحسب التخلّي عنك تمامًا مستحيلاً. أما وقد تخلّيتُ عنكَ مِرارًا فلا يسعني التحرّر من الخوف. فاذا ابتعدتَ عني قليلاً صرت بكلّيتي الى الحضيض. تباركتَ، ربي، أبدًا؛ لأني وان كنتُ أتخلّى عنك، فمَا كنتَ تتخلّى عنّي تمامًا بل كنتَ تمدّ اليّ يدك لأَنهض من جديد وكثيرًا ما كنتُ أرفضها، يا ربّ، بل أرفض أن أفهم نداءاتِك المتكرّرة، كما سأروي ذلك في ما يلي.

(٤) متروكة.

الفصل السابع

تروي كيف راحت تفقد المنن التي أسبغها الرب عليها وكيف بدأت حياتُها تسوء، وتتحدّث عن الأضرار الناجمة عن عدم تقيُّد أديار الراهبات بالحصن تقيُّدًا دقيقًا.

لهوها وحياؤها من التأمل

١. بدأتُ، إذًا، أنتقل من أُلْهُوَّةٍ الى أُلْهُوَّة، ومن غرورٍ الى غرور، ومن ظرفٍ الى ظرف لأَحشر ذاتي في ظروفٍ خطرةٍ جدًّا وأُفسد نفسي بأباطيلَ عديدةٍ حتى بتُّ أستحي الإقتراب من الله في الصداقة الخاصة الحميمة التي هي التأمّل. وقد زاد في استحيائي أنّ خطاياي تكاثرت فأَخذتُ أفقد المتعة والسرور في ممارسة التأمّل(١).

كنت أرى بوضوحٍ، يا ربّي، أن هذه المنن تفوتني لأني أبتعدُ عنك.

كانت هذه أفظعَ خدعةٍ يستطيع الشيطان أن يُوقعني فيها تحت ستار التواضع. بدأتُ أخشى ممارسة التأمل إذ رأيتُني مُمعِنةً في التيه، وكنت إخال من الأفضل أن

---

(١) إن هذه المقاطع التي تتحدّث فيها القديسة عن «حياتها البائسة» استغلّها بعض الكتّاب الذين يميلون الى إثارة المشاعر، كما دافع عنها ببراءة بعض من كتبوا سيرة القديسة عن تشيّع أكثر منهم عن خبرة بتفسير النصوص. ونحن نكتفي بالإشارة الى ما تقوله في **السيرة** ٧، ١٤. وبشهادة الأب بانييث في دعوى سلمنكا حيث يقول إنه «لم يعرف فيها (القديسة) من الأخطاء، أثناء عيشها في دير التجسّد، إلّا ما يوجد عمومًا في راهبات مثلها صالحات... وانها امتازت دائمًا بممارستها التأمل بما يفوق المألوف».

أتصرَّف مثل الكثيرين – فلِكَوني حقيرةً كنتُ من الأَسوَئين – وأن أتلوَ الصلوات اللفظية المفروضة لا أن أمارس التأمُّل ومخاطبةَ الله مخاطبةً حميمةً ، أنا التي كنت أستحقّ أن أَكون في صُحبة الشياطين ، وكنت أخدع الناس لأنّي كنت أَظهر بمظاهر خارجيةٍ حسنة . لذلك لا لومَ على الجماعة التي كنت أعيش بينها ، لأني كنت أسعى ببراعةٍ ليُحسنوا الظنَّ بي ، وإن لم يكن في نيَّتي إصطناعُ التقوى . فأنا لا أذكر أبدًا أنّي ، والحمد لله ، أغظته بالرياء أو بالعُجْب فيما أذكر . فلدى أوَّل بادرةٍ من عجْبٍ أو رياء كنت أشعر بألمٍ كبير فيرتدُّ الشيطان خاسئًا وأكسب ، أنا ، استحقاقًا ؛ ولهذا ، فقليلاً ما جرّبني في هذا المجال . ولو حدث أن سمح الله له بأن يجرِّبني في هذا الموضوع بالقوّة نفسها كما في مواضيع أخرى لكنت سقطتُ في التجربة . إلّا أنّه ، جلّ جلاله ، حفظني حتى الآن . تبارك الى الأبد . وكان يؤسفني كثيرًا أن يُحسن الآخرون ظنّهم بي لأني كنت أعرف ما في باطني .

ظواهر الفضيلة فيها

٢ . وعدمُ اعتبارهم إيّاي شرّيرةً يعود ، الى حدٍّ كبير ، الى أنهم كانوا يرونني فتيَّةً ومع هذا أتجنَّب الظروف الخطرة الكثيرة ، وأنقطعُ الى الوحدة مرارًا لأُصلّيَ وأُطالعَ ، وأُكثِرُ من الحديث عن الله ، وأهوى رسم صورة السيِّد المسيح في مواضع عدة ، وأنَّ لي مصلّى أجعل فيه ما يثير روحَ التقوى ، ولا أنطِقُ بالسوء ؛ كما كانوا يرون فيَّ أمورًا أخرى لها ظاهرُ الفضيلة . أما أنا ، لغروري ، فكنت أعرف أن أُقدِّر ذاتي في الأمور التي اعتاد العالم أن يقدّرها . ولهذا كنت أُعطى حرِّيَّةً توازي بل تفوق تلك التي كانت تُعطى للراهبات القدامى ؛ وكانوا يثقون بي كلّ الثقة . وأُقرّ بأنّي ما كنت لأتصرَّف من تلقاء نفسي أو لآتي عملاً بدون إذن ، كالحديث عبر نافذة أو من فوق الجدار أو في ظلمة الليل . كان من المستحيل أن أَنقاد ، في الدير ، الى حديثٍ أو عملٍ كهذا لأنّ الرب كان يقتادني بيده . ولأني كنت أُنعم النظر في أمورٍ كثيرةٍ برويّة وإدراك ، كنت أعتبر التعريض بصيت راهباتٍ أخريات لكوني حقيرةً ، مع أنّهنّ فاضلات ، أمرًا سيّئًا جدًّا ؛ كأنّ أمورًا أخرى كنت أفعلها كانت حسنةً .

والحقيقة، ان الهفوات التي كانت تصدر عني، على كبرها، لم تكن في هذه الخطورة.

حريّة الراهبات في الدير

٣. لهذا أعتقد أنْ قد أضرّ بي كثيرًا عدمُ وجودي في ديرٍ محصَّن. فإنَّ الحرّية التي كانت تتمرّس بها الراهبات الورعات باستقامة – وما كُنَّ ملزماتٍ بأكثر مما يقمن به لأنهنّ ما نذرن الحصن – كان من شأنها أن تنتهْي بي، أنا الشقيّة، الى جهنّم لو لم ينقذني الربّ من هذا الخطر بمساعداتٍ ووسائطَ كثيرةٍ، وبمننٍ خاصةٍ من لدنه. وهكذا، فإنّ ديرًا فيه نساءٌ يَنعمنَ بحريّةٍ لهُوَ خطرٌ بالغٌ جدًا، بل يبدو لي طريقًا يقود الى جهنّم أولئك اللواتي يُردن أن يكنّ بائساتٍ، أكثرَ منه علاجًا لضعفهنّ.

لايُؤخذَنّ كلامي هذا كأنه على ديري[٢]، فإن فيه راهباتٍ كثيراتٍ يخدمن الربَّ خدمةً حقيقية وعلى درجةٍ من الكمال رفيعةٍ، فلا يقدر، جلّ جلاله، لصلاحه، إلّا أن يُسبغ عليهنّ أفضاله. وهو ليس من الأديار الكثيرة الإنفتاح، بل تُحفظ فيه القوانين بدقّة. وإنما كلامي على أديارٍ أخرى عرفتُها وشاهدتها.

خطر البهرجات الدنيوية في الأديار

٤. إن هذا الوضع يثير فيّ الأسى. فمن الضروري أن يوجِّه الربّ إليهنّ نداءاتٍ خاصةً، مرارًا وتكرارًا، حتى يَخلُصن، لأن هذه الأديار تسودها أُبّهاتُ العالم وتسلياتُه ولا تفقه الراهبات فيها واجباتِهنّ الحقّة. فعسى الله ينيرهنّ فلا يرين فضيلةً ما هو خطيئة كمَا كان يحدث لي غالبًا. ومن الصعوبة بمكان إفهامُ هذه الحقيقة، فينبغي أن يضع الربُّ حقًّا يده في الأمر.

---

(٢) أي دير التجسّد لا دير القديس يوسف.

الأفضل الزواج...

لو أن الأهل يسمعون نصحي! فما داموا لا يفكّرون بوضع بناتهم في مكانٍ يتّبعن فيه طريق الخلاص بل يحيط بهنّ خطرٌ أكبر مما في العالم، فليتفحّصوا الأمر من اجل سمعة بناتهم؛ وليُؤْثِروا تزويجَهنّ زواجًا وضيعًا على أن يُدخلوهنّ أديارًا كهذه، إن لم يكنَّ ميّالاتٍ الى الفضيلة - وليت هذا الميل يكفي - أو فليُبقوا عليهن في البيت. فاذا ارادت البنت أن تنزِع منزعَ السوء في بيت والديها، فلن يخفى أمرها طويلاً؛ أما في الدير فيمكنها التمويه كثيرًا حتى يكشف الرب أمرَها، وهي بذلك لا تضرّ نفسها فحسب بل تؤذي الراهبات جميعًا. والذنْب أحيانًا ليس ذنب هؤلاء الفتيات المسكينات لأنهنّ يسلكن دربًا مطروقًا. وتثير الشفقةَ كثيراتٌ منهنّ يُردن الابتعاد عن العالم ويفكِّرن بأنهنّ ماضياتٌ الى خدمة الرب وتجنّب مخاطر العالم، فيجدن أنفسهنّ في عوالم عشرة مجتمعةٍ فلا يعرفن الى الخلاص علاجًا أو سبيلاً؛ لأن فتوَّتهنّ والشبقَ والشيطانَ يحثّونهنّ ويميلون بهنّ الى اتِّباع بعض أمورٍ هي من صميم العالم، وهنّ يَرَيْنها تُعتبر في الدير صالحةً، إذا صحّ القول. إنهنّ بنظري أشبهُ، الى حدٍّ ما، بالهراطقة التعساء الذين يتعامون ويوهِمون أن ما يتّبعونه صالح، ويعتقدون به من دون قناعة، لأن في داخلهم من يقول لهم إنّه شر.

شر الأديار المتراخية

٥. يا لَلشرّ العظيم! يا لشرّ الرهبانيات العظيم - لا أقصد النسائيةَ أكثرَ ممّا أقصد الرجالية - حيث لا يُحفظ القانون! حيث يكون في ديرٍ طريقان: طريق الفضيلة والتقوى، وطريق التراخي، ويُتْبَع كلاهما على السواء! لقد أخطأت: إن السلوكَ فيهما متفاوت. فخطايانا تزيدنا إندفاعًا في طريق النقص؛ ولأن السائرين فيه كُثر فهو يسجِّل نجاحًا فائقًا. أما الطريق الرهباني الحقّ فقليلٌ سلوكُه بحيث إن الراهب أو الراهبة، الذي يريد السير أمينًا في دعوته، عليه أن يخاف سكّانَ الدير أنفسَهم أكثرَ من الشياطين مجتمعين، وعليه أن يعتمد الحذر والتكتّم في حديثه عن الصداقة التي يودّ إقامتها مع الله أكثر مما يفعل في كلامه على صداقاتٍ أخرى ومودّاتٍ

يتعهّدها الشيطان في الأديرة. ولا أدري لماذا نعجب من وجود شرور كثيرة في الكنيسة طالما أنَّ من يجب أن يكونوا نماذجَ يَقتدي الآخرون بفضائلهم عطّلوا تمامًا عمل الروح الذي خلَّفَه القديسون أسلافُهم في الرهبانيات. عسى العزّة الالهية تعالج هذا الأمر كما ترى وجوبَ معالجته. آمين.

رؤية المسيح عابسًا

٦. بدأتُ إذن أتعاطى هذه المحادثات ؛ ولأنها كانت عادةً سائدةً ، ما كنت إخال أنه سيحصل لنفسي ضررٌ وشتاتُ فكرٍ كما عرفتُ فيما بعد أنّهما ينجمان عن مثل هذه العلاقات. فقد حسبتُ أنَّ أمرًا شائعًا الى هذا الحد، كالزيارات في الأديار، لن يؤذيني بأكثر مما يؤذي الراهبات الأخريات اللواتي كنت أعتبرهنّ فاضلات ، دون أن أعتبرهنّ يفضُلْنني كثيرًا ، وأنّ ما كان خطرًا عليّ لم يكن بالقدْر نفسه خطرًا عليهنّ ، وإنْ كنت لا أشكّ في وجود بعضه ولو اقتصرَ على إضاعة الوقت فحسب. وإذ كنت ذات يوم مع شخصٍ حديثةٍ معرفتي به ، أراد الرب أن يفهمني أنّ هذه الصداقات لا توافقني ، وأن يُنبِّهني وينيرني في هذا العمى الخطير ، فتمثّلَ المسيح أمامي عابسًا أيّما عَبوس مُبيِّنا لي مبلغ أسفه لهذه الصداقات. رأيتُه بعينَي الروح على وضوحٍ يفوق وضوح رؤيتي إيَّاه بعيني الجسد. وانطبعت صورته راسخةً فيّ بحيث إنّي بعدَ مُضيّ أكثر من ستٍ وعشرين سنةً ما زِلت إخاله حاضرًا. فدهشت كثيرًا واضطربت وما عدت أريد أن أرى بعدئذٍ الشخصَ الذي كنتُ بصحبته.

شكٌّ في صحة رؤيا المسيح

٧. آذاني أيّما أذًى جهلي بإمكان رؤية شيءٍ بغير عينَي الجسد. وحاول الشيطان ترسيخ تلك الفكرة فيّ ، وإفهامي استحالتَها وأنها كانت وهمًا ، وأنها قد تكون من عمل الشيطان ، وأمورًا أخرى كهذه. إلّا أنّي كنت أتصوّر دائمًا أنّي رأيت الله ولم تكن رؤيتي وهمًا. ولمّا كانت تلك الرؤيا لا توافق ميلي ، كنت أُغالط نفسي. ولأني لم أجرؤ على مكاشفة أحدٍ بالأمر ، وعادوا يُلحّون عليّ مؤكّدين أنّ

رؤيتي الشخصَ المذكور ليست شرًّا ، ولا تعرِّضُ سمعتي بل ، على العكس ، تزيدني كرامةً ، إستأنفتُ المحادثات بل أنشأْتُ في فتراتٍ أخرى مداولاتٍ مع آخرين لأني قضيتُ سنواتٍ كثيرةً في هذه الألْهوّة الخبيثة . ما كنت أحسبها ، فيمَا أنا منقادةٌ لها ، شرًّا بقدْر ما هي في الواقع ، وإن كنت أرى بوضوحٍ أحيانًا أنّ هذه العلاقة ليست بصالحة . إلّا أنّ أحدًا لم يشتِّت أفكاري كذلك الشخص الذي ذكرت لأنّي محضتُه الكثير من مودَّتي .

رؤية ضفدع عملاق

٨. كنت مرّةً والشخص المذكور فرأينا – كما رأى ذلك آخرون كانوا هناك – ضفدعًا عملاقًا قادمًا نحونا بسرعةٍ تفوق كثيرًا جري هذه الحيوانات العاديّ. لا أستطيع أن أفهم أنّ مِسخًا كهذا يستطيع أن يأتي من حيث أتى في وُضُحِ النهار ، ولا سُمِعَ بحدوث مثل ما حدث . أما تأثيره عليّ فمَا أحسبه إلّا وينطوي على سرّ . كما اني لم أنسَ ذلك المشهد قط .

يا لَعظمة الله ! بأيّ عنايةٍ وشفقةٍ بالغتَين كنتَ تنبِّهني في كلّ حال ، وما كان أقلّ استفادتي !

تنبيه راهبةٍ قريبةٍ لها

٩ كان في ذلك الدير راهبةٌ من ذوي قرباي قديمةُ العهد في الرهبنة ، تخدم الله بكثيرٍ من التفاني ، راسخةُ التقوى . وهذه أيضًا كانت تنبّهني أحيانًا فما كنت أستخفّ بكلامها فحسب ، بل كنت أجافيها وأرى أنّها تتشكّك من دون سبب .

إنّي أروي هذه الأمور ليُعرَفَ سوءُ صنيعي وجودةُ الله العظيمة ، وكم كنت أستحقّ جهنّم لهذا العقوق البَالغ . وأرويها أيضًا حتى إذا رتّب الله ورضي في وقتٍ ما أن تطالعها بعض الراهبات يتّعظن بي . وأنا أطلب إليهنّ ، حبًّا بربنا ، أن يهربن من أمثال هذه التسليات . عسى أن تتحرّر بنعمته ، عزّ وجل ، واحدةٌ من الكثيرات ممن خدعتُهنّ بقولي بأنْ ليس من سوءٍ في هذه المحادثات ، مطَمْئنةً إيّاهنّ حول خطرٍ

جسيمٍ كهذا لِما كنت عليه من عمًى ؛ فإنّي ما كنت لأضلّهنّ عن قصد. إنني بمَثَلي السيئ ، كما قلت ، كنت سببًا لشرورٍ كثيرة ، إلّا أنّي ما كنت أظنّني أصنع شرًّا بهذا القدر.

تحثّ أباها على التأمل

١٠. أثناء الأيام الأولى من مرضي ، وقبل أن أعرف تدبير أمري بنفسي ، كانت لي رغبةٌ كبرى تدفعني لإفادة الآخرين ، وهي تجربةٌ عاديّة جدًّا تحدث للمبتدئين وإن أصبت فيها نجاحًا. كنت أحبّ والدي كثيرًا فأتمنّى له أن يملك الخير الذي أعتقد إمتلاكَه بالتأمل ، وما كنتُ أعتبر خيرًا أكبرَ منه في هذا العالم. فَرُحتُ ، بمداوراتٍ شتّى ، أعمل كي يمارس التأمل. فقدّمت له كتبًا بهذا الموضوع. كان أبي فاضلاً ، كما قلت سابقًا ، فتمكّن من هذه الممارسة حتى إنه ، في مدّة خمسٍ أو ستٍّ سنوات ، كما أذكر ، أحرز تقدّمًا شكرت الربّ عليه عظيمَ الشكر ، وكان لي بتقدّمه تعزيةً كبرى. وحصلتْ لوالدي متاعب شاقّةٌ مختلفة فكان يتحمّلها جميعَها بتسليمٍ تام لإرادة الله. وكثيرًا ما كان يأتي لزيارتي فيجد له في مذاكراتنا عن الله عزاء.

تجربة انقطاعها عن التأمل وأمراضها

١١. وبعد أن انهار وضعي ولم أعد أمارس التأمل ، كنت أراه يظنُّني مواظبةً على ما كنت عليه ، فما تمالكتُ من أن أحرّره من هذا الوهم. قضيت سنةً بل أكثر من سنة منقطعةً عن التأمل متصوِّرةً ذلك تواضعًا أرفع. كانت هذه أكبرَ تجربةٍ عرضت لي ، كمَا سأروي فيما بعد ، كادت أن تقضي عليّ قضاءً تامًّا. فعندما كنت أمارس التأمل، كان يحدث لي أن أغيظ الله يومًا فأعود الى الإختلاء والإبتعاد عن أسباب الإغاظة أيّامًا. ولما كان هذا الرجل البار، والدي ، يأتي فنتجاذب أطراف الحديث عن الله ، كان يشقّ عليّ أن أراه ضحيَّةَ الوهم بتصوُّره إيّاي أتعاطى مع الله شأني في السابق. فقلت له إني لم أعدْ أمارس التأمل ، ولو أنّي لم اكشف له السبب. صوّرتُ له أنّ أسقامي هي العائق ؛ لأني ، وإن شفيت من ذلك المرض الخطير ، فقد

أُصبت وما زلت مصابةً بأمراضٍ شديدة وإن تكن منذ فترةٍ قصيرةٍ أخفَ وطأةً إلّا أنها ملازمةٌ ومتنوِّعة. عانيتُ بنوعٍ خاص من القَيء صباحًا طوال عشرين عامًا، فما كنتُ أتمكّن من الفطور إلا عند إنتصاف النهار، وأحيانًا بُعَيْدَه. ومذْ صرت أُكثر من تناول القربان، فإنّ التقيُّؤ يحدث لي في الليل، قبل الرقاد، ويسبِّب لي ألمًا أشدَّ من ذي قبل، فأضطر الى استثارته بواسطة ريشةٍ أو غير ذلك؛ لأني إذا لم أفعل ينتابني ألمٌ شديد. ولا أراني أبدًا تقريبًا خُلوًا من أوجاعٍ كثيرة، بل وخطيرةٍ أحيانًا، لا سيّما في القلب، ولو انّ الوجعَ الذي كان يلازمني سابقًا صار نوباتٍ متباعدة. أما النُقرس[٣] والحُمَّياتُ التي كانت تعاودني، فقد برئت منها منذ ثمانية أعوام. وأكاد لا أُبالي بهذه الأمراض، بل إنني كثيرًا ما أُسرّ بها لأني أرى فيها خدمةً ما للرّب.

التأمل في حالة المرض

١٢. وصدَّق والدي ما زعمتُه سببًا لابتعادي عن التأمل. فهو ما كان يكذب أبدًا، وما كان يجب أن أكذب نظرًا الى ما كانت عليه علاقتنا. قلت له حتى يرسخ في اعتقاده (اعتبارًا منّي أنْ لا عذر لي) إنّه يكفيني أن أتمكّن من المشاركة في صلاة الخورس. ولم يكن هذا عذرًا كافيًا للإقلاع عن ممارسةٍ لا تحتاج قوىً جسديّةً بل حبًّا وعادةً فقط، لأن الربّ يُتيح لنا الفرصة دائمًا إذا أردنا. أقول «دائمًا» لأنه وان كانت بعض الظروف، بل والأمراض، تحرمنا أحيانًا أوقاتًا طويلةً للعزلة، تبقى، مع هذا، أوقاتٌ أخرى تُفسح الصحَّة لنا فيها مجالَ التأمل. والتأمل الحقيقي، إبّان هذا المرض نفسِه وهذه الظروف، يقوم بأن تُقدّم النفسُ لله، اذا كانت تحبّ الله، كلَّ ما تحتمله وأن تتذكّر ذاك الذي من أجلهِ تحتمله، وأن تُخضع إرادتها له وألفَ أمرٍ آخر يَعرض لها. هنا تمارس النفسُ الحبَّ؛ فليست العزلة شرطًا محتَّمًا للتأمل بحيث لا يكون تأمُّلٌ بدونها. وبقليلٍ من الاهتمام، يمكن الحصولُ على خيراتٍ كبيرة من الوقت

---

(٣) ورم ووجع في مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين وفي إبهامها أكثر. ومنه وجعُ المفاصل وعِرقُ النَسَا.

الذي يقتطعه الرب من وقت التأمل بواسطة المشقّات. وقد حصلتُ، أنا، على هذه الخيرات عندما كنت صافيةَ الضمير.

تصديق والدها أعذارها

١٣. أما والدي، لحسن ظنّه بي ومحبّته لي، فقد صدّق كلَّ ما قلت، بل وأشفق عليّ. ولأنه كان بلغ درجةً رفيعةً من التأمل، فما كان يطيل المكثَ معي، بل ما إن يراني حتى يُقفل راجعًا وهو يقول إنه يضيّع وقته. أما أنا، لأني كنت أُقضي وقتي بأباطيل أخرى، فما كنت لأبالي بالأمر كثيرًا.

حث الآخرين على التأمل

ولم يقتصر سعيي على والدي ليمارس التأمل، بل تناولَ آخرين. وعهدَ كنتُ منصرفةً الى الأباطيل، حين كنت أرى اشخاصًا يحبّون الصلاة كنت أشرح لهم طريقة التأمل، وأفيدهم، وأوفّر لهم كتبًا مناسبة؛ ذلك أنّ الرغبة بأن يَخدم الآخرون الله كانت تلازمني مذ بدأتُ أمارس التأمل، كما ذكرت. فما دمتُ لا أخدم الربّ كما يجب، كنت أرى أن لا يَضيعَ ما آتاني، جلّ جلاله، من أنوار، وأن يخدمه آخرون عوضًا عنّي. أقول هذا حتى ينكشف العمى المتمادي الذي كنت مسترسلةً فيه بحيث كنت أنساق لهلاكي فيما أسعى لإنقاذ الآخرين.

مرض والدها الأخير

١٤. في تلك الفترة أصاب والدي المرضُ الذي أودى به [٤] ودام بضعة أيام. ذهبتُ للعناية به وأنا مريضةٌ في نفسي أكثر ممّا هو مريض في جسده. كنتُ أسيرةَ أباطيل كثرة، وإنْ لم يبلغ بي الأمر، بحسب معرفتي، حالَ الخطيئة المميتة طوال

(٤) المرجّح في ٢٤ كانون الأول ١٥٤٣.

الزمن الذي أضعتهُ كما قلت. فلو عرفتُ أنَّ أمرًا ما هو خطيئة مميتة لما كنت رضيت بحال أن أستمرّ فيها.

قاسيتُ مشقةً بالغةً بسبب مرض والدي، وأعتقد أنّي رددتُ له بعضَ ما احتملَه أثناء أسقامي. فعلى كوني عليلةً، كنتُ أجهدُ نفسي لخدمته. ولإعتباري أنّي إذا فقدته فقدت كلّ خيرٍ وسرور، إذ كان يُدلّلني دائمًا، تسلّحتُ برباطة الجأش حتى لا ينكشف له غمّي. ومكثتُ حتى أدركتْه الوفاة، وكأنّي لم أشعر بشيء، مع أنّي كنتُ إخال نفسي تتمزّق حين كنت أرى حياته تُشرف على التلف، لأني كنت أُحبّه حبًّا جمًّا.

وفاة والدها

١٥. لقد مجّد والدي الربَّ في الميتة التي ماتها، وفي توقه الى الموت، وفي النصائح التي كان يُسديها إلينا إثر قبولهِ المسحةَ الأخيرة، وفي طلبه إلينا التضرُّعَ الى الله من أجله، وإستمطارِ رحمته عليه، وأن نخدم الربَّ دائمًا، ونعتبرَ أنّ كلَّ شيءٍ زائل. لقد كان يُفصح لنا، وعيناه مُغرورقتان بالدمع، عن حزنه العميق لأنه لم يخدم الربَّ، وأقول بأنّه كان يتمنَّى أنْ يكون راهبًا ومن أشدّ الرهبان تقشّفًا.

إني لواثقةٌ كلَّ الثقة بأنّ الربَّ كشف له إنقضاءَ أجلِه خمسة عشر يومًا قبل حصوله لأنه قبل تلك الأيام، على ثقل مرضه، لم يكن يفكّر في هذا الأمر. ثم بعد ذلك، على تحسنّ حاله وتأكيد الأطبّاءِ سلامته، ما كان يُعير قولَهم إهتمامًا بل كان يُعنى بترتيب وضع نفسه.

١٦. كان يشكو على الأخصّ من ألمٍ مُبرِّحٍ في كَتفَيه لا يفارقه أبدًا، ويضغط عليه أحيانًا حتى تجيشَ الغصَّة في صدره. سألته، ما دام متعبِّدًا للمسيح الحاملِ صليبَه على مَنكبيه، أن يتذكَّرَ أنه، عزّ وجلّ، يريده أن يشعر بشيءٍ ممّا قاساه الرب من ذلك الألم، فتعزى تعزيةً كبرى حتى لا أذكرني سمعتُه يتشكّى من بعد.

لقد قضى ثلاثة أيّامٍ في شبه غيبوبة. ويوم وافاه الأجل، أعاد له الربُّ وعيَه تمامًا فأَدهشَنا، واستمرّ صافيَ الذهن يتلو قانون الإيمان، حتى إذا بلغَ نصفه فاضت

روحُه. كان شبيهًا بملاك: هكذا كان يبدو لي، إذا جاز التعبير، في روحه وفي استعداداته الممتازه.

لا أدري لماذا رويتُ كلّ هذا، إذ لم أكن لأشدِّد اللوم عل حياتي الحقيرة بعد أن شهدتُ هذه الميتة وعرفتُ تلك الحياة، ولألزم نفسي بإصلاحها، ما دام بي شَبَهٌ بوالدي. كان معلِّم اعترافه(٥)، وهو راهبٌ دومنيكي راسخٌ في العلم، يقول إنه لا يشكّ بأن أبي سيمضي توًّا الى السماء؛ فقد مضت سنوات وهو يسمع إعترافَه ويشهد على نقاء ضميره.

عودة الى التأمل

١٧. ان هذا الراهب الدومنيكي، وهو رجلٌ فاضلٌ يخاف الله، آتاني نفعًا جزيلاً. لقد كنت أعترفُ لديه، فتعهَّد بالسهر بعنايةٍ على خير نفسي والكشف عن الهلاك الذي كنت صائرةً اليه. أمرَني بالتناول مرةً كلَّ خمسة عشر يومًا. وراحت العلاقة بيننا تتوثّق شيئًا فشيئًا حتى فاتحتُه بأمر تأملي، فأشار عليّ بألاّ أُهمِل التأمل فلا بدّ من أن يفيدني بأيّ حال. فعُدت الى التأمل، وإن لم أتحرّر من الظروف، وما أهملتُه من بعد قط.

محاولة التوفيق بين ضدّين

كانت حياتي رَهَقًا شديدًا لأنني، في التأمل، كنت أعي أَخطائي بوضوح أكبر. فقد كان الله يدعوني من جهة، وكنت، من جهةٍ أخرى، أتبع العالم. كلُّ أمور الله كانت تَسرّني سرورًا عظيمًا، لكنَّ أمور العالم كانت تقيّدني. كأني كنت أريد التوفيق بين هذين الضِدَّين – والعداوة ضاريةٌ بين الواحد والآخر –: بين الحياة الروحية وتعزياتِها وملذّاتِ الحياة الحِسِّيّة ولَهْوِها. كنت أعاني في التأمل جهدًا جاهدًا، لأنَّ الروح لم يكن سيِّدًا بل عبدًا. فكنت أَعجَزُ عن أن اختليَ بنفسي.

(٥) الأب بارّون Vicente Barron.

وكان هذا نهجي الوحيد في التأمل، دون أن يصحبني الفُ فكرٍ باطل.

قضيت سنواتٍ عديدةً على هذه الحال حتى لأعجب الآن كيف استطعت تحمُّلَها دون أن أنقطع عن هذا الأمر او ذاك. لكنّي أدرك تمامًا أنّ إهمال التأمل لم يكن بيدي، لأنّ ذاك الذي يحبّني كان يُمسكني بيديه ليضاعف سوابغَ نعمِه لي.

الله يستر خطاياها

١٨. يا عِباذي بالله لو كان عليّ أن أَعرض الظروفَ التي كان الربُ ينجّيني منها وكيف كنتُ أعود فاسقط فيها، وكم أنقذني من مخاطر عرَّضتْني لفقدان رصيدي كلهِّ! ما إن كنت، أنا، أصنع أعمالاً تكشف حقيقتي، حتى يستر الربّ مساوئي ويُظهر فضيلةً لي صغيرةً، هذا إذا كانت لديّ فضيلةٌ، ويعظِّمها في عيون الآخرين بحيث كانوا يُقدِّرونني دائمًا. فلئِن كانت أباطيلي تُستشفّ أحيانًا، فما كانوا يخالونها فيّ لأنهم كانوا يرون أمورًا أخرى تبدو لهم صالحةً. ذلك أن العالِمَ بكلّ شيء رأى أن الأمور يجب أن تجري هكذا حتى يُصدِّقوا بعض التصديق تلك الامور التي حدّثتُهم بها، فيمَا بعد، عن خدمته تعالى. فكان، هو، بسخائه السامي، ينظر، ليس خطيئاتي الكبيرة بل رغباتي الوافرة غالبًا في أن أخدمه، وتألّمي لعجزي عن وضعها موضع التنفيذ.

إبتهال وشكر

١٩. أواه يا رب نفسي! كيف لي أن أُعظِّم العطايا التي أغدقتَها عليّ طيلة السنوات هذه، واستعجالك، زمانَ تماديَّ في إغاظتك، إعدادي بندامةٍ كبرى لِتذوّق طَيِّباتِك ومِننك! والحقَّ أقول، يا مليكي، إنك كنتَ تعتمد وسيلةً لذلك أَلطفَ عقابٍ وأشدَّه إيلامًا عليّ، لأنك تعرف حقَّ المعرفة ما يعذِّبني تعذيبًا. لقد كنت تعاقب ذنوبي بمننٍ وفيرة.

ولا أراني أقول قولاً هراء، وإن كان تذكُّري الآن عقوقي وخبثي من شأنه أن يزجّني في الحماقة.

كان نيلي مننًا ، عند إتياني ذنوبًا جسيمةً ، أكثرَ مشقّةً على طبعي من أن تنزل بي العقوبات . وأرى حقًا أنّ واحدةً من تلك المــنن كانت تبلبلني وتُربكني وتتعبني أكثرَ من أمراضٍ ومحنٍ أخرى عديدة مجتمعة . فهذه كنت أراني أستحقّها وأعوض بها عن خطيئاتي وإن كان كلّ تعويض ، لكثرتها ، قليلاً . غير أنّ حُظوتي المنن جديدة ، وأنا أجحد التي تلقّيتها ، لهو نوعٌ من العذاب أليمٌ لي ، وأظنُّه كذلك لجميع الذين عرفوا الله بعض المعرفة أو أحبّوه بعض الحبّ . ويمكن التأكّد من هذا الأمر إستنادًا الى مشاعر نفسٍ فاضلة . كانت مشاعري تُسيل دمعي وتُثير سخطي إذ أراني على وشك العودة الى السقوط وإن كانت عزائمي ورغباتي حينذاك ، أعني في تلك الفترة ، راسخةً .

فائدة الأصدقاء في الصلاة

٢٠. إنها لداهيةٌ ان تُوجَد نفسٌ وحيدةً في مثل هذه المخاطر . في ظنّيّ أنه لو قُيِّض لي شخصٌ أبحث معه هذه الأمور كلّها لكان ساعدني على ألّا أعود الى السقوط أقلّه حياءً منه إن لم يكن من الله الذي فقدت إزاءه الحياء .

لذا أنصح الذين يمارسون التأمل ، خصوصًا متى كانوا في أوّل عهدهم به ، ان يسعوا ليخالطوا ويصادقوا من يتعاطون هذه الرياضة نفسها . إن هذا لأمرٌ ذو أهمّيّةٍ قصوى ولو إقتصر على مساعدة بعضهم بعضًا بالصلاة . فكم تكون أهمِّيّته إذا توفّرت فيه منافع أخرى جمّة ! فإذا كان الناس في محادثاتهم ومقاصدهم البشرية ، ولو غير صالحة ، يبحثون عن اصدقاء يرتاحون اليهم ليستمتعوا أكثر برواية تلك المسرّات الباطلة ، فلا أدري لماذا لا يجوز لمَن بدأ يحبّ الله حبًّا حقيقيًا ويخدمه ، أن يتداول مسرّاتِه ومشقّاتِه مع آخرين ، لأنّ الذين يمارسون التأمل يُعانون هذه وينعمون بتلك . فإذا كان يريد حقًّا إنشاء صداقةٍ مع الله ، عزّ وجلّ ، فلا يَخشينّ الغرور ؛ وإن خالجته بادرةُ غرور ، فليتغلّب عليها مستحقًّا أجرًا . وفي ذهني أنَّ من يعتمد هذه النيّة في مداولاته يُفيد نفسَه ومن يُسمعونه تعليمًا جليلاً ، بل ويعلّم اصدقاءه من دون أن يدري .

٢١. فمن يأخذه الكِبْرُ في هذه المحادثات يأخذْه كذلك لدى سماعه القداس بورعٍ إذا شاهده الآخرون ؛ ولدى قيامه بأعمالٍ أخرى ، عليه أن يتمِّمها ، وإلّا لم يكن مسيحيًا ، ولا يمكن إهمالُها لمجرّد الخوف من المجد الباطل.

إن هذه المسألة من الأهمية للنفوس غير الراسخة في الفضيلة ، لكثرة ما لهنّ من الخصوم بل ومن الاصدقاء الذين يحملونهنّ على الشر ، بحيث أعجز عن التشديد عليها كفاية. كأني بالشيطان يستخدم هذه الحيلة كأمرٍ بالغ الأهميّة له : فهو يحثّ النفوس الصالحة لأن تنحجب ، ليُفهَم أنها تسعى حقيقةً الى حبِّ الله ومرضاته ويدفع النفوس الشريرة الى الكشف عن رغباتها السيّئة. وهذه العادة شائعةٌ مألوفةٌ وكأنهم يفاخرون بها ، فيُذيعون الإهانات التي يُلحقونها بالله في هذا المجال.

ضرورة التعاون في خدمة الله

٢٢. لا أدري ما اذا كنت أقول حماقةً. فإذا الأمر كذلك فمزِّق هذه الأوراق ؛ وإلّا رجوتك[٦] أن تساعد سذاجتي فتضيف إلى كلامي أشياءَ كثيرة ؛ فإن القضايا المتعلِّقة بخدمة الله من الضعف بحيث يتحتَّم على القائمين بها أن يتكاتفوا للسير فيها قُدُمًا ، كما يَحسن التكاتفُ بنظر المنساقين الى الأباطيلِ ومسرّات الدنيا. فأُولاء قلَّ من ينظر إليهم ؛ لكن إذا بدأ أحدهم بتقديم نفسه لله يَكثُر النمّامون، حتى يترتّب عليه البحثُ عن رفيقٍ صالحٍ يحمي به نفسه الى أن يَصلُبَ عودُه فيصبح في مَنَعةٍ من أن يَثقُلَ عليه الإحتمال ، والا فسيرى نفسَه وقد ضاق عليه الخِناق.

لهذا كان بعض القديسين ، في إعتقادي ، يختارون الذهاب الى البراري. وإنه لنوعٌ من التواضع أن لا يتّكل الإنسان على نفسه ، بل أن يعتقد أنّ الله يساعده من أجل مُحادِثيه ، وأن المحبَّة تنمو بالتواصل ، وأن هناك ألفَ فائدةٍ أخرى ما كنت لأجرؤ على روايتها لولا خبرتي الطويلة بأهميَّة هذه الطريقة.

صحيحٌ أني أضعفُ الناس وأحقرُهُم جميعًا ؛ لكنّي أعتقد أنْ لن يخسرَ شيئًا

(٦) تخاطب الأب بدرو ابانييث (Ibañez) فإليه توجّه هذه السيرة.

مَن كان قويًّا ، ولكنَّه، عن تواضعٍ ، لا يرى نفسه قويًّا ويثق بما يقول صاحبُ إختبار. وفي ما خصَّني ، يمكنني الإعلان أنْ لو لم يكشف الله لي هذه الحقيقة ويوفّر الوسائل لأتباحث ، غالبًا ، أنا وأناس يمارسون التأمل ، لكنت ، بين سقوطٍ ونهوضٍ ، سرت مباشرةً الى الجحيم. فقد كان لي أصدقاء كُثر لمساعدتي على السقوط ، وكنتُ أجدني وحيدةً للنهوض ، بحيث أَعجب الآن كيف لم أكن دائمًا طريحةَ الأرض ؛ وأحمد رحمةَ اللهَ لأنه وحده كان يمدّ لي يده.

تبارك دائما أبدا. آمين.

الفصل الثامن

تتحدّث عن الخير الجزيل الذي نالته بعدم انقطاعها عن التأمل فلم تفقد بالتالي نفسها ، وكيف أنّ التأمّل علاجٌ ممتاز لتعويض ما يفوت ، وتحثّ الجميع على ممارسته ، وتبيِّن كونَه مكسبًا كبيرًا ويحصل منه نفعٌ عميم لمن مارس هذا الخير الكبير بعض الوقت حتى لو عاد فأهمله

رغبة في كره الناس لها

١. لم أُفِض في الحديث عن هذه الفترة من حياتي عبثًا ، لأني أدرك أنّ معَرفةَ تفاهةٍ كهذه لا تستهوي أحدًا ؛ إلّا أنّي أشتهي أن يكرهني من يقرؤون قصّتي هذه إذ يَعرفون نفسًا على هذه الدرجة من العناد والعقوق تجاه من أغدق عليها سوابغ أنعامِه . ولكنتُ أَودّ ، لو أُجيز لي ، أن أروي المخالفات العديدة التي ارتكبتُها ضِدَّ الله لأني لم أكن مشدودةً الى هذه الركيزة المتينة ، ركيزة التأمل .

حرب شاقة وأمانة على التأمل

٢. قضيتُ في هذا البحر الهائج قرابة عشرين سنةً ، أسقط تارةً وأنهض أُخرى ، على سوءٍ ، لأني كنت أعود الى السقوط ، وحياتي على دركٍ خفيضٍ من

النقص حتى إني ما كنت أُعير الخطايا العرضيّة أدنى اكتراث. أما المميتة فلم أكن أخافها كما يجب لأني لم أكن أتجنّب الأخطار. ويمكنني القول إنها حياةٌ من أشدّ ما يستطيع المرء أن يتصوّرها مشقّةً. فما كنت أَنعمُ بالله، ولا كنتُ أغتبط بالعالم. فحين كانت مسرّاتُ العالم تغمرني وأتذكّر واجباتي نحو الله، كان الأسى ينتابني، وحين أكون مع الله، كانت أهواءُ العالم تسلُبني السكينة. تلك كانت حربًا شاقةً لا أدري كيف استطعتُ احتمالَها شهرًا، فكم بالأحرى سنواتٍ عديدةً.

ومع هذا أرى واضحةً الرحمةَ العظمى التي غمرني بها الربّ؛ فرغم علاقاتي الدُنيويّة، بقيتْ لي الجسارةُ لممارسة التأمل. أقول الجسارة، لأني لا أعرف في هذه الدنيا جسارةً أكبر من خيانة الانسان مَلكَه واستمراره في حضرته، على إدراكه أنّ الملك عارفٌ بالأمر. فلئن كُنّا دائمًا في حضرة الله، فإن حضورَ الذين يمارسون التأمل من نوعٍ آخر، في نظري، لأنهم يرون أنّ الله يشاهدهم. أما الآخرون فقد يقضون أيامًا لا يتذكّرون فيها أنّ الله يراهم.

صراع بين العالم والله

٣. صحيح أني قضيت خلال هذه السنوات شهورًا عديدةً، بل وذات مرّةٍ سنةً فيمَا أعتقد، كنت أحترس أثناءها من إغاظة الربّ وأمارس التأمّل غالبًا، وأصرف اهتمامًا بالغًا وأعتمد وسائط لِئلّا أغيظه. وإنّمَا أعرض لهذا الأمر الآن لأنّ كلّ ما أرويه من صلب الحقيقة. غير أنّي قليلاً ما أذكر تلك الأيام الصالحة، فلعلّها كانت نادرةً، بينمَا أُكثِر من تذكّر الأيام السيّئة. وما كنت أقضي من الأيام الّا أقلّها دون أن أصرف فترةً طويلةً في التأمّل، إلّا اذا كنتُ مريضةً أو في زحمةٍ من الانشغال. حين كنت أشكو من علّةٍ كنت على أحسن حال مع الله وكنت أسعى لأن يكون الآخرون الذين أعاشرهم في مثل حالي، وأسأل الربَّ لهم ذلك، وكنت أتحدّث عنه غالبًا.

وهكذا، ما عدا السنة التي ذكرت، من ثمانية وعشرين عامًا منذ ابتدأتُ أُمارس التأمل، قضيت أكثر من ثمانية عشر في هذه المعركة وفي هذا الصراع بين

مصاحبتي العالم ومعاشرتي الله[1] . أما السنوات الأخرى التي عليّ أن أتحدّث عنها ، فقد تغيّر فيها سبب الحرب ولو أنَّ هذه السنة لم تكن أقلّ خطورةً. إلّا أنّي إذ كنت ، كما أظن ، أخدم الله وأُدرك بُطلان العالم ، فقد كان كل شيء لِيِّنَ الجانب كما سأروي فيمَا بعد.

المواظبة على التأمل

٤. إنمَا أفضتُ في هذه التفاصيل لأُبرزَ رحمة الله ، وأُظهرَ عقوقي ، وحتى يُقَدَّر ، من جهةٍ أخرى ، الخيرُ الجزيل الذي يهبه الله نفسًا يُعدّها لتمارس التأمّل بعزمٍ قويّ، ولو لم تكن مستعدَّةً كما يجب ، ولأُبيِّن أنّها إذا واظبت على التأمّل، رغم الخطايا والتجارب والسقطات المتنوّعة التي يوقعها فيها الشيطان ، فأنا على ثقةٍ بأنّ الربّ يقودها ، الى شاطئ الأمان ، كما يبدو لي ، الآن ، أنه قادني إليه. ألا رضي الله ، عزّ وجل ، عنّي فلا أعود أتيه في الضلال.

ترك التأمّل تجربة من الشيطان

٥. كثيرون من القديسين والصالحين كتبوا في الفوائد التي يجنيها مَن يمارس التأمل ، أعني الصلاة العقلية. تمجّد الله بذلك ! ولو أنهم لم يكتبوا ، فلن تبلغ بي الكبرياء ، على قلّةِ تواضعي ، حدَّ التجرؤ على الحديث عنها.

أستطيع الحديث عمّا أعرفه بالتجربة ، وهو أنّ مَن بدأ ممارسة التأمّل فلا ينقطعنّ عنه مهما فعل من زلّات ، لأنه الوسيلة التي تساعده على معالجةِ أمره ، وبدونه يشقّ عليه ذلك أيّما مشقّة. ولا يَدَعَنَّ الشيطان يجرِّبه كما جرّبني فيترك التأمّل تحت ستر التواضع. وليثق بأنّ الله لا يُخلف بوعده ، فاذا تُبنا توبةً نصوحًا وعزمنا على

---

(١) يشكّل هذا المقطع معطياتٍ مهمةً في سيرة القديسة الروحية. تكتب هذا على الأرجح سنة ١٥٦٢ وقد بدأت حياة التأمل قبل ثمانية وعشرين عامًا (١٥٣٤) ، كان منها ١٨ عامًا من الصراعِ (حتى سنة ١٥٥٢ – ١٥٥٣) ، والأعوام التسعة الأخيرة (١٥٥٣ – ١٥٦٢) عاشت حياةً صوفيةً راسخةً ، كما كان هناك سنة وما يزيد (١٥٤٢ – ١٥٤٤) لم تمارس فيها التأمل.

ألّا نغيظه يُحيي صداقتَه السابقة ويهبنا المنن التي كان ينفحنا بها، بل ويُكثِرها أحيانًا اذا كانت توبتُنا تستحقّ ذلك.

الحثّ على الشروع في التأمل

أما الذي لم يشرع يمارس التأمل بعدُ فأرجوه، حبًّا بالربّ، أن لا يحرم نفسه هذا الخيرَ الجزيل. فليس ما يُخشى منه هنا، بل هنا كلّ ما يُتَمنّى. فإنه وإن لم يتقدّم أو يجهد نفسه ليكون كاملاً بحيث يستحقّ اللذائذ والمسرّات التي يُغدقها الله على الكاملين، فأقلُّ ما يكتسبه أنه يروح يعرف تدريجيًّا الطريقَ المؤدّي الى السماء؛ وإذا واظب على التأمّل فإنّني أثق برحمة الله، لأن أحدًا لم يتّخذْه خليلاً إلّا وبادله صداقةً بصداقة.

ماهيّة التأمل

وما التأمّل، في رأيي، **إلّا حديث صداقة نُجريه غالبًا على إنفراد مع من نعرف أنه يحبّنا**. فإذا قلتَ إنك لا تحبّ الله بعد، فلأنك لا تستطيع أن تحبَّه كما ينبغي لأنك دون طبيعته مستوىً. فحتى يكون الحبُّ حقيقيًا وتدومَ الصداقة، يجب أن يتوافق الطرفان في الطبع. فالربّ، كما هو معروف، منزَّهٌ عن أي نقص؛ أما طبيعتنا ففاسدة، شهوانيّة، عقوق. لكن إذا تبصّرتَ في أهميّة صداقتك معه وعِظَمِ حبِّه لك، تغلّبتَ على المشقّة التي تسبِّبها لك ملازمتُك طويلاً من يختلفُ عنك بهذا المقدار.

إبتهال في صداقة الله

٦. يا صلاحَ إلهي اللامتناهي! إخالني أنظر اليك والى نفسي على هذه الحال من التفاوت. يا بهجة الملائكة! لأودّ أن أذوب بكليّتي في محبّتك عندما أنعم بهذه المشاهدة. ما أصدقَ تحمُّلك مَن يتعب من صحبتك! ما أخلصَك، ربِّي، صديقًا له! كم تُسبغ عليه من هبات، وتحتمله بطول اناة، وتنتظر أن يسمو الى مستواك،

بينمَا تتحمَّل ، ربّي ، صابرًا ، مستواه ! تحسب له ، يا ربّي ، لحظاتٍ أَحبَّك فيها . ولدى بارقةٍ من ندم تنسى كلَّ إهاناته !

لقد عرفتُ هذا بنفسي حقَّ المعرفة . ولا أدري ، يا خالقي ، لماذا لا يحاول جميعِ البشر أن يَصلوا اليك بهذه الصداقة الخاصة . فالأشرار الذين تخالف طبيعتُهم طبيعتَك ، يكفي ، كي تجعلهم صالحين ، أن يُطيقوا وجودك معهم ساعتين في اليوم فقط ولو لم يكونوا ، هم ، معك ، إلا ويَشْغَلُهم أَلفُ اهتمامٍ باطل وأَلفُ فكرٍ دنيوي ، كما كان يحدث لي . ومكافأةً للجهد الذي يُعانون ليكونوا في هذه الصحبة الطيّبة ، تعتبر أنّهم ، في البدء ، بل وفيما بعدُ أحيانًا ، عاجزون عن المزيد ، فتصدّ الشياطينَ ، ربّي ، عن مهاجمتهم ، وتخفِّف من قوّة الأبالسة تجاههم يومًا بعد يوم لتعطيَهم ، هم ، هذه القوّة لينتصروا ! أجل ، يا حياة كلِّ حياة ! فأنت لا تميت أحدًا ممَّن يتّكلون عليك ويُحبّونك صديقًا ، بل تنشِّط حياة الجسد بمزيدٍ من الصحة وتمنحها النفس .

معاناتها أثناء التأمل

٧. أنا لا أفهم مخاوف من يخشَون مباشرة التأمّل ولا أدري ممّا يخافون . إن الشيطان بارعٌ في إثارة هذه المخاوف ليؤذينا إيذاءً عندما يثير مخاوفي ، فلا أفكّر في إهاناتي لله ، وفي كثرة ما أدين له به ، وفي أنّ هناك جحيمًا ونعيمًا ، وفي المشقّات والآلام الشديدة التي احتملَها من أجلي .

هذا كان كل تأمّلي ، كمَا كان وسطَ هذه المخاطر التي عانيت ، وبهذا كنت أفكّر حين أستطيع التفكير . وكثيرًا ما كنت ، خلال سنوات ، أكثر اهتمامًا بانتهاء ساعة التأمل وسماع دَقَّة الساعة منّي بمواضيع أخرى صالحة . وغالبًا ما كنت على استعدادٍ لأن أفضِّل ، بطيبة خاطر ، عقابًا ثقيلاً على ان أختلي لممارسة التأمل .

والأكيد ، أنّ القوّة الخارقة التي كان الشيطان يضغط بها عليّ ، أو عادتي السيِّئةَ للهروب من التأمّل ، والحزنَ الذي كان ينتابني وأنا أدخل المصلّى ، كانت تقضي بأن أتسلَّح بشجاعتي كلِّها (ويقولون إنها ليست بيسيرة بل يرون أنَّ الله أعطانيها

متفوِّقة على شجاعة امرأة ، الّا أنّي أسأت استعمالها) ، حتى أتغلَّب على نفسي . وكان الربُّ يساعدني . وبعد أن أكون قد أرغمتُ نفسي ، كنت أجدني أَكثرَ طمأنينةً ومسرّةً منّي أحيانًا عندما كنت أرغبُ في الصلاة .

فائدة التأمّل وضرورته

٨. فإذا كان الربّ تحمّل طوال هذا الزمان خليقةً حقيرةً مثلي ، وإذا كان واضحًا أنّ التأمل جاء علاجًا لأمراضي كلّها ، فأيّ إنسان ، مهما كان شرّيرًا ، يمكن أن ينتابه الخوف؟ فمهمَا كان شرّيرًا لن يستمرّ كذلك طوال سنواتٍ بعد أن يكون قد حصل من الربّ على أنعامٍ وافرة . أو من يساوره الشكّ ، ما دام قد احتملني طويلاً طويلاً ، فقط لأني كنت أتمنّى وأبحث عن مكانٍ ما وعن بعض الوقت ليكون في صحبتي؟ وكثيرًا ما كنت أفعل ذلك عن غير إرادة منّي ، بإرغامي ذاتي ، أو بإرغام الربّ إيّاي . فإذا كان التأمّل مفيدًا ، بل ضروريًا بهذا المقدار للذين لا يخدمونه بل ويهينونه ، ولا يستطيع أحد أن يجد ، حقيقةً ، في التأمل ضررًا إلّا ويجدُ في عدم ممارسته ضررًا اكبر ، فلماذا يُقلِع عن هذه الممارسة من يخدمون الله ويريدون أن يخدموه؟ من المؤكد أنّي ، لا أستطيع أن أفهم هذا الموقف إلّا ان يرغبوا في أن يزيدوا على محن الحياة مشقّاتٍ أكبر ، وأن يُغلقوا في وجه الله البابَ حتى لا يوفّر لهم عبره سرورًا . حقًّا إني أرثي لحال هؤلاء لأنهم يخدمون الله على حسابهم . أما الذين يمارسون التأمل ، فإنّ الربّ نفسه يغطّي حسابَهم ، لأنه مقابل قليلٍ من العناء يعطيهم لذّةً تزول معها المشقّات .

٩. لن أتطرّق هنا الى المسرّات التي يعطيها الربّ من يواظبون على التأمّل لأني سأفيض في الكلام عليها . أكتفي بالقول إن التأمل هو الباب الذي غمرني عبره بهذه المنن الجزيلة . ولا أدري كيف يُسبغ هذه المنن إذا ما أُغلق هذا الباب ، لأنه إذا رغب في الدخول الى نفسٍ ليتنعَّم فيها ويُبهجها ، فلا سبيل الى ذلك إلّا أن تكون النفس وحيدةً نقيةً ، وتائقةً الى تلقّي تلك المنن . فإذا أكثرْنا العراقيل ولم نعمل شيئًا لإزالتها ، فكيف يأتي إلينا؟ ونريد أن يُغدق علينا الله مننًا عظيمة !

براعة الربّ في استعادتنا

١٠. حتى تُرى رحمةُ الربّ والخيرُ العظيم الذي نِلتُه لعدم انقطاعي عن التأمل والمطالعة، أُشير هنا، لأنّ فهمَ هذا الموضوع ذو أهميّة، إلى السلاح الذي يُصَوِّبه الشيطان الى نفسٍ ليقتنصها، وإلى براعة الربّ ورحمته اللّتين يستخدمها لاستعادتها اليه، فيحترز القارئون من المخاطر التي لم أَصُن منها نفسي. وأسألهم، بنوعٍ خاص، حبًّا بربنا وبمحبّته العظمى التي يتوسّلها لإعادتنا إليه، أن يحترسوا من الظروف؛ فإنه إذا وُجِدنا فيها لا يجب أن يطمئنّ بالُنا وهناك أعداء كُثر يحاربوننا، بينما فينا نقاطُ ضعفٍ كثيرةٌ لتدافعَ عنّا.

إنخداع بعض المرشدين

١١. لكنت أتمنّى لو إستطعت أن أُصوِّر حالة الأسر التي كانت نفسي تعاني منها في تلك الفترة. كنت أُدركُ تمامَ الإدراك أنّ نفسي أسيرةٌ ولو لم أكن أعي أسيرةَ ماذا؛ ولم أكن استطيع الاعتقاد إطلاقًا بأنّ أمورًا لم يكن معلِّمو اعترافي يعتبرونها جسيمةً، كانت على قدْرٍ من الشرّ كبيرٍ، كما كنت أشعر بذلك في قرارة نفسي. قال لي أحدهم، إذ مضيتُ اليه والحيرةُ تتجاذبني، إنّي ولو بلغت درجةً عاليةً من التطلّع فإنَّ ظروفًا ومعاشراتٍ كهذه لا ضيرَ فيها عليّ.

كان ذلك في أواخر تلك المرحلة حين كنت، بفضل الله، أبتعد عن المخاطر الكبرى ولو لم أجتنب الظروف كليًّا. أما معلِّمو اعترافي، إذ كانوا يرون مقاصدي الصالحة وانهماكي بالتأمل، فكانوا يخالونني أفعل الكثير. غير أنَّ نفسي كانت تدرك أنّها لا تقوم بواجباتها نحو من تدين له بالكثير. وإنّي لأُشفق عليها الآن لكثرة ما قاست، وللمساعدة اليسيرة التي ما كانت تلقاها إلّا من الله، ولإطلاقهم حرّيتها كاملةً في تسلياتها ومسرّاتها بقولهم إنها تسلياتٌ ومسّراتٌ جائزة.

المواعظ وتأثيرها

١٢. وما كانت المواعظ بعذابٍ يسيرٍ لي مع أنّي كنت شغوفةً بسماعها.

فعندما كنت أصادف واعظًا يجمع بين الحماسة والبلاغة ، كنت أكِنّ له مودّةً خاصة ، لا حيلة لي فيها ولا أدري من يحرِّكها فيّ . ولم يكن هناك أبدًا عظةٌ تبدو لي من النقص بحيث لا أستمع إليها ، بل كنت أستمع إليها بطيبة خاطر ولو رأى السامعون أنّ صاحبها لا يحسن الوعظ . أمّا إذا كانت العظة موفّقة فكنت أشعر بارتياحٍ خاص . وما كنت لأتعب قطّ من الحديث عن الله أو من سماع الحديث عنه مذ بدأت أمارس التأمل . فمن جهة كنت أجد في المواعظ تعزيةً كبرى ، وكنت أتعذّب من جهةٍ أخرى لإدراكي أنّي بعيدةٌ جدًّا عن أن أكون مَن يجب أن أكون . فكنت أتوسّل الى الرب ليساعدني ، إلاّ أنّي كنت أُذنِب ، كما أرى الأمر الآن ، لأنّي لم أكن أضع ثقتي كلّها بالله عز وجلّ ، وأنزعها كلَّها من نفسي . كنت أبحث عن علاج ، وأبذل المساعي لذلك ، لكني لم أكن أفهم أنّ لا شيء ينفعنا إذا نزعنا ثقتنا بنفسنا نزعًا تامًا ولم نضعها بالمقابل في الله .

كنت أرغب في أن أحيا لأني كنت أدرك أنّي لا أعيش بل أصارع ظلاً من الموت ، وما كان من أحدٍ ليعطيني حياةً ، وما كان لي أن أحصل عليها . ومن كان قادرًا على منحي إيَّاها كان محقًّا في تقاعسه عن مساعدتي لأنّه كثيرًا ما أعادني إليه ، وكثيرًا ما تخلَّيت عنه .

الفصل التاسع

تروي كيف بدأ الربُّ يوقِظ نفسها ويُشرق عليها نوره في تلك الغياهب ويرسِّخ فضائلها كي لا تُغيظه

تمثال الارتداد

١. كانت نفسي تعبةً تصبو الى الراحة، إلاّ أنّ عوائدها البائسة كانت تحول دون تنعُّمِها بالسكينة. وحدث أنّي كنت أدخل المصلّى ذات يوم فشاهدت تمثالاً[1] جيءَ به للإحتفال بعيدٍ في الدير، وقد حُفِظ هناك الى حينه. كان تمثال المسيح مثخنًا جراحًا ويُثير في النفس مشاعرَ التقوى، بحَيث إني، حين شاهدتُه، إضطربتُ بكلّيتي لرؤيتي إيّاه على هذه الحال، لأنه يُمثِّل تمثيلاً دقيقًا ما احتملَه لأجلنا. فاعتراني غمٌّ شديد لسوءِ تشكّري تلك الجروح حتى خِلْتُ قلبي يتفطّر، فانطرحتُ قربه وأنا أذرف دمعًا مدرارًا، وأتوسّل إليه أن يقوّيني نهائيًا فلا أَعود أُهينه.

شفاعة المجدليّة

٢. كنت شديدةَ التعبُّد للمجدليّة المجيدة، وكثيرًا ما كنت أفكِّر في توبتها، لا سيَّما وقت التناول. وثقةً منّي بأن الربَّ، في هذه اللحظات، في داخلي، كنت أَنطرح

---

(١) لا يزال هذا التمثال محفوظًا الى اليوم.

على قدميه ، فيبدو لي أنّ دموعي لم تكن مرذولةً . وما كنت أدري ماذا أقول . إنّما كان ينعم عليّ إنعامًا عظيمًا اذ يدَعني أذرفها ، لأنّي سرعان ما كنت أنسى ذلك الغمّ ، فكنت أستشفع هذه القديسة المجيدة لتنال لي الغفران.

استجابة الربّ

٣. ويبدو لي أنّ جُثُوِّي في هذه المرّة الأخيرة أمام التمثال أفادني فائدةً كبرى لأني كنت مرتابةً غاية الإرتياب من ذاتي ، واضعةً ثقتي كلَّها بالله. يُخيَّل لي أنّي قلت للربِّ آنذاك أني لن أنهض من هناك حتى يستجيب سؤالي ؛ وأنا على يقينٍ من أنّه استجابني لأنّي ما فتئت مذ ذاك أُحقّق تقدّمًا كبيرًا.

طريقتها في التأمل

٤. هذه كانت طريقتي في التأمل : بما أنّي لم أَكن أستطيع الاستدلالَ العقلي كنت أَسعى لاتمثّل المسيح في داخلي ، فأَجدني ، في رأيي ، أكثر استفادةً لدى تصوّري إيّاه وحيدًا ؛ فقد كنت أعتقد أَنَّ عليه ، وهو وحيد ، ومغموم ، وفي ضيق ، ان يقبلني بقربه. وكثيرًا ما كانت تراودني هذه الأفكارُ البسيطة.

كنت أجدني مرتاحةً الى التأمّل في صلاة الرب في بستان الزيتون. كان يطيب لي أن أكون في صحبته هناك. كنت ، إذا استطعتُ ، أتأمّل عَرقه وغمّه هناك؛ كنت أتمنّى أن أمسح ذلك العرق المتصبب المؤلم. لكنّني أذكر أنّي ما كنت أتجرّأ أبدًا على فعل ذلك لأنّ خطاياي الجسيمة كانت تتمثّل في ذهني فتردَعني. وكنت أمكث هناك ، معه ، ما سمحتْ لي أفكاري بالمكوث ، لأنّ كثيرًا منها كان يقضُّ مضجعي.

طوال سنواتٍ عديدة ، وفي أكثر الليالي ، عندما كنت أستودع الله ذاتي لدى ذهابي الى الرقاد ، كنت أتأمّل قليلاً في مشهد صلاة البستان هذا ، حتى قبل ترهُّبي ، لأننا بذلك ، كما قيل لي ، نربح غفراناتٍ كثيرة. وأنا واثقة بأنّ نفسي

كسبت كثيرًا جدًّا لأني بدأتُ أُمارس التأمّل دون أن أدري ما هو. وترسَّختْ هذه العادة فيَّ فثابرتُ عليها مثابرتي على رسم إشارة الصليب قبل الرقاد.

التأمل بدون الإستدلال العقلي

٥. عودة الى الكلام على العذاب الذي كانت تسبّبه لي خواطري. يتميَّز أسلوب التأمّل الذي لا يعتمد على الإستدلال العقلي بأنّ النفس تكون إمّا مستغرقةً في الموضوع كلّ الاستغراق، أو تائهةً أي مشتّتةً إعتباراتُها. وإذا استفادت، إستفادت كثيرًا لأنّها تتقدَّم في الحب؛ غير أن وصولها الى هذه الحال يُكلِّفها غاليًا، إذا أراد الربّ الوصولَ بها سريعًا الى تأمُّل السكينة، كما فعل مع أشخاصٍ أعرفهم. فالذين يسيرون في هذا النهج، يُفيدهم الاعتمادُ على كتابٍ حتى يُسرعوا في الإختلاء. أما أنا فكان يساعدني على الإختلاء مشهدُ الحقل، أو الماء، أو الزهور؛ فرؤيتها كانت تُذكِّرني بالخالق، أي انها كانت تحضّني على الإختلاء وتساعدني عليه، فتكون لي بمثابة كتاب؛ كما كان يذكِّرني به عقوقي وخطاياي. أما المواضيع السماوية والمسائل السامية، فكان عقلي من البلادة بحيث إني ما استطعت تصوّرها قطّ الى أن مثّلها لي الربّ بطريقةٍ أخرى.

ضعف المخيّلة

٦. كانت براعتي في تمثّل الأشياء بواسطة العقل من الضعف بحيث إني إذا لم أكن قد رأيت الشيء، لم تكن مخيّلتي تفيدني شيئًا، بخلاف آخرين يستطيعون أن يتمثّلوا المواضيع حيثما يختلون. أما أنا، فلم يكن بوسعي إلّا أن أفكّر بالمسيح إنسانًا؛ بل ما استطعت تَمثُّله في ذهني قط، مع أني كنت أطالع الكثير عن جماله وأشاهد صُوَرَه؛ فكنت مثلَ كفيفٍ أو مثل قابعٍ في ظلمة، فإنه، ولو خاطب شخصًا ويعرف أنه بحضرته ليقينه من وجوده هناك، أعني أنه يعرف ويعتقد بأنه هناك، فلا يراه. هذا ما كان يحدث لي عندما كنت أفكّر بربّنا. لهذا كنت أهوى الصور كثيرًا.

ما أتعس من يفقدون بذَنْبهم هذه السعادة ! يبدو واضحًا أنّهم لا يحبّون الرب ، فلو أحبّوه لاغتبطوا برؤية صورته كما يسرّنا في هذه الحياة أن نرى صورة من نحبّ.

تمثّل بالقدّيسين الخاطئين

٧. قدّموا لي في هذه الأثناء **إعترافات** القدّيس أغسطينُس[٢] ، فكأن الربّ دبّر هذا الأمر لأنّي ما سعيت للحصول على الكتاب ، ولا كنت رأيته قط . إني أكرّم القديس أغسطينس تكريمًا خاصًا لأن الدير[٣] الذي درست فيه وأنا بعد علمانية يخصّ رهبانيته ؛ ثم لأنه كان قبلاً خاطئًا . فأنا كنت أجد تعزيةً كبرى في القدّيسين الذين جذبهم الرب إليه بعد تَردِّيهم في الخطيئة إذ أحسبني واجدةً فيهم مساعدةً أكيدة ، وإخال أن كما غفر الربّ لهم سيغفر لي أيضًا . إلاّ أنّ أمرًا كان يضايقني ، كما قلت ، وهو أن الربّ دعاهم مرةً واحدةً فلم يعودوا الى السقوط ، أما أنا فدعاني مرّاتٍ كثيرة ؛ وهذا ما كان يكدّرني. إلاّ أنّي كنت أعتبر الحبّ الذي يكنّه لي فأستعيد شجاعتي. لقد إرتبت بنفسي أيّما ارتياب لكنّي ما يئست من رحمته.

تأثير اعترافات أغسطينس

٨. أعوذ بكَ يا الله ! كم تروّعني قساوةُ نفسي تلك مع ما غمرني به الله من مساعدات ! لَيُثير رِعدتي ضعفُ سيطرتي على ذاتي آنذاك ، ورؤيتي نفسي تكبّلني القيود فلا أوطّد العزمَ على تكريس نفسي بكلّيتي لله.

مذ بدأتُ أُطالع **الاعترافات** خِلتُني أرى نفسي في الكتاب ، فشرعت أستشفع هذا القديس المجيد ؛ وحين وصلت الى ارتداده وطالعت كيف سمع ذلك الصوت في الحديقة ، ما حسبت ، لشدّة تأثري ، إلاّ أنّ الربّ أسمعني إيّاه ، كما شعر قلبي ، فمكثتُ فترةً طويلةً غارقةً في دموعي والندمُ والألم آخذان بي . أعوذ بالله !

---

(٢) تاريخ قراءتها، على الأرجح ، سنة ١٥٥٤ .

(٣) راجع السيرة . ٢ ، ٦ .

أواه، كم تتألّم النفس وكم من أهوالٍ تعاني لفقدانها الحريّة التي تجعل منها سيّدة أمرها! أني لأعجب من أمري الآن كيف أمكنني العيش وسط ذاك العذاب الأليم. تمجّد الله الذي أمدّ بحياتي لأتحرّر من هذا الموت القاتل.

تحوّل أكيد

٩. في ظنّي أنّ نفسي نالت قوًى عظيمةً من العزّة الإلٰهية التي سمعت صراخي وأشفقت عليّ لكثرة ما ذرفتُ من دموع. شرع الميل ينمو في نفسي للبقاء في صحبة الربّ وقتًا أطول، وأخذتُ أشيح بنظري عن الظروف الخطرة، حتى إذا زالت عدت الى حبّ عزّته. لقد كنت متيقّنة، في إعتقادي، من حبّي إيّاه، غير أني لم أكن أعي، كما كان عليّ أن أدرك، في ما يقوم حبُّ الله حبًّا حقيقيًا.

وما كدت إخالني أعقد العزم على أن أكون في خدمته، حتى شرع، عزّ وجلّ، يغمرني بعطاياه من جديد. فكأن ما يحصل عليه آخرون بشق النفس، كان الربّ يوفّره لي دافقًا ويسألني أن أقبله. فقد كان يمنحني، في هذه السنوات الأخيرة، المباهجَ والمَسرّات[٤]. وما تجرَّأتُ من تلقاء نفسي قطّ أن أسأله هذه النعم ولا رقّة التقوى، بل إنما كنت أسأله النعمة كي لا أغيظه وأرجوه أن يغفر خطاياي الكثيرة. وكنت أراها من الثقل بحيث لا أجرؤ أن أتمنّى، عن وعي، مسرّات أو مباهج. أعتبر أنه كان يغمرني بعطفه. وفي الحقيقة، كان يُسبغ عليّ رحمته إذ يرتضيني أمامه ويقبلني في حضرته. وما كان ذلك ليتمّ، في اعتقادي، لولا تعطّفه.

طلب التعزية

أذكر أني سألته مرة واحدة في حياتي مسرّات وكنت أعاني من يبوسةٍ روحية شديدة. حين وعيتُ ما أفعل، لبثت مرتبكةً أيّما ارتباك، إلاّ أنّ تألّمي لقلّة تواضعي

---

(٤) المباهج والمسرّات Gustos-regalos تعبيران يعنيان في لغة القديسة بعض النعم أو بعض أشكال التأمل الصوفي.

حقّق لي ما كنت إجترأْتُ على طلبه. كنت أعلم يقينًا أنّ طلب ذلك الأمر جائز، إلّا أنّي كنت أعتبره جائزًا لمن هم مستعدّون له، الذين جهدوا بكل قواهم لممارسة التقوى الحقيقيّة، أي أنْ لا يهينوا الله، وأنْ يكونوا مستعدّين وعازمين على فعل كل خير. كنت أعتبر دموعي تلك دموعَ نساءٍ لا حول لها ولا قوة، لأنّي ما كنت أنال بواسطتها رغبتي. ومع هذا كلّه أعتقد أنها أفادتني بعض الفائدة. فبعد هاتين الحادثتين اللتين ذكرت بوجهٍ خاص، حيث ذرفتها بندمٍ شديد وبانسحاقِ قلب، عكفت على ممارسة التأمل، وابتعدتُ عن التعاطي بأمورٍ قد تؤذيني، ولو لم أُقلع عنها نهائيًا. لكنّ الله، كما قلت، راح يساعدني على الابتعاد عنها. ولأنه، عزّ وجلّ، انما كان ينتظر تحرّكًا مني باتجاهه، فقد راحت المنن الروحية تتدفّق عليّ، كما سأروي ذلك، مع أنّ الرب لم يَعْتَدْ إغداقَها إلاّ على الذين يحيون في أنقى حالات الضمير.

الفصل العاشر

تبدأ بالكشف عن المنن التي كان الربّ يؤتيها في التأمل، والوسائل التي بوسعنا استخدامها لنيلها، والأهميّة العظمى لفهمنا المنن التي يمنحنا ايّاها الربّ. تطلب ممَّن تُوجِّه إليه هذه السيرة أن يحفظ سرًّا ما تكتبه بعد الآن لأنَّ مَن أمروها بالكتابة طلبوا إليها أن تروي بوجهٍ خاص الأنعام التي صنعها الربّ معها

شعور بحضور الله

١. أُوتيتُ أحيانًا، كما ذكرت، وإن لوقتٍ وجيز، بواكيرَ ما سأتحدّث عنه. حين كنت أتمثّل ذاتي قرب المسيح، كما قلت، بل وأثناء القراءة أحيانًا، كان يعتريني فجأةً شعورٌ بحضور الله فلا أشكّ في حالٍ أنّه في داخلي، أو أنه يغمرني كليًّا بهذا الحضور. لم يكن الأمر مجرّد رؤيا. وأظنّ أنّ ذلك يدعى «لاهوتًا صوفيًا»[١]، تكون فيه النفس معلّقة فكأنّها خارجُ ذاتها كليًّا. الإرادة يُحرِّكها الحب؛ الذاكرة تكاد تكون، كما أظنّ، ضائعةً؛ والعقلُ، في اعتقادي، لا يستدِلّ، لكنه لا يتيه؛ غير

(١) الرؤيا هي ادراكٌ بطريقةٍ فائقة الطبيعة لا يستطيع الإنسان أن يدركه بقواه الطبيعية وحدها، أي بالحسّ، أو بالمخيّلة، أو بالعقل. و «اللاهوت الصوفي» في مفهوم القديسة هنا هو «حَدْسٌ بسيطٌ لحقيقةٍ فائقة الطبيعة يعطيه الله بواسطة نورِ مواهب الروح القدس أو بواسطة نعمةٍ حاليّةٍ خارقة».

أنه ، وأكرّر القول ، لا يعمل بل كأنه مَرُوعٌ لكثرة ما يدرك ، لأن الله يريده أن يفهم أنه لا يفهم شيئًا ممّا يصوِّره له ، عزّ وجلّ.

عاطفة حنان وسرور

٢. نعمتُ في أوّل الأمر بعاطفة حنانٍ متواصلة يمكننا السعيُ ، في رأيي ، للحصول على شيء منها ؛ وهي مسرّة ليست بحِسِّيَّة صرف ولا روحية بحت. إنّها كلّها عطاءٌ من الله. غير أنه يمكننا ، في ظنّي ، للحصول عليها ، أن نستعين كثيرًا بالتفكير في حقارتنا وعقوقنا تجاه الله ، وفي الكثير ممّا عمله من أجلنا ، وفي آلامه المبرِّحة ، وفي حياته المعذَّبة ، كما نستعين بالتلذّذ بالنظرِ في أعماله وعظمته ، وعِظَمِ محبته لنا ، وفي أمورٍ أخرى كثيرة يصادفها غالبًا من يهتمُّ باكتساب الكمال ولو لم يكن كثيرَ الإنتباه. فإذا رافق هذا الاستعدادَ شيءٌ من الحب ، غمرَ السرورُ النفسَ ، ورقَّ القلب ، وسالت الدموع. كأنّنا أحيانًا نُسيلها بالقوة ، وكأنَّ الربّ ، أحيانًا أخرى ، يعتمد تلك القوّة فلا نستطيع إمساكَها ؛ فكأنّ الله ، عزّ وجلّ ، يكافئنا على جهدنا الصغير ذاك بعطيةٍ كبيرة جدًّا كالتعزية التي يوفِّرها لنفسٍ بأن يجعلها ترى أنّها تبكي من أجلِ ربٍّ سامي المقام. ولا أعجب من ذلك ؛ فللنفس بواعثُ تحملها على شعورها بالتعزية : فهناك كلُّ مسرّتها ، وهناك راحتُها كلُّها.

مباهج التأمّل مباهج السماء

٣. تخطر الآن في بالي مقارنةٌ موفّقة ، في ظنّي. إن مباهج التأمّل هذه تشبه المباهج التي في السماء. إن الطوباويين لا يرون إلاّ ما يريد الربّ أن يروا بما يتناسب واستحقاقهم. وهم يُدركون أن استحقاقاتهم يسيرةٌ ، لذا فكلٌّ منهم مسرورٌ بمقامه ، على الفارق الكبير بين تنعُّم وتنعُّم في السماء ، وهو يفوق كثيرًا ، على كِبَرِه، الفرقَ ما بين تنعّمٍ روحيٍّ على الأرض وتنعّمٍ آخر.

والحقّ يقال ان نفسًا في أوّل طريقها ، حينَ يتكرّم الله عليها بهذه العطيّة ، تكاد تظنّ أن ليس بعد ذاك ما تشتهيه ، وتحسب أنّها وُفِّيت حقّها كاملاً عن كل ما قدَّمت

لله، وأنّها لعلى حق كلّ الحق. فإن دمعةً، كما قلت، من الدموع التي نكاد نُسيلها بجهدنا – ولو أنَّ شيئًا ما لا يحدث من دون أمر الله –، لا يمكن أن تقارَن، في اعتقادي، بمشقّات العالم كلّها، لأنّ بها يتحقّق كسبٌ عظيم. وأيُّ كسب أعظم من أن يكون لدينا شاهدٌ بأنّنا نرضي الله؟ فمن بلغ، إذًا، هذه الحال، فليمجّد الله تمجيدًا وليعترف بأنه مدين له بالكثير، فإنّ الرب، كما يبدو، يريده لمنزله، واختاره لملكوته إذا هو لم يتراجع.

الله يعطي التعزية والتواضع

٤. فلا يهتمّنَّ هذا بمظاهر تواضعٍ سأتحدّث عنها، لأن البعض يعتبرون تواضعًا عدم إفصاحهم عمّا آتاهم الرب من عطايا. فلنعلم يقينًا يقينًا، كما هو الواقع، أن الله إنما يعطينا إيّاها دون أي استحقاق من قِبلنا. فلنشكره، عزّ وجلّ، عليها. فإذا لم نعرف ما نتلقّى فلن نتحرّك لنحبّ. وثابتٌ كلّ الثبات أنه كلّما رأينا أنفسنا أثرياء بالمواهب، على معرفتنا بفقرنا، إزددنا استفادةً بل وتواضعًا حقيقيًّا. وما عدا ذلك فتثبيطٌ للعزم، إذ نتصوّر أنفسنا عاجزين عن أن نتلقّى خيورًا عظيمةً إذا بدأ يعترينا الخوف من المجد الباطل حين يأخذ الله بإغداقها علينا. فلنثق بأنّ من يعطينا الخيرات يعطينا نعمةً حتى نعي تجاريب الشيطان إذا شرع يجرّبنا، ونتسلّح بالقوة لمقاومته؛ هذا إذا سِرنا بأمانة أمام الله عازمين على إرضائه وحده لا على إرضاء الناس.

ثمرة التأمل: نعمة عرفان الجميل

٥. وواضحٌ كلَّ الوضوح أنّ حبّنا إنسانًا يزداد كلّما تذكّرنا حسنَ صنيعه لنا. فاذا كان جائزًا وجديرًا بالتقدير أن نتذكّر دائمًا أننا مدينون لله بالوجود، وأنه خلقنا من العدم، وأنه يحفظنا، وأنه أعدّ جميع مكاسب آلامه وموته لكلّ واحد منا، نحن الاحياء، زمانًا طويلاً قبل أن يخلقنا، فكيف لا يجوز أن أفهم وأرى، وأتأمّل مرارًا أني كنت أهوى الحديث عن الأباطيل، وأنّ الربّ أعطاني الآن نعمةَ أن لا أريد

التحدّث إلاّ عنه؟ ها هي ذي جوهرة نتذكَّر أنّها أُعطيت لنا وأننا نمتلكها فتحدونا حتمًا الى حبّ معطيها. هذه هي ثمرة التأمّل القائمة على التواضع. فما يكون حالنا عندما نرانا نمتلك جواهر أثمن من هذه، كتلك التي تلقّاها بعض خدّام الله، باحتقارهم العالمَ بل وأنفسهم؟ لَمِن البيِّن أنّ عليهم إعتبارَ أنفسهم مدينين لله أكثر، وأكثر التزامًا بخدمته، وأن يفهموا أنهم لم يكونوا على شيء مما يملكون، ويعرفوا سخاء الربّ. فإن نفسًا معدمةً، حقيرةً، ولا استحقاق لها مثل نفسي، كانت تكفيها الجوهرة الأولى من هذه وتزيد، إلاّ أنه أراد أن يغمرني بكنوزٍ تفوق ما أطمح الى مبتغاه.

واجب استثمار النعم

٦. ينبغي أن نستمدّ قوًى جديدةً من هذه النعم لنخدمه تعالى ولا نكون عقوقين نحوه؛ فالربّ إنما يعطيها لهذه الغاية. فإذا لم نُحسن استخدام الكنز والحالة التي يضعنا فيها، إستردّه منّا فنصير الى فقرٍ مدقع، وأعطى هذه الجواهر لمن يجعلها تتألّق ويستفيد منها ويفيد الآخرين.

فكيف، إذًا، يستثمر خيراتِه ويوزّع منها بسخاءٍ من لا يدرك أنه غنيّ؟ أرى أنه نظرًا الى طبيعتنا، يستحيل على من لا يُدرك أن الله آتاه فضلاً أن يشدّ همّته لأمور عظيمة. فإننا من البؤس والميل الى أشياء الأرض بحيث يصعُب جدًا على من لا يعي خيرات السماء في نفسه أن يكره، حقيقةً، خيرات الدنيا كلّها بترفُّعٍ مطلق. إن الرب يمنحنا بهذه العطايا القوّة التي فقدناها بخطايانا. ومن لا يَقتني ذُخرًا من حبّ الله مقرونًا بايمانٍ حي، يصعب عليه أن يرغب في تبرّم الجميع منه، واحتقارهم إيّاه، وسائر الفضائل الكبرى التي يمتلكها ذوو الكمال. إن طبيعتنا من الخمول بحيث لا نجري إلاّ في إثر ما نراه في الحاضر. فهذه الأنعام، إذًا، هي التي توقظ الايمان وتشدّده. لعلّي، لحقارتي، أحكم على الآخرين بالنظر الى نفسي. ولعلّ آخرين تكفيهم فضيلة الايمان ليعملوا أعمالاً غايةً في الكمال. أما أنا، البائسة، فقد احتجت لكل هذه المساعدات.

السماح بنشر القسم الأول من السيرة

٧. من شأن هؤلاء أن يبسطوا اكتفاءهم بالإيمان. أما أنا، فأروي وفقًا لما أُمِرت به، ما خَبرته بنفسي. فإذا لم تكن روايتي مقبولةً، فليمزِّقها مَن أرفعها اليه[٢]، فهو أدرى مني بالخطأ. لكنّي أسأله. حبًّا بالرب. أن ينشر كل ما رويت الى الآن عن حياتي البائسة وعن خطاياي. وأُجيز، منذ الآن، لمعلّمي اعترافي، وله بالتالي، لأنه منهم، أن ينشروا روايتي هذه في حياتي إذا شاؤوا لئلاّ أُخدع، بعدُ، الناس الذين يظنّون بي خيرًا. ويقينًا يقينًا، أقول الحقيقة وأنا مدركة ما أنا عليه الآن، بأن ذلك يوفّر لي تعزيةً كبرى.

طلب إغفال اسمها في الكتاب

أما ما سأرويه من الآن فصاعدًا فلا أُجيز لهم نشره؛ ولا أُريد أن يذكروا، اذا ما عُرِض على أحد، من حدثت له هذه الأمور، ومن كتب هذه الرواية. لذا سأُغفل أسمي ولن أذكر اسم أحد، بل سأُعنى بكتابتها ما استطعت العناية حتى يظلّ خبري مستترًا. فأسألهم، حبًا بالله، أن يراعوا رغبتي. تكفي موافقة أشخاص على هذا القدر من العلم والرأي الراجح لتأييد بعض الأفكار الصالحة إذا أعطاني الرب نعمة الإفصاح عنها. فإذا حصل ذلك، فالفضل يعود للربّ وليس لي، لأني لست بذات علمٍ ولا فضيلة، ولم يُسعفني في عملي ذو معرفة أو أيُّ شخص آخر؛ بل إن الذين أمروني بالكتابة، وليسوا الآن هنا، وحدهم يعرفون أنّي أكتب[٣]. أكتب، وأنا أكاد أختلس الوقت لذلك، وأُعاني الألم، لأن الكتابة تحول دوني والغزْل، فأنا في ديرٍ فقيرٍ ولديّ مشاغل جمّة. فحتى لو أنّ الربّ زادني براعةً وذاكرةً أستفيد بهما مما سمعت أو طالعت، فإنهما ضعيفتان جدًّا لديّ. فإذا قلتُ قولاً حسنًا، يكون الربّ أراده لخيرٍ ما، وإذا جئت بقولٍ سيِّئٍ، فهو يعود إليّ، فأرجوك أن تحذفه. وفي

(٢) الأب غارثيا دي توليدو.

(٣) الأبوان دومنغو بانييث وغارثيا دي توليدو.

الحالتين لا فائدة من ذكر اسمي . وواضح أنه لا يجب الكلام على الأمور الصالحة وأنا على قيد الحياة ؛ أما بعد موتي ، فلا يعود ثمَّة داعٍ ، لأن الخير الذي أقول يفقد تأثيرَه والثقة فيه من حيث إنه صادر عن شخصٍ حقيرٍ ، بائسٍ مثلي.

«أُحرُقْ ما لا يوافق الإيمان»

٨. وثقةً منّي بأنكَ ، أبتِ ، والذين سيَطّلعون على سيرتي هذه فاعلون ما سألتك حبًا بالله ، فإني أُقبِل على الكتابة بملء حرّيتي ، وإلّا فأَفعلُ ذلك بكثيرٍ من التردّد ما خلا سرد خطاياي ، فإني لا أتردّد فيه إطلاقًا . وفي ما عدا هذا ، يكفي أن أكون امرأةً حتى ينكسر جناحاي ؛ فأُحرى بي ذلك وأنا امرأة ، وإمرأة حقيرة . فما تجاوز مجرَّدَ عرض سيرتي فاحفظه ، رجوتُكَ ، لنفسكَ ما دمتَ قد الححت عليّ بأن أصرِّح بالمنن التي منحني إيّاها الله في التأمّل . هذا إذا كان العَرْض متوافقًا وحقائقَ إيماننا الكاثوليكي المقدّس ؛ وإلاّ فاحرقه حالاً وتراني خاضعةً لهذا التدبير . وإني لراويةٌ ما أُعاني بذاتي ، حتى إذا كان متوافقًا ومعتقدنا جاءك ببعض الفائدة ، وإلاّ فإنّك تزيل ضلالي فلا يحقّق الشيطان كسبًا حيث أَظنُّني أجني الربح . فإن الربّ يعلم ، كما سأوضح فيما بعد ، أنني طالما بحثت عمّن ينير سبيلي.

خبرة سبع وعشرين سنة

٩. مهما حاولتُ أن أبسط بوضوحٍ مسائل التأمّل هذه ، فانها تبقى غامضةً أشدّ الغموض لمن لم يختبرها . سأبسط بعضَ العوائق التي أراها تعسِّر التقدّم في هذا الطريق ، وأمورًا أخرى تنطوي على مخاطر ، معتمدةً في آرائي على ما علّمني الرب بالإختبار ، وعلى مباحثاتي اللاحقة مع ذوي علمٍ كبار وأُناسٍ متفرِّغين للحياة الروحية منذ زمنٍ طويل ؛ وقد لاحظوا أني ، في سبعٍ وعشرين سنةً فقط على ممارستي التأمّل ، ورغم كثرة العثرات والصعوبات ، آتاني الربّ بالاختبار ما آتاه آخرين ساروا في هذا الطريق سبعًا وأربعين وسبعًا وثلاثين سنةً وهم مثابرون على ممارسة التقشف والفضيلة .

تبارك، عزّ وجلّ، على كل شيء ولْيستعملْني أداةً كما يحلو له ويطيب! فإن ربّي عليم بأنّي إنما أنشد الإسهام، بعض الإسهام، في تمجيده وتعظيمه اذ يُرى كيف جعل في مزبلةٍ قذرةٍ وكريهةٍ، روضةً طيّبة العطر أزهارُها. لعلّه، عزّ وجلّ، يرضى فلا أعود، بذنْبي، إلى اقتلاع الزهور، ولا تعود الروضة إلى حالها الأولى. هذا ما أرجوك، أبتِ، أن تسأله لي، حبًّا بالربّ، فإنك تعرفني بأوضح ممّا أفسحتَ لي في قوله هنا.

الفصل الحادي عشر

تبيِّن السبب في عدم بلوغنا الكمال في حبّنا الله بوقتٍ قصير. تعتمد مقارنةً لتبيان درجات التأمّل الأربع ، وتبحث في الدرجة الأولى منها ، وهي مفيدة جدًّا للمبتدئين والذين لا يستمتعون بالتأمّل (١)

تباطؤ المبتدئين

١. سأتحدّث الآن عن الذين يبدأون بجعلِ أنفسهم عبيدًا للحبّ ، لأنني لا أرى عزمَنا على أن نتّبع ، عن طريق التأمل ، مَن أَحبّنا هذا الحبّ العظيم إلاّ عبوديةً له ، وهو شرفٌ سامٍ جدًّا يغمرني سرورٌ غريب حين أُفكّر فيه ؛ فإذا سرنا كما يجب في هذه المرحلة الأولى ، فإنّ الخوف العبوديّ سرعان ما يزول . [يا ربُّ نفسي ويا خيريَ الأسمى ! لماذا لم تشأ ، حين صمَّمَت النفسُ على حبِّكَ وفعلتْ وسعها لتتركَ كل شيء وتجدَّ في حبِّك هذا ، أن تتمتّع هذه النفسُ بارتقائها الى هذا الحب الكامل واقتنائه ؟] بل أَسأْتُ التعبير. فقد كان عليّ أن أقول وأنا أَنتحب : لأننا ، نحن ، لا نريد. فالذنْب كلّه ذَنْبُنا في أن لا نستمتع بهذه الكرامة السامية ، لأن البلوغ الى حبّ الله حبًّا

(١) تبدأ القديسة ، في هذا الفصل ، الحديث عن « درجات التأمل » أو عن « المياه الأربعة ». وفي هذا الحديث الذي يؤلّف كتيّبًا على هامش السيرة ، ترسم الخطوط العامة لمسار الحياة الصوفية ليَسهل على القارئ فهمُ الواقع الشخصي للقديسة . وما « المياه الأربعة » أو « الطرائق الأربع » لريّ البستان الاّ درجات أربعًا في التأمل تشكّل الطريق الصاعد للتقرّب من الله.

كاملاً يأتي بكل الخيرات. لكننا نقدِّر أنفسنا أَيّمَا تقدير، ونتباطأُ في تقديم ذواتنا كلّيًّا لله فلا ننتهي الى إعداد ذواتنا مع أنه، عزّ وجلّ، لا يريدنا أن نتمتّع بهذه العطيّة السامية إذا لم ندفع الثمن غاليًا.

وعودنا غير ثابتة

٢. وأرى عن حق أنْ ليس على الأرض ما ندفعه ثمنًا لخيرٍ كهذا؛ لكن إذا فعلنا ما يتوجّب علينا من عدم التعلّق بأمرٍ من أمور الأرض، بل وجّهْنا كلّ اهتمامنا وتعاملنا الى السماء، فأنا على ثقةٍ بأن نُعطَى، من دون شك، هذا الخيرَ في وقتٍ قصيرٍ جدًّا إذا استعدَّينا للأمر استعدادًا كاملاً وسريعًا على غرار ما فعل بعض القدّيسين. لكن نتصوّر أحيانًا اننا نعطي الله كلّ شيء فيما نحن لا نقدّم له إلاّ الدخلَ أو الغلَّة ونحتفظ لأنفسنا بالأرض وملكيّتها. نعزم أن نكون فقراء، وهذا جديرٌ بالتقدير، غير أننا كثيرًا ما نعود الى الاهتمام والعناية بأن لا ينقصنا، ليس ما هو ضروري فحسب، بل حتى النافل أيضًا، وبأن نكسب أصدقاء يوفِّرونه لنا؛ وحتى لا يفوتنا شيء، نجتهد في الحرص ونزجّ أنفسنا، ربّما، في خطرٍ أكثر من حرصنا السابق لامتلاك المقتنى.

ونحسب أيضًا أننا تنازلنا عن الجاه الدنيوي باعتناقنا الحياةَ الرهبانية أو بأَننا شرعنا في نهج الحياة الروحيّة واتِّباع طريق الكمال. وما إن يمسّ أحدٌ كرامتَنا بشيء حتى ننسى أننا قرّبناها سابقًا لله فنودّ أن نستعيدها وننتزعها من يديه، كما يقولون، بعد أن جعلناه، كما يبدو، سيِّدًا عليها بمحض إرادتنا. والأمر كذلك في سائر الأشياء.

إدِّعاؤنا محبّة الله

٣. ما أطرفها طريقةً في السعي الى حبِّ الله! ونريد امتلاكه سريعًا، وملء يدينا، كما يقال. أَنْ نحافظَ على تعلُّقاتنا الدنيوية (لأننا لا نسعى لتحقيق رغائبنا ولا ننتهي الى رفعها عن الشؤون الأرضية) وأنْ ننعمَ بتعزياتٍ روحيةٍ كثيرةٍ، أمران لا يتَّفقان؛ وأعتقد أن هذه لا تناسب تلك. وهكذا، لأننا لا نعطي ذاتنا كلَّها لله، فهو

لا يعطينا هذا الكنز دُفعةً واحدة. تنازل الربّ، عزّ وجلّ، فأعطانا إياه قطرةً قطرةً ولو كلّفنا ذلك مشقّاتِ الدنيا كلَّها.

نعمة الله وعوائق الشيطان

٤. إن الربّ ليصنع رحمةً وافرةً مع من يؤتيه النعمةَ والشجاعة ليعزم على السعي الى هذا الخير بكل قواه. فليثابر هذا، إذًا، لأن الله لا يمتنع على أحد، بل إنه يقوّي العزم شيئًا فشيئًا ليخرج منتصرًا. أقول العزم، لأن الشيطان ينصبُ العوائق الكثيرة أمام المبتدئين ليحول دون دخولهم هذا الطريق، لأنه يدرك الخسارة التي تلحقه في هذا المجال، ليس فقط من فقدانه تلك النفس، بل من فقدانه نفوسًا كثيرةً. فلو أنَّ من يشقّ هذا الطريق يجدّ، بعون الله، للوصول الى ذروة الكمال، لا أظنه يذهب وحيدًا الى السماء، بل إنه يجرّ في إثره نفوسًا كثيرةً. فهو أشبه بقائدٍ مقدام يأتمنه الله على من يصطحبه. أما الشيطان فيُقيم أمامهم كثيرًا من المخاطر والصعوبات فلا يكفيهم عزمٌ قليل حتى لا يعودوا القهقرى، بل يحتاجون عزمًا خارقًا وتأييدًا من الله وفيرًا.

مشقة البداية

٥. وفي صدد الحديث عمّا يلاقيه المبتدئون الذين يصمّمون على تتبُّع هذا الخير والنجاح في مسعاهم (فإن الموضوعَ الآخر، وقد سبقت إشارتي اليه، ويسمّونه، كما اعتقد، «لاهوتًا صوفيًّا»، فسأتحدّث عنه لاحقًا)، أقول: إن المشقّة، كلّ المشقة، تكمن في بداية الطريق، لأن المبتدئين هم الذين يعانون المشقّات، أما الربّ فيمدّهم بعونه. أما في درجات التأمل الأخرى، فالمُتعة هي السائدة، إذ إنّ الأولين، والمتوسّطين، والآخِرين[٢] يحملون جميعًا صلبانهم، ولو

---

(٢) هذه الثلاثة: الأولون Primeros، المتوسّطون Medianos، الآخِرون Postreros، توازي ثلاثية أخرى يستعملها اللاهوتيون في تقسيم مراحل الحياة الروحية وهي: المبتدئون في طريق التطهّر، والمتدرّجون في طريق الاستنارة، والكاملون في طريق الاتحاد (سيرة، ٣٨، ٩).

أنّها صلبان مختلفة. ان هذا الطريق الذي سار فيه المسيح يجب أن يسلكه تابعوه وإلّا فإنهم هالكون. فما أسعد الآلام التي تَلقَى عنها، حتى في هذه الحياة، جزاءً وافرًا!

تشبيه حياة التأمّل باستصلاح بستان

٦. سأضطرّ الى أن أعتمد مقارنةً ما، ولو أني أودّ الإقلاع عن المقارنات لكوني امرأة، وأن أكتب بأسلوبٍ بسيطٍ ما أُمِرتُ بكتابته. إلّا انّ لغة الروحيّات هذه تَعْسُرُ الفصاحةُ فيها على من لم يُصيبوا، مثلي، قسطًا من العلوم، فيتعيّن عليّ البحث عن طريقةٍ ما، وقد أُخفق إلّا في القليل، في استنباط تشبيهٍ مصيب، إلّا أنه يساعد، أبتِ، على توفير بعض التسلية لك إذ ترى بلادةَ فكري الطاغية.

يبدو لي الآن أني قرأت هذا التشبيه أو سمعته، لكنّ ذاكرتي ضعيفة فلا أدري اين كان ذلك وبأية مناسبة؛ إلاّ أنّ تذكّره يكفي حاجتي الآن.

يتوجّب على المبتدئ في حياة التأمل ان يعيَ بأنه يباشر استصلاح بستان في أرضٍ جدباء يكثر فيها العشب الرديء، كي يتلذّذ الربّ. فالربّ، عزّ وجلّ، يقتلع الأعشاب الرديئة، وعليه أن يغرس مكانها نباتًا صالحًا. فلنعتبر أن هذا قد تمّ عندما تعزم نفس على ممارسة التأمل وتشرع في انتهاج هذا السبيل، وعلينا أن نسعى بمعونة الله، كبساتنة ماهرين، لننمّي هذه النباتات ونعنى بريّها لئلا يصيبها اليبس، بل ان تطلع زهرًا فوّاحَ العبير يُبهج ربّنا، فيقصد غالبًا هذا البستان لينعم فيه، ويستريح بين هذه الفضائل.

طرائق ريّ البستان

٧. فلننظر الآن كيف يمكن ان نَروي هذا البستان لندرك ما علينا أن نعمل، والمشقّة التي يكلّفنا ذلك، وما إذا كانت أكبر من المكسب، والوقت الذي يجب تخصيصه بذلك.

يمكن أن يُروى البستان، في رأيي، بطرائق أربع:

١) فإما أن يُرفَعَ الماءُ من بئر، وهذا يكلّفنا عناءً كبيرًا؛
٢) وإما أن يُرفع بواسطة ناعورة ذات قواديس مركّبة على دائرة؛ وقد فعلت ذلك أحيانًا. وهذه الطريقة تكلّف عناءً أقل من تلك وتوفّر ماءً أكثر؛
٣) وإما أن يُجَرَّ الماء من نهرٍ أو جدولٍ فيُسقى البستان بشكلٍ أفضل، وتُروَى الأرض وتُغدَق، فتنتفي الحاجة الى الإكثار من سقيها، ويخفّ كثيرًا عناءُ البستاني؛
٤) وإما أن ينهمر المطر فيروي الربُّ البستان فلا نتكلّف أيَّ عناء. وهذه أفضل الطرائق المذكورة بما لا يقاس.

فائدة التشبيه

٨. فلنطبّق الآن، اذًا، هذه الطرائق الأربع لريّ هذا البستان، فانه من دون ريٍّ يبور. في رأيي أن التشبيه ملائم ويُساعد بعض المساعدة على إيضاح درجات التأمل الأربع التي أوصلني اليها الربّ أحيانًا بجودته. ألا رضي جودُه عنّي فأصيب في القول إفادةً لواحدٍ ممن أمروني بكتابة هذه السيرة، وقد بلغ به الربُّ في أربعة أشهر أبعد ممّا وصلتُ أنا إليه، في سبعة عشر عامًا. لقد تهيّأ للأمر بأفضل مما فعلت، فإذا به يسقي، من دون عناء، هذا البستان بهذه المياه الأربعة ولو أنّ الماء الرابع لا يُعطى له بعد إلّا قطرةً قطرةً؛ إلّا انه لأمانته، سيغمره هذا الماء عاجلاً، بعون الربّ. وإذا رأى شرحي هذا حماقةً فضحك منه سرّني ذلك منه.

شرح الطريقة الأولى

٩. يمكن القول إنّ الذين يبدأون بممارسة التأمل هم أولئك الذين يرفعون الماء من البئر فيتكلّفون عناءً كبيرًا، كما قلت. إنهم يتعبون في جمع حواسهم التي اعتادت التشتّت؛ وفي ذلك جهدٌ جاهد. وعليهم أن يتعوّدوا اجتنابَ رؤيةِ شيءٍ أو سماعِه، وبالأحرى، عملِه في ساعات التأمّل، بل أن يلزموا الوحدة والعزلة، ويفكّروا في

حياتهم الماضية. وهذه الممارسة، وإن كانت فرضًا على الأوَّلين والآخِرين[3] جميعًا، فإن في التفكير فيها درجاتٍ متفاوتةً، كما سيرد الكلام. وإحدى صعوبات المبتدئين أنّهم لا يعون إذا كان ندمُهم على خطاياهم حقيقيًّا؛ وهو لكذلك لأنهم مصمِّمون على خدمة الله خدمةً نصوحًا. فعليهم ان يسعوا للتأمّل في حياة المسيح وإن كان ذلك يُتعب العقل.

هذا ما نستطيع نحن، تحقيقَه، بنعمةِ الله طبعًا إذ بدونها، كما هو معروف، لا نستطيع ان نفكّر فكرًا صالحًا. هذا ما أدعوه الشروعَ برفع الماء من البئر. رضيَ الله أن يُوجَد هذا الماء. وأقلّه، ان لا جناح علينا إن لم يوجد لأننا نمضي لرفعه، ونبذل وُسعنا لسقيِ هذي الزهور. وقد يسمح الله، الكلّي الصلاح، عزّ وجلّ، لأسباب يعرفها، دون غيره، ولِحسن الحظ من أجل فائدتنا الكبرى، أن يكون البئرُ جافًا؛ لكنّه، بجوده العميم، إذ يرانا نبذل طاقتنا كبستانيّين صالحين، يُغذّي الزهور من دون ماء وينمّي فينا الفضائل. وأقصد بالماء هنا الدموع، وإن لم تتوفّر، والمشاعر الرقيقة وعواطف التقوى الباطنية.

ما العمل وقت اليبوسة؟

١٠. وما عساه يفعل في هذه الحال من لا يلاقي، بعد أيامٍ طويلة، سوى اليَبوسة، والسأم، والإمتعاض، والنفور، للإقبال على رفع الماء؟ فإن لم يعتبر أنّه يُرضي سيِّد البستان ويخدمه، ويهمّه أن لا يخسر جزاءَ خدماتِه وما يأمل من ثوابٍ لقاء عنائه بإنزال الدلو الى البئر ثم رفعه فارغًا، لكان يترك كلّ شيء. وقد يحدث له أحيانًا كثيرةً أن يَعجَز، في عمله، عن رفع ذراعيه، أي أن يخطر في باله فكرٌ صالح؛ ومعروفٌ أنَّ رفعَ الماء من البئر يُفهم به إعمال العقل.

وأُعيد القول، ماذا تُراه يفعل البستاني هنا؟

– انه ليفرح، ويشعر بارتياح، ويعتبر نعمةً عظمى العملَ في بستان سيِّدٍ،

---

(٣) راجع ملاحظة على سيرة، ١١، ٥، ص ٨٣.

كهذا السيّد، عظيم. وإذ يعرف أنه بعمله يَسرُّ هذا السيِّد، وأن هدفه يجب أن يكون مرضاتَه لا مرضاةَ نفسه، فليسبِّحْه تسبيحًا لأن السيِّد جعله موضعَ ثقته، إذ رآه يُعنى كلّ العناية بما وكله إليه مع أنه لم يدفع له أجرًا، وليساعدْه على حملِ صليبه مفكِّرًا أنه قضى حياته كلّها في الآلام، ولا يبحثْ عن الملكوت في هذه الدنيا، ولا يهملَنَّ التأمّل أبدًا، بل فليزمعنَّ على ألّا يدعَ المسيحَ يسقط تحت الصليب ولو دامت اليبوسةُ حياتَه كلَّها، فسيأتي زمنٌ ينال فيه جزاءَ أعماله كلِّها. لا يساورنَّه الخوف من ضياع تعبه، فإنه يخدم سيِّدًا صالحًا، لا يني يراعيه. لا يكترثَنَّ لأفكار السوء، وليذكر أن الشيطان كان يصوِّرها للقديس إيرونيموس في الصحراء.

ثمن المشقّات وثوابها

١١. لهذه المشقّات ثمنها، وأعرفها لأني قاسيتها سنواتٍ عديدةً؛ فحين كنت أرفع قطرةَ ماءٍ من هذه البئر المباركة كنت أَحسبها نعمةً من الله ساميةً؛ وأعلم أنّها مشقّاتٌ بالغةُ الإرهاق يحتاج الإنسان معها، في رأيي، الى شجاعةٍ تفوق ما يحتاجه من شجاعةٍ لمشقّاتٍ أخرى في العالم. وقد تيقَّنتُ أن الله لا يتوانى عن إثابة من يكابدها، بسخاء، حتى في هذه الحياة. ولا مِريَةَ في أنَّ الربَّ في ساعةٍ واحدة متَّعني فيها بحضوره فيمَا بعد، عوَّض بها كلَّ كروبي المبرِّحة التي عانيتُها طويلاً في المثابرة على التأمّل.

إنّي على ثقةٍ بأنَّ الربّ يرسل، في البدءِ أحيانًا، وأحيانًا أخرى في آخر المطاف، هذه العذابات وتجاربَ أخرى كثيرةً منوَّعةً ليمتحن محبّيه، ويرى إذا كانوا يستطيعون أن يشربوا كأسَه ويساعدوه في حمل الصليب قبل أن يستودعهم كنوزًا ثمينةً. وفي اعتقادي أنه، عزّ وجلّ، يقودنا في هذا الطريق لخيرنا، حتى نعيَ حقيقةَ تفاهة شأننا. فإن النعم اللاحقة هي من السموّ بحيث إنه تعالى يريدنا أن نرى بالاختبار بؤسنا قبل أن يولينا إيّاها، حتى لا يصيبنا ما أصاب لوسيفيروس.

إبتهال

١٢. ما الذي تفعله، ربّي، ولا يكون لخير النفس الأسمى، تلك التي

تعرف، أنت، أنها صارت ملكًا لك وتضع ذاتَها طوعَ إرادتك لتتبعك حيث توجَّهتَ، حتى إلى الموت على الصليب، وهي مصمِّمة على مساعدتك في حمله، وعلى ألّا تدعك تحمله وحدك؟

نزع الحسد

من رأى في نفسه هذا التصميم، فلا، لا داعيَ لديه للخوف. أيّها الروحانيون، لا داعي لأن تغتمُّوا. إن الوصول الى مقامٍ بالغٍ من السموّ حيث يكون الهمُّ معاشرةَ الله وحده ونبذَ التسليات الدنيوية، يعني تحقيق القسط الأكبر. فاحْمدوا ذا الجلال وثقوا برأفته، فإنه ما خيَّب أَحبَّاءه قط. أشيحوا بأنظاركم ولا تفكّروا لماذا يعطي ذاك التقوى في أيامٍ معدودة ولا يعطينيها في سنين عديدة. فلنثق بأنّ ذلك كلّه لخيرنا الأعظم. فليقدْنا، عزّ وجلّ، حيث يحلو له، فإنما لسنا بعد ملكَ أنفسنا بل إنما نحن خاصته. حسبُنا منه أنه يحرّك فينا الرغبة للعمل في حِراثة بستانه، وان نكون بقربه، هو، صاحبِ البستان لأنه عن يقينٍ يكون معنا. وإذا اراد، هو، أن تنمو هذه النباتات والزهور لدى البعض بفضل ماء يرفعونه من البئر، ولدى البعض الآخر من دون ماء، فما شأني، أنا، في ذلك؟

إفعلْ، يا ربّ، ما شئت. لا تسمح بأن أُسيءَ إليك. لا أُعْدَمنَّ الفضائل، هذا إذا كنتَ قد أعطيتَني فضيلةً ما من جودك المحض. أريد أن أتألَّم لأنّك، يا ربّ، تألّمت. فلتَكْمُل بي، في كل حال، مشيئتك. ولا تهب، رجوتُك يا ذا الجلال، مثل هذه النعمة الثمينة، نعمة حبِّك، لأناسٍ يخدمونك طمعًا بالتعزيات فحسب.

«لا تأبه للتعزيات»

١٣. يجب أن نلاحظ جيِّدًا. وأقول ذلك عن إختبار، أن النفس التي تبدأ مسيرتها صادقةَ العزْم في طريق التأمّل هذا، ولا تعود تأبه كثيرًا للتعزيات أو لمشاعر

الحزن، لأن الربَّ يغدق عليها اللّذّات والرقّة أو يمنعها عنها، إن هذه النفس اجتازت قسمًا كبيرًا من الطريق. فلا تخفْ من أن تعود القهقرى وإن تعثّرت خطواتُها، لأنها بدأتْ تشيِّد البناء على أساسٍ متين. أجل، إنّ حبّ الله ليس قوامُه الدموع ولا هذه اللذّات أو الرقّة التي نتمنّاها عادةً وبها نتعزّى، بل قوامه أن نخدم الله بالعدل، وثباتِ الجِنان، والتواضع. وما عدا ذلك ليس الاّ تكسُّبًا لا عطاءً سخيًا.

مشاعر الورع ليست ضرورية

١٤. إن نسوةً ضعيفاتٍ، مثلي، تُعوزهنّ الشجاعة، من المناسب، في رأيي، أن ينفحهنّ الله ببعض المسرّات كما يفعل معي حاليًّا لأستطيع أن أتحمّل أتعابًا أراد، عزّ وجلّ، أن تُلقى عليّ؛ أما أن أرى رجالاً خدّام الله ذوي قدر وعلم وذكاء، يعلّقون أهمّيةً قُصوى على أنَّ الله لا يؤتيهم مشاعرِ الورع، فهذا ما يشقّ عليّ سماعُه. لا أقول بأن يرفضوها اذا منحهم إيّاها الله وألّا يقدِّروها قدرًا رفيعًا، لأنه، عزّ وجلّ، يرى حينئذٍ أنّ هذا يناسبهم. أما اذا لم يُؤْتَوْها، فلا يُتعبوا أنفسهم، وليفهموا بأنها ليست ضروريّةً، وليظلّوا مسيطرين على أنفسهم، وإلاّ فليثقوا بأنهم يأتون خطأً؛ وقد خَبِرتُ ذلك ورأيتُه. وليثقوا أيضًا بأن ذلك نقصٌ وليس تصرّفًا بحرية الروح، بل يُفصح عن ضعفِهم لمجابهة الصعوبات.

نصائح لوقت الاضطراب

١٥. لا أقول هذا برسم المبتدئين بقدر ما أقوله برسم آخَرين، وإن كنت أُشدِّد عليه كثيرًا لأنه ينبغي عليهم أن يستهِلّوا مسيرتهم بهذه الحريّة وهذا العزم. كثيرون بدأوا منذ عهدٍ طويل ولمّا يصلوا بعد إلى الغاية. وأعتقد أنّ ذلك عائد في أكثره لكونهم لا يعتنقون الصليب منذ البدء، ويغتمّون إذ يتصوّرون أنهم لا يفعلون شيئًا. فإذا توقّف العقل عن العمل إعتراهم الهلع؛ ولعلّ الارادة تكمُل عندئذٍ وتتقوّى. لكنّهم لا يفقهون.

علينا أن نقتنع بأن الربّ لا يعير اهتمامًا هذه الأشياء التي نعتبرها أخطاءً وليست بأخطاء. إنه، عزّ وجلّ، يعرف بؤسنا وحقارةَ طبيعتنا أفضل مما نعرف؛ ويعرف أنّ

هذه النفوس همُّها التفكير به وحبُّه على الدوام. وهذا العزم هو ما يريده الله. أما الغمّ الذي ننقاد إليه فلا يحصل منه إلاّ إضطراب النفس؛ فإذا كانت عاجزةً عن الإستفادة من التأمّل ساعةً، تكون كذلك عاجزةً في أربع ساعات. وفي أكثر الأحيان يتأتّى هذا الإضطراب من توعُّك صحّي؛ فخبرتي في هذا الموضوع واسعةٌ وأعرف أنَّها الحقيقة لأنّي تفحّصته بدقَّة وباحثت فيه معلِّمين روحانيين. إننا من البؤس بحيث إن نفسَنا هذه السجينة المسكينة تشارك الجسد مصائبه؛ فتغيُّرات الأزمنة وتقلُّبات الأمزجة التي تطرأ على الجسد، غالبًا ما تجعل النفس عاجزةً، ولا ذنْب لها في الأمر، عن فعل ما تريد، بل تسبِّب لها آلامًا متنوّعةً. وكلّما حاولنا إكراهها في هذه الأحوال تفاقَم الوضع واستمرَّ الداء. فينبغي اعتمادُ الفطنة ليُعرف متى يعود الداء لهذه الأسباب لا أن تُخنقَ النفسُ المسكينة. فليفهم هؤلاء أَنهم مرضى، وليعتمدوا وقتًا آخرَ للتأمل؛ وكثيرًا ما قد يضطرّون لفعل ذلك عدَّة أيام. ليقضوا هذا المنفى كما يتيسَّر لهم. إنها لَمحنةٌ رهيبةٌ أن تحبّ اللهَ نفسٌ ترى ذاتها تعيش في هذا الشقاء وتعجِز عن تحقيق ما تريد لأن لديها ضيفًا ثقيلَ الظلّ كهذا الجسد.

الرفق بالنفس لا تعنيفُها

١٦. قلت سابقًا إن علينا اعتمادَ الفطنة لأن الشيطان قد يسبِّب هذه الحال. وعليه، يحسن أن لا نقلع عن التأمل كلّما عانينا من تشتّت فكرٍ واضطرابٍ كبيرٍ في العقل، وأن لا نعنِّفَ النفس دائمًا في ما لا يسعُها أن تفعله.

وهناك أعمالٌ أخرى خارجية يمكن القيامُ بها، كأفعال المحبة والمطالعة الروحية، ولو أننا نشعر أحيانًا بعدم الاستعداد لذلك. فلتَخدم النفسُ الجسدَ حينئذٍ حبًّا بالله حتى يخدمَها الجسد في ظروفٍ أخرى كثيرة. ويمكننا اعتماد تسلياتٍ مفيدةٍ بواسطة أحاديث تقويّة، أو الخروج إلى الحقل بحسب ما ينصح به معلِّم الإعتراف. وفي كلّ حال، فإن الاختبار ذو شأنٍ كبير لأنه يعلِّم ما يناسب أن نعمله. في كلّ عملٍ يمكن أن نخدم الله. إنّ نيرَه ليِّنٌ؛ وإنه لعملٌ جليل أن لا نَجُرَّ النفسَ جرًّا، كما يُقال، بل أن نقودَها بلطفٍ سعيًا لفائدتها العظمى.

هدوء وتيقُّظ

١٧. فأعود، إذًا، الى مشورتي السابقة، ولا ضيرَ إذا كرّرتُ القول مرارًا. من المهمّ جدًّا أن لا يتضايق أحدٌ أو يغتمَّ بسبب اليبُوسات الروحية، أو الإضطراب، أو تشتّت الأفكار. فإذا أراد أن ينعمَ بحريَّة الروح ولا يكون مكروبَ النفس دائمًا، فليبدأ بأن لا يرتاع من الصليب، فيرى كيف أنّ الربّ أيضًا يساعده على حمله، وأنّ الفرح يغمرُ قلبه، وأنّ الفائدة تحصل له في كلّ حال. فواضحٌ أنه، إن لم يكن في البئر ماء، فلا نستطيع أن نضعه نحن فيها. ومع هذا، يجب أن لا نكون غافلين، حتى إذا توفّر الماء في البئر أمكننا أن نرفعه، لأن الله يريد حينئذٍ، بهذه الوسيلة، أن يُضاعِفَ فضائلنا.

الفصل الثاني عشر

تتابع الكلام على الدرجة الأولى من التأمّل ، وتبيّن المدى الذي نستطيع بلوغه بقوّتنا مع مساعدة الله ، والضرر في أن نريد ارتقاء النفس الى أمورٍ فائقة الطبيعة قبل أن يُنْعِمَ الربُّ بذلك

مشقّة التأمّل

١. إن ما قصدتُ في الفصل السابق – على استطرادي الى مواضيع أخرى كثيرةٍ لاعتباري إيّاها ضروريةً جدًّا – هو أن أوضح المدى الذي نستطيع بلوغه بذاتنا ، وكيف أنّ مؤازرتَنا لها بعضُ الدور في هذه العبادة الأولى. إن تأمُّلَنا وتفحُّصَنا ما قاسى الرب من أجلنا يثير فينا الشفقة ، ويكون عذبًا الأسى وعذبةً الدموعُ التي تَنجم عنه ؛ وتأمُّلنا المجدَ موضوعَ رجائنا ، والحبَّ الذي أحبّنا الرب ، وقيامتَه ، يبعث فينا متعةً ليست بروحيةٍ صرف ولا بحسّية بحت ، بل هي متعةٌ فاضلةٌ ، كما أنّ ذلك الحزن جديرٌ بالثواب. هذه حال كلّ ما يُحدِث عبادةً نحصِّلُها جزئيًا بالعقل ولو أنّنا لا نستطيع استحقاقها أو كسبَها ما لم يُعطِنا إيّاها الله. وجديرٌ بالنفس التي لم يرفعْها الله من هذه الدرجة أن لا تحاول ، هي ، الصعود. حذارِ ، فإنّ محاولتَها لن تجرَّ عليها إلّا الخسران.

تَمَثُّل الذات في حضرة المسيح

٢. يستطيع من كان في هذه الدرجة من التأمّل ، أن يأتيَ أفعالاً عديدةً ليعزِم على تحقيق أعمالٍ كثيرة من أجل الله ويوقِظَ في نفسِه حبَّه تعالى ، وأعمالاً أخرى تساعد على نموّ الفضائل كما جاء في كتابٍ عنوانه **فن خدمة الله**[1] ، وهو كتاب ممتازٌ ويلائم من هم في هذه الحالة التي فيها يعمل العقل. يمكنه أن يتمثّل ذاته في حضرة المسيح ، ويتعوّدَ أن يهيم بناسوته المقدّس ، ويستحضرَه دائمًا ويخاطبه ، ويسألَه ما يحتاجه ، ويشكوَ اليه همومه ، ويفرَحَ معه حين يكون مستغرقًا في أفراحه فلا ينساه بسببها . فلا يحاولْ مخاطبتَه بصلواتٍ متكلّفة ، بل فلتكن كلماتُه مطابقةً لرغائبه وحاجاته .

إنها لطريقةٌ ممتازة للاستفادة بأسرع ما يكون. فمن جدّ في العيش بصحبة هذا الرفيق العزيز ، وأحسنَ الاستفادة منها ، واستمدّ منها حبًّا صادقًا لهذا الربّ الذي ندين له بالكثير الكثير ، تَقدَّمَ أيَّ تقدّم ، برأيي ، في طريق التأمل .

فائدة هذه الطريقة

٣. لذا ، يجب ألاّ يشقَّ علينا إذا فاتتْنا مشاعرُ العبادة ، كما أسلفتُ ، بل علينا أن نشكر الربّ الذي يُبقي فينا الرغبة في إرضائه رغم حقارة أفعالنا . وهذه الطريقة في جعل المسيح بصحبتنا تفيد في جميع الحالات ، وهي وسيلةٌ مضمونةٌ كلّ الضمانة للتقدّم في الدرجة الأولى من التأمّل وللوصول في وقتٍ وجيز الى الدرجة الثانية . وهي تعصم الآخِرين[2] من مخاطر الشيطان المحتملة .

بناء التأمّل على التواضع

٤. هذا ما نستطيع عملَه. فمن إبتغى أن يتجاوز هذا الحد ، ويرفعَ روحه

---

(١) كتاب شائع في عصرها ألّفه الفرنسيسي الونسو دي مدريد.

(٢) أي من بلغوا المرحلة الأخيرة أو الكاملين.

ليشعر بلذائذ لا يُعطاها ، فإنه ، في رأيي ، يخسر الحالتَين ، لأن هذا الأمر يفوق الطبيعة ؛ وإذا ما تعطَّل العقل تصبحُ النفس قفرًا شديدَ اليباس. ولمّا كان هذا البناء كلّه قائمًا على التواضع ، فبقدر ما نتقرّب الى الله بقدر ذلك نتقدّم في هذه الفضيلة ، وإلّا فإن البناء كلّه ينهار. إن رغبتنا في الإرتقاء الى درجةٍ أعلى تبدو كنوعٍ من الكبرياء ، لأن الله ، ونحن من نحن ، يغمرنا بفضله حين يقرِّبنا إليه.

فائدة التفكير

يجب أن لا يُفهمَ أنّني أقصد بكلامي هذا أنْ لا نرفعَ فكرَنا للتأمّل بأمورِ السماء وآياتِها ، وبالله وحكمته العظيمة. فإن كنتُ ما فعلتُ هذا قطّ فلأنّ القدرةَ فاتتْني ، - كما أسلفتُ القول - وإن كان الربّ قد أنعم عليّ بفهمِ هذه الحقيقة ، أي انّ تفكيري في أمور الأرض ، نظرًا إلى حقارتي الدنيئة ، كان تجرُّؤًا ، فكم بالحري تفكّري في أمور السماء ! غير أنّ آخرين يستفيدون من هذا التأمّل ، والمثقّفون خاصةً. فالعلم كنزٌ ثمين ، في رأيي ، لهذه الرياضة إذا اقترن بالتواضع. وقد تبيّنتُ ذلك من عهدٍ قريب ، لدى بعض المشهورين بعلمهم[٣]. فإنهم شرعوا يسيرون في هذا الطريق حديثًا فحقّقوا تقدّمًا كبيرًا. وهذا ما يثير فيّ رغبةً ملحاحًا ليكونَ كثيرون منهم روحانيين ، كما سأبيِّن ذلك لاحقًا.

تعطيل العقل غباوة

٥. إن قولي « بأن لا نرتفع ما لم يرفعْنا الله » إنما هو لغةٌ روحية. ومن كان على شيء من الخبرة في الموضوع فهمني. وإذا لم يفهم كلامي ، فاني أُقِرّ بعجزي عن الإيضاح.

في الحالة الصوفية التي شرعتُ في الحديث عنها ، يتعطّل عملُ العقل لأن الله

(٣) عملت القدّيسة ، طوال حياتها ، على دفع الكثيرين من اللاهوتيين الى حياةٍ روحية عميقة. يتبيّن ذلك من رسائلها ومن دعوى تطويبها. ومن أشهر الذين شملتهم توجيهاتُها الآباء بيدرو إيبانييث ، وغرثيا دي توليدو ، وربّمَا الأب بانييث.

يوقفه، كما سأشرح الأمر فيما بعد، إذا استطعتُ ووفّر لي الله نعمةَ ذلك. وما أودّ قولَه هو أن نمتنع عن الإدّعاء أو التفكير بتعطيل عمل العقل. لا نكفَّنّ عن استخدامه وإلّا سِرنا أغبياءَ باردين، وخسِرنا الأمرَيْن معًا. إن الربّ عندما يعلِّق العقل ويوقفه يعطيه ما يدهِشُه ويُشغله، ويجعله يفهم، دون استدلال، في مدى تلاوة قانون الإيمان، أكثر مما نستطيع فهمه، مهما أغرقْنا في البحث، في سنين كثيرة. أما أن نُشغِل، نحن، قِوى النفس[4] ونعلِّقها فهو شططٌ عن الصواب.

وأعود إلى القول، ولو لم يُفْهَم ذلك، إن هذا الأمر ليس دليلَ تواضع كبير. فلئن لم يُحتسَبْ علينا ذنبًا، غير أننا نلقى جزاءً. فعملُنا يكون باطلاً، ويُصيب النفسَ كَدَرٌ كمن يستعدُّ للقفز فيُمسكونه من الخلف. فكأنَّ النفس جَنَّدت قوَّتها ووجدت ذاتَها لا تعمل ما كانت ترغب عمله بهذه القوة. ففي قلّة الفائدة التي تحصل سيَرى من أراد أن يرى أنّ شائبةً أصابت التواضع كما قلت. فهذه الفضيلة تمتاز بأنها لا تترك في النفس غمًّا مهما كان العمل الذي تصحبه.

إخال شرحي واضحًا؛ بل لعلّه واضحٌ لي وحدي. فليفتح الربّ بواسطة الإختبار أعينَ من سيقرأونه: فمهما كان اختبارهم قليلاً فسوف يفهمونه.

فهمُها وعلْمُها من الله

٦. لقد أمضيتُ سنواتٍ عديدةً كنت أقرأ أمورًا كثيرةً دون أن أفقه لها معنى. وطوال فترةٍ مديدة، وبالرغم من أنّ الله كان يؤتيني هذه الأمور، كنت عاجزةً عن قول كلمةٍ للإفصاح عنها. وهذا ما سبّب لي عناءً كبيرًا. فهو، جلّ جلاله، عندما يريد، يعلّم كل الأمور بلحظةٍ بحيث إن الأمر يُدهشني.

هناك أمر أستطيع قولَه بحق. كنت أُباحِثُ كثيرين من الأشخاص الروحيّين، فكانوا يهتمّون بإفهامي ما آتاني الربّ من نعم لأستطيع تبيانَها. إلاّ أنّ كلامهم ما أفادني بقليلٍ أو بكثير لأن جهلي كان، في الحقيقة، كبيرًا. ولعلّ الربّ أراد الأمر

(٤) قوى النفس، حسب الفلسفة المدرسية، هي العقل والمخيّلة والإرادة.

كذلك لأنه كان، جلّ جلاله، معلِّمي الدائم – تبارك على مننه جميعًا – وما كان يريد أن أكون مدينةً لغيره. أقول هذا بحق وأنا أشعر باضطرابٍ كبير. ما كنت أطلب شيئًا ولا أسأل شيئًا، – فعلى فضولي في تفاهاتٍ أخرى لم أكن كذلك في هذا الموضوع رغم كون الفضول فيه يُعدُّ فضيلةً – لكن الله أعطاني في لحظةٍ أن أفهم بكلّ وضوحٍ هذه المنن وأُحسنَ التعبيرَ عنها بحيث كان معلِّمو اعترافي يَدهشون، وأدهش أنا أكثر منهم لأنني كنتُ أدرى منهم بجهلي. حدث هذا منذ عهدٍ قريب. وهكذا فأنا لا أُحمِّل نفسي مشَّقةَ تَعلُّمِ ما لم يعلِّمنيه الربّ، إلاّ ما يتعلّق بضميري.

عودة الى التواضع

٧. وأعود فأُنبِّه مرةً أخرى الى أنه من المهمّ جدًّا «أن لا نرفع روحَنا ما لمْ يَرفعه الربّ». فعندما يرفعه، نفهمه حالاً. وهذه المحاولة أسوأُ بالنسبة الى النساء، لأن الشيطان يستطيع أن يجعل الوهمَ يُسيطر عليهنّ. ومع هذا فأنا واثقةٌ بأن الربّ لا يسمح للشيطان بأن يؤذي من يحاول التقرّب إليه بتواضع، بل على العكس، فإن هذا يجني فائدةً أكبر وربحًا أوفرَ من حيث ينوي الشيطانُ أن يُهلكه.

لقد أَفضتُ في الكلام على طريق الأوَّلين هذا لأنه الأكثر اعتمادًا، ولأن الآراء التي سجّلتها ذات أهميةٍ كبرى. ولعلّ آخرين عالجوا هذا الموضوع في مواضعَ أخرى معالجةً فُضلى. إنّني أقرّ بذلك، وأعترف بأنّني كتبت ما كتبت بكثيرٍ من الارتباك والخجل، ولو أنّهما ليسا على قدْر ما كان يجب أن يكونا.

تبارك الربّ على كلّ شيء، فإنه يرضى ويسمح لِامرأةٍ مثلي بأن تتحدّث في أمورٍ تختصّ به من هذا النوع وعلى هذا السموّ.

الفصل الثالث عشر

تتابعٍ الكلام على الدرجة الأولى من التأمّل
وتقدِمُ نصائح ضد بعض التجارب التي يُثيرها
الشيطان أحياناً والفصل ذو فائدة جمّة

السعي بفرح وحرّية

١. بدا لي أن أتكلّم على بعض التجارب التي يصادفها المبتدئون وأخرى عرفتُها بنفسي وان اقدّم بعض النصائح في أمورٍ أعتبرها ضروريّةً.

فليجتهد المبتدئ في أن يسعى بفرحٍ وحرّية ؛ فإنّ بعض الأشخاص يحسبون أنّ العبادة ستفلت منهم إذا تهاونوا بعض الشيء. حسنٌ ان يَسلك الانسان في خشيةٍ من نفسه فلا يعرِّض ذاتَه، من قريبٍ أو من بعيد، لأن يضعَ نفسَه في ظرفٍ يؤدِّي عادةً الى إهانة الله. وهذا الحذر ضروريٌّ جدًّا حتى يكون قد رسخ في الفضيلة. وقليلون هم الراسخون بحيث لا يكون عليهم بأسٌ من التساهل في مناسبات توافق نزوعَ طبعهم. فما دمنا على هذه الأرض، يجدُر بنا، ولو من قبيل التواضع، أن نقرّ بضعفِ طبيعتنا. إلّا أنّ هناك مناسبات ننتهزها للترويح عن النفس، كما قلت، بغيةَ العودة الى التأمّل ونحن أشدّ قوّةً من ذي قبل. والفطنة ضروريةٌ في كل حال.

ثقةٌ بالله وطموح

٢. يجدر بنا أن نمتلك ثقةً كبيرةً ؛ فينبغي أن لا نستهين بالرغبات بل أن نأمل

من الله بأنّنا ، اذا جهدنا أَنفسنا شيئًا فشيئًا ، سنبلغ ، ولو لم يكن عَقبَ ذلك ، ما بلغه قدّيسون كثيرون بفضلٍ منه تعالى. فلو أنّهم لم يُصمِّموا أبدًا على رغبة ذلك ووضعِه موضعَ التنفيذ ، لما ارتقوا الى هذه الحالة السامية. إن الله ، عزّ وجلّ ، يقدِّر النفوس المقدامة ويحبِّها ، على أن تكون متواضعةً ولا تعتدّ بذاتِها أبدًا. وأنا لم أرَ واحدةً من هذه النفوس بقيتْ في اول الطريق ؛ كما لم أرَ نفسًا جبانةً تتستّر بالتواضع فتجتاز في سنواتٍ عديدة ما تجتازه النفوس الأخرى في سنواتٍ قليلة. ويُثير فيّ العجبَ أهميّةُ الطموح الكبير لتحقيق أمورٍ عظيمة في هذا السبيل. فالنفس ، وإن لم تتوفّر لها القوى فيما بعد ، تَطير وترتفع عاليًا ، ولو أنها ، كعصفورٍ طريٍّ ريشُه ، تتعبُ وتتوقّف.

شدّة العزيمة والفطنة

٣. فيما مضى ، كثيرًا ما كنت أتأمل في كلام القديس بولس « **بالله نستطيع كلّ شيء**»[(١)] . وكنت على يقينٍ من أنني لا أستطيع أمرًا بذاتي. وهذا التأمّل كان جليلَ الفائدة لي ، كما أفادني قولُ القدّيس أغسطينوس : « أعطِني يا ربّ ما تأمر ، ومُرني بما تريد »[(٢)] . وكنت أفكّر مرارًا بأن القدّيس بطرس ما خسر شيئًا حين ألقى بنفسه في البحر ولو أنّ الخوف استولى عليه من بعد. إن هذه العزائم في البدء ذاتُ قيمةٍ كبرى ، ولو كان الواجب ، في هذه الدرجة الأولى ، أن نسير برويّة ، ونتقيّد بالفطنة وبرأي المعلِّم. وعلينا أن لا نختار واحدًا يعلّمنا محاكاةَ الضفدع أو يكتفي بأن يُبيِّن للنفس كيف تصطادُ العَظايا[(٣)] فحسب.

فليكن التواضع دائمًا نصبَ عينينا لنفهم أن هذه القوى ليست نابعةً منّا.

التواضع الحق ومحاكاة القدّيسين

٤. وعلينا أن نفهم كيف يجب أن يكون هذا التواضع ، لأن الشيطان ، في

(١) **فيلبيي** ٤ ، ١٣.
(٢) **الاعترافات** ، ١ ، ١٠. ٢٩.
(٣) العظايا : جنس حيوانات زحّافة من فصيلة السقايات.

اعتقادي، يعمل على أن يُنزل أذًى كبيرًا بالنفوس التي تمارس التأمل ويحول دون تقدّمها، وذلك بإفساده عليها معنى التواضع، فيصوّر لها أنّ الرغباتِ الكبيرة التي تُراودها، والتوقَ الى محاكاة القدّيسين. وتمنّي الاستشهاد تنطوي على كبرياء. وما يلبث أن يقولَ لنا أو يفهمنا أنّ أفعال القدّيسين خليقةٌ بالإعجاب وليست لنحقّقَها نحن الخطأة. وهذا رأيي أيضًا؛ لكن علينا أن ننظر ما هو جديرٌ بالإعجاب وما يجب الإقتداء به. فلا يُستحسن مثلاً أن يُكثِر الصيامَ انسانٌ ضعيفُ البنية مريضٌ ويمارس إماتاتٍ قاسيةً فينفرد في صحراء حيث لا يستطيع النوم، ولا يجد ما يأكل أو ما شابه ذلك. غير أنّه علينا أن نفكّر أنّ بإمكاننا، بمعونة الله، بذلَ الجهد لنَحتقرَ العالم أيّ احتقار، ونزدريَ مجدَ الدنيا، ونتحرّر من التعلّق بخيرات الأرض. إنّ قلوبنا لمن الضيق بحيث نخال الأرض تفوتنا إذا أهملنا الجسدَ قليلاً لنهتمّ بشؤون الروح. ثم إنّنا نحسب امتلاكَ الأشياء الضرورية بكثرة يساعد على الاختلاء لأن الاهتمامات الخارجية تعكّر صفو التأمل. إنه لَيُضيمُني أن نكون قليلي الثقة بالله، ومُفرطين في حبّ الذات بحيث تُقلقنا هذه الاهتمامات. وهكذا، متى كان الروح متخلّفًا على هذا النحو فإن بعض التوافه تسبّب لنا من العناء ما تسبّبه للآخرين أمورٌ عظيمة وبالغة الأهمية. ومع هذا ندّعي أننا روحانيّون.

طريقة تلائم المتزوّجين

٥. أرى في هذا النمط من السلوك رغبةً في التوفيق بين الجسد والنفس، فلا نفقد الراحةَ في هذه الدنيا ولا التمتّعَ بالله في الآخرة. ويتمّ ذلك إذا سلكنا في البرارة وتعلّقنا بالفضيلة. إلاّ أنّه سيرٌ بطيء[٤] لا يتأتّى معه أبدًا بلوغُ حرّيّة الروح. هذه الطريقة أعتبرها ملائمةً تمامًا للمتزوّجين الذين عليهم أن يسلكوا بمقتضى دعوتهم، لكنّي لا أتمنّى إطلاقًا لحالةٍ أخرى هذه الطريقةَ للتقدّم، ولن يُقنعني أحدٌ بصلاحها لأنني خَبِرْتها بنفسي؛ ولكنت استمرّيت دائمًا فيها لولا أنّ الرب، بجوده، أرشدني الى طريقٍ آخر مختصر.

(٤) التعبير الأصلي في ترجمة حرفية: «إنّها مِشية الدجاجة».

الفطنة عند المرشدين

٦. ومع أنني كنت دائمًا صاحبةَ رغباتٍ كبيرة، لكنّني كنت أمارس النهج الذي تحدّثت عنه: أزاول التأمّل وأعيش على هواي. وفي ظنّي أنه لو وُجد من يدفعني لأطير لكنت اجتهدتُ لأضع هذه الرغبات موضع التنفيذ. لكنّ المرشدين، بسبب خطايانا، هم من القلّة والندورة بحيث لا يمتلكون الفطنةَ الكافية حول هذا الموضوع. وهذا في رأيي سببٌ جدّي يُعيق المبتدئين عن المضيّ سريعًا في طريق الكمال. فالربّ لا يتخلّف أبدًا ولا يقصّر. إنما المقصّرون البائسون نحن.

تجربة الخوف على الصحّة

٧. فضلاً عن ذلك، يُمكننا الاقتداءُ بالقدّيسين بالسعي الى العزلة والصمت، وبممارسة فضائل أخرى كثيرةٍ لا تقتل أجسادَنا التاعسة هذه، التي ترغب برعاية كبرى لتضلّل النفس؛ والشيطان بدوره يساعد كثيرًا على تعطيل هذه الأجساد حين يلاحظ بعض الخوف. فهو لا يريد أكثرَ من ذلك ليُفهمنا أن كلّ شيء سيقتلنا أو سيسلبنا الصِحّة. حتى إننا لو ذرفنا الدموع، أثار فينا الخوفَ من العمى. لقد خَبِرتُ هذا الأمر، لذا أراني عارفةً به. ولا أدري ما نتمنّاه من أجل بصرِنا وصحّتنا خيرًا من أن نضحّيَ بهما من أجل قضيةٍ كهذه.

لأن العلّة تلازمني، فقد كنت دائمًا مقيَّدة، لا أقوى على شيء، إلى أن عزمت على أن لا اكترثَ بالجسد او بالصحّة. وما أعمله الآن قليلٌ جدًّا. وبما أنّ الله أرادني أن أفهم حيلة الشيطان هذه، فإذا مثّل لي أبليسُ فقدانَ الصحّة كنت أقول: «لا بأس أن أموت»؛ واذا صوّر لي فُقدان الراحة أقول: «لستُ بحاجة إلى الراحة، بل إلى الصليب»؛ وهكذا في سائر التجارب. لقد رأيت بوضوح في كثير من الأحوال، على كثرة أدوائي، أن هذه التخيّلات مبعثُها تجربةٌ شيطانيةٌ أو ضعفٌ لديّ، وأنني حين أفتقد الترف ولين العيش، تكون صحّتي في أحسن حال.

فمن المهمّ جدًّا للمبتدئين في ممارسة التأمّل ألاّ تخيفهم الأفكار الطارئة، وليثقوا بكلامي هذا لأنه نتيجةُ اختباري. وقد تفيدهم روايةُ أخطائي فيتّعظوا بي.

تجربة الرغبة في تعليم الآخرين

٨. وثمَّة تجربةٌ أخرى شائعة لدى المبتدئين وهي أنهم ما إن يشرعوا بتذوّق طمأنينةِ التأمّل ومنافعِه حتى يرغبوا في أن يكون جميع الناس روحانيّين. أما هذه الرغبة فليست بأمرٍ سيّئ، وأما محاولة تحقيقها فقد لا تكون صالحةً إذا لم تصحبْها الفطنة واللباقة بحيث لا تبدو تعليمًا للآخرين ؛ لأن من أراد أن يُؤتي غيرَه نفعًا في هذه الحال لا بدّ من أن يمتلك فضائل راسخةً جدًّا لِئلاّ يكون سبب عِثارٍ للآخرين.

هذا ما حصل لي – ولهذا أنا عالمةٌ به – حين كنت أسعى ، كما قلت ، الى حمل آخرين على ممارسة التأمل. فقد كانوا ، من جهةٍ يرونني أثني على منافع التأمل الجليلة فيما يرونني ، من جهة أخرى ، أمارس التأمل على افتقاري الى الفضائل. فكنت لهم باعثًا على التجربة والبلبلة. وقد صارحوني بذلك من بعد ، وبأيّ حقّ ! لأنهم ما كانوا يعرفون كيف يمكن التوفيق بين الأمرين. فلأنهم كانوا يعتبرونني على شيءٍ من الصلاح ، ما كانوا يعتبرون سيِّئًا ما بذاته سيّئٌ ، لمجرّد فعلي إيّاه أحيانًا.

البدء بالذات أوّلاً

٩. هذا ما يفعله الشيطان. فكأنه يستخدم الفضائل التي نتحلّى بها ليسهّل ، قدر استطاعته ، الشرّ الذي يقصد. ومهما كان هذا الشرّ ضئيلاً ، فحين يحصل في جماعةٍ يكون له كسبًا كبيرًا. وكم بالحري أنّ سلوكي كان سيِّئًا جدًّا ! وهكذا فخلال سنواتٍ عديدة أفادت من نصائحي ثلاث أخوات فقط [٥]. وبعد أن قوّاني الرب في الفضيلة ، استفادت أخواتٌ كثيرات في سنتين أو ثلاث سنوات ، كما سأروي ذلك فيما بعد.

علاوةً على ذلك ، هناك ضَيْرٌ كبيرٌ وهو خروجُ النفس خاسرةً. لأن ما يجب أن تسعى اليه في البدء ، أكثر ما تسعى ، هو أن تُعنى بذاتها وحدها ، وأن تعتبر أن ليس في الدنيا سواها والله. وهذا المسلك يناسبها تمامًا.

---

(٥) هنّ ماريا للقديس بولس ، وحنّة للملائكة ، والسيدة ماريا دي ثيبدا.

تجربة الغمّ بسبب الآخرين

١٠. هناك تجربةٌ أخرى تتلبّس، كسائر التجارب، بستار الفضيلة، من الواجب التعرّفُ إليها والإحترازُ منها، وهي أنّنا نغتمّ بسبب خطايا الآخرين ونقائصهم. فالشيطان يصوِّر لنا أن هذا الغمّ ناجمٌ عن رغبتنا في أن لا يُهان الله أو تُحتَقر عزَّتُه فنريد أن نعالج الأمر حالاً. وهذا ما يُقلقنا فيمنعنا من التأمل. والضرر الأدهى أننا نظنّ ذلك فضيلةً، وكمالاً، وغيرةً فائقةً على الله. لست أقصد الغمّ الذي تُحدثه الخطايا العلنيّة في جماعةٍ رهبانية - إذا تحوّلت الى أمر عادي -، أو الأضرار التي تُحدثها في الكنيسة هذه البدع فنرى نفوسًا كثيرةً تَهلِك. فهذا الغمّ صالحٌ، ولأنه صالح لا يثير القلق. إنَّ أوفرَ ضمانةٍ للنفس التي تُمارس التأمل تركُها كلَّ شيءٍ وكلَّ الناس جانبًا واهتمامُها بذاتها وبإرضاء الله. هذا ما يلائمها فوق كل شيء. لو رحتُ أروي الأخطاء التي شاهدتها والتي قاد إليها حسنُ النية!.. فلنجتهدْ، إذًا، دائمًا لأن ننظر الفضائل والأعمال الصالحة في الآخرين ونَستَرَ نقائصَهم بخطايانا الكبيرة. إن هذا التصرّف، ولو لم يُمَارَس على الوجه الأكمل، يُكسِبنا فضيلةً جليلةً تقوم على اعتبارنا الآخرين جميعًا خيرًا منّا. وهكذا تبدأ النفس تحقِّق تقدُّمًا بعون الله. وهذا العون ضروريٌّ دائمًا، فإذا فاتنا كانت مساعينا باطلةً. ينبغي أن نسأل الله هذه الفضيلة حتى إذا بذلنا محاولاتِنا لم يتخلَّفْ عن مساعدتنا.

لا نجهدنّ العقل

١١. وهذه نصيحةٌ للذين يبالغون في استخدام العقل فيستنتجون من موضوعٍ تصوُّراتٍ وافكارًا كثيرةً: إن الذين لا يستطيعون إعمال العقل، كما كان يحدثُ لي، يجب أن ننصحهم بالتذرّع بالصبر فحسب حتى يعطيهم الرب ما يُشغلهم ويمنحهم نورَه، لأنهم بذاتهم يقدرون على القليل القليل، بحيث إنّ عقلهم يضايقهم أكثر مما يساعدهم. ولنعد الى الذين يعتمدون التفكير، فأقول بأن لا يقضوا وقت التأمل كلَّه في التفكير. فلأن التأمل عملٌ كسبي، ولأنه ممتع، يظنّون أن لا ضرورة ليومِ عطلةٍ كيوم الأحد أو لانقطاعهم عنه فترةً، بل يتصوَّرون ذلك وقتًا مهدورًا؛ وأنا أعتبر ضياعَ

الوقت هذا رِبْحًا ثمينًا. فليتمثّلوا ذواتِهم في حضرة المسيح، كما قلت، وليُناجوه، وليُفصِحوا عن سرورهم بقربه، دون أن يجهدوا العقل ويتعبوا أنفسهم بصياغة خطب، بل فليَعرضوا حاجاتِهم وما يبرِّر عدمَ تحمُّلِه إيّانا أمامه. فليمارسوا هذا النهج حينًا وذاك حينًا آخر حتى لا تتعب النفس من أكل الغذاء نفسه دائمًا. إن هذه الأغذية لذيذةٌ ومفيدةٌ جدًّا إذا تعوّدْناها لأنّها توفِّر مَنَعةً لحياة النفس وفوائدَ جمّةً.

طريقة بدء التأمل للجميع

١٢. أودّ أن أزيد ايضاحًا لأن أمور التأمل كلَّها صعبةٌ، وإذا لم يتوفّر معلِّمٌ مختصّ بها كانت عسيرةَ الفهم. ولهذا، فعلى رغبتي في الإيجاز، ورغم أنّ معالجتي إياها سطحيًّا تكفي العقل الراجح لمن أمرني أن أكتب هذه الأمور في التأمّل، فإن بلادتي لا تتيح المجالَ لأن أقول وأبيّن، بكلامٍ قليل، موضوعًا تهمٌّ كثيرًا إبانتُه. ولأني عانيتُ ما عانيت، فإني أُشفق على المبتدئين الذين يعتمدون على الكتب فقط. فإنّ الفرق مُذهلٌ بين ما نفهمه من الكتب وما نكتسبه بعد الاختبار.

وأعود الى موضوع حديثي. لنتأمّل سرًّا من أسرار الآلام: يسوع مربوطًا على العمود، مثلاً. فالعقل يمضي باحثًا عن دوافع هذا التعذيب، وعن الآلام والحزن التي عاناها جلّ جلاله في تلك الوحدة، وأمورٍ أخرى كثيرة يمكن أن يستخرجها العقل من هذا المشهد إذا كان يعمل، وإذا كان مثقَّفًا!... هذه هي طريقة التأمّل التي يجب أن يبدأ بها الجميع، ويتابعوها، وينتهوا اليها. وهي طريقٌ ممتازة ومأمونة، الى أن يقودهم الرب الى أحوالٍ أخرى فائقة الطبيعة.

تعدّد طرائق التأمّل

١٣. أقول «الجميع»؛ بيد أنّ هناك نفوسًا كثيرةً تنتفع أكثر في تأمّلها مواضيعَ أخرى غير الآلام المقدّسة. فكما أنّ في السماء منازلَ كثيرةً، كذلك هناك طرق كثيرة. فالبعض يستفيدون من تصوّرهم أنفسَهم في جهنم؛ ويستفيد البعض، ممن يُحزنهم التفكير في جهنّم، بتصوُّر أنفسهم في السماء، والبعض الآخر يستفيد من التفكّر في

الموت ؛ آخرون ، إذا كانوا رقاقَ القلوب ، يتعبون من التأمّل دائمًا في الآلام ويتمتّعون ويستفيدون من النظر في قوّة الله وعظمته في الخلائق ، وفي الحبّ الذي أحبَّنا به والذي يتمثّل في جميع الكائنات. وإنها لطريقةٌ رائعةٌ إذا لم يُهمَل كثيرًا التأمّلُ في حياة المسيح وآلامه إذ منها جاءنا ويجيئنا كلُّ الخير.

ضرورة معلِّم خبير

١٤. يحتاج المبتدئ الى أن يتعرّف الطريقةَ الأنفع له. ولهذا لا بدّ له من معلِّمٍ خبير. فإن لم يكن المعلّمُ خبيرًا سقط في أخطاء كثيرة ، ووجّه نفسًا دون أن يفهمها ودون أن يدَعها تفهم ذاتها ؛ ذلك أنها تعرف ما في الخضوع للمعلِّم من استحقاقٍ فلا تجرؤ فتخرج على ما يُمليه عليها. لقد صادفتُ نفوسًا متضايقةً حزينةً لأنّ من كان يعلِّمها تنقصه الخبرة ، فكانت تثير فيّ الشفقة ، حتى إنّ إحداها ما كانت تدري ما العمل. فإذا كان المعلِّم يجهل الأمورَ الروحيّة يُحزِن النفسَ والجسدَ معًا ويَحول دون التقدّم. لقد أَفْضَتْ إليّ نفسٌ بأنّ المعلِّمَ تركها مكبَّلةً ثماني سنوات فلم يدَعها تتجاوز معرفةَ ذاتِها مع أنّ الربّ كان قد رفعها الى تأمّل السكينة. وهكذا فقد كانت تُقاسي مشقّاتٍ كبيرةً.

تكرار العودة الى البدء

١٥. مع أن معرفة الذات يجب أن لا تُهمَل البتّة ، فما من نفسٍ تسير في هذا الطريق ، مهما كانت جبّارةً ، إلاّ وتحتاج مرّاتٍ عديدةً لأن تعود الى حالة الطفولة والرضاعة. يجب أن لا ننسى أبدًا هذا الأمر ، وقد أعود اليه مِرارًا لأنه ذو أهميّة بالغة. فما مِن حالةِ تأمّل مهما سمتْ لا يقتضي العودة معها ، مرارًا ، الى البدء. فتذكُّرُ خطايانا ومعرفةُ الذات هما الخبز الذي يجب أن نتناول معه سائر الأطعمة ، مهما طابت مذاقًا ، في طريق التأمل هذا ، ومن دونه لا تستطيع النفوس أن تتغذّى. على أنّه يجب تناوله باعتدال. فبعدِ أن تُؤْخَذ النفسُ بالنعمة ، وتدرِكَ أنّها لا تملك خيرًا من ذاتها ، ويعترِيَها الخجلُ أمام ملكٍ عظيمٍ كهذا الملك ، وترى أنّها تردّ له القليل من الكثير

الذي تدين له به، فأيّ حاجةٍ لأن تُضَيِّع وقتَها في هذا؟ بل أحرى بنا أن نسعى الى أطعمةٍ أخرى يقدّمها لنا الربّ ، ولا مبرِّر لرفضنا إيّاها ، لأنه ، جلّ جلاله ، أعلم منّا بما يناسبنا من طعام.

ضرورة العلم في التأمّل

١٦. فمن المهم جدًّا أن يكون المعلِّم فَطِنًا – حاضرَ العقل – وذا خبرة. وإذا جمع المعرفة الى هذه فنِعمَ الأمر. أما اذا تعذّر اجتماعُ هذه الصفات الثلاث، فلنعلم ان الأُولَيَين منها أكثرُ أهمّية. فالمبتدئون يتيسّر لهم، إذا دعت الحاجة، أن يجدوا اصحاب علمٍ ليستأنسوا برأيهم. لكنّهم قليلاً ما يستفيدون اذا كان أولئك لا يمارسون التأمّل. لا أقصد بذلك أن لا يتعاملوا مع ذوي العلم، لأن النفس التي لا تبدأ مسيرتها في الحقيقة، خيرٌ لها أن تبقى دون تأمّل. والعلم جليل لأنه يثقِّفنا، نحن، من نعرف القليل، ويوفّر لنا نورًا، وبه نصل الى فهم حقائق الكتاب المقدّس والقيام بواجباتنا. أجارنا الله من العبادات الحمقاء!

الحاجة الى مرشد مثقّف...

١٧. أودّ أن أكون أكثر وضوحًا إذ أراني دخلت في أمورٍ كثيرة. لقد لازمتني هذه النقيصة وهي، كما قلت سابقًا، عجزي عن التعبير عن أفكاري إلاّ بكثيرٍ من الكلام. هذه راهبة تشرع في ممارسة التأمّل، فإذا كان مرشدها بسيطًا وخطرَ له خاطرٌ ما، يحملها على الاقتناع بأن إطاعتها إيّاه خيرٌ من طاعتها لرئيسها؛ وهو لا يفعل ذلك بسوءِ نيّة بل يعتقد نفسه مصيبًا. وإذا لم يكن المرشد راهبًا، يكون واثقًا من رأيه. وإذا كانت المسترشدةُ متزوِّجةً فيقول لها، حين يكون عليها الاهتمام بأمر بيتها، أنْ خيرٌ لها أن تنصرفَ الى التأمّل ولو أَغضبت زوجها. وهكذا فإنه لا يعرف تنظيم الوقت ولا الأعمال لتكون متوافقةً والحقيقة. ولأن النور يُعوزه لا يستطيع تقديمه للغير ولو أراد. ومع أنّ العلم لا يبدو ضروريًا لهذا الأمر، فإنّ رأيي كان دائمًا وسيكون أن يسعى كلّ مسيحي ليتعاطى مع مرشدٍ علاّمة، إذا أمكن؛ وكلّما كان المرشد واسعَ العلم كان

ذلك أفضل. والذين يسيرون في طريق التأمل يحتاجون أكثر من غيرهم الى مرشد؛ وكلّما ازدادوا تقدُّمًا في الحياة الروحية إزدادوا حاجةً.

مُرشد... يُمَارس التأمّل

١٨. ولا يُخْدَعَنَّ أحدٌ بالقول إن مثقّفين لا يمارسون التأمّل لا يصلحُون لإرشاد من يمارسه. لقد عاشرتُ كثيرين. فمنذ عدّة سنواتٍ سعيتُ إليهم سعيًا لأنني كنت في حاجةٍ ماسّةٍ الى عملهم. وكنت دائمًا أُقدِّرهم. فهُم، وإن فاتت بعضَهم الخبرةُ في حياة التأمّل، لا ينفرون من الشؤون الروحيّة ولا يجهلونها. فإكبابُهم على دراسة الكتاب المقدّس يخوِّلهم دائمًا إكتشافَ حقيقةِ الروح الصالح. وفي اعتقادي أنّ شخصًا يمارس التأمّل ويتعاطى مع مثقّفين، لا يخدعه الشيطان بأوهامه إذا لم يُرِد هو أنْ ينخدع. فالشياطين، في ظنّي، يخافون المثقّفين المتواضعين الفاضلين أيَّ خوف، ويعرفون أنَّ أمرهم سينكشف فيرجعون خاسرين.

فائدة علم المرشد

١٩. قلت ما قلت لأَنّ البعضَ يرون أنّ ذوي العلم لا يصلحون كمرشدين لذوي التأمّل إذا فاتهم الروح. لقد قلتُ أَنْ على المعلِّم أن يكون روحيًا، فإن لم يكن ذا عِلمٍ كان ذلك عقبةً كبرى. ومعاشرةُ ذي العلم تساعد كثيرًا إذا كان صاحبَ فضيلة؛ وهو، ولو افتقر الى روح التأمّل، ذو فائدة، لأن الله يعرِّفه ما عليه أن يعلِّم بل ويجعله روحيًّا حتى يفيدنا. وإنّما أُؤَكِّد الأمر لأنني خبِرته بنفسي وحصل لي مع أكثر من إثنين. وأرى أنّ نفسًا تريد أن تكون خاضعةً لمعلِّمٍ واحدٍ، ترتكب خطأً كبيرًا إذا لم تسعَ ليكون كما وصفت. فإذا كان المسترشِدُ راهبًا، يكون عليه الخضوعُ لرئيسِه الذي قد يفتقر الى تلك الصفات الثلاث فيشكِّل لتلك النفس صليبًا ثقيلاً، ما لم تُخضِعْ عقلَها هي، بملءِ إرادتها، لمن لا يُعوزه الحكمُ الصحيح. وهذا ما لم أستطع أن أُطبِّقه ولا أراه ملائمًا. واذا كان المسترشد علمانيًّا، فليَحمد الله لأن باستطاعته أن يختار من يخضع له. فلا يضيِّع هذه الحريّة الثمينة. وليبْقَ دون معلِّم حتى يجدَ المعلِّم

المناسب ، فإنّ الرب يهديه إليه إذا ثابر راسخًا في التواضع وراغبًا في لقائه . إني أحمد الله أوفر الحمد. ونحن ، النساء والذين لا يملكون العلم ، علينا أن نشكره دون انقطاع لأنه وفّر لنا أناسًا أدركوا بجهودٍ مضنية الحقيقة التي نجهلها .

إعجابها بالمثقّفين الرهبان

٢٠. كثيرًا ما يُثير إعجابي المثقّفون ، ولا سيّما الرهبان منهم ، بما اكتسبوا بجهدهم من علمٍ أستفيد أنا منه فلا يكلّفني سوى السؤال . ومن العجب أنّ هناك أناسًا لا يريدون أن ينعموا بفائدته ! لا سمحَ الله بذلك ! إني أرى هؤلاء الرهبان مقيَّدين بمشقّات الرهبنة ، وهي شديدةٌ ، يمارسون الإماتات ، طعامُهم رديء ، مقيَّدين بالطاعة بحيث أخجل ، حقًّا ، من نفسي أحيانًا . أضِف الى ذلك أن لا راحة لهم في النوم ، وكلّ حياتهم عناء ، بل كلّها صليب . وأعتبر ضررًا كبيرًا أن لا يستفيد أحد ، بخطإٍ منه ، من هذا الخير العميم. قد يظنّ البعض منّا ، لأننا متحررون من هذه المشقّات ويُقَدَّم لنا الطعام جاهزًا ، كما يقولون ، وأننا نعيش على هوانا ، أنّنا نَفْضُلهم ، هم ، الذين يُعانون مشقّاتٍ كبرى ، لأننا نمارس حياةَ التأمّل أكثر منهم بقليل .

إبتهال وصلاة لأجل المثقّفين

٢١. تباركتَ ، يا ربّ ، يا من صنعتَني خرقاء ، عديمةَ الجدوى ! وأحمَدك جزيلَ الحمد لأنك توقظ عقولَ كثيرين يوقظون ، بدورهم ، نفوسَنا . يجب أن نثابرَ على الصلاة من أجل هؤلاء الذين يُضيئون سبيلنا . ما يكون مصيرنا لولاهم في خضمٍّ هذه العواصف الهوجاء التي تجتاح الكنيسة الآن؟ إذا شذّ بعضهم عن طريق الحق فإن إشعاع الصالحين يكون أكثرَ أَلَقًا . رضيَ الله عنهم ، وأخذَهم بيده ، وساعدَهم ليساعدونا . آمين .

التأمّل بالمسيح مربوطًا الى العمود

٢٢. لقد شطّ بي المزار بعيدًا عن الموضوع الذي بدأت معالجته . لكنّ كلّ ما

قيل نافع للمبتدئين حتى يسلكوا في هذا الدرب السامي بحيث يسيرون في الطريق القويم. وأعود الى حديثي عن التأمل بالمسيح مربوطًا الى العمود فأقول: يُستحسن أن نفكّر برهةً ونتأمّل العذابات التي قاساها هناك، ولماذا قاساها، ومن هو الذي تحمّلها وبأيّ حبٍّ كابدها. لكن لا نُتعبنَّ أنفسنا دائمًا في البحث عن هذه الاعتبارات، بل يكفي أن نبقى هناك معه، منقطعًا عقلُنا عن التفكير. وإذا أمكن فلنشغلْه بأن ننظرَ أنه ينظر الينا، ونرافقَه، ونخاطبَه، ونسألَه، ونتواضعَ أمامه، ونبتهجَ برفقته، ونقرّ بأنّنا لسنا أهلاً لأن نكون هناك. فمتى استطاع أحدٌ أن يفعل هذا، ولو كان في أوّل عهده بحياةِ التأمّل، يحقِّق فائدةً جُلّى، كما أنّ هذه الطريقة في التأمل توفّر فوائد جمّة. هذا، أقلّه، ما استفادته نفسي.

لا أدري إذا أصبتُ في عرض أفكاري. فأنتَ، أبتِ، أُنظرْ في الأمر. أَسألُ الله أن أُصيبَ دائمًا في تحقيق مرضاته. آمين.

الفصل الرابع عشر

تشرع في شرح الدرجة الثانية من التأمل وفيها يُنعِم الربّ على النفس بتذوّق لذائذ أخصّ. وتوضح أنها منٌّ فائقة الطبيعة. إنه موضوعٌ تجدر الإشارة اليه

طريقة الريّ الثانية

١. أما وقد تحدّثنا عن المشقّة في ريّ هذا البستان حين ننتشلُ الماء من البئر بقوّة ساعدنا، فلنتحدّث الآن عن الطريقة الثانية لانتشال الماء التي أوصى بها ربّ البستان حتى يسحب البستاني، بواسطة ناعورةٍ وقواديس، مقدارًا أكبر من الماء بجهدٍ أقلّ، ويستطيع أن يستريح فلا يعمل عملاً متواصلاً. فعن هذه الطريقة، في تطبيقها على التأمّل المدعو تأمّل السكينة، أودّ أن أتحدّث الآن.

إستجماع القوى

٢. هنا تبدأ النفس في استجماع أفكارها وتعرض لأمورٍ فائقة الطبيعة لأنها لا تستطيع أن تبلغ هذه الحالة مهما بذلت من مساعٍ. قد تكون، كما يبدو، تعبتْ زمنًا في تشغيل الناعورة، وإعمال العقل، وملءِ القواديس؛ إلاّ أنّ الماء هنا بات على مستوىً أعلى فيكلّف عناءً أقل من عناءِ رفعِه من البئر، أعني أنّ الماء أقرب إلينا لأن النعمة تنكشف للنفس بوضوحٍ أكبر.

إنه استجماع القوى في الذات لتتمتّعَ بهذا الفرح بلذّةٍ أوفر. إلّا أنّ القوى لا

تتعطّل ولا ترقد. الإرادة وحدها تظلّ عاملةً بحيث تقع أسيرةً دون أن تدري كيف ؛ إنها تعبّر عن رضاها لأن يسجنها الله ، كمن يعرف أنّه أسيرُ من يحبّ. يا يسوع ويا ربّي ! ما أجدى حبّك لنا في هذه الحال ! إنه يقيّد حبّنا حتى ليحرمنا الحرّية لنحبّ ، في هذه الحال ، شيئًا آخر سواك.

تباعد قوى النفس

٣. أما القوّتان الأُخريان فإنهما تساعدان الإرادة فتهيّأ للاستمتاع بخيرٍ كهذا عميم ؛ فالإرادة ، على كونها متّحدةً بالله أحيانًا ، تطالعها صعوباتٌ منهما ، فلا تهتمَّنّ بهما بل فلتستمرّ في متعتها وسكونها ، لأنها إذا حاولت أن تضبطهما خسرتْ ، هي ، وخسرتا ؛ فتكون تانك القوّتان مثل حمامات ٍ لا تقنع بالطعام الذي يقدّمه لها صاحب برج الحمام دون أن تبذلَ جهدًا ما ، فتمضي للبحث عن غِذاءٍ في مواضع أخرى ، إلاّ أنّها تشقى فتعود أدراجها ؛ وهكذا تذهب تانك القوّتان وتعودان لعلّ الإرادة تعطيهما مما تستمتع به. وإذا أراد الربّ أن يلقي إليهما بالغِذاء ، توقّفتا ، وإلّا عادتا للبحث. وقد تظنّان أنّهما تعودان على الإرادة بفائدة ، إلاّ أنّ الذاكرة أو المخيّلة تؤذيانها أحيانًا اذ تمثّلان لها ما تستمتع به. فلتتصرّف إذًا تجاههما على النحو الذي سأبيّنه.

تعزية كبرى

٤. إنّ كلّ ما يحدث في هذه الحال تصحبه تعزيةٌ كبرى ، وعناءٌ قليل قليل ، بحيث إن التأمّل ، ولو دام طويلاً ، لا يُحدث تعبًا ؛ فالعقلُ هنا يبالغ في التأنّي ، ويستخرج ماءً أغزر بكثيرٍ ممّا كان ينتشله من البئر ، والدموعُ التي يمنحها الله في هذه الحالة ترافقها متعةٌ ؛ نُحِسُّها تنسكب ولو لم نسعَ وراءها.

نموّ الفضائل واختبار السعادة

٥. إن ماء الخيرات والمنن الجزيلة ، الذي يعطيه الرب في هذه الحالة ،

ينمّي الفضائل بما لا مثيل له في حالة التأمّل السابقة ، لأن النفسَ تنطلق مرتفعةً من بؤسها وتُعطَى شيئًا من العلم بلذائذ السماء . وهذا ، في ظنّي ، ما يجعلها تزداد نموًّا وتقترب أكثر فأكثر من الفضيلة الحق ، من الله مصدر كلِّ الفضائل ، لأن الله ، جلّ جلاله ، يبدأ اتّصاله بهذه النفس ويريدها أن تشعر كيف يتّصل بها .

ولدى بلوغ هذه الحال ، تأخذ النفس تفقد الرغبة في أمور هذه الدنيا ، وتفقد بعض النعم ، لأنها تتبيّن أنّها لا تستطيع أن تحظى هنا بلحظةٍ من تلك اللذّة ، وأن لا الثروات ، ولا السلطان ، ولا الجاه ، ولا الملذّات توفِّر لها ، مدى طرفة عين ، هذا السرور لأنه سرورٌ حقيقيٌّ يرضيها . وفي تقديري ، أننا في هذه الدنيا ، إنما ندرك جوهر هذا السرور بأعجوبةٍ ما ، لأن الأمر لا يخلو لدينا أبدًا من «نعم» و «لا»[1] . ففي حالة تأمُّل السكينة، كل شيء «نعم» ؛ أما الـ «لا» فيأتي فيما بعد حين نرى هذه الحالة قد انقضت وأننا لا نستطيع استعادتها ولا نعرف كيف. فلو مارس المرء ، الإماتات ، والصلاة وسائر التقشفات حتى بات أشلاءً ، فلن يفيده ذلك كثيرًا ما لم يُرد الله أن يعطيه تلك الحالة . فالله ، في عظمته ، يريد أن تدرك هذه النفس أنه ، جلّ جلاله ، قريبٌ منها بحيث لا تحتاج الى أن تبعث إليه رسلاً، بل أن تخاطبه بذاتها ، وألّا ترفع صوتَها لأنها قريبةٌ منه ، فما إن تحرِّك شفتيها حتى يفهمها .

الإرتياح الكبير يسدّ الفراغ

٦. يبدو وقحًا هذا الكلام ؛ فنحن نعرف أن الله يفهمنا دائمًا وهو معنا . لا نستطيع الشكَّ في هذه الحقيقة. إلّا أنَّ مَلكنا هذا وسيّدنا يريدنا ، ونحن في حالِ التأمل هذه ، أن نفهم أنه يَفهمنا وأن يُشعرنا تأثيرَ حضوره ؛ ويريد خاصة أن يباشر العملَ في النفس بواسطة الرضا الكبير ، الداخلي والخارجي ، الذي يمنحها ، وبإظهاره لها ، كما قلت ، الفرقَ الكبير بين هذين التنعم والسرور ونعيم الدنيا وسرورها ، بحيث يبدو أنه يسدّ الفراغ الذي تحدثه الخطايا في نفسِنا . وهذا الرضا تشعر به النفسُ في عمقِ

(١) «نعم» و «لا» تعنيان الاستدراك أو التحفّظ بمعنى «لكن» و «بل».

أعماقها ولا تدري من أين أو كيف جاءها ، كما أنها لا تدري غالبًا ما تعمل ، ولا ما تريد أو تطلب. كأنها تجد كلّ شيءٍ في آن ولا تدري ما وجدت ؛ ولا أنا أُحْسِنُ إيضاح الأمر ، لأنني أفتقر الى العلم في أمورٍ كثيرة. ومن المفيد جدًّا أن نبيِّن هنا مفهوم العون العام والعون الخاص[٢] ، لأنّ كثيرين يجهلون ذلك ، وكيف أن الربّ يريد أن ترى النفسُ هنا بعينيها ، كما يقال ، هذا العون الخاص. والعلم ضروريٌّ كذلك لأمورٍ كثيرةٍ قد أُخطئ التعبير عنها. بيد أنّ ما يُطَمئِنني هو أنّ أشخاصًا ذوي معرفة سينظرون الكتاب ويميِّزون ما فيه من أخطاء. وأعرف أنّ باستطاعتي الاطمئنان إليهم من ناحيتَي المعرفة والروح ، ما دام الكتاب موجَّهًا الى من سيصير اليه ، فإنهم سيكتشفون الخطأ وينزعونه منه.

وعيُ الحالة مفيد جدًّا

٧. بودِّي أن أوضح أمر هذه المنن لأنها الأولى ؛ وعندما يأخذ الربّ يُغدقها ، فإن النفس ذاتَها لا تدركها ولا تعرف كيف تتصرّف. فإذا اقتادها الله في طريق الخوف ، كما فعل بي ، أصاب النفسَ عناءٌ إذا لم يُتَح لها من يعي حالها ، وشعرتْ بلذّةٍ كبرى حين ترى نفسها مصوَّرةً في هذه الحال ، فتعرف حينئذٍ في أيِّ دربٍ تسير. وهناك منفعةٌ وافرةٌ لها في أن تعرف ما عليها أن تعمل لتستفيد في كلٍّ من هذه الحالات. فأنا عانيتُ الكثير وأضعت زمنًا طويلاً لجهلي ما كان عليَّ أن أعمل ؛ وتُحزنني أيَّما حزنٍ نفوسٌ تشعر بذاتها وحيدةً حين تبلغ الى هذه الحالة. لقد طالعتُ العديد من الكتب الروحيّة تتناول هذا الموضوع ، لكنّها لا تفي بالمرام. ولئِن أفاضت النفس في شرح حالها ، فإذا لم تكن متدرِّبةً جدًّا تجد صعوبةً جمّة في فهم حالتها.

آثار الحالة تدلّ على مصدرها

٨. بودّي لو أنّ الربّ يساعدني لأعرض المفاعيل التي تُحدثها في النفس هذه

---

(٢) إشارة الى النعمة العامة التي يعطيها الله الجميع ، والنعمة التي يعطيها للحالات الخاصة. والقديسة غالبًا ما تستعمل «العون» بمعنى «النعمة».

الأمور التي بدأتْ أن تكون فائقةَ الطبيعة ، حتى يُفهَم من المفاعيل ما إذا كانت صادرةً عن الله. أقول « حتى يُفهَم » ، أي بمقدار ما يسعنا فهمُه في هذه الدنيا ، وإن يكن من الخير لنا أن نسيرَ دائمًا في خوفٍ وحذر. فإنه وإن كانت هذه الأمور من الله ، فإن الشيطان يستطيع أحيانًا أن يتمثّل بصورةِ ملاك النور ؛ فإذا لم تكن النفس متدرِّبةً جدًّا ، يفوتها فهمُ الأمر ؛ بل يلزمها أن تكون راسخةً في التدرّب بحيث ينبغي لها ، كي تفهم هذا الأمر ، أن تبلغ أعلى ذروة التأمّل.

كيف كانت تكتب

إن الوقتَ الوجيز المتيسِّر لي يَقصر عن مساعدتي ، فينبغي أن يمدّ لي الله ، عزّ وجلّ ، يد العون. عليّ أن أُشارك في حياة الجماعة وأهتمّ بمشاغل أخرى عديدة (فأنا في ديرٍ حديث الإنشاء[٣] كما سيُرى فيما بعد). وهكذا ، فإنّ ما أكتبه يفتقر الى الإنتظام ، وأكتبه في فتراتٍ متقطِّعة. غير أنّ الربّ عندما يرسل روحه تَسْهُل الكتابة وتمتاز بالوضوح ، كأني بنا نرى نموذجًا أمامنا فننسخه ؛ أما إذا افتقدْنا الروحَ فيكون الحديثُ أصعبَ من الكلام بالعربية[٤] ، كما يُقال ، حتى ولو كنّا قد تمرّسنا بالتأمل سنواتٍ عديدةً. وهكذا ، فإني أعتبر الكتابةَ في الموضوع ، وأنا في هذه الحال ، فائدةً كبرى ، لأني أرى بوضوح أنني لستُ أنا الذي أُنطِق به ، ولا عقلي من ينظّمه ، ولا أعرف فيما بعد كيف أصبتُ في قولي. هذا ما يحدث لي غالبًا.

عودة الى تشبيه البستان

٩. لنعدِ الآن الى حديقتنا أو بستاننا ولنرَ كيف تبدأ الأشجار تُبرعم ، فتُزهر ، ثم تُثمر ، وكيف تبدأ الزهور والورود تنشر العبير. يطيب لي إعتمادُ التشبيه لأنني في أوائل ما سأرويه عن حياتي (عسى أن أكون الآن بدأت أخدم الربّ عزّ وجلّ) كثيرًا ما كنت أغتبط أيَّ غبطةٍ في إعتباري نفسي بستانًا وأن الربّ يتنزّه فيه. كنت أتوسّل

---

(٣) هو دير القديس يوسف في أڤيلا.

(٤) أي لغة المغاربة التي لم يكن يفهمها عامة الاسبان.

اليه أن يزيد الأريج في أزاهير الفضائل التي كانت ، في رأيي ، تريد أن تتفتّح ، وأن يقوّيها ، ويكون ذلك لمجدِه ، لأني ما كنت لأريد شيئًا لنفسي ، وأن يقطعَ ما يطيبُ له قطعُه منها ؛ فقد كنت موقنةً أنها ستنبت أحسن من قبل. أقول « أن يقطع » . لأنه يأتي زمنٌ لا تذكر النفس فيه هذا البستان ؛ كأنّ كلّ شيء فيه جاف ، ولا ماء لرعاية أمره ، وكأنّ النفس ما عرفت الفضيلةَ قطّ . ويحصل عناءٌ كبيرٌ لأن الربّ يريد أن يعتقد البستانيّ المسكين أن الجهد الذي بذله في رعاية أمر البستان وريِّه ذهب سدًى . عندئذٍ يحين الوقت لإبادة ما بقي من الأعشاب الرديئة واستئصالها ، ولو كانت صغيرةً ، فإذا عرفنا أن لا مسعى يؤثّر إذا حبس الله ماءَ النعمة ، ولم نأبهْ لعدمِنا بل واعتبرناه ما دون العدم ، كَسِبنا في التواضع درجةً ساميةً ، وتشرع الزهور تنمو من جديد .

إبتهال وسرور بعشرة الربّ

١٠. يا ربّي ويا خيري العميم! ما إن أنطق بهذا حتى تَفيض دموعي وأشعر بمسرّةٍ كبرى تغمر نفسي. أنتَ ، يا ربّي ، تودّ أن تقيم معنا كما أنت حاضرٌ في القربان المقدّس (ونؤمن بذلك إيمانًا حقًّا ، لأنها حقيقةٌ ثابتةٌ ، فيُمكننا في الواقع إعتمادُ هذا التشبيه) ، وإذا لم نأتِ ذنبًا تَمتّعنا بعشرتِكَ ؛ وتُسرُّ ، أنت ، ربّي ، بعِشرتنا ؛ فإنّك تقول **إن نعيمَك مع بني البشر** [٥] . آه ، ربّي ! ما هذا؟ كلّما سمعت هذه الآية شعرتُ بتعزيةٍ كبرى حتى عندما كنت ضالّة. أيُمكن ، ربّي ، أن توجد نفسٌ غمرتَها بنعمٍ ومسرّاتٍ كهذه ، وتدركُ أنّك تسرّ بعشرتِها فتعود الى إهانتك بعد هذه الأفضال العديدة والدلائل الكثيرة على حبِّك إيّاها حبًّا لا شكّ فيه ، لأن آثاره ظاهرةٌ للعيان؟ أجل ، هناك نفس ، حقًّا ، لم تُهِنْك مرّةً فقط بل مرّاتٍ كثيرةً : أنا هي . ليتني ، ربّي ، بجودٍ منك ، أكون وحدي العَقوق ، ومن اقترفتُ هذا اللومَ الجسيم ، وأتيتُ هذا العُقوقَ المفرط . إن جودَك المتناهي أَطْلعَ ، حتى منها ، بعضَ الخير .

(٥) أمثال ٨، ٣١.

فكلّما ازداد الشرّ ازداد تألقُ خيرِ مراحمك العظيم. فما أولاني ان أترنّم بمراحمك الى الأبد[٦] !

إبتهال وترنيم

١١. ويا إلهي، أتوسّل إليكَ أن يكون الأمرُ كذلك، فأُرنِّم بمراحمك على الدوام لأنه حَسُنَ لديك فصنعتَ معي مراحمَ عظيمةً تدهش من يرونها، وكثيرًا ما تُسحرني لأستطيع أن أمجِّدك أحسن تمجيد؛ فأنا وحدي، وبدونك يا سيّدي، لا أستطيع شيئًا، بل تُقطع من جديدٍ أزاهيرُ هذا البستان فتعود هذه الأرض البائسة لتصيرَ مزبلةً مثلها من قبل. لا تسمحْ بهذا يا سيّد، ولا ترضَ أن تهلِك نفسٌ إشتريتَها بمشقّاتٍ جِسام، وعُدْتَ فافتديتَها مرّةً تلو المرّة وانتزعتَها من أنياب التنّين الرهيب.

شكر وعرفان جميل

١٢. عفوكَ، أبتِ! لقد خرجتُ عن الموضوع. لكنّي أتكلّم هكذا عن قصد؛ فلا تستغربن الأمر لأن النفس تؤخذ بما يُكتَب بحيث يصعب عليها كثيرًا ألاّ تستمرّ في إسداء التسابيح لله اذ تتمثّل، وهي تكتب، كلَّ ما تدين به له من نعم. وإخال أن ذلك لن يسيئك. ففي ظنّي أننا، كلينا، نستطيع أن نرتّل النشيد نفسه بطريقةٍ مختلفة. فأنا مدينةٌ لله بأكثر ممّا أنت مدين له بكثير، لأنه غفر لي أكثر، كما تعلم.

---

(٦) إشارة الى المزمور ٨٨، ٢: «**بمراحم الربّ ارنّم الى الأبد**»، وهو شعار سبرنها، وتورد الآية نفسها في المقطع التالي.

الفصل الخامس عشر

تتابع الكلام على الموضوع نفسه وتعطي نصائح حول طريقة التصرّف في حالة تأمّل السكينة. تعرض كيف أنّ نفوسًا كثيرةً تبلغ هذه الحالة وأخرى قليلةً. إن النقاط التي تبحثها هنا ضروريةٌ ومفيدة

حالة النفس في تأمّل السكينة

١. لنعد الآن الى موضوعنا. إن هذا السكون وهذا الإختلاء تشعر بهما النفس شعورًا عميقًا عبر ما يوضَع فيها من رضًى وسلام، كما تشعر قواها بسرورٍ فائق وطمأنينةٍ، وبمتعةٍ عذبةٍ جدًّا. وبما أنها لم تبلغ من قبلُ أبعد ممّا بلغتْ، تحسب أنْ لا شيء بعد تتمنّاه فترغب طوعًا، كالقدّيس بطرس، في أن يكون هناك مقامُها. لا تجرؤُ على التحرّك أو التململ إذ يتراءى لها أنّ هذا الخير سيُفلت من يديها؛ وقد لا ترغب في التنفُّس أحيانًا. لكنها، يا لتَعسها! ، لا تفهم أنّها، وقد عجزتْ عن كسب ذلك الخير بذاتِها، أعجزُ من أن تحفظه زمنًا أطول ممّا يريد الربّ.

لقد قلتُ إنّ قوى النفس لا تتعطّل في هذين الإختلاء والسكون الأوَّلَين؛ بل إن النفس تشعر بذاتها مكتفيةً بالله بحيث إنها، ما دامت لها هذه الحال، ولو أنّ القوّتَين تضطربان، لا يفوتها السكون والطمأنينة، بل إنها تعود فتستجمع، شيئًا فشيئًا، العقلَ والذاكرة. فالنفس، ولو لم تكن مستغرقةً كليًّا بالله، تبقى مشغولةً به أيّ شغلٍ دون أن تدري كيف، بحيث إنّ تَينك القوّتين، مهما حاولتا، لا تستطيعان

سلخها عن فرحها ومتعتها ؛ بل على العكس فهي تروح تعمل دون أيِّ عناءٍ كي لا تنطفئَ فيها شرارةُ حبِّ الله هذه.

قليلٌ من يتجاوز حالة تأمّل السكينة

٢. عسى الله، جلّ جلاله، يعطيني النعمة لأوضح هذه المسألة جيّدًا لأنّ هناك نفوسًا عديدةً، أجل، نفوسًا عديدةً تبلغ الى هذه الحالة، لكنّ التي تتجاوزها قلَّة، ولا أدري مَن المذنب. مِن المؤكَّد أنّ الحقّ ليس على الله. فما دام، جلّ جلاله، يمنُّ علينا بالوصول الى هذه الحالة، لا أَظنُّه يكفّ عن إفاضةِ نعمٍ أكثر إن لم يكن الذنْبُ ذنْبَنا. ومن المهمّ جدًّا أن تدرك النفس التي تصل الى هذه الحالة كرامةَ المنزلة التي بلغتْها، والنعمةَ العظمى التي آتاها الرب، والدوافعَ الوجيهة كي لا تعتبرَ نفسها من الأرض؛ وكأنّ صلاحَه جعلها من سكّان السماء ما لم تُعطِّل هذا الواقع بذنْبِها. ويا ويحَها إن عادت القهقرى! فإذا فعلتْ، أظنُّها تنحدر الى الهاوية كما كنتُ، أنا، في طريقي إليها لو لم تسترجِعْني رحمةُ الربّ. وفي اعتقادي، أنّ أَكثر هذه السقطات تعود الى أخطاءٍ جسيمةٍ إذ يستحيل أن يتخلّى الانسان عن خيرٍ عظيمٍ كهذا ما لم يُعمِهِ الشرُّ أيَّ عمًى.

لا تَتَخلَّ عن التأمّل

٣. وعليه، أَسأَلُ، حبًّا بالربّ، تلك النفوسَ التي خصَّها، جلّ جلاله، بهذه النعمة العظمى، نعمةَ الوصول الى هذه الحالة، أن تعرف ذاتها، وتقدِّرَها أيَّ تقديرٍ باعتزازٍ متواضعٍ قدسيٍّ حتى لا تعودَ الى قدور مصر [١]. وإذا سقطتْ بسبب ضعفها، وخبثِها، وطبعِها البائس الحقير، كما حصل لي، فلتتذكّرْ دائمًا الخيرَ الذي فقدتْ، ولتكن حذرةً وتعِشْ بخوفٍ (وهناك ما يبرِّر هذا الخوف) من أنها إذا لم تعد الى التأمّل سارت من سيِّئٍ الى أَسوأ. إن ما أعتبرُه سقوطًا حقيقيًا هو أن تكرهَ النفسُ

(١) اشارة الى خروج ١٦، ٣.

الطريقَ الذي أكسبَها خيرًا عميمًا كهذا. وهذه النفوس أُخاطِب : لا أقول يجب أن تكون منزَّهةً عن إهانة الله وعن السقوط في الخطيئة ؛ فإن توجَّب على من بدأ يتقبَّل هذه المنن أن يحترز أيَّ احترازٍ من الخطيئة ، فنحن بائسون. ما أنصحُ به بإلحاحٍ هو أن لا تتخلّى النفس عن التأمّل ؛ ففي التأمّل تدركُ ما تفعل ، وتنالُ من الربِّ الندامةَ والقوةَ لتنهض. صدِّقوني ، حقًّا صدّقوني ، إن النفس إذا تخلّت عن التأمّل صارت ، برأيي ، في خطر. لا أدري إن كنتُ أفهم ما أقول لأنني ، كما قلتُ سابقًا ، أَحكمُ بالإستناد الى تجربتي الخاصة...

شرارة الحب الإلٰهي

٤. هذا التأمل ، إذًا ، هو شرارةٌ صغيرة من حبّ الله الحقيقي يبدأ الربّ بإشعالها في النفس ويريد من النفس أن تفهم ، شيئًا فشيئًا ، طبيعة هذا الحب الذي ترافقه المسرّة. هذا السكون وهذا الإختلاء وهذه الشرارة ، إنما هي من روح الله وليست لذةً يُعطينا إيّاها الشيطان أو نتدبَّرها بذاتنا. (فلئن استحالَ على صاحب الخبرة أن لا يفهم حالاً أنّ هذا الأمر لا يمكن الحصول عليه ، فإنّ طبعَنا ميّالٌ الى الطيّبات بحيث يختبر كلَّ شيء ، غير أن هِمَّته تبرد سريعًا ، لأنه مهما حاول ان يشرع في إشعال النار لتحقيق هذه اللّذة ، فكأنما يرشّها بالماء ليُطفِئَها...) فهذه الشرارة التي وضعها الله ، مهما كانت صغيرةً ، تُحدِث صخبًا كبيرًا ؛ وإذا لم تُطفئها النفس بذنبٍ منها ، فإنها تأخذ بإضرامِ النار الكبرى التي تُطلق من ذاتِها شُعَلاً ، كما سأقول في حينه ، من الحبِّ الإلـهيِّ العظيم الذي يُضرمه ، جلّ جلاله ، في النفوس الكاملة.

عدم دفن الوزنة

٥. إن هذه الشرارة علامةٌ أو عربونٌ يُعطيه اللهُ هذه النفسَ على أنه اختارها لأمورٍ عظيمةٍ إذا استعدَّت ، هي لقَبولِها. إنّها لعطيّةٌ عظمى ؛ بل أعظم من أن أستطيع وصفَها.

يُؤلمني أشدَّ الألم ، كما قلت ، أن أرى نفوسًا كثيرةً تبلغ هذه الحالة ، ونفوسًا

قليلةً جدًّا تتجاوزها كما يجب عليها ، بحيث أشعر بالخجل في الإفصاح عن ذلك . لا أقول هناك نفوسٌ قليلة ، إذ يجب أن يكون هناك الكثير لأن الله لا يساعدنا عبثًا ، بل أتحدّث عمّا عرفت ؛ فأودّ أن أنصحها وأشدِّد على أن تسهر فلا تدفن الوزنات[٢] التي أُعطِيَتْ ، لأنّ الله ، كما يبدو ، اختارها لفائدة آخرين كثيرين ، خاصةً في هذا الزمن حيث الحاجة ماسةٌ الى أصدقاء لله أقوياء ليَعضُدوا الضعفاء. فعلى من يعرفون حصولَهم على هذه النعمة أن يحسبوا أنفسهم كذلك إذا أحسنوا التجاوب حتى مع أحكام الصداقة الدنيوية الصالحة . وإلاّ ، فليخافوا ، كما قلتُ ، وليرتعدوا من الإساءة الى ذواتهم . وعسى أن يُسيئوا الى أنفسهم فقط !

التصرّف بلطف ودون ضجيج

٦. ما يتوجّب على النفس أثناء هذه السكينة أن تتصرَّف بلطفٍ ودون ضجيج . وأعني « بالضجيج » إنفعالَ العقل في البحث عن عباراتٍ واعتباراتٍ كثيرة لتؤدِّيَ الشكر على هذا الاحسان ، وفي تكديس الخطايا والأَخطاء لتقتنع بأنها ليست أهلاً له . كلّ هذه الأشياء تتحرّك آنذاك ؛ فالعقل يتمثّل ، والذاكرة تضطرب ؛ وهاتان القوّتان تُتعبانني ، حقًّا ، أحيانًا . ومع أنّ ذاكرتي ضعيفةٌ لا أستطيع السيطرةَ عليها . وعلى الإرادة أن تدرك ، بهدوءٍ وإتّزان ، أنّ التعاملَ مع الله لا يتمّ بقوّة الساعدين ، فما هذان سوى حطبٍ كبيرٍ يُرمى بتسرُّعٍ فيُطفئُ تلك الشرارة . فلتُقِرّ بذلك ولتقلْ بتواضع : ربِّي ! ما تراني أستطيعُ أن أفعلَ هنا ؟ ما علاقة الأَمَةِ بالسيِّد ، والأرضِ بالسماء ؟ » ، أو فلتنطقْ بما يخطُر لها من كلامِ الحب على إقتناعٍ بصحَّة ما تقول ، ولا تُعِرِ العقلَ اهتمامًا فإنه مزعج . قد ترغب الإرادة في أن تُشرِكَ العقلَ في مُتعتها ، أو تعملَ على استجماعِهِ لأنها تجد ذاتَها مرارًا في اتحادٍ مع الله وطمأنينةٍ بينما العقلُ مُشتَّت ؛ فخيرٌ لها عندئذٍ أن تتركه وشأنه لا أن تجريَ في إثره ، بل أن تَخلُدَ ، هي ، الى التمتُّع بتلك النعمة ، وإلى الخَلوة ، كنحلةٍ حكيمة ؛ فإنه إذا لم تدخُل أيّةُ

---

(٢) اشارة الى متى ، ٢٥ ، ٢٥ .

نحلةٍ إلى القفير، بل مضى النحلُ جميعًا لِيُرْجِعَ بعضُها بعضًا، يستحيل عندئذٍ صنعُ العسل.

عمل الارادة والعقل

٧. فالنفس، إذًا، تُصابُ بخسارةٍ كبرى إن لم تتنبّه لهذا الأمر، خصوصًا متى كان العقلُ حادًّا؛ فحين يشرعُ العقلُ في ترتيبِ العبارات والبحث عن حُجج، مهما كانت قليلةً وجاءتْ حسَنَة الصياغة، يحسبُ نفسَه يفعل شيئًا. على أنّ الحُجَّة التي يجب أن يملِكها هنا، هي أن يَفهَمَ بوضوحٍ أن لا داعي يحملُ الله على منحِنا نعمةً عظمى كهذه إلّا صلاحُه وحدَه؛ وعليه أن يرى أنّنا قريبون جدًّا منه، وأن يطلبَ إليه، جلّ جلاله، مننه، ويسأله لأجل كنيسته، ولأجل الذين استشفعونا، ولأجل النفوس المطهريّة، ليس بضجيج الكلام بل بشعور الرغبة في أن يستجيبنا. إنها صلاةٌ تشمل أمورًا كثيرةً وتُصيب أكثرَ ممّا تصيبُ خُطَبُ العقلِ الطويلة. فلتُوقِظ الإرادة في ذاتها بعضَ الحُجج يقدِّمها العقلُ لها، على ضوءِ تقدُّمها، لتُسَعِّر هذا الحبَّ، ولتحقِّق بعضَ أفعالِ المحبة متسائلةً: ماذا تفعل لأجل من تدين له بالكثير الكثير، دون أن ترضى، كما قلت، بضجيجِ العقل تغطيةً لبحثِه عن أشياء كبيرة. إن قشّاتٍ صغيرةً تُلقى هنا بتواضعٍ – بل تكونُ دون القش إذا وضعناها، نحن – لهي أكثرُ ملاءمةً لهذه الحال وتساعد على إضرام الشرارة أكثر من حطبٍ وافرٍ مقرونٍ بحججٍ نعتبرها علميَّةً، لأن هذه تُخمِدُ الشرارةَ في وقتٍ تقتضيه تلاوةُ قانون الإيمان[٣].

هذا القول مفيدٌ للعلماء الذين أمروني بأن أكتب. فجميعهم يبلغون، بجودة الله، هذه الحالَ لكنّهم قد يصرفون وقتَهم بتطبيق الكتاب المقدّس. فالعلم، ولو أنّه ينفعهم كثيرًا قبل التأمل وبعده، تبقى الحاجةُ اليه في أثناء التأمّل قليلةً في رأيي، إلّا

(٣) أي في وقت قصير. وقد اعتمدت القديسة مقاييس للزمن مثل «طرفة عين» (سيرة ١٤، ٥)، «السلام الملائكي» (سيرة ٤، ٧)، «تلاوة قانون الايمان» (سيرة ٣٠، ١٦) الخ...

لأن يُحدِثَ الفتورَ في الإرادة ؛ فالعقل ، إذ يرى نفسَه حينئذٍ قريبًا من النور ، يغمره الضياء ، بحيث إنني ، وأنا من أنا ، أراني مختلفةً تمامًا.

فائدة العلم وحدوده

٨. وهذا ما حدث لي وأنا في هذه السكينة. فعلى كوني أكاد لا أفهم شيئًا ممّا أتلو باللاتينية[٤] ، وخاصّةً من المزامير ، بلغتُ الى أن أفهم الآية كما لو كانت مكتوبةً بالرومنسية ، بل تجاوزتُ ذلك إلى أن أستمتع باكتشاف المعنى في الرومنسية.

لندعْ جانبًا ما إذا كان عليهم أن يعظوا أو يعلّموا ، فيَحسن بهم عندئذٍ أن يستعينوا بذلك الخير ليُساعدوا الجُهّال المساكين أمثالي ؛ فإن المحبّة ، وإفادةَ النفوس الدائمة هذه ، حبًّا بالله وحدَه ، لأمرٌ عظيم.

فينبغي ، إذًا ، أن نترك النفسَ تنعم باستراحتها في أثناء تأمّل السكينة ؛ وليُتْرَكِ العلمُ جانبًا ، فسيأتي زمنٌ يساعدُ فيه على تمجيد الله ويقدَّرُ أيَّمَا تقدير بحيث لا يُرتضى التخلي عنه مقابل كنوز العالم ، من أجل خدمة الله وحده ، لأن فائدةَ العلم في هذا المجال عظيمةٌ. ومع هذا ، فأمام الحكمة اللامتناهية ، صدِّقوني ، إنّ درسًا وجيزًا في التواضع وممارسةَ فعلٍ فيه ، لأسمى من علم العالم كلّه. هنا لا مجال لإقامة الدليل ، بل لأن نعرف ببساطة ما نحن عليه ونمْثُلَ ببراءةٍ أمام الله ؛ فالله يريد أن تكون النفس غبيّةً كما هي في الواقع في حضرته ، لأنه ، جلّ جلاله ، يتواضع بحيث يرتضيها قربه ونحن ما نحن.

تقصير العقل في حالة السكينة

٩. ويبادر العقل أيضًا ليشكر الله بعباراتٍ مختارةٍ؛ إلّا أنّ الإرادة، في

---

(٤) ما كانت القديسة تعرف اللاتينية بالرغم من أنها كانت تتلو الفرض الإلٰهي بهذه اللغة.

هدوئها وعدم تجرُّئها على رفعِ عينيها على مثال العشّار[٥] ، تقوم بواجب الشكر لله أكثر ممّا قد يستطيع العقل فعلَه مهما اصطنع من وسائل البلاغة.

خلاصة القول ، يجب أن لا نُهمل التأمّل ، هنا ، إهمالاً تامًا ولا بعض العبارات وإن لفظيّة ، إذا اردنا أو أمكننا ذلك أحيانًا ؛ فإذا كانت السكينة عميقةً يصعبُ الكلام ويكلِّف مشقّةً بالغةً.

إنّنا ، في رأيي ، نشعر بما إذا كانت هذه الحالة من عمل روح الله ، أو نتيجةَ جهدِنا ، إنطلاقًا من بدءِ تقوى يمنحها الله ، كما قلت ، فنريد ، نحن ، أن نصل الى سكينة الإرادة هذه ؛ فالجهدُ لا يأتي بنتيجة ، وينتهي سريعًا ، ويتركُ في النفس يبوسةً.

عمل الشيطان

١٠. إنّ نفسًا متمرِّسةً تُدرك ، في رأيي ، إذا كان ذلك من عمل الشيطان لأنه يترك في النفس قلقًا ، وقلّةَ تواضع ، وقليلاً من الاستعداد لتقبُّل مفاعيل روح الله ، ولا ينير العقل ، ولا يثبِّت في الحقيقة. قد يُحدث الشيطان للنفس بعضَ الأذى أو لا يُحدث أيَّ أذى ، إذا وجَّهت النفسُ الى الله ما تشعر به في هذه الحال من مُتعةٍ وعذوبة ، وصوَّبتْ إليه أفكارَها ورغائبَها كما أَوصيتُ. والشيطانُ لا يستطيع أن يَكسِب شيئًا ، لا بل إنّ الله يسمح بأن يُمنى الشيطان بخسارةٍ كبرى بهذه المتعة ذاتها التي يُحدثها في النفس ، لأن من شأنِها أن تساعدَ النفس ، إذ تظنّها من الله ، على ورود التأمّلِ غالبًا ، طمعًا به تعالى ؛ وإذا كانت النفس متواضعةً ، غيرَ فضوليّة ، غيرَ مهتمّةٍ بالمُتَع ولو روحيّةً ، بل صديقةَ الصليب ، لا تكترث لمسرّةٍ يوفِّرها الشيطان ، وهو ما لا تستطيع عملَه إذا كانت من روح الله ، بل تقدِّرها تقديرًا كبيرًا. وكل ما يوحي به الشيطان إنما هو كذِبٌ مثله ؛ فإذا رأى النفسَ ، على مسرّتها ومتعتها ، تتَّضع (ويجب أن تكون كذلك وتسعى الى التواضع في كل أمور التأمّل ومسرّاتِه) ، ورأى نفسَه خاسرًا ، يرتدِع غالبًا عن العودة.

(٥) لوقا ١٨ ، ١٣.

مباشرة التجرّد

١١. لهذا ولأسبابٍ أخرى كثيرة، أشرتُ في كلامي على طريق التأمل الأولى وعلى الماءِ الأول، إلى أنّ للنفوس التي تبدأُ التأمّل مصلحةً عظمى في أن تباشر بالتجرّد عن أيّ نوعٍ من الأفراح، وتبادرَ التأمّلَ مصمِّمةً فقط على مساعدة المسيح في حمل صليبه، كفرسانٍ كرامٍ صالحين، يريدون خدمةَ مليكهم دون راتبٍ لأنهم واثقون من نيله، والعيونُ شاخصةٌ الى الملكوت الحقيقي الأبدي الذي نطمح الى الفوز به. إنه لمن الأهميّة بمكانٍ كبير أن نضع هذا نصبَ أعيننا وخاصةً في البدء؛ ففيما بعد، يُرى بوضوحٍ كبير، وجوبُ نسيانِنا ذلك لنعيش، بدلاً من سعينا لأن نتذكّر أنّ كلَّ شيء سريعُ الزوال، وأنّ كلّ شيء عدمٌ، وأن لا قيمةَ لراحتِنا إطلاقًا.

عودة الى التأمّل في زوال الدنيا

١٢. قد تبدو هذه الاعتبارات خسيسةً جدًّا؛ وهي كذلك حقًّا. فالمتقدِّمون في الكمال يخجلون ويعتبرون إهانةً إقلاعَهم عن خيرات هذه الدنيا لأنها زائلة، بينما يفرحون بالعزوف عنها حبًّا بالله حتى ولو كانت تدوم أبدًا. وكلّما ازدادوا كمالاً وازدادت تلك الخيرات دوامًا إزدادوا، هم، عُزوفًا عنها. ففي هؤلاء نما الحبُّ وهو ما يعمل فيهم. وهذا الاعتبار كبيرُ الأهميّة للمبتدئين، فلا يعتبروه حقيرًا، إذ إنه يوفِّر لهم خيرًا عظيمًا، ولذا أُلِحُّ عليه؛ بل حتى المتقدِّمون جدًّا في حياة التأمّل يحتاجون إليه في فتراتٍ يختبرهم فيها الله ويبدو وكأنّه، جلّ جلاله، يتخلّى عنهم. لقد قلت، وأودُّ أن لا يطويَ النسيانُ قولي، إنَّ النفس لا تنمو في حياتنا هذه نموَّ الجسد، ولو أننا نقول إنها تنمو، وهي حقًّا تنمو. لكن بعد أن ينموَ الطفلُ، ويكتملُ جسده، ويبلغُ قامةَ الرجل لا يعود فيتناقص جسمُه ويصغر. أمّا النفس، فقد أراد الربّ لها ذلك، وقد عرفتُه بذاتي وليس عن طريقٍ آخر. ولعلّه أراد أن يخفِض عُجبَنا لخيرنا الأعظم وحتى لا نتهاونَ في الاحتراز ما دمنا في هذا المنفى، لأنّ الإنسان كلّما ارتفع وجب أن يزداد خوفُه وان تقلَّ ثقتُه بنفسه. ويحدُث أحيانًا لأولئك الذين اتّحدتْ إرادتُهم بإرادة الله وهم مستعدّون لاحتمال العذاب والموت ألف مرّة ولا اقترافِ نقيصةٍ

واحدة، أن تصارعهم التجاربُ والاضطهادات بحيث يحتاجون، لتجنُّب إهانة الله، الى اسلحة التأمّل الأولى، وان يعودوا الى التفكير في أنَّ كلّ شيء زائل، وأنّ هناك نعيمًا وجحيمًا، واعتبارِ أمورٍ أخرى من هذا النوع.

وسيلة للتحرّر من خدع الشيطان

١٣. وأعود، إذًا، الى كلامي السابق فأقول: ثمَّة وسيلةٌ فعّالة للتحرّر من خدع الشيطان ومن المسرَّات التي يُغرينا بها وهي، أن نَشرع بعزمٍ على نهج طريق الصليب منذ البدء، وان لا نتمنّى تلك المسرّات؛ فالربُّ نفسُه دلّ على طريق الكمال هذا بقوله: «**إحْمِلْ صليبَك واتبَعْني**»(٦). وهو مثالُنا؛ فليس لمن اتَّبع نصائحَه، بغيةَ مرضاتِه فقط، أن يخافَ شيئًا.

علامات عمل الله

١٤. من التقدّم الذي قد تلاحِظه تلك النفوس في ذاتها تُدرك أنه ليس من الشيطان. وحتى لو عادت الى السقوط تبقى علامةٌ تدلّ على أن الربّ كان هناك، وهي نهوضُها سريعًا، وهذه العلامات الأخرى التي سأعرضها:

- عندما يعملُ روحُ الله فينا لا تكون ثمَّة حاجةٌ لأن نمضي في استقصاء أشياءٍ تُشعِرنا بالتواضع والخجل، لأن الربّ نفسَه يُعطينا تواضعًا مختلفًا تمامًا عن الذي نكسِبه باعتباراتنا الحقيرة؛ وهذه ليست شيئًا إذا ما قورنت بتواضعٍ حقيقيّ نَيِّر يعلّمنا إيّاه الربّ هنا؛ إنه تواضعٌ يخلق فينا خجلاً يسحق سحقًا. هناك حقيقةٌ مشهورةٌ، هي المعرفة التي يعطينا الربّ لندرك عجزنا عن امتلاك خيرٍ ما من طبعنا، وكلما كانت الخيرات أسمى كان عجزنا أكبر.
- وروح الله ينفح في النفس رغبةً شديدةً للتقدّم في التأمّل ولعدمِ إهماله مهما اعترض ممارسته من مشقّات.

(٦) متى ١٦ . ٢٤.

- وتكون النفس مستعدةً لكلّ أمر.
- يَجمعُ فيها اليقينُ بخلاصها مقرونًا بالتواضع والخوف.
- يَبعُد حالاً عن النفس الخوفُ العبودي ويحلُّ فيها الخوفُ الأمين في أسمى درجاته.
- وترى النفسُ أنّ حبًّا لله بدأ ينمو فيها مجرَّدًا عن كلّ مصلحة خاصة.
- وترغب في أويقاتِ وحدةٍ لتزيد متعتها بذاك الخير.

النعمة أشد تأثيرًا من المخاوف

١٥. وأخيرًا، حتى لا أُتعِبَ نفسي، أقول إن هذه النعمة مبدأُ الخيرات كلّها؛ فأكمامُ الزهر بلغتْ أوانَها ولم يبقَ إلاّ أن تتفتّح؛ وهذا ما سوف تراه النفس بوضوحٍ تام، فيستحيل عليها التسليمُ حينئذٍ بأنّ الله لم يكن معها ما لم ترَ نفسها من جديد ضحيَّة النقائص والأخطاء، فتخاف عندئذٍ كلَّ شيء، وخيرٌ لها أن تخاف. على أنّ هناك نفوسًا تستفيد من يقينها بأنَّ ما حصل لها من الله أكثرَ من استفادتِها من جميع المخاوف التي قد تساورها؛ لأنَّ النفس إذا كانت من ذاتها مُحِبَّةً وشاكرةً فإنَّ تذكُّرَها النعمةَ التي آتاها الله أشدُّ تأثيرًا في عودتها اليه من جميع عقوبات الجحيم التي تتمثَّل لها. هذا، على الأقل، ما كان يحصُل لي، رغم حقارتي.

١٦. ولمّا كنت سأَعرِضُ تباعًا فيما بعد علاماتِ الروح الصالح، فلا أتناولها هنا نظرًا لأن عرضها بوضوح يكلِّفني مشقّاتٍ جسيمةً. وأعتقد أنني، بمعونة الله، سأُصيب في هذا الموضوع بعضَ الإصابة؛ فما عدا التجربة التي علّمتني الكثير، تعلّمت من بعض الراسخين في العلم ومن ذوي قداسةٍ يصحُّ تصديقُهم؛ وهكذا لا تضطرّ النفوس التي بلغ بها الربّ بجودته الى هذه الحالة لأن تعانيَ ما عانيتُ.

الفصل السادس عشر

تبحث في درجة التأمّل الثالثة وتُوضح أمورًا سامية، وما تستطيعه النفس لدى بلوغها هذه الحالة، والمفاعيلَ التي تُحدثها نعم الربّ السامية هذه. يلائم هذا الفصل حضَّ الروح على حمد الله وتعزية من يبلغون هذه الحالة

سبات القوى

١. لنتحدّث الآن عن الماء الثالث الذي به يُروى هذا البستان، وهو ماءٌ يجري من نهرٍ أو من ينبوع، وريُّه يكلِّف عناءً يسيرًا وان استلزم جرّ الماء بعض التعب. إنّ الربّ يريد، هنا، أن يُساعد البستاني بحيث يكاد يصير، هو، البستاني ويكاد يعمل كلَّ شيء.

إنه سبات القوى؛ فهي لا تتعطَّل تمامًا ولا تدري كيف تعمل. المسرّة والعذوبةُ والمتعة تفوق بما لا يُقاس ما كان في الحالة السابقة؛ ذلك أنَّ ماء النعمة يبلغ حلقوم هذه النفس فلا تستطيع التقدُّمَ بعد، ولا تعرف كيف التقدّم أو التراجع؛ انما تريد التمتّع بهذا المجد العظيم. فهي كمُدنفٍ يحمل الشمعة بيده[1] ينتظر الميتة التي يَنشدُها؛ إنه يتنعَّم، في ذلك النزع، بمتعةٍ لا توصف. فليست هذه الحالة، في نظري، سوى موتٍ عن كلّ أشياء العالم واستمتاعٍ بالله.

(١) إشارة الى العادة الشائعة في زمان القديسة حيث كان يوضع في يد المحتضر شمعةٌ مضاءة لدى منحه سرّ المسحة الأخيرة.

لا أجد عباراتٍ أُبيِّن بها هذه الحالة ولا طريقةً للإفصاح عنها ؛ فالنفس ذاتُها لا تدري حينئذٍ ما العمل ؛ لا تدري أعليها أن تتكلّم أو تصمت ، أن تضحك أو تبكي. إنه لهذيانٌ مجيدٌ وجنونٌ سماويٌّ نتعلّم فيهما الحكمة الحقيقية، وإنها لطريقةٌ تستمتع فيها النفس أفضلَ استمتاع.

إتّحاد أرقى

٢. لقد وهبني الربّ هذا التأمّل بسخاء مراتٍ كثيرةً منذ خمس سنوات ، بل وستٍّ على ما أعتقد ، وما كنت لأفهمه أو لأحسن الافصاح عنه. فكنت ، إذًا ، مصمِّمةً ، لدى وصولي الى هنا ، على أن اتحدَّث في الموضوع قليلاً أو أن لا أقول شيئًا. كنت أدرك تمام الادراك أن ليس ثمَّةَ اتحادٌ تامٌّ بين قوى النفس كلِّها والله ، انما كان واضحًا تمامًا أنّه أرقى من الاتحاد السابق ؛ على أني أقرّ بأني كنت عاجزةً عن تحديد هذا الفرق وفهم نوعه. أعتقد ، أبت ، أنه بفضل التواضع الذي أبديتَه برغبتك في الاستعانة ببساطة عظمى كبساطتي ، منحني الربّ اليوم ، بعد المناولة ، حال التأمل هذه دون أن أتمكن من المُضي قُدُمًا ، وألهمني هذه المقارنات ، وعلّمني طريقةَ عرضها وما على النفس أن تعمل في هذه الحال ، فأدهشني ذلك حقًّا ، وفهمته حالاً. وكثيرًا ما كنت ذاهلةً ونشوى في هذا الحب ، وما عرفتُ قط كيف يحدث ذلك. كنت أدركُ تمامًا أن الله هو من كان يعمل ، لكن ما كنت أستطيع أن أُدركَ كيفيَّة عمله هنا ؛ فقوى النفس ، في الحقيقة ، تكون متَّحدةً به كليًّا لكنّها ليست مستغرقةً بحيث يتعطّل عملها. وأبهجني للغاية أني فهمت الأمر الآن. تبارك الربّ الذي أبهجني هذه البهجة !

«الآن تتفتّح الزهور»

٣. إنّ قوى النفس تكون مؤهَّلةٌ فقط للانشغال كليًّا بالله ؛ يبدو أن لا واحدة منها تجرؤُ على التحرّك ، ولا نحن نستطيع تحريكَها ؛ ولو حاولنا جهدنا أن نتلهّى ، لا أرانا نستطيع التلهِّيَ آنذاك البتة. نتلفَّظ بكلامٍ كثيرٍ في مديح الله دون نظام ، إنْ لم

يَنظِمه الربُّ نفسه ؛ على الأقل ، لا يقوى العقل ، هنا ، على شيء . تودّ النفس أن تَجهر بالمديح ، لكنها لا تتمالك ذاتها ، بل يسيطر عليها اضطرابٌ عذب . الآن ، الآن تتفتّح الزهور ، وتبدأُ تنشرُ العبير . هنا تتمنّى النفس لو يراها الجميع ليدركوا المجدَ الذي بلغته ، تمجيدًا لله ، ويساعدوها في ذلك ، وتُشرِكهم في بهجتها لأنها لا تطيق الاستمتاع بهذا القدْرِ وحدها . أتخيّلها كتلك المرأة التي يتحدَّث عنها الانجيل بأنَّها كانت تودُّ دعوة جاراتها ، بل تدعوهنّ[٢] لمشاركتها فرحها . هذا ، في ظنّي ، ما كانت تشعر به روح النبي العجيبة ، الملك داود ، عندما كان ينقر كنّارتَه ويرنّم تمجيدًا لله . اني لأكنّ لهذا الملك المجيد عبادةً خاصة ، وأتمنّى لو يفعل الجميع كذلك ، لا سيّما نحن الخطأة .

ألمٌ عذبٌ وشجاعةُ الشهداء

٤ . آه ! كان الله في عوني ! كيف تكون نفسٌ وهذه حالها ! لتودّ أن تكون كلّها ألسنةً كي تسبّح الربّ . تنطق بألف حماقة مقدّسة وتصيب دائمًا في إرضاء مَن جعلها في هذه الحال . أعرف شخصًا ، على كونه ليس بشاعرٍ ، كان يَحدثُ له أن ينظِم في الحال أشعارًا رقيقةً جدًّا تفصح عن ألمه ، أشعارًا لم يكن للعقل دور فيها ، بل كان يتشكّى بها الى الله ليتمتّع أحسنَ مُتعةٍ بالمجد الذي كان يغمره به ذلك الألمُ العذب . لكان يودّ لو يتمزّق ، نفسًا وجسدًا ، ليبيّنَ الحبورَ الذي يُحدثه له هذا الألم . فأيُّ عذاباتٍ تعترضه ولا يستعذب احتمالَها حينئذٍ من أجل الربّ؟ ويرى واضحًا أنّ الشهداء ما كانوا يأتون شيئًا من لديهم لاحتمال العذابات ؛ فالنفس تعرف معرفةً حقّةً أنّ الشجاعة تأتي من مصدرٍ آخر . لكن بِمَ ستشعر هذه النفس حين تعود الى ذاتها لتعيش في العالم وترجع الى همومه ومقتضياته؟

نجوى وشوق الى الربّ

ومع هذا فلا أراني بالغتُ قطّ ، بل إنني قصّرتُ في وصف المتعة التي يريد

(٢) لوقا ١٥ . ٦ . و ٩ .

الربّ أن تتمتّع بها النفس في هذا المنفى. تباركتَ، ربّي، إلى الأبد! ولتسبّحك الكائناتُ كلُّها أبدًا! ويا مليكي! بما أنّي، وأنا أكتب ما أكتب، لست بعيدةً، بفضل جودك ورحمتك، عن هذا الجنون السماوي المقدّس، وهي نعمةٌ تؤتينيها دون استحقاق، أتوسّل إليكَ أنْ إجْعلْ مَنْ أتعاطى معهم مجانين حبِّك أو فلا تسمحْ بأن أتعاطى مع أحد، أو مُرْ، يا ربِّ، فلا أهتمّ بأمرٍ من أمور العالم، أو أَخرِجْني منه. إنّ أَمَتَك هذه، يا إلٰهي، لا تطيق بعد احتمال مشقّاتٍ جِسامٍ كأن تُرى من دونك؛ وإذا كان لها أن تعيش فلا تريد راحةً في هذه الحياة؛ وأنتَ، ربّي، لا تعطِها إيّاها. إن هذه النفس تودُّ أن تكون حرّةً: فالمأكل يقتلها، والنوم ينغّصها؛ وترى حياتَها تنقضي في المسرّات وما من شيءٍ يسرّها سواك، فكأنّها تعيش بخلاف الطبع لأنها تودّ أن لا تحيا بعد في ذاتها، بل فيك، أنت.

٥. يا سيّدي الحقيقي ويا مجدي! ما أَخفّ وما أثقلَ الصليبَ الذي أعددتَه لمن يبلغون هذه الحالة! خفيفٌ، لأنّه عذب؛ وثقيلٌ لأن لا طاقة للنفس أحيانًا على احتماله؛ ولا تريد أن تتحرَّر منه أبدًا إلاّ لتكونَ منذ الآن معك. حين تتذكّر أنّها لم تؤدِّ لك خدمةً وأنّها تستطيع خدمتك إذ تحيا، تتمنّى أن تحمل صليبًا أثقل وأن لا تموت حتى انتهاءِ العالم. تستهينُ راحتَها مقابل تأدية خدمةٍ صغيرةٍ لك. لا تدري ما تتمنّى، لكنّها تفهم أنّها لا تتمنّى سواك.

حثّ على الجنون بالله

٦. إي بُنيّ[٣]! (لأنّ من أمرني أن أكتب هذا وإليه أوجِّهه يريد، لكثرة تواضعه، أن يُدعى كذلك) لتكنْ لك وحدك بعضُ الأمور التي قد تراني تجاوزتُ فيها الحدود؛ فليس ما يمنعني عن الشطط حين يُخرجني الربّ من ذاتي؛ ولا أظنّ أنّي أنا من أتكلّم منذ أن تناولتُ القربان هذا الصباح. كأنّي أرى في الحلم ما أرى؛ وأودّ

(٣) تخاطب الأب غارثيا دي توليدو. ثم غيّرت الصيغة فكتبت: «إي أبتِ». إلّا ان الأب لُويس دي لِيُون الذي طبع اعمالها فضّل الابقاء على النص الأصلي الأول.

أن لا أرى إلّا مصابين بما أنا مصابةٌ به الآن من داء. أتوسّل إليك، أبتِ: لنكن كلّنا مجانين حبًّا بمن وُصِمَ بالجنون من أجلنا. تقول إنّك تمحضني مودّتك؛ فأرجو أن تُثبت ذلك باستعدادك ليمنحك الله هذه العطيّة؛ فقلّةٌ هم الذين أراهم لا يبالغون بالاهتمام بمصالحهم. قد أكون أكثَرهم اهتمامًا، فلا تتساهلنّ معي، أبتِ - فأنت أبٌ لي كما أنت ابنٌ - لأنك معرّفي وإليك وكلتُ نفسي. بدِّدْ أوهامي حقًّا، فقلّما تُعتَمَدُ هذه الحقائق.

تأثير الوعظ

٧. لكنت أودُّ أن نعقِدَ هذا الاتفاق نحن الخمسة(٤) الذين نتحابّ بالمسيح. فكما أنّ آخرين يتآمرون سرًّا في أيامنا ضدَّ جلاله ويُثيرون الشرور والبدع، أودّ لو نحاول الاجتماعَ مرّةً ليبدِّدَ بعضُنا ضلالاتِ البعض، ونرى ما يمكننا إصلاحُه في أنفسنا وما نرضي به الله أكثر. فليس ثمّة من يعرف نفسه حقّ المعرفة مثلما يعرفنا الذين ينظرون إلينا بمحبّةٍ وهمُّهم فائدتُنا. أقول «سرًّا» لأن هذا الكلام لم يعدْ مألوفًا الآن. فالواعظون أنفسُهم تراهم يُنسِّقون مواعظَهم، حتى لا يُثيروا الإستياء. قد تكون نيَّتهم حسنةً وعملُهم صالحًا، لكن بهذا يُصْلِح القليلون أنفسَهم! فلماذا لا تردّ المواعظ عن الرذائل العلنيّة إلّا القليلين؟ أتعرف رأيي في ذلك؟ لأن الواعظين ذوو ذكاءٍ بارعٍ؛ ولا يتنازلون عنه لتضطرم فيهم نارُ محبّة الله كما كان حال الرسل؛ وهكذا تبعث الشعلة قليلاً من الدفء. لا أطلب أن تكون نارُهم كنار الرسل، لكن أتمنّى لو تكون أشدّ ضِرامًا ممّا أرى. أتعرف، أبتِ، ما المهمّ في الأمر؟ انما هو كره الحياة واحتقارُ الجاه. فما كان يهمّ الرسل، مقابل قول الحقيقة والدفاع عنها تمجيدًا لله، ان يخسروا كل شيء أو يربحوا كلّ شيء؛ فمن جازف حقًّا بكلِّ شيء في سبيل الله، سيّان عنده الربح والخسارة. لا أدّعي أنني من هؤلاء، لكن أتمنّى لو كنت منهم.

---

(٤) تريزا نفسها، وغارثيا دي توليدو، وفرنثيسكو دي سالثيدو. ويحتمل أن يكون الباقيان المعلم داثا، والسيدة غيومار دي أوليووا.

مجازفة في سبيل الحرية

٨. آه ما أعظم الحرّية في أن نعتبر العيشَ والتصرّف وفق شرائع العالم رقًّا ! ولمّا كانت هذه الحرِّية نحصل عليها من الربّ ، فما من عبدٍ الاّ ويخاطر بكلّ شيءٍ لينعتق ويعودَ الى وطنه . وما دام هذا هو الطريق الحقيقي فلا يجب أن نتوقّف فيه ، لأننا لن نكسب هذا الكنز الثمين نهائيًّا إلاّ حين تنتهي حياتنا . أعطانا الربّ نعمته لهذه الغاية .

مَزِّق ، أبتِ ، ما كتبتُ ، إذا رأيتَ ذلك مناسبًا ، واعتبرْه رسالةً خاصةً بك ، وسامِحني على جرأتي المفرطة .

الفصل السابع عشر

تتابع عرض درجة التأمّل الثالثة. تنتهي من شرح المفاعيل التي تُحدثها وتتحدّث عن الضرر الذي تفعله المخيّلة والذاكرة.

خلاصة الفصل السابق

١. لقد تحدّثتُ كفايةً عن طريقة التأمّل هذه وعمّا يجب أن تفعله النفس، أو بالأحرى، عمّا يفعله الله فيها لأنه، هو، يقوم بدور البستاني ويريدها أن تستريح. وما على الإرادة إلاّ أن تقبل المنن التي تتمتّع بها، وترتضي كل ما تريد الحكمة الحقيقية أن تصنعه بها لأن هذا يتطلّب منها، في الحقيقة، شجاعة. فالمسرّة تبلغ بالنفس مبلغًا تخال معها أحيانًا كأن لم يبقَ لها إلاّ القليل لتخرج من هذا الجسد. ويا ما أسعدها ميتةً!

التسليم لله

٢. في اعتقادي، ينبغي هنا، كما قيل لحضرتك[1]، الاستسلامُ كليًّا بين ذراعي الله: فإذا أراد أن يذهب بالنفس الى السماء، فلتذهبْ؛ وإذا أراد أن يمضي بها الى الجحيم، فلا ألمَ ينزِل بها إن مضتْ مع خيرها الأعظم؛ وإذا أرادَ أن ينتزع

(١) الكلام موجّه الى الأب غارثيا دي توليدو، و «قيل لحضرتك» إشارةً الى أحاديث روحية كانت للقديسة مع الأب المذكور.

منها الحياة، أرادتْ، هي، ذلك؛ أو أراد أن تعيش ألف سنة، رضيت بالأمر. فليتصرّف بها، جلّ جلاله، كَمُلكٍ له. فالنفس لا تخصُّ ذاتَها بعد؛ إنها بكلّيّتها للربّ؛ فلا تكترثنّ لشيء. وأقول: متى رفعَ اللهُ النفس الى درجةِ التأمل السامية هذه فإنها تستطيع أن تفعل كلّ هذه الأمور بل أكثر منها، لأنها مفاعيلُ تلك الحالة، وتدرك أنها تفعلها دون أن تجهدَ العقل. لكني إخالُها مذهولةً فقط لرؤيتها الربّ يقوم بدور البستاني على أحسن وجهٍ ولا يدعُ لها عملاً تقوم به إلاّ أن تستمتع ببدءِ استنشاقها الزهور. في مرحلةٍ كهذه، مهما قَصُرَتْ مدَّتُها، فإن بستانيًّا مثلَ هذا، وهو في النتيجة خالقُ الماء، يُغدقه بدون حساب؛ وما لم تستطع النفس المسكينة أن تجمعه خلال عشرين سنةً، وهي تُجهِد عقلَها، يوفِّره لها، في لحظةٍ، هذا البستاني السماوي، فينمّي الثمر ويُنضجه بحيث تقدر النفس أن تتغذّى من بستانها بإرادة الربّ. لكنه لا يُجيز لها أن توزِّع الثمر الاّ بعد أن تكون قد تقوَّتْ بما أكلت من هذا الثمر، فلا تكون اقتصرت على تذَوُّقٍ لا يفيدها شيئًا، أو قدَّمته الى آخرين دون أن يدفعوا المقابل، بل تكون قد تعهَّدتْهم وغذّتْهم على حسابها لتقضي، هي، ربما، جوعًا. هذا أمر يفهمه أولئك الفطِنون ويُحسنون تطبيقَه أكثر من قدرتي على التعبير عنه رغم ما أُعاني فيه من تعب.

إزدياد قوة الفضائل

٣. في الواقع، إنّ الفضائل هنا تكون أقوى ممّا كانت عليه في تأمّل السكينة السابق، بحيث إنّ النفس لا تستطيع تجاهلَها لأنها ترى ذاتها مختلفةً ولا تدري كيف. تشرع في إتيان أعمالٍ كبيرة بفضل الأريج الذي يفوح من الزهور، بحيث ان الربّ يريد أن تتفتّح هذه لترى، هي، أنها تملك فضائل، وإن تكن تعرف تمامًا أنّها لم تكن قادرةً على اكتسابها، ولم تستطع اكتسابَها خلال سنواتٍ كثيرة، وأنّ البستاني السماوي منحها إيّاها في لحظات. هنا يكون تواضعُ النفس أكبرَ بكثيرٍ وأعمقَ ممّا كان في الدرجة السابقة لأنها تدلُّك بوضوحٍ أوفر أنّها لم تفعلْ كثيرًا أو قليلاً بل رضيتْ أن يعطيَها الربّ النعم فتقبَّلتْها الإرادة.

وتبدو لي طريقةُ التأمّل هذه اتّحادًا جليًّا بين النَّفس كلِّها والله ؛ على أنّ الله ، جلّ جلاله ، يبدو وكأنه يريد أن يجيز للقوى أن تدرك وتتمتَّع بالأشياء العظيمة التي يحقِّقها في هذه الحالة .

إتّحاد الارادة

٤. يحدث أحيانًا ، بل في أغلب الاحيان ، والإرادة متّحدة بالله ، أن يُرى بوضوحٍ ويُفهم أن الإرادة مقيّدة وتنعم بالمتعة . وإنّمَا أقول هذا لترى ، أبتِ ، أنه ممكنٌ حصولُه ولتتعرّفَه لدى حصوله لكَ ؛ على الأقل ، أصابتْني هذه الحال بالخَبَل ، فلذا أتحدَّث عنها هنا . وأقول «يُرى بوضوح» ، وتكون الإرادة وحدها في سكينةٍ عميقة ؛ بينما يكون العقلُ والذاكرة ، من جهةٍ أُخرى ، طليقَين ، بحيث يستطيعان تدبيرَ الأمور وإتقانَ أفعال المحبة .

ولئن بدت الدرجتان شيئًا واحدًا ، إلاّ أنّ هذه الدرجة الثالثة تختلف جزئيًّا عن تأمّل السكينة الذي وصفت . ففي تأمّل السكينة ، ما كانت النفس لتريد أن تتحرّك أو تتململ فيما هي تنعم ببطالةِ مريم المقدّسة ؛ أما في هذه الدرجة الثالثة ، فيمكنها أن تقوم أيضًا بدور مرتا . فهي ، اذًا ، تمارس في آنٍ معًا تقريبًا ، الحياةَ العمليّة[2] والحياةَ التطلّعية[3] ، وتُتقن أعمالَ المحبّة وشؤونًا تلائِم حالتَها ، وتطالِع ، وإن لم تكن قواها سيّدةَ أمرِها تمامًا ، وتدركُ جيّدًا أن الجزء الأفضل من النفس في طرفٍ آخر . كأننا نتحدَّث الى شخصٍ فيما شخصٌ آخر يحدِّثنا ، فلا نكون مع هذا ولا مع ذاك . إنه لأمرٌ نشعر به بوضوحٍ كبير ، وعندما نحصل عليه يُحدث فينا رضًى كبيرًا وسرورًا عميقًا ، وهو استعدادٌ رائع تبلغ به النفس ، إذا أُتيحت لها الخلوة أو الانقطاع عن شؤونها ، الى سكينةٍ هادئة جدًّا . فكأنها انسانٌ شبعان لا حاجةَ به الى الطعام ، بل يشعر بمعدته في راحةٍ بحيث لا تستسيغ إلاّ أنواعًا من المآكل ؛ ولكن ليس بها

(٢) العملية أي الرسولية نسبة الى العمل الرسولي.

(٣) التطلعية نسبة الى التطلّع أي النظر الى الله بشغف وحب ، ويحدث ذلك خاصة أثناء التأمل (أنظر مقدمة الكتاب).

كِظَّةٌ[٤] ، فإذا صادفتْ أطعمةً طيّبةً أكلتْ بطيبةِ خاطر . وهكذا لا تُرضيها مسرّاتُ العالم ولا هي ترغب فيها ، لأن فيها ما يُرضيها بصورةٍ أفضل : فهناك مسرّاتٌ يَغمرها بها الله ، وهناك الشوق لإتمام رغائبه ، والإغراقُ في التنعّم ، والعيشُ معه . هذا ما تريده .

إستيلاء الله على الإرادة والعقل

٥. هناك نوعٌ آخر من الاتحاد وهو ليس بعد بالاتحاد التام ، الاّ أنّه أكملُ من الذي ذكرتُه الساعة ، ودون الذي صار الكلامُ عليه في الماءِ الثالث .

سيَسرُّك جدًا ، أبتِ ، حين يُعطيك الربّ إيّاها جميعًا ، إن لم يكن قد نَفَحك بها بعد ، أن تجدَ هنا وصفَها وتُدرك كُنْهَها . فإعطاءُ الربِّ النعمةَ هو نعمةٌ ، ونعمةٌ أخرى إدراكُ أيّةِ نعمةٍ هي وأيّةِ عطيّة ، ونعمةٌ ثالثةٌ معرفةُ شرحِها وإيضاحُ فحواها . فلئِن خُيِّلَ أنّ الأُولى وحدَها ضروريةٌ لتتَحرّر النفسُ من البلبلة والخوف ، ولتمضيَ بشجاعةٍ أكبر في طريق الربّ تدوسُ بقدمَيها أشياءَ العالم جميعًا ، فإنّ فَهْمَ ذلك فائدةٌ كبرى ومنّةٌ . فيجدُر أن يُسبِّحَ الربَّ كثيرًا مَنْ أُوتي ومَنْ لم يُؤتَ أيَّ نعمةٍ منها لأنه ، جلّ جلاله ، إذا نَفَحَ بها أحدَ الأحياء فحتى تفيدَنا ، نحن أيضًا .

ففي هذا النوع من الاتحاد الذي أتكلّم عليه ، يحصل غالبًا ، في رأيي ، (وقد حصل لي بنوعٍ خاص لأن الله يمنحني هذه النعمة في أغلب الأحيان) ، أن يستوليَ الله على الإرادة بل وعلى العقل ، لأن هذا لا يعود يفكّر بل يكونُ منشغلاً بالاستمتاع بالله ، كانسانٍ يرى من الأشياء ما يَحار معه أين يصوِّب بصره ، لأن الواحد منها يضيِّع عليه رؤيةَ الآخر فيُخفِقُ في تحديدِ أيٍّ منها . أمّا الذاكرة فتبقى طليقةً ، مثلها مثل المخيَّلة ، في اعتقادي ، التي مذْ أن ترى نفسَها وحيدةً ، تُحدِثُ العجبَ في الحربِ التي تُثيرها وفي محاولتها أن تبلبلَ كلَّ شيء . لقد أَتعبَتْني ، وأمقتُها ، وكثيرًا ما

---

(٤) كِظَّة : بطِنة ؛ ما يعتري الانسان من الامتلاء من الطعام.

أتوسّل الى الربّ كي ينتزعَها منّي في هذه الأويقات إذا كانت ستُربكني بهذا القدْر. وأقول له أحيانًا: «يا إلهي، ترى متى تتجمَّع نفسي كلُّها لتسبِّحك ولا تكونُ ممزّقةً أشلاءً، عاجزةً كما هي؟» وهنا أرى الضررَ الذي تُحدثه الخطيئةُ فينا؛ فإنها تقيِّدنا حتى لا ننشغلَ دائمًا مع الله، وهو ما نريد أن نعمل.

بلبلة الذاكرة والمخيّلة

٦. أقول إنه قد يحصلُ لي أحيانًا، وقد حصل اليوم، ولا يزال راسخًا في ذاكرتي، أن أرى نفسي تذوب لهفةً لترى ذاتها متجمِّعةً حيث هو أفضلُ قسمٍ منها، فيُعجِزها الأمر؛ غير أنّ الذاكرة والمخيّلة تَشُنّان عليها حربًا عوانًا تَحُول دون ذلك. ولمَّا كانت القوى الأخرى معطَّلةً، فإنهما لا تقويان حتى على التسبُّب بأي ضُرّ. يكفيهما أنّهما تبلبلان النفس. أقول «التسبّب بأي ضُرّ»، اذ لا قوةَ لهما ولا تستقرّان على حال. فلأنّ العقل لا يساعدهما بقليلٍ أو بكثيرٍ ممّا يمثِّل لهما، فهما لا تتوقَّفان على شيء، بل تتنقّلان من موضوعٍ الى آخر مثل فراشات الليل الصغيرة المزعجة المضطربة؛ هكذا تطفران من مكانٍ الى آخر. وفي رأيي ان هذه المقارنة مصيبة للغاية؛ فالفراشات على كونها عاجزةً عن إحداث الأذى، فإنها تُزعج من يرونها.

ولا أدري لهذا الأمر علاجًا؛ فالله لم يرشدْني إليه حتى الآن، وإلاّ لاستخدمته بطيبةِ خاطر، لأن هذه الحال كما قلتُ كثيرًا ما تعذِّبني. فيها نرى شقاءَنا، ونُرى بوضوحٍ قدرةُ الله العظيمة، لأن (المخيّلة)، هذه القوةَ المطلقةَ العنان، تُتعِبُنا وتؤذينا الى حدٍّ كبير، والقُوى التي بصحبةِ الله تُوفِّرُ لنا راحةً عظمى.

علاج المخيّلة إهمالُها

٧. إن العلاجَ الأخير الذي اهتديتُ إليه بعد سنواتٍ عديدةٍ من العناء هو ذلك الذي تحدَّثتُ عنه في كلامي على تأمّل السكينة، وهو أن لا نكترث بالمخيّلة أكثر من اكتراثنا بمجنون، ونتركَها وفكرتَها، فإنَّ اللهَ وحدَه قادرٌ على نزعها منها؛

وهي هنا ، على كل حال ، تكون عبدةً. علينا أن نتحمَّلها صابرين كما تحمّل يعقوب لَيّا ما دام الربّ أعطانا نعمةَ التمتّع براحيل[٥] . أقول «تكون عبدةً» لأن المخيّلة ، في نهاية الأمر ، مهما حاولتْ أن تعمل ، لا تستطيع أن تجذِبَ إليها قوى النفس الأخرى ، بل بالأحرى ، تلك القوى غالبًا ما تشُدُّ المخيّلةَ إليها دون جهد ؛ يطيب لله أحيانًا أن يُشفق عليها إذ يراها في هذَين الضَياع والاضطراب على رغبتِها في الاجتماع بالقوى الأخرى ، فيسمح ، جلّ جلاله ، أن تحترقَ بنارِ ذلك المشعل الإلٰهي حيث صارت القوى الأخرى رمادًا ، وضاعَ كيانُها الطبيعي فكادَ أن يصيرَ فائقَ الطبيعة[٦] وهي تستمتع بهذه الخيرات الثمينة.

إشتراك الجسد بمجد النفس

٨. في جميع المظاهر من هذا الماءِ الأخير السائِلِ من الينبوع ، والذي تحدّثتُ عنه ، يكون مجدُ النفس وراحتُها عظيمَين بحيث يشتركُ الجسدُ بجلاءِ ظاهر ، بتَينك اللّذة والمُتْعة بجلاءِ ظاهر[٧] ، وتنمو الفضائل أيّ نموٍّ ، كما قلت.

كأنّي بالربّ أراد أن يُبيِّن ، في رأيي ، هذه الحالات التي تَبلغها النفس بأسهل ما نستطيع فهمَه في هذه الدنيا. فعالِجْ ، رَجَوتك أبتِ ، هذا الموضوعَ مع شخصٍ روحاني بلغَ هذه الحالةَ على أن يكون ضليعًا في العلم. فإذا وافقَ على أقوالي ، تيَقّن أن الله كشف له ذلك وأَشكرُه ، عزّ وجلّ ، شكرًا جزيلاً ؛ فإنك ، كما قلتُ ، مع مرور الزمن ، ستغتبط كثيرًا بفهمِ حقيقة الموضوع ، وإن تكن قد أُعطيتَ نعمةَ الاستمتاع بهذه الحالة قبل الحصول على نعمةِ فهمِها. فإن يكن ، عزّ وجلّ ، قد أعطاكَ نعمةَ

---

(٥) تكوين ٢٩، ٢٨

(٦) كثيرًا ما تستعمل القديسة صفة «فائق الطبيعة» بمعنى الحاليّة. وفي قولها هنا «تحترق بذلك المشعل الإلٰهي» و «صارت رمادًا» و «ضاع كيانُها الطبيعي» و «كاد أن يصير فائق الطبيعة» إنما تحاول أن تصفَ حالةً صوفيةً عن طريق المقارنة مع «فراشات الليل المزعجة».

(٧) العبارة «بجلاءِ ظاهر» مكرَّرَة في النصّ هكذا.

التمتّع بها ، فلسوف تفهمُها عَبر خطابي هذا بفضل عقلِك وعلمك . تباركَتْ عزَّتُه على كلِّ شيءٍ الى أبد الآبدين . آمين[٨] .

(٨) التأمل الذي تتكلم عليه القديسة بصورة « الماء الثالث » هو تأمل « الاتحاد العاديّ » الذي يدعوه الأب پولان Poulain « الاتحاد التام » ويعرّفه بأنه : « التأمل الذي تكون فيه النفس متّحدة بالله بقوة ، ومنهمكة فيه بكليتها ، وتتطلّع الله دون أيّ تشتُّت ، أي تنظر اليه بشغفٍ وحبّ ، رغم أنّ الحواس تُتابِع عملَها ، أقلّه جزئيًّا . ويختلف هذا التأمّل عن تأمل السكينة بأنّ عمل النفس في هذا يكاد يكون معدومًا ، بينما يكون الرابط الذي يجمع النفس بالله أقوى بكثير .

هذا الاتحاد ، حسب القديسة ، ذو درجاتٍ ثلاث مختلفة يصِفُها تانكيريه : بـ **الصامت** ، **والمصلّي** ، **والفاعل** (التصوّف المسيحي ، ج ٣ ، ص ١٤٣) .

(Ad. Tanquerey, *Précis de théologie ascétique et mystique*, Desclée et Cie, Paris 1924)

- في الاتحاد الصامت ، تتطلّع النفسُ اللهَ في صمتٍ ملؤه الحب ، لأن التعجُّبَ يخنق ، إن صَحَّ التعبير ، كلَّ كلمة .
- في الاتحاد المصلّي ، لا تستطيع النفس أن تتمالك ذاتها أو تُفرِّج عنها . إنه الوقت الذي تُصبح القديسةُ فيه شاعرة .
- في الاتحاد الفاعل ، تبقى الإرادة وحدها مقيَّدةً بالله ، بينما تبقى سائر القوى حُرَّةً كي تهتمّ بخدمة الربّ : ذاك هو إتحاد مريم ومرتا .

الفصل الثامن عشر

تبحث في درجة التأمّل الرابعة. تبدأ تبيِّن بطريقةٍ رائعة المكانةَ التي يضع الربّ فيها النفسَ التي بلغتْ هذه الحالة. هذا البحث يثير حماسة من يتعاطَون التأمّل ليبذلوا جهدهم للوصول الى حالةٍ ساميةٍ كهذه، فإنّ بلوغَها ممكنٌ على الأرض وإن لم يكن عن استحقاقٍ ذاتي بل بفضل الربّ. فليُقْرأ بانتباه لأنه يعالج الموضوع بطريقةٍ دقيقة ويتضمَّن أمورًا بالغة الأهمّيّة

الدرجة الرابعة: متعةٌ كُلِّيَّة

١. ليت الربّ يلقي إليّ بكلامٍ ملائمٍ لأقولَ شيئًا عن هذا الماء الرابع. إن نعمتَه ضروريةٌ هنا أكثر منها في الحديث عن الماء السابق، حيث إن النفس تظلّ تشعر أنها لم تمتْ كليًّا؛ ويُمكنني الكلامُ بهذا الشكل لأنّها مائتةٌ عن العالم. إلاّ أنّ لديها من الوعي، كما قلت، ما يجعلها تُدرك أنها ما زالت في هذا العالم وتشعر بوحدتِها، وتستعين بالحواس الخارجيّة لتُفصِح عمّا تشعر به، ولو بواسطة الإشارات.

في جميع أنواعِ التأمّل التي دار الكلام عليها سابقًا، يبذل البستاني جهدًا ما؛ أما في هذه الأنواع الأخيرة فيصحُب الجهدَ من الغبطة والعزاء ما يجعل النفسَ لا ترغب في الانقطاع البتّة عنه؛ وهكذا لا تشعر به كجهدٍ بل كمجدٍ لها. هنا، لا

شعور بل متعة دون أن يُدرَك ما يُستَمْتَعُ به. نُدرِك أننا نتنعّم بخيرٍ يشتمل على الخيرات جميعًا لكننا لا نعرف ما هو هذا الخير. الحواس كلُّها تنشغل بهذه المتعة فلا يبقى أحدُها خليًّا ليهتمَّ بشيءٍ آخر، خارجيًّا كان أو داخليًّا.

قبلاً، كان يُتاح للحواس، كما قلت، أن تُظْهِرَ بعضَ إماراتِ المتعةِ الكبيرة التي تَشعر بها؛ أما هنا، فتَستمتِع النفسُ بمتعةٍ لا مثيلَ لها بينما يزداد عجزُها عن فهمها، إذ لا يبقى للجسد ولا للنفس الطاقةُ لإشاعة هذه المتعة. في هذه الحال، كلُّ شيءٍ يغدو للنفس ارتباكًا، وهمًّا، وعائقًا لراحتها. وأقول: إذا حصل إتحادُ جميع القوى، فحتى لو حاولت الانشغال، وهي في تلك الحال، أَعجزَها الأمر؛ وإذا استطاعت، فليس ثمَّ اتحاد.

تصبح النفس كشعلة النار

٢. أما ماهيّة ما يسمُّونه اتحادًا[1]، وكيفية هذا الاتحاد. فلا أعرفُ كيف أشرحها. إن اللاهوتَ الصوفي يوضح ذلك، أما أنا فتفوتني الإصطلاحات؛ فلا أعرف ما العقل ولا ما يُفَرِّقه عن النفس أو الروح؛ أراها كلَّها واحدًا ولو أنّ النفس تنطلق من ذاتِها أحيانًا كنارٍ مستَعِرَة صارت شُعلَةً، ويشتدُّ اتِّقادُها أحيانًا. وهذه الشعلةُ ترتفع بعيدًا جدًّا عن النار لكنّها، على بعدِها، ليست بمختلفةٍ عنها، بل إنّها الشعلةُ نفسُها التي في النار. هذا ما تفهمونه، آبائي الاجلاّء، بفضل علمِكم؛ أما أنا فلا أستطيع شرحَه خيرًا ممّا فعلت.

مناجاة الله

٣. ما أطمحُ الى بسطه هو ما تَشعر به النفسُ إبّانَ هذا الاتّحاد الإلهي. نعرف ما هو الاتحاد: ان يصيرَ شيئان منفصلان شيئًا واحدًا. إي ربّي! ما أعظم

(١) هذه التسمية (الاتحاد) التي تعتمدها القديسة والتسمية الأخرى: «تأمل السكينة»، إستقَتْهُما ولا شك من مصطلحات الكتب الروحية المشهورة في أيامها بخاصة كتاب لاريدو Laredo الشهير: **الصعود الى جبل صهيون بطريقة التطلّع** (أشبيلية ١٥٣٥).

جودَك ! تباركتَ الى الأبد ! فلتسبِّحْك يا إلهي ، جميع الخلائق لأنّك أحببتنا حبًّا نستطيع معه أن نتحدَّث ، بحق ، عن هذا الاتّصال الذي تقيمه مع النفوس حتى في هذا المنفى . حتى لو كان هذا الاتّصال بنفوسٍ صالحة ، فإنه سخاءٌ وشهامةٌ . حقًّا إنه سخاءٌ وشهامةٌ منك ، ربّي ، يا من تعطي بما يوافِق طبيعتك . أيّها السخاء اللامتناهي ، ما أعظمَ أعمالَك ! يَندهش من لا يُشغِل عقلَه بأشياء الأرض أن لا يملك من العقل ما يفهم به الحقائق . وأن تغمرَ بنعمٍ ساميةٍ نفوسًا أهانتك كثيرًا ؛ فهذا حقًّا ما يحيِّرُ عقلي ؛ وعندما يَحدث لي أن أفكِّر في الأمر لا أستطيع أن أتجاوزه . أين يستطيع فكري أن يمضيَ إلّا أن يعودَ الى الوراء ؟ ولا أدري كيف أشكرك على جزيل نعمك . يخفِّفِ عنّي أحيانًا قولي سخافاتٍ .

عتاب الله على إنعاماته لها

٤. يتّفق لي غالبًا ، إثر توالي هذه النعم أو حينَ يشرعُ الله بإعطائي إيّاها (وقد قلت إنني حين أكون مغمورةً بها لا أستطيع عمل شيء) ، أن أقول : « ربّي ، أنظر ما تفعل ، ولا تنسَ عاجلاً آثامي الكبيرة . أما وقد نسيتُها لتغفرَ لي ، فاتوسّلُ إليك أن تتذكَّرها لتعتدلَ في مِننك . لا تسكُبْ ، يا خالقي ، شرابًا ثمينًا كهذا في إناءٍ مكسورٍ[٢] كهذا الاناء ، فقد رأيتَني من قبلُ مرارًا أعودُ فأريقه . لا تودِعْ كنزًا كهذا الكنز لدى إنسانٍ لم يُمَحَّ منه تمامًا بعد ، كما يجب أن يَمّحي ، الطمَعُ بتعزياتِ الحياة ، فإنه يبدِّده شرَّ تبديد . كيف تسلِّم قواتِ هذه المدينة وتَعهَدُ بمفاتيح قلعتِها لقائدٍ جبان كهذا القائد ، يُفسح للأعداء في دخولها عند أوّل هجوم يشنّونه ؟ أيُّها الملك الأزلي ، لا يحملنّك حبُّك الكبير لأن تجازف بجواهر بهذا القدر ثمينةٍ . كأنّي بكَ ، ربي ، تُتيح الفرصةَ لأن يُقلَّل من شأنِها ؛ فإنك تَكلُ أمرَها الى خليقةٍ حقيرة ، وضيعةٍ ، ضعيفةٍ ، بائسةٍ بهذا المقدار ، وقليلةِ الشأن ؛ وإذ عليها ، حتى لا تضيِّعها ، أن تَجدَّ متسلِّحةً بعونك (وحاجتي إليه كبيرةٌ نظرًا لما أنا عليه) ، لا تستطيع أن تنفعَ بها أحدًا . باختصار ، لست امرأةً ، بعيدةً عن الصلاح فقط ، بل ناقصةً . فكأن إيداعَ

---

(٢) إشارة إلى ٢ كور ٤ ، ٧ .

الوزنات أرضًا مجدبةً الى هذا الحدّ ليس إخفاءً لها فحسب بل ودفنًا[٣] لها أيضًا. ليس من عادتك، يا ربّ، أن تغمر نفسًا بعظائم ومننٍ كهذه إلّا لتفيد نفوسًا كثيرةً. وتعرف، يا إلهي، أنني توسّلتُ إليك مرارًا، وأتوسّل الآن بكل إرادتي وقلبي، وأعتبر فقداني أكبرَ كنزٍ في هذه الدنيا خيرًا، كي تُفيضَ هذه النعم على من يفيدون منها أكثر ليزداد مجدُك عظمةً.

الرجوع عن معاتبة الربّ

٥. هذه الأمور وأخرى غيرها كثيرة، إتّفق لي أن ردّدْتُها مراتٍ عديدةً وكنت أرى فيمَا بعد جهالتي وقِلّة تواضعي، لأن الربَّ يعرف حق المعرفة ما يوافقنا، وأن لا قوّةَ في نفسي تساعدها على خلاصِها لو لم يجعلها الربّ فيها بما غمرها به من أنعام.

٦. وفي نيّتي أيضًا أن أتحدّثَ عن النعم والمفاعيل التي تثبت في النفس، وعمّا باستطاعة النفس أن تعمله بذاتِها، وإذا كان لها دورٌ في الوصول الى هذه الحالة السامية.

إرتفاع الروح

٧. يتّفِق أن يحصُل إرتفاعُ الروح[٤] أو الاجتماع بالحبّ السماوي في هذا الاتحاد عينه؛ (على أنّ الاتحاد، في اعتقادي يختلف عن الإرتفاع). فمَن لم يختبرْ هذا الاتحاد، يخال أن ليس ثمّة فرق. وعلى كونِ الأمرين، في رأيي، واحدًا، فإنّ الربّ يعمل بطريقةٍ مختلفة؛ فكأنما التجرّدُ عن الخلائق عَمِلَ بطريقةٍ أشد تأثيرًا

(٣) إشارة إلى متى ٢٥، ١٨.

(٤) يجدر التنويه، تحاشيًا لخطإٍ في التفسير، أنّ العبارات التي ترد لدى القديسة من مثل «إرتفاع الروح»، و«إنجذاب»، و«إجتماع» و«تحليق الروح»... انما هي متجانسة في معناها، وفي لغة القديسة الروحانية تعني «الإنخطاف».

في تحليق الروح. وقد تبيَّنتُ، أنا، في ذلك نعمةً خاصّة وإن كان الأمر كلُّه، كما قلتُ، شيئًا واحدًا، أو يبدو واحدًا؛ فنارٌ خفيفةٌ، مثلُها مثل نارٍ قويّة، إنما هي نار؛ ومع هذا فبين نارٍ وأخرى فرقٌ: فالنار الخفيفة يلزمها وقتٌ طويلٌ لصهر قطعةٍ صغيرةٍ من الحديد؛ أما إذا كانت النار قويَّةً، فقطعةُ الحديد، ولو أكبر حجمًا، تتغيَّر طبيعتُها كليًّا، كما يبدو، في وقتٍ يسير. وهذا ما إخاله يحصُل في هذين النوعين من منن الربّ؛ وأنا على ثقةٍ بأنّ مَنْ بلغ حال الإنخطاف يَفهم قولي تمامًا. ومن لم يختبر ذلك، يرى في كلامي هذيانًا، وقد يكون ظنّه صحيحًا. فأَنْ يتصدَّى شخصٌ مثلي للكلام على موضوعٍ كهذا، ولتبيانِ أمرٍ يبدو حتى إيجاد تعابيرَ للشروع في عرضه مستحيلاً، ليس بكثيرٍ عليه إن هَذَى.

تعليمها إلهام وخبرة

٨. لكنّي واثقةٌ بأنّ الربّ سيساعدني في هذا الأمر، لأنه يعرف، جلّ جلاله، أنّ قصدي، بعد القيام بواجب الطاعة، إغراءُ النفوس بهذا الخير الفائق السموّ. لن أقولَ شيئًا ما لم أكن قد خبِرتُه طويلاً. وهكذا فعندما شرعتُ أكتب عن هذا الماءِ الأخير، كان يبدو لي مستحيلاً أن أعالجَ نُقطةً ما أكثر ممّا لو كان عليّ أن أتكلّم اليونانية، لشدَّةِ ما في الموضوع من صعوبة. ولهذا تركتُ البحثَ معلَّقًا وذهبتُ لأتناول. تباركَ الربُّ الذي يساعد، هكذا، الجُهلاء! يا لكِ من فضيلةٍ، أيّتُها الطاعة القادرة على كلّ شيء! وأَنارَ الله عقلي، ملقيًا إليّ بالكلمات أحيانًا، وموضحًا لي طريقةَ التعبير عن الفكرة أحيانًا أخرى، فكأنه، جلّ جلاله، يريد، كما فعل في التأمّل السابق، أن يقول ما لا أعرف قولَه ولا أستطيع.

ما أقوله هو الحقيقة كلُّ الحقيقة؛ فما كان صالحًا في هذا الكلام إنما هو تعليمٌ منه، وما كان سيّئًا، فمن الواضح أنه من خضمّ المساوئ الذي هو أنا. وعليه أقول، إذا كان ثمّة أُناسٌ، ولا شكَّ أنهم كثيرون، بلغوا حالاتِ التأمّل التي تكرّم بها الربّ عليّ، أنا البائسة، ويرغبون في مباحثتي بهذه الأمور لتصوُّرِهم أنّهم ضلّوا السبيل، فإنّ الربّ سيساعد خادمتَه لتُظهر حقيقته ناصعةً.

الماء الساقط من السماء

٩. ولنتكلّم الآن على هذا الماء الذي يسقط من السماء ليَغمر بفيضه هذا البستان ويُشبعه؛ فإذا لم ينقطع الربّ عن صبِّه أبدًا حين يكون ضروريًا، نرى البستاني ينعمُ براحةٍ كبرى؛ وإذا لم يكن ثمَّة فصلُ شتاء بل كان الطقس دائمًا معتدلاً، فلا تنقطع الزهور ولا الثمار، أمكننا أن نتصوّر أيَّة غِبطةٍ تتملّكه. غير أنّ هذا مستحيل ما دُمنا في هذه الحياة. علينا أن نهتمّ دائمًا، عندما نفتقد ماء، بالحصول على ماءٍ آخر. وهذا الماء السماوي يسقط غالبًا حين يكون البستاني غافلاً. صحيحٌ أنه في البدء يحدث ذلك، دائمًا تقريبًا، بعد صلاةٍ عقليةٍ طويلةٍ، فينقل الربُّ هذا الطائرَ الصغيرَ من درجةٍ الى درجةٍ ليضعه في العشّ حتى يستريح. وإذا رآه يطير فترةً طويلةً محاولاً بعقلِه وإرادته وقواه جميعًا أن يبحث عن الله ويعمل ما يرضيه، فإنه يريد أن يكافئه حتى في هذه الحياة. وما أعظمَها مكافأةً بحيث إن لحظةً منها تكفي لتعوِّضَ جميع المشقّات التي قد تصادَفُ فيها.

تأثيرات حالة الاتحاد على الجسم

١٠. وفيمَا النفس تبحث عن الله، تشعر، في غمرةٍ من المتعة عذبةٍ، وكأنّ بها كلِّها خوَرًا، ويُصيبها بعضُ الإغماء فيروح نَفَسُها يتقطّع، وقواها البدنية كلّها تخونها بحيث تعجز عن تحريك يَدَيْها إلّا بجهدٍ جاهد؛ وتتغمض العينان دون أن تريدَ إغماضَها، وإذا أبقتها مفتوحتَين، فلا ترى شيئًا تقريبًا؛ وإن قرأتْ، فلا تُحسن التلفّظَ بحرف، ولا تصيب، تقريبًا، في معرفته؛ ترى الحرفَ، غير أن العقل لا يساعد، فلا تحسن قراءتَه ولو أرادت ذلك؛ تسمع، لكنّها لا تعي ما تسمع. وهكذا لا تستفيد من الحواس إلاّ أنّها لا تدعها تنصرف كليًّا الى تنعّمها؛ فهي بالأحرى تؤذيها. عبثًا تحاول الكلام، فإنها لا توفَّق في صياغة كلمة، وإذا وُفِّقَت، فلا قوَّة تساعدها على النطق بها، لأن القوّة الخارجيّةَ كلَّها تتلاشى في قوى النفس فتشتد هذه لتستطيعَ النفسُ التمتُّع أفضلَ تمتُّعٍ بمجدها. والتلذّذ الخارجي الذي تشعر به كبيرٌ وظاهرٌ للعيان.

نعمة سامية لا تؤذي

١١. مهما طالت حالةُ التأمل هذه فإنها لا تؤذي ؛ على الأقل ، لم تُحدث لي أذًى. ولا أذكر أنّ الربّ آتاني هذه النعمة مرّةً ، مهما كانت حالتي الصحيّة رديئةً وشعرتُ بسوء ؛ بل على العكس ، كنتُ أشعر بتحسّنٍ ملموس. ثم ، أيُّ شرٍّ يمكن أن يُحْدِثَ هذا الخيرُ الكبير؟ إنّ نتائجَه الظاهرة واضحةٌ للعيان بحيث لا يمكن الشكّ في عظمة المناسبة التي حرمتْنا قوانا بلذّةٍ كبرى ، لتردَّها إلينا مضاعفةً.

حالة سريعة الحدوث

١٢. صحيح أنّ ذلك يتمُّ في البدءِ بسرعةٍ قُصوى – هذا على الأقل ما كان يحدث لي – بحيث إن هذه العلامات الخارجيّة وتعطّلَ الحواس لا تُلْحَظُ كفايةً لسرعة حدوثِ الظاهرة ؛ إلاّ أنّ المرءَ يُدرك من فيض المنن أنَّ سطوعَ الشمس في النفسِ كان شديدًا لأنها ذوّبتها تذويبًا. ويجب أن نلاحِظ ، في رأيي ، أنه مهما طال الوقتُ الذي تتوقّف فيه قُوى النفس جميعُها ، فإنه قصيرٌ جدًّا ؛ فإذا استمرّ نصفَ ساعةٍ كان ذلك طويلاً جدًّا ؛ أنا لم أبقَ بهذا القَدْرِ قط ، على ما أذكر. صحيحٌ أنه من الصعب تقديرُ الوقت الذي تدوم فيه هذه الحالة إذ يكون الشعور معطّلاً ؛ لكنّي أقول إنه ، في كلّ مرّةٍ ، تمرُّ برهةٌ وجيزةٌ قبل أن تعود أَيَّةُ قوّةٍ الى ذاتها. الإرادة هي التي تبقى صامدةً ، أمّا القوّتان الأخريان فتعودان حالاً الى المضايقة. وبما أن الإرادة تمكثُ هادئةً فإنها تعطّلهُما من جديد فيدوم ذلك قليلاً ثم تَستَرِدَّان نشاطَهما.

تنعّم قوى النفس الثلاث

١٣. قد تنقضي بضعُ ساعاتٍ من التأمل في هذه الحال بل وتنقضي في الواقع ؛ فحين تبدأُ القوّتان[٥] تنتشيان وتتذوّقان تلك الخمرةَ الإلٰهيّة[٦] ، تضيعان

---

(٥) العقل والذاكرة.

(٦) «تنتشيان...» تعابير صوفيّة مستوحاةٌ من **نشيد الأناشيد** وتشير بوجهٍ عام الى التأرجح بين «غفوة القوى» أو «سبات القوى» والدخول في الإنخطاف.

بسهولةٍ من جديد لتُحققّا مكسبًا أوفر ، وترافقان الإرادة فتستمتع القوى الثلاث معًا . غير أنّ توقُّفَها الكامل هذا ، وتَعطُّلَ المخيَّلةِ كليًّا – وهي في رأيي تتوقّف أيضًا توقّفًا تامًّا – يكونان ، في عرفي ، لبرهةٍ قصيرة ؛ إلاّ أنّهما لا تعودان تمامًا الى ذاتِهما بل قد تمكُثان بضعَ ساعاتٍ وكأنهما تائهتان حتى يُعيدَهما الله إليه بين حينٍ وآخر .

ذوبانٌ في الله يستحيل شرحه

١٤. ولنأتِ الآن الى ما تشعرُ به النفسُ هنا داخليًّا . فليَعرُض الأمرَ من يعرِفه ، فإنه لا يمكن أن يُفهَمَ ، وبالأحرى لا يمكن أن يُشْرَح .

عندما أردتُ أن أكتبَ في الموضوع كنت أفكّر في ما تفعله النفس في ذلك الوقت . كنت قد تناولتُ وانتهيتُ من حالة التأمّل التي أصف . فقال لي الربّ هذه الكلمات : « **إنها تذوبُ بكلِّيتها ، يا ابنتي ، لتندسّ فيّ أكثر . فليست هي بعدُ مَنْ تحيا ، بل أنا . وبما أنّها لا تستطيع أن تستوعبَ ما تفهم ، فإنها ، وهي تَفهم ، لا تَفهم .** »

من خَبِرَ هذه الحالة يفهمْ شيئًا منها ، إذ يستحيل الإفصاحُ أكثر لأنّ ما يَحدث في هذه الحال غامضٌ جدًّا . إنما أستطيع القولَ إنّه يتمثّل ذاتَه متّحدًا بالله ، ويكون على يقينٍ من ذلك بحيث لا يخامره الشكّ في أيٍّ حال . هنا تتعطّلُ القوى جميعُها وتتوقّف بحيث ، كما قلت ، لا يُعرَفُ ، بأيَّة حالٍ ، أنها تعمل . فإذا كان يتأمّل في مرحلةٍ من مراحل الآلام ، فإن هذه المرحلة تغيب عن الذاكرة وكأنها لم تخطر لها أبدًا . وإذا قرأ ، فلا يَذكر ما كان يقرأ ، ولا يركِّزُ عليه انتباهَه . وإذا صلّى كان هذا حاله . وهكذا فإن فراشةَ الذاكرة المزعجة هذه يحترقُ جَناحاها ، فلا تستطيع بعد حِراكًا . أمّا الإرادة فيجب أن تكونَ منشغلةً بالحبِّ ، غير أنها لا تعرف كيف تحبّ . وأما العقل ، فإذا فهم ، لا يعرف كيف يَفهم . على الأقل ، لا يستطيع أن يستوعبَ شيئًا ممّا يَفهم لأن هذا ، كما قلت ، لا يُفْهَم . وأنا لم ينتهِ بي الأمر الى أن أفهمَ هذا .

حضور الربّ بذاته في الأشياء

١٥. ثمّة أمرٌ كنتُ أجهله في البدء. ما كنتُ أعرف أن الله موجودٌ في الأشياء كلِّها ؛ وعندما كنت أراه حاضرًا حضورًا حقيقيًّا ، كنت أحسب ذلك مستحيلاً. ما كنت أستطيع التخلّي عن الإيمان بأنه حاضرٌ هناك ؛ بل كان يبدو لي بوضوحٍ أنني أدركتُ أنه حاضرٌ بذاته. من ليسوا من ذوي العلم كانوا يقولون لي إنه حاضرٌ بالنعمةِ فقط. وما كنتُ أستطيعُ تصديقَهم ، لأنني كنت ، كما قلتُ ، إخاله حاضرًا. وهذا ما كان يعذِّبني ؛ فبدَّدَ حيرتي عالمٌ كبير[٧] من رهبانية القديس المجيد عبد الأحد قال لي إنه حاضرٌ، وكيف يتَّصل بنا ، فكان لي بذلك تعزيةٌ كبرى.

يجدر بنا أن نلاحظَ وندركَ جيّدًا أن هذا الماءَ السماوي ، هذه النعمة العظمى التي يتكرّم بها الربّ ، توفِّر دائمًا للنفس مكاسبَ كبرى كما سأوضح ذلك الآن.

(٧) هو الأب فيثنتي بارون Vicente Barron.

الفصل التاسع عشر

تتابع البحثَ في الموضوع نفسه. تشرع في تَبيان المفاعيل التي تُحْدِثها في النفس حالةُ التأمّل هذه. تحثّ من بلغوا هذه الحال على أن لا يتراجعوا أو يتركوا التأمّل ولو عادوا فسقطوا بعد نوالهم هذه النعمة. تتحدَّث عن الأضرار التي تحصُل من عدم اتِّباع هذه النصيحة. هذا التعليم جديرٌ بالإعتبار وفيه تشجيعٌ كبير للضعفاء والخطأة

فرح ودموع

١. تصير النفس من جرّاء هذين التأملِ والاتّحاد في حنانٍ بالغٍ فترغب في أن تذوب، ليس من الألم، بل في دموعٍ مُمتِعة. وتجد ذاتها مغمورةً بهذه الدموعِ دون أن تشعر بها أو تدري متى وكيف سَكَبَتْها؛ لا بل تبعث فيها لذةً كبرى رؤيةُ أجيجِ النار ذاك وقد هدَّأه ماءٌ يزكّي ضِرامَه. وقد يبدو هذا كلامًا بربريًّا، لكنها الحقيقة. لقد حدث لي أحيانًا في حالة التأمّل هذه أن وجدتُني ذاهلةً أيَّ ذهول، فما كنت أدري أكان حُلمًا أو حقيقةً ذلك المجدُ الذي شعرتُ به؛ وإذ كنت أجدُني مبلّلةً بالماء أَقطُره دون تعب، وبزخمٍ وسرعةٍ كبيرَين فكأنه ينهمر من تلك الغمامة السماوية، كنتُ أرى أنه ما كان حُلمًا. هذا كان يَحدث في البدء ويدومُ فترةً وجيزةً.

حماسة من أجل الله

٢. وتصير النفس ملتهبةً حماسةً، حتى إنها لو قُطِّعتْ إرْبًا إرْبًا في تلك اللحظة من أجل الله لكان لها في ذلك عزاءٌ كبير. تلك ساعةُ الوعود والقراراتِ البطولية، والرغباتِ المتوقِّدة، وابتداءِ كرهِ العالم وانجلاءِ بطلانِهِ. تُحقِّقُ النفسُ هنا تقدُّمًا أكبرَ وارتفاعًا أسمى ممّا في حالات التأمل السابقة، وتكون أكثرَ تواضعًا، لأنّها ترى بوضوح أن تلك النعمةَ العظيمةَ السامية لم تتوفّرْ لها بجَهدٍ منها، وأنها، هي، لم تكن فريقًا للحصول عليها أو امتلاكها. وتتبيَّن عدمَ استحقاقها، لأن غرفةً يغمرها نورُ الشمس لا تستتر فيها شِباكُ العنكبوت. هكذا ترى بؤسها. ويكون العُجْبُ بعيدًا عنها كلَّ البعد فلا يخطر ببالها أنْ قَد يُراودها، لأنها ترى بأُمِّ العين ضعفَ طاقتها أو عجزَها المطلق، لأنها لم تعطِ موافقتَها تقريبًا، في تلك الحالة، بل كأنهم أوصدوا الأبوابَ، رغم إرادتها، دونَ حواسِها جميعًا لتستطيعَ التنعُّمَ بالربِّ أكثر. وتبقى وحيدةً معه؛ فما عليها أن تفعل سوى أن تحبّه؟ لا ترى ولا تسمع إن لم يكن بهزَّةٍ من ساعِدٍ: ففضلُها قليلٌ. تتمثَّل لها فيما بعد حياتُها الماضية ورحمةُ الله العظيمة حقيقتين ناصعتين ودون أن يجدَّ العقلُ في البحث والتنقيب؛ فهناك تجد مُعَدًّا ما يجب أن تَأكلَ وأن تفهم. ترى أنّها، بذاتِها، تستحقّ الجحيمَ فتُعاقَبُ بالمجد، فتذوبُ مدائحَ لله؛ وإني لأودّ، أنا، أن أذوبَ الآن.

تباركتَ، ربّي، يا من تجعلُ من وحلٍ قَذِرٍ مثلي ماءً زُلالاً يَصلُح لمائدتِك! لك الحمدُ يا بهجة الملائكة، يا من شئتَ أن ترفعَ دودةً بهذه الحقارة!

تأثير على القريب

٣. تستمرّ هذه الفائدة بعضَ الوقت في النفس؛ وإذ تتبيّن أنّ الثمرَ ليس من إنتاجها، تستطيع المباشرةَ بتوزيعه دون أن تحرُمَ نفسَها منه. تبدأ تظهر علاماتٌ على أنها نفسٌ تحفظ كنوزًا سماويةً، وترغب في توزيعها على الآخرين، وتتوسّل الى الله أن لا تكون وحدها الغنيَّة. تبدأ بإفادة القريب دون معرفةٍ منها تقريبًا، ودون أن تفعلَ شيئًا من ذاتها؛ لكنَّ الآخرين يُدركون ما تفعل لأن الزهور فاحت رائحتُها قويَّةً

فتُرَغِّبُهم بالاقتراب منها. يعرفون أنها ذات فضائل، ويرون الثمر شهيًّا، فيَوَدُّون مساعدتَها في الأكل. إذا حُرِثَتْ هذه الأرضُ جيِّدًا بالمشقّات، والاضطهادات، والنمائم، والأمراض – وقليلون هم الذين يَصِلُون الى هذه الحال دون أن يُعانوا منها –، وإذا كانت لَيِّنةً لِتَحَرُّرِها من أَيَّة مصلحةٍ ذاتيّة، فإنها تتشرّبُ الماءَ بحيث تكاد أن لا تجفَّ أبدًا. أمّا إذا كانت هذه الأرضُ، ونحن ما زلنا على الأرض، تغطّيها الأشواك، مثلي في البدء، غيرَ متحرِّرةٍ بعدُ من أسباب الخطيئة، ولا شاكرةً هذه النعمةَ العظمى الشكرَ الذي تستحقّ، فإنها تعود فيصيبُها الجفاف. وإذا تهاونَ البستاني، ولم يعد الربُّ يُنزِل الغيثَ بصلاحٍ منه صِرفٍ، إعتَبِروا البستانَ تَلِفًا. هذا ما حدثَ لي أحيانًا. إنه لَيُدهشني حقًّا؛ ولولا أنني عانيته لما أمكنني تصديقُه. وإنما أكتب في هذا تعزيةً لنفوسٍ ضعيفةٍ، كنفسي، حتى لا يُصيبَها اليأس أو تتخلّى عن الاتّكال على عظمة الله. فإنها، ولو سقطتْ بعدَ أن يكونَ اللهُ قد رفعَها الى هذا العلوّ، فلا تَخُرْ عزيمتُها إذا لم تُرِدْ أن تهلك تمامًا. إن الدموع لتَكْسِبُ كلَّ شيء، وربَّ ماءٍ يجتلب ماءً آخر[1].

عدم ترك التأمّل

٤. هذا هو أحدُ الدوافع التي شجَّعتْني، مع قِلَّة شأني، على الطاعةِ وكتابة هذه السيرة وروايةِ قصَّة حياتي البائسة، والمنن التي أسبغَها عليّ الربّ، مع أنّي لم أخدُمْه بل أَهنْتُه. والحقُّ أَنني أتمنّى لو أتمتّع بنفوذٍ كبيرٍ حتى يُصَدَّقَ كلامي. فإلى الربِّ أَتوسَّل أن يعطيَني إيّاه. فأقول، إذًا، لا يَقنطْ أحدٌ ممن بدأوا حياةَ التأمّل فيقول: «إذا عدتُ الى السقوط في الخطإ فالأسوأُ من ذلك أن أتابع ممارسةَ التأمّل». أنا أعتقد أنَّ الأسوأَ هو إهمالُ التأمّل وعدمُ إصلاح الخطإ. أما إذا لم يُهمِلِ التأمّل، فليَثِقْ بأنه يُوصِله الى ميناء النور. لقد سلّط الشيطان عليَّ هجماتٍ عنيفةً في هذا المجال، وعانيتُ الكثيرَ إذ كنت أعتبر ممارسةَ التأمّل، على حقارتي، قِلَّةَ تواضعٍ بحيث، كما قلت، إنقطعتُ عن التأمّل سنةً ونصفَ سنة، وعلى الأقل سنةً لأنّي لا

(١) «وربَّ ماءٍ يجتلب ماءً آخر»، أي إن ماء الدمع يجتلب ماء النعمة الذي به يُروى البستان.

أذكرُ جيِّدًا نصفَ السنة؛ ولَمَا كان تَجَاوزَ الانقطاعُ ذلك، لكنّه تجاوزَه فِعلاً، لأني زَجَجْتُ نفسي في الجحيم دونما حاجةٍ لأن تدفَعَني إليه الشياطين. [أعوذ بكَ يا إلهي! ما أَشدَّ هذا العمى! وما أبرعَ الشيطانَ، لإصابةِ هدفه، في تشديد قبضته في هذا المجال!] فهذا الغدّارُ يعرف أنَّ نفسًا مثابرةً على التأمّل تُفلِتُ من يدِه، وأنّ كلَّ العثرات التي يسبِّبها لها تساعدُها، بفضل الله، على الاندفاع بزخمٍ أشدّ في خدمته تعالى. إن له في الأمر بعضَ المصلحة!

صلاة شكر وعرفان جميل

٥. يا يسوعي! ما أروعَ رؤيةَ نفسٍ بلغتْ الى هذه الحالة ثم سقطتْ في الخطيئة، حين تعود، ربّي، فتمدُّ يدَكَ إليها، برحمتِك، وتُنهِضُها! ما أروعَ إدراكَها كثرةَ عظائمِك ومراحمِك، وشقاءَها! عندئذٍ تذوبُ حقًّا وتعرفُ عظائمَك؛ عندئذٍ لا تجرؤُ على رفعِ عينيها؛ عندئذٍ ترفعُها لكي تَعرفَ ما تدينُ به لك؛ عندئذٍ تستشفع سلطانةَ السماء لِتَهدِّئَ نِقمتَك؛ عندئذٍ تبتهل الى القدّيسين الذين سقطوا، بعد أن دعوْتَهم، أنتَ، حتى يساعدوها؛ عندئذٍ يبدو لها رائعًا كلُّ ما تُعطيها، لأنها تعتبر نفسَها لا تستحقّ التراب الذي تدوس؛ وتُقبِلُ على الأسرار؛ عندئذٍ يَظهر إيمانُها الحيّ الراسخ إذ ترى القوّة التي وضعَها اللهُ في هذه الأسرار؛ وتمجِّدُك لأنك أودعْتَنا هذين الدواءَ والمِرهمَ لجراحِنا، فهُما لا يُضَمِّدانِها فقط بل يُزيلانها تمامًا. إن هذا لَيُدهشها. ومن، يا ربّ نفسي، لا تُدهِشُه رحمةٌ عظيمةٌ ونعمةٌ فائقةٌ تقابِل بهما خيانةً قبيحةً الى هذا الحدّ ومكروهةً؟ لا أدري كيف لا يَنفطِر قلبي وأنا أكتب هذه الأمور! ما ذلك إلّا لأني بائسة.

مقارنة بينها وبين القديسين

٦. كأني، وأنا أذرِفُ هذه الدموعَ الطفيفة التي أعطيتَني، النابعةَ منّي نبوعَها من بئر قذرة، أُعوِّضُك خياناتي العديدة بفعلي الشرَّ دائمًا ومحاولتي إفسادَ المنن التي تفضَّلتَ بها عليّ. ألا أَضْفِ عليها، يا ربِّي، قيمةً. نقِّ هذا الماءَ العَكِر، حتى لا

أكونَ، أقلّه، سببَ تجربةٍ لأحد، مثلما تجرَّبتُ أنا، فيطلِقُ أحكامًا ويتساءلُ لماذا تتخلَّى، يا ربّ، عن أناسٍ وافِري القداسة، خدَموك دائمًا وعَمِلوا في سبيلك، ونشأُوا في الرهبنة، وهم رهبانٌ حقيقيّون، وليسوا مثلي أنا التي لم يكن لي من الراهبة إلّا الإِسْمُ، على تبيُّني أنكَ لم تمنحْهم ما منحتَني من أنعام. كنتُ أُدرِكُ حقًّا، يا خيريَ الأعظم، أنك تحفظ المكافأةَ لتؤدِّيَها لهم دُفعةً واحدةً، وأنّ ضَعفي بحاجةٍ لهذه المنن. أما هؤلاء، فلِأنّهم أقوياء، يخدمونك دون هذه المساعدة وأنت تعامِلُهم كأناسٍ شجعان، متجرِّدين.

٧. إلّا أنّك، يا ربّي، تعرف أنني كثيرًا ما كنت أهتف نحوك، وأَعذِرُ الذين كانوا يَنِمُّون عليّ إذ كنت أراهم مُحِقّين. كان هذا يَحدث، يا ربّ، حين كنتَ تعضُدُني بجودِك حتى أُخفِّفَ من إهانتي إيّاك، وكنتُ قد بدأتُ أميل عن كل ما إخاله قد يثير سُخطَك. واذ كان هذا دأْبي، شرعتَ، ربّي، تفتحُ كنوزَك لأَمَتِك. كأنك ما كنت تنتظر إلّا رضايَ واستعدادي لتَقَبُّلِها لأنّك سارَعْتَ ليس الى إعطائي إيّاها فحسب، بل الى الرغبة في أن يَعرفوا انَّك تُعطينيها.

قبول الاضطهاد بتواضع

٨. وحين إنجلى الأمر، أخذوا يُحسِنون الظنَّ بمن لم يكن الجميعُ على معرفةٍ حقٍّ بما هي عليه من شرّ، وان كان شرُّها جليًّا. وفجأةً، بدأتِ النميمةُ والاضطهادُ، وكان مُطلقوهما، في رأيي، على صواب. وهكذا ما كنت أُشْعِرُ أحدًا عداءً بل كنت أَتوسَّل إليكَ، أنتَ، أن تراعيَ دوافِعَهم. كانوا يقولون إنني أريدُ أن أُظهرَ بمظهر القديسة، وأخترعُ أشياءَ جديدةً وأنا بعيدةٌ جدًّا بَعدُ عن تنفيذ القانون الرهباني كلِّه، وعن التساوي براهبات الدير الصالحات القدّيسات (ولستُ أَظُنُّني سأبلغُ ما بلغْنَه إذا لم يفعل الله كُلَّ ذلك بجودته)، بل كنتُ أُسهِم في نزع العاداتِ الصالحة لِأَستَبْدِلَها بعاداتٍ غيرِ صالحة. على الأقل، كنتُ أعملُ وسعي لإشاعة تلك العادات، وفي مجال الشرّ كنت أَستطيعُ الكثير. إذًا، كانوا يُخطِّئونني دونما ذنْبٍ يأتونه. لا أعني

الراهباتِ فقط ، بل أشخاصًا آخرين أيضًا . كانوا يكشفون لي حقائقَ لأنكَ ، أَنتَ ، كنتَ تسمح لهم بذلك .

إنتصار الايمان : كلمةٌ أولى من الله

٩. كنتُ يومًا أُصلِّي « الساعات »[٢] فراوَدَتْني تلك التجربة ، كما كان يحدث لي ، حين وصلتُ الى الآية القائلة : « **عادلٌ أنتَ يا ربّ واحكامُك مستقيمة** »[٣] ؛ فَرُحتُ أُفكِّرُ كَم هو صحيحٌ هذا الكلام ، فالشيطان لم يكن يمتلك القوّةَ أبدًا ليجرِّبَني بحيث أَشكُّ في أَنَّك تملك ، يا ربِّي ، جميعَ الخيرات ، أو أشكّ في حقيقةٍ من حقائق الايمان ؛ وعلى العكس ، فبِقَدرِ ما كانت هذه الحقائق تَفوقُ النظام الطبيعيّ كان إيماني بها أشدَّ ثباتًا ، في اعتقادي ، وكانت تُحرِّكُ فيّ وَرَعًا أعمق . فكونُكَ كُلِّيَّ القدرة كان يؤكِّد لي جميعَ العظائم التي تفعلها ، وما كان لِيراودَني الشكُّ إطلاقًا في هذا ، كما قلت . فإذْ كنتُ أتأمَّل عدلَكَ وكيف أنكَ ما كنتَ تُتيح ، كما قلتُ ، لكثيراتٍ كنّ خادماتٍ لك أميناتٍ ، أن يَنعمن بالمباهج والمنن التي تنفحني بها على كوني ما أنا ، أَجبْتَني ، ربِّي : « **أنتِ ، إخدِميني ولا تتدخَّلي في هذا** » . كانت تلك العبارةَ الأولى التي سمعتُكَ توجِّهها إليَّ فأثارت فِيَّ دهشةً أيَّ دهشة .

سأوضِحُ فيما بعد طريقةَ السماع هذه الى جانبِ أمورٍ أخرى ؛ لذلك لا أبسطها هنا لأنني بذلك أخرجُ عن الموضوع ، بل أعتقدُ أنَّني أمعَنْتُ في الخروج عنه . أَكاد لا أعرف ماذا قلت . ولا يُمكن أن يكونَ خلاف ذلك ، يا بُنَيَّ[٤] ، بل عليكَ أن تتحمَّل هذه الاستطرادات ؛ فعندما أَنظُرُكَمْ إحتمَلَني الله وأرى ذاتي في هذه الحالة ، فلا عجَبَ إن فقدْتُ سياقَ ما أقول وما سأقول . رضيَ الله أن يقتصر شرودي دائمًا على هذا النوع ، ولا سمح ، جلّ جلاله ، أن أقوى على مخالفته في اليسير اليسير ، بل قبل ذلك فليَمحَقْني في هذه اللحظة .

---

(٢) « الساعات » ، صلوات معيَّنة في الفرض الرهباني تتلى في أوقات معيّنة من النهار.

(٣) مزمور ١١٨ ، ١٣٧ .

(٤) الأب بانييث . تدعوه بعض الأحيان إبنها على سبيل الدالة والتحبّب ، وهذا ما يضفي طابعًا عفويًا خاصًا على اسلوبها .

وساوس الشيطان

١٠. يكفي لأن نتبيَّن مراحمَه العظيمة أنَّه غفر لي عُقوقي الفظيع، ليس مرةً بل مرَّاتٍ كثيرةً. لقد غفر مرةً واحدةً للقديس بطرس الذي أنكرَه، أما أنا فغفرَ لي مراتٍ كثيرةً. فالشيطانُ كان معذورًا إذ كان يجرِّبني بألاّ أطمحَ الى صداقةٍ وثيقةٍ مع من كنت أظهِرُ له العداوةَ علانيةً. ما كان أشدَّ عمَايَ! أين كان لي، يا ربّي، أن أجدَ علاجًا إلاّ لديك؟ يا لَغَباوتي أن أهربَ من النور لأمضيَ متَعثِّرةً دائمًا في مسيري! ما أشدَّ عجرفةَ ذاك التواضع الذي كان الشيطان يستحدِثه فيَّ بإبعادي عن هذا العمود وعن العصا التي تسندني فلا أسقطَ سقوطًا مريعًا! إنني، الآن، أرسمُ إشارةَ الصليب ولا أَحسَبُني تعرّضْتُ لخطرٍ أدهى من بدعة الشيطان هذه التي كان يعلِّمني إيّاها تحت ستار التواضع. كان يدسُّ في خاطري أنْ كيف يجوزُ لي، أنا الحقيرةَ، وقد غمرتْني المنن، أن ألجأ الى التأمل؛ يكفي أن أتلو، كسائر الراهبات، الصلوات المفروضة؛ وما دمت لا أقوم بهذه حقَّ القيام فكيف أطمح الى أكثر؟ فتصرُّفي إستخفافٌ بالله واستهانةٌ بأَنعامه.

كان جميلاً التفكُّر في هذه الأمور وفهمُها؛ أمّا الشرُّ الفظيع فكان وضعَها موضعَ التنفيذ. تباركتَ، أنتَ يا ربّ، لأنّكَ تداركْتَني.

العيش دون تأمل ضلال

١١. أعتقد أن الشيطان الغدّار بدأ يجرِّب يوضاس من هنا، لكنّه ما كان يجرؤُ على مهاجمتي جَهارًا، غير أنه كادَ أن يبلغ بي، شيئًا فشيئًا، الى حيث بلغ بيوضاس. فليعتبرْ هذا الأمر، حبًّا بالله، جميعُ الذين يتعاطَون التأمل. ليعلموا أنَّ الزمن الذي قضيتُه من دون تأمّل كانت حياتي في ضلالٍ ولا أكبر. فلينظروا أيَّ علاجٍ صالحٍ وأيَّ تواضعٍ طريفٍ كان ينصحني بهما الشيطان. كان اضطرابٌ كبيرٌ يتملَّكُني. ولكن، كيف كان لنفسي أن تحظى بالطُمأنينة؟ كانت التعيسةُ تبتعد عمّا يُطَمئِنُها. كانت المنن والأفضالُ ماثلةً في ذهني، وكانت مباهجُ الدنيا تُثير قَرَفي. ويَهُولُني كيف استطاعت الإحتمال. فالأمل كان يَحدوني، لأنني ما فكَّرتُ قطّ،

(على ما أذكرُ الآن ، فقد مضى على الأمر أكثرَ من إحدى وعشرين سنةً) بأن يَهونَ عزمي فلا أعودَ الى التأمل. لكني كنتُ آمل أن تكونَ نفسي بريئةً من الخطايا. آه! ما كان أشدَّ ضلالي وأنا أسير على هذا الأمل! كان الشيطان مستعدًّا لمحاربتي حتى يوم الدين، ليُودِيَ بي من ثَمَّ الى الجحيم.

إهمال التأمل درب الضلال

١٢. حين كنتُ أمارس التأمّلَ والقراءةَ الروحيّة، حيث أرى الحقائقَ والطريقَ السيِّئَ الذي أتّبع، وأُزعجُ الربَّ بدموعي مرارًا كثيرةً، كنتُ في حالٍ من التعاسة بحيث لا أقوى على الصمود؛ أما وأنا بعيدةٌ عن هذه الممارسات، منصرفةٌ الى التسليات، أصادفُ ظروفًا كثيرةً للسقوط ومساعداتٍ قليلةً، بل وأجرؤ أن أقولَ، لا ألقى مساعدةً إلاّ لتعينَني على السقوط، فكيف كان لي أن آملَ إلاَّ ما ذكرت؟

أعتقد أن راهبًا دومينيكيًّا، عالمًا كبيرًا، إستحقَّ فضلاً كبيرًا أمام الله لأنه، هو، أيقظني من هذا السُبات. فهو أوصاني، كما أظنُّني قد ذكرتُ، أنْ أتناوَلَ القربان كلّ خمسة عشر يومًا. فابتدأتُ، والحمدُ لله، أعودُ الى ذاتي وإن لم أنقطِعْ عن إغاظة الربّ. وبما أنني لم أكُنْ قد ضللتُ الطريق، فكنتُ أسيرُ فيه وئيدًا، أعثرُ ثم أنهض. ومن لا ينقطعُ عن السير والتقدُّم فإنه يصلُ ولو متأخِّرًا. ولا أرى سوى إهمال التأمل سبيلاً الى ضلال الطريق. نجّانا الله برحمته من هذا الضلال.

تحذير ونصح للضعفاء

١٣. يَتَّضح من هذا، ويُرجى أخذُ الأمرِ بعين الاعتبار حبًّا بالله، أنّ نفسًا، وإنْ غمرَها الله بمنن كبيرةٍ في التأمّل، يجب أن لا تَرْكُنَ الى ذاتها إذ قد تسقُط، وأن لا تُعَرِّض ذاتَها لظروفٍ خطرةٍ بأيِّ حال. فليُنْظَر الى الأمر بجِدِّيَّةٍ؛ إنه لخطير؛ فإن الخِدعة التي قد يَعتمدُها الشيطان فيمَا بعد، في هذا المجال، تقومُ بأن يستغلَّ هذا الغدّار النعمةَ عينَها ما استطاعَ الى ذلك سبيلاً. وإنَّ هذا لَتعليمٌ ممتازٌ لأشخاصٍ لم يَنموا بعدُ في الفضيلة، ولم يزاولوا التقشُّفَ والتجرّدَ (فليسوا بعدُ أقوياءَ كفايةً، كما

سأُوضِح لاحقًا، ليتعرّضوا للظروف والأخطار، مهما تكنْ رغباتُهم وعزائمُهم وطيدةً). وهو ليس تعليمًا صادرًا عني بل إنما يعلّمه الله. لذا أودُّ أن يعرفه أناسٌ جاهلون مثلي. فإنّ نفسًا، ولو كانت في هذه الحالة، يجب أن لا تثقَ بذاتِها لتنطلق الى القتال، بل يكفيها أن تَلزَمَ جانبَ الدفاع. فالحاجة ماسّةٌ هنا الى أسلحةٍ ليدافِعَ هؤلاءِ عن أنفسِهم ضدَّ الشياطين، وهم لا يملكون بعدُ قِوًى لينازلوهم ويدوسوهم بأقدامِهم، كما يفعل الذين هم في الحال التي سأتحدَّث عنها فيما بعد.

تحذير من الثقة المفرطة بالذات

١٤. هذه هي الخدعة التي يصطاد بها الشيطان: إذا وَجدتْ نفسٌ ذاتَها قريبةً جدًّا من الله، ورأتِ الفرقَ بين خيراتِ السماء وخيراتِ الأرض، والحبَّ الذي يُظهره لها الربّ، تولّدَ من هذا الحب ثقةٌ ويقينٌ بأنها لن تفقدَ ما تستمتع به. تحسبُ أنَّها ترى جزاءَها بوضوح، فيستحيلُ أن تتركَ شيئًا ممتعًا وعذبًا حتى في هذه الحياة، من أجل شيءٍ آخر دنيءٍ وقَذِرٍ كاللذّة. وبهذه الثقة ينزِع الشيطانُ منها الحذرَ الذي يجب أن تلزمه تجاه ذاتِها، فتتعرّض للمخاطر، كما قلتُ، وتبدأُ تُعطي من ثمارِها، بغيرةٍ كبيرة، من دون حساب، وهي تظنّ أن لا خوفَ عليها بعدُ من ذاتها. ولا تفعل هذا عن كبرياء؛ فالنفسُ تعلم حقَّ العلم أنّها لا تستطيع من ذاتها شيئًا، بل إنما تفعله لثقتِها المُفرطة بالله، اذ لا ترى أنها ما زالتْ ضعيفةَ الجَناح. تستطيع الخروج من العُشّ، ويُخرجها الله منه، لكنها ليست بعد مؤهَّلةً للطَيران، لأن فضائلَها ليست بعد راسخةً، ولا خبرةَ لديها لمعرفةِ المخاطر، ولا تدركُ الضررَ الذي تأتيه في اتّكالِها على ذاتها.

الثقة برحمة الله

١٥. هذا كان سببَ خرابي. ولهذا الأمر ولجميعِ الأمور ثمَّةَ حاجةٌ عظمى لمرشدٍ وللتعاطي مع أناسٍ روحانيين. أنا على يقينٍ من أن نفسًا بلغ بها الله الى هذه الحالة لا ينقطع عن مساعدتِها، ولا يدَعها تهلك إذا لم تتخلَّ، هي، كُليًّا عنه، جلّ

جلاله. لكن إذا عثرتْ، كما قلت، فلتَحْتَرِزْ، ولتَحْتَرِز، حبًّا بالله، من أن يخدعها الشيطان بحَمْلِها على ترك التأمّل، كما كان يفعلُ معي، تحت ستار تواضعٍ زائفٍ، وقد تحدَّثتُ عن هذا الموضوع وأودُّ أن أكرِّره مرارًا. فلتثقْ بجودة الله؛ إنها تفوق جميعَ الشرور التي يُمكننا اقترافُها؛ وهو يضرب صَفْحًا عن عُقوقنا عندما نعرف ذواتِنا فنودّ العودةَ الى صداقته، ولا يتذكّرُ المنن التي غمرنا بها ليعاقِبنا عليها؛ بل إن هذه المنن تدفعه لأن يعجِّل في العفو عنّا باعتبارنا كنّا من آل بيته وأكَلنا، كما يقال، من خبزِه. لِيتذكّروا كلامه[٥] ولْينظروا ما صنعَ معي؛ فقد تعبتُ من إهانته قبل أن ينقطع، جلّ جلاله، عن مسامحتي. إنه لا يتعب أبدًا من العطاء، ولا يمكن أن تنضبَ مراحمُه؛ فلا نَكِلَّنَّ نحن من قَبولها. تباركَ الى الأبد! آمين! ولتسبِّحْهُ جميعُ الخلائق!

(٥) اشارة الى كلام الله في الكتاب المقدّس حيث يرضى بتوبةِ الخاطئ ويَعِدُه بالغفران. **حزقيال ٣٣. ١١**: «**ليست مرضاتي بموتِ المنافق لكن بتوبةِ المنافق عن طريقه فيحيا**»؛ **متى ٩. ١٣**: «**ما جئت لأدعو الصالحين. بل الخاطئين**»؛ **لوقا ١٥**: مثل الخروف الضائع، والدرهم المفقود، والابن الضال، والوكيل الخائن.

الفصل العشرون

تبيِّن الفرق بين الإتحاد والإنخطاف. توضح ماهية الإنخطاف وتشير الى سعادة النفس في الوصول اليه بجودِ الله. تتحدَّث عن مفاعيل الإنخطاف. كلامٌ جديرٌ بإعجابٍ كبير[1]

الفرق بين الإتحاد والإنخطاف

١. أودّ لو أستطيع، بعون الله، أن أُبيِّن الفرق بين الإتحاد والإنخطاف، أو الإرتفاع، أو، كما يدعونه، تحليقِ الروح أو الإنجذاب، وكلّها تسمياتٌ لمدلولٍ واحد. أقول إن هذه الأسماء المختلفة تدلّ على معنًى واحدٍ يُقال له أيضًا الإنخطاف. والإنخطاف تُرَجِّحُ كِفَّته على الإتحاد. فهو يُحدِث مفاعيلَ أكبرَ بكثيرٍ ممّا يُحدِثه الإتحاد، كما يُحدِث عمليّاتٍ أخرى كثيرةً، لأن الإتحاد يبدو بدايةً وإستمرارًا ونهايةً ويكون داخليًّا؛ وبما أن نتائج الإنخطاف أرفع درجةً، فمفاعيلُه تظهرُ داخليًّا وخارجيًّا[2]. تنازَلَ الربُّ وشرحَ هذا الموضوع كما فعل في المواضيع الأخرى. ففي الحقيقة، لو لم يُفْهِمْني، جلَّ جلالهُ، بأيَّةِ طرائقَ وأساليبَ يمكن عرضُ شيءٍ منها، لما إستطعت الى ذلك سبيلاً.

(١) هذه العبارة الأخيرة مشطوبة في الأصل.

(٢) أشاد القدّيس يوحنا الصليبي بتعليم القدّيسة تريزا هذا. ففي تفسيره أناشيده تركَ مجالَ الحديث عن هذه المواضيع «للذين يَفضُلونه في شرحهم إيّاها، ولأن السعيدة تريزا ليسوع... تركتْ كتاباتٍ رائعةً في هذه الأمور الروحية» (نشيد أ ١٢، ٦ ونشيد ب ١٣، ٧).

الله يرفع النفس بقوّة لا تُقاوَم

٢. لنعتبر الآن أن هذا الماءَ الأخير الذي تَحدَّثنا عنه هو من الغزارة بحيث لو لم يكن الأمرُ مستحيلاً في الدنيا لأمكنَ الإعتقادُ أن غمامةَ العزَّةِ الإلٰهيّة تَصحَبُنا هنا على الأرض ؛ لكن عندما نشكره على حسن صنيعه العظيم هذا بأعمالٍ تلائِم طاقاتِنا ، فإن الربَّ يَجتذب النفسَ ، إذا جاز القولُ الآن ، كما تجتذِب الغيومُ أبخرةَ الأرض ، ويرفعُها كلَّها (هكذا سمعتُ أنّ الغيومَ أو الشمسَ تجتذِب الأبخرةَ فتعلو الغيمةُ الى السماء) ، ويحمِلُها معَه ويأخذُ يكشِفُ لها بعضَ أمورِ الملكوت الذي أَعدَّه لها. لا أدري إذا كانت المقارنةُ موفَّقة ، إلاّ أنّ هذا ما يَحدُثُ في الواقع حقًّا.

٣. في هذه الإنخطافات يبدو وكأنَّ النفس لا تبثُّ الحياةَ في الجسد ؛ وهكذا يُلاحَظُ بشكلٍ ملموسٍ نقصانُ الحرارة الطبيعيّةِ فيه ، ويَروحُ يدبُّ فيه البردُ ولو بعذوبةٍ ولذةٍ بالغتين. هنا لا سبيلَ الى المقاومة ؛ أما في الإتحاد ، لأننا نكون في طبيعتنا ، فيبقى هناك سبيلٌ للمقاومة وإن افترضَ ذلك عناءً وجهدًا. في هذه الإنخطافات ، لا مجالَ ، في أغلب الأحيان ، لأَيَّةِ مقاومة ، بل غالبًا ما يَحدُثُ إندفاعٌ سريعٌ وقويٌّ دون أن يُنَبِّهَ الفكرُ ودون أيَّةِ مساعدةٍ ، فترى وتشعرُ بهذه الغمامةِ ترتفع أو بهذا النسرِ المقتدرِ يحملُكَ على جناحيه.

وصف حالة الإنخطاف

٤. وأقول إنَّكَ تُدركُ ما يَحدث ، وترى ذاتكَ محمولاً ولا تَعرفُ إلى أين. ولَئِن شَعَرْنا بلذَّةٍ فإن ضَعف طبيعتِنا يَجعلنا خائفين في البدء ؛ فيَلزم أن تكونَ النفسُ مقدامةً ومُصَمِّمَةً ، أكثرَ ممّا يقتضي للحالات التي تَحدَّثتُ عنها ، لِتُخاطِرَ بكلِّ شيءٍ ، وَلْيحدثْ ما يَحدثْ ، ولِتَستسلِمَ بين يديّ الله ، ولِتذهبَ ، بطيبةِ خاطر ، الى حيث تُحمَلُ ، لأَنَّكَ تُحْمَلُ رُغمًا عنكَ. كان ذلك الإندفاع يبلغُ أقصى الشدّة فأَودُّ في أَغلبِ الأحيان ، أن أُقاومَ ، وأَتصدّى له بقواي كافةً ، خصوصًا ، في بعض الأحيان ، حين كان ذلك يحصُل أمام الآخرين ، وغالبًا ، حين كان يحصُل لي على إنفرادٍ مخافةَ الوقوع ضحيَّةَ الإنخداع. فكنتُ أستطيع بعضَ المقاومة أحيانًا. فتنهار

قِواي كمن يُصارع جبّارًا فأُمسي في خَوَر ؛ وكانت المقاومةُ مستحيلةً أحيانًا أخرى لأن العَصْف[٣] كان يحمل نفسي ، ورأسي في إثرها في الغالب ، تقريبًا ، فلا أتمكّن من الأخذ بزمامها وأحيانًا أخرى كان يَحملُ جسمي كلَّه حتى يرفعَه عن الأرض.

محاولة إخفاء الإنخطاف

٥. هذا قلّما حَدث. وحدثَ ذات يومٍ إذ كُنّا جميعًا في الخورس ، وكنت جاثيةً إستعدادًا للتناول ، فشعرتُ بحزنٍ عظيمٍ لأنّي كنت أرى الأمر خارقًا وقد يُحدِثُ حالاً ضَجَّةً بالغةً ؛ فأمرتُ الراهباتِ ألّا يتحدَّثْنَ بذلك (لأنه حصل لدى ممارستي وظيفتي كرئيسة). وأحيانًا أخرى ، ما إن كنتُ أشعر أنَّ الربَّ سيفعل الأمرَ نفسَه ، كنتُ أنبطِح على الأرض فتحيط الراهباتُ بي ليُمْسِكْنَ جسدي ؛ إلّا أنّ الظاهرة كانت تُلاحَظ. وقد حدثَ ذلك مرَّةً بحضور سيّداتٍ وجيهاتٍ في عيدِ شفيعِنا[٤] ، أثناء العِظة. توسَّلْتُ الى الربّ بإلحاحٍ أن لا يتفضَّل فيُغدِق عليَّ أنعامًا ذاتَ علاماتٍ خارجيةٍ ؛ فقد كنت تَعِبَةً من إجتهادي في اتّخاذ جانب الحَذَر ، كما أنّه ، جلّ جلاله ، كان يمكنه أن يَنفحني بهذه النعمة دون أن يَشْتَهِرَ أمرُها. ويبدو أنه تعطَّف بجوده فاستجاب توسُّلي ، إذ لم يحدثْ لي ذلك مذ ذاك حتى الآن ؛ والحقيقة أن العهدَ به قريب[٥].

قوّة الإنخطاف

٦. حين كنت أريد المقاومة كنت إخال أن قوًى هائلةً ، لا أدري بما أُشبِّهها ، كانت ترفعني من تحت قدميَّ بدفعٍ أشدّ عُنفًا ممّا يَحدث في الحالات الروحية

---

(٣) العَصْف : شدّة الاندفاع.

(٤) أي في عيد القديس يوسف ، لأن الحادثة التي ترويها القدّيسة حصلت على الأرجح في دير القدّيس يوسف في آڤيلا.

(٥) كتبت هذا في أواخر سنة ١٥٦٥. وقد حصلت لها إنخطافات فيما بعد .(أنظر مثلاً **التقارير** ١٥ و ٣٥...).

الأخرى، وكنت أراني بعدها محطّمةً تحطيمًا؛ فالصراع شديدٌ ولا يُجدي نفعًا في مواجهة إرادة الربّ، إذ لا قدرةَ تستطيع أن تجابه قدرتَه. ويتنازلُ أحيانًا أخرى فيكتفي بأن يَدَعَنا نرى أنه يريد أن يمنحنا هذه النعمة، وأن إنقطاعها عنّا ليس سببُه هو، عزّ وجلّ، وإذا قاومناها بتواضعٍ فإنها تُحدِثُ المفاعيلَ التي تُحدِثُها فيما لو قبلناها طوعًا.

مفاعيل الإنخطاف

المفعول الأول : ظهور قدرة الرب العظيمة

٧. أما مفاعيل هذا الانخطاف فكثيرة: **أوّلها ظهورُ قدرة الربّ العظيمة** وكيف أننا لا نستطيع، عندما يريد الربّ، أن نسيطرَ، ولو قليلاً، على جسدِنا أو نفسنا، وأننا لسنا أسيادَ ذواتِنا، بل، على الرغْم منّا، نرى أنّ هناك سيّدًا أعلى وهو يعطي هذه المنن ونحن لا نستطيع في أيِّ أمرٍ شيئًا، فينطبع فينا تواضعٌ عميق. وإني لأعترف أنَّ ذلك حرّك فيّ خوفًا كبيرًا، بل رهيبًا في البدء، فإنه حين يُرى جسدٌ يرتفع هكذا عن الأرض، ولو أنَّ الروحَ يَجرُّه وراءه وبعذوبةٍ كبرى، فإذا لم يقاوِم لا يفقِدُ وعيَه. لقد كنتُ، أنا، على الأقل، مالكةً وعيي بقَدْرٍ أمكنني أن أعرف أنني رُفِعْتُ عن الأرض. والقادرُ على فعلِ هذه الظاهرة يَظْهَرُ في جلالٍ ينتصب الشَعرُ لمرآه، ويستحوذُ علينا خوفٌ عظيمٌ من إهانتنا إلهًا كهذا عظيمًا، خوفٌ مغلّفٌ بحبٍّ كبير يتجدَّد فينا نحو من نراه يُحبُّ بهذا القَدْرِ دودةً نَتِنَةً، فكأنه لا يكتفي بأن يجذِبَ اليه النفسَ هذا الجذبَ الحقيقي، بل يريدُ الجسدَ أيضًا على كونهِ فانيًا ومكوَّنًا من ترابٍ صار، لكثرة الإهانات، غايةً في القذارة.

المفعول الثاني : تجرّد

٨. وتترك هذه الظاهرة **تجرّدًا عجيبًا** لا أستطيع وصفه. أعتقد أنني أستطيع القول إنه مختلفٌ نوعًا ما، بل أقول، متميّزٌ عنه في الحالات الروحية البحتة. فإنه وإن كان الروح في الحالات الروحية متجرِّدًا تجرُّدًا تامًّا عن الأشياء، فكأن الربّ يريد هنا

أن يمارسَ الجسدُ نفسُه التجرُّدَ ، فيُصبح عن أمور الأرض في غرابةٍ لم تُعهَد من قبلُ ، وتصيرُ الحياةُ شديدةَ العناء.

المفعول الثالث : عناء شديد

٩. ثم نشعر **بعناءٍ** لا نستطيع أن نجتلِيَه ، أو أن نتخلَّص منه حين يستبدُّ بنا. أودّ أن أوضح هذا **العناء الشديد** ، وأظنّني لن أستطيع ، ومع هذا سأقول شيئًا إذا تيسَّر لي. وتجدرُ الإشارة الى أن هذه الأمورَ حديثةُ العهد ، فقد حصلتْ بعد جميع الرؤى والمكاشفات التي سأُدوِّنها ، وبعد الفترة التي إعتدتُ فيها ممارسةَ التأمّل حين كان الربّ يمنحني لذائذَ ومباهجَ وفيرةً جدًّا. أما الآن، وإن لم تنقطعْ هذه [اللذائذُ والمباهجُ] بعضَ الأحيان ، فيرافقُها ، أغلبَ الأحيان وعادةً ، هذا العناءُ الذي سأتحدَّث عنه. فهو شديدٌ أو خفيفٌ. وأودّ الآن أن أتحدَّث عنه حين يكون شديدًا، لأن هذا العناء [الشديد] – وإن كنت سأتحدّث فيما بعد عن هذه الإندفاعات الكبيرة التي كانت تنتابُني عندما أراد الربّ أن يؤتِيَني الإنخطافات – يختلفُ تمامًا عن [الخفيف] إختلافَ شيءٍ جسديٍّ جدًّا عن آخرَ روحيٍّ جدًّا ، ولا أظنُّني أبالغ في الأمر كثيرًا. أمّا ذاك العناء [الخفيف والذي تُحدِثُه الإندفاعات] ، [(٥ مكرر)] ، وإن شعَرتْ به النفسُ ، فبِصُحبةِ الجسد تَشعُرُ به ، فكأنَّ الإثنينِ يشتركان فيه معًا ؛ ولكن لا يَصحبُه شعورٌ بالخِذلان البالغ كما في هذا العناء [الشديد]. فنحن ، كما قلت ، لا سهمَ لنا فيه ، بل غالبًا ما تأخذنا فجءَةً رغبةٌ لا أدري كيف تتحرَّك. وتَنفذُ هذه الرغبةُ في لحظةٍ الى النفس كلِّها فتبدأ تشعر بإرهاقٍ شديدٍ يرفعها فوق ذاتِها وفوق سائر المخلوقات ، ويُبقيها اللهُ خاليةً من كل شيء بحيث لا تجدُ على الأرض خليقةً تَنعَمُ بصُحبتها مهما بذلتْ في سبيل ذلك من جهدٍ ، ولا تُريدُ ، هي ، تلك الصحبةَ ولا شيئًا آخر سوى أن تموتَ في تلك الوحدة. عبثًا يحاول أحدٌ مخاطبَتَها ، وعبثًا تبذل ، هي ، أقصى جهدٍ للكلام ؛ فإنَّ روحَها ، مهما حاولتْ ، لا ينعتِقُ من تلك الوحدة. ومع أنّني أتصوّر الله عندئذٍ بعيدًا عنها كلَّ البعد ، فإنه يكشف لها أحيانًا عظائمه بأغرب طريقةٍ يمكن

---

(٥) مكرّر: هذا المقطع غامض جدًّا في الأصل الإسباني ، وقد اضطررنا ، منعًا للإلتباس ، الى اضافة العبارات الموضوعة بين قوسين مُركَّنين ، كما درجنا في سائر الكتاب.

تصوُّرُها ، فيستحيل بالتالي وصفُها ؛ ولا أظنُّ أحدًا يصدِّق ذلك أو يَفهمه إلاّ أن يكون خَبَرَه . فهذا الإتصال لا يُقصَدُ به توفيرُ تعزيةٍ للنفس بل أن يَبِينَ لها أنها على حقٍّ في معاناتِها لبُعدها عن خيرٍ يحوي في ذاته كلَّ خير.

المفعول الرابع : شعور بالوحدة

١٠. هذا الإتّصال يُنَمّي الشوقَ وأقصى **شعورٍ بالوحدة** تجدُ النفس ذاتَها فيها ؛ ويتملّك النفسَ عناءٌ شديدُ الدقّة والنفاذِ بحيث يُمكنها ، في رأيي ، على كونها مطروحةً في هذه الصحراء ، أن تُردِّد هذه الآيةَ بحذافيرها ، (ولعلّ الملكَ النبيَّ قالَها حين كان فريسةَ الوحدة مثلَها ، على أنه لكونه قدّيسًا جعلَه الله يشعر بهذا العناء شعورًا بالغًا) : «**سَهِرتُ وكنتُ كالعصفورِ المنفردِ على السَطح**»[٦] . وعندما ينتابُني الشعور بالوحدة أتذكَّرُ هذه الآيةَ وإخالها تُصوِّرُ حالي ، ويُعزّيني أن أرى آخرين ، خصوصًا مثل النبيِّ داود ، كابدوا الوحدةَ في أشدِّ قساوتِها . وهكذا ، فكأن النفسَ ليست في ذاتِها بل على سطحِها أو سقفِها وسقفِ جميع المخلوقات ؛ بل إني إخالها أعلى من أسمى ما في النفس.

المفعول الخامس : شقاءٌ شديد

١١. وتبدو النفس أحيانًا أخرى وكأنها واقعةٌ في **شقاءٍ شديدٍ** تقول لذاتِها وتسائلُها : «**أين إلٰهُكِ؟**»[٧] . وتجدر الإشارةُ الى أنني ما كنت أَفقه جيِّدًا معنى هذه الآيات باللغة الرومنسية ، ولكن بعد أن صرتُ أفهمه راح يُعزّيني أن أرى الربَّ يُورده الى ذاكرتي دون أن أبذلَ ، أنا ، جهدًا . وكنت أتذكَّر أحيانًا أخرى كلامَ القديس بولس الذي «**صار مَصلوبًا بالنسبة الى العالم**»[٨] . لا أقول إن هذا هو حالي ، فإني أراه واضحًا ؛ لكن إخالُ النفسَ في حالٍ لا يأتيها فيها عزاءٌ من السماء وهي لا تسكُنها بعدُ ، ولا تريد عزاءً من الأرض وهي ليست فيها ، بل كأنها مصلوبةٌ بين السماء والأرض ، تتعذّب ولا تَلقى مساعدةً من أيِّ جهة . فالمساعدة التي تأتيها من السماء

---

(٦) مزمور ١٠١ ، ٨.

(٧) مزمور ٤١ ، ٤ .

(٨) غلاطية ٦. ١٤ .

(وهي ، كما قلت ، إشعارٌ من الله عجيبٌ يفوق كلَّ ما نستطيع أن نتمنّى) ، إنما تَزيدها إضطرابًا ، لأنها تنمّي توقَها بحيث إن العناءَ الشديد ، في إعتقادي ، يعطِّلُ الشعورَ أحيانًا لكن لوقتٍ وجيز . كأنها أهوالُ الموت ، غير أن هذه المعاناةَ يَصْحَبُها سرورٌ كبيرٌ لا أدري بما أُشبِّهه . إنه لاستشهادٌ مرهِقٌ عذبٌ ؛ فكلّ ما يمكن أن يُقدَّمَ للنفس من الأرض ، ولو كان مما اعتادت أن تراه الأكثرَ عذوبةً ، ترفُضُه ؛ بل كأنها تُبعِده عنها فورًا . فهي تدرك تمامَ الإدراك أنها لا تريد سوى إلٰهها ؛ لكنها لا تحبُّ شيئًا خاصًّا منه ، بل تَوَدُّه كلَّه ولا تعرف ما تريد . أقول : «لا تعرف» لأن المخيّلة لا تصوِّر لها شيئًا ؛ وفي رأيي ، إن القوى تتعطّل فترةً طويلةً والنفس على هذه الحالة . وكما أنَّ التمتّع يعطِّلها أثناء الإتحاد والذهول ، فالعناء هنا يُوقفها عن العمل .

ألم لاحق

١٢. آه ، يا يسوع ! كم أتمنَّى لو أستطيع أن أبيِّنَ لكَ ، أبتِ[٩] ، هذا الأمر ، أقلَّه كي تفسِّره لي ، لأن نفسي مستمرَّةٌ الآن في هذه الحال ، في أغلب الأحيان ، حين تفرغ من المشاغل ، تُداخِلُها هذه الأشواق الى الموت ؛ ويأخذها الخوف ، حين تبدأ هذه الأشواق ، لأنها لن تموت . لكنّها في غمرة هذه الحال تتمنّى أن تقضي في هذا العذاب ما بقي لها من الحياة ؛ والأمر من الشدَّة بحيث يصعب على جسدنا إحتمالُه . ويكاد نبضي ينقطع إنقطاعًا تامًّا ، على ما تقول بعض الأخوات ممّن يقتربن منّي أحيانًا ويَفْهمنَ حالتي فهمًا جيِّدًا ، وينفرجُ ساقاي وذراعاي ، وتَجمَدُ يداي فلا أستطيع أحيانًا جَمعَها . وهكذا يتملَّكُني ألمٌ حتى اليوم التالي في مِعصمَيَّ وفي جسدي فكأنني مقطَّعةُ الأوصال .

رغبة في الموت

١٣. أفكِّر أحيانًا مليًّا لو تكرّم الله فاستمرَّ هذا العناءُ مثله الآن فينتهي بانتهاء

---

(٩) الأب غارثيا دي توليدو.

حياتي ؛ لأني أرى هذا العذاب من الشدّة بحيث يكفي لذلك ، لكنني لست لأَستحقَّه. إن شوقي ، كلَّ شوقي ، أن أموت آنذاك. فلا أتذكَّر المطهر ولا الخطايا الجسيمة التي إرتكبتُ وعليها كنت أَستحقّ الجحيم. مع ذلك الشوق لرؤية الله ، كنت أنسى كلَّ شيء ، وترى نفسي هذه الصحراء ، وهذه الوحدةَ ، خيرًا من صُحبة الدنيا كلِّها . وإذا كان ثمَّة ما يعزّي النفس فهو التذاكرُ مع من يكون قد عانى هذا الألم المبرِّح ، واعتبارُها أنها ، ولو تشكّتْ منه ، لا يبدو أنّ أحدًا سيُصدِّقها .

رغبة في صحبة آخرين

١٤. ويعذِّبها أيضًا أن هذا العناء يفوق الحدّ فلا تريد الوحدة مثلها في أحيانٍ أخرى ، ولا ترغب إلاّ في صحبة من تستطيع أن تبثّه شكواها . فمثلها مثل من أخذه الحبل بحلقه ، وهو يختنق ، فيحاول إستعادةَ تنفّسه . وهكذا أرى أن هذه الرغبة في الصحبة ناجمةٌ عن ضعفنا ؛ ولمَّا كان العناء يَضعنا في خطر الموت ، (وإنه يُضعِفنا بالتأكيد ، وقد وجدتُني في هذا الخطر أحيانًا أثناء مرضي الخطير ، وظروفٍ أخرى تحدَّثتُ عنها ؛ وبوسعي القول ، على ما أعتقد ، إن هذا الخطرَ كبيرٌ مثله في تلك الحال) ، هكذا ، فان رغبةَ الجسد والنفس في عدم الإنفصال هي التي تطلب النجدة ليستعيدَ الجسدُ أنفاسَه ، وبإعلانه ذلك وتشكِّيه وتلهِّيه يَبحثُ عن وسيلةٍ كي يعيشَ رغم إرادةِ الروح ، أو القسمِ الأسمى من النفس ، الذي لا يريد التحرُّرَ من هذا العناء .

عناء أفضل من المباهج

١٥. لا أدري إن كنت أصيبُ في قولي أو أُحسنُ التعبيرَ ، لكن في يقيني أنّ الأمر يجري على هذا النحو . فانظر ، أبتِ ، أيّ راحةٍ يمكنني الحصول عليها في هذه الحياة ؛ فتلك التي كنت أنعم بها في الصلاة والوحدة ، حيث كان الربّ يعزِّيني ، تحوّلتْ الى همٍّ مألوف ، لكنَّه بالغُ العذوبة ، وتُقدِّره النفسُ أيَّ تقدير بحيث تُفضِّله على جميع المباهج التي إعتادت الحصولَ عليها . ترى فيه آمَنَ طريقٍ لأنه طريقُ

الصليب، ولأن له، بذاته، فيما أرى، طعمًا رفيعَ القدْر؛ لأن النفس لا تُشرِكُ الجسد إلّا في العناء، أمّا هي فتتألّم وتستمتِع وحدَها باللذّة والسرور اللذين يسبّبهما هذا الألم. لا أدري كيف يَحدث هذا، لكنَّ الأمرَ كذلك، وأظنني لا استبدل هذه النعمة التي يعطينيها الربّ (وهي في الحقيقة من عطائه ولا أكتسبها إطلاقًا، كما قلت، لأنها فائقةُ الطبيعة إطلاقًا) بجميعِ الأنعام التي أتحدّث عنها فيما بعد؛ لا أقول أستبدلها بكل النعمِ مجموعةً، بل بكل واحدةٍ منها منفردةً. ولا يَغيبَنَّ عن البال أنّ هذا الفضلَ إنما نَعِمتُ به بعد كلِ الأفضال التي ذكرتُ في هذا الكتاب، وهي الحالةُ التي جعَلَني الربّ فيها الآن.

عناء مُطهِّر

١٦. وإذ كنتُ في البدءِ فريسةَ الخشية (كما يحدث لي عند كل نعمة يَنفحُني بها الربّ الى أن يحلوَ له، جلّ جلاله، فيُطمئِنني)، قال لي أنْ لا أخافَ وأن أُقدِّرَ هذه النعمةَ أكثرَ من جميع التي كان قد منحني؛ فهذا العناءُ يُطهِّر النفس، فتُصاغ وتُنَقَّى كالذهب في البوتقة ليتمكَّنَ من تنزيل عطاياه فينا بصورةٍ أفضل، وبه يُكَفَّرُ عمّا قد يكون عليها من عذابٍ في المطهر.

لقد كنت أدركُ تمام الإدراك أن ذلك نعمةٌ كبرى، لكن بهذا غمرتْني الطمأنينة، ويقول معرّفي إنه لأمرٌ صالح. ومع أن الخوف إنتابني لشدّة حقارتي، فما كنتُ أستطيع الاعتقاد أبدًا أنه شرّ؛ بل بالأحرى إن دفقَ الخير كان يخيفني إذ أتذكَّر ما كان أقلّ إستحقاقي له. تبارك الربّ الكّلي الجودة. آمين.

تأثير الإنخطاف على الجسد

١٧. يُخيَّلُ إليَّ أنني خرجتُ عن الموضوع لأنني بدأت أتحدّث عن الإنخطافات، وما تكلَّمتُ عنه إنّما يفوق الانخطاف فيُحدث المفاعيلَ التي ذكرت.

١٨. لنعد الآن الى الإنخطاف وما يَحصُل فيه عادةً. كثيرًا ما كان يتراءى لي أن جسدي يخفّ حتى يفارقني ثِقلُه كلُّه، وحتى ما كنت أعرف أحيانًا إذا كانت

رجلاي تلامسان الأرض. فالجسد، في حالة الانخطاف، يكون وكأنه ميت لا يستطيع، أحيانًا كثيرة، شيئًا من ذاته؛ ويبقى في الحال التي يدركه فيها الإنخطاف: أكان واقفًا، أم جالسًا، أم كانت يداه مفتوحتين أم مُطبقتين. وان كان الوعيُ نادرًا ما يُفقَد، فقد حدث لي أن فقدتُه فقدانًا تامًّا مراتٍ قليلةً ولفترةٍ وجيزة. أما العادة فأن يحصُلَ إضطرابُ الحواس؛ ولئن كانت النفسُ تعجزِ عن إتيان عملٍ خارجيٍّ من ذاتِها، فهي لا تُعدَم إدراكَ شيءٍ أو سماعَه كأنه بعيدٌ عنها. لا أقول إنها تدرك وتسمع حين تكون في ذروة الإنخطاف (وأعني بالذروة حين تتعطَّل القوى بسبب إتحادها الحميم بالله) لأنها عندئذٍ، في اعتقادي، لا ترى، ولا تسمع، ولا تحسّ. وتَحَوُّلُ النفس كلِّها هذا الى الله يدوم قليلاً، كما ذكرتُ في كلامي سابقًا على تأمّل الإتحاد؛ لكنه ما دام مستمرًّا فلا قوّة تشعر أو تعرف ما يجري. ربّما لا يجب أن نعرف ما يحدث ما دُمنا على الأرض؛ أقلّه إن الله لا يريد، لأننا قد لا نكون أهلاً لفهمه. لقد تبيَّنتُ ذلك بنفسي.

سبب دوام الإنخطاف

١٩. قد تسألني حضرتُك: وكيف يدوم الانخطاف أحيانًا، وأحيانًا كثيرةً، ساعاتٍ طويلةً. ان ما يحدث لي، كما ذكرت في كلامي على التأمّل السابق، هو أن النفس تتمتَّع في فتراتٍ متقطِّعة. فكثيرًا ما تستغرق النفسُ في الله أو، بتعبيرٍ أصحّ، إن الله يَستغرقُها في ذاتِه، وإذ يحفظُها هكذا لحظاتٍ، لا تبقى لها إلَّا الإرادة. كأني باضطرابِ تَيْنِكَ القوّتين الأُخرَيين كاضطرابِ لُسَيِّن ساعةِ الشمس الذي لا يتوقَّف أبدًا؛ لكن عندما تريدُ شمسُ العدالة، فإنها تُوقفها. أقول إن هذا[١٠] يحدثُ فترةً وجيزةً؛ لكن إذا كان الإندفاعُ وارتفاعُ الروح قويَّين، فإن الإرادةَ، وإن عادت تانِكَ الى الإضطراب، تبقى مستغرقةً في الله؛ وتُحدِث الإرادةُ تلك العمليّة[١١] في الجسد لكونها سيِّدةَ الجسد كلِّه. فما دامت القوّتان الأخريان المضطربتان تريدان

(١٠) أي توقّف القوتين.
(١١) أي توقّف حركات الجسد وخفّته لدى ارتفاعه الذي تحدّثت عنه في رقم ١٨.

إعاقتها – وخيرٌ أن يَقلّ عددُ الأعداء ما أمكن – ، فتعمل على ألاّ تعرقِلها الحواس أيضًا. وهكذا تعمل على تعطيلها لأن هذا ما يريده الربّ. وأغلب الوقت تكون العينان مُغمضتَين وان لم نُرِد إغماضهما ؛ وان بقيتا مفتوحتَين حينًا ، كما قلت ، فالنفسُ لا تُصيب ولا تلاحظ ما ترى.

٢٠. فما نستطيع فعلَه بذاتنا ، هنا ، أقلُ بكثيرٍ من قبل ، حتى إذا عادت القوتان لتجتمعا لا يبقى أمامها عملٌ كبير. فمن آتاه الربّ هذه النعمة ، فلا يَغتمنَّ حين يرى جسدَه موثقًا ساعاتٍ عديدةً ، والعقلَ والذاكرةَ تائهتين أحيانًا. الحقيقة أنهما عادةً غائصان في تسبيح الله أو في محاولتهما فهمَ ما حصل لهما وإدراكَه. وحتى لهذا الأمر لا تراهما في يقظةٍ تامةٍ ، بل كأنهما انسانٌ نام طويلاً وحلِم كثيرًا ولمّا يستيقظْ بعد.

مَن خَبِر فَهِمَ

٢١. أَسترسِلُ في هذا الموضوع لعلمي أن ثمَّة الآن ، في هذا المكان[١٢] بالذات ، أناسًا يتكرَّم الربّ عليهم بهذه الأنعام ؛ وإذا لم يكن مرشدوهم قد خَبِروا الأمر بأنفسهم فلعلَّهم يتصوَّرون أنَّ هؤلاء يجب أن يكونوا كأمواتٍ في الإنخطاف ، خصوصًا إذا لم يكن المرشدون من ذوي العلم. ويثير الحسرةَ ما نَتحمّله من المعرّفين الذين لا يفقهون الأمر ، كما سأبيِّن ذلك فيمَا بعد. لعلّي لا أدري ما أقول ، أما حضرتكَ فتدركُ إذا أصبتُ في شيء ، لأن الربّ أعطاك هذا الاختبار ولو انّك ، لِقصَر المدة ، قد لا تكون لاحظتَ الأمر بتدقيقٍ مثلي.

تأثير الانخطاف على الجسد : صحَّة وغيبوبة

هكذا إذًا. مهما أبذل من جهدٍ ، فإن الجسد يفتقد القوَّة فترةً طويلةً كي يستطيع التحرّك ، فإن النفس حملت جميع القوى معها. والجسد الذي كان مريضًا

---

(١٢) مدينة آڤيلا.

وقد أنهكتْه الآلام ، غالبًا ما يستعيد الصحَّة ويصير أكثرَ كفاءَةً للعمل ، لأن النعمةَ التي تُعطى في هذه الحال عظيمةٌ ، والربّ يريد أحيانًا ، كما قلت ، أن يستمتعَ بها الجسد لأنه يَخضع لمشيئة النفس. وبعد أن تعودَ النفس الى ذاتِها ، إذا كان الانخطاف شديدًا ، يحدث ان تَظَلَّ القِوى يومًا ، بل يومين ، وحتى ثلاثة أيام ، ذاهلةً والنفس ساهيةٌ كأنها لا تملك زِمامَ أمرها.

عودة الوعي : التماس إرادة الله

٢٢. هنا تشعر النفس بالغمّ من عودتِها الى الحياة ؛ هنا نما جناحاها لتُحسن الطيران ؛ لقد سقط الزَغَب(١٣) . هنا ترتفع عاليًا الرايةُ من أجل المسيح ، فكأنما قائد هذه القلعة يَصعَد أو يُصعدونه الى أعلى برجٍ لينصُب راية الله. وتنظر النفسُ الى من هم في الأسفل كأنها في مكانٍ أمين. لا تخشى المخاطرَ بعدُ ، بل ترغبُ فيها كمن أُعطي تأكيدًا ، بشكلٍ ما ، بانتصاره. هنا تتبيّن بوضوحٍ كم يجب أن تعتبرَ أشياءَ الأرض كلَّها حقيرةً وكأنها لا شيء ؛ فمن ينظر من علٍ يرَ أشياءَ كثيرةً. لا تريد بعدُ أن تريد ، ولا تتمنّى إمتلاكَ حريّة الاختيار ؛ وتبتهل الى الربّ أن يستجيبَ رغبتها ؛ وتُسلِّمه مفاتيحَ إرادتها.

ها هوذا البستاني قد صار قائدًا. لا تريد النفسُ أن تعمل إلّا إرادةَ الربّ ، ولا أن تكون سيّدةَ نفسِها أو سيّدة أي شيءٍ ولو تفاحةٍ في هذا البستان ، بل تودّ ، إذا كان ثمة شيءٌ في البستان صالحٌ ، أن يوزِّعه ، جلّ جلاله. فمن الآن وصاعدًا لا تريد شيئًا خاصًّا بها ، بل أن يعمل اللهُ كلَّ شيء بما يوافِق مجده وإرادته.

المفاعيل السابقة دليل صحة الإنخطافات

٢٣. هذا كلُّه يَحدث في الواقع إذا كانت الانخطافات حقيقيةً فتكسِب النفس المفاعيلَ والفائدةَ التي ذكرتُ. فإذا لم تحصُلْ تلك المفاعيلُ والفائدةُ أشكُّ

---

(١٣) الزَغَب : صِغارُ الشعر والريش ، أو أولُ ما يبدو منهما.

كثيرًا في أن تكونَ الإنخطافاتُ من لدن الله ، بل أخشى أن تكون مسَّ الجنون الذي يتحدَّث عنه القديس ڤيثنتي[١٤] . ما أعرفه وما لاحظتُه بالاختبار أن النفس ، في ساعةٍ ، بل وفي أقلّ من ساعةٍ ، تصير سيّدةً على المخلوقات جميعًا وحرَّةً بحيث لا تعود تعرف ذاتها . ترى جيّدًا أن هذا ليس من عندها ، ولا تعرف كيف تيَسَّر لها هذا الخيرُ العظيم ، لكنها تدركُ بوضوحٍ الفائدةَ الكبرى التي يوفِّرها لها كلُّ إختطاف . وليس ثَمَّة مَنْ يصدِّق الأمر إلاّ إذا خَبِرَه ؛ وهكذا لا يصدِّقون النفسَ المسكينة التي عرفوها بائسةً ويرونها تدّعي ، فجأةً ، أعمالاً بطوليّةً ، لأنّها لا تكتفي بعدئذٍ بأن تخدمَ الربّ بالقليل ، بل بأقصى ما تستطيع ، فيظنّون ذلك تجربةً وحماقةً . فلو عرفوا أنَّ ذلك الادّعاء ، لا يصدرُ عنها بل هو من الربّ الذي سلَّمته مفاتيحَ إرادتها ، لما أخذهم العَجَب .

طيران الروح

٢٤. في يقيني أن نفسًا تبلغ هذه الحالة لا تعود تتكلَّم أو تفعل شيئًا من تِلقاء ذاتها ، بل إن هذا الملكَ المطلقَ يهتمّ بكل ما عليها أن تعمله. عفوك أللهمّ ! ما أجلى ما يُدْرَكُ معنى الآيةِ هنا ، وبأيِّ سهولةٍ يُفهَمُ أن داودَ كان على حقٍّ وأن الجميعَ يُصيبون في طلبهم « **جناحي حمامة** »[١٥] ! يُفْهَمُ بوضوحٍ أنّ ما يفعله الروح إنما هو طَيرانٌ ليرتفعَ فوق المخلوقات جميعِها وفوقَ ذاتِه أولاً ؛ لكنه طيرانٌ عذب ، طيرانٌ ممتع ، طَيرانٌ لا صخب فيه .

إندفاعٌ جديد وغيرة

٢٥. ما أروع سلطانَ نفسٍ يبلغ بها الربّ الى هذه الحال فترى كلَّ شيءٍ دون أن تتورّط بشيء ! ما أشدّ أَسفَها على زمنٍ كانت فيه متورِّطَةً ! يا لَدهشتَها من عماها ! كم تتألّم لمن عميتْ بصيرتُهم ، خصوصًا من يمارسون التأمل وينفحُهم الله بمباهجه !

(١٤) القدّيس ڤيثنتي فرّير Vicente Ferrer (١٣٥٠ – ١٤١٩) وقد كتب في تصنيفه **مقالة في الحياة الروحية** محذِّرًا من الإنجذابات والإنخطافات لكون أكثرها يأتي من المسيح الدجّال.

(١٥) مزمور ٥٤ ، ٧.

لَتَودُّ تلك النفس أن ترفع الصوتَ لتُبيِّنَ في أيّ ضلالٍ يهيمون ؛ بل ترفعه أحيانًا فينصَبُّ على رأسِها الفُ اضطهاد. يعتبرونها قليلةَ التواضع ، وتريد أن تعلّم من عليها ان تتعلَّم منه ، خصوصًا إذا كانت امرأة. فيَدينونها ، وبحقّ ، لأنّهم يجهلون الإندفاع الذي يحرِّكُها والذي تعجزِ عن كبحِهِ أحيانًا ، كما لا تطيق أن لا تُنقذ من الضلال من تُحِبُّهم حبًّا جمًّا ، وتتمنَّى أن تراهم وقد تحرّروا من هذا السجن ، من هذه الحياة ، فما كانت حياتُها ، ولا كانت ترى فيها ، ما دونَ السجن.

إكتشاف الشرف الحقيقي

٢٦. تأسف لزمنٍ إهتمّت فيه بمسائلِ الشرف ، ولضلالِها في حُسبانها شرفًا ما كان العالم يدعوه شرفًا ؛ وترى أن ذلك كذبةٌ كبرى وأننا كلّنا منقادون لها. تعرف أن الشرف الحقيقي منزهٌ ، عن الكذب ، وأنه صادق ، فتقدِّر ما هو خليقٌ بالتقدير ، وتعتبر لا شيء ما ليس بشيء ؛ فإنما هو عدمٌ دون العدم كلُّ ما يزول وما لا يُرضي الله.

كل الخير في إزدراء المال

٢٧. تسخر من ذاتِها حين كانت تَعتبر المالَ وتشتهيه ؛ على أني ، فيما أعتقد ، واعتقادي حقّ ، ما اعترفتُ بذنْبٍ من هذا القبيل ، لكنّ اعتباري المالَ كان يشكِّل ذنْبًا جسيمًا. لو استطعتُ أن أشْتريَ بالمال الخيرَ الذي أراه فيّ الآن ، لكنتُ اعتبرت المالَ أيَّ اعتبار ؛ بل إن هذا الخير يُكسَبُ بالتخلّي عن كلِّ شيء. ما تُراه يُشترى بالمال الذي نشتهيه؟ أهو شيءٌ ثمين؟ أهو شيءٌ يدوم؟ ولماذا نرغب فيه؟ ما أسوأَها راحةً نسعى إليها تكلِّف غاليًا جدًّا ! غالبًا ما نحصل بالمال على الجحيم ونشتري نارًا دائمةً وعذابًا مقيمًا. أوّاه ، لو أنّ الجميعَ يعتبرون المال ترابًا لا فائدةَ منه. فيا لَلوفاق يسودُ العالم ! وما أسهلَ ما تزول المتاعب ! ما أروعَ ما تكون الصداقةُ يعامِل الناسُ بها بعضُهم بعضًا ، إذا انتفتْ من بينِهم شهوةُ الجاه والمال ! يقيني أنّ في ذلك علاجًا لكلِّ شيء.

شمس العدالة تكشف شوائب النفس

٢٨. وترى النفسُ أن الملذّاتِ تولِّد لها عمًى مطبقًا، وأنها بها تشتري مشقَّةً وهَلَعًا، حتى في هذه الحياة. يا له من قلقٍ شديد! يا له من سرورٍ يسير! يا له من جَهدٍ باطل! في هذه الحال التي بلغَتْها لا ترى في ذاتِها العنكبوتَ والأخطاءَ الكبيرةَ فحسب بل ترى حتى أدنى ذَرَّةٍ من الغبار، لأن الشمس فيها وضَّاءةٌ. وهكذا، مهما بذلتْ من جهدٍ لتبلغَ الكمال، فإذا غمرتْها هذه الشمس حقًّا، رأتْ ذاتَها في كَدَرٍ مطبق. مثلها مثل الماء في إناء: إذا لم تنعكسْ عليه الشمس بدا رائعَ الصفاء، وإذا انعكستْ عليه ظهرَ مليئًا بالشوائب. وهذا التشبيه دقيقٌ كلّ الدقّة. قبل أن تبلغَ النفسُ حال الإنخطاف، تخال ذاتَها حريصةً على أن لا تهينَ الله، وأنّها تعمل وُسعها في هذا السبيل؛ لكنّها حين تصل الى هذه الحال، وتُشرقُ عليها شمسُ العدالة فتجعلها تفتحُ عينيها، ترى كثرةَ الشوائب، فتودُّ إطباقَها من جديد. إنها لم تَصِرْ بعدُ إبنَةَ ذلك النسرِ المهيب لتستطيعَ أن تُمعن في التحديق بهذه الشمس. على أنها لو فتحتْ عينيها لحظةً فقط لَرأت ذاتَها كلَّها في كَدَر، فتتذكّر الآية القائلة: «**من تُراه بارًّا أمامك؟**»[١٦].

٢٩. عندما تنظر النفسُ هذه الشمسَ الإلٰهية، يَبهَرُها ضياؤُها؛ وعندما تنظر الى ذاتِها، يغطِّي الوحلُ عينيها، فتَعمى هذه الحمامةُ الصغيرة. وهكذا، يحدث لها في أغلب الأحيان أن تصابَ بعمًى مطبقٍ، وتصيرَ ذاهلةً، مندهشةً، مغشيًا عليها إزاء العظائم التي تَرى. هنا تكتسب التواضعَ الحقيقي فلا تهتمّ بأن تمتدحَ نفسَها أو أن يُثنيَ عليها الآخرون. فسيِّدُ البستان هو من يوزِّع الثمارَ لا هي فلا يلصَق بيديها شيء. كلّ ما تملك من خيرٍ تردُّه الى الله؛ فإذا تحدَّثت عن ذاتِها فلمجدِ الله تتحدَّث. تعرف أنها لا تملكُ شيئًا في هذا البستان ولا يُمكنها أن تتجاهلَ الأمرَ ولو أرادتْ؛ فهي ترى ذلكَ بعينيها. فبالرغم منها تُغْمَضُ عيناها عن أشياءِ الدنيا لتبقِيَا مفتوحتَين لفهم الحقائق.

---

(١٦) مزمور ١٤٢، ٢.

الفصل الحادي والعشرون

تتابع الكلام وتختمه في هذه الدرجة الأخيرة من التأمل. تتحدّث عمّا تشعر به النفس التي بلغت هذه الحالة حين عودتِها الى العيش في العالم، وعن النور الذي يُعْطيها الربّ لتتبيّن خِدَعَه. يتضمّن الفصل تعليمًا ممتازًا

كل الربح في عطية الله

١. ختامًا للموضوعِ الذي كنتُ أعرضه أقول: إن موافقةَ النفس في درجة التأمل هذه ليست ضروريةً. لقد أَبْدَت موافقتَها لله، وتعلمُ أنها سلّمت ذاتَها في يديه طوعًا ولا تستطيع خِداعه لأنه يعرف كل شيء. ليس الأمر كما هو في هذه الدنيا حيث الحياة مليئةٌ بالخِدَع والرياء؛ فحين تظن أنّكَ كَسِبتَ ثقةَ إنسانٍ ما إستنادًا إلى ما يُظهره لكَ، لا تلبث أن تدركَ أنّ كلّ ذلك كذب. فليس من يستطيع أن يحيا بعدُ في هذا الخضمّ من المساومات، لا سيّما إذا تداخلَتْها مصلحةٌ ما.

خير الملوك الحقيقي

طوبى للنفس التي وَجّهها الربّ لفهمِ الحقائق! آه، يا لَها من حالةٍ خليقةٍ بالملوك! ما أفضل أن يَجِدُّوا في إثرها، لا في إثر ولايةٍ واسعة! يا لَلعدالة تسود المملكة! ما أكثرَ الشرورَ التي يتّقون ويكونون قد اتّقَوْها! هنا لا خوفَ من أن تُفْقَدَ

الحياةُ أو الشرفُ حبًّا بالله. أعْظِمْ به خيرًا للملوك المُلزَمين بأن يَهتمّوا بشرفِ الربّ أكثر ممّن هم دونَهم جميعًا، لأن على المرؤوسين أن يتبعوا خطى ملوكِهم! فمن أجل ان يجعلوا الأيمانَ يُسَجِّل نقطةً في انتشاره ويوفِّروا للهراطقة شعاعًا من نورٍ تراهم مستعدّين، وبحقٍّ، لأن يخسروا ألفَ مملكة. فعِوَضًا عن ذلك يكسِبون مُلكًا لا يزول. وإن ذاقت نفسٌ قطرةً واحدةً من مائِه، تقزَّزتْ من كل ما في الدنيا. فما يكون منها، اذًا، إن استغرقت كلُّها فيه؟

إبتهال: رغبة في نشر أفضال الله

٢. أيها الربّ! لو أَتَحْتَ لي أن أُعلنَ هذا الأمر جِهارًا لما صدَّقوني، كما لا يصدِّقون كثيرين يُحسِنون قولَه خيرًا منّي؛ لكنّي، على الأقل، كنت أشبعتُ رغبةً في نفسي. إخالني أسترخِص حياتي مقابلَ إيضاحِ واحدةٍ من هذه الحقائق. لا أدري ما قد أفعله فيما بعد، إذ لا مجالَ للثقة بي. لكن، وأنا ما أنا، تأخذني اندفاعاتٌ قويةٌ لأقولَ هذا إلى أصحاب الأمر، حتى إنها تلاشيني. وأراني لا أستطيع المزيد، فأعود اليك، ربي، أسألك علاجًا لكلّ شيء. وأنتَ تعلم، ربّي، أنه يكفي أن تجعلني في حالٍ لا أغيظك فيها فأتخلّى، بطيبةِ خاطر، عن المنن التي أسبغتَها عليّ وأُقدِّمَها الى الملوك، فإني أعرف أنه يستحيلُ عندئذٍ أن يرضوا بأمورٍ يتساهلون بها الآن، ويحصُلُ حتمًا خيرٌ عميم[1].

إبتهال: علامات في السماء

٣. إي، إلهي! إجعلْهم يفهمون واجباتِهم؛ فقد ميَّزْتَهم، أنتَ، على الأرض بحيث تُرى علاماتٌ في السماء، كما سمعتُ، حين تَستدعي أحدَهم اليك. في

(١) يقول الأب سيلڤيريو (Silverio) إن القديسة، وهيِ في طريقها الى توليدو لانشاء دير فيها (١٥٦٩)، أبلغت الملكَ فيليب الثاني، بواسطة الأميرة خوانا، بعضَ آراءٍ ومشوراتٍ، تأثّر بها الملك أيّما تأثُّر. وأبدى رغبته في التعرّف شخصيًا الى المؤسِّسة. ولا يُعرف بالتدقيق ما إذا تقابلا. لكن الثابت أن فيليب الثاني ساعد القدّيسة في عمل الإصلاح الذي باشرته.

الحقيقة، عندما أفكِّر في الأمر تتحرّك فيّ مشاعرُ العبادة إذ أراك، يا مليكي، تريدهم، حتى في هذا الموضوع، أن يُدركوا واجبَ الإقتداء بكَ في الحياة، اذ تُشاهَد علامةٌ ما في السماء لدى موتهم كما شوهدتْ علاماتٌ لدى موتِكَ، أنتَ.

الحياة مجازفة

٤. انها لحسارةٌ منّي مفرطة. مَزِّقْ، حضرتَكَ، ما كتبتُ إذا استهجنتَه، وثِقْ بأنني لكنت أحسِنُ القولَ أكثرَ لو أُتيحَ لي أن أفعل ذلك في حضرتِهم أو لو أَظنُّهم يصدِّقونني، فإنني أُوكلهم الى الله بحرارةٍ وأتمنّى أن يُستجابَ دعائي. إنما الحياة مجازفة، وغالبًا ما أتمنَّى أن أنعتقَ منها، ففي ذلك مخاطرةٌ بالقليل في سبيلِ ربحِ الكثير؛ وليس من يحيا بعدُ وهو يرى بأُمِّ عينِه الخِدعةَ الكبرى التي نعيش فيها، والعمى الذي نسير فيه.

طلب قوة لتنفيذ الأقوال

٥. حين تبلغ نفسُ هذه الحالة، لا تشعر برغباتٍ لخدمة الله فحسب، بل إنه، جلّ جلاله، يعطيها القوّةَ لتضعَ الرغباتِ موضع التنفيذ. لا يواجِهها شيءٌ ترى فيه ما تخدمه به حتى تنطلقَ اليه؛ ولا تعمل شيئًا لأنها، كما قلت، ترى بجلاءٍ أن كلَّ شيء باطلٌ ما عدا إرضاء الله. وأتألّم من أن لا يكون شيءٌ في متناول من لا نفع منهم مثلي. تعطّفْ، أنتَ، يا خيري، وليأتِ يومٌ أتمكّن فيه من تسديد ولو فلسٍ من ديوني الكثيرة نحوكَ. مُرْ، يا ربّ، إن حَسُنَ لديك، كيف تستطيعُ أَمتُكَ هذه أن تؤدِّيَ لكَ خدمةً ما. لقد وُجدَتْ نساءٌ قمن بأعمالٍ بطولية حبًّا بكَ. أما أنا فلستُ أَصلُح إلاّ للثرثرة؛ فلعلّك لا تريد، أنتَ، يا إلهي، أن أتجاوزَ الكلام الى الأفعال. وكلّ الخدمة التي عليّ أن أقوم بها تقتصر على الكلام والرغبات؛ وحتى في هذا لا أنعمُ بالحريّة؛ فقد أُفْسِدُ كلَّ شيء. فشدِّد، أنتَ، نفسي وأَعِدَّها أولاً، يا خيرَ الخيراتِ كلِّها، يا يسوعي، ثم هيِّئ الطرائقَ لأقومَ بعملٍ ما من أجلك، إذ ليس من يحتمل أن ينالَ الكثيرَ ولا يؤدِّي في المقابل شيئًا. لا تسمحْ، يا ربّ، مهما كلّف

الأمر ، أن أقومَ أمامَك صفرَ اليدين ، لأن الثوابَ يكون مساويًا للأعمال. ها هي حياتي ، ها هو شرفي وإرادتي ؛ ايّاك أعطيتُها كلَّها ؛ أنا لكَ فتصرّف بي كما يحلو لمشيئتِك. إني لأرى جليًّا ، يا ربّي ، القليلَ الذي أستطيع ، لكني ، وأنا بقربِكَ ، في هذا المرقب حيث تُرى الحقائق ، وإذا لم تبتعدْ عنّي ، لأستطيعُ كلَّ شيء ؛ أما إذا ابتعدتَ ، ولو قَيدَ أُنمُلة ، فأمضي الى حيث كنتُ ، أي الى الجحيم.

تشكّي النفس من مقتضيات الحياة

٦. أوّاه ! ما أسوأ حالَ نفسٍ ترى ذاتَها مُلزمةً ، بعد بلوغِها هذه الحالة ، بأن تعود الى التعامل مع الجميع ، وأن تنظرَ وتشاهدَ مهزلةَ الحياة هذه السخيفةَ ، وأن تصرف وقتَها في قضاءِ الجسد حاجاتِه من أكلٍ ونوم ! كلّ شيءٍ يُتعبها ، فلا تعرف كيف تهرب ؛ وترى ذاتَها مُقيَّدةً ، سجينةً ، حينئذ تَشعر ، حقّ الشعور ، بالأسر الذي تعاني منه في الجسد وبشقاء الحياة. وتعرف دافعَ القديس بولس حين كان يتوسّل الى الله كي يُعتِقه منها[٢] ؛ وتهتف معه ، وتسأل الله الحرية ، كما قلت مرارًا ؛ لكنها هنا ، إنما تهتف في أغلب الأحيان باندفاعٍ شديد بحيث يُخال أنّ النفس تودّ الخروج من الجسد لتبحث عن هذه الحرية ما دامت لا تخرج منه. تعيش كأنّها بيعت في أرضٍ غريبة ، وأكثر ما يُتعبها أن لا تجد كثيرين يتشكّون معها ويسألون ما تسأل ، بل تراهم عادةً يتمنّون الحياة. آه ! لو لم نكن متعلّقين بشيءٍ ولم يكن سرورُنا قائمًا على أشياء الأرض ، فكم كان عناؤنا من العيش دائمًا بدون الله يخفّف جزَعنا من الموت بالرغبة في التنعم بالحياة الحقيقية !

عذاب القديسين لأجل الله

٧. أفكّر أحيانًا : إذا كنتُ ، على فتورِ محبتي وقلّة يقيني براحتي الحقيقية لأنَّ أعمالي لم تستحقَّها ، أتألّم أشدّ الألم ، بفضل هذا النور الذي اعطانيه الربّ ، إذ أراني أحيانًا كثيرةً في هذا المنفى ، فما تراه يكون شعورُ القديسين؟ ما تراه كان يعاني

---

(٢) رومية ٧، ٢٤.

القديس بولس والمجدلية وأمثالُها ممن كانت تتأجَّج فيهم نارُ محبة الله هذه؟ كانوا يعانون، ولا شكّ، إستشهادًا متواصلاً.

أظن أنَّ مَنْ يوفِّرون لي بعضَ الانشراح، ومَنْ أرتاحُ الى التعامل معهم هم الذين أجدُ لديهم هذه الرغبات؛ أعني رغباتٍ مقرونةً بالأعمال. وأقول مقرونةً بالأعمال لأن البعض يحسبون أنفسهم متجرّدين، ويُعلنون ذلك، وهكذا يجب أن يكونوا لأن حالتَهم تستدعي ذلك وتستدعيه السنوات العديدة مُذْ بدأوا يسيرون في طريقِ الكمال؛ لكنَّ النفسَ التي أتحدَّث عنها تعرف جيّدًا، ومن بعيدٍ جدًّا، المتجرِّدين بالكلام والذين أثبتوا كلامهم بالأعمال، لأنها مُطَّلعة على الفائدةِ اليسيرة التي يحقِّقها البعض، والفائدة العظمى التي يحقِّقها البعضُ الآخر. وهذا أمرٌ يَتَبَيَّنُه جليًّا ذو الاختبار.

مفاعيل الانخطافات

٨. لقد تكلَّمتُ على مفاعيلِ الإنخطافات التي هي من روح الله... الحقيقة أنَّ هناك مفاعيلَ كبيرةً ومفاعيلَ صغيرةً. أقول صغيرةً، لأن الانخطاف وإن أحدث في البدء هذه المفاعيل، فلا تكون هذه المفاعيلُ مُختَبَرَةً بأعمالٍ ولا يُمكن، بالتالي، معرفةُ وجودها. ويروحُ الكمال ينمو ويعملُ ليُزيل أيَّ أثرٍ لنسيج العنكبوت[٣]، وهذا يقتضي بعض الوقت. وفيما يزدادُ الحُبُّ والتواضعُ نموًّا في النفس تَنشر أزهارُ هاتين الفضيلتين أريجًا أقوى يُعطِّرها ويعطِّر الآخرين. صحيحٌ أن الربّ يمكنه، في أحد هذه الاختطافات، أن يعملَ في النفس بحيث يَبقى عليها أن تبذلَ القليلَ من الجهد لاكتساب الكمال، لأن لا أحد يستطيع أن يتصوَّر ما يعطيه الربّ في هذه الحال إنْ لم يختبرْ ذلك بنفسه؛ وفي اعتقادي أن جهودَنا، بما بلغت، لا تستطيع تحقيق ذلك. لا أنكر أنّ المبتدئين والمتدرِّجين[٤]، – كما يسمّيهم من كتب في التأمّل –، حين

(٣) نسيج العنكبوت كناية عن البؤس والنقائص (راجع سيرة ١٩، ٢، و ٢٠، ٢٨).

(٤) المتدرّجين، أي الذين بلغوا المرحلة الوسطى للسالكين في طريق الاستنارة. ويسمّونهم أيضًا المتقدّمين أو المتوسطين (راجع سيرة ١١، ٥).

يجدّون لسنواتٍ عديدة . يبلغون بفضل الله بعدَ مجهوداتٍ شاقةٍ ، الكمالَ وكثيرًا من التجرّد ؛ لكنّهم لا يبلغون ذلك في زمن قصيرٍ جدًّا ، ودون أيّ جهدٍ يبذلونه ؛ كما يعمل الربّ في هذه الحالة فيُخرجُ النفسَ من الأرض بحزمٍ ويعطيها سلطانًا على كل ما فيها ، حتى لو لم يكن لهذه النفس من إستحقاقٍ أكثر ممّا كان لي ؛ ولا يمكنني أن أصف هذا الاستحقاق وصفًا أوفر لأني كنت خاليةً منه تقريبًا .

هدف الله في عطاياه وخصبُ التواضع

٩. أما لماذا يفعل الله ، جلّ جلاله ، ما يفعل ، فلأنه يريد . وما يريده يفعله . فهو يعدّ النفسَ ، ولو لم يكن لديها إستعداد ، لتقبّل الخير الذي يتكرّم به ، جلّ جلاله ، عليها . وهكذا ، فليس يعطي الخيراتِ دائمًا لأنهم إستحقّوها باعتنائهم بالبستان جيّدًا ، ولو كان صحيحًا انه لا يقصّر في مكافأة من يتعهَّد البستان ويجدّ في التجرّد ، بل إنه يريد أحيانًا أن يظهر قدرته في الأرض الأشدّ قحطًا ، كما قلت ، ويعدّها لتنتج كل خير ، بحيث يبدو أنها لا تقوى ، الى حدّ ما ، على العودة لتغيظ الله مثلها من قبل . ويعتاد فكرُها على فهم الحقيقة الحقّ فيرى ما عدا ذلك لَعِبَ أطفال . وتضحكُ في سرّها أحيانًا حين ترى أناسًا رصينين منقطعين الى التأمّل والحياة الرهبانية يُولون اهتمامًا كبيرًا بعضَ مسائل الشرف جعلتها هذه النفس تحت قدميها . ويقولون ان ذلك من قبيل الفطنة والحفاظ على المقام ليكونوا أكثرَ فائدةً للآخرين . أما هي فتعرف حقَّ المعرفة أنها تفيد الآخرين في يومٍ واحد تهمل كرامةَ مقامِها حبًّا بالله ، أكثر ممّا تفيدهم في عشر سنوات وهي متمسّكة بها .

عناية الله بالمتواضع

١٠. هكذا تحيا حياةً شاقَّةً وهي تحمل الصليب دائمًا ، لكنَّها تحقّق تقدّمًا كبيرًا . والذين يعاشرونها يَرونها في ذروة الكمال . وبعد وقتٍ وجيزٍ ، تتقدّم أكثرَ بكثيرٍ لأن الله يُغنيها بأفضاله أكثرَ فأكثر . إنها نفسٌ تخصّه ؛ هو من يهتمّ بأمرها ، وهي

تشرّفه ، ويبدو كأنه يساعدها دائمًا ويحفظها كي لا تهينَه . وكأنه يغمرها بالأفضال ويوقظها لتخدمَه .

عندما صنع الله بنفسي هذه النعمة العظيمة زالت آلامي ، وأمدَّني الرب بقوّةٍ للإنعتاق منها . وما عاد يؤذيني وجودي في الظروف الخطرة ولا مع أناسٍ اعتادوا أن يُشتتوا أفكاري أكثر ممّا لو كنت بعيدةً عنهم ، بل إن ما كان يضرّ بي صار يوفّرُ لي فائدةً . كلّ شيء كان لي وسيلةً لأزداد معرفةً بالله ، وأحبَّه ، وأرى ما أنا مدينةٌ له به ، وأندمَ على حياتي الماضية .

تجلّي عمل الربّ فيها

١١. كنت أدرِك تمامَ الإدراك أنّ ذلك لم يكن صادرًا عنّي ، ولا كسِبتُه بسعيي إذ لم يكنْ قد أُتيحَ لي الوقتُ لذلك . إنه ، جلّ جلاله ، كان قد أعطاني القوّة اللازمة لذلك بجوده وحسب .

ومنذ أن بدأ الربّ يمنحني نعمةَ الإنخطافات هذه الى الآن ، راحتْ تنمو هذه القوّة باستمرار ، وهو ، بلطفه ، أَخذَني بيدهِ لئلاّ أعودَ الى الوراء . ولا إخالني ، والحال هذه ، أعملُ شيئًا تقريبًا من ذاتي ، بل أدركُ جليًّا أنّ الربّ هو الذي يعمل . لذا أرى أن النفوس التي يُغدق الله عليها هذه المنن ، وتسلك في التواضع والخوف ، وهي متيقِّنة من أن الربّ نفسه يعمل ، وأننا ، نحن ، نكاد لا نعمل شيئًا ، هذه النفوس يمكنها أن تعاشر أيّ قوم ؛ ومهما بلغ من طيشهم ونقائصهم لا يُؤَثِّرون عليها ولا يُزعجونها بشيء ؛ بل إن ذلك ، كما قلت ، يساعدها ويجب أن يكون لها وسيلةً لتحقيق أكبر فائدة . إنها نفوسٌ صارت قويّةً ، يختارها الربّ ليفيدَ بواسطتِها الآخرين ، ولو ان هذه القوة ليست من عندها . وحين يبلغ الربّ بنفسٍ الى هذه الحال ، يروح يُطلعها شيئًا فشيئًا على أسرارٍ كبيرةٍ جدًّا .

مننٌ عظيمة في الانخطاف

١٢. في هذا الانخطاف تحصل الإيحاءاتُ الحقيقيّة ، والمنن العظيمةُ ،

والرؤى ؛ وكل هذا يفيد النفسَ لتتواضع . وتتقوّى ، وتحتقرَ أشياءَ هذه الحياة . وتتبيَّنَ بوضوحٍ أكبرَ عظائمَ الثواب الذي أعدّه الربّ للذين يخدمونه.

ليتَه ، جلّ جلاله . يجعلُ سخاءه العميم الذي غمرني به ، أنا الخاطئةَ الشقيّة ، دافعًا لمن يقرأون كتابي هذا حتى يبذلوا جهدَهم ويندفعوا ليتركوا كلّ شيءٍ حبًّا بالله ؛ فإنه . جلّ جلاله ، يجزي بسخاءٍ كبيرٍ حتى لَيُرى جليًّا . في هذه الدنيا ؛ الثوابُ والمكسبُ اللذان ينالهما من يخدمونه ؛ فكيف يكونان في الحياة الأخرى؟

الفصل الثاني والعشرون

تُبيِّن كم هو طريقٌ آمَن للتطلُّعيين أن لا يرفعوا روحَهم الى أمورٍ ساميةٍ ما لم يرفعْهم اليها الربّ، وكيف أن ناسوت المسيح يجب أن يكون الوسيلة لأسمى درجات التطلُّع. تتحدّث عن وهمٍ لازَمها فترةً من الزمن. هذا الفصل ذو فائدة كبيرة

قضية ناسوت المسيح في التطلّع

١. أَودُّ أن أتكلَّم على أمرٍ أعتبرُه هامًّا، إذا حَسُنَ لحضرتكَ، يصلُح أن يكون تنبيهًا قد يكون ضروريًا لك. لقد وردَ في كتبٍ تتحدّث عن التأمّل أن النفس، وإن كانت غير قادرةٍ على البلوغ الى هذه الحالة من تلقاءِ ذاتِها، لأنها عملٌ فائق الطبيعة كليًّا يُحدِثه الربُّ فيها، فإنها تستطيع المساعدة في ذلك برفعٍ روحها الى ما فوق المخلوقات جميعِها، وبإعلائه بتواضعٍ بعد أن تكون قد عاشت سنواتٍ طويلةً حياةَ التَطهُّر وتقدَّمت في طريق الاستنارة. أنا لا أدري تمامًا لماذا يدعونها «طريقَ الاستنارة»؛ أعتقد أنها طريقُ الذين يحقِّقون تقدُّمًا. ويُحثّهم هؤلاء المؤلّفون على أن يُبعدوا كلَّ صورةٍ جسميَّةٍ ويَصلوا الى تطلُّعِ الألوهة، لأنَ الصورةَ الجسميّة، في رأيِهم، ولو كانت صورةَ ناسوتِ المسيح، تُعيق هؤلاء المتقدِّمين أو تمنعُهم عن الوصول الى أكمل حالاتِ التطلّع[1]. ويحتجّون لرأيهم بما قاله الربّ للرسل عندما

---

(١) في هذا الفصل، كما في الفصل ١٢، تقف القديسة في وجه تيّارٍ صوفيٌّ شائعٍ لدى بعض

بشّرهم بمجيءِ الروح القدس ، بل أقول لدى صعودِه الى السماء . فلأنهم يَحسبون هذه الممارسةَ روحيةً بحتةً ، يعتبرون أنّ أيّةَ صورةٍ جسميّةٍ قد تكون عائقًا لها أو تَحول دونها ؛ فما عليهم إلاَّ أن يسعوا ليضَعوا أنفسَهم في « الوضع الأكمل » (٢) ، محاطين بالله من كل جانب ، ويروا أنفسهم مستغرقين في الله.

أني اعتبر هذه الطريقةَ جيّدةً ، أحيانًا . أما أن نبتعدَ كُلِّيًّا عن المسيح ونماثلَ بين هذا الجسدِ الإلهي وحقاراتِنا ، أو بينه وبين جميع المخلوقات ، فما لا أطيق إحتمالَه. أرجو الله أن يُمَكِّنني من الإفصاح عن أفكاري.

يقينُ خبرتها الروحية

٢. أنا لا أناقضُ هؤلاءِ الكُتَّاب ، فهم ذوو علمٍ وروحانيون ويُدرِكون ما يقولون ؛ والله يقود النفوسَ في دروبٍ وطرقٍ مختلفة. إنّما أريد الآن الكلامَ على الطريقة التي قاد بها نفسي (فأنا لا أتدخَّل فيما عدا ذلك) ، وعلى الخطر الذي وجَدْتُني فيه لرغبتي في التقيُّد بما كنت أقرأ. أعتقد حقًّا أنّ من بلغَ حالَ الإتحاد ولم يتجاوزها ، أي لم يحصلْ على إنخطافاتٍ ورؤىً ومننٍ أخرى يمنحها الله النفوسَ ، يعتبر ما في تلك الكتب أصوبَ الآراء ، كما كنت ، أنا ، أعتبرُها ؛ على أنّي لو وقفتُ عند هذا الرأي لما كنت وصلتُ قطّ ، في إعتقادي ، الى ما أنا عليه الآن ، لأن ذلك ، في ظنّي ، خطأٌ. قد أكون ، أنا المخطئة ؛ إلاّ أنّي سأروي ما حدث لي.

الروحانيين في أيامها ، بل وفي بعض الكتب التي أثَّرت في تنشئتِها مثل كتاب أوسونا : **الأبجدية الروحية الثالثة**.

(٢) التعبير الاسباني «en cuadrada manera» طالَعتْه القديسة، ولا شكّ، أو سمعته في الجدال حول هذا الموضوع. ويقول الأب خوان دي لويس انخيليس، مشيرًا الى كتابٍ قديمِ العهد لأحد الكرمليين، «إن العقل الكامل (العقل المربع . في ترجمة حرفية) . هو الذي لا يقتصر على تبصُّر الله وتطلُّعِه من ناحية حقيقةٍ واحدةٍ. بل يشمل عملُه كلَّ ناحية ، لأن الله غيرُ محدود وغيرُ مدرَك... وهو كلّه في كلّ مكان».

علمُها من الله بالاختبار

٣. لمّا لم يكن لي معلِّمٌ ، كنتُ أطالع تلك الكتبَ أملاً في أن أفهمَ بواسطتها رويدًا رويدًا . شيئًا ما . (وقد فهمتُ فيما بعد أنه لو لم يكن الربّ دليلي ، لما إستفدتُ من الكتب إلَّا القليل ، لأن ما كنت أفهمه لم يكن شيئًا الى أن كشفه لي ، جلّ جلاله ، بالإختبار ؛ وما كنت أدري حتى ما أفعل) . حين بدأتُ أمارس التأمل الفائقَ الطبيعة ، أعني تأملَ السكينة(٣) ، كنت أحاول إبعادَ أيِّ صورةٍ جسميّةٍ(٤) ولو انِّي ما كنت أجرؤ على رفع نفسي ، إذ لكونها حقيرةً بائسةً كنت أعتبر ذلك جسارةً ؛ غير إلَّا كنت إخالني أشعرُ بحضور الله ، وهذه هي الحقيقة ، فأسعى لأن أكونَ مختليةً معه . إنه لتأملٌ عذبٌ ، إذا ساعدنا الله فيه ، وذو متعةٍ كبيرة . وإذ بان لي ذلك المكسب وتلك اللذّة لم يكن بعدُ من يستطيع إعادتي الى الناسوت(٥) ، بل كنت أرى فيه ، في الواقع ، عائقًا . آه ، يا ربّ نفسي ، ويا خيري ، يسوع المسيح المصلوب ! لا أذكر مرةً هذه الفكرة التي خامرتْني إلَّا ويأخذ بي الألم ، وأخالني أتيتُ خيانةً كبرى ولو عن جهل .

عبادتُها للمسيح

٤. لقد كنتُ ، طوال حياتي ، شديدةَ العبادة للمسيح (لأن هذه الأفكار(٦) إنما راودتني مؤخَّرًا ؛ بل كانت عبادتي من الشدّة بحيث استمرّيتُ قليلاً على هذا الرأي) ، فكنت أرجع دائمًا الى عادتي لأنعمَ بعشرةِ هذا الربّ ، خصوصًا عند المناولة . كنت أودّ دائمًا أن أستحضرَ رسمَه أو صورتَه لأنّي كنت عاجزةً عن أن أجعله محفورًا في نفسي على قدرِ رغبتي . أمن الممكن ، يا ربي ، أن يكون قامَ في ذهني ، ولو ساعةً فقط ، أنكَ قد تمنع نوالي خيرًا أعظم؟ من أين أتتني جميعُ

---

(٣) راجع فصل ١٤ - ١٥ و ١٨ حيث تتكلّم على تأمّل السكينة.
(٤) أي تصوّر المسيح في ناسوته. راجع فصل ٢١.
(٥) أي إستحضار صورة المسيح في ناسوته.
(٦) إهمال استحضار ناسوت المسيح.

الخيرات إن لم يكن من لدنك؟ لا أودُّ التفكيرَ بأني أتيتُ في هذا الأمر ذنْبًا؛ فإنني أتألّم كثيرًا؛ ولقد كان ذلك بالتأكيد جهلاً مِنّي، فأردتَ أنتَ، بجودتك، أن تعالجه بإرسالكَ اليّ من ينقذُني من هذا الضلال، وأن تُظهِرَ ذاتكَ لي من ثَمَّ مرّاتٍ كثيرةً، كما سأروي فيما بعد، لأُدرِك بشكلٍ أوضح كم كان ضلالي كبيرًا، ولأُطلِع عليه كثيرين حدَّثْتُهم عنه، ولأُثبِتَه الآنَ هنا.

سبب قلّة التقدّم

٥. أنا على يقينٍ من أنَّ هذا هو السبب في أنّ نفوسًا كثيرةً، حين تبلغ درجةَ تأمل الإتحاد، لا تتقدّم أكثرَ ولا تصل الى حريَّةٍ روحيَّةٍ أكبر. وأرى أن ثمَّةَ سببين أستطيع أن أدعمَ بهما رأيي، قد لا يساويان شيئًا، لكن ما سأرويه إنما عرفتُه بالاختبار؛ فإن نفسي كانت في حالةٍ من السوء بالغةٍ الى أن أنارها الربّ. كانت تنعم بملاذها جرعةً جرعةً، وما إن تنتهي من هذه الحال حتى لا تعودَ تجدُ الصحبةَ التي عرفْتها فيما بعد، لتتحمَّلَ المشقّاتِ وتقاومَ التجارب. أما السبب الأول فشيءٌ من قلَّةِ التواضع مطويٌّ ومخفيٌّ بحيث لا يُحَسّ بوجودِه. ومن تُراه المتكبِّر والبائس، مثلي، الذي يكون قد جاهدَ، حياتَه كلَّها، بما يُمكن تصوُّره من أعمالِ التوبة، وممارسةِ التأمل، وإحتمالِ الإضطهادات، ولا يجد نفسَه وافرًا غناه، وجزيلاً أجرُه حين يُتيح له الربّ أن يكون عند أقدام الصليب الى جانب القدّيس يوحنا؟[7] لا أدري بأيِّ بالٍ يَخطر أن لا يقنعَ بهذا إلّا ببالي، فخسرتُ، في كل حالٍ، حيث كان عليّ أن أربح.

تأمّل في آلام المسيح

٦. فإذا لم يُتِحْ لنا طبعُنا أو المرضُ أن نتحمّل التفكير بآلامِ الربّ لأنه يشقّ علينا، فمن يمنعنا من أن نكونَ معه بعد قيامته ما دامَ قريبًا جدًّا منّا في سرّ القربان حيث هو مُمَجَّدٌ، فلا نراه مجهودًا، مثخَنًا جراحًا، سائلاً دمُه، متعبًا في الدروب،

(٧) يوحنا ١٩، ٢٦.

يضطهدُه من غَمره بإحسانِه ، ويُنكِرُه رُسُلُه؟ والحقيقة ، ليس من يستطيع دائمًا أن يطيقَ التفكير في جميعِ المشقّات التي قاساها . ها هو هنا دون عناء ، في مِلءِ مجدِه ، يقوّي البعضَ ، ويشجع البعضَ الآخر قبل أن يصعد الى السماء ، رفيقًا لنا في سرّ القربان الأقدس ؛ فكأنْ لم يكنْ باستطاعتِه أن يبتعدَ لحظةً عنّا.

وكيف استطعتُ ، أنا ، ربِّي ، أن أبتعدَ عنك أملاً في خدمتكَ خدمةً أفضل! عُذري أنّي حين كنت أغيظك لم أكن أعرفكَ ؛ أما وأنا أعرفكَ فقد كنتُ أفكِّر بتحقيق ربحٍ أوفَر في هذا الطريق! آه ما كان أسوأ طريقي ، يا ربّ! إخالني كنت أضلّ الطريق لو لم تُرجعْني ، أنتَ ، إليه ؛ فحين رأيتُكَ بقربي ، رأيتُ جميعَ الخيرات . ما من مشقّةٍ حلّت بي إلّا وجدتُ احتمالَها عذبًا وأنا أتصوَّرُكَ أمام القضاة.

في حضور صديقٍ صالحٍ كهذا الصديق ، ومع قائدٍ طيّبٍ كهذا القائد كان طليعةَ المتألّمين ، يُمكن احتمالُ كلِّ شيء . إنه عونُنا ومانحُ القوة . لا يتركُنا أبدًا . إنه صديقٌ حقيقيٌّ . وإني لأرى بجلاء ، وقد رأيتُ ذلك من بعدُ ، أنه حتى نرضيَ الله وكي يغمرَنا بأنعامٍ جزيلة ، يريدُ أن يكونَ ذلك بواسطةِ هذا الناسوت المقدّس الذي قال ، جلّ جلاله ، إنّه به يُسَرُّ[8] . لقد طالما أدركتُ هذا بالاختبار مرارًا ومرارًا . والربّ أخبرني به . وقد تبيَّن لي أنّ علينا الدخول من هذا الباب[9] إذا أردنا أن تكشفَ لنا العزّةُ الساميةُ أسرارًا عظيمةً.

ناسوت المسيح باب التطلّع : مثال القديسين

٧. فلا تبحثَنَّ حضرتُكَ ، يا سيّدي[10] ، عن طريقٍ آخر ولو كنتَ في ذروة التطلّع ، لأنّك بهذا الطريق تسيرُ آمنًا . بربِّنا هذا نُعطَى الخيراتِ جميعَها . وهو يعلِّمك ؛ أنظر حياتَه فإنها خيرُ مثال . فماذا نريد أكثر من صديقٍ طيّبٍ كهذا

---

(٨) متى ٣، ١٧.

(٩) يوحنا ١٠، ٩.

(١٠) الأب غارثيا دي توليدو. وهذه أول مرّة تُطلِق عليه القدّيسة لقب «سيِّد»، وهو لقب يعود إليه بصفته إبنًا لكونت أروبيسا Oropesa.

الصديق بقربنا، لا يتخلّى عنّا في الشدائد والمحن كما يفعل أصدقاءُ العالم؟ فطوبى لمن يُحبّه حقًّا ويستبقيه بقربه أبدًا. فلنتأمّل القدّيس بولس المجيد؛ كأن يسوعَ ما كان يسقط عن لسانِه قطّ، فقد كان كَمَنْ يمتلكه في قلبه إمتلاكًا. بعد أن عرفتُ هذا. تفحَّصتُ بدقّةٍ سلوكَ بعض القديسين من كبار التطلُّعيين، فوجدتُهم لم يسلكوا سوى هذا السبيل. فالقديس فرنسيس يدلّ عليه بواسطة السِمات؛ والقديس أنطونيوس البادوي بواسطة الطفل؛ والقديس برنردوس كان يسرّ أيّما سرور بالناسوت؛ والقديسة كاترينا السيّانيّة... وآخرون كثيرون تعرِفهم حضرتُكَ خيرًا منّي.

البحث عن الخالق عبر المخلوقات

٨. لا شكّ في أنّ الإبتعاد عمّا هو جسديّ يجب أن يكون صالحًا، إذ إن كثيرين من الروحانيين يؤكّدون الأمر. غير أنّ النفس، في نظري، يجب أن تكون متقدِّمةً جدًّا، إذ من الواضح أنه، قبل بلوغِ هذه الحالة، يجب أن نبحث عن الخالق عبر المخلوقات. وهذا كلّه حسب النعمة التي يمنحها الربّ كلَّ نفس؛ وأنا لا أتدخَّل فيه. ما أودّ تبيانَه أن ناسوت المسيح المقدّس يجب أن لا يدخل في هذا الحساب. ولتُفْهَمْ جيدًا هذه النقطةُ التي أودُّ أن أُحسِنَ جلاءَها.

محاذير الابتعاد عن ناسوت المسيح

٩. عندما يريد الله أن يعطِّل القوى كلَّها، كما رأينا في أنماط التأمل التي تحدَّثْنا عنها[١١]، فمن الواضح أن يفوتَنا هذا الحضور على رغمنا. وعندئذٍ نِعْمَ الفَوات! ما أسعدَها خِسارةً لتزدادَ مُتعتُنا بما نَخالُ أننا خسرناه، لأن النفسَ، عندئذٍ، تجتهد بكلِّيتها في أن تحبَّ مَنْ كَدَّ العقلُ في معرفته، وتحبّ ما لم تفهمْه، وتستمتع بما لم يكنْ لها أن تستمتعَ به بهذا القدْرِ لو لم تخسرْ ذاتها، كما قلتُ، لتربحَها في حالٍ أحسن. أما ما لا أراه حسنًا فأن نتعوّدَ، بعنايةٍ وبراعةٍ، على أن لا نحاول بكلِّ قِوانا استحضارَ هذا الناسوت المقدّس (جَعلَه الربّ حاضرًا دومًا)؛ فإنّ النفس

(١١) في الكلام على الماء الرابع، فصل ١٨ وما يليه.

في هذه الحال تعيشُ في الهواء ، كما يقولون ، إذ كأنها لا تجد لها سندًا مهما تصوّرت ذاتَها ممتلئةً من الله. وإنه لأمرٌ عظيمٌ ، ما دُمنا بشرًا نعيش على الأرض ، أن نأتيَ بسَندٍ بشري. هذا هو المحذورُ الثاني الذي تحدَّثْتُ عنه ؛ أما الأول ، فقد قلتُ إنه قِلَّةُ تواضعٍ من النفس إذ تريد أن ترتفعَ قبل أن يرفعها الربّ ، ولا تكتفي بأن تتأمّل موضوعًا ثمينًا كهذا الموضوع ، وتَودُّ أن تكون مريمَ قبل أن تكون قد عملت مع مرتا. عندما يريدها الربّ أن تكون كذلك ، ولو من اليوم الأول ، فلا خوف عليها ؛ لكن علينا ، نحن ، بالإعتدال ، كما سبقَ وقلتُ ، على ما أظن. إن شائبةَ قلَّةِ التواضع هذه ، ولو بدت غيرَ ذاتِ بالٍ ، تُحدِثُ أذًى كبيرًا يَعوق التقدُّمَ في التطلّع.

المسيح صديقٌ وقت التأمل

١٠. وأعود الى النقطة الثانية. نحن لسنا ملائكةً ، بل إن لنا جسدًا. فأنْ نرغب في التصرّف كملائكةٍ ، ونحنُ على الأرض ، – ولاصقون بها كما كنتُ – لَحمَقٌ ؛ بل إن فكرَنا يحتاج عادةً الى سَند ؛ فأن تَخرُجَ النفسُ من ذاتِها أحيانًا أو أن تُوجَدَ أحيانًا كثيرةً مملوءةً من الله بحيث لا تحتاج الى موضوعٍ مخلوقٍ لتستجمعَ فكرَها ، ليس بأمرٍ مألوف. في إبّان المشاغل ، والإضطهادات ، والمشقّات ، حيث لا يُمكن الإخلادُ الى السكينة ، وفي أوقات اليبوسة ، يكون المسيح صديقًا طيِّبًا ، لأننا ننظر إليه إنسانًا ، ونراه في ضَعفه ومشقَّاتِه ، ونرى فيه رفيقًا ؛ وإذا تعوّدْنا ، فمن السهلِ أن نجدَه قربَنا ، ولو يَحدُثُ أحيانًا أن لا يُستطاع هذا الأمرُ أو ذاك. ولهذا يَحسُن بنا ، كما قلتُ[١٢] ، أن لا نتعوَّدَ السعيَ وراءَ تعزياتٍ روحيةٍ. وإنه لأمرٌ رائعٌ أن نظلَّ معانقين الصليب ، مهما حدثَ من أمر. فهذا الربّ مكثَ خلُوًا من أيِّ تعزية ؛ تركوه وحدَه في المحن ؛ لا نتركَنَّه ، نحن ، فحتى نصعدَ الى أعلى ممّا نستطيع ، يعطينا يدَه وتكونُ خيرًا من إهتمامِنا ؛ وهو يغيبُ حين يرى ذلك ملائمًا ، وعندما يريد الربّ أن يُخرِجَ النفسَ من ذاتِها ، كما قلتُ[١٣].

---

(١٢) سيرة ١١ ، ١٣ ؛ و ١٢ ، ٣.

(١٣) في الفصل ٩.

التأمل أساسُه التواضع

١١. ويَسُرُّ اللهَ كثيرًا أن يرى نفسًا تجعل إبنَه، بتواضعٍ، وسيطًا، وتُحبُّه أَيَّ حبٍّ بحيث إنها، على رغبتِه، جلّ جلاله، في رفعها الى درجةٍ ساميةٍ من التطلّع، كما قلت، تعرف عدمَ استحقاقها وتقولُ مع القديس بطرس: «**إبتعدْ عنّي، يا ربّ، فإني رجلٌ خاطئٌ**»[١٤].

لقد خبرت ذلك؛ وبهذه الطريقة وجَّه اللهُ نفسي. آخرون قد يَسيرون في دربٍ آخر. ما فهمتُه، أنا، أنّ أساسَ هذا التأمل كلِّه مبنيٌّ على التواضع، وكلّما ازدادتْ نفسٌ ما تواضعًا، زادَها الله رفعةً. لا أذكر أنه منحني نعمةً فائقةً من المنن التي سأتحدَّث عنها فيما بعد إلّا وأنا في انسحاقٍ من رؤيتي ذاتي على شقاءٍ كبير. بل إنه، جلّ جلاله، كان يحاول أن يُفهمني أمورًا تساعدني على معرفةِ ذاتي معرفةً ما كنت لأتصوَّرَها. وأعتبرُ أنّ النفس حين تصنعُ شيئًا يساعدُها في تأمّل الإتحاد هذا، فعملُها، ولو بدا أنه حقَّق لها تقدُّمًا فوريًّا، يعود فيسقط حالاً كشيءٍ لا أساسَ له. وإني لأخاف أن لا تصلَ النفسُ الى الفقر الروحي الحقيقي الذي لا يقوم بأن تبحث عن تعزيةٍ أو لذَّةٍ في التأمل (لأن اللذّاتِ الأرضية قد تخلّتْ عنها)، بل أنْ تجدَ تعزيةً في مقاساتِها المشقّات حبًّا به تعالى، وهو الذي عاش دائمًا في هذه المشقّات، وفي مكوثِها هادئةً وسط هذه المشقّات والجفافِ الروحي. فقد يُحِسُّ المرءُ بشيءٍ من العناء إلّا أنَّه لا يثيرُ الاضطرابَ والأسى اللذين يَحلاّن بالبعض ممّن إذا لم يُعمِلوا العقلَ دائمًا ويَشعروا بالورع يَظُنُّون أنّهم فقدوا كلّ شيء؛ فكأنهم يستحقّون بعملهم هذا الخيرَ العميم. أنا لا أقول بأن لا يسعوا إليه ولا يهتمّوا بحضورهم أمام الله، لكن إذا لم يتيسَّر لخاطرِهم ولو فكرةٌ صالحةٌ، كما قلتُ سابقًا، فلا يجب أن يتهالكوا وراءَ ذلك. إنما نحن عبيدٌ بطّالون، فعلامَ تُرانا قادرين؟

---

(١٤) لوقا ٥، ٨.

تسليم الأمر الى الله

١٢. إن الربَّ يريدُنا أن نعرفَ هذا وأن نجعلَ من ذاتنا جحاشًا لنُشغِّلَ ناعورةَ الماء التي تحدّثنا عنها[١٥] ؛ فهذه الجحاش على كون عيونِها مُغمَضةً ولا تدري ما تفعل ، ترفع من الماءِ أكثر ممّا يرفعه البستاني بقُصارى جهدِه. علينا أن نسيرَ بحريَّةٍ في هذا الطريق مسلِّمين أمرَنا الى الله ؛ فإذا أراد ، جلّ جلاله ، أن يرفعَنا لنكون من حُجَّابِه ومؤتَمَنِي سِرِّه ، فلنَقْبَل بطيبةِ خاطر ؛ وإذا لم يُرِد ، فلنخدُمْ في الوظائف الوضيعة ولا نَجلِسَنَّ في أرفع مكان ، كما قلتُ أحيانًا. إن الله ليهتمُّ بنا أكثرَ ممّا نهتمّ بأنفسنا ويعرف لِما يصلُحُ كلٌّ منّا. ماذا يفيدُ الانسانَ تدبيرُ نفسِه إذا كان قد سلّم إرادتَه بكلِّيتِها لله؟ إن ذلك التدبيرَ يَلقَى ، هنا ، في رأيي ، قبولاً دون ما يلقاه بكثيرٍ في درجة التأمّل الأولى ، وهو أكثرُ إيذاءً ؛ إنها خيراتٌ فائقةُ الطبيعة. ومهما بذلَ صاحبُ الصوت القبيح من جهدٍ ليغنّي ، فلن يصيرَ صوتُه رخيمًا ؛ أمّا اذا أراد الله أن يعطيَه صوتًا رخيمًا ، فلن يكون بحاجةٍ لأن يُطلِق أصواتًا. فلنتوسّلْ دائمًا الى الله ، بنفسٍ مُنسحِقةٍ وواثقةٍ من عظمته ، لِيُسبغَ مِننه علينا. فما دام يُجَازُ لهذه النفس أن تمكثَ عند قدمي المسيح ، فلتحرِص على ان لا تبتعدَ عنهما[١٦]. فلتمكُثْ ما طاب لها المكوث ولتحذُ حَذْوَ المجدلية ، وحين يشتدُّ ساعِدُها يقودها الله الى الصحراء.

لا تفيد المقاومة مع الله

١٣. فتقيَّدْ ، حضرتُكَ ، بهذا الى أن تجدَ مَنْ يفوقُني خبرةً ومعرفةً في هذا الموضوع. فإذا كان هؤلاء أناسًا بدأوا يستمتعون بأمور الله فلا تصدِّقْهم حين يظنّون أنّهم بجَهدهم الذاتي[١٧] يحقّقون تقدُّمًا ويَنعمون بمتعةٍ أكبر. آه ! ما أعجبَ الله في كشفِ ذاته ، حين يريد ، دونما حاجةٍ الى مساعداتنا البائسة ! عندئذٍ ، مهما فَعَلْنا ،

---

(١٥) راجع فصل ١٤ من هذه السيرة.

(١٦) إشارة الى قصّة مرتا ومريم مع المسيح ، **لوقا** ١٠ ، ٣٩.

(١٧) «بجهدهم الذاتي» : أي يرفعون «بجهدهم الذاتي» روحَهم لتذوُّقِ أشياءِ فائقة الطبيعة. والقديسة ترفض هذا الرأي. من هنا كلامُها الساخر على «مساعداتنا البائسة» التي لا يحتاج اليها الله.

فإنه يَخطَف روحَنا كما يرفع عملاقٌ قَشَّةً ، ولا تفيدُ معه مقاومة . ما أسخفَنا حين نعتقد أن الله عندما يُريدُ أن يَطيرَ الضِفدعُ ، ينتظِرُه ليطيرَ من تلقاءِ نفسه ! بل إني لأرى روحَنا أثقلَ وأصعبَ من أن يرتفعَ ما لم يرفعْه الله ؛ ولأنه مثقلٌ بالتراب وبألفِ عائق ، فتكادُ لا تُجدِيه رغبتُه في الطيران. ومع أن الطيرانَ أقربُ الى طبعه منه الى الضفدع ، فإنه غارقٌ في الوحلِ أيّما غرقٍ بحيث فَقَدَ هذه القدرةَ بذَنْبِه.

حبّ الله يستدعي حبّنا

١٤. أودّ أن أختم كلامي بهذا الرأي : كلّما وجَّهنا فكرَنا نحو المسيح ، فلنتذكّر بأيّ حبٍ أغدقَ علينا هذه المنن الجزيلة ، وما أعظمَه حبًّا أظهره لنا الله بإعطائه إيّانا هذا العربون عنه . فالحبّ يستدعي الحبّ. حتى لو كنّا في بداية عهدِنا ورغم حقارتِنا ، فلنعملْ على أن ننظرَ هذا الأمرَ دائمًا ، ونستحثّ ذاتَنا على الحبّ. فإذا تفضّل الربُّ علينا يومًا بأن ينطبعَ هذا الحبُّ في قلبنا ، فكلُّ شيءٍ يَهُون علينا ونعمل في أقصر وقتٍ دون أدنى مشقّة. ألا وإنه ، جلَّ جلالُه ، يعرف كم يلائمُنا هذا الحبّ ، فليعطِنا إيّاه بحقّ الحبِّ الذي أحبّنا به ، وبِحقِّ ابنِه المجيد الذي على حسابِه أظهر هذا الحبَّ لنا ، آمين.

تساؤل حول مفاعيل الانخطاف

١٥. أودّ أن أطرح على حضرتِك مسألةً : حين يبدأُ الربُّ بأن يُسبغ مننًا ساميةً بهذا القدْرِ على نفسٍ ، كأن يَبلغَ بها الى التطلّع الكامل ، فالمعقولُ أن تصير كلُّها كاملةً في الحال ، (أقولُ « المعقولُ » ، حقًا ، لأن من يحصلُ على نعمةٍ عظمى كهذه لا يعود يرغبُ في التعزيات الأرضية) ؛ فلِمَ ، إذًا ، في حال الإنخطاف ، وحين تكون النفسُ معوّدةً على نوال مننٍ، تبدو وكأنها تحصل على أسمى المفاعيل؟ وبقدر ما تكون هذه ساميةً بقدر ذلك تزداد النفسُ تجرُّدًا ، في حين أن الربّ عندما يُدركها يمكنه أن يجعلَها ، في لحظةٍ ، مقدَّسة؟ وكيف يرفعُها الربّ فيما بعد الى الكمال في الفضائل ، شيئًا فشيئًا ، مع مرور الزمن ؟

هذا ما أودُّ معرفتَه لأنني أجهله. لكنّي أعرف أنّ القوّة التي ينفحنا الربّ بها في البدء، حين لا يدوم (ظهورُه) أكثر من طَرفةِ عينٍ ونكادُ لا نشعرُ به إلاّ من المفاعيل التي يخلِّفها فينا، تختلفُ عنها حين تدوم هذه النعمةُ طويلاً. ويبدو لي غالبًا أنَّ النفسَ إذا لم تكن على أتمِّ الاستعداد حالاً، فإنّ الربّ يرتِّبُها شيئًا فشيئًا، وينفحها عزمًا، ويعطيها قوةً رجوليةً لتدوس برجليها كلَّ شيء. إن ما فعلَه على الفور مع المجدليّة يفعلُه مع أناسٍ آخرين بقدْرِ ما يُتيحون له، جلّ جلاله، أن يفعل. ما زال يشقُّ علينا أن نصدِّقَ أنّ الله يُعطي، حتى في هذه الحياة، بدلَ الواحد مائةَ ضعفٍ(١٨).

طعام الحياة

١٦. كذلك كانت تراودُني هذه المقارنة: ما دامَ ما يُعطى للمتقدِّمين هو عينُه ما يُعطى للمبتدئين، فكأنه طعامٌ يَتناول منه أشخاصٌ كثيرون؛ فالذين يأكلون منه قليلاً يدوم لهم مذاقُه الطيّب برهةً، والذين يأكلون منه أكثر يغتذون به، وأما الذين يأكلون منه كثيرًا فيُعطيهم حياةً وقوّةً. ويُمكن النفسَ أن تأكلَ طعامَ الحياة هذا مرارًا، وبوفرةٍ، بحيث لا تجد لذّةً إلّا في أكله، لأنها تدركُ الفائدةَ التي تَجنيها منه، ويتعوَّدُ ذوقُها هذه العذوبةَ بحيث تُفَضِّلُ ألّا تعيشَ على أن تضطرَّ لتناولِ أطعمةٍ أخرى لا تصلُح إلّا لنزعِ المذاق الطيِّب الذي خلَّفه لها ذلك الغِذاءُ الشهيّ.

وكذلك فإن مصاحبةَ رجُلٍ بارٍّ يومًا لا تجعل مُطارحتَه الحديثَ ذاتَ فائدةٍ مثلَها حينَ تدومُ أيّامًا؛ فإذا استمرّت معاشرتُنا ايّاه طويلاً قد نصلُ الى مماثَلَتِه إذا ما ساعدَنا الله. وفي كلّ حال، فإنّ الأمرَ يعودُ لما يريد، جلّ جلاله، إعطاءه ولمن يريد. لكن لا بدّ لمن يَروحُ يحصُل على هذه النعمة من أن يصمِّمَ على التجرُّد من كلّ شيء، وأن يقدِّرَها حقَّ قدْرِها.

الله يعمل أيّ شيء لمن يُحبُّونه

١٧. وفي رأيي أيضًا أنه، جلّ جلاله، يروح يختبر من يحِبُّه، هذا أو

(١٨) لوقا ١٨، ٢٩ – ٣٠؛ مرقس ١٠، ٢٩ – ٣٠.

ذاك، كاشفًا له عن ذاتِه بلذَّةٍ سُميا ليُحْيِيَ فيه الإيمان، إذا كان ميتًا، بما أعدّه لنا، وهو يقول: «أنظروا: إنْ هذا إلّا قطرةٌ من بحر الخيرات العظيم». إنّه لا يكفّ عن عملٍ أي شيءٍ لمن يُحبّونه؛ وإذا رأى أنّهم يتقبّلونه فإنه يُعطيهم إيّاه، ويعطيهم ذاتَه. إنه يحبّ من يحبُّه، فَنِعْمَ الحبيبُ هو! ونِعْمَ الصديق!

آه، يا ربَّ نفسي! أنّى لي الكلماتُ أُوضِحُ بها ما تُعطيه الذين يَكِلُون أمرَهم إليكَ، وما يخسَره من يبلغون هذه الحالة ويظلّون متّكلين على أَنفسهم! هذا ما لا تريده، أنتَ، يا ربّ؛ فإنك لتفعل أكثر من ذلك إذ تحلّ في نزلٍ حقيرٍ كنزلي. مباركٌ أنتَ الى أبد الآبدين.

ضرورة الخبرة والفطنة

١٨. أعود فأتوسّل الى حضرتكَ: إذا تباحثتَ في ما كتبتُ حول مسائل التأمّل مع أشخاصٍ روحانيين، فليكونوا كذلك حقًّا؛ لأنهم إذا كانوا لا يعرفون سوى طريقٍ واحدٍ، أو إذا كانوا قد توقّفوا في منتصف الطريق فلن يُصيبوا في قولِهم. وهناك أشخاصٌ يقودُهم الربُّ منذ البدء في طريقٍ مرتفعٍ جدًّا، فيَخالون أنَّ الآخرين يُمكنهم أن يستفيدوا أيضًا هناك، وأن يُوقفوا العقلَ، ويستَغنوا عن الاستعانة بأشياءَ حسِّيّةٍ لكنّهم يصيرون جافّين كعودٍ يابس. أما البعض ممّن نعِموا بشيءٍ من تأمل السكينة، فيظنُّون أنهم، لِحصولِهم على حال، يستطيعون القيامَ بالآخر، وبدلَ أن يتقدَّموا فإنّهم، كما قلت، يتقهقرون. فالخبرةُ، إذًا، والفطنةُ ضروريّتان في كلّ أمر. ألا أنعمَ الله بهما علينا بجودته.

الفصل الثالث والعشرون

تعودُ الى الكلامِ على سيرتها وكيف وبأيّة وسائل بدأت تحاول البلوغَ الى كمالٍ أسمى. هذا الفصل مفيدٌ لمن يعملون في تدبيرِ نفوسٍ تمارس التأمل ليعرفوا كيف يجب التصرّف في بادئ الأمر؛ والفائدة التي جنتها من حسن التدبير الذي حظيتْ به

كتاب جديد

١. أودّ أن أعودَ الآن الى حيث تركتُ الكلامَ على سيرتي[١]، وقد توقّفتُ عنه، في ظنّي، أكثر ممّا كان عليّ أن أتوقّف، لعلَّ ما يلي يُفهَمُ فهمًا أفضل. إنّ ما سيأتي كتابٌ جديد، أعني حياةً أخرى جديدةً. ما رويتُه حتى الآن كان حياتي؛ أما التي عشتُها منذ أن بدأتُ الحديثَ عن أمورِ التأمل فكانت، في إعتقادي، حياةَ الله فيَّ. ففي معلومي، كان يستحيلُ عليَّ الانعتاقُ، في وقتٍ وجيزٍ، من عاداتٍ وأعمالٍ رديئةٍ جدًّا. تمجَّد الربّ الذي حرّرني من ذاتي.

بداية تحوّل

٢. ما إن شرعتُ في الهرب من الظروف الخطرة، وفي الإكثار من الإنصراف

(١) تستأنف الكلامَ على سيرتها الذي قطعته في الفصل ١١ حيث بدأت الحديثَ عن التأمّل «ليُفهَم فهمًا أفضل» ما يلي من سيرتها، أي قصّة حياتها الصوفية.

الى التأمل ، حتى بدأ الربّ يُسبغ عليّ منَنه . فكأنه كان يشتهي ، على ما يبدو ، أن أتمنّى قبولَها . لقد أخذ ، جلّ جلاله ، يمنحني في الغالب* تأمّلَ السكينة ، بل وفي أغلب الأحيان تأمّلَ الإتحاد الذي كان يدوم طويلاً . ولأن نساءً ، في تلك الأيام ، كُنَّ قد سقطنَ ضحيَّةَ أوهامِ الشيطان وخدائِعه[2] ، أخذَ الخوفُ يساورني لعِظَمِ اللذَّةِ والعذوبة اللتين كنت أشعر بهما ولا أتمكّن ، غالبًا ، من تحاشيهما ؛ ولأنني كنت أتبيَّن في نفسي ، من ناحيةٍ أخرى ، يقينًا ثابتًا بأن ذلك كان من الله ، خصوصًا أثناء التأمّل ؛ وكنت أراني في ختام التأمّل أحسنَ كثيرًا منّي قبلاً ، وأقوى. لكن ، ما إن يَشرُدُ فكري قليلاً حتى يعاودَني الخوف ، وأفكّرَ في ما إذا كان الشيطان ، وهو يوهمني بصلاحِ الأمر ، يريدُ أن يُعطِّلَ عقلي ليَحرِمَني التأمل ، وأن لا أتمكّنَ من التفكير في آلام المخلِّص ، أو من إستخدامِ العقل. ولأني ما كنتُ لأفهمَ ذلك ، كنت إخاله خسارةً كبرى.

البحث عن مرشد

٣. ولما كان ، جلّ جلاله ، يريد حينذاك أن يعطيَني نورًا كي لا أغيظَه بعد ، وأُقِرَّ بكلِّ ما كنتُ مدينةً له به ، فقد ازدادَ خوفي بحيث دفعني الى البحث جديًّا عن أشخاصٍ روحانيين أتداولُ وإيّاهم . وكان خبرُ بعضِهم قد بلغني لأن الآباءَ اليسوعيين كانوا قد جاؤوا الى هنا ؛ وكنت أُكِنُّ لهم مودّةً كبرى ، على عدم معرفتي أيًّا منهم ، لِمَا علمتُ من طريقةِ حياتِهم وتأمُّلِهم . غير أني ما كنت أجدني أهلاً لأن أُحادِثَهم ، ولا قويّةً لأطيعَهم . وهذا ما كان يَزيدُني خوفًا ، إذ كان يشقّ عليّ أن أتعاملَ وإيّاهم وأنا على ما كنت عليه.

---

(٢) إشارة الى تكاثر مدّعي الرؤى في العقود السابقة ممّا دفع محاكم التفتيش الى التدخل ، واتخاذ مواقف قمعيّة . ومن أبرز الدعاوى تلك التي أُقيمت ضدّ الأخت ماغدالينا دي لا كروث Magdalena de la Cruz ، رئيسة راهبات القديسة كلارا في قرطبة بعد أن خدعتْ أكاذيبُها حتى أهلَ البلاط ، «وأثارت تلك الدعوى دهشةَ اسبانيا بأسرها».

علاج النفس في تداولها مع أصدقاء الله

٤. بقيتُ فترةً على تلك الحال الى أن عزمتُ، بعد أن عانيتُ الكثيرَ من الصراعِ الداخلي والمخاوف، على مذاكرةِ شخصٍ روحانيٍّ لأَستوضحَه ماهيّةَ التأمل الذي أمارسه، ولينيرَ سبيلي إذا كنتُ على ضلال، وعلى عمل كلِّ ما أستطيع كي لا أهينَ الله؛ لأن ما كنت أراه فيّ من ضعفِ العزيمة، كما قلت، كان يُرهبني. أعوذُ بكَ يا إلهي! يا له من ضلالٍ رهيب! فرغبةً منّي في أن أكونَ صالحةً كنتُ أبتعدُ عن الخير! لا شكَّ في أنّ الشيطان يتهالكُ على هذا الأمر حين يكونُ الإنسان في أوّل عهدِهِ بالفضيلة؛ فأنا ما كنت أستطيع أن أتغلّبَ على ذلك. إنه يعرف أنَّ عِلاجَ النفس، كلَّ علاجها، في تداولِها مع أصدقاء الله؛ ولم يكن هناك ما يجعلني أعزِم على هذا التداول. كنت أنتظرُ أن أُصلِحَ نفسي أولاً، مثلي عندما انقطعتُ عن التأمّل[٣]؛ ولعلّي ما كنت أستطعت تحقيقَ ذلك أبدًا لأنني كنت منغمسةً في هفواتٍ عاديّةٍ سيِّئةٍ لم أكن أدرك أنها سيِّئة، بحيث كنت أحتاج الى من يساعدني ويمدّ إليّ يدَه ليُنْهِضَني من كَبوتي. تباركَ الربّ لأن يدَه، في آخر المطاف، كانت أوّلَ يد.

تقدّم في التأمل وخوف

٥. ولما رأيتُ أنّ خوفي يزدادُ مع تقدُّمي في التأمل، حسِبتُ أنّ في الأمر خيرًا عظيمًا أو شرًّا فظيعًا. لقد كنت أدركُ جيِّدًا أن ما يحصل لي كان أمرًا فائقَ الطبيعة إذ إنني كنت أعجزِ أحيانًا عن مقاومته، كما كان يستحيلُ عليّ تحقيقُه حين أرغب فيه. واستنتجتُ أنْ لا علاجَ إلّا أن أجِدَّ في تنقية ضميري والإبتعادِ عن كل ظروف الخطيئة، ولو كانت عرضيّةً؛ فإذا كان من روح الله، كانت الفائدة ظاهرةً؛ واذا كان من عمل الشيطان، فان أذِيَّتَه لي تكون طفيفةً، بل إنه يرتدّ خاسرًا إذ أجِدُّ في إرضاءِ الربّ واجتنابِ إغاظته. وإذ عزمتُ على الأمر، رحتُ أتوسّل الى الله باستمرار ليساعدَني؛ وحاولتُ، خلال بضعة أيام، أن أُطبِّقَ ما ذكرت، فرأيتُ أنّ

---

(٣) راجع سيرة ٧، ١.

نفسي تُعْوِزُها القوّةُ لتبلغَ بذاتِها هذا الكمالَ السامي ، لأنها كانت متعلِّقةً بأشياءَ تكفي لِتُفسِدَ كلَّ شيء ولو لم تكن بطبيعتِها سَيِّئةً .

سيرة أحد النبلاء الحسنة

٦. حدّثوني عن كاهنٍ عالم كان يَقطن في هذه المدينة[٤] ، وكان الربّ قد أخذ يُظهِرُ للناس صلاحَه وحُسنَ سيرته . فحاولتُ الاتصالَ به بواسطة سيِّدٍ نبيل[٥] وَرِعٍ من تلك الناحية ، والنبيلُ متزوّجٌ ، لكنه ذو سيرةٍ مثاليَّةٍ فاضلة ، وهو مُكِبٌّ على ممارسة التأمل والمحبّة بحيث إنه كان يتألّق صلاحًا وكمالاً . وإنما ذلك بحق ، لأنه صنع خيرًا كثيرًا لنفوسٍ عديدةٍ ؛ وقد أوتي من المواهب ما لا يستطيع معه أن يتقاعَس عن استخدامِها ولو لم تساعدْه على ذلك حالتُه . متوقّدُ الذهن ، دَمِثُ الأخلاق مع الجميع . حديثُه شائقٌ ، ومن الحلاوة ، والظرف ، والاستقامة ، والتقوى ، بحيث يُفرِح كلَّ من يتعاملِ وإياه . يرتِّبُ كلَّ شيءٍ لخير النفوس التي يكالمها ، وكأن همَّه الوحيد أن يصنع لكلٍّ واحدٍ ما يستطيع ، وأن يُسعِدَ الجميع .

أمانته على التأمّل

٧. فهذا الرجل المبارك القديس كان ، في اعتقادي ، بلباقَتِه ، عِلَّةً لخلاصِ نفسي . كان تواضعُه يُثيرُ إعجابي . فهو وإن قضى ما يقارب الأربعين سنةً يمارس التأمل (لا أدري أسنتين أو ثلاثًا دون الأربعين) ، يحيا ، على ما يبدو ، حياةَ الكمال التي تسمح بها حالته . فزوجتُه متعبِّدةٌ لله أيَّ تعبّد ، ومُحِبَّةٌ أيَّ محبّة بحيث لا يمكن أن تُسببَ ضياعَه . والحقّ ، انَّ الله اختارها لتكون زوجةً لمن كان يعرف أنه سيكون

---

(٤) هو المعلِّم غاسبار داثا (+١٥٩٢).

(٥) هو فرنثيسكو دي سالثيدو ، من أطرف الشخصيات في سيرة القديسة . كان متزوّجًا من قريبةٍ لها . تابع الدروسَ اللاهوتية طوال عشرين سنة في معهد القديس توما للاخوة الواعظين في آڤيلا . بعد أن توفّيت زوجته سيم كاهنًا . وعندما توفي سنة ١٥٨٠ ، دُفن في دير القديس يوسف في آڤيلا ، وهو أول دير أسّسته القديسة ، في مصلّى مار بولس الذي أنشأه ، هو ، في الدير المذكور.

خادمًا له أمينًا. كان أقرباءُ له متزوّجين من أقرباءَ لي. وكان وثيقَ العلاقة بخادمٍ آخر من خدّام الله[٦]، متزوجٍ من إحدى بنات عمّي.

معرّف أول حازم

٨. بهذه الطريقة سعيتُ لأن يأتيَ لمكالمتي هذا الكاهن المتعبِّد لله، الذي ذكرت، وكان لذاك السيِّد النبيل صديقًا كبيرًا، وقد فكّرتُ بالإعتراف إليه واتّخاذه لي معلّمًا. واذ جاء النبيلُ به ليحادِثَني، وكنت مرتبكةً غايةَ الارتباك في حضرة رجلٍ ورعٍ مثله، أطلَعْتُه على حالِ نفسي والتأمّل الذي أمارس، لأنه ما أراد سَماعَ اعترافي؛ فقد قال إنه مشغولٌ جدًّا، وكان الأمر صحيحًا. وبدأ يعاملني، بعزمٍ صالح، معاملَتَه نفسًا قويَّةً، ولعلّي كنت كذلك إستنادًا الى ما عَرفه من التأمل الذي أصنعه، كي لا أهينَ الله في حالٍ من الأحوال. أما أنا، فعندما رأيتُه سريعَ العزم في هَناتٍ ما كنت أجدُ في ذاتي القوّة، كما قلتُ، لأنتصرَ عليها إنتصارًا كاملاً، فقد حزِنت. وحين رأيتُه يعتبر شؤونَ نفسي مسألةً يجب بتُّها دُفعةً واحدة، كنت أرى أنّ الواجب يقضي بِتأَنٍّ أوفر.

صرامة المعرّف تدفع الى اليأس

٩. في الواقع، أدركتُ أنّ الوسائل التي اقترحها عليّ لم تكن السبيلَ لإصلاح ذاتي، لأنها كانت تلائِم نفسًا أكثرَ كمالاً. أما أنا، ولو أني كنتُ متقدّمة في مِنن الله، فقد كنت في أوائل الفضائل والإماتة. وفي الحقيقة، لو كان عليّ أن أتعاملَ معه دون غيره، لما كانت نفسي، فيما أظنّ، تقدّمتْ البتّة، لأن الحزنَ الذي كان يأخذني حين أراني لا أفعل، ولا أستطيع، في ظنّي، أن أفعلَ ما يوصيني به، كان كافيًا ليجعلَني أفقِدُ الرجاءَ وأتركُ كلّ شيء.

(٦) الونسو الڤاريث دي آڤيلا، كان يُلقَّب بالقديس لشهرته في الفضيلة. وقد دخلت احدى بناته الرهبانية الكرملية في دير القديس يوسف (آڤيلا) ودعيت ماريا للقديس ايرونيموس.

وأَعجَبُ أحيانًا من أنه ، على كونِه أوتي نعمةً خاصّةً لتقريب النفوس الى الله ، لم يُتِحْ له الله أن يفهمَ نفسي أو يرغبَ في تعَهُّدِها ؛ على أني أرى ذلك قد حصلَ لخيرٍ أوفرَ لي ، حتى أتعرَّفَ الى أناسٍ أتقياء جدًّا ، كالآباء اليسوعيين ، وأتعاملَ معهم .

تواضع النبيل وتشجيعه لها

١٠. واتفقتُ مذ ذاك مع هذا السيّد النبيل الورع على أن يتفقَّدَني من حينٍ إلى آخر . فظهر تواضعُه الكبير حين ارتضى أن يتعامل وإنسانٍ حقيرٍ مثلي . بدأ يزورُني ويشجِّعُني ، ويقولُ لي بأنْ لا أعتقد بوجوبِ الإقلاع عن كلّ شيءٍ في يومٍ واحدٍ ، فإنّ الله يُوصلني الى ذلك شيئًا فشيئًا ؛ فهو نفسه قضى بضعَ سنوات للتغلّب على أمورٍ صغيرةٍ جدًّا . يا لكَ من تواضع ! ما أعظمَ الخيراتِ التي توفِّرها حيث تكون ، وللّذين يَدنون ممّن يَقتنُونك ! لقد كان هذا القدّيس (وأحسبني على حقّ في تسميته قدِّيسًا) يروي لي نقاطَ ضَعفٍ لديه أو ما كان يراه كذلك عن تواضع ، رغبةً منه في مداواتي . وإذا نظرنا الى حالته ، فإن نقاطَ الضعف تلك لم تكن خطأً ولا نقصًا ؛ أما في حالتي ، أنا ، فوجودُها كان خطأً فادحًا .

لا أقول ما أقول جُزافًا ، ويبدو أني أفيضُ في التفاصيل ؛ غير أنها من الأهمية بمكان لتشرَعَ النفسُ في التقدُّم ، وتأخذَ في الطيران (وهي لم ينبت ريشُها ، كما يقال) بحيث ليس مَنْ يصدِّق الأمرَ إلَّا من خَبِرَه . ولأني أرجو الله أن تفيدَ حضرتُكَ نفوسًا كثيرةً ، أقول ، هنا ، إن شفائي التام يعود الى معرفتِه معالجتي ، وتحلِّيه بالتواضع والمحبة ليكونَ الى جانبي ، وتألُّمِه حين يراني لا أصلِحُ ذاتي في كل شيء . كان يرشدُني بفطنةٍ وتُؤدةٍ ، الى وسائلَ لقهر الشيطان . وأخذتُ أُكِنُّ له مودّةً عميقةً بحيث ما كنت أشعر براحةٍ أكبرَ من راحتي يوم ألقاه ، على نُدورة اللقاءات . عندما كان يُبطئُ في المجيء ، كان يعتريني همٌّ كبيرٌ ، وأتصوّرُه يُعرِضُ عن زيارتي لِما أنا عليه من حقارة .

تخوّف النبيل وشكّه في مصدر الأفضال

١١. حين راح يطَّلِع على نقائصي الكبيرة، بل يمكن القول خطاياي (ولو اني أصلحت أمري بعد أن تعاملت واياه)، واذ أطلعته على المنن التي كان الله يتكرّم بها عليّ، حتى ينيرني، هو، قال إن هذا لا يتّفق مع ذاك(٧)؛ فتلك المباهجُ وقفٌ على المتقدّمين جدًّا في الفضيلة والإماتات، فلا يستطيع، هو، إلّا أن يكونَ كثيرَ الخوف لأنه يتصوَّر بعضَ الأشياء صادرةً عن روحٍ شريرٍ، ولو أنه لا يجزم بذلك؛ لكنه طلب إليَّ أن أفكِّر جيِّدًا في ما أعرفه عن تأملي وأخبرَه به. وإنما المشقّةُ كانت في أنني لا أعرف الإفصاح، في كثيرٍ أو قليل، عن طبيعةِ تأملي، لأن معرفةَ ماهيّة هذه النعمة ومعرفةَ الإفصاح عنها آتانيها الربّ منذ وقت قصير.

كتاب «الصعود الى الجبل» يوضح أحوالها

١٢. فقولُه هذا، الى جانب الخوف الذي كان يتملّكني، أثارَ فيّ غمًّا شديدًا وأفاض دموعي. وفي الحقيقة كنتُ أبتغي إرضاءَ الله ولا أستطيعُ الاقتناعَ بأنه عملُ الشيطان؛ غير أني كنت أخاف أن يُعمِيَني الله، بسبب خطاياي الكبيرة، فلا أفهم الأمرَ على حقيقته. ورجعتُ الى الكتب لعلّني أُحسِنُ شرحَ التأمل الذي أمارسه فوجدتُ، في كتابٍ عنوانه **الصعود الى الجبل** (٨)، بالنسبة الى اتحاد النفس بالله، جميعَ العلامات التي كانت تحصل لي أثناء تعطّل التفكير في أي شيء، فكان أكثر ما أقوله: إنني لا أستطيع التفكير في شيء عندما أكون في حالة التأمل تلك. ووضعتُ خطوطًا تحت تلك المقاطع، وأعطيتُه الكتابَ لينظرَ في أمره مع الكاهن الذي ذكرت، خادمِ الله الورع، ويُشيرًا بما عليّ أن أعمل. فاذا بدا لهما، تركتُ التأمل كليًّا، إذ ما الداعي لأن أُعرِّض نفسي لهذه المخاطر؛ فبعدَ عشرين سنةً تقريبًا من ممارستي إيّاه ما خرجتُ بفائدة، بل جنيتُ خِدَعَ الشيطان بحيث من الأفضل أن أُقلِعَ

---

(٧) أي إن الخطايا لا تأتلف مع الأنعام الصوفية.

(٨) **الصعود الى جبل صهيون بطريق التطلّع** من تأليف برنردينو لاريدو من الاخوة الصغار، طُبع في أشبيلية سنة ١٥٣٥.

عنه. وهذا أيضًا كان يشقّ عليّ، لأنني كنت قد اختبرت حالَ نفسي من دون تأمل. وهكذا كنت أرى كلّ شيء مضنيًا كإنسانٍ سقط في نهرٍ فيرى في كل ناحيةٍ يتّجه إليها خطرًا أدهى، وهو يكاد يغرق.

إنها لمشقّةٌ كبرى هذه، وقد عانيتُ مثلَها الكثير، كما سأروي فيما بعد. فلَئِن بدا الأمرُ لا طائلَ منه، فقد يكون ذا فائدةٍ أن نفهَمَ كيف يجب أن يُمتحن الروح.

واجب المرشد في حفظ السر

١٣. ولا جَرَمَ أنّ المشقّة التي تعانيها النفسُ لشديدةٌ. فمن الواجب اعتمادُ اللباقة، خصوصًا مع النساء، لأن ضعفَنا كبيرٌ؛ فقد يتأتّى لهنّ ضررٌ بالغٌ من القول لهنّ إنّ ذاك من عمل الشيطان؛ بل يجبُ النظر في الأمر مليًّا، وإبعادهنّ عن الأخطار التي قد تعترضهنّ، وتَوصِيتهنّ بأن يجتهدْنَ في حفظ الأمر سرًّا كما يجدر بالموصي أن يحفظَه.

وإنّما أتكلّم هكذا لأنه شقّ عليّ كثيرًا أن لا يكون البعضُ ممّن تداولت مسألة تأملي وإيّاهم قد حفظوا السرّ؛ فراحوا يسألون هذا وذاك، فأساؤوا اليّ أيّما إساءة حيث قصدوا لي الخير، إذ شاعت أمورٌ كان يجبُ أن تَبقى سرِّيةً، لأنها ليست مُعدّة للعموم، وكأني، أنا، من يُذيعها. في ظنّي أنّ الربّ سمحَ بهذا، دون أن يأتوا ذنْبًا، وذلك كي أتألم. لا أقول إنهم كانوا يَكشِفون ما أفضي إليهم في الاعتراف؛ لكن من حيث إني كنت أعرض لهم مخاوفي علَّهم ينيروني، كان عليهم، في رأيي، أن يَلزَموا الصمت. ورغم كل هذا، فلم أكُنْ أتجرَّأ قط على إخفاءِ أمرٍ عن أمثال هؤلاء الأشخاص.

والخلاصة، عليهم أن يعتمدوا كثيرًا من الرزانة في إرشاد النفوس، بتشجيعِهم إيّاها وصبرِهم عليها زمنًا، لأن الربّ يساعدها كما فعل معي؛ وإلّا لكان حصلَ لي أذًى ولا أشدّ لكثرة ما كنت واجلةً هيّابةً. وعلى شدّة ما كنت أعاني من ألم القلب، أُعْجَبُ كيف أنه لم يُصبني (تصرُّف المرشدين) بسوءٍ جسيم.

رأي أول : تأثير الشيطان

١٤. حين سلَّمتُ الكتابَ وتقريرًا عن حياتي وخطاياي بأوفى ما أمكنني بصورةٍ عامة – (لم يكن ذلك اعترافًا، لأن الرجلَ كان علمانيًّا، بل بالأحرى أفهمته ما أنا عليه من بؤس) –، نظر خادِما الله، بمحبّةٍ ورأفةٍ كبيرتين، ما يناسبني.

وجاءني الجواب الذي كنت أنتظرُه بخوفٍ كبير. كنت قد استشفعتُ الكثيرين فيّ الى الله، وقضيتُ تلك الأيام في الصلاة. وجاءني النبيل مُتعبًا وقال لي إنّ كليهما يريان الأمر من عملِ الشيطان، وإنّ ما يلائمني هو أن أتباحثَ وأحدَ الآباء اليسوعيين؛ فاذا دعوتُه متذرّعةً بحاجتي إليه، جاء؛ وعليّ أن أطلِعه، في اعترافٍ عام، على حياتي كلِّها ووضعي بوضوحٍ تام، فإنّ الله يمدّه بنورٍ أكثر، بقوّة سرّ التوبة. وهؤلاء الآباء خبيرون جدًا بشؤون الروح؛ وسألني أن لا أخرجَ عمّا يقوله لي قيدَ شعرة، لأنني أُعرِّض نفسي لأخطارٍ جمّة إذا لم يكن هناك من يرشدني.

خوف وعزاء

١٥. لقد سبَّبَ لي هذا الجواب من الخوف والغمِّ ما جعلَني لا أدري ما سيحلُّ بي؛ فما كنت أنفكُّ أبكي. وإذ كنتُ ذاتَ مرَّةٍ في مُصلًّى وقد غمَرني الأسى، لا أدري ما سيحصل لي، قرأتُ في كتابٍ، وكأن الربّ وضعَه بين يديّ، كلامَ القدّيس بولس: «**إنّ الله أمينٌ فلا يدعُ أبدًا من يحبّونه يسقطون ضحيَّةَ خداع الشيطان**»[٩]. فكان لي بذلك عزاءٌ أيُّ عزاء.

وبدأتُ أهتمُّ باعترافي الشامل وأسجِّل، كتابةً، كلَّ خير وكلّ شرٍّ فعلت، وعرضًا لحياتي بأوفر ما أمكنني وما عرفت من الوضوح، دون أن أُغفِلَ شيئًا[١٠].

أذكر أنني، بعدَ أن إنتهيتُ من الكتابة، رأيتُ تلك الكثرةَ من الشرور، ولا خيرَ تقريبًا، فاعتراني غمٌّ، وعناءٌ كبير. وكان يَشجيني أن تراني راهباتُ الدير

(٩) ١ قور ١٠، ١٣.
(١٠) لقد فُقد كلُّ أثر من هذا التقرير الثمين عن سيرتها الذاتية.

أتباحثُ مع اناسٍ وافري التقوى كالآباء اليسوعيين، لأنني كنت أخاف حقارتي، وأتصوَّرُني ملزمةً أن أتحرَّرَ منها وأُقلِعَ عن تسلياتي؛ وإذا لم أفعلْ صار الحال من سيّىءٍ الى أسوأ. فسألتُ الواهفةَ[11] والبوّابة ألّا يُطلعا أحدًا على الأمر. لكنّ ذلك لم يُجدِ نفعًا؛ فقد صادفَ، عندما استُدْعيتُ، وجودُ راهبةٍ عند المدخل فنشرتِ الخبرَ في الدير كلِّه. آه، ما أكثر العوائقَ والمخاوفَ التي يُقيمها الشيطان في وجه من يودّ الوصولَ الى الله!

معرِّفٌ آخر يطمئنُها ويشجِّعها

١٦. وتداولتُ وخادمَ الله ذاك[12] – وكان خادمَ الله حقًّا، وافرَ الفطنة – وكشفتُ له نفسي، كلَّ نفسي؛ وكإنسانٍ يعرف حقّ المعرفة هذه اللغة، شرح لي طبيعةَ حالتي وشجَّعني كثيرًا. قال لي إنه، بالتأكيد، روحُ الله، لكن عليّ أن أعودَ الى التأمّل لأن تأمّلي لم يكن قائمًا على أساسٍ متين، ولم أبدأ بعدُ بتقديرِ الإماتة (وكان هذا صحيحًا إذ كنت أجهل، كما يبدو لي، حتى معنى الكلمة)، كما يجب أن لا أهملَ التأمل في أيِّ حال، بل أن أجدَّ في ممارسته ما دام الله ينعم عليّ بهذه المنن الخاصة العميمة. ومن يدري إذا كان الربّ يريد، بواسطتي، أن يصنعَ خيرًا لكثيرين؟! وقال لي أمورًا أخرى (وكأنه تنبّأ بما صنعه الربّ معي فيما بعد)، وإني آتي ذنبًا كبيرًا اذا لم أتجاوبْ والمننَ التي يمنحُنيها الله. كنت إخالُ الروحَ القدسَ ينطق بكل كلمةٍ يقولها ليشفيَ نفسي بقدرِ ما كانت الكلمة ترسخ فيها.

توجيهات حازمة

١٧. وأَحدثَ فيّ إضطرابًا بالغًا؛ لقد وجَّهَني بوسائل كان من شأنِها أن تبدِّلني تبديلاً كاملاً. ما أعظمَ أن تُفْهَمَ نفسٌ! طلبَ إليّ أن أتأمَّلَ كلَّ يومٍ بمرحلةٍ

(١١) الواهفة: الراهبة المكلّفة بتدبير الكنيسة (قندلفت).
(١٢) دييغو دي ثِتينا (١٥٣١ – ١٥٧٢). معرّف القديسة في صيف ١٥٥٥.

من آلام المخلِّص ، وأستفيدَ من ذلك ، وأن لا أفكِّرَ إلَّا بناسوت المسيح ، وأن أقاومَ ، ما أمكنني، الاختلاءَ والعذوباتِ بحيث لا أُفسِح لها مجالاً حتى إشعارٍ آخر من قِبَله.

عزمها على طاعة المعرّف

١٨. وتركني مملوءةً تعزيةً وشجاعةً. وساعدَني الربّ كما ساعده ليفهمَ حالي وكيفَ عليه أن يوجِّهَني. وعقدتُ العزمَ على أن لا أخرجَ في أيِّ شيءٍ ممّا أمرني به ، فثابرتُ على ذلك الى اليوم. تمجّدَ الربّ الذي أعطاني نعمةً لأُطيع معرِّفيَّ ، ولو طاعةً ناقصة ، وقد كانوا دائمًا تقريبًا من آباء الرهبنة اليسوعية المباركين. وأُكرّر أنني إمتثلتُ لتوجيهاتِهم ولو بصورةٍ ناقصة. وبدأتْ نفسي تحقِّقُ تحسُّنًا ملحوظًا ، كما سأروي فيما يلي.

الفصل الرابع والعشرون

تتابُع الكلامَ على الموضوعِ نفسه وتتحدثُ عن الفائدة التي جَنَتْها نفسُها منذ أَنْ بدأتْ تلتَزِمُ الطاعَة ، وعن قِلَّةِ الجدوى من مقاومةِ أنعامِ الله ، وكيف أنه ، جلَّ جلالُه ، كان يُغْدِقُها عليها عميمةً

تغييرٌ ظاهر

١. صَيَّرَ ذلك الاعترافُ نفسي طيِّعَةً بحيثُ لم يَكُنْ من أمرٍ إلّا وأَراني مستعدَّةً لتحقيقِه. وهكذا بدأتُ التغييرَ في مسائلَ عديدةٍ ولو أنّ المعرِّفَ لم يكنْ يُلحُّ عليَّ ، بل على العكس ، كان يبدو قليلَ الاكتراثِ بكلِّ شيء. وهذا ما كانَ يَحثُّني أكثر لأنه كان يقودني في طريقِ محبّةِ الله ، فكأنَّه كان يتركُ لي الحريّة ، لا يضغَطُ عليّ إلّا في ما أَلزِمُ به ذاتي عن مَحبَّة.

سِرتُ على هذه الحال شهرَين تقريبًا أبذُلُ غايةَ قدرتي في مقاومةِ مباهِجِ اللهِ ومننه. أما في الخارج فكان التغييرُ ملحوظًا ، لأنَّ الربَّ كان قد بدأَ يمنحُني الشجاعةَ لأقومَ ببعضِ أشياء كانت تبدو ، لأشخاصٍ يعرفونني ، وحتى لراهباتِ الدير نفسه ، تطرُّفًا. كانوا على حقٍّ في اعتبارِها تطرّفًا اذا ما قورنتْ بما كنت أَفعلُه قبلاً ، لكني كنت ما أزالُ مقصِّرةً عمّا أَلتزِمُ به تُجاهَ ثوبي ونذوري الرهبانية.

ازدياد أنعام الله عليها

٢. كسِبتُ من مقاومتي هذه المسرَّاتِ والمباهج الإلهية تعليمَ الله إيَّاي، جلّ جلاله. ففي السابق، كنتُ أحسَب أنّ الحصولَ على مباهجَ في التأمل يَلزمه ركونٌ تام، فكنت أكادُ لا أجرؤُ على التحرّك. وبعد ذلك رأيتُ أن لا أهميَّةَ للأمر. فحينَ كنتُ أُكثِرُ من التلهّي، كان الربّ يُكثِرُ من سَبغِه عليّ تَينِك العذوبةَ والمجدَ فإخالُهما يغمُرانِني كُلِّيًّا فلا أستطيعُ الهربَ من أَيَّةِ ناحية. وهكذا كان. وكنت أبذُلُ جَهدًا بالغًا في المقاومةِ حتى يُصيبَني العياء. لكنَّ الربَّ كان يهتمُّ أكثرَ بإغداقِه المنن عليّ وبإظهارِه نفسَه، في هذين الشهرين، أكثرَ بكثيرٍ مما كان من عادتِه أن يفعلَ، لأَفهمَ بصورةٍ أفضل أن لم يعدْ لي في الأمرِ حيلةٌ.

بدأتُ أستعيدُ حبّي لناسوتِ المسيح المقدَّس. وبدأَ تأملي يرسخ كبناءٍ ذي أساسٍ متين. وشرعتُ أَميلُ الى ممارسةِ أعمال التوبة التي كنت أهملْتُها بسبب أمراضي الشديدة. وقال لي ذلك الكاهن الورع الذي سمعَ إعترافي إنّ بعضَ الإماتات لا تصيبُني بسوءٍ؛ ولعلَّ اللهَ كان يُنزِلُ بي تلكَ الأمراضَ كلَّها لأنني ما كنتُ أمارسُ التقشّف؛ فلهذا كان يريد، جلَّ جلالُه، أنْ يَفرضه عليَّ. فأمَرَني مُعرِّفي بصُنْعِ بعضِ إماتاتٍ لم تكنْ توافِقُ ذوقي؛ فكنتُ أحسَبُ أنَّ الربَّ يأمرني بها، وأنه يعطي معرِّفي النعمةَ ليأمُرَني بما أتمكّنُ من إطاعته. صارت نفسي، منذئذٍ، تتأثَّرُ من أي إهانةٍ أُغيظُ بها الله مهما كانت صغيرةً، بحيثُ إذا اقتنَيتُ شيئًا زائدًا عن حاجتي ما كان يُمكِنُني الإخلادُ الى الخلوةِ قبل أن أتخلَّصَ منه. وكنت أُكثِرُ التوسّلَ الى الرب ليأخذَني بيده وأن لا يسمحَ بأن أعودَ الى الوراء لأني كنت على صِلةٍ بإثنين من خدَّامِه؛ ولكنتُ أعتبرُني أتيتُ ذنبًا كبيرًا لو أنهما فقدا تأثيرَهما بسببي.

لقاء الأب فرنثيسكو: طمأنينة وعزاء

٣. في هذه الأَثناء جاءَ الى هذه المدينة الأبُ فرنثيسكو[1]، الذي كان دوقَ

---

(١) الأب (القديس) فرنثيسكو دي بورخا اليسوعي. عيّنه القديس أغناطيوس مفوَّضًا على أقاليم الرهبانية في اسبانيا. صار رئيسًا عامًا عليها. قابل القديسة تريزا في صيف ١٥٥٥ وربما في نيسان ١٥٥٧.

غانديا، وكان، قبل عدّة سنوات، قد تركَ كلَّ شيء فدخل الجمعية اليسوعية. فَسهَّلَ لي مُعَرِّفي، وكذلك النبيلُ الذي ذكرتُ أنه زارني، أن أحادِثَه وأَعرُضَ له التأمّلَ الذي أمارِس، لأنه كان يعرفُ أن اللهَ حباه بأفضالٍ ومباهجَ وفيرةٍ فكأنه يُكافئُ، حتى في هذه الحياة، من تركَ الكثيرَ حبًّا به.

فبعدَ أَنِ استمعَ إليَّ قال إن هذا روحُ الله، ويرى أنه لم يعدْ يَحسُن أن أُقاومَه، ولو انَّ مقاومَتي حتى ذاك الحين كانت معقولةً؛ وأوصاني أن أبدأً تأملي دائمًا بمشهدٍ من مراحل الآلام، وأن لا أُبدِيَ مقاومةً إذا رفعَ الربُّ روحي، بل أن أدعَه، جلَّ جلالُه، يرفعه، وأن لا أحاولَ، أنا، ذلك. لقد أعطاني العلاجَ والنُصحَ كإنسانٍ متقدّمٍ في الكمال؛ وللخبرةِ دورُها الكبيرُ في هذا المجال. وأضافَ أنّ الاستمرارَ في المقاومة ضلالٌ.

فتعزّيتُ أيّما تعزيةٍ، وكذلك الرجلُ النبيل أيضًا إطمأنَّ بالاً للقولِ إن الأمرَ من عملِ الله، وكانَ يساعدُني دائمًا ويشيرُ عليَّ بما أمكنه؛ وكان ما يُمكِنُه كثيرًا.

إتّصالها بالآباء اليسوعيين

٤. في تلك الفترة، نُقِلَ مُعرِّفي من هذه المدينة الى أخرى، فأسِفتُ لذلك أيّما أسفٍ، إذ حسبتُني سأعودُ الى حقارتي السالفة، وسيَستحيلُ عليّ أن ألقى نظيرًا له. فصارت نفسي، وكأنّها في صحراء، حزينةً جدًّا، خائفةً. وما كنت أدري ما العمل. فَسَعتْ قريبةٌ لي لأن تَصطَحبني الى منزِلها، وسعيتُ، حالاً، للاتّصالِ بمعرِّفٍ آخر من الآباء اليسوعيين. وتكرّم الربّ فارتبطتُ بصداقةٍ مع سيِّدةٍ أرملةٍ رفيعةِ المُقام[٢] تَعْكِفُ على التأمل، وكانت على اتصالٍ وثيقٍ بهم. فحملَتْني على الاعتراف لدى معرِّفها، ومكثتُ في منزِلها أيامًا عديدةً، وكانت تقطُنُ قربَ منزِلهم. وكنتُ

(٢) دونيا غيومار دي اوليووا. ترمّلت في الخامسة والعشرين من عمرها. عاشت حياةً روحيةً عميقةً. صارت صديقةً حميمةً للقديسة تريزا وأدّت لها خدماتٍ ممتازةً حاولت أن تعيش في الرهبنة، لكن صحتها لم تساعدها.

سعيدةً لاتِّصالي بهم غالبًا، لأن مجرَّدَ إدراكي قداسةَ محادثاتِهم كان يجعلُ نفسي تشعرُ بنفعٍ كبير.

إنخطافٌ للمرّة الأولى

٥. بدأ هذا الأب [٣] يدفعُني الى كمالٍ أسمى. كان يقولُ لي إنّ إرضاءَ الله إرضاءً تامًّا يَفرضُ علينا ألّا نُهملَ شيئًا. وكان يُعامِلُني بكثيرٍ من الدِراية والرقّة لأنَّ نفسي لم تكنْ بعدُ قويّةً، بل كثيرةَ اللينِ، خصوصًا للتخلّي عن بعضِ صداقاتي. ولَئِن ما كنتُ أهينُ اللهُ بسببِها فإن المودَّةَ كانت شديدةً، فكنتُ أرى الانقطاعَ عنها عقوقًا. وكنت أقول لِمُعرِّفي: ما دمتُ لا أهينُ اللهَ بارتباطي بهذه الصداقات، فلِمَ التنكّرُ لها؟ فنصحَني بأن أَكِلَ الأمرَ الى الله بضعةَ أيام، وأن أتلوَ نشيدَ «**هلمّ أيُّها الخالق**» [٤] ليهدِيَني بنوره الى ما هو خير. وذاتَ يومٍ إذ أطلتُ التأمّلَ والتوسُّلَ الى الربّ ليساعدَني في إرضائِهِ بكلِّ شيء، وإذْ أخذتُ أتلو النشيدَ أخذَني بغتةً إنجذابٌ كاد يُخرِجُني من ذاتي. وما شككتُ في الأمرِ لأنه كان مشهورًا. وكانت تلك المرة الأولى التي تكرَّم الله عليّ بنعمةِ الانخطاف [٥]. وسمعتُ هذه الكلمات: «**لا أريدكِ بعدُ أن تُحادِثي الناسَ بلِ الملائكة**». إستشعرتُ رهبةً عظمى لأن فورةَ النفسِ كانت شديدة، وهذه الكلماتُ قِيلَتْ لي في أعماقِ روحي. وهذا ما سبَّبَ لي خوفًا، كما أَحْدَثَ فيّ، من ناحيةٍ أخرى، عزاءً كبيرًا بقيَ ثابتًا عندما تبدَّد الخوفُ الذي أصابني لجِدَّةِ الظاهرة، في اعتقادي.

صداقتها ترتبط بمحبة الله

٦. وتمّ كل شيء على أكملِ وجه، فلم أستَطِعْ، من بعدُ، أن أتشبَّثَ بصداقة، أو أَحْصُلَ على تعزيةٍ، أو أَشعُرَ بحبٍ خاص إلّا نحوَ أشخاصٍ أعرفُ أَنهم

---

(٣) الأب خوان دي برادانوس اليسوعي من كلاهورّا. سيم كاهنًا سنة ١٥٥٤.

(٤) نشيد للروح القدس باللاتينية Veni Creator Spiritus.

(٥) حدث لها ذلك سنة ١٥٥٦ أو ١٥٥٨.

يُحِبُّون الله حبًّا خاصًا ويسعَون الى خدمته. لقد استحالَ عليّ ذلك، ولا يهمُّني أكانَ هؤلاء أقوياء أو أصدقاء. إذا لم أعرف لدى الشخص هذا الشعور، وأنه شخصٌ يمارس التأمّل، فعلاقتي به، كائنًا من كان، صليبٌ لي ثقيل. هكذا أرى الأمرَ بالنسبة إليّ، بكلِّ إخلاصٍ، دونَ استثناء.

«بدّلني الربّ في لحظة»

٧. منذ ذلك اليوم، صار لي من الإقدام ما جعلَني أتركُ كلّ شيء حبًّا بالله الذي، في تلك اللحظة – ولا أحسبُ الأمرَ دامَ أكثرَ من لحظة – بَدَّلني، أنا، أَمَتَه، تبديلاً. فلم يَكُنْ من ثَمّ واجبٌ أن أتلقّى بعدُ أمرًا بهذا الموضوع؛ فإنّ مُعرِّفي، لمّا كانَ يراني وثيقةَ الإرتباطِ بهذه العلاقةِ لمْ يجرُؤْ على أن يأمرني صراحةً بقطعِها. كان ينتظرُ، ولا شكّ، أن يعملَ الربُّ، كما عملَ في الواقع. وأنا نفسي، لم أعتقدْ أنّني سأنجحُ في سعْيي، لأنني كنت قد حاولتُ ذلك فسبَّبَ لي حزنًا كبيرًا، فعدلتُ عنه عدولي عن شيء لا أرى فيه ضَيْرًا. وفي ذلك اليوم أعطاني الربُّ الحريَّةَ والقوّةَ لأضعَه موضعَ التنفيذ. أطلعتُ معرّفي على الواقع وتخلَّيتُ عن كلِّ شيءٍ وِفقَ ما أمَرَني به. وقد أحدثَ تصميمي هذا نفعًا جزيلاً للشخصِ الذي كنتُ أتداول واياه.

أعطاني الله الحرية

٨. تباركَ الله الى الأبد لأنه، في لحظةٍ، أعطاني الحريةَ التي لم أَحْصَلْ عليها بنفسي طوالَ سنواتٍ عديدةٍ، رُغْمَ كثرةِ المساعي التي كنتُ قد بذلتُها وصَرفي من الجهدِ، غالبًا، ما كان يُرهِقُ صِحَّتي. وعلى أنّ الأمر صنعَه القادرُ، والسيّدُ الحقيقي لكل شيء، فلم يسبِّبْ لي من الحزنِ أدناه.

الفصل الخامس والعشرون

تشرحِ الطريقةَ والأسلوبَ اللذين يُبَلِّغ بهما الربُّ النفسَ كلامَه دون أن يُسمَعَ ، وتعرِض بعضَ الخداعِ الممكنةِ الحصول وكيف يُتَحقَّقُ من ذلك. هذا الفصل ذو فائدةٍ كبرى لمن بلغ هذه الدرجة من التأمل ، لأن الموضوع معروضٌ بوضوحٍ والتعليمُ فيه رفيع

حديث الله الى النفس

١. أعتبر مفيدًا أن أوضح كيف يتمُّ حديثُ الله هذا الى النفس وما تشعر ، هي ، به لِتفهمَه حضرتُكَ. فمنذ أن صنعَ الربّ معي هذه النعمة[1] ، كما ذكرتُ ، تحصُل لي حتى الآن ، بشكلٍ مألوفٍ ، كما سيُرى من خلال ما أرويه.

إنها كلماتٌ تامَّةُ الصياغة لكنّها لا تُسمَع بأُذُنِ الجسد ، بل تُفهَم بوضوحٍ أكبر مما لو تُسمَع سمعًا. ومن العبثِ أن تَرْفُضَ فهمَها ، ولو قاومتَ الفهمَ بشدَّة. فعندما لا نريد أن نصغيَ في هذه الدنيا يُمكننا أن نسدَّ أُذنَينا أو نوجِّه انتباهَنا لأمرٍ آخر فلا نفهم ولو أننا نسمع. أما في حديث الله الى النفسِ فلا وسيلةَ تنفع ، بل يَفرِضُ عليّ سماعَه ، على رغمي ، والعقلُ في وعيِه الكامل ليدركَ ما يريد الله ان نفهمَ ، فلا يكفي أن نريدَ أو لا نريد. فإن القادرَ على كلّ شيء يريد إفهامَنا أَنَّ علينا صنعَ ما يريد ،

---

(١) أي نعمة الانخطاف المذكور في سيرة ٢٤ ، ٥.

وأَنْ يَظهر سيِّدًا لنا حقيقيًّا . هذا ما خَبِرتُه بنفسي جيِّدًا ، لأن مقاومتي إستمرَّت نحوًا من سنتين ، رغمَ الخوف الشديد الذي كان يتملَّكني ؛ وأُحاولُ المقاومةَ الآن أحيانًا ، لكن من دون جدوى.

تمييز الأرواح

٢. بودِّي أن أكشفَ الأضاليلَ التي قد نقع فيها هنا[٢] ، (ولو أنّ من توفّرتْ له خبرةٌ كبيرةٌ يكون خطرُ الضلال عليه ، في رأيي ، ضئيلاً أو معدومًا ؛ على أن تكونَ الخبرةُ راسخةً) وأُوضِحَ الفرقَ بين أن يكونَ حديثَ روحٍ صالحٍ أو شريرٍ ، وكيف يمكن أن يكونَ الحديثُ أيضًا توهُّمًا ذهنيًّا ، وهذا ما يمكن حدوثُه ؛ ويمكن أن يخاطِبَ الروحُ نفسَه (لا أدري إذا كان يمكن أن يحدُثَ هذا الأمر ، بل قد بدا لي اليومِ ممكنًا) . أما أن يكون المتكلِّمُ الله ، فقد تيقَّنتُ من ذلك بأمورٍ كثيرةٍ قيلَت لي منذُ سنتين وثلاث سنوات وتمّت جميعُها ، وحتى الآن لم يَظهر بطلانُ واحدةٍ منها ، وبأمورٍ أخرى تُبَيِّن بجلاءٍ أن هذا الحديثَ من روح الله ، كما سأروي فيما بعد.

حديث الربّ كلام وأعمال

٣. قد يحدث ، في رأيي ، أنّ انسانًا ، وهو يتوسّل الى الله في أمر ما ، بحبٍّ كبير وتوهُّمٍ عظيم ، يتصوّر نفسَه يدرك أنّ هذا الأمرَ سيحصُل أو أنه لن يتحقق. إنّ هذا لَمُمكِنٌ. أما من سمعَ بالطريقة الأخرى[٣] فيرى الأمر بوضوح ، لأن الفرق بين الطريقتين كبير. فإذا كان أمرًا من إختراع العقل ، مهما كان دقيقًا ، فَهِمَ أنّه هو الذي يَنْظِمُ شيئًا ما وينطِق ؛ ولا يعدو دورُه في هذا الحال ترتيبَ الحديث ، أو الإصغاء الى ما يقوله الآخر. ويرى العقلُ عندئذٍ أنّه لا يُصغي ، بل يعمل ؛ وتكون الكلمات التي يخترعها كأنها صمّاء ، صنيعةُ الوهم ، يُعْوِزُها وضوحُ الكلمات الأخرى. وهنا يكون

(٢) في حديث الله الى النفس.
(٣) باللغة الصوفية كما وصفت ذلك في المقطع الأول.

باستطاعتنا أن نتلهّى أو أن نصمتَ عندما نتكلَّم ؛ أما في الحال الأخرى فلا نستطيع أن نضع للكلامِ حدًّا.

والعلامة الفارقة الأخرى الأهمّ، أنّ هذا الحديث لا يؤتي مفعولاً[٤] بينما حديثُ الربّ كلامٌ وأعمال ؛ ولو أنّ هذه الكلماتِ ليست لتحريكِ العبادة بل هي عباراتُ مَلاَمَةٍ فإنها ، منذ الكلمة الأولى ، تُعِدُّ النفسَ ، وتُؤَهِّلها ، وتحرِّك عواطفَها ، وتنيرُها ، وتعطيها بهجةً وسكونًا. وإذا كانت النفس تعاني من الجفاف ، أو من الاضطراب والقلَق ، فإنها تتبدَّدُ كأنّها تُكْشَحُ باليد ، بل كأنّ الربّ يريد إفهامَها أنه قديرٌ وأن كلماتِه أعمالٌ.

تأثير حديث الله

٤. فالفرق ، كما أرى ، كالفرق بين الكلام والسماع ، لا أكثر ولا أقلّ. فحين أتكلَّم ، كما سلفَ القول ، أُرتِّبُ كلامي بواسطة العقل ؛ أما اذا كلَّمَني آخر فإنما أُصغي دون أيِّ جهد. في الحالة الأولى ، لا نستطيع أن نحدِّدَ بدقَّةٍ إذا كان ما نسمعه كلامًا حقيقيًا ، إذ نحن كمن عراه النعاس. أما في الحالة الأخرى ، فالصوت يكون من الوضوح بحيث لا يفوتنا مقطعٌ ممّا يفوه به. ويحدث هذا في أوقاتٍ يكون العقل فيها شاردًا ، والنفسُ مضطربةً فلا تُصيب في ضبط خطابٍ جيّد ، بينما تَجدُ جاهزةً حِكَمًا سامية تُلقى في مَسْمَعِها ، تَعجِزُ ، هي ، عن إكتشافِها ولو أَغرقَتْ في الإختلاء ، وتتحوّل بكلّيتها لدى سماعِها الكلمةَ الأولى منها ؛ خصوصًا إذا كانت في حالة الإنخطاف ، وقواها إذ ذاك معطَّلة ، كيف تستطيع أن تفهم أمورًا ما وردتْ قطُّ في ذاكرتها من قبل؟ فكيف تَرِدُ عندئذٍ والنفسُ تكاد لا تعمل ، وكأنَّ المخيّلة في غفلة؟

(٤) أي إن الكلام صنيعَ الوهم لا يُحدث مفاعيل داخلية ، على عكس كلمات الربّ «فان كلماتِه أعمالٌ» ، كما تقول في آخر هذا المقطع.

تعطيل قوى النفس

٥. ما يجب أن يُفهَم ، بنظري ، أنّ النفسَ حين ترى رؤىً أو تسمعُ هذه الكلمات ، لا يَحدُثُ لها ذلك إبّان إتّحادها بالله في حالة الإنخطاف بالذات . ففي هذا الوقت – كما أعلنتُ في حديثي عن الماء الثاني(٥) ، فيما أظن – تتعطَّلُ تمامًا قِوى النفس جميعُها ، فلا تستطيع ، برأيي ، أن ترى ، أو تفهمَ ، أو تسمعَ . إنها كلّها تحت تأثيرٍ آخر ، ولا إخال الربَّ في هذا الوقت ، وهو وقتٌ قصيرٌ جدًّا ، يترك لها قدْرًا من الحريّة . فما إن تمضي هذه البرهةُ القصيرة ، والنفسُ بعد في شيءٍ من الإنخطاف ، حتى يحصُلَ ما قلت ، لأن القوى ، ولو لم تتعطّل تمامًا ، تكون كأنها تكاد لا تعمل شيئًا ، فكأنها مستغرقةٌ في التفكير وغيرُ أهلٍ لتصوغَ حديثًا متوافِقًا . وثمّة دلائل كثيرةٌ لِتَبَيُّنِ الفرق بين الحالتين ، فاذا أخطأنا في التقدير مرّةً فلن نُخطئْ مرارًا .

مفاعيل حديث الله

٦. بل أقول ، إذا كانت النفس متمرِّسةً وفَطِنةً ، فإنها تميِّز الأمرَ بوضوحٍ كليّ . وما عدا أشياء أخرى تُثبِتُ ما قلت ، فإن ما يصوغه عقلُنا لا يؤتي مفعولاً ، ولا النفس تقبلُه (أما الكلام الآخر فنقبلُه مرغمين) ، أو تثقُ النفسُ به ، بل تدركُ أنه هذيانُ العقل ، فلا تأبه له كما لا نأبه لإنسانٍ نعرفُ أنْ قد اعتراه الجنون.

أما الكلام الآخر فكأننا نسمعه من شخصٍ سامي القداسة أو العلم ، وعظيمِ السلطان ، ونعرف أنه لن يخدعَنا . إنه لتشبيهٌ سخيفٌ ، لأن تلك الكلمات تكون من العظمة أحيانًا بحيث إنها ، ولو لم نتذكّر قائلَها ، تثيرُ فينا الرعدةَ إذا كانت عباراتِ مَلامَةٍ ، وتُذيبُنا في الحبّ اذا كانت كلماتِ حبّ . وهي أمورٌ ، كما ذكرت ، كانت بعيدةً كلَّ البعد عن ذاكرتِنا ، وتُفصِح لنا ، فجأةً ، عن حِكَمٍ رفيعةٍ جدًّا بحيث كان يلزمنا وقتٌ طويل لنظمِها ؛ فأرى من المستحيل ، في أيِّ حال ، أن نجهلَ أنها ليست

(٥) بل في الحديث عن الماء الرابع . أنظر سيرة ١٨ . ١ وما بعده وسيرة ٢٠ ، ٣ وما بعده.

من صنعنا. وعليه، لا أرى من واجبي الإفاضة في الحديث، اذ من العجَبِ، فيما أرى، أن تقع في الضلال نفسٌ متمرِّسةٌ إن لم تُرِد الإنخداع قصدًا.

في صيغة الكلام النبوي

٧. حدث لي مرارًا، إذا ساورني الشك، أن لا أُصدِّقَ ما يُقال لي، وأن أتساءلَ إذا كنتُ ضحيَّةَ الوهم (كان الشكُّ يخامرني فيما بعد إذ يستحيل أن يراودني أثناءَ الحديث)، وأن أرى الأمرَ يتحقَّق بعد فترةٍ طويلة؛ فالربّ يطبع هذه الكلمات في الذاكرة فلا نستطيع نسيانها. أما ما يصدر عن العقل فكأنه حركةٌ أوّليّةٌ للفكر، يمضي ويطويه النسيان. وأما كلامُ الله فمثله مثل عملٍ، وإن نسينا بعضَه ومضى عليه زمنٌ فلا ننساه كلَّه بحيث تَنسى الذاكرة كلّيًا أنه قيل لنا، إلّا أن يكونَ مرَّ سريعًا، أو يكونَ كلامُ تعطّفٍ أو تعليم؛ فإذا كان كلامًا نبويًّا، ففي تقديري أننا لا نستطيع نسيانه؛ هذا، على الأقل، ما حصلَ لي، على ضعفِ ذاكرتي.

كلام الله يضاعف الفهم

٨. وأُكرِّر القول بأن نفسًا، في رأيي، ما لم تكن من الحماقة بحيث تحاول تَصنُّعَ الفهم حين لا تفهم، وهذا خطأٌ جسيم، لا تقعُ في ضلال. أما إذا فَهِمَتْ روحَ الله فلن يفوتَها أن تُدركَ بوضوحٍ انّها هي التي تصوغُ الكلام وتنطقُ به في داخلها، وإلّا فقد تقضي حياتَها كلَّها في هذا الضلال وتَخالُ ذاتَها تفهم. أما أنا فلا أدري كيف يُمكنها أن تفهم. وهذه النفسُ إمّا أنها تريد أن تفهمَ أو لا تريد. فإذا كان ما تسمعُ يضايقُها، فلا تريد بأيِّ حالٍ أن تسمعَ بعدُ شيئًا لألف خوفٍ ينتابُها وأسبابٍ أخرى كثيرةٍ تدفعها لترغبَ في سكينةِ التأمل واجتنابِ تلك المتاعب، فكيف تُفسح المجالَ واسعًا للعقل كي يَنظم أحاديث؟ فإن هذا الأمر يقتضي وقتًا. وحين يكونُ اللهُ المتكلِّمَ لا تضيِّع شيئًا من الوقت. وسرعان ما تصير عليمةً بالأمور فتفهم أشياءَ كان يلزمُها، فيما يبدو، شهرٌ لإيضاحها، بل إن العقلَ ذاتَه والنفسَ يأخذهما العجبُ من فهمِها بعضَ الحقائق.

فهم الكلام عطاء من الله

٩. هذا هو الواقع ؛ ومن كان بالأمر خبيرًا يعرف أنّ الأمر يحدث كما قلت حرفيًّا. إني أسبِّح الله لأنه آتاني أن أوضح الموضوع. وأختم الكلامَ فأقول: يبدو لي أنه إذا كانت الكلماتُ من صنعِ العقل فمتى أردنا أمكننا أن نفهمها، وكلّما مارسنا التأمل نخالُ أنفسَنا نفهم. أما إذا كانت من الله فالأمرُ خلافُ ذلك ؛ فقد أقضي أيّامًا وأيّامًا يستحيل عليّ أن أفهمَ شيئًا ولو حاولت ؛ وأحيانًا أخرى، عندما لا أريد، كما قلت، أراني محمولةً على الفهم. في ظنّي أنّ من يرغب في خداع الآخرين بِزعمه أنّ أقوالَه كلامٌ سمعَه من الله، لا يجدُ حَرَجًا في القول إنه سمع ذاك الكلام بأذُنيه. وحقيقةُ الأمرِ أني ما تصوّرتُ قطُّ وجودَ طريقةٍ أخرى للسماع أو الفهم حتى خَبِرْتُ الأمرَ بنفسي. ولكنّ ذلك، كما قلتُ، يكلِّفني مشقّةً بالغةً.

تأثير كلام الشيطان

١٠. عندما يكون الكلام صادرًا عن الشيطان، فالمفاعيل التي يُحدثها لا تقتصر على أن لا تكون صالحةً، بل يُحدثُ مفاعيلَ سيِّئة. هذا لم يحصلْ لي إلّا مرّتين أو ثلاث مرّات، وأَشعَرني الربُّ فيما بعد أن ذاك كان الشيطان. إضافةً الى الجفاف الكبير الذي يُلازِم النفسَ، يَحلُّ بها قلقٌ كذاك الذي سمحَ الربّ بأن ينتابَني مرارًا في مِجَني وفي الشدائد المختلفة التي قاسَتْها نفسي. ومع أن هذا القلق يعذِّبني غالبًا، كما سأُبيِّن لاحقًا، فهو قلقٌ لا نستطيعُ معرفةَ مصدرِه، بل كأنّ النفس تقاوم، وتضطرب، وتتألمُ دون أن تعرفَ السبب، لأن ما يقوله الشيطان ليس شرًّا بل إنه صالح. وأسائل نفسي ما إذا كان روحٌ يشعرُ بروحٍ آخر. إن اللذّة والمتعةَ اللّتين يوفِّرهما الشيطان هما، برأيي، مختلفتان تمامًا، وقد يُخدَعُ بهذه المباهج من ليس بحاصلٍ على مثلِها من لدن الله أولَم ينعم بها.

الحذر من الانفعالات التقويّة والرؤى

١١. وأعني بالمباهج الحقيقيّة فرحًا عذبًا، قويًّا، منطبعًا في النفس، ممتِعًا،

ساكنًا. فأنا لا اعتبر عبادةً بعضَ انفعالات النفس التقويّة كالدموع وبعضَ المشاعر الأخرى الخفيفة ؛ فإنها زُهيراتٌ ، ما إن تهبُّ عليها أولُ نسمةٍ من نسمات الإضطهاد حتى يُصيبَها الذبول. فهي ، وان كانت بدايةً حسنةً ومشاعرَ تقويَّةً ، لا تكفي للتمييز بين مفاعيلِ الروح الصالح والروح الشرير. فمن المستحب ، إذًا ، أن نسيرَ دائمًا على حذرٍ شديد ، لأن الذين لم يتجاوزوا في مراقي التأمل الدرجةَ التي ذكرت ، قد ينخدعون بسهولة إذا ما أوتوا رؤىً أو إيحاثات... أما أنا ، فلم أَحْظَ برؤيا أو بوحيٍ إلَّا بعد أن أنعم الله عليّ ، بجوده المحض ، بتأمّل الإتحاد ، ما عدا المَرَّة الأولى التي ذكرت ، حيث ظهر لي المسيحُ منذ سنواتٍ عديدة. لو ان الله ، عزّ وجلّ ، رضي بأن أدرك إبّانها ، كما أدركتُ فيما بعد ، أنها كانت رؤيا حقيقيةً ، لما كان لي خيرًا ضئيلاً. وعندما يكون الشيطانُ المتكلِّمَ فلا تستقرُّ النفسُ على هناءٍ بل تظلّ واجفةً[٦] وفي كَدَرٍ مريرٍ.

تعليم الكنيسة أهم من الإيحاءات

١٢. أني على يقينٍ من أنّ الشيطان لن يَخدَع نفسًا – ولن يسمحَ له الله بخِداعها – لا تعتمد على ذاتِها بشيءٍ وهي محصّنةٌ في إيمانها وتعرف أنها مستعدَّةٌ لأن تموتَ ألفَ مرَّةٍ من أجل قضيَّةٍ إيمانيَّةٍ واحدةٍ. وبحبِّها الإيمانَ هذا الحبَّ ، يشرِّبُها إياه الله حالاً ، وهو إيمانٌ حيٌّ ، قويٌّ ، تسعى دائمًا لأن تسيرَ وِفقَ تعليمِ الكنيسة ، فتسأل هذا وتستفسرُ ذاك ، فتكونُ راسخةً بقوّةٍ في هذه الحقائق بحيث إن الإيحاءات التي قد تخطُر لها ، مهما كَثُرت ، – ولو رأتِ السماءَ مفتوحةً – ، لا تُزيحها قيدَ أُنملةٍ عن تعليمِ الكنيسة. وإذا أصابت الحيرةُ فكرَها مرَّةً حول هذا ، أو توقّفت متسائلةً : «ما دام الله يقول لي هذا ، فيمكن أن يكونَ أيضًا حقيقيًّا ، مثل ما كان يقول للقديسين» ، فلا أدّعي أنها قد تُصدِّق هذا الكلام ، بل إن الشيطان يشرعُ في تجربتِها بحركةٍ أولى بحيث إن توقُّفَها عنده يبدو شرًّا كبيرًا ؛ غير أنّ هذه الحركات الأولى لا تراود النفس إذا

---

(٦) واجفة : مضطربة.

كانت تنعم بالقوة التي يعطيها الربّ من ينفحه بهذه المنن، بل ترى ذاتَها قادرةً على تحطيم الشياطين حول حقيقةٍ صغيرةٍ مما تقول به الكنيسة[٧]

مقياس صحة الرؤى

١٣. وفي رأيي، أنّ النفس إذا لم تجد في ذاتِها هذه القوّة الكبيرة تدعمها العبادة أو الرؤيا، فلا تعتقدنَّ بصحَّة الأمر؛ لأنها وإن لم تشعر بالضرر بعد ذلك مباشرةً، فإنه يزدادُ خطورةً شيئًا فشيئًا. وفي ما أرى وأعرف بالاختبار، يمكن الاعتقادُ بأنّ هذه النعمة هي من الله حين تتوافق والكتاب المقدس؛ أما إذا حادتْ عنه قليلاً فأرى أنّ الشيطان وراءَ هذه الظاهرة بيقينٍ أشدَّ من يقيني الآن من أنها من الله. لأنه إذا حصلَ ذلك لا يعود من حاجةٍ الى البحث عن دلائل أو عن نوعيَّةِ الروح؛ فالدليلُ واضحٌ جدًّا على أنّ الشيطان وراء الأمر بحيث لو أُكّد العالمُ كلُّه لي أن الله وراءَ ذلك، لما صدّقت.

والواقع أنه متى كان الشيطانُ هو المتكلِّم يبدو كأن جميعَ الخيرات تختفي وتهرب من النفس، فتبقى هائمةً، مضطربةً، لا أثرَ صالحًا فيها. فلئن بدا أنه يبثّ رغباتٍ، فليست رغباتٍ قويَّةً. فالتواضع الذي يُخلِّفه، تواضعٌ زائفٌ، قَلِقٌ، خُلُوٌّ من العذوبة، وفي ظنّي أن الخَبيرَ بالروح الصالح يفهم ذلك.

حكم المعرّفين عليها

١٤. ومع هذا، فالشيطانُ قادرٌ أن يخدَعنا بأكاذيبَ كثيرةٍ؛ فلا وسيلةَ، بالتالي، في هذا المجال، إلَّا ويكون الخوفُ والحذرُ الدائمُ أكثر أمانًا منها، وأن نتَّخذَ مرشدًا عالِمًا ولا نُخفي عليه شيئًا؛ وبهذه الطريقة لا يتأتّى لنا أيُّ ضررٍ، بالرغم من الأضرار الكثيرة التي حصلتْ لي بسبب المخاوف البالغة التي يعاني منها بعضُ

---

(٧) تشدّد القديسة، كما يمكن ملاحظة ذلك، على التمسُّكِ بإيمان الكنيسة وتعليمها، أكان في مجال العقيدة أو الأخلاق، كضمانةٍ لصحة الرأي وراحةِ الضمير.

الأشخاص. لقد حدث مرَّةً، بوجهٍ خاص، أن اجتمعَ عدَّةُ أشخاصٍ ممّن أثق بهم ثقةً كبيرة، وبحقٍّ، وأنا، وإن كنت لا أتعاطى إلّا مع واحدٍ منهم. إلّا أنّي كنت أفضي الى الآخرين بحالي حين يُطلَب اليّ أن أفعل، فكان الجميعُ يتداولون فيما بينهم أمرَ علاجي إذ كانوا يَكِنّون لي مودّةً كبيرةً ويخشونَ أن أكون ضحيَّةَ الخِداع. وكنت بدوري أشعر بخوفٍ عظيمٍ حين لا أمارس التأمل، حتى إذا عدتُ إليه وتكرّم الربّ عليّ بنعمةٍ من لدنه سَكَنَ رَوعي. لقد كانوا، على ما أذكر، خمسةً أو ستةً[8] من خيرةِ عبيدِ الله، فقال لي معرِّفي إنّهم، جميعًا، متّفقون على أن ما يحصُل لي من عمل الشيطان، وإنّ عليّ الإقلالَ من تناول القربان، والترويحَ عن النفس، وتحاشيَ الوحدة. لقد كنت شديدةَ الخوف الى أقصى حدٍّ، كما ذكرتُ، وكان مرضُ القلب يزيد من ذلك الخوف فلا أجرؤُ مرّاتٍ كثيرةً، على أن أمكثَ وحدي في غرفةٍ نهارًا. وعندما وجدتُ أنّ كثيرين يؤكّدون الأمرَ وما كنت لأستطيعَ تصديقَه أصابني وسواسٌ خطيرٌ لاعتباري موقفي نقصًا في التواضع؛ فجميعُهم كانت سيرتُهم تبعث على التقوى أكثر من سيرتي، وكانوا ذوي علمٍ، فلماذا لا أصدِّقهم؟ كنت أبذلُ طاقتي لتصديقهم وأفكِّر في حياتي البائسة فأستخلِصُ على ضوءِ ذلك أنهم يحكمون بالصواب.

حذر، سخرية وخوف

١٥. خرجتُ من الكنيسة وهذا الغمُّ آخذٌ بي، ودخلتُ مصلىً بعد أن انقطعتُ عن التناول أيّامًا كثيرةً، وعن الوحدةِ وكانت كلَّ عزائي، وما كنتُ ألقى إنسانًا أتداول وإيَّاه لأنهم جميعًا كانوا يخاصمونني: بعضُهم، فيما أظن، كانوا يسخرون منّي حين أتحدّث في الموضوع كأنني أبتكر أوهامًا؛ آخرون كانوا ينبّهون معرِّفي ليكون على حذرٍ منّي؛ آخرون كانوا يقولون إنه الشيطان والأمرُ واضح؛ أما معرّفي، وإن كان يجاريهم في الرأي لامتحاني، كما عرفتُ فيما بعد، فقد كان وحدَه يعزيني ويقول لي إنه ولو كان الشيطان فلا يستطيع أن يصيبَني بأذًى ما دمتُ لا أغيظ الله،

---

(٨) لعلّ هؤلاء كانوا: داثا وغونثالو دي أراندا، ودى آڤيلا، وبرادانوس، وبلطاسار الڤارث. وربما كان المعرّف أحد الاثنين الأخيرين.

وإن هذه الحال ستزول وعليّ أن أسألَ الله ذلك بإلحاح ؛ وكان هو وجميع من يسمعُ إعترافَهم وآخرون كثيرون يواظبون على الصلاة من أجلي ، كذلك كنت أفعل في وقتِ التأمّل كلِّه. وكلُّ الذين كنتُ أعرفهم خدّامَ الله ، كلُّنا كنّا نسأله ، جلّ جلاله ، ليقودَني في طريقٍ آخر. وقد قضيتُ نَحوًا من سنتين وأنا أسألُ الله هذه النعمةَ باستمرار.

مبادرة الربّ

١٦. ما كان شيءٌ يستطيع أن يعزِّيَني حين كنتُ أفكِّر في أنه قد يكون الشيطان من يخاطبُني غالبًا. فمنذ أن انقطعتُ عن تخصيصِ ساعاتٍ من الخلوةِ للتأمل ، كان الربّ يحملُني على الإختلاء أثناءَ محادثةٍ ما ، وكان يُفصِحُ لي عمّا يُريد مني فلا أستطيع تحاشيَ ذلك ، بل ، وعلى رغمي ، كان عليّ أن أسمعَ قولَه.

ذعر واضطراب وابتهال

١٧. وإذ كنتُ وحيدةً ، لا أجدُ في إنسانٍ سندًا لي ، ما كنتُ أستطيع الصلاةَ ولا المطالعة ، بل كنت مذعورةً من شِدَّةِ البليّة ، ومن خوفي أن يكونَ الشيطان يخدعني ، مضطربةً ، تعبةً ، لا حيلةَ لي في أمري. لقد انتابني هذا الغمُّ أحيانًا ، بل غالبًا ، لكنَّه ، في إعتقادي ، لم يبلغْ مرَّةً هذا الحدَّ من الشدَّة. ومكثتُ على هذه الحال أربعَ ساعاتٍ أو خمسًا لا ألقى عزاءً من السماء أو من الأرض ، بل تركَني الربّ أتألَّم وأنا أخشى ألفَ خطر.

آه ! ربّي ! لأَنتَ الصديقُ الحقّ. إنَّك أنتَ القدير ، حين تشاء تقدِرُ ، ولا تنقطعُ عن حبِّ من يُحبُّك. فلتسبِّحْك الخلائقُ كلّها يا ربَّ الكون ! من تُراه يُعطَى صوتًا صارخًا ليُعلِنَ كم أنتَ وفيٌّ لأصدقائِك ! كلُّ الخلائق تُخلِفُ ما تَعِد ، وأنتَ ، وحدَك ، يا ربَّ جميعِها ، لا تُخلِف أبدًا. قلَّما تدعُ من يحبُّونك فريسةَ الألم. إي ربّي ! ما ألطفَ ، وأرقَّ ، وأعذبَ معاملتَك إيّاهم ! ما أسعدَ من لم يهتمَّ بأن يُحِبَّ سواك ! كأنّي بك ، ربّي ، تمتحنُ بشدَّةٍ من يحبُّك ليُدركَ ، في ذروةِ العناء ، فَرطَ

حبِّك له. يا إلهي ! ليتَ لي الفهمَ والعلمَ ، وليتَني أُعطى كلامًا جديدًا لأُشيدَ بأعمالِك كما ترغبُ نفسي في أن تشيد ! كلُّ شيءٍ يعوزني ، يا ربّ ؛ أما إذا لم تتخلّ عنّي ، فلن أنقضَ عهدي معك. فليُناهضْني جميعُ المتبحِّرين بالعلم ، ولتضطهدْني جميعُ الخلائق ، ولتعذِّبْني الشياطين ؛ أما أنت ، ربّي ، فلا تتخلَّ عني لأنني أعرف بالإختبار أيَّ مكسبٍ يَطلُعُ به من المحن من يجعلُ ثقتَه فيك وحدَك.

«لا تخافي يا ابنتي»

١٨. وإذ كنتُ في خضمٍّ هذه المعاناة (وما كنتُ نعمتُ بعدُ برؤيا) ، كانت الكلماتُ التالية وحدَها كافيةً لتزيلَ عنائي وتسكِّنَ روعي تمامًا : «**لا تخافي ، يا ابنتي ، فأنا هو ولن أتخلَّى عنكِ ، لا ترتاعي**». كنتُ إخالني ، وأنا في هذه الحال ، بحاجةٍ الى ساعاتٍ كثيرةٍ لأستعيدَ هدوئي ، ولا أرى أحدًا قادرًا على إعادته إليّ. وها إنّي بهذه الكلمات وحدَها ساكنةٌ ، قويَّةٌ ، شجاعةٌ ، مطمئنَّةٌ ، في هدوءٍ ونورٍ بحيثُ رأيت نفسي ، في لحظةٍ ، تحوّلتْ نفسًا أخرى ، ورأيتُني قادرةً على أن أُثبتَ ، خلافَ ما يراه الجميع ، أنه الله. آه ! ما أعظمَ صلاحَ الربّ وما أشدَّ قدرتَه ! لا يُعطي المشورةَ فحسب ، بل يعطي العلاجَ أيضًا. كلماتُه أفعال. الله معتَصمي. ما أروعَ ما يُقَوّي الإيمان ، ويَنْمُو الحب !

هدوء العاصفة والانتصار

١٩. في الحقيقة ، هكذا كنت أتذكّر غالبًا حين أمرَ الربّ الرياحَ بأن تهدأ ، في البحر ، عندما هبّت العاصفة ، فكنت أقول : من هو هذا الذي تُطيعه هذه الطاعة قواي جميعُها ، ويُضيءُ نورًا ، في لحظةٍ ، في ظلمةٍ دامسةٍ كهذه ، ويُليِّنُ قلبًا كان يُخال صخرًا ، ويُفيض دموعًا عذبةً حيث كان يجب أن يسودَ طويلاً ، كما يبدو ، الجفاف؟ من تُراه يوقِظُ هذه الرغبات؟ من ينفحُ هذه الشجاعة؟ وحدث أن فكَّرتُ : ممّ أخاف؟ ما هذا؟ إني أودُّ أن أخدمَ هذا المولى ، ولا أطمح إلى أمرٍ آخر سوى مرضاتِه. لا أريدُ فرحًا ، ولا أبغي راحةً أو أيَّ خيرٍ آخر سوى أن أصنعَ إرادته

(وكنتُ واثقةً من هذا كلّ الثقة ، فيما أظنّ ، فيُمكنني تأكيده) . فإذا كان هذا الرب قديرًا ، كما أرى وأعرف أنه قدير . وإذا كانت الشياطين عبيدًا لديه (ولا يجوز الشك بذلك لأنه من قبيل الإيمان) فأيَّ ضيرٍ يستطيعون إنزالَه بي ما دمتُ خادمةً لهذا الربّ والملك؟ ولماذا لا تكون لي القوّةْ لأحارِبَ الجحيمَ كلَّه؟

كنت أمسكْ بيدي صليبًا فإخال الله يمدُّني حقًّا بالشجاعة ، حتى رأيتُني تبدَّلتُ كُلِّيًّا في وقتٍ وجيز . فما عدتُ أخشى التلاحمَ معهم ، بل كنتُ أرى من السهل أن أتغلَّب عليهم جميعًا بذاك الصليب . فقلتُ : «إليّ ، الآن ، كُلُّكم ؛ فأنا خادمةُ الربّ أريد أن أرى ما تستطيعون أن تَفعلوا بي» .

سلطان النفس على الشياطين

٢٠. وكنتُ إخالُهم ، بدون شكٍّ ، يخافونني ، لأني صرتُ مطمئنّةً ، ودون خوفٍ منهم جميعًا ، بحيث تبدّدتْ كلّ المخاوف التي كانت تُساورني حتى اليوم . ولئن كنت أشاهدهم أحيانًا ، كما سأروي فيما بعد ، فما كنت أشعر بخوفٍ تقريبًا ، بل أظنُّهم كانوا ، يخافونني . لقد أوتيتُ سلطانًا عليهم ، عطيّةً منحنيها ربُّ الكلّ ، فما كنتُ أكترثُ لأمرهم أكثرَ من إكتراثي للذُباب . وأراهم من الجبن بحيث يفقدون قوّتَهم حين يجدون الناسَ يحتقرونهم . لا يعرف هؤلاء الأعداءُ أن يهاجموا مواجهةً ، بل يهاجمون من يرونهم على أُهبَة الإستسلام ، أو حين يسمح الله بأن يجرِّبوا عبيده ويعذِّبوهم لخيرٍ أعظم يعدُّه لهم . ليتَه ، عزَّ وجلّ ، يجعلنا نخافُ من يجب أن نخاف ، وندركُ أنّ خطيئةً عرضيّةً واحدةً قد تسبِّب لنا ضررًا أكبرَ ممّا يسبّبه الجحيم كلُّه ؛ فهذا هو الواقع .

معانقةُ الصليب غلبةُ الشيطان

٢١. إنما يروِّعنا هؤلاء الشياطين لأننا ، نحن ، ننغِّص حياتَنا بتعلُّقنا بالشرف . والأموال ، والملذّات ؛ وعندئذٍ يلتقون معنا ، مع كونِنا أخصامًا ، على أن نحبّ ونريد

ما يجب علينا أن نكرَهه . وبهذا يُنزلون بنا أذًى كبيرًا ؛ فنحن نقدِّم لهم أسلحتنا الخاصَّة ليقاتلونا بها فنضع في تصرُّفهم تلك التي علينا أن نحميَ أنفسنا بها . وهذا ما يؤسَفُ له أشدّ الأسف . أما إذا إحتقرْنا كلّ شيء حبًّا بالله ، وعانقْنا الصليب ، وسعَينا لأن نخدمَه خدمة نصوحًا ، فإن الشيطان يهرب من هذه الأشياء هربَه من الطاعون . إنه صديقُ الكَذِب . بل هو الكذب بالذات . فلا يَعقُد عهدًا مع من يسير في الحقيقة . وعندما يرى أنّ العقل قد غشي عليه . يعمل ماكرًا على سَملِ العينين . فإذا لاحظَ إنسانًا من العمى بحيث يجعل راحتَه في أمورٍ تافهةٍ ، ومن التفاهة بحيث تبدو أباطيلُ الدنيا حيالَها ألاعيبَ أطفال ، يعتبر هذا الانسانَ طفلاً فيعاملُه كطفلٍ ، ويجترئُ على مصارعتِه ليس مرَّةً بل مرارًا .

الدعاء الى الله يُرعب الشيطان

٢٢. أسأل الربّ أن لا أكونَ في عِداد هؤلاء ، بل أن يتعطَّف عليّ ، عزَّ وجلّ ، فأرى راحةً الراحةَ الحقَّ ، وكرامةً الكرامةَ الحق ، ولذةً اللذَّة الحق ، لا أن أرى كلَّ شيءٍ على العكس . وخَسِئَ الشياطينُ جميعًا[٩] ! إنهم ، هم ، سيخافونني ! أنا لا أفهم المخاوفَ عندما يُقال : « الشيطان ! الشيطان ! » في حين يمكننا أن نقول : « الله ! الله ! » فنجعله يرتعد بهذا الدُعاء . أجل ، نحن نعرفُ أنه يَعجُز عن التحرّك ما لم يَسمحْ له الربُّ بذلك . فما معنى هذا الخوف؟ معنى هذا بدون شك أنني أُخشى مَن يخافون الشيطان أكثر من خوفي الشيطانَ نفسَه ؛ فهو لا يستطيعُ معي شيئًا ، أما الآخرون ، خصوصًا إذا كانوا معرِّفين ، فيُحدِثون قلقًا مريعًا ؛ ولقد عانيتُ ، طوال سنواتٍ ، مشقّاتٍ جسامًا ، حتى لأراني أندهشُ الآن كيف استطعتُ الإحتمالَ . تباركَ الربّ الذي ساعدني مساعدةً حقًّا .

---

(٩) بالاسبانية (Higa)، وهي تعويذة كان يُعتقَد أنها تردّ أذى العين الشريرة .

الفصل السادس والعشرون

تتابع الموضوعَ نفسه. تروي وتُوضح أمورًا
حدثتْ لها كانت تُحرِّرها من الخوف وتُثبتُ
أنّ الروح الذي كان يكلِّمها كان روحًا صالحًا

تَحرُّرها من الخوف

١. إن هذه الشجاعة التي اعطانيها الربّ في وجه الشياطين ، أعتبرها واحدةً من أنعامه الجليلة ؛ فإنه لَضيرٌ بالغٌ أن تسير نفسٌ في وجلٍ وخوفٍ من شيء غيرِ إغاظتِها الله. وما دام لنا ملكٌ ضابطُ الكل ، وسيِّدٌ عظيمٌ ، قادرٌ على كلّ شيء ، ويُخضعُ الكلّ ، فلا مجالَ للخوف إذا سلكنا أمامه، عزّ وجلّ ، في طرقِ الحقّ ، كما قلتُ ، وفي ضميرٍ نقيّ. لهذا أودّ ، كما قلتُ ، أن تكونَ لديَّ جميعُ المخاوف : حتى لا أغيظَ في لحظةٍ من يستطيع أن يُبيدَنا في اللحظةِ نفسها ؛ أما إذا كان راضيًا ، عزّ وجلّ ، فما من خصمٍ لنا إلّا ويرتدُّ مقهورًا.

يمكن التأكيدُ أن هذا هو الواقع ؛ ولكن ، من تُراها تلك النفسُ الكاملة الاستقامة التي ترضي اللهَ تمامَ الرضى؟ ولهذا تنتابها الخشية. من الثابت أنها ليست نفسي ؛ فهي كثيرةُ الشقاء ، جدباءُ ، مليئةٌ بألفِ مصيبة ؛ لكنّ الله لا يتصرَّف كالناس ، فهو يعرف ضَعفنا ؛ أما النفس فتشعرُ في داخلها ، بواسطة تقديراتٍ واضحةٍ ، ما إذا كانت تحبّه حقًّا. ومتى وصلت الى هذه الحال لا يكون الحبّ مكتومًا مثله في البداية ، بل يكون حبًّا باندفاعٍ جارفٍ ورغبةٍ في رؤيةِ الله ، كما سأقول فيما بعد

أو كما سبقَ وقلتُ[1] ، حتى إن كلَّ شيءٍ يُزعِج ، ويُتعِب ، ويُضايِق. فما من راحةٍ إلّا وتزعجُ ما لم تكن راحةً مع الله ومن أجله ، لأن النفس تجد ذاتَها بعيدةً عن راحتِها الحقيقيّة. وهكذا من الواضح جدًّا ، كما قلت ، انّ هذا الأمر لا يبقى خفيًّا.

توبيخ الربّ

٢. حدث لي مرارًا أَن وَجدتُني مغمورةً بالشدائد ، وهدفًا لأقاويل سكان المدينة التي أقطُن فيها ، وجماعتي الرهبانية حول شأنٍ سأعرضه فيما بعد. وكانت أثقالُ الغمّ في ظروفٍ عديدة تُقلقني ، فقال لي الربّ : «**مِمَّ تخافين؟ ألا تعرِفين أنّني كُلّيُّ القُدرة؟ سأُنجِزُ ما وعدتُكِ به**» (وقد تحقَّق ذلك فيما بعد). فنفختْ هذه الكلماتُ فيّ قوّةً خِلتُني معها قادرةً على مباشرةِ أمورٍ أخرى أشدّ مشقّةً في سبيل خدمة الله ، وعلى تحمّلِ الآلام من جديد. وقد حصل لي هذا الأمر مرّاتٍ أعجز عن إحصائها. كان الربّ يوبِّخني أحيانًا كثيرةً ، وهو يوبخني ، حين آتي نقائصَ ، توبيخًا يكفي لأن يَسحق نفسًا ؛ إلّا أنه توبيخٌ يوفِّرُ للنفس ، أقلّه ، إصلاحَ ذاتها ، فإنه ، عزّ وجلّ ، يُعطي ، كما قلت ، النصحَ والدواء. ويذكِّرني الربّ أحيانًا أخرى خطاياي الماضية ، خصوصًا حين يريد أن يتكرّم عليّ بنعمةٍ جليلة ، فتخالُ النفسُ ذاتَها في يومِ الدين ، لأن الحقيقةَ تتمثّل لها جليّةً ، واضحةً ، فلا تدري أين تختبئُ. وأبلغني ، أحيانًا أخرى ، مخاطرَ تُحدِقُ بي أو تُهدِّد آخرين ، وأَحداثًا مستقبليّةً كثيرةً ، أعوامًا ثلاثة أو أربعة قبل حصولِها ، تحقَّقتْ جميعُها ، وقد أشيرُ الى بعضِها. فهناك ، إذًا ، أمورٌ كثيرةٌ تدلّ على أنّ الله وراءها حتى لا يمكن ، في رأيي ، تجاهلُها.

معاناتُها من قساوة معرِّف

٣. أما السبيلُ الآمَن ، (وهو الذي أَتبَعه وبدونه لا يَقَرُّ لي قرارٌ ، ولا يُستحبُّ

(١) تتحدّثُ عن ذلك في سيرة ٢٩ ، ٨ – ١١ ؛ كما تحدّثت عنه في سيرة ٢٠ ، ٩ – ١٤ ؛ و ٢١ ، ٦ ...

أن نَطمئنَّ ، نحن النساءَ ، لأننا نفتقِر الى العلم) ، سبيلٌ لا يحصُل منه ضُرٌّ بل فوائدُ جمَّةٌ ، كما قال لي الربّ مرارًا ، فهو : أنْ لا أَتهاونَ في إبلاغي معرّفي إبلاغًا تامًّا حالَ نفسي والمنن التي يَمنحُنيها الربّ ، على أن يكونَ ذا علمٍ وأن أُطيعَه. لقد قال لي ذلك غالبًا.

كان لي معرِّف[٢] يفرِض عليَّ إماتاتٍ كثيرةً ، ويَغمُّني أحيانًا ويُكبِّدني عناءً كبيرًا لأنه كان يُقلقني كثيرًا ؛ لكنه ، في رأيي ، هو الذي أفادني أكثرَ ما أفاد. وعلى مودَّتي له ، كانت التجارب تُراودني للإفتراق عنه ، فقد كنتُ أتصوَّرُ أن العناء الذي يُسبِّبه لي يُعيقُ تأمّلي. وفي كلّ مرّةٍ كنت أُصمِّمُ على الافتراق كنتُ أسمعُ صوتًا يَمنعُني من ذلك ، وتوبيخًا يحطِّمني أكثرَ من كلِّ ما كان المعرِّف يفعل. كان الضيقُ يأخذُ بي أحيانًا : سؤالٌ من جهةٍ ، وتوبيخٌ من جهةٍ أخرى ؛ وكان كلاهما ضروريًّا لأن إرادتي لم تكن سَلِسةَ القِياد. وقال لي الربّ ذاتَ مرّةٍ إن طاعتي لا تُحسَب طاعةً ما لم أكنْ مصمِّمةً على الاحتمال ، وأن أنظرَ مَليًّا في ما قاساه هو فيهونُ عليّ كلُّ شيء.

الصراحة مع المعرّف ضمانة

٤. نصحَني مرَّةً معرِّفٌ كنت أعترف له في البداية أن أكتُمَ هذه الأمور ولا أبلِّغَها أحدًا ما دام قد ثَبَتَ أنَّها صادرةٌ عن الله ؛ فمن الأفضل كِتمانُها الآن. راقتْني نصيحتُه لأنني كنت أشعرُ بانزعاجٍ كبيرٍ في كل مرَّةٍ أُفضي بهذه الأمور لمعرّفي ، بل كنتُ أشعُر أحيانًا بخجلٍ أكبر من خجلي فيما لو كنتُ أعترفُ بخطايا جسيمةٍ ، خصوصًا إذا كانت المننُ كبيرةً ، فإخاله لن يصدِّقَني بل سيسخر منّي. وكان هذا الواقع يكدِّرني تكديرًا ، إذ يبدو لي تحقيرًا لبدائع الله ، فأتمنّى كِتمانَها : وسمعتُ صوتًا يقول لي إن ذاكَ المعرّفَ أساءَ نُصحي أيّما إساءةٍ ، وما عليَّ أن أكتمَ معرّفي أمرًا في أيِّ حالٍ لأنَّ في الإفصاحِ عنه ضمانةً كبرى وكتمانَه قد يؤدّي بي الى الانخداع أحيانًا :

---

(٢) الأب بلطاسار الفاريث.

«سأعطيكِ كتابًا حيًّا»

٥. في كلِّ مرَّةٍ كان الربّ يأمرني بشيءٍ إبَّانَ التأمل ويأمرني المعرِّفُ بشيءٍ آخرَ ، كان الربُّ نفسُه يعودُ فيقول لي بأن أطيعَ المعرِّفَ ؛ ثم يعودُ ، عزّ وجلّ ، فيبدِّل رأيَ المعرِّف حتى يأمرَني بما أمرني الربّ. عندما مُنعتْ من التَداوُلِ كتبٌ كثيرةٌ وُضِعَتْ باللغة الاسبانية[٣] ، وحُرِّمَتْ قراءتُها ، حزنتُ كثيرًا لأن بعضَها كان يوفِّر لي ترويحًا عن النفس وما كنت لأستطيعَ مطالعتَها وتذوُّقَها باللاتينية ، قال لي الرب : «**لا تَحزني ، فإنِّي سأعطيكِ كتابًا حيًّا**». ما كنتُ أستطيع أن أدركَ لماذا قال لي هذا الكلام اذ لم تكنْ قد حصلتْ لي رؤًى بعدُ. وما هي إلَّا أيامٌ قليلةٌ ، حتى فهمتُ الأمرَ حقَّ الفهم ، لأني وجدتُ في ما كنت أراه مواضيعَ كثيرةً أفكِّر فيها وتساعدني على الإختلاء ، وغمرني الربّ بحبِّه فعلَّمني بطرائقَ عديدةٍ ، فصرتُ بغِنىً عن الكتب إلَّا قليلاً ، بل ما احتجتُها بتاتًا تقريبًا. لقد كان ، عزّ وجلّ ، الكتابَ الحقيقيَّ الذي وجدتُ فيه الحقائقَ كلَّها. تباركَ هذا الكتابُ الذي يطبعُ فينا ما يجبُ أن نقرأ ونفعلَ فلا يصيبُنا النسيان! من تُراه يشاهدُ الربَّ مُثخَنًا بالجراح ، معذَّبًا ، مضطَهدًا ، فلا يعانق تلكَ الجراحَ ، ويحبُّها ، ويتمنّاها؟ من تُراه يشاهدُ قَبَسًا من المجد الذي يعطيه للذين يخدمونه فلا يدركُ أنَّ كلَّ ما نصنعه ونقاسيه لا شيءَ ما دُمنا نترجّى هذا الثوابَ؟ من تراه يشاهدُ العذاباتِ التي يقاسيها الهالكون فلا يرى عذاباتِ الدنيا ملذّاتٍ بإزائها ، ولا يدرك كم هو مدينٌ للربّ الذي أنقذه من الجحيم مرارًا؟

«من له الخبرة سيَفهم»

٦. ولأنني ، بفضلِ الله ، سأتحدَّثُ بالتفصيل عن بعض الأشياء ، أودُّ أن أتابعَ الكلامَ على مسيرةِ حياتي. عساني بفضلِ الربّ أحسنتُ في إيضاحِ ما قلتُ حتى

(٣) سنة ١٥٥٩ ، نشرَ المفتش العام في اسبانيا ، دون فرناندو ڤالديس ، دليلاً للكتب الممنوعةِ قراءتُها ، منها ما يتضمَّن بِدَعًا ، وأخرى كتبٌ تقويةٌ مكتوبةٌ بالاسبانية قد تسيءُ ، في رأيه ، الى النفوسِ البسيطة.

الآن. وأنا على ثقةٍ بأنّ مَن كانت له الخبرةُ سيفهمه ويرى أنني أصبتُ في بعض القول ؛ ومن فاتَتْه الخبرةُ ، فلا يُثير عَجَبي إن رأى قولي كلَّه هراءً. يكفي أنه كلامي ليكونَ معذورًا ؛ وأنا لن ألوم من يحكُم هذا الحكمَ. عسى الله يتيحُ لي أن أصيبَ في إتمام إرادتِه. آمين.

الفصل السابع والعشرون

تبحث في طريقةٍ أخرى يعلِّم بها الربّ النفسَ ويُفهِمُها إرادتَه بشكلٍ رائعٍ دون أن يكلِّمها. توضحُ نعمةً عظيمةً ورؤيا غيرَ خياليَّةٍ منحها الربُّ إيّاها. هذا الفصل خليقٌ جدًّا بالإهتمام

التماسُها طريقًا آخر

١. أعود الى سردِ قصة حياتي. لقد كنت غارقةً في الحزنِ والشدائد مغمورةً بصلواتٍ حارَّةٍ، كما قلت[١]، تُرفَع الى الربّ ليقودَني في طريقٍ آخرَ أكثرَ أمانًا، لأنهم كانوا يعتبرون الطريقَ الذي أتبعُه مريبًا جدًّا. الحقيقة أنّي، وإن كنت أسأل الله ذلك، وعلى رغبتي الملحّة بطريقٍ آخر، ولما كانتْ نفسي قد حقَّقتْ تقدُّمًا كبيرًا جدًّا، فما كان بوسعي أن أتمنَّى ذلك التغيير، ولو كنتُ أطلبه دائمًا، إلَّا حين تُرهقني أقوالُ من يحيطون بي والخوفُ الذي يزرعونه في نفسي. كنتُ أراني تحوَّلْتُ كليًّا، قادرةً فقط على أن أضعَ نفسي بين يدي الله لأنه يعرف ما يناسِبني؛ فكنت أسألُه أن يُكمل فيَّ مشيئتَه كليًّا. كنت أرى أنَّ هذا الطريقَ يقودُني الى السماء بينما كنتُ سابقًا أسيرُ الى الجحيم. ما كنت أستطيعُ أن أُجبرَ ذاتي على ابتغاء هذا أو الاعتقادِ بأنّه الشيطان؛ ورغم أنّي كنت أبذُلُ أقصى جهدي لأعتقدَ هذا وأبتغيَ ذاك، فلم يكن

---

(١) أنظر سيرة ٢٥، ١٥.

الأمر بمُستطاعي. كنتُ إذا عملتُ صنيعًا حَسَنًا، أُقدِّمه على هذه النيَّة. كنت أستشفِع قدّيسينَ لعلَّهم يُعتقونني من الشيطان؛ وأُواصِلُ التساعيّاتِ، وأتوسَّلُ بالقديس هيلاريون، وبالملاك ميخائيل الذي جدّدْتُ عبادتي له، وأُزعجُ قدّيسين آخرين كثيرين ليُظهرَ الربُّ الحقيقةَ، أعني لِينالوا لي هذه النعمةَ منه، عزّ وجلّ.

رؤية المسيح

٢. وبعد سنتين قضيتُها في الصلاة يشاركُني فيها آخرون لنيل النعمة المذكورة، أو ليقودَني الربّ في طريقٍ آخر، أو ليوضحَ الحقيقةَ، لأنَّ أحاديثَ الربّ لي كانت متواترةً، هاك ما حَدَثَ لي: كنتُ أقومُ بالتأمل في عيدِ القدّيس بطرس المجيد، فرأيتُ بقربي أو بالأحرى شعرتُ -لأني لم أَرَ شيئًا بعينَي الجسد ولا بعينَي النفس-، بل خِلتُ المسيحَ الى جَنْبي وكنتُ أرى أنه هو الذي يخاطِبُني. أما أنا فلأني كنت أجهلُ جهلاً تامًّا حصولَ رؤيا كهذه، إستولى عليَّ في البدءِ خوفٌ شديدٌ وما كنتُ أكفُّ عن البكاء؛ ولكن ما إن ألقى إليَّ بكلمةٍ واحدةٍ تُطمئِنُني، حتى وجدتُني، كعادتي، هادئةً، سعيدةً، بدون أيِّ خوف. كنتُ إخالُ يسوع المسيح يسيرُ دائمًا الى جنبي؛ ولما لم تكن رؤيا خياليّةً[٢]، ما كنتُ أرى بأيِّ شكلٍ؛ لكنني كنتُ أشعرُ عن يقينٍ بوجودِه دائمًا الى يميني، وأنه شاهدٌ على كلّ ما كنتُ أفعل؛ وما من مرّة كنت ألجأُ الى الاختلاء قليلاً، أو لا أكونُ شاردةَ الفكر، أمكنني أن أتجاهلَ وجودَه بقربي.

توضيح الرؤيا غيرِ الخيالية

٣. فمضيتُ توًّا الى معرِّفي، وقد برَّح بي الهمُّ، لأُطلِعه على الأمر. سألني في

---

(٢) بل رؤيا عقليّة. تُميِّز القديسة ثلاثة أنواعٍ من الرؤى: **رؤيا عقلية**: كهذه تُعرِّفها على طريقتِها في المقطع ٣؛ **رؤيا خيالية**: تُدرَكُ بما تدعوه، هي، «عينَي النفس» (مقطع ٣، وسيرة ٢٨، ١...)؛ **رؤيا جسديّة**: تُدرَك بعينَي الجسد؛ وهذا النوع من الرؤيا لم تنعمْ به القديسة أبدًا (سيرة ٢٨، ٤). وهكذا فإن القديسة كانت تَرى الربّ الى جانبها، لكنها كانت تراه بالعقل فلا تدركُ العينُ شكلَه بالجسد.

أيِّ هيئةٍ أراه ، فقلتُ إني لا أراه. قال : وكيف تعرفين أنه المسيح ؟ قلت : لا أعرف كيف ، لكنّي ما كنت أستطيع أن أتجاهلَ وجودَه بقربي ، وكنت أراه بوضوحٍ ، وأشعرُ به ، وكان إغراقُ نفسي في اختلائها في تأمّل السكينة أكبرَ من ذي قبلُ ، وهذا التأمل متواصلٌ ومفاعيلُه مختلفةٌ تمامًا عن تلك التي تعوّدتُ اختبارَها. لقد كان الأمرُ واضحًا كلَّ الوضوح.

وما كنتُ أنفكُّ عن استنباط مقارناتٍ لأوضحَ فكرتي. وفي يقيني أن لا مقارنةَ تلائِم كثيرًا هذا النوعَ من الرؤيا. وبما أن هذه الرؤيا مِن أسماها درجةً (كما قال لي فيما بعد رجلٌ ورعٌ ذو روحٍ كبيرةٍ هو الأب پدرو دي ألقنطرة ، وسأذكُره لاحقًا ، وكما قال لي علماء كبار ، وأنها الرؤيا التي لا يستطيع الشيطان أن يتدخَّلَ فيها) ، فإن امرأةً قليلةَ المعرفة مثلي لا تجد عباراتٍ لوَصفِها ؛ أما العلماءُ فيُوضحونها بصورةٍ أفضل. فحين أقول إني لا أراه بعينَي الجسد ولا بعينَي النفس لأنّ هذه الرؤيا ليست خياليّةً ، فكيف أَفهمُ وأُؤكِّدُ أنه بقربي ، بيقينٍ أكبرَ ممّا لو كنتُ أراه؟ والقولُ كأنَّ صاحبَ هذه الرؤيا في ظلامٍ دامسٍ لا يَرى إنسانًا موجودًا بقربه ، أو كأنه أعمى ، هو تشبيهٌ فاشل. هناك شيءٌ من الشبَه ليس بالكبير ؛ لأن هذا يُدرِك بحواسّه ، فيسمعه يتكلّم أو يتحرَّك ، أو يُمكنه أن يَلمَسه. أما هنا فلا شيءَ من هذا ، ولا يُرى ظلامٌ ؛ بل إن هذا الحضورَ يُشعِرُه اللهُ النفسَ بلُمعةٍ أشدّ سطوعًا من الشمس. لا أقول إن شمسًا تُرى أو ضياءً ، بل يُرى نورٌ ، دون أن يُرى نورٌ ، يضيءُ العقلَ لتستمتعَ النفسُ بخيرٍ كهذا عظيمٍ. وهذه الرؤيا تأتي بخيراتٍ عميمة.

حضور الله في التأمل

٤. إن حضور الله هذا ليس كحضورِه الذي يَنعم به غالبًا أولئك الذين يبلغون تأمُّلَ الاتحاد أو السكينة ، بل كأننا ، إذ نريدُ مباشرةَ التأمل ، نَجدُ مَن يُمكننا مخاطبتُه ونَخال أنفسنا ندرك أنه يسمعنا ، وذلك من المفاعيل الحاصلة والمشاعرِ الروحية التي تتملَّكنا ، وهي مشاعرُ حبٍّ كبيرٍ وإيمانٌ وعزائمُ نعقدُها ، مُرفَقةٌ بحنان. إن هذه النعمةَ من الله، فليقدِّرْها تقديرًا مَن أَنعمَ اللهُ بها عليه، لأنها درجةٌ من التأمل عاليةٌ

جدًّا لكنَّها ليست رؤيا ؛ وليُفْهَم أن الله هناك مِنَ المفاعيل التي يُحدِثُها في النفس ، كما قلتُ ، وأنه بهذه الطريقة يودّ ، عزّ وجلّ . أن يُظهِرَ نفسه. هنا ، يرى جليًّا أنّ يسوع المسيح ابنَ العذراء حاضرٌ . في درجة التأمّل الأخرى ، تَظهرُ تأثيراتُ الألوهة ؛ أما هنا ، بالإضافة الى تلك التأثيرات ، فيُرى أنّ الناسوتَ المقدس يرافقنا ويريدُ أن يمنحَنا أنعامًا .

التأكّد من صِحَّة الرؤيا

٥. ثم سألني المعرِّف : « من قال لكِ إنه يسوع المسيح »؟ فأجبتُه : « إنه ، هو ، يقولُ لي ذلك مرارًا » ؛ بل قبلَ أن يُعلن لي ذلك إنطبعَ في ذهني أنه هو ؛ وقبل ذلك كان يُعلن لي ذاتَه وما كنت أَراه . لو أنّ شخصًا ما رأيتُه قطّ ، لكن أُخبِرْتُ عنه ، جاءَ يخاطبُني ، وأنا عمياءُ أو في ظلمةٍ دامسة ، وعرَّفني بنفسه لَصدَّقْتُه ، لكنّ تأكيدي بأنه ذلك الشخصُ لا يكون قاطعًا كما لو أني رأيتُه . أما هنا فيُمكن التأكيد ؛ فلئن كنّا لا نرى شيئًا ، فإن حضورَه ينطبع فينا بلُمعةٍ واضحةٍ جدًّا يبدو معها الشكّ مستحيلاً . إنّ الربَّ يريد أن تكونَ صورتُه محفورةً بعمقٍ في الذهن حتى لا نستطيعَ الشكَّ أكثرَ ممّا نشكُّ في ما نرى ، ولا بمقدار ذلك ، لأننا عندما نبصرُ بالعين تُراودنا الشُّبْهَةُ أحيانًا بالتباسِ الأمر . أما هنا . فإنْ تَخْطُر الشُبهةُ فجأةً يبقَ اليقينُ الثابتُ بأنَّ الشكَّ لن يتمكَّن مِنّا .

الرب يخاطبها بدون كلام

٦. ولدى الله طريقةٌ أخرى يعلِّم بها النفسَ ويخاطبها دون أن يتكلَّم ، على الشكل الذي ذكرت . إنها لغةٌ سماويةٌ رفيعةٌ يصعُب علينا إفهامُها ، ولو بذلنا في شرحها أقصى الجهد ، إن لم يعلِّمنا الربّ ايّاها بالإختبار . إنّ الربّ يلقي في صميم النفس ما يريد أن تَفهمَه النفس وهناك يُمثِّله دونما حاجةٍ الى صورة الكلمات وشكلِها ، لكن على طريقةِ الرؤيا التي وَصَفت . ولنلاحظْ بدقَّةٍ هذه الطريقةَ التي يُفهِم بها اللهُ النفسَ ما يريد ، ويُفْهِمُها حقائقَ كبيرةً وأسرارًا ؛ فبهذه الطريقة أَفهمُ غالبًا ما

يعلّمني الربّ في شأن رؤيا يريدُني ، عزّ وجلّ ، أن أفهمَها ، وأرى أنَّ الشيطان قلّما يستطيعُ أن يتدخّل في هذا المجال للأسباب التي سأُوردُها . فإذا لم تكن صائبةً أكون ، أنا ، مخطِئةً .

تأثيرٌ روحيّ عميق

٧. إن هذا النوعَ من الرؤيا والكلامِ ذو طابَعٍ روحيٍّ عميقٍ فلا يُبقي ، في رأيي ، مجالاً للبلبلة في قوى النفس والحواس يمكن الشيطان أن يجنيَ منها شيئًا . هذا يحدث نادرًا ولمدَّةٍ قصيرةٍ . وأرى أن قد يَحدُث ، أحيانًا أخرى ، أن لا تتوقَّف قوى النفس ولا تتعطّلُ الحواس ، بل على العكس تظلُّ مالكةً ذاتَها ، وهو ما لا يحصُل دائمًا في التطلُّع ، بل إنه قليلُ الحدوث . وأُكرِّر القولَ إنه عندما يحصُل هذا فنحنُ لا نعمل شيئًا ولا نصنعُ شيئًا ، بل كأنّ كلَّ شيءٍ من عمل الربّ . ومثل هذا مثل غذاءٍ إستقرَّ في مَعِدَتِنا ولم نأكلْه ولا نعرفُ مَن وضَعه هناك ، لكننا نعرفُ تمامًا أنه هناك ، وإن كان لا يُعرَفُ هناك ما هو هذا الغِذاء ولا مَن وضعه . أما هنا[٣] فكلاهما معروف ؛ وأما كيف وُضعَ الغِذاء فلا أعرف ، لأنني ما رأيتُ ولا سمعتُ شيئًا ، وما خطرَ لي قطُّ أن أشتهيه ، وما بلغني أنّ ذلك يُمكن أن يحصُلَ .

علمٌ بغير جهد

٨. أما في الكلام الآخر الذي تحدَّثنا عنه فيُرغمُ اللهُ به العقلَ على الإنتباه وعلى فهمِ ما يُقال فتبدو النفسُ وكأنَّها لها أذنان أخريان تسمع بهما ، وأنها مجبرةٌ على الاصغاء وعدم السهو ؛ فهْي أشبه بإنسانٍ يتمتّع بسمعٍ جيدٍ ، لا ندعه يسدّ أذنيه ونكلّمه عن كثب بصوتٍ عالٍ ، فانه يسمع الكلام ، شاءَ أم أبى ، ويعمل بالنتيجة ، شيئًا ما لأنه متنبّهٌ ليفهم ما يُقال له . أما هنا ، فلا شيء من هذا ؛ فإن الجهدَ القليل الذي كانت تبذله النفس للإصغاء في الحالة السابقة ، يزول عنها . إنها تجدُ كلَّ شيءٍ

(٣) «هنا» أي في الحديث الصوفي مقابل «هناك» في الجملة السابقة التي تدلّ على المَعِدَة .

مطبوخًا ومأكولاً ، فما عليها إلاّ أن تتلذّذ به . مثلها مثل إنسان ما تعلّم ، وما بذل جهدًا إطلاقًا ليتعلّم القراءة ، وما درَس أبدًا ، يجد نفسه يمتلكُ العلمَ كلَّه دون أن يدري كيف أو مِن أين أتاه ، لأنه ما بذلَ جهدًا قطّ لتعلُّم الأبجدية .

إنكشاف سر الثالوث

٩. إن هذا التشبيه الأخير يوضح ، فيما أظنّ ، شيئًا من هذه الهبة السماوية ، لأن النفسَ تجدُ ذاتَها ، فجأةً ، عالمةً ، وقد كُشِفَ لها سرُّ الثالوث الأقدس وحقائقُ أخرى ساميةٌ جدًّا كشفًا مُبينًا حتى إنها لا تهابُ مجادلةَ أيِّ لاهوتيٍّ في صحة هذه الأمور العظيمة . ويأخذُها العجبُ ، حتى إنّ نعمةً مثلَ هذه تكفي لتغيِّرَ نفسًا تغييرًا كليًّا فلا تُحِبُّ من بعدُ إلّا ذاك الذي تراه يجعلها أهلاً لهذه الأمور العظيمة دونَ جهدٍ منها ، ويُطلعها على أسرارٍ ، ويتعاطى معها بصداقةٍ ومحبّةٍ يَصعُب وصفُها . فانه يُغدِق مننًا تثير بذاتِها الرَيبَ ، لأنها مننٌ معجِبةٌ ، ومُنِحَتْ نفسًا بعيدةً كلَّ البعد عن استحقاقها ، فإذا لم يكن لديها إيمانٌ حيٌّ استحال عليها تصديقُها . وعليه ، في نيّتي أن لا أرويَ إلّا بعضَ المنن التي أغدقَها الربّ عليّ – ما لم يُطلَبْ إليَّ أمرٌ آخر – ، وإن اقتصرَ على بعضِ رؤىً قد تكونُ ذاتَ فائدةٍ ، أو تساعدُ مَن يمنحهم الربّ إيّاها على أن لا يرتاعوا لاعتبارهم ذلك مستحيلاً ، كما كنت أعتقد ، أو لأوضحَ النهجَ أو الطريقَ الذي قادني فيه الربّ ، وهو ما طُلبَ إليّ أن اكتبَ فيه .

تفاهم على طريقة أهل السماء

١٠. وأعود ، إذًا ، الى طريقةِ الفهم هذه فأقول : يبدو أن الربَّ يُريد ، في أيِّ حال ، أن يكونَ لهذه النفسِ بعضُ الإطِّلاع على ما يحدُث في السماء . وأعتقد أنه كما يتفاهم سكانُ السماءِ دون أن يتحادثوا (وهذا ما لم أكن أعرفه الى أن أرادَ الربّ أن يوضِحَه لي بجودٍ منه وأطلعَني عليه في أحدِ الانخطافات) ، هكذا يَحدُث هنا ، فالله والنفس يتفاهمان بمجرَّد أن يريدَ ، عزّ وجلّ ، أن تفهمَه ، دون وسيلةٍ أخرى تُظهرُ الحبَّ الذي يتبادلُه هذان الصديقان . فهما كشخصين على الأرض يتحابّان كثيرًا ،

راجِحَيْ العقل ، يكفي ليتفاهما ، كما يبدو ، أن يتبادلا النظراتِ دونما حاجةٍ الى الإشارات. هذا ما يجب أن يحدثَ هنا ؛ فهذان الحبيبان يُمعن النظرَ أحدُهما بالآخر ، دون أن نرى كيف ، كما يخاطِبُ العروسُ الحبيبةَ في **نشيدِ الأناشيد**[٤] . على ما اعتقد ، فقد سمعتُ أنه وردَ في هذا الكتاب.

إبتهال وشكر

١١. أللّهمّ ما أعجبَ لطفَك الذي يسمحُ أن تراك عينان، هما عينا نفسي ، أساءتا استخدامَ النظرِ أيّما إساءةٍ! فلتُعوِّدْهما ، يا ربّ ، هذه المشاهدةُ أن لا ينظُرا شيئًا دنيئًا ، وأن لا يَسُرَّهما شيءٌ سواك! ما أشدَّ عقوقَ البشر! إلام تراهُ يبلغُ بهم؟ إني لأعرف بالإختبار أن ما أقول حقٌّ هو ؛ ويمكنُ القولُ أنّ هذا أقلّ ما تصنعه ، ربي ، مع نفسٍ تبلغُ بها الى هذا الحال. أيّتها النفوسُ اللواتي بدأْتُنَّ تُمارِسنَ التأمل وتملِكْن إيمانًا حقًّا : أيُّ خيراتٍ تستطِعن السعيَ وراءَها في هذه الحياة (وَلنترك جانبًا المكسبَ الأبدي) تساوي أدنى هذه الخيرات؟

نعمةٌ تفوق كل الملذات

١٢. إعتبِرْنَ واقعًا حقًّا أنّ الله يعطي ذاتَه للذين يتركون كلَّ شيءٍ من أجله. إنه لا يُحابي ، بل يحبُّ الجميع ؛ فلا عذرَ لأحد ، مهما كان بائسًا ، ما دام قد صنعَ هذا بي وأوصلَني الى هذه الحالة. لا تحسَبْنَ ما أقوله خلاصةً لكلِّ ما يمكن قولُه ، بل إنما أُورِد ما لا غنى عنه لأوضحَ هذا الضربَ من الرؤيا ، وهذه النعمةَ التي يمنحها الله النفس ؛ لكني لا أستطيع أن أصفَ ما تشعرُ به النفسُ حين يؤتيها الربّ أن تفهمَ أسراره وعظائمَه ، والمتعةَ التي تفوقُ كلَّ ما يستطيع العقلُ أن يتصورَّه ، فإنها تولِّد ، عن حقٍّ ، كرهَ ملذّات الدنيا لأنها جميعَها قذاراتٌ. أني لأكره مقارنةَ هذه الملذّات بتلك ، حتى لو أعطيتُ أن أتنعّمَ بها الى ما لا نهاية ، ولو أعطاني الربّ من تلك قطرةَ ماءٍ واحدةً من النهر الجارف المعدِّ لنا.

---

(٤) نشيد ٤، ٩؛ و ٦، ٤.

لا مجد بدون صليب

١٣. إنها لوقاحةٌ، وإني لأخجلُ من نفسي حقًّا! ولو أمكنَ أن يَحدُث في السماءِ شعورٌ بالعار، لكنتُ، بالتأكيد، أكثرَ مَن يشعرُ به هناك. كيف يُمكن أن نرغب في هذه الخيرات العظيمة، والملذّاتِ، والمجدِ الدائم على حسابِ يسوعَ الصالح؟ ألا نبكي أقلّه مع بنات أورشليم ما دمنا لا نساعده على حملِ صليبه مع القيرواني[٥]؟ أفيجوز لنا أن نستمتعَ في الملذّاتِ والتسليات، بما استحقّه لنا بثمنِ دمه المهراق؟ هذا مستحيل. أبتكريماتٍ باطلةٍ نحاول أن نخفِّفَ الاحتقارَ الذي قاساه لنملكَ، نحن، الى الأبد؟ إننا بعيدون عن ذلك. لقد ضَلَلْنا، ضَلَلْنا الطريقَ، فلن نصلَ أبدًا الى فوق.

أَعلِنْ، حضرتَكَ، أبتِ[٦]، هذه الحقائقَ جهارًا لأن الله حرَمني هذه الحريَّة. بودِّي أن أُعلنَها لنفسي دائمًا؛ فقد تأخَّرت كثيرًا في إعارتها أُذُنًا صاغيةً، وفي الاستماعِ الى الله، كما سيُرى في هذا الكتاب، حتى إني أشعرُ بخجلٍ كبيرٍ في الحديث عن هذا الموضوع؛ ولهذا أودُّ أن ألزمَ الصمت. سأتحدّث فقط عمّا أتأمّل فيه أحيانًا. عسى الربُّ يُوصلُني الى الغاية فأستطيع أن أتنعَّم بهذا الخير.

سعادة الطوباويين

١٤. يا له من مجدٍ مفاجئٍ ويا له من سرورٍ للطوباويين الذين يَنعمون بهما حين يرون أنّهم، ولو تأخروا، لم يفتْهُم أن يعملوا شيئًا واحدًا ممّا أمكَنهم في سبيل الله، ولم يتقاعسوا عن تقديم أيِّ شيءٍ له بجميع الوسائل التي أمكنهم استخدامُها، طبقًا لطاقاتِهم وحالتِهم، ومَن استطاع أكثر، بذَل أكثر! ما أعظمَ ما يكون غنيًّا ذاكَ الذي تخلّى عن الأموال جميعِها حبًّا بالمسيح[٧]! ما أشرفَ مَن رفَضَ الشرف من

---

(٥) متى ٢٧، ٣٢ ولوقا ٢٣، ٢٧.

(٦) الأب غارثيا دي توليدو.

(٧) هذا المقطع مُشبَعٌ بأفكارٍ من تعليمِ المسيح: متى ١٩، ٢١–٢٩؛ ٢٧، ٨؛ و٢ قورنثية ١١، ١٦...

أجله ، بل فَضَّلَ أن يكون مخفوضَ الجانب ! ما أسمى حكمةَ مَن فَرِحَ بأن يعتبرَه الناسُ مجنونًا ما داموا قد أطلقوا هذا الاسمَ على « الحكمةِ » نفسِها ! وما أقلَّ وجودَ هؤلاءِ بسبب خطايانا ! كأني بهم قد انقرضوا ، هؤلاء الذين كان الناس يعتبرونهم مجانين إذ يَرَونهم يأتون أفعالاً بطوليَّةً يفعلُها المشغوفون بالمسيح . أيُّها العالم ! أيها العالم ! ما أعظمَ ما يرتفعُ قدْرُكَ لقِلَّةِ مَن يعرفونكَ !

حكمة هذا العالم

١٥. لعلّنا نخال أنفسَنا نخدمُ الله خدمةً فُضلى إذا اعتبَرنا الناسَ عقلاءَ ، فَطِنين ! إن الأمر كذلك ، لكثرة ما نُبدي من الحذَر. ونحسَبُ أنفسَنا مقصِّرين بإعطاء القدوة الحسنة إذا لم يظهر كلٌّ منّا ، بحسب مكانتِه ، بمظهرِ الرزانة والمهابة. فنحن ، رهبانًا أو إكليركيين أو راهباتٍ ، نعتبِر أنّ ارتداءَ ثوبٍ قديمٍ مرتوقٍ بِدعةٌ تُشكِّكُ الضعفاء. ونخشى الإغراقَ في الاختلاء والتأمل ، والعالم على ما هو عليه ، وقد جُعلتْ طَيَّ النسيان ممارساتُ الكمال واندفاعُ القديسين الملحاحُ فيها. وفي اعتقادي ، أنَّ نائباتِ هذا الزمان تُحدِثُ أذىً أكبرَ من الشكِّ الذي قد يُحدثه الرهبانُ بأعمالهم أو بكلامِهم على ضرورةِ احتقار العالم ، لأن الربَّ يَستخلص من هذه الشكوك فوائدَ كبيرةً. وإذا تشكَّكَ البعضُ ، فإنّ آخرين يبكِّتهم ضميرُهم. حبَّذا لو كان هناك رسمٌ لما قاسى المسيح ورسلُه ! فالحاجةُ اليه الآن ملحّةٌ أكثر منها في أيِّ وقتٍ مضى.

صلابة الروح في بِدرو دي أَلْقنطره

١٦. ما أروعَه مثالاً اختطفه الله من بيننا منذُ قليلٍ بشخصِ الراهب المبارك بِدرو دي أَلْقَنطَره ! لم يَعد العالمُ يُطيقُ كمالاً ساميًا كهذا. يُقال إن صحَّةَ الناس صارت ضعيفةً ، وليست أيَّامُنا مثلَها في الماضي. لقد كان هذا الرجلُ القديس ابنَ هذا العصر ، أما روحه فكان صلبًا كالروح في الأزمنة الغابرة ، ولهذا كان يحتقر العالم. فلئن كنّا لا نسير عُراةً ، أو نمارس التقشُّفَ القاسي كما كان يفعل ، فإنّ هناك أساليبَ كثيرةً ، كما قلت مرارًا ، ندوسُ بها العالم ، والربّ يعلِّمها من يَجد لديه الشجاعة. وما

أعظمَ الشجاعةَ التي منحَها الله، عزّ وجلّ، هذا القديسَ المذكور حتى يمارس تقشُّفًا قاسيًا كالذي مارسَ طوال سبعة وأربعين عامًا كما هو مشهور! وبودِّي أن أتحدَّث قليلاً عن هذا التقشّف الذي أعرفه معرفةً حقًّا.

وصف تقشف بدور دي ألقنطره

١٧. لقد حدّثَني بالأمرِ وكشفَه لشخصٍ آخر[٨] لم يكن (القديس) يتحفَّظ أمامه. أما حديثُه لي فكان الدافعُ اليه المودّةَ، وقد بثَّها الربُّ فيه ليستعيدَني ويشجِّعَني في زمنٍ كنتُ بأمسّ الحاجة الى ذلك، كما قلت وسأعيد القول[٩]. روى لي أنه قضى أربعين سنةً، فيمَا أظنّ، لا ينامُ إلّا ساعةً ونصفَ ساعةٍ في اليوم، وأنّ أكبرَ مشقّةٍ كان يعانيها في التقشّف في البدءِ كان التغلّبُ على النعاس؛ ولهذا كان دائمًا إمّا ساجدًا على قدميه واما واقفًا. وكان يَرقد، حين يَرقد، جالسًا، مسندًا رأسَه الى خشبةٍ مُثبتَةٍ في الحائط. ما كان يستطيع أن يضطجع حتى لو أرادَ أن يفعلَ، لأن طولَ حجرتِه، كما هو معروف، ما كان يَزيدُ على أربعةِ أقدامٍ ونصفِ قدم. وطوال هذه السنين ما اعتمرَ الأسكيمَ قطّ، أكانت الشمسُ محرِقةً أو المطرُ مِدرارًا، وما انتعل ولا ارتدى ثوبًا ناعمًا، بل كان يتدثّر مِسحًا دون شيءٍ آخرَ يلامِس جسدَه، مِسحًا أضيقَ ما يُستطاعُ احتمالُه، وفوقَه مِعطفًا من القِمَاش عينه. كان يقول لي إنه حين يَقرِسُ البرد كان ينتزع المعطفَ عنه ويدَعُ بابَ الحُجرة ونافذَتها مفتوحَين، ثم يَرتدي المعطفَ ويُغلق البابَ ليُرضيَ جسمَه فيرتاح على شيءٍ من الدِفء. كان من عادته أن يتناولَ كلَّ ثلاثةِ أيامٍ طعامًا. وسألني عمّا يُثير عَجَبي في الأمر، فإنه سهلٌ على مَن يتعوَّده. قال لي أحدُ رفاقه إنه كان يقضي أحيانًا ثمانيةَ أيامٍ لا يذوقُ طعامًا. أظنُّ أن

---

(٨) هي المكرّمة ماريا دياث المشهورة بفضائلها في آفيلا، وقد كان القديس بدرو دي ألقنطره (١٤٩٩ – ١٥٦٢) معلّمًا روحيًا لها، واليه يُنسب القولُ إن آفيلا تضمّ داخل أسوارها ثلاث قديسات: الأم تريزا، وماريا دياث دي ڤيڤار، وكاتالينا دي آفيلا.

(٩) سيرة ٢٧، ٣ وسيرة ٣٠.

ذلك كان يَحدُث له أثناءَ التأمل ، فقد كان يحصُل له انخطافاتٌ واندفاعاتٌ بحبٍّ الله عنيفةٌ كنتُ شاهدةً على حالٍ منها[10] .

إحتشامُه وفضائله

١٨. بلغ فقرُه وإماتته أقصى مبلغٍ في شبابه. فقد أخبرني أنه حدث له أن أمضى سنواتٍ ثلاثًا في أحد أديار رهبانيته دون أن يعرفَ راهبًا إلّا من صوته لأنه ما كان يرفَعُ نظرَه أبدًا ؛ وهكذا ، ما كان يعرف الذهابَ الى حيث كان الواجب يقتضي ذهابَه إلّا أن يسير في إثر إخوانه الرهبان. هكذا كان يسير أيضًا في الدروب. ما نظر امرأةً قطُّ في سنين عديدة. وكان يقول لي : «سيّان عندي أن أرى أو لا أرى». إلّا أنه كان طاعنًا في السن حين تعرّفتُ إليه ، وبلغَ من الهزال أقصاه فبدا كأنه مصنوعٌ من جذور الشجر.

وكان الى هذه القداسة كثيرَ البشاشة ، قليلَ الكلام ، إلّا أن يُطرحَ عليه سؤال. كان عذبَ الحديث لأنه كان متوقّدَ الذهن. أودُّ أن أقول أمورًا أخرى كثيرةً ، لكنّي أخشى أن تلومني حضرتُك على تدخُّلي في هذا الموضوعِ ، وبهذا الخوف كتبتُ ما كتبت. وعليه أختُم بقولي إن موته كان مِثلَ حياتِه وعظًا وتحذيرًا لإخوته. وحين رأى أنَّ أجله قد دنا تلا المزمور **فرحت بالقائلين لي**[11] ثم سَجَدَ على ركبتيه وأسلم الروح.

رؤيته في المجد

١٩. وبعد موتِه ، رضيَ الله أن أحظى منه بمساعدةٍ أكثر منّي في حياته ؛ فقد نصحَني في أمورٍ عديدة. غالبًا ما رأيتُه في مجدٍ عظيم. في أوّل مرّةٍ ظهر لي فيها قال :

(١٠) حصل ذلك على الأرجح في دير التجسّد في آفيلا سنة ١٥٦١. فقد عرّج على الدير، وأعدّت له تريزا الغداء في قاعة الاستقبال ، وهناك فوجئت به بحالة الانخطاف ، بحضور أشخاصٍ آخرين.

(١١) مزمور ١٢١.

«طوبى للتقشّف الذي استحقَّ لي هذا الثوابَ الكبير» ، وأمورًا أخرى عديدة. وظهر لي سنةً قبل وفاتِه ، وكان بعيدًا ، فعرفتُ أنه سيموت ، فأعلمته بالأمر وهو على بضعٍ فراسخ من هنا. وحين فاضتْ روحُه ظهرَ لي وقال إنه مقبلٌ على الراحة. ما صدّقتُ ذلك ، فأطلعتُ بعضَ الأشخاص على الحدث ، وبعد ثمانيةِ أيّام بلغنا نبأ وفاته ، بل بالأحرى بدءُ حياتِه الى الأبد.

قوّة شفاعته

٢٠. وهكذا إنتهت حياةُ التقشّف هذه الى مجدٍ عظيم. ويُصوَّر لي أنّه يعزّيني أكثرَ بكثيرٍ ممّا كان يفعل أثناءَ حياته على الأرض. قال لي الربُّ مرّةً إنه لا يطلبُ أحدٌ إليه شيئًا بواسطته إلّا ويستجيب طلبَه. وقد تحقّقتْ طِلباتٌ لي كثيرةٌ إستشفعتُه بها لدى الربّ. تبارك الى الأبد. آمين.

تواضع واستغفار

٢١. لكن ، لِمَ كلُّ هذا الكلام؟ أَلِحَنِّكَ ، أبتِ ، على إحتقار كلِّ ما في هذا العالم؟ كأنكَ لا تعرف ذلك ، أو كأنكَ لم تعزِمْ على الأمر بعدُ وتَضَعْه موضعَ التنفيذ!

وأرى العالمَ في حالةٍ من الضياع بائسةٍ حتى إنه ولو لم يؤدِّ كلامي في الموضوع إلى أكثر من إجهادي نفسي في كتابتِه لَصِرْتُ في راحة ، لأن كل ما أقوله يُرَدُّ عليّ. سامَحَني الربّ على إهانتي إياه في هذه الحال ، وعفوكَ ، أبتِ ، لأني أُتعبُك بدون مبرِرٍ. كأني أودّ أن تكفّر عمّا أخطأتُ ، أنا ، في هذا المجال.

الفصل الثامن والعشرون

تتحدّث عن المنن العظيمة التي صنعها الربّ معها وكيف ظهر لها لأوّل مرّة. تفسّر ماهيَّةَ الرؤيا الخياليّة. تَذكُر المفاعيلَ الكبيرة والعلاماتِ التي تتركُها حين تكون من الله. إنّه فصلٌ كثير الفائدة، كبير الأهمية

١. أعود الى الكلام على موضوعِنا. قضيتُ بضعةَ أيّامٍ وهذه الرؤيا مستمرَّةٌ تفيدني أيَّمَا فائدةٍ حتى إنني ما كنتُ أخرج من حالةِ التأمل؛ وكنتُ أجتهد، في كلِّ ما أعملُ، أن لا أغيظَ من كنتُ أراه بوضوحٍ شاهدًا على أفعالي. ولئِن كان يعتريني الخوفُ أحيانًا لكثرة التحذيرات فما كان الخوفُ يدوم طويلاً لأن الربَّ كان يسكِّنُ روعي.

ظهور الرب الأول لها

كنت مستغرقةً في التأمل ذاتَ يوم، فشاءَ الربُّ أن يُرِيَني يديه فقط، وكانتا على جمالٍ أعجزِ معه عن وصفها. نالني روعٌ شديدٌ لأنَّ أيَّ شيءٍ جديدٍ في أيَّةِ نعمةٍ فائقةِ الطبيعة يَمنحُنيها الربّ يُحدِثُ بي، في البدءِ، خوفًا عظيمًا. وبعد بضعةِ أيامٍ، رأيتُ أيضًا ذلك الوجهَ الإلهي وقد أخذَ، فيما أظن، بمجامع قلبي. وما كنتُ أستطيع أن أفهمَ لماذا يُظهِرُ الربُّ نفسَه شيئًا فشيئًا ما دام كان عازمًا على أن يمنحَني نعمةَ مشاهدتِه كلِّيًّا، إلى أن أدركتُ فيما بعد أنه، عزّ وجلّ، كان يقودني بما يوافِق

ضعفَ طبيعتي. تباركَ الى الأبد! لأَنّ إنسانًا حقيرًا ودنيئًا بهذا المقدار لا يستطيع أن يُطيقَ مجدًا كهذا عظيمًا؛ ولأن الربّ الشفوقَ كان يعرف ذلك، كان يُعِدُّني له.

خوف وطمأنينة

٢. قد يُخيَّل الى حضرتكَ أن لم يكن من حاجةٍ لجهدٍ كبيرٍ حتى تُشاهَدَ يدان ووجهٌ رائعُ الجمال. فالأجساد الممجَّدَةُ هي على درجةٍ من الجمال بحيث إنَّ رؤيةَ المجد الذي يرافق هذا البهاءَ الفائقَ الطبيعة تَخبُلُ العقل؛ وهذا ما كان يُثير فيَّ خوفًا عظيمًا فأَرتبِكُ بكلِّيتي وأضطرب؛ إلَّا أنّي كنت أستعيدُ، فيما بعد، الثقةَ والأمانَ، وأشعرُ بمفاعيلَ كهذه، فيزولُ الخوفُ في الحال.

رؤيا الناسوت كاملاً

٣. في عيدِ القدّيس بولس[١]، وفي أثناء القداس، تمثّل لي هذا الناسوتُ المقدّس كاملاً مثلما يُرسَم قائمًا من الأمواتُ مُجَلْبَبًا بجمالٍ وعظمةٍ فائقَين كما وصفتُها لحضرتكَ في كتابٍ خاص[٢] حين أمرتَني بإلحاحٍ أن أفعلَ، وقاسيتُ في ذلك مشقَّةً مبرِّحةً لأنه يستحيل على المرءِ الكلامُ على الموضوع دون أن يشعرَ بالإنسحاق. على أني كتبتُ عن ذلك بأحسنَ ما استطعتُ، فلا حاجة الى التكرار؛ بل أكتفي بالقول إنه إذا لم يوجد في السماء ما يُمَتِّعُ البصرَ سوى جمالِ الأجسام الممجَّدة الرائع، ففي ذلك سعادةٌ عُظمى، وبنوعٍ خاص مشاهدةُ ناسوتِ سيِّدِنا يسوع المسيح؛ ومع أنه، عزّ وجلّ، يتجلَّى على هذه الأرض بما يُطيق بؤسُنا إحتمالَه، فكيف يكون حيث نتمتّعُ مِلءَ التمّتع بهذا الخيرِ الأسمى؟

---

(١) على الأرجح في عيد إرتداد القديس بولس، ٢٥ كانون الثاني ١٥٦١.
(٢) تقرير أرسلته الى الأب غارثيا دي توليدو، لم يصل الينا.

حقيقة أم خداع

٤. ومع أنَّ هذه الرؤيا خياليَّةٌ فما رأيتُها قطّ ، ولا رأيتُ غيرَها أبدًا بعينَي الجسد ، بل بعينَي النفس.

يقول العارفون بهذه الأمور خيرًا مِنّي إن الرؤيا السابقة[٣] أكمل من هذه ، وهذه أكملُ بما لا يقاس من التي تُدرَكُ بعينَي الجسد. ويقولون إن هذه الأخيرةَ أدناها درجةً وأوفرَها إمكانيةً ليُثيرَ الشيطانُ الأوهام. أما أنا ، فما كنتُ أستطيع فهمَ الأمر آنذاك ، بل كنت أَتمنّى ، ما دامت هذه النعمةُ تُعطى لي ، أن أرى بعينَي الجسد حتى لا يَحكُمَ عليّ معرّفي بأنني ضحيةُ أوهام. وكان يحدثُ لي ، بعد إنقضاءِ الرؤيا مباشرةً ، أن أتصوَّرُني ، أنا أيضًا ، واهمة ، فأتألّم لإطلاعي معرّفي على الأمر مخافةَ أن أكونَ قد خدعتُه. فأعودُ الى البكاء ، وأرجع إليه أفصِحُ له عن شَجَني. كان يسألني إذا كنتُ قد رويتُ الواقعَ أم أنني أردتُ مخادعتَه. كنت أقول له الحقيقة ؛ فما كنت أكذِب ، في تقديري ، وما خطرَ الكَذِبُ ببالي ، وما كنتُ لأقولَ شيئًا بدلَ شيءٍ آخرَ مهما كلَّفني الأمرُ. هذا ما كان يعرِفه تمامًا ، فكان يسعى لتهدِئةِ روعي ؛ أما أنا فكان يشقُّ عليّ أن أمضيَ لأعرُض له هذه الأمور حتى إني لا أدري كيف أن الشيطانَ كان يوسوِسُ لي أنّ عليَّ التظاهرَ لأُعَذِّبَ نفسي بنفسي.

غير أنّ الربّ سارع الى منحي هذه النعمةَ وإفهامي هذه الحقيقةَ حتى تبدَّدَ الشكُّ حالاً في أنها وهمٌ ، وأدركتُ بجلاءٍ ، فيما بعد ، غبائي ؛ فلو قضيتُ سنواتٍ كثيرةً أتخيّل كيف عليّ أن أتصوّر شيئًا بهذا الجمال ، لما قدِرت ولا عرفت ، لأنه يفوق ، ببياضه وسناه فحسب ، كلَّ ما يمكن تصوّره على الأرض.

ماهية الرؤيا

٥. ليس هو بسنى باهر ، بل إنه بياضٌ لطيفٌ وسنى مُفاضٌ يُبهج النظرَ أيَّ بهجةٍ دون أن يُتعِبَه ، كالضياءِ الذي به نُدرِكُ هذا الجمالَ الإلهيَّ السامي. إنه نورٌ

---

(٣) الرؤيا العقلية ، السيرة ٢٧ ، ٢.

يختلف كلَّ الاختلاف عن أنوار الأرض ، حتى إن نور الشمس الذي نراه يبدو شاحبًا إزاء ذينِك الضياء والسنى المتمثِّلَين لبصرنا حتى لا نودّ فيما بعد أن نفتحَ عينينا . كأنكَ ترى ماءً صافيًا كلَّ الصفاء يجري على بِلّورٍ ، يتلألأُ بنورِ الشمس ، مقابلَ ماءٍ عَكِرٍ يجري على التراب تحت سماءٍ غائمةٍ. ومع ذلك فلا يُمثِّل الشمسَ ، ولا نورُه كنورِ الشمس ؛ بل كأنه نورٌ طبيعيٌّ وهذا الآخرُ نورٌ إصطناعيٌّ. إنه نورٌ لا يعقِبُه ليل ؛ ولأنه نورٌ دائمٌ فلا شيءَ يكدِّره. والخلاصةُ ، إنه نورٌ لا يستطيعُ إنسانٌ أن يتصوَّره ، مهما يكن متوقِّدَ الذهن ، ولو صرفَ حياتَه كلَّها في المحاولة. ويضعُه الله أمامنا فجأةً بحيث لو إقتضى أن نفتح عينينا لما أُتيحَ لنا الوقتُ لذلك. ولكن سِيّان كانت العينان مفتوحتَينِ أو مطبقتَين ؛ فعندما يريد الربّ ، نرى ولو بدون رغبةٍ منّا ، فلا غفلةَ تنفع ، ولا قوَّة تقاوِم ، ولا حيلةَ أو سبيلَ يُجدي نفعًا. ولي خبرةٌ في هذا الموضوع طويلةٌ كما سأبيِّن ذلك.

صعوبة فهم الرؤيا

٦. ما أودُّ أن أتحدَّثَ عنه الآن هو الطريقةُ التي يُظهِرُ بها الربُّ ذاتَه في هذه الرؤى. لا أَدَّعي أني سأفسِّر كيف يمكنُ أن يُفيضَ هذا النورَ السنيَّ في قرارةِ النفس ، وأن يطبعَ في العقلِ صورةً واضحةً هذا الوضوحَ حتى ليبدو موجودًا وجودًا حقيقيًّا هناك ، لأن هذا شأنُ العلماء. فالربّ لم يُرِد لي أن أفهمَ كيف يَحدُث ذلك ، وأنا جاهلةٌ أيَّ جهلٍ ، وعقلي من البلادة بحيث إني ، رغم شرحِهم لي الموضوعَ مرارًا ما توصّلتُ بعدُ الى أن أفهمَه. وقولي حقٌّ. فلئِن إعتبرتَني ، أبتِ ، ثاقبةَ الفهم ، فليس الواقعُ كذلك. لقد خبرتُ الأمرَ في أمورٍ عديدةٍ ، فعقلي لا يُدرِك إلَّا ما يقدِّمونه له جاهزًا «للأكل» كما يُقال. وكان معرّفي يندهشُ أحيانًا من جهالاتي ؛ فأنا ما سعيتُ أن أفهمَ ، بل ما رغبتُ في أن أفهمَ ، كيف صنع الله هذا أوكيف أمكنَ حدوثُ ذاك ؛ وما كنتُ أستفسِر مع أني ، كما قلتُ ، كنتُ أتعاطى ، منذ سنواتٍ عديدةٍ ، وذوي علمٍ واسع. أجل ، كنت أسألُ إذا كان أمرٌ ما خطيئةً أم لا ؛ وفي ما عدا ذلك كان يكفيني إقتناعي بأنّ الله صنعَه ، فلا أرى فيه موضعًا للعَجَب وإنما دافعًا لأسبِّحه. فإنَّ الأمورَ العسيرةَ الفهم تُحرِّك فِيَّ العبادة ؛ وكلَّما ازدادتْ صعوبةً عَظُمَ فيَّ تأثيرُها.

توضيح الرؤيا

٧. وعليه، سأروي ما رأيته بالإختبار. أمّا كيف يفعلُ الله ذلك فموضوعٌ تبسطُه، أبتِ، خيرًا منّي وتُوضِحُ كلَّ ما غَمُضَ ولا أُحْسِنُ التعبيرَ عنه.

كان يقومُ في ذهني، أحيانًا، أنّ ما أراه صورةٌ، وأحيانًا أخرى كثيرةً ليس بصورةٍ بل إنما كان المسيحَ نفسَه، وفقًا للضياء الذي كان يتكرّم فيظهر فيه. كانت الرؤيا أحيانًا من الغموض بحيث إخالني أرى صورةً لا كالرسوم التي رسمها البشر، مهما كانت كاملةً، وقد شاهدتُ الكثيرَ الكثيرَ من اللوحات الرائعة. من السخافة القولُ بشَبَهٍ بين الواحدِ والأُخرى إطلاقًا؛ فهو لا يتعدّى الشبهَ بين شخصٍ حيٍّ ورسمِه. فمهما كان التصويرُ بارعًا لا يمكن أن يحاكيَ الطبيعةَ تمامًا، لأنه يُرى أنه شيءٌ جامدٌ. لكن لندع هذا، فالتشبيهُ مناسبٌ تمامًا وينطبق بحرفيَّتِه.

تأكّد من ظهور الربّ

٨. لا أقول إنّ هذا تشبيهٌ، فالتشبيه لا يأتي كاملاً أبدًا، بل الحقيقةُ القائمة على الفرق ما بين الكائنِ الحيِّ والصورةِ المرسومة، لا أكثر ولا أقل. فإذا كان صورةً، فهي صورةٌ حيّةٌ وليس إنسانًا ميتًا، بل هو المسيح الحيّ؛ وهو يبيِّن أنه إنسانٌ وأنه الله، ليس كما كان في القبر بل مثلَه بعد خروجِه منه منبعثًا. ويظهر أحيانًا بجلالٍ عظيمٍ فلا يخامرُ أحدًا شكٌّ بأنه الربُّ نفسه، خصوصًا بعد التناول لأننا نعرف أنه فينا، وهذا ما يعلِّمنا إيّاه الإيمان؛ ويَظهَرُ سيّدًا لذلك المسكنِ حتى لتخال النفسُ ذاتَها متلاشيةً وتذوب في المسيح. يا يسوعي! أنّى لي أن أوضحَ المجدَ الذي تَظهرُ فيه! إي سيّدَ العالم كلِّه وسيِّدَ السماوات، وسيِّدَ ألفِ عالمٍ آخرَ وعوالمَ وسماواتٍ لا عدَّ لها بوسعك أن تخلُقَها! إن النفسَ تُدرِك، حين ترى المجدَ العظيمَ الذي تتجلّى فيه، أنها، كلَّها، ليست شيئًا لتكونَ، أنتَ، سيّدًا لها.

هدف الربّ في الرؤيا

٩. هنا يُرى بوضوحٍ، يا يسوعي، ضعفُ سلطانِ الشياطين جميعِها بالنسبة

الى سلطانِك ، وكيف أنّ مَن يرضيك يستطيعُ أن يدوسَ الجحيمَ كلَّه. هنا يُدْرَك لِمَ خاف الشياطين حين نزلتَ الى اليمبوسَ ، وتمنّوا ألفَ جحيمٍ آخرَ أعمق من ذاك ليهربوا من هذا المجد العظيم ؛ وأرى أنك تريد إفهامَ النفس سموَّ الناسوت المقدَّس وسلطانه وهو متَّحدٌ باللاهوت ؛ هنا يَتمثَّل تمثيلاً حيًّا ما تكون عليه مهابةُ هذا الملك وكيف يكون شديدًا على الأشرار. هنا يَظهر التواضُع الحقيقي ، تُحدِثُه في النفسِ رؤيتُها بؤسَها وعدمَ إستطاعتِها تجاهلَه. هنا يأخذُها الخجلُ من خطاياها والندمُ الصادق عليها ؛ فمع أنها ترى هذا الربّ يُظهِر لها حبَّه ، لا تعرف أين تختبئ ، وتتلاشى كلاًّ بكلّ.

وفي يقيني أن هذه الرؤيا – وبها يريد الربّ أن يُظهِر للنفس كثيرًا من عظمتِه وجلاله – تُؤَثِّر في النفس تأثيرًا عظيمًا بحيث يستحيل على أيِّ إنسانٍ إحتمالُها إذا لم يؤتِ اللهُ النفسَ دعمًا فائقَ الطبيعة بالذهول أو الانخطاف ، فتفوتها بهذه المتعة رؤية ذلك الحضور الإلهي.

أَحقٌّ أنّ تلك الرؤيا تُنسى فيما بعد؟ بل إن ذينِك الجلالَ والجمالَ ينطبعان راسخَين في النفس فلا تقوى على نسيانهما إلّا اذا سمحَ الربّ بأن تعانيَ جفافًا ووحشةً خانقةً ، كما سأُبيِّن ذلك فيما بعد ، وكأنها ، عندئذٍ ، تنسى اللهَ نفسه. في هذه الرؤيا تتبدَّل النفسُ وتكون متشرِّبةً دائمًا من الله. وتخالُ ، في رأيي ، أن حبًّا لله شديدًا ينمو فيها من جديدٍ كأرفع ما يكون الحب. ولئن كانت الرؤيا السابقةُ التي تحدّثتُ عنها[٤] ، وفيها يتمثّل الله من دون صورة ، أرفعَ درجةً ، فان هذه أكثرُ ملاءمةً لضَعفنا لأن ترسيخَها في الذاكرة وشغلَ الفكر فيها من الأهميّة بمكان حتى نتمكّن من تركيز الخيال على تمثيل حضورٍ إلهيٍّ سامٍ كهذا الحضور. وهذان النوعان من الرؤى يحصلان معًا دائمًا ، تقريبًا. بل هكذا يحصلان : فبعَيْنَي النفس يُرى سموُّ الناسوت الأقدس ، وجمالُه ، ومجدُه ، وبالطريقة الأخرى التي تحدّثْتُ عنها يُتاحُ لنا أن نفهمَ كيف أنه اللهُ ، وقويٌّ ، وقادرٌ على كلِّ شيء ، ويأمر كلَّ شيء ، ويدبِّر كلَّ شيء ، ويغمر كلَّ شيءٍ بحُبِّه.

---

(٤) الرؤيا العقلية ، سيرة ٢٧ ، ٢.

رؤى حقيقية ورؤى زائفة

١٠. إن هذه الرؤيا لجديرةٌ بالتقدير كلَّ التقديرِ ولا خطرَ فيها ، برأيي ، فمن مفاعيلِها يُعرف أن لا سلطانَ للشيطان فيها . فقد حاولَ ، فيما أظن ، أن يمثِّلَ لي الربَّ نفسَه ، بهذه الطريقة ، ثلاثَ مراتٍ أو أربعًا ، تمثيلاً زائفًا : يأخذ صورةَ الجسد ، لكنه يعجزِ عن أن يقلِّدَها محاطةً بالمجد مثلَها حين تكون الرؤيا إلهيّة . إنه يقوم بتمثيلاتٍ ليُفسدَ الرؤيا الحقيقية التي شَاهدَتْها النفسُ ، لكنها تقاوِم ، وتضطرب ، وتشمئِزّ ، وتتململ ، فتفقدُ ما كان لديها من تقوى ولذَّةٍ ، وتنقطع عن أيِّ تأمل . لقد حدث ذلك في البدء ، كما قلت ، ثلاثَ مرّاتٍ أو أربعًا . والفرقُ بين الرؤيا الحقيقية والزائفة شاسعٌ ؛ إلّا أنّ النفس التي بلغتْ حالَ تأمُّلِ السكينة فقط تدرك ذلك ، فيما أظن ، من خلال المفاعيل التي عرضتُها عند كلامي على المحادثات[٥] . هذا أمرٌ مشهورٌ جدًّا ؛ وإذا كانت النفس ترفض الإنخداعَ ، فإن الشيطان ، فيما أرى ، لا يستطيع أن يخدَعها إذا سلكتْ في التواضع والبساطة . ومن حصلَ من الله على رؤيا حقيقيَّةٍ يتثبَّتُ من الأمر في الحال ؛ فلئِن يشرعُ الشيطان بتوفير البهجة واللَّذّةِ للنفس فإنها ترذُله ؛ بل إن اللذَّة ، في اعتقادي ، مختلفةٌ ولا تنمُّ عن حبٍّ نقيٍّ ، طاهرٍ ؛ فيكشف حالاً هُوِيَّةَ صاحبِه . وعليه ، فَمَن تتوفّر لديه الخبرةُ لا يستطيع الشيطان ، في اعتقادي ، أن يُنزِلَ به سوءًا .

مفاعيل الرؤيا الحقيقية

١١. فأن تكونَ هذه الرؤيا حصيلةَ التخيُّل ، لأمرٌ مستحيلٌ كلَّ الاستحالة ، وبعيدٌ عن ذلك كلَّ البعد ، لأن جمالَ يدٍ واحدةٍ من يَدَيْ الربِّ وبياضَها يتجاوزان كلَّ تخيُّل . فإنه من المستحيل أن نرى أشياءَ في لحظةٍ ، دون أن نتذكَّرها أو نفكِّر فيها ، حين تعجز المخيِّلَةُ عن ترتيبها في مدّةٍ طويلةٍ لأن الرؤيا تسمو كثيرًا ، كما قلت ، على ما نستطيعُ فهمَه في هذه الدنيا . بل إذا استطعنا شيئًا من ذلك ، فيمكن أن نتبيَّنَ سببَه ممّا سأشرحه الآن . لو كان العقلُ هو مَن يمثِّل لنا هذه الرؤيا ، فإنها لا تُحدِثُ

(٥) سيرة ٢٧ ، ٧ وما يليه .

المفاعيلَ العجيبةَ التي تُحدثُها ولا أيَّ مفعولٍ آخر؛ فيكونُ الحالُ كحال مَن يتظاهر بالنوم لكنه مستيقِظٌ لأن النعاسَ لم يأخذه. إنه يحتاج اليه ويشعرُ بتعبٍ في رأسه، فيتمنّى أن يرقُدَ، ويحاولُ أن يجتلبَ الكرى، ويبذلُ في ذلك جهودًا ويَخال له أحيانًا أنه يحقّق رغبتَه؛ لكن إذا لم يغلِبْه رقادٌ حقيقيٌّ فلا يُشدِّدُه ولا يقوّي رأسَه، بل يصيبُه خوَرٌ أكبر. هذا ما يَحدُث جزئيًّا هنا: تخور النفسُ، ولا تكون شديدةَ العزم أو قويَّةً بل مُرهَقَةً مشمئزَّةً. أما إذا كانت الرؤيا من الله فيستحيل تقديرُ الغنى الذي تكسِبه النفس؛ بل إنها تنفَحُ الجسدَ عافيةً وتبثّ فيه النشاط.

صحَّة الرؤيا

١٢. كنتُ أعتمد هذه الحجَّةَ وبراهينَ أخرى حين كانوا يقولون لي – وقد قالوا لي مرارًا – إنه الشيطان وإنها أضغاثُ أحلام؛ كنت أستخدمُ التشبيهات ما استطعت، وكان الربّ يساعدني على الفهم. إلَّا أنّ كلّ ذلك كان قليلَ الجدوى. فقد كان يقطُن في المدينة أناسٌ مشهورون بتقواهم، وكنت بإزائهم رذيلةً، وبما أن الله ما كان يقودُهم في هذا الطريق، كان الخوفُ يعتريهم، وكأن خطاياي كانت تحرِّكهُ، فكانوا يتداولون أخباري ويطّلعون عليها، مع أني لم أحدِّثْ بها أحدًا سوى معرّفي، أو من كان يطلبُ منّي معرِّفي أن أُفضِيَ بها إليه.

دحض الشُّبهات: تبدُّلُها الروحي

١٣. قلت لهم مرةً: لو أن الذين يُقيمون الشبهاتِ بوجهي يقولون لي عن شخصٍ، حدَّثْتُه منذ لحظةٍ وأعرفُه خيرَ معرفة، إنه ليس هذا الشخصَ بل قد اشتبَه عليَّ وهم يعرفون ذلك، لصدّقتُ قولَهم أكثرَ من تصديقي ما كنتُ قد رأيت. أما إذا أعطاني هذا الشخص بعضَ الحِلي وما زالتْ في يديّ عربونَ حبِّه الكبير، وما كنتُ قبلاً أملك واحدةً منها، فأراني غنيَّةً على كوني فقيرةً، فلا أستطيع، ولو أردتُ، أن أصدِّقهم. وكنت أُضيفُ أنَّ باستطاعتي أن أَعرُضَ عليهم هذه الحلى لأن جميع الذين كانوا يعرفونني كانوا يرَون بوضوحٍ تبدُّلَ نفسي، وهذا كان رأيُ معرّفي. لقد كان

الفرقُ شاسعًا في كل الأمور، وما كان خافيًا بل ظاهرًا للعيان أمام كلِّ انسان. فأنا، من كنت بائسةً تَعِسةً، كنت أقول: إنني لا أستطيع أن أُصدِّقَ أنَّ الشيطان، إذا كان يفعلُ هذا ليخدعَني ويجرَّني الى الجحيم، يستخدم وسيلةً نقيضةً كأنْ ينزعَ منّي الرذائل ويغرِس فيّ القوةَ والفضائل. فقد كنت أرى جليًّا أني بهذه الرؤى أصيرُ شخصًا آخر.

حذر معرِّفها

١٤. كان معرِّفي[٦]، وهو، كما قلت، أبٌ يسوعيٌّ مشهورٌ بتقواه، يردّ بالكلامِ نفسِه كما عرفت فيما بعد. كان كثيرَ الفطنة جزيلَ التواضع؛ وقد سبَّب لي تواضعُه الكبير هذا مشقّاتٍ جمَّة. فعلى كثرةِ ممارسته التأمل وعلى سَعَةِ علمِه ما كان يثق بنفسِه لأن الربّ لم يكن يقودُه بهذا الطريق. وعانى، هو، من المصاعب أشكالاً وألوانًا بسببي. عرفت أنهم كانوا يحذِّرونه مني لئلاّ يخدعَه الشيطان فيصدّق شيئًا ممّا كنتُ أقوله له؛ وكانوا يذكرون له، على سبيل المثال، أشخاصًا آخرين. كل هذا كان يشقّ عليّ. كنت أخشى إلّا أجدَ كاهنًا يسمع اعترافي، بل أن أرى الجميع يتجنَّبونني؛ فما كان دأبي إلّا البكاء.

تشجيع المعرِّف وضيقُه بسببها

١٥. ورضي الله بعنايته أن يستمرَّ، هو، في الاستماع إليّ، بل كان خادمَ الله حقًّا بحيث كان مستعدًّا لأيِّ أمرٍ حبًّا به تعالى. فكان، إذًا، يوصيني بأن لا أغيظَ الله، ولا أحيدَ عن نصائحِه، ولا أخافَ من إهماله أمري؛ وكان يشجِّعني دائمًا ويسكِّن روعي. كان يأمرني ألّا أُخفيَ عنه شيئًا، فأُطيع أمرَه. كان يقول لي إذا فعلتُ ذلك، فحتى لو كان الشيطان، فلن يُلحِقَ بي ضررًا، بل إن الربّ يُطلِع خيرًا من

(٦) هو الأب بلطاسار ألڤارث. كانت القديسة تعتبره من أكبر اصدقائها. تقلّب في مناصب عدّة في الرهبانية. كان في الخامسة والعشرين أو السادسة والعشرين حين صار مرشدًا للقديسة (١٥٥٨ أو ١٥٥٩). وقول القديسة إنه «ما كان يثق بنفسه» يدلّ على سعة فطنته ورفيع حكمته.

الشر الذي كان الشيطان يريد أن يؤذيَ به نفسي. كان يسعى لتكميل نفسي ما أستطاعٍ الى ذلك سبيلاً. وكنت، لخوفي الشديد، أطيعُه في كل شيء ولو طاعةً ناقصةً، فاحتَملَ كثيرًا بسببي وسطَ هذه المصاعب طيلةَ ثلاثةِ أعوامٍ وأكثر. في غمرة الاضطهاداتِ القاسية التي تعرَّضْتُ لها وأمورٍ كثيرةٍ سمحَ الربّ بأن أُتَّهَمَ بها، وكنتُ غالبًا منها براء، كانوا يلقون عليه المسؤولية ويُنحون عليه باللوم، ولمّا يأتِ أدنى ذنبٍ.

خوف وعزاء

١٦. لو لم يكن على درجةٍ رفيعةٍ من القداسة، ولولا أن الربّ كان له سندًا، لكان استحال عليه أن يطيق ما أَطاق؛ فقد كان عليه أن يردّ على من كانوا يظنّونني ضالّةً ولا يصدِّقونه؛ وكان عليه، من ناحيةٍ أخرى، أن يسكّن روعي ويشفيني من خوفي بتصويره لي خوفًا أعظم. وكان عليه أيضًا أن يطمئِنَني، لأن الله كان يسمح بعدَ كلِّ رؤيا، وهي أمرٌ جديد، أن ينالَني خوفٌ شديد. كل هذا كان ناجمًا عن كوني خاطئةً كبيرةً ولأني كنتُ كذلك من قبلُ. أما هو فكان يُعزِّيني بكثيرٍ من الشفقة؛ ولو أنه كان يثقُ بنفسه لما كنت أتعذَّب بهذا المقدار؛ فإن الله كان يُفهمُه الحقيقةَ في كل أمر والسرُّ نفسُه كان ينيرُه[٧]، فيما أعتقد.

قلقُ المعرفّين حيالَها

١٧. أمّا خدّامُ الله الذين لم يكونوا مطمئنّين حيالي فكانوا يَلتقونني غالبًا. كنت أتحدّث بلا كلفةٍ عن بعضِ أمورٍ فينسبونها الى غرضٍ آخر؛ (كنت أكنّ مودّةً كبيرةً لواحدٍ منهم لأن نفسي كانت مدينةً له بالكثير الكثير وكان، هو، مثالَ التقى؛ كنت أتأسف بالغَ الأسف لأنه لا يفهمني مع أنه كان راسخَ الرغبة في إفادتي وفي أن ينيرني الربّ)؛ فكان ما أقوله يبدو لهم، دون أن يفحصوه، مخالفًا للتواضع. ما إن يلحظوا

(٧) إشارة الى ما كان يُوحَى الى الأب المذكور، في القداس، حول الأشخاص الذين كان يتعهَّدهم روحيًّا.

لديّ خطأً ما – ولا شكّ في أنهم كانوا يَرون أخطاءً كثيرةً – حتى يشجبوا كلّ شيء. كانوا يسألونني بعض الأمور، فأجيبُ ببساطةٍ ودون تحفّظ، فيتصوّرونني أرغبُ في تعليمهم وأعتبر نفسي عالمةً. كلُّ هذا كان ينتهي الى معرّفي لأنهم، هم، كانوا يرغبون حقًّا في إفادتي؛ أما هو فكان يُنحي عليّ باللّوم.

أشجانها وتواضعها

١٨. استمرّ هذا الحال زمنًا طويلاً والشجونُ تتألب عليّ من كل جانب؛ غير أني بفضل المنن الذي كان الربّ يمنحنيها، كنت أحتمل كلَّ شيء. وإنما أروي هذه الأمور لتُقَدَّرَ المشقَّةُ الكبيرة التي تقاسيها النفسُ حين لا توفَّقُ بذي خبرةٍ في هذا الطريق الروحي. ولولا أَنَّ الربَّ غمرني بأفضاله لما دريتُ ما كان حلّ بي. كان هناك أمورٌ كثيرةٌ جديرةٌ بأن تفقِدَني صوابي، وكنت أجِدني أحيانًا في وضعٍ لا أستطيع معه إلاّ أن أرفعَ عينيّ نحو الربّ؛ فإن معارضةَ خيِّرين امرأةً صغيرةً، بائسةً، ضعيفةً مثلي وشديدةَ الخوف، لا تبدو ذاتَ بالٍ كما عرضتُها؛ لكنني، مع كوني قاسيتُ مشقّاتٍ شديدةً في حياتي، أعتبر هذه المعارضةَ واحدةً من أشدها. عساني، بفضل الربّ، أكونُ خدمتُه، عزّ وجلّ، بعضَ الخدمة في هذا. وأنا على يقينٍ ثابت من أنّ الذين كانوا يشجبونني ويلومونني كان همُّهم خدمتَه تعالى وخيريَ الأعظم.

الفصل التاسع والعشرون

تتابع الكلام على الموضع السابق وتتحدّث عن بعض المنن الكبيرة التي منحها الربّ والأشياء التي كان يقولُها لها، عزّ وجلّ، ليطمئِنَها ولتُجيبَ معارضيها

ميزات الرؤيا غير الخيالية

١. لقد شططتُ كثيرًا عن الموضوع لأني كنت أحاول تبيانَ الأسباب التي تُبيِّن أن هذه الرؤى ليست من عمل المخيَّلة، إذ كيف نستطيعُ أن نتمثَّل ناسوتَ المسيح بواسطةِ الدرسِ وترتيبَ جمالِه الفائقِ بواسطة المخيّلة؟ ولا يكفِي وقتٌ قصيرٌ لتحقيق شَبَهٍ ولو بسيطٍ به. نستطيعُ تمثُّلَه بواسطة المخيّلة والنظرَ بعضَ الوقتِ في ملامِحه وبياضِه، كما نستطيع تكميلَ تلكَ الصورةِ شيئًا فشيئًا ونعهَدُ بها الى الذاكرة. من تُراه يقدر أن ينزِع هذا منّا ما دُمنا نستطيع أن نصنعه بواسطةِ العقل؟ أما الرؤيا التي أنا بصددِها فلا وسيلةَ يُمكن استخدامُها فيها بل علينا أن نراها حين يريد الربّ إظهارَها، ومثلما يريد، وطوال الوقت الذي يريد. لا قدرةَ لنا على أن نحذِف شيئًا أو نضيف، ولا وسيلةَ لذلك، مهما بذلنا من جهدٍ، أو لنراه متى أردنا أو لننقطِعَ عن رؤياه؛ فما إن نحاول التحديقَ في ملمحٍ معيَّنٍ حتى تنقطعَ مُشاهدةُ المسيح في الحال.

عمل تريزا أثناء الرؤى

٢. استمرَّ الله سنتين ونصفَ سنةٍ يصنَعُ معي غالبًا هذه النعمة. ومنذ أكثر من ثلاث سنواتٍ إنقطع عن منحي إيّاها بهذه الطريقة، بانتظام، ليستبدلَها بنعمةٍ أسمى منها قد أتحدّث عنها فيما بعد[1]. ولدى رؤيتي إيّاه يخاطبني بينما أنظر ذلك الجمالَ الفائقَ وذلك الفمَ الإلهيَّ الرائعَ يلفَظ تلك الكلماتِ بعذوبةٍ حينًا وبشدَّةٍ أحيانًا، كنت أشعر بتوقٍ ملحٍّ لأتبيَّنَ لونَ عينيه أو مدى قامتِه لأتمكَّن من وصفِها، إلاّ اني ما استحقَّيتُ ذلك قط، وعبثًا كنت أحاول، بل كانت الرؤيا تزول تمامًا. ومع أني أراه ينظر إليّ أحيانًا برأفةٍ إلّا انّ في نظراته قوّةً لا تستطيع النفسُ إحتمالَها فتبقى في انخطافٍ رفيعٍ جدًّا، حتى إنها، كي تستمتعَ به استمتاعًا تامًا، تفقد معه هذا المشهَد البديع. فهنا، لا مجال إذًا لأن تريد أو لا تريد؛ بل يُرى جليًّا أنّ الربّ لا يريد إلّا تواضعًا وانسحاقًا وأن نأخذَ ما نُعطى ونحمدَ المعطي.

ضرورة التواضع

٣. والأمر كذلك في جميع الرؤى دون استثناء: لا نستطيع شيئًا، ولا حول ولا طَولَ لسعيِنا كي نرى أكثرَ أو أقلَّ ممّا نرى. ويريد الربّ أن نرى بوضوح أن الرؤيا ليست من صُنعنا بل هي عمله، عزّ وجلّ؛ فلا يُمكن أن يراودَنا أيُّ شعورٍ بالكبرياء، بل بالأحرى تجعلُنا نلوذُ بالتواضع والخوف حين نرى أنّ الربّ ينزع منّا القدرةَ على أن نرى ما نريد، وأنه قادرٌ كذلك على أن يحبِسَ عنّا هذه الأفضالَ والنعمةَ فنبقى محرومين من كل شيء. وهو يريدنا أن نسيرَ دائمًا في خوفٍ ما دُمنا نعيش في هذا المنفى.

أشكال الرؤى

٤. كان الربّ يتمثّل لي دائمًا تقريبًا قائمًا من الأموات، وكنتُ أراه كذلك

---

(١) لعلّها تقصد، على الأرجح، «الإندفاعات» التي ستتحدّث عنها في هذا الفصل، عدد ٨ – ١٤.

في القربانة ، إلّا إذا أراد تشجيعي أحيانًا حين تنتابني الضيقاتُ ، فكان يُريني جراحَه. ورأيتُه أحيانًا على الصليب ، وفي بستانِ الزيتون ؛ ونادرًا ما رأيتُه مكلَّلاً بالشوك ؛ ورأيته أحيانًا يحمِل صليبَه ، وفقًا لحاجاتي ، كما قلت ، أو لحاجاتِ آخرين ؛ إلّا أنه كان دائمًا بجسدِه الممجَّد.

تضاعف حبِّها بازدياد الرؤى والمضايقات

لقد احتملتُ إهاناتٍ ومشقَّاتٍ جمَّةً حين أعلنتُ هذه الأمور ، وعانيتُ مخاوفَ كثيرةً واضطهاداتٍ شديدةً. كان البعضُ يعتقدون عن يقينٍ أنَّ بي مسًّا من الشيطان فأرادوا التعزيمَ عليّ ؛ وما كنتُ لأبالي بالأمر ؛ غير أنّي كنت أتألّم حين أرى معرِّفيّ يخشونَ سماعَ إعترافي ، أو أعرفُ أن البعضَ يخاصمونهم. وفي كلّ حال ، ما أسفتُ قطّ على أنني حظيتُ بهذه الرؤى السماوية ؛ وما كنت لأستبدلَ واحدةً منها بخيراتِ الدنيا وملذّاتِها كلِّها. لقد اعتبرتُها دائمًا نعمةً من الربّ عظيمةً ، وحسِبتُها كنزًا ثمينًا ، وغالبًا ما أكّد لي الربُّ نفسَه ذلك. كنت أرى حبِّي له ينمو فيّ أيَّ نموّ. كنت أَقصُده فأشكو إليه كلَّ هذه المشقّات ، فأخرج من التأمل مملوءةً تعزيةً وقوًى جديدةً. أما هؤلاء[٢] فما كنتُ أجرؤ على معارضتِهم لاعتباري المعارضةَ أسوأً ، وقد يحسبونها خروجًا على التواضع. كنت أتداولُ الأمرَ ومعرِّفي ، فكان يؤاسيني كثيرًا حين يراني أعيَيتُ من التعب.

صراعها وطاعتها المعرّفين

٥. لمّا راحت الرؤى تتواتر ، فإن واحدًا[٣] منهم كان عونًا لي من قبل (كنت أعترف له أحيانًا حين يمنع المدبِّرَ عائقٌ ما) شرع يقول إن الأمرَ واضحٌ وإنه الشيطان. فأمروني ، ما دام ليس من وسيلةٍ للمقاومة ، بأن أرسمَ إشارةَ الصليبِ كلَّما حصلتْ لي

---

(٢) معرّفوها ومرشدوها الروحيون.

(٣) هو غونثالو دي أراندا.

رؤيا ، وأن أتعوّذ من الشيطان[٤] فيخزى ، إذ يجب أن أكونَ على يقينٍ من أنه الشيطان وأنه بهذه الطريقة لن يعود ، وأن لا أخاف لأن الله يحميني ويُبعده عنّي . لقد سبَّب لي هذا الموقفُ حزنًا كبيرًا . ما كنتُ أستطيع الاعتقادَ إلّا بأنّ ما أراه هو الله ، فكان ذلك رهيبًا . وما كنتُ أستطيع التمنّي ، كما قلت ، بأن تنقطعَ هذه الرؤى . ومع هذا فكنتُ أعمل كلَّ ما يأمرونني به . كنت أُكثِرُ توسُّلاتي الى الله كي يحولَ دون انخداعي . كنت أفعل ذلك دائمًا وبدموعٍ غزيرة ، وأستشفعُ القديسَين بطرس وبولس ، لأن الربّ أبلغني يومَ ظهر لي أوَّلَ مرّةٍ في عيدهما أنهما يَقيانني السقوطَ في الخِداع . فكنت أراهما بوضوحٍ الى يساري غالبًا ، ولو لم تكن الرؤيا خياليّة . لقد كان هذان القديسان المجيدان شفيعَيّ الكبيرين .

ثناء الربّ على طاعتها

٦. كان استعمالي التعويذةَ يؤلمني أشدَّ الألم حين تحصُل لي رؤيةُ الربّ . فحين كنت أراه حاضرًا ما كنت أستطيع الإعتقاد أنه الشيطان ولو قُطِّعْتُ إرْبًا . فكان هذا النوعُ من العقاب ثقيلاً عليّ ، وحتى لا أُكثِرَ من رسمِ إشارةِ الصليب كنت احمِل بيديّ صليبًا[٥] . أما رسمُ الصليب فكنت أفعله دائمًا ، وأما التعويذة فدون ذلك لأنها كانت تزعجني كثيرًا . كنتُ أتذكّر الإهاناتِ التي ألحقها به اليهودُ فأتوسَّلُ إليه أن يسامحني ، لأني إنما كنتُ أفعل ما أفعل طاعةً لمن يقوم مقامَه ، وأن لا يأخذني بذنْبٍ لأنني أطيعُ من أقامَهم خدّامًا في كنيسته . وكان يُجيبني أن لا أكترثَ للأمر ، وأنني حسنًا أفعل بالتزام الطاعة ، لكنه سيعمل على إيضاحِ الحقيقة . عندما حرَّموا عليّ التأمّل خلته غَضِبَ ، فطلبَ إليّ أن أقولَ لهم إنّ تصرّفهم صار استبدادًا . وأعطاني حُجَجًا لأَفهَمَ أنه ليس الشيطان ، سأعرُض بعضَها فيما بعد .

---

(٤) راجع سيرة ٢٥ ، ٢٢ ، حاشية . وما زالت الكرمليات في دير «مدينا دل كمپو» يحتفظن بتعويذة كانت القديسة ، بحسب التقليد لديهن ، تردّ بها الرؤى بناءً على أمر معرّفيها .

(٥) مجابهةُ الرؤيا بالتعويذة تدلّ على إحتقار ، ورسمُ اشارة الصليب موقفٌ دفاعي لطرد العدو . ومجابهتُه بالصليب تعزيمٌ لطرده .

صليب من الحجارة الثمينة

٧. كنتُ مرَّةً مُمسكةً بصليبِ مِسبحتي الورديَّة فأخذَه بيدِه، وعندما أعاده إليّ ظهر مصنوعًا من أربعةِ أحجارٍ كبيرةٍ أثمنَ من الماس بما لا يقاس إذ لا سبيلَ الى المقارنة تقريبًا بين ما يفوق الطبيعةَ وما نراه. فالماسُ يبدو مزيَّفًا وناقصًا إزاء الحجارةِ الثمينة التي تُرى هناك. كانت الجروحُ الخمسةُ مرسومةً بأجمل صورة. قال لي إنّي سأرى الصليبَ بهذا الشكل من الآن فصاعدًا؛ وهذا ما حصَل، فلم أَعُدْ أرى الخشبَ المصنوع منه، بل هذه الحجارةَ. إلّا أنّ أحدًا غيري ما كان يراها.

تكاثُر المنن باشتداد المقاومة

منذ أن فُرض عليّ إحتمالُ تلك المحن وأُمِرتُ بأن أُقاومَ، أخذتِ المنن تتكاثر عليّ دون حدود. عبثًا كنت أُحاول التسلّي، فما كنتُ أنقطعُ عن التأمل قط. كنت اخالني أتأمّل حتى في أثناء النوم. كان الحبّ يتعاظَمُ في نفسي، وتتكاثر دموعي وشكاويَّ الى الربّ، وتَضعُف طاقتي على الاحتمال، ومع ذلك لم يكن باستطاعتي، ولو أردتُ، ومهما حاولتُ، أن أنقطع عن التفكير فيه. غير أني كنت أطيعُ بقدْرِ طاقتي؛ لكني كنت أستطيع القليل أو لا شيء في هذا المجال، ولم يقطع الربُّ عنّي قطّ هذه الرؤى؛ وهو، وإن كان يطلب إليَّ أن أقوم بواجبِ الطاعة، كان، من جهةٍ أخرى، يطمئِنُني، ويُعلِّمني ما أردُّ به على معارِضيّ، وما زال يعلِّمني، ويمدُّني بحُججٍ عديدةٍ كانت تكفي لتسكينِ روعي.

إضطرام حبِّها لله

٨. بعد فترةٍ قصيرةٍ، بدأَ الربّ، عزّ وجلّ، يبيِّن لي بصورةٍ أوضحَ، كما كان قد وعدني، أنه هو من يظهر لي. ويروح ينمو فيّ حبٌّ عظيمٌ لله دون أن أدري من يبثّه في نفسي؛ فقد كان يفوقُ ما في الطبيعة كثيرًا وما كنت، أنا، أعمل على إضرامه. كنتُ أراني أموتُ شوقًا لرؤية الله ولا أعرف أين عليّ البحثُ عن هذه الحياة إن لم يكن بالموت. كانت تنتابُني إندفاعاتٌ من هذا الحبِّ لا أدري معها ما سيحلّ

بي ، ولو أنها لم تكن شديدةً كتلك التي تحدَّثت عنها ولا عنيفةً عُنفَها. لا شيءَ يُرضيني ؛ لا أعيشُ حياتي بل إخال نفسي تُنتزَع منّي حقًّا. يا لَبَراعتك السامية ربّي ! ما ألطفَ الأسلوبَ الذي كنتَ تعاملُ به أمتك البائسة ! كنت تَحتجب عنّي وتضمّني بحبِّك في موتٍ لذيذٍ حتى إن النفسَ لا ترضى بالتحرُّرمنه.

نصائح لاحتواء إندفاعات الحب

٩. إن من لم يعانِ هذه الاندفاعاتِ العنيفةَ يستحيلُ عليه أن يفهمَها ، فهي ليست انفعالاتٍ داخليةً ولا عباداتٍ عاطفيّةً تجتاح النفسَ غالبًا فكأنها تخنُق الروحَ ولا يمكن ضبطُها. فهذه أدنى شكلٍ من أشكال التأمّل ، ويقتضي اجتنابُ هذه الاندفاعات بأن نسعى الى احتوائها بلطفٍ في داخلِنا وتهدئة النفس. مثل ذلك مثلُ أطفالٍ يَشهقون حتى كأنهم يختنقون ، فما أن يُعطوا جرعةَ ماء حتى تزولَ الغصّة. كذلك هنا ؛ على العقل أن يكونَ حازمًا ، ويأخذَ بالزِمام لئلاَّ يكون مساعدًا للطبع في ميله ؛ وليجعل في اعتباره الخوفَ من أن لا يكون كلُّ هذا كاملاً ، وأن قد يكون فيه قسطٌ كبيرٌ من الميل الحسّي ، وليُسكِتْ هذا الطفلَ بملاطفةٍ ودودٍ تحثّه على أن يحبَّ بلطفٍ لا جامحًا ، كما يقال. لتستجمعِ النفسُ هذا الحبَّ في داخلِها ولا تجعلّنه قِدْرًا تغلي وتفور لأنه قد بولِغَ في إيقادِ الحطب فتندفِقُ كلُّها ؛ بل فلتتلطَّف ما كان علّةَ هذه النار ، ولتحاولْ إطفاءَ الشُعلة بدموعٍ رقيقةٍ لا بدموعٍ مضنيةٍ كما هي الدموعُ الناشئةُ عن هذه المشاعر والتي تُحدِثُ أذًى كبيرًا. لقد سكبتُ أحيانًا دموعًا كهذه في البدء ، فكانتْ تُصدِّع رأسي ، وتُتعب روحي حتى لا أقوى في الغد ، ولا في الأيام اللاحقة ، على أن أعودَ الى التأمّل. فمن الواجب اعتمادُ قَدْرٍ كبيرٍ من الفطنة في البدءِ ليجريَ كلُّ شيءٍ مجرًى لطيفًا ، ويتعوَّدَ الروحُ أن يعمَلَ في الباطن ؛ أما الظواهرُ الخارجية فيجب السعيُ سعيًا حثيثًا لاجتنابِها.

كأنه سهمٌ جارح

١٠. أما الإندفاعات الأخرى فمختلفةٌ تمامًا. فلسنا نحن من نُلقي بالوَقود ، بل

ما إن تُشعَلُ النار حتى نُزجَّ فيها لنحترق. لا تسعى النفسُ لأن يؤلمَها الجُرحُ الناتج عن غياب الربّ بل يُغْرَزُ في أعماقِها وفي القلبِ معًا سهمٌ فلا تدري ما بها ولا ما تريد. إنها تدرك جيّدًا أنها تحبّ الله وكأنّ السهم مُسِحَ بالعُشب[٦] لِتَكْرَهَ نفسَها حبًّا بهذا الربّ، وتكونَ مستعدَّةً لبذلِ حياتِها عن رضىً من أجله. إننا لعاجزون عن تقديرِ أو وصفِ الطريقةِ التي يَجرح بها اللهُ النفسَ، والألمِ الفظيعِ الذي يأخذُ بها فلا تعودُ تدري من أمرِها شيئًا؛ إلّا أنه ألمٌ لذيذٌ حتى لا نجدَ في الحياة مُتعةً توفِّرُ سرورًا يفوق ذاك السرور. إن النفس لتتمنّى دائمًا، كما قلت، أن تعانيَ الموتَ من جرّاء هذا الألم.

١١. إن هذين الألمَ والمجدَ مجتمعَين كانا يستلبان عقلي فلا أقوى على أن أفهم كيف يمكِنُ أن يَحْدُثَ ذلك. آه، ما أروعَ أن ترى نفسًا جريحًا! أجل، إنها تعي ذاتها حتى يُمكنَها القولُ إن جرحَها ناجمٌ عن علّةٍ فائقةٍ، وترى بوضوحٍ أنها لم تفعلْ شيئًا لتجلبَ هذا الحبّ، بل كأنَّ تلك الشرارةَ من حبٍّ الله العظيم لها نَفذَتْ إليها فجأةً فألهبتْها كُلَّها. آه! لكم تذكَّرتُ، وأنا في هذه الحال، كلامَ داود: «**كما يَشتاقُ الأَيِّلُ الى مجاري المياه**»[٧]، فإخاله محقَّقًا فيّ حرفيًّا!

وصف آلام النفس

١٢. عندما لا تكون هذه الحال شديدةً، يبدو كأنّ الألمَ تخفُّ وطأتُه، وتبحثُ النفسُ، على الأقلّ، عن علاجٍ له بواسطة بعض أعمال التوبة، لأنها لا تدري ما عليها أن تفعل؛ لكنَّها لا تشعرُ بها كما أنها لا تشتكي ألمًا من إهراق دمِها فكأن الجسدَ ميتٌ. تحاول بألفِ وسيلةٍ وطريقةٍ أن تعملَ شيئًا يكلِّفها عناءً حبًّا بالله، إلّا أن الألم الأول[٨] من الشدة بحيث لا أدري أيَّ تباريحَ جسديَّةٍ تقدر أن تُزيلَه. ولأن العلاجَ ليس هناك، فهذه الأدويةُ وضيعةٌ جدًّا لمرضٍ كهذا رفيع؛ يخفُّ ثقلُه نوعًا

(٦) كان السهم يُدهن بعصيرِ عشبٍ سامّ ليَقتلَ حين يَجرح.
(٧) مزمور ٤٢، ١.
(٨) الألم الذي أحدثه العناءُ الصوفي وليس الناجمُ عن الاماتات.

ما ، وتحتمل النفسُ بعضَ الاحتمال وهي تسأل الله علاجًا لسُقمِها ولا ترى علاجًا إلّا الموتَ لأنها به، في اعتقادها، تَنعم كليًّا بخيرِها الأسمى. ويكون الألمُ من الشدَّة أحيانًا بحيث لا تستطيعُ النفسُ أن تعملَ لا هذا ولا شيئًا آخر لأنه يقطِّع الجسدَ تقطيعًا ، فلا تستطيع أن تُحرِّكَ رجلَيها ولا ذراعيها ؛ بل إذا كانت واقفةً جَلَست كأنها كتلةٌ محمولةٌ لا تستطيع حتى أن تتنفّس ، بل تُطلق أنَّاتٍ خافتةً لأنها لا تقوى على أكثر من ذلك ؛ لكنّها أنّاتٌ قويةٌ في شعورِها .

طعنة الكاروبيم

١٣. لقد أرادَ الربّ ، وأنا على هذه الحال ، أن أشاهدَ هذه الرؤيا : رأيتُ بقربي ، الى الجانب الأيسر ، ملاكًا بصورةٍ جسمانيَّةٍ[٩] ، وهو ما لا أراه إلّا نادرًا. فلئِن ظهرَ لي ملائكةٌ أحيانًا كثيرةً ، إلّا أنّي لا أراهم إلّا كما في الرؤيا السابقة التي تحدّثتُ عنها أولاً[١٠] . لقد أرادَ الربّ أن أُشاهِدَ الملاكَ في هذه الرؤيا على هذا الشكل : لم يكن طويلَ القامة بل يميلُ الى القِصَر ، وكان ذا جمالٍ رائعٍ ، متَّقِدَ الوجهِ فكأنه من الملائكة العَليّين الذين يُخالون كتلةً من لهيب. لعلّه واحدٌ من الكاروبيم ، فهم لا يُفصِحون لي عن أسمائهم ، لكنّي أرى جيِّدًا أنّ في السماء فرقًا شاسعًا بين ملائكةٍ وملائكة ، وبين هؤلاء وآخرين ، فأراني عاجزةً عن التعبير عن ذلك. رأيتُ في يديه سهمًا طويلاً من ذهبٍ خُيِّل إليّ أن في رأسه شعلةَ نارٍ ، وكنتُ أتصوّر أنه يغرز السهمَ في قلبي مرارًا ويصل أحيانًا الى أحشائي ؛ فكنت أحسَب ، عندما ينزِعه ، أنه يستلُّها معه فيتركني مضطربةً بكلِّيّتي بحبٍّ لله عظيم. كنت أُطلِقُ ، من جرّاءِ الألم ، تلك الأنّاتِ ، وكانت عذوبةُ هذا الألم متناهيةً حتى تنتفيَ كلُّ رغبةٍ بزواله ولا ترضى النفسُ بما دون الله. ليس ذلك الألمُ جسديًّا بل إنه روحيٌّ ، ولو أن

---

(٩) لا يعني هذا أنها كانت رؤيا حسِّيّة ، والقديسة تؤكّد أنها لم تنعم بها (سيرة ٢٨ ، ٤) بل هي خياليّة ، أي رؤية شيء بصورة جسمية.

(١٠) إشارة الى الرؤيا العقلية ، سيرة ٢٧ ، ٢.

الجسد يستشعره بعضَ الشيء، بل بالأحرى كثيرًا. إنه مناجاةٌ بالغةُ العذوبة تتبادلها النفسُ والله؛ وإني أسأل جودَه تعالى أن يذيقَها من يظنُّني أكذبُ في ما أقول[11]

الخطافات لا تُقاوَم

١٤. أيامَ كانت تطول هذه الحالُ كنت كأني خُولِطتُ في عقلي. ما كنت أريد أن أرى شيئًا ولا أنطقَ بكلمةٍ بل أن أظلَّ معانقةً ألمي، فقد كان أكبرَ سعادةٍ من سعاداتِ الخليقة كلها.

كان هذا يحصُل لي أحيانًا حين أراد الربّ فأنعمَ عليّ بانخطافاتٍ باهرةٍ ما كنت أستطيع مقاومتَها حتى في حضور أُناسٍ آخرين، بل إنّ خبرَها، رُغم حزني الكبير لذلك، راح ينتشر. وحين يَلُفُّني الانخطاف، لا أَعودُ أُحِسُّ هذا الحزنَ بمقدار ما أَشعرُ بذاك الذي تحدَّثتُ عنه سابقًا، لا أَذكر في أيِّ فصل[12]، وهو مختلفٌ عن هذا بأمورٍ عديدةٍ وأرفعُ قدْرًا. على أنه حينَ يروح هذا الحزنُ الذي أتحدّث عنه الآن يستولي على النفس، يُخيَّل أن الله يضعُها في حالةِ الانخطاف فلا يبقى مكانٌ لحزنٍ أو عذابٍ، بل تأتي المتعةُ في الحال.

تبارَكَ الى الأبد، لأنه، تعالى، يغمرُ بمننٍ وافرةٍ من يسيءُ التجاوبَ مع صنائِعه العظيمة.

---

(١١) نالت القديسة النعمةَ التي ترويها (غَرْزُ ملاكٍ قلبَها بسهمٍ من نار) سنة ١٥٦٢. وفي شهادات معاصرين لها أن ذلك تكرّر مرّات.

(١٢) سيرة ٢٠. ٩ وما يليه.

الفصل الثلاثون

تعود إلى سرد سيرتِها وكيف أنّ الربَّ خفَّف الكثيرَ من همومِها حين أوفد إلى المدينة التي تسكنها الراهبَ القديسَ بدرو دي ألقنطره، من رهبانية مار فرنسيس المجيد. تتكلّم على تجاربَ كبيرةٍ وهمومٍ داخليةٍ كانت تقاسيها أحيانًا

مقاومة مستمرّة

١. حين رأيتُ أنني لا أستطيع إلّا القليل، بل لا أستطيعُ شيئًا لاجتناب هذه الاندفاعات العنيفة، أَصبحتُ أخشى مُعاودتَها؛ فما كنت لأفهمَ كيف يمكن أن نشعرَ بالألم والسرور مجتمعَين. أما الألم الجسدي والسرور الروحي فكنت أعرف أنهما قد يجتمعان؛ وأمَّا ألمٌ روحيٌّ بالغٌ كذاك الألم مقرونًا بلذَّةٍ مُفرِطة، فهذا ما كان يستلب عقلي.

ما كنت أنفكُّ عن أن أحاولَ المقاومة، إلّا أنني كنت أستطيعُ القليلَ القليل، حتى يأخذَني التعبُ أحيانًا. كنت ألوذ بالصليب لأحفظَ نفسي ممّن خلَّصَنا جميعًا بالصليب. كنت أرى أن لا أحد يتفهَّمُني فيمَا كنت أفهمُ الأمرَ بوضوح؛ لكن ما كنت لأجرؤ على البوح به إلّا لمعرّفي، ولو فعلتُ لأقرّيت حقًّا بخروجي على التواضع.

پدرو دي ألقنطره وتقشُّفه

٢. تعطَّف الربّ فخفّف الكثيرَ من همّي ، بل أزاله آنذاك ، بأن أوفد الى هذه المدينة الراهبَ المفضال پدرو دي ألقنطره الذي أشرتُ اليه سابقًا وذكرتُ شيئًا من تقشّفه ؛ وقد أُفِدْتُ أنه لبسَ ، طوالَ عشرين عامًا ، دون انقطاع ، مِسحًا من التنك . وقد ألّف عدَّة كُتَيِّباتٍ في التأمل ، باللغة الاسبانية ، كثيرةِ الرواج في أيامنا ؛ وبما أنه مارس التأمُّل طويلاً ، فقد جاءت كتاباتُه جزيلةَ الفائدة لمَن يتعاطونه . لقد حافظ بكل دِقةٍ على القانون الأساسي للقديس فرنسيس ومارس ما ذكرتُ شيئًا منه سابقًا .

لقاؤها پدرو دي ألقنطره

٣. علمت الأرملةُ ، خادمةُ الله ، صديقتي التي تحدَّثتُ عنها[1] ، بوجود هذا الرجل العظيم في المدينة . كانت شاهدةً على مِحَني ، عارفةً حاجاتي ، وتشجِّعني كثيرًا لأن إيمانَها كان راسخًا فلا تستطيع أن تعتقدَ إلّا أن يكونَ روحَ الله ما كان الآخرون جميعًا يقولون إنه الشيطان؛ ولأنها متوقِّدةُ الذهن. بالغةُ الفطنة، وحباها الله أنعامًا كثيرةً في التأمل ، فقد أراد ، عزّ وجلّ ، أن ينيرها في ما كان ذوو العلم يجهلون. كان معرّفيّ يُجيزون لي أن أفضيَ إليها ببعض الأمور لأنها فَطِنَةٌ وموضعُ ثقة ، فكنت أُطلِعُها أحيانًا على المنن التي ينفحني الربّ بها مرفِقةً ذلك بنصائحَ جزيلةِ الفائدة لنفسها .

ما إن علمتْ بوجود الأب ألقنطره في المدينة ، ولكي أتمكَّنَ من التداول وإيّاه بارتياح ، حتى حصلتْ لي ، دون أن تُعلِمَني بالأمر ، على إذنٍ من رئيسي الإقليمي لأقضيَ ثمانيةَ أيامٍ في منزلها. فهناك، وفي بعض الكنائس ، حادثْتُه مِرارًا أثناءَ إقامته الأولى هنا لأنني ، بعد ذلك ، أَطلعْتُه على أمورٍ كثيرةٍ في فتراتٍ عِدّة. قصصتُ عليه

(١) دونيا غيومار دي أوليبوا ، وقد أشادت بها القديسة ، (سيرة ٢٤ ، ٤) وكانت تلميذةً روحيةً للقديس پدرو دي ألقنطره.

باختصار، سيرتي ونهجي في التأمّل، بما أَمكنني من وضوح، وقد طالما توخّيتُ دائمًا واعتمدتُ الصراحةَ والحقيقةَ مع الذين أكشفُ لهم حالَ نفسي، حتى كنت أريد أن أُعلنَ لهم ردودَ فعلي الأولى. بل كنت أحتجُّ على نفسي بأمورٍ مشكوكٍ فيها ومشبوهةٍ. فكشفتُ له، إذًا، نفسي دون تسترٍ أو مواربة.

تفاهم تام

٤. أدركتُ منذ البدء تقريبًا أنه يَفهمني بفضلِ اختباره، وهذا كل ما كنت أحتاجه. فما كنت حينئذٍ أفهمُني مثلي اليوم لأُحسنَ شرحَ الأمر، بل إن الله جعلني، فيما بعد، أفهمُ المنن التي يمنحني، عزّ وجلّ، وأشرحها؛ فكان من اللازم شخصٌ خَبِرَ هذه الأمور بنفسه ليَفهمني فهمًا تامًّا ويوضحَ ماهيّة الأمر. لقد أنارني أيّما إنارة، لأنني ما كنتُ أستطيعُ أن أفهمَ، على الأقل، ما هو أمرُ الرؤى غيرِ الخياليّة، وما كنت أراني أفهمُ ماهيَّة تلك الرؤى التي أراها بعيني النفس، بل كنت أحسَب، كما قلت، أنّ عليّ أن أُعلّق أهميّةً على تلك التي تُرى بعَينَي الجسد دون غيرها.

مصارحة وارتياح

٥. لقد أنارني هذا الرجلُ القديس في كلِّ أمرٍ، وأَوضحَه لي، وأوصاني بألّا أَحزنَ بل أن أُمجِّدَ الله، وأن أتيقّن من أنَّ روحَه هو العاملُ فيّ يقينًا؛ ولولا حقائق الإيمان لما وُجِدَتْ حقائقُ أصحُّ منها ولا أَجدرُ بالتصديق. وكان، هو، يرتاح إليّ كثيرًا ويُوليني كلَّ عنايةٍ واهتمام؛ وقد حفظ لي دائمًا، فيما بعد، إعتبارًا كبيرًا، فكان يُطلعني على أحوالِه وشؤونه. وإذ كان يرى لديّ رغباتٍ في ما كان يمارسه في الواقع – وكان الربّ يلقي إليّ بهذه الرغبات واضحةً – ويرى حماستي الشديدةَ، كان يرتاح الى التباحث معي؛ فمن بلغَ به الربُّ الى هذه الحال لا يجد لذّةً أو عزاءً يساوي لقاء شخصٍ يُخيّل إليه أن الربّ بدأ يقوده في هذا الطريق، وما كنت أراني قد تجاوزت آنذاك مطلعَ الطريقِ بكثير؛ أَلا رَضِيَ الله أن أكونَ قد تقدّمتُ أكثر.

إسهام پدرو بطَمأْنة المعرّفين

٦. لقد أشفق عليّ أيَّمَا إشفاق. قال لي إن إحدى أشدّ المِحن في هذه الدنيا هو ما تَحمَّلْته، أي مناهضةُ ذوي الصلاح لي، وما زالت هناك محنٌ كثيرةٌ أُجابِهُها، فأنا بحاجة الى مساعدةٍ مستمرَّة، ولم يكن في هذه المدينة من يفهمني؛ إلّا أنه سيُحدِّثُ في أمري مُعرِّفي وواحدًا ممن كانوا يسبِّبون لي أكبرَ غمّ، هو ذلك النبيل المتزوِّج الذي أشرتُ إليه سابقًا[٢]. فهذا، بدافع غيرتِه الشديدة على صلاح أمري، كان يناصبُني الحربَ؛ إنه ذو نفسٍ وَجِلَةٍ، بارّةٍ؛ وكان قد عرفني منذ عهدٍ قريبٍ في بؤسٍ كبير، فما كان يَطْمَئِنُّ الى حالي. وأنجزَ الرجلُ القديس وعدَه، فخاطب كِلَيْهما وساقَ الدواعيَ والأدلَّة ليَطمئنَّا ولا يَقلقا من بعد. أما المعرِّف[٣] فما كان بحاجةٍ الى كل ذلك؛ وأما النبيل فلم يقتنع كلَّ الاقتناع، لكنّ تلك الحجج أسهمت جزئيًّا في أن يقلِّلَ من تخويفي.

لم تتحرّر من كل خوف

٧. واتفقنا على أن أكتبَ له في كل ما قد يحدُث لي منذئذٍ وصاعدًا، وعلى أن يتوسَّل كلٌّ منّا كثيرًا الى الله من أجل الآخر. لقد بلغ به تواضُعُه أن يقدِّر صلواتِ هذه البائسة، فزادَ في ارتباكي. وتركَني مُفعمةً عزاءً وسرورًا، وحثّني على التأمل بثقة، وأن لا أشكّ في أنَّ الأمرَ من الله؛ وأيُّ أمرٍ يُثير شكِّي، فَلْأُطْلِعْ عليه معرِّفي إمعانًا في طلب الطمأنينة، فأعيشَ في سلام.

إلّا أنّي ما كنت لأستطيعَ الإطمئنان تمامًا لأنَّ الربّ كان يقودني في طريق المخافة، كمثلِ اعتقادي أنه الشيطان حين يُقال لي إنه الشيطان. فما كان أحدٌ يستطيع، إذًا، أن يثيرَ فيّ الخوف أو يبعثَ فيّ الطمأنينة بحيث أصدِّق قولَه أكثرَ من تصديقي ما يُلقي الربّ في نفسي. وعليه، فمع أنه خفَّف همِّي، وسكّن روعي، ما

(٢) فرنثيسكو دي سالثيدو.
(٣) الأب بالطاسار ألڤاريث.

استيقنتُ تمامَ اليقين فأتحرَّرَ من أيّ خوفٍ ، خصوصًا حين كان الربّ يَدَعُني في محنِ النفس التي سأتحدّث عنها. ورغم كلّ شيء ، فقد امتلأتُ ، كما قلتُ ، عزاءً. فما كنت أنفكُّ عن شكرِ الله وأبي المجيد القديس يوسف الذي استقدمَ الأبَ ألقنطره فيما أظنّ ، لأنه كان المفوَّض العام لـ « حِراسة[٤] القديس يوسف » الذي كنت أستشفعه ، كما أستشفِع سيدتَنا العذراء ، كثيرًا.

محن نفسيّة وآلام جسديّة

٨. كان يَحدث لي أحيانًا ، بل ويَحدث لي الآن ولو دون ذلك تواترًا ، أن أعانيَ من مِحَنٍ نفسيَّةٍ ثقيلةٍ الى جانب إضطراباتٍ وآلامٍ جسديَّة تشتدّ عليّ حتى لَتخونني قواي.

وكنت أُعاني ، أحيانًا أخرى ، أوصابًا جسديّةً أشدَّ خطورةً من تلك ، وأكونُ خَلِيَّةً من مِحن النفس ، فأحتملُها بفرحٍ كبير. أمّا حين تجتمع هذه وتلك فكانت الشِدَّةُ بالغةً حتى لَتُرهقني أيَّ إرهاق. كنت أنسى جميعَ المنن التي كان الربّ قد منحني إيّاها ولا يبقى لي إلّا تذكارُ حلمٍ حَلِمتُه ليزيدَ من عنائي. فالعقل يَخمُد ويَجعلني أخبِط في ألف شكٍّ وشُبهةٍ ، فإخالُني لم أُحسِن فهمَ الأمر ، وأنني أنساقُ وراءَ الوهم ؛ فيَكفي أن أكونَ وحدي في ضلالٍ ولا أُضِلَّ الصالحين. كنت أحسُبُني مُجمَّع السوء فلا أرى إلّا خطاياي سببًا لما انتشر من هرطقاتٍ وشرور.

تأثير عمل الشيطان

٩. إنَّ هذا لَتواضعٌ زائفٌ كان الشيطان يختلِقه ليُقلقَني ويَزجَّ بنفسي في اليأس لو يستطيع. لقد ثبتَ لي بالاختبار أنه من عمل الشيطان ؛ فإنه ، مذْ رآني إكتشفتُ أمرَه ، ما عاد يعذّبني في هذا المجال كعادتِه سابقًا. أمّا كونُه عمِلَه فيَبان في القَلقِ والإضطراب اللذَين يُثيرهما في البدءِ ، وفي الضوضاء التي يحرّكها في النفس

---

(٤) ناحية من إقليم في رهبانية القديس فرنسيس على اسم القديس يوسف.

وتدومُ بدوامِ عمله ، وفي الظلامِ والحزنِ اللذَين يَغشَيانها ، وفي اليبوسةِ وثِقَلِ هِمَّتها لمباشرة التأمّل أو أيِّ عملٍ صالح . كأني به يَخنُق النفسَ ، ويكبِّل الجسدَ حتى لا تحقِّقَ النفسُ أيَّ تقدّم. أما التواضع الحقّ ، (على إقرار النفس ببؤسِها ، وحزنِنا لمعرفتنا ما نحن ، ومبالغتِنا في تعظيمِ سوءِ صنائعنا وتضخيمِها كالتي ذكرت ، ولو تأسَّفْنا عليها حقًّا) فلا يرافقُه صخبٌ ، ولا يقلقُ النفسَ ، ولا يغشِّيها بالظلام أو يصيبها بالجفاف ؛ بل بالأَحرى يُبهجها ، وكلُّ شيءٍ يَجري على عكس ذلك : في سكينةٍ ، ورِقَّةٍ ، وضياءِ. إنه ، من ناحيةٍ أخرى ، عناءٌ يقوّي النفسَ حين تَرى أنّ الله يمُنُّ عليها بنعمةٍ كبيرة بإرسالِه إيّاه لها ، وأنه كان لخيرها . تتألّم لأنها أغاظت الله ؛ ورحمتُه ، من جهةٍ أخرى تَشْرَح صدرَها . أوتيتْ نورًا لِتُكثِرَ اعتذارَها وتمجِّدَه ، عزّ وجلّ ، لأنه احتملها طويلاً . أما في التواضع الذي يبثّه الشيطان ، فلا نورَ لأيٍّ خير ، وكأن الله يُعمِلُ في كل شيءٍ الحديدَ والنار . يُمثِّل لها عدلَه ؛ وهي ، على إيمانها برحمته – لأن الشيطان لا يقدر أن ينتزِعه منها – لا تجدُ في هذا الإيمان عزاءً ، بل إنّ رؤيتَها فيضَ الرحمة تزيدُ من عذابِها لأنها تعتبرُ ذاتَها مَدينةً له بأكثر من ذلك .

التواضع الزائف

١٠. إن التواضعَ الزائف هو ، بين اختراعاتِ الشيطان التي عرفتُها ، أشدُّها إيلامًا ، وأوفرُها براعةً ، وأكثرُها رياءً. لذا أودُّ أن أُشْعِرَ حضرتَك بالأمر حتى إذا بادرك بالتجربة من هذه الناحية تبيّنتَ الأمرَ واكتشفتَه ؛ هذا إذا تركَ عقلَك للتعرّف إليه . ولا تعتقد أنّ ذلك مرتبطٌ بالعلم والمعرفة ، فأنا ، على افتقاري الى كِلَيْهِما ، أعرف ، بعد تحرُّري منه ، أنه غباء . ما فهمتُه هو أنّ الربَّ يريد ويسمح للشيطان ويجيزُ له أن يجرِّبنا كما سمحَ له أن يجرِّبَ أيوب[٥] ، ولو أنّ تجربتَه لي ، على حقارتي ، كانت دون تلك شدَّةً .

---

(٥) ايوب ٢ ، ٦.

تجارب الشيطان

١١. حدث أن جُرِّبْتُ، وأذكرُ أنّ ذلك حصل عشيَّةَ عيد القربان المقدّس الذي أتعبَّد له ولو لم يكن كما يجب. دامتِ التجربةُ هذه المرّة الى يوم العيد فقط، بينما تستمرُّ أحيانًا أخرى ثمانيةَ أيام أو خمسة عشر يومًا، بل وأسابيع ثلاثة، بل ربما أكثر. واعتاد الشيطان أن يجرِّبني خصوصًا في أسبوع الآلام حيث اعتدتُ أن أجدَ بهجةً في التأمل. يحدُث أن يُفاجِئَ عقلي أحيانًا بأمورٍ باطلةٍ ما كنت إلّا لأسخرَ منها في ظروفٍ أخرى، ويُربِكُه كما يحلو له؛ وإذا النفسُ مكبَّلةٌ، وليست سيِّدةَ ذاتها، ولا تستطيع التفكيرَ بما عدا السخافاتِ التي يُمثِّلها لها وهي أشياءُ تافهةٌ، لا تحلُّ ولا تربط، بل تربِط فقط لتَخنُقَ النفسَ بحيث لا تَعي، بَعدَها، ذاتَها. وهكذا حدث أن تصوَّرتُ الشياطين يلعبون بالنفس لَعِبَهم بالكرة، ولا حولَ للنفس للتحرُّر من سلطانهم. أما ما نعانيه في هذه الحال فيستحيلُ وصفه. تجدُّ النفسُ طالبةً نجدةً فيسمح الله بألّا تجدَها، ويبقى لها دائمًا دافعُ حريّة الاختبار فقط ولو مُبهمًا [٦]، أعني كأن عَيْنَيْها معصوبتان، مثلَ إنسانٍ جاز مرارًا في مكانٍ ما، فلو مرّ به، ليلاً في الظلام، عرف، بحكم العادة، أين يُمكنُ أن يتعثَّرَ، لأنه رآه في النهار فيتجنب ذلك الخطرَ. وهذا حالُ النفس، فكأنَها، بحكمِ العادة، تتحاشى إهانة الله. ولنترك جانبًا مساعدةَ الله لها وهي وحدَها فعّالةٌ.

حذرٌ واضطراب

١٢. في هذه الحال، يكونُ الايمانُ، مثله مثل سائر الفضائل، غافيًا، ولو لم يُفقَد؛ فنحن نؤمن ايمانًا قويًّا بما تُعلِّمه الكنيسة، لكنَّا نُعلنه بفمِنا، وكأن النفسَ، من ناحيةٍ أخرى، يُضغَطُ عليها وتُخَدَّرُ فتبدو أنها تعرفُ الله كشيءٍ بلغ سمعَها من بعيد. أما حبُّها ففاترٌ حتى إذا سمعتْ حديثًا عن الله تُصغي إصغاءَها لأمرٍ تعتقده صحيحًا لأن الكنيسة تعلِّمه، لكنها لا تذكرُ شيئًا ممّا خَبِرَته بنفسها. وأما ذهابُها الى

---

(٦) «دافع حريّة الاختيار»، تعبيرٌ يثيرُ الدَهشة ويشيرُ، على الأرجح، الى نورِ العقل الذي يوجِّه إستعمالَ الإرادة بحريّة.

الصلاة أو إخلادُها الى الوحدة فيزيد في ضيقِها ، لأن العذابَ الذي تعاني منه داخليًا ، دون أن تدريَ له سببًا ، لا يُطاق. إنه ، في رأيي ، نَقلُ شيءٍ من الجحيمِ إليها. هذه هي الحقيقة كما أفهَمنيها الربّ في رؤيا ؛ فالنفس تذوب في ذاتها ولا تدري مَن يُوقد فيها النارَ ، ولا أينَ توقَد ، أو كيف الهربُ منها أو بما يمكن إطفاؤها. وإذا حاولتْ عِلاجًا بالمطالعة ، فكأنها تجهل القراءة. حدث لي مرَّةً أن شرعتُ في مطالعة سيرةِ أحد القدّيسين لَعلّي أغوصُ فيها وأتعزّى بما كان يعانيه ؛ فقرأتُ أربعةَ أسطرٍ أو خمسةَ أربعَ مرّاتٍ أو خمسًا ؛ وعلى كون السيرة بالاسبانية ، فكنت أَفهم في نهاية الأسطر أقلَّ مما فهمتُ في أوّلها ؛ ولذلك أقلعتُ عن المطالعة. لقد حصلتْ لي هذه الظاهرةُ مرّاتٍ عديدةً ، إلّا أنّي أذكر هذه الحادثةَ ذِكرًا خاصًا.

توبيخ المعرّفين وقساوتهم

١٣. أمّا أن أُطارحَ الحديثَ أحدًا فشرٌّ من ذاك ، لأن الشيطان ينفث فيّ روحًا من النفور والغضب حتى أراني أَودُّ أن أفترسَ الجميعَ دون أن أستطيع عملاً ، ويبدو أنّي أعملُ شيئًا ما بكبحي جماحي ، أو أنَّ الربّ يضبِط بيده من كان في مثل هذه الحال كي لا يقولَ أو يفعلَ ما يؤذي القريب أو يغيظُ الله.

وأمّا أن أذهب الى المعرِّف ، فإليك ما حدث لي بالتأكيد مرارًا. إن المعرّفين الذين تعاطيت وإيّاهم أمرَ نفسي وما زلتُ ، كانوا ، مع سموِّ تقواهم ، يوجِّهون إليَّ كلامًا قاسيًا ، ويوبّخونني توبيخًا شديدًا حتى إنهم ، حين كنت أُذكِّرهم به فيما بعد ، كانوا يُذهَلون ويقولون إن الأمرَ لم يكن بيدِهم. فمع أنّهم كانوا يَقطعون العزمَ على ألّا يعاوِدوا الكرّة – لأنهم كانوا يشعرون بالأسى وتوبيخِ الضمير ، وكانوا يقصدون مؤاساتي برفقٍ حينَ يَرونني أُعاني من محنِ الجسد والنفس – كانوا يَعجزون. ما كانت كلماتُهم مستنكَرةً ، أي ما كانت لتغيظ الله ، إلّا أنها من أشدِّ ما يُستهجن على لسان معرِّف. كانوا يقصدون ، ولا شكّ ، إماتتي ؛ ومع أني كنت في ظروفٍ أخرى مستعدّةً ، بل سعيدةً في احتمال الإماتة ، إلّا أنّها كانت لي حينذاك عذابًا.

وكان يُصوَّر لي أني أُخادِعهم ، فكنتُ أمضي إليهم وأُشعِرهم مخلصةً أن

يحذروني فلعلّي أُضلِّلهم. كنت أُدرك أنني لا أستطيع أن أفعل ذلك عمدًا أو أَكذِبَهم القول لكنَّ كلَّ شيءٍ كان يثيرُ فيَّ الخوف. نصَحني أحدهم مرَّةً، وقد فهمَ تجربتي، أن لا أَتألّم لذلك، لأني ولو قصدتُ خِداعَه فإن له من العقل ما يحولُ دون انخداعه. وقد أتاني كلامُه بعزاءٍ كبير.

التناول يُبدِّد ضيقَها

١٤. أحيانًا، وعادةً، بل غالبًا، كنتُ، بعد التناول، أستعيدُ هدوئي. بل كنت أحيانًا، حين أتقدَّم الى التناول أشعر في الحال بالراحة، نفسًا وجسدًا، فيأخذُني الذهول. كأنَّ ظلماتِ النفس كلَّها تتبدَّد حالاً، وتُشرق الشمس، فأرى الحماقاتِ التي تمرَّغتُ فيها. وأحيانًا أخرى، ما إن يقول لي الربّ كلمةً واحدةً، ما إن يقول: «**لا تحزَني، لا تخافي**»، كما ذكرتُ سابقًا[7]، حتى أُشفى تمامًا؛ أو ما إن أرى رؤيا حتى إخالني ما أُصِبتُ بشيءٍ قبلاً. كنت أغتبطُ في صحبة الله، وأتشكَّى اليه كيف يرضى بأن أُقاسيَ ما أقاسي من عذاب، فكنتُ ألقى جزيلَ المكافأة، فإنّ أنعامًا وفيرةً كانت تلي ذلك دائمًا تقريبًا. كأنما النفس، يُخيَّل لي، تخرجُ من البوتقة كالذهب، بل أَشدَّ صفاءً وأنقى لترى الربَّ في ذاتِها. لذا فهي تَعتَبِر خفيفةً، من بعدُ، هذه المحنَ التي تبدو لا تطاق، بل تتمنّى معاناتَها من جديد إذا كان في ذلك خدمةً كبرى للربّ. حتى ولو ازدادت البلايا والإضطهادات، فإذا احتملناها دون أن نُهينَ الله بل سُرِرنا لمقاساتِها من أجله، آلَ ذلك كلُّه الى فائدةٍ جُلّى. أمّا أنا، فلا أحتملُها كما يجب أن تُحتَمل بل بصورةٍ ناقصةٍ جدًّا.

محنٌ نفسية مختلفة

وكانت المحن أحيانًا أخرى تنتابُني، وتنتابُني الآن، بشكلٍ آخر فأتصوَّر أني قد حُرِمتُ أدنى قدرةٍ على التفكير بأمرٍ صالح أو الرغبةِ في صنعه، بل إنّ كلاً من نفسي

---

(٧) سيرة ٢٥، ١٨ و ٢٦، ٢.

وجسدي لا نفعَ منه، ثقيلٌ. لكن في هذه الحال، لا تعتريني التجاربُ والقلقُ، بل نفورٌ لا أدري موضوعَه إذ لا شيء يُرضي نفسي. كنت أحاولُ أن أعمل، بدون حماسة، أعمالاً خارجيَّةً صالحةً لأشغِلَ بها نفسي وأنا أدركُ جيّدًا قِلَّةَ شأنِ النفس حين تختني النعمة. ما كنت أغتمُّ لأنَّ مَعرفتي حقارَتي كانت تُوفِّرُ لي بعض الرضى.

تيه العقل وعجزه

١٦. وأجِدُني، أحيانًا أخرى، عاجزةً عن تكوين فكرةٍ واضحةٍ عن الله، أو التفكيرِ في أمرٍ صالحٍ ثابتٍ، وعن ممارسةِ التأمل ولو كنتُ في عزلة، إلاّ أنّي أشعر أني أعرفه. وأدرك أنَّ العقلَ والمخيِّلَة هما ما يؤذِيانني هنا، ويُخيِّل إليّ أن الإرادة الصالحةَ متوفرةٌ ومستعدّةٌ لكلِّ خير؛ غير أنّ هذا العقلَ تائهٌ ضالٌّ فكأنما هو مجنونٌ ثائرٌ لا يستطيع أحدٌ تقييدَه، ولستُ، أنا، بصاحبةِ سلطانٍ فأحبِسَ عِنانَه مدى تلاوة قانون الإيمان. أضحك أحيانًا وأنا عارفةٌ بؤسي، وأُحدِّق إليه، وأطلِقُ عنانَه لأرى ما عساه يفعلُ. لكنّه، من عجيبِ أمره، تَمجَّدَ الله، لا يميلُ أبدًا إلى أمرٍ سيِّئٍ بل إلى أمورٍ مجرَّدَةٍ، إذا كان ما يُشغله هنا، وهناك، وهنالك. عندئذٍ، أعرف خيرَ معرفةٍ، النعمةَ العظمى التي يصنعها الربُّ معي عندما يُقيِّد هذا المجنونَ في تطلُّعٍ تام. وأفكِّر في ما قد يحصل لو رآني في هذا الهوسِ من يعتبرونني صالحةً. أرثي لنفسي كثيرًا حين أراها بمعيَّةِ هذا الصاحبِ الشرير. أودُّ لو أراها حرَّةً فأهتفُ الى الربّ: «متى، يا إلهي، أرى نفسي منشغلةً كلَّها بتمجيدك، وتستمتِع بك قوايَ كلُّها؟ لا تسمحنَّ، يا ربّ، أن أكونَ ممزَّقةً بعدُ، فكأنما أنا أشلاءٌ متناثرةٌ في كلّ صوب»!

هذا ما أُعانيه غالبًا؛ وأدركُ جيّدًا، أحيانًا، أنَّ لاعتلالِ جسدي نصيبًا كبيرًا في الأمر. أتذكّر كثيرًا الضررَ الكبير الذي جرّته علينا الخطيئةُ الأصلية، وهي، في رأيي، مصدرُ عجزنا عن الاستمتاع بهذا الخير العظيم؛ ولِخطاياي سهمٌ في ذلك، فلو لم أقترف الكثيرَ منها لكنتُ أكثرَ رسوخًا في الصلاح.

فائدة سِيَر القديسين

١٧. وعانيتُ محنةً كبيرةً. كنت إخالُني أفهم جميعَ الكتب التي أطالعها حول التأمّل، فلم أَعُد بحاجةٍ إليها ما دامَ الربُّ قد منحني تلك المنن ؛ فأقلعتُ اذًا عن مطالعتِها واكتفيتُ بسِيَر القديسين، لأن مطالعتَها، فيما أرى، تُفيدني وتشجِّعني إذ أجدُني مقصِّرةً كثيرًا عن مجاراتِهم في خدمة الله. وكنتُ أعتبرُ قِلَّةَ تواضعٍ إعتقادي أنني بلغتُ تلك الدرجةَ من التأمّل ؛ ولما كنتُ عاجزةً بذاتي عن إتيان أمرٍ أفضل فقد أورثَني الأمرُ حزنًا كبيرًا إلى أن أوصاني ذوو علمٍ والراهبُ الورعُ بدرو دي ألقنطره بأن لا أعيرَ الأمرَ أهميَّةً. أنا متيقِّنَةٌ أنني لم أبدأْ بعدُ بخدمةِ الله، ولو أنه، عزّ وجلّ، أغدق عليّ نِعمَه مثله على كثيرين من الصالحين، وأنني أُجسِّم بذاتي النقصَ إلّا في الرغباتِ والحبّ ؛ فقد حبانيها الربّ، كما أرى، كي أستطيعَ أن أخدمه بشيءٍ ما. إخالني على يقينٍ من أنني أحِبُّه، إلّا أن أعمالي، مثلها مثل النقائص العديدة التي ألحظُها فيّ، تُشجِبني.

غفلة النفس

١٨. وأحيانًا أخرى تجتاح نفسي غفلةٌ – هكذا أُسمِّيها – فأتصوَّرني لا آتي خيرًا أو شرًّا، بل أسيرُ على خطى الآخرين، كما يُقال، بلا عذابٍ ولا مجدٍ، لا أُحِسُّني حيَّةً أو ميتةً، ولا أشعرُ بلَذَّةٍ أو غمّ. كأنني لا أشعرُ بشيء. إخال النفسَ جَحشًا يرعى، يقتاتُ ممّا يُقدَّم له، ويأكُل ولا يكاد يدري أنه يأكل. لأن النفس لا تستطيع الاستمرار في هذه الحال ما لم تَتغذَّ ببعضِ المنن الإلهية الكبيرة ؛ ولأنها لا تكره العيشَ في حياةٍ بائسةٍ كهذه، وكلُّ شيءٍ لديها سواء، فهي لا تشعر بحركاتٍ أو بمفاعيلَ لتفهمَ ذاتَها.

عطش السامرية

١٩. أتصوّر، الآن، هذه الحال كأنها إبحارٌ والهواء في غاية الهدوء، وتقطَعُ السفينةُ مسافةً طويلةً دون أن ندري كيف تمَّ ذلك. أما في الحالات الأخرى،

فالمفاعيل كبيرةٌ جدًّا حتى إن النفسَ تتحقَّق حالاً من تقدُّمِها ؛ فالرغباتُ تَغلي فجأةً ولا تجدُ هذه النفسُ أبدًا ما يرضيها. هذا ما تُحدِثه إندفاعاتُ الحبِّ العنيفةُ ، التي تحدَّثتُ عنها[8] ، في مَن يُؤتيهم إيّاها الله. إنها تُشبه ينابيعَ صغيرةً شاهدتُها تنبَجِسُ ، ولا يكفُّ الرملُ فيها عن التحرُّك صُعُدًا. هذا المثلُ أو التشبيهُ يصوِّرُ على الطبيعة النفوسَ التي تبلغُ هذه الحالة. فالحبُّ يَغلي فيها دائمًا وتفكِّرُ باستمرار بما يجب أن تعمل ؛ لا تضبِطُ نفسَها ، كما لا تضبِطُ الأرضُ ذلك الماءَ بل تَلفِظُه. هكذا تكون هذه النفس عادةً ؛ لا تهدأُ ، ولا تمتلك ذاتَها وحبَّها على ما هو عليه ، وقد تشرَّبَتْ منه كلُّها. تودُّ لو أنَّ الآخرين يشربون ، فهي ليستْ بحاجةٍ الى الشرب ، لِيُساعدوها على تسبيحِ الله. آه ! لكم أتذكَّر كلامَ الربّ للسامرية على الماءِ الحيّ ! ولذا أهوى هذا المقطعَ من الإنجيل ، بل هويتُه حقًّا مذ كنتُ طفلةً ولو لم أُقدِّر ، مثلي اليوم ، قيمةَ هذا الخير ؛ وكنت أتوسَّل الى الربّ غالبًا كي يُعطيني ذلك الماءَ. وحيثما كنت ، كانت معي صورةُ الربّ عند البئر وعليها هذه الكلمات : «**يا ربّ ، أعطِني من هذا الماء**»[9]

الحبّ نارٌ متأجِّجة

٢٠. ويمكن تشبيه هذا الحبّ بنارٍ متأجِّجة ، وحتى لا تَنطفيءَ يجب أن نُلقيَ فيها دائمًا بوقود. هذا هو حالُ النفوس التي أتحدّثُ عنها. إنّها تودّ ، ولو تكلّفت كثيرًا ، أن توفِّرَ الحطبَ حتى لا تنقطعَ هذه النار. أما أنا ، وحالي ما هو عليه ، فلو استطعت أن أُلقيَ فيها قشًّا لأكتفيتُ ، وهذا ما يَحدُث فيَّ أحيانًا ، بل غالبًا ؛ فأحيانًا أضحكُ وأحيانًا أخرى أتألّمُ كثيرًا. الحركةُ الداخلية تَحثُّني على أن أقوم بخدمةٍ ما - فأنا لا أصلحُ لأكثر من ذلك - كأَن أُزيِّنَ الصورَ بأماليدَ وزهورٍ ، أو أن أقومَ بالكِناسة ، أو أن أُرتِّبَ مصلًّى أو أفعلَ أمورًا أخرى وضيعةً جدًّا فأستحي من نفسي. واذا قمتُ بأفعال تكفير ما ، جاءتْ كلُّها زهيدةً حتى إذا لم يَعتبر الربُّ حُسنَ إرادتي

(٨) سيرة ٢٩ ، ٨-١٤.
(٩) يوحنا ٤ ، ١٥.

حسِبتُها، أنا، لا قيمةَ لها، وسخرتُ من نفسي. إنَّ النفوس التي يُعطيها الربُّ، بجودِه، نارَ حبِّه هذه، مُضطرمةٌ تقاسي مشقّاتٍ لا بأس بها حين تفوتُها قوى الجسد اللازمة لتأتيَ عملاً حبًّا به تعالى. إنها لمحنةٌ عظيمةٌ هذه. فالنفسُ تُعوِزُها القوى لتُلقيَ ببعض الحطبِ في هذه النار، وتموتُ قلقًا، خوفًا من إنطفائِها، فأتصوَّرُها، تتلاشى في ذاتِها وتصيرُ رمادًا، وتذوبُ دموعًا، وتحترق؛ إنه لعذابٌ مبرِّحٌ لكنَّه عذابٌ لذيذ.

تسبيحُ الربّ على أعمال خدمته

٢١. فلتسبِّحِ الربَّ كثيرًا النفسُ التي بلغت هذه الحال، ويُعطيها، هو، قوىً جسديَّةً لتعملَ أعمالَ التوبة، أو حباها علمًا ومواهبَ وحريَّةً لتَعِظَ وتعرِّفَ وتدنيَ نفوسًا الى الله؛ فهي لا تعرفُ ولا تدركُ الخيرَ الذي تملِكُ إذا لم تعرِفْ طعمَ العجزِ عن عمل شيءٍ خدمةً للربّ، رُغمَ حصولِها منه على الكثير. تَبارَكَ على كلِّ شيءٍ، ولتسبِّحْه الملائكة. آمين.

«أعرض بصدق ووضوح»

٢٢. لا أدري إذا كنتُ أُحسِنُ صنعًا حين أُورِد هذه الأمورَ الدقيقة. لأن حضرتَك عُدتَ فأمرتَني أن لا أتردَّدَ في تفصيل الكلام وأن لا أُغفِلَ شيئًا، فإنني أَعرِضُ بوضوحٍ وصدقٍ كلَّ ما يَرِدُ في ذاكرتي. لا أستطيعُ أن أجتنبَ إسقاطَ الكثير وإلّا اقتضاني الأمرُ أن أصرفَ وقتًا أطول، وليس لديّ منه إلّا القليل، كما قلت، ثم إنَّ ذكرَه قد لا يأتي بفائدة.

الفصل الحادي والثلاثون

تتحدّث عن بعض تجارب خارجيّة وتمثُّلاتٍ يَظهر فيها الشيطان وعن العذاباتِ التي كان يُسبِّبها لها. تتحدّث أيضًا عن بعض أمورٍ صالحة تُفيد الذين يسلكون طريق الكمال

---

١. أما وقد عرضتُ بعضَ التجارب والاضطرابات الداخليّة والسِرِّيّة التي كان الشيطان يسبِّبها لي. فأودّ أن أذكر أخرى كان يثيرها علنًا تقريبًا دون أن يُجهَلَ أنه مسبِّبُها.

ظهور الشيطان

٢. كنت مرّةً في مصلًّى فظهَر لي الى الجهة اليسرى في أقبح صورة. نظرتُ فمه بنوعٍ خاص، لأنه خاطبَني، فإذا هو مخيف. كأنَّ لهيبًا كبيرًا كان يخرج من جسمِهِ، لهيبًا صافيًا لا يخالِطه دُخان. قال لي بصوتٍ راعبٍ إنني أَفلتُّ من يديه لكنه سيعود فيقبِضُ عليَّ بهما. ذُعِرتُ ورسمتُ إشارةَ الصليب فاختفى ثم عادَ في الحال. حدثَ لي هذا مرَّتين. ما كنتُ أدري ما العمل؛ وكان هناك ماءٌ مباركٌ فرششْتُه في تلك الجهة، فما عادَ من بعدُ البتة.

تعذيب الشيطان لها

٣. مرّةً أخرى ظلَّ يعذِّبني طوالَ خمس ساعاتٍ بآلامٍ رهيبةٍ واضطراباتٍ

داخليّة وخارجيّة حتى ما عُدتُ ، فيما أظن ، أطيقُ احتمالَها. كان مَن بقربي منذهلين لا يدرون ما العمل ، وما كنتُ ، أنا ، أدري كيف أدافِع عن نفسي. من عادتي ، حين تَشتدُّ آلامي وأدوائي الجسديّة فلا تعود تُطاق ، أن أعملَ ، ما أمكنني ، أفعالاً داخليَّةً متوسِّلةً الى الرب ، إذا كان ذلك يُرضيه ، أن يعطيَني ، عزّ وجلّ ، صبرًا ويبقيَني في هذه الحال حتى انتهاءِ العالم. فلمّا رأيتُ العذابَ هذه المرّة على هذه الشدّة ، عالجْتُه بهذه الأفعال والمقاصد لأستطيعَ احتمالَه. أرادني الرب أن أفهم أنّ الشيطان كان السبب ؛ فقد رأيتُ بقربي زنجيًّا فظيعَ الخلقة يُدمدِم يائسًا أن حيث يأمُل الربحَ يُمنى بالخسارة. ما إن رأيته حتى ضحكتُ ، وما خِفتُ ؛ بينما الذين كانوا معي ما كانوا يدرون ما العمل ولا أيَّ علاجٍ يَعتمدون لهذا العذاب الرهيب ؛ كان يدفعُني لأتخبَّطَ بقوّة ، بجسدي ، وبرأسي وذراعَيَّ دون أن أستطيع المقاومة. وأسوأ ما في الأمر كان القلقُ الداخلي ؛ فما كنت أستطيعُ أن أنعمَ بهدوءٍ إطلاقًا. ما كنتُ أجرؤ على طلبِ ماءٍ مباركٍ لئلاَّ أثيرَ فيهم الخوفَ وكي لا يعرِفوا ما الأمر.

قوة الماء المبارك

٤. لقد ثَبتَ لي بالاختبار مرارًا أن لا شيءَ كالماء المبارك يهرُب منه الشياطين فلا يعودون. إنهم يهربون من الصليب لكنّهم يعودون. لا شكّ في أنّ قوّةَ الماء المبارك عظيمةٌ. إن نفسي تشعر بعزاءٍ خاص ومعروف حين أَستخدمه. بالتأكيد ، أشعر عادةً بارتياحٍ أعجز عن تفسيره ؛ إنه كلذّةٍ داخليّة تُنعش نفسي كلَّها. ليسَ هذا بوهمٍ ولا حصل لي مرّةً واحدةً ، بل مرارًا عديدةً ، وتبصّرتُ فيه مَليًّا. مثل هذا مثل إنسانٍ يعاني من حرٍّ شديدٍ وعطشٍ فيجرّب إبريقَ ماءٍ باردٍ فيَبْتردُ كلُّه به. إني أُقدِّر عظمةَ كلِّ ما ترسمه الكنيسة ، وأبتهج كثيرًا حين أرى قوّة تلك الكلماتِ التي تُلفَظ على الماء فتَنتقِلُ إليه ليكونَ الفرقُ شاسعًا بينه وبين الماء غير المبارك[1].

٥. ولما لم يبارحْني العذاب ، قلت : لكنت أطلب ماءً مباركًا لو أنّ طلبي لا

---

(١) مشهورٌ عن القديسة أنها ما كانت تسافر إلّا وفي حوزتها إناءٌ يحوي ماءً مباركًا.

يُثير ضحككم. فجاؤوا بالماء ونَضحوني به، ولكن بدون جدوى؛ فرشَشْتُه حيثُ كان الشيطان، فاختفى في الحال وزالَ عنّي الألمُ تمامًا كأنّ يدًا نزعته منّي؛ لكنّي بقيتُ مُتعبةً كأني أُشبِعتُ ضربًا بعصا. وقد نفعتْني كثيرًا معرفتي أن الشيطانَ يسبّب أذًى كبيرًا كهذا لنفسٍ وجسدٍ ما، ولو لم يكونا من خاصته، حينَ يَسمح له الربّ بذلك. فماذا تُراه يفعل بهما حين يكونان ملكًا له؟ فثارت فيّ ثائرةُ الرغبةِ في التحرُّر من عِشرة السوءِ هذه.

تكرار تعذيب الشيطان لها

٦. وحدثَ لي الأمرُ نفسُه، مرّةً أخرى، منذ وقتٍ قصيرٍ، غير أنه لم يَدُم طويلاً، وكنتُ وحدي. طلبتُ ماءً مباركًا؛ والراهبتان اللّتان دخلتا بعدَ فرارِ الشياطين (هما جديرتان بالثقة التامة لا تختلِقان الكَذِبَ أيًّا كان السبب) اشتمَّتا رائحةً رديئةً جدًّا كرائحةِ الكبريت؛ أما أنا فما شَمَمْتُها لكنّها استمرّت وقتًا كافيًا ليُفْطَن لها.

وكنت مرَّةً أخرى في الخورس، فأُخذْتُ باندفاعٍ قويٍّ للاختلاء، فخرجتُ لئلّا تُدرِكَ الراهباتُ الأمرَ، إلّا أنّهنّ جميعَهنّ سَمِعنَ أصواتَ ضرباتٍ قويّةٍ حيث كنتُ؛ وسمعتُ، أنا، بقربي محادثةً، كأنّ أناسًا كانوا يتداولون أمرًا، لكنّي لم أفهمْ ما هو لأنهم كانوا يتحدَّثون بصوتٍ خفيض؛ على أني كنت مستغرقةً في التأمل فلم أعِ شيئًا ولم أشعر بخوف. وكان هذا يحدث كلَّ مرّةٍ تقريبًا كان الربّ يصنع معي نعمةً فأُقنِعَ نفسًا وتستفيد.

وقد حدث لي بالتأكيد ما سأرويه (وهناك شهودٌ كُثُرٌ على صحَّتِه خصوصًا معرّفي الحالي(٢) الذي رآه مسطّرًا في رسالة؛ فدون أن أُطلِعه على صاحبِ الرسالة عَرَف من هو).

---

(٢) على الأرجح هو الأب دومنغو بانييث.

إرتدادُ كاهنٍ خاطىءٍ بصلاتها

٧. جاءني شخصٌ كان مضى عليه سنتان ونصفُ سنةٍ وهو في حالِ خطيئةٍ مميتةٍ من أشنع ما سمعتُ به، وما كان ليعترفَ بها طوالَ هذه الفترة أو يصلحَ نفسَه، ومع هذا كان يحتفِلُ بالقُدّاس. ومع أنه كان يعترفُ بخطايا أخرى، كان يقول لي: كيف له أن يعترفَ بأمرٍ شنيعٍ كهذا؟ كان يرغبُ رغبةً حارّةً في الانعتاق من تلك الخطيئة إنما كانت الشجاعةُ تنقصُه. رقَّ له قلبي وآلمني شديدَ الألم رؤيتي اللهَ يُهانُ على هذه الصورة. فوعدتُه أن أتوسَّل الى الله بحرارةٍ كي يعالِجَ أمرَه، وأن أسألَ أشخاصًا آخرين خيرًا منّي كي يُصَلُّوا لأجله، وكتبتُ الى شخصٍ قال لي، هو، أنَّ بإمكاني أن أراسلَه بواسطته. فكان أن اعترفَ منذ الرسالة الأولى. لقد أرادَ الله أن يصنعَ هذه الرحمةَ مع هذه النفس لكثرة ما توسَّل إليه أشخاصٌ أتقياءُ سألتُهم في شأنه؛ وأنا بدوري، على بؤسي، كنت أفعلُ ما أستطيعُ بكلِّ رويَّة. وكتب لي يقول إنه حقَّق تحسُّنًا ظاهرًا؛ فقد مضتْ أيامٌ ولم يَسقُطْ في ذلك الإثم؛ إلّا أنّ التجربةَ كانت تسبِّب له عذاباتٍ، فيعاني من التباريح ما يجعله يظنُّ نفسه في جهنَّم؛ فيسألني أن أتضرَّع الى الله من أجله. عدتُ فأَوصيتُ اخواتي الراهبات بشأنِه فاهتمَمْن بالأمر أيَّ اهتمام وبفضل صلواتِهنَّ صنعَ الربّ معي هذه النعمة. ما كان لأحدٍ سبيلٌ الى أن يعرفَ من هو ذلك الشخص. توسَّلتُ الى الله، عزّ وجلّ، أن يهدِّئَ تلك العذابات والتجارب، وأن يأتيَ إليّ أولئك الشياطين ليعذِّبوني على أن لا أهينَ الربّ البتّة. وهكذا أمضيتُ شهرًا أُكابِد العذابات، وفي تلك الفترة حدث الأمران اللذان تكلَّمتُ عليهما[٣].

شفاعتُها تُستجاب

٨. تلطَّف الربّ فغادرتِ الشياطينُ الشخصَ المذكور. هذا ما كتبَ لي به حين أخبرتُه بما عانيتُه ذلك الشهر. تقوَّت نفسُه وتحرَّر تمامًا وما كان ينفكّ يشكُرُ

---

(٣) تدخّل الشيطان مرّتين كمَا رَوَتْ في مقطع ٦ من هذا الفصل.

الربّ ويشكرني ، وكأني عملتُ ، أنا ، شيئًا ؛ غير أن اعتقادَه بأن الربّ يصنع معي مننًا قد أفاده. كان يقول لي إنه حين يشعر بضيقٍ خانقٍ يُطالع رسائلي فتزول التجربة ؛ وكان منذهلاً لشدَّة ما قاسيتُ ومن كونِه ، هو ، قد انعتق. بل إني إنذهلتُ بدوري ، ولكنت رضيت بالعذابات سنينَ عديدةً حتى أرى تلك النفس معتقةً. تبارَكَ ، تعالى ، على كل شيء لأن صلاةَ الذين يخدمون الربّ قادرةٌ على الكثير ، وأعتقدُ أنَّ راهباتِ هذا الدير إنما يخدمونه خدمةً نصوحًا ؛ إلّا أنّ مسعايَ أثارَ سخطَ الشياطين عليّ وقد سمح الربّ بذلك بسبب خطاياي.

انتقام الشياطين

٩. في هذه الفترة ، حسبتُ الشياطين ، ذاتَ ليلةٍ ، يخنقونني ؛ ولما رشّوا كثيرًا من الماء المبارك رأيتُ جمًّا منهم غفيرًا يهربون ، وكأنهم يتدهورون. كثيرًا ما يعذّبني هؤلاء الملاعين وقلّما يُثيرون فيَّ الخوف لمعرفتي أنّهم عاجزون عن التحرّك اذا لم يسمح لهم الربّ بأن يتحرّكوا ؛ فلو حدّثتُ حضرتَك بذلك لأتعبتُك وأضنيتُ نفسي.

صلاتها لأجل الموتى

١٠. ليتَ ما قلتُ ينفعُ خادمَ الله الحقّ فلا يبالي بهذه الفزّاعات ينصبها هؤلاء الشياطين لترويعِه. لنَعلمِ أننا كلّما تجاهلناهم ضَعُفَتْ قوّتُهم واشتدّت سيطرةُ النفس عليهم. ويتحقّق لنا دائمًا فائدةٌ كبيرةٌ لن أعرض لها لئلاَّ أُطيلَ الكلام ، فأكتفي بأن أروي ما حدث لي عشيَّة تذكار الموتى. كنت في مصلًّى وقد تلوتُ قومةً من صلاةِ الليل ، وفيما أنا أتلو بعضَ صلواتٍ تقويَّةٍ جدًّا – في ختام القومة – موجودةٍ في فرض الصلاة ، إذا بالشيطان يستقِرُّ على الكتاب ليحولَ دون إنهائي الصلاة. فرسمتُ إشارةَ الصليب فاختفى. وعاودتُ الصلاة فعاد. أعتقد أنني عاودتُها ثلاثَ مرّاتٍ ولم أتمكّن من إنهائها حتى رشّشتُ ماءً مباركًا. ورأيتُ في الحال نفوسًا تخرج من المطهر بقيَ عليها ، ولا شكّ ، من الكفّارة قسمٌ ضئيل. فقلت في نفسي : لعلّه أراد منعَ خروجها.

قليلاً ما رأيتُه على صورةٍ معيَّنةٍ وغالبًا ما شاهدتُه ولا شكلَ له كما في الرؤيا التي روَيت ؛ فعلى انعدام الشكل يُرَى بوضوحٍ أنه موجود.

رؤيا نبويّة

١١. وأودّ أن أرويَ ما يلي لأنه أَذهلني. كنتُ يومَ عيدِ الثالوث في الخورس في أحد الأديرة فشاهدتُ ، وأنا في حال انخطاف ، معركةً ضاريةً بين شياطينَ وملائكةٍ. ما كنتُ أستطيعُ أن أفهمَ معنى تلك الرؤيا ، لكن بعد أقلّ من خمسة عشر يومًا ظهرَ تفسيرُها في نزاعٍ بين جماعةٍ من أنصار حياة التأمّل وآخرين يخالفونهم الرأي ، فنجمَ ضررٌ كبيرٌ للدير الذي كان مسرحًا لهذا الصراع ، قد دام طويلاً وأحدثَ بلبلةً عظيمةً.

ضعف الشياطين

وكنت أرى ، أحيانًا أخرى ، جماعةً منهم غفيرةً حولي ، وأتصوّر ضياءً باهرًا يُحدِق بي يَحولُ دون وصولهم إليّ. أدركتُ أنَّ الله يحرسُني فلا يَبلغوا إليّ فيحملوني على إهانته. وحسب ما رأيتُ في نفسي أحيانًا فهمتُ أنّ ذلك كان رؤيا. الواقع أنني أدركتُ تمامَ الإدراك قِلَّة تأثيرِهم حين لا أغيظ الله فأكاد لا أخشاهم أبدًا. إن قواهم ليست بشيءٍ إذا لم يصادِفوا نفوسًا مستسلِمةً لهم ، جَبانةً. على مثلِ هذه النفوس يمارسون سلطانَهم. أحيانًا ، كان يُخيَّل إليّ ، في التجارب التي روَيت ، أنّ جميعَ أباطيل الماضي وتُرّهاتِه تَستيقظ فيَّ من جديد ، وأن عليّ أن أستجيرَ بالله. ويَنتابني حالاً عذابٌ مبرِّحٌ لأني أتصوَّر أنّ ما دامت هذه الأفكار تراودني ، فهي اذًا من الشيطان. ويدومُ العذابُ إلى أن يهدِّئَ المعرِّف روعي ؛ فاني كنت أظنّ أنّ شخصًا ينال من الربّ هذا القدرَ من الأنعام لا يُمكن أن يخامِرَه أدنى أفكار السوء.

هربها من ثناء الناس

١٢. وكان يعذّبني ، أحيانًا أخرى ، كما يعذّبني الآن ، أن أرى الآخرين ،

خصوصًا وجهاءَ القوم، يُعيرونني اهتمامًا ويُثنون عليّ. لقد عانيتُ من هذا الأمر وما زلتُ أعاني الكثير. ثم أتأمّل حياةَ المسيح والقديسين فأراني أسيرُ على نقيضِهم، لأنهم لم يَلقوا إلّا إهاناتٍ واحتقارًا. هذا ما كان يثيرُ الذعر في نفسي فلا أجرؤ على رفع رأسي، ولا أرغبُ في الظهور، وهو ما لا أفعله حين تَلحقُني الاضطهادات؛ إذ ذاك تكون النفسُ سيِّدةَ ذاتِها ولو أنّ الجسدَ يتألّم وأكونُ غارقةً في الغمّ، فلا أدري كيف يَحدث ذلك؛ وإنما يحصُل بحيث إنّ النفسَ تَخال ذاتَها، عندئذٍ، وكأنها سلطانةٌ في مملكتِها تدوس كلَّ شيءٍ برجليها.

لقد وقع لي هذا مرارًا، وكان يدوم أيامًا عديدةً، فكنت أحسبُه من ناحيةٍ ما فضيلةً وتواضعًا، أما الآن فأعلم علمَ اليقينِ أنه كان تجربة. وقد ثَبَّتَ رأيي هذا راهبٌ دومنيكي، عالمٌ كبير. وعندما كنت أفكِّر في أن هذه المنن التي يَمنحُنيها الربّ سيَشتَهِر أمرُها، كان يجتاحني عذابٌ شديدٌ يُقلق نفسي أيَّ قلق، بل بَلغ العذاب حدًّا بحيث تبصَّرتُ في حالي فخِلتني أُفضِّل حقًّا أن أُدفَن حيَّةً على أن أعانيَ ما أعاني. لذلك عندما بدأتْ هذه الانطواءات أو الانجذابات القويّة تنتابُني فلا أطيقُ مقاومتَها علنًا، كنت أرتبك حتى أتمنّى أن لا يراني أحدٌ في أيِّ مكان.

العزاء في كلام الربّ

١٣. كنت مرّةً مرهقةً بهذه الحال، فسألني الربّ ممَّ أخاف؟ فإنَّه لا يُمكِنُ أن يَنجُمَ عن هذه الحال سوى شيئين: فإما أن يَطعنوا عليَّ أو أن يُمَجِّدوه؛ وأراد أن يُفهِمَني بكلامه هذا أنّ من يصدِّقون تلك الظواهر يمجِّدونه، ومن لا يصدّقونها يَحكمون عليّ بلا ذنْب، وفي الحالتين ربحٌ لي، فما عليّ أن اغتمّ. فطمأنني كلامُه كثيرًا، وما زال يفرِّج غمّي حين أذكُره. وقد بلغتِ التجربةُ حدًّا رغبتُ معه أن أُغادرَ هذه المدينة وأمضي مع باثنتي[٤] الى ديرٍ آخرَ نظامُ الحصنِ فيه أشدُّ مما هو في ذاك، وقد سمعتُ إشادةً كبيرةً بذِكره[٥]. والديرُ هذا عائدٌ أيضًا الى رهبانيتي، وبعيدٌ

(٤) الباثنة ما يكون مع العروس من مالٍ وجهازٍ عند زفافها.
(٥) لعلّه ديرُ التجسدّ في قالنثيا.

عن حيثُ كنت ، ولكان يرتاحُ بالي لو وُجِدتُ في مكانٍ لا يعرفني فيه أحد ؛ غير أنّ معرِّفي لم يسمحْ لي بذلك على الإطلاق.

التواضع الحقيقي

١٤. كانت هذه المخاوفُ تحُدُّ كثيرًا من حرّيّتي الروحيّة حتى فهمتُ فيما بعد أن ذلك لم يكن تواضعًا صحيحًا لأنه كان يثيرُ فيّ قلقًا كبيرًا. وقد علَّمني الربّ هذه الحقيقة : عليّ أن أَثق وأعلَم عِلمَ اليقين أنّ لا شيء صالحًا يصدرُ عنّي بل عن الله ؛ فكما أنه ، ما كان يُضيمُني أن أسمعَ ثناءً على آخرين ، بل كنتُ أُسَرُّ وأشعرُ بارتياحٍ كبيرٍ إذ أرى أنّ الله يَظهر فيهم ، فلا يجبُ أن أَغتمَّ إذا أظهرَ فيَّ أعمالَه.

تواضعُها بكشف أخطائِها

١٥. وسقطتُ أيضًا في تطرُّفٍ آخر ، وذلك بأن أَتوسَّلَ الى الله ، بصلاةٍ خاصة ، كي يكشفَ ، عزّ وجلّ ، خطاياي لأيِّ شخصٍ يتصوَّرُ فيّ شيئًا صالحًا ليرى أنّه تعالى يُفيضُ عليَّ مننه من دون أدنى استحقاق ؛ وما زالت هذه الرغبةُ شديدةً فيّ. فقال لي معرّفي ألّا أفعلَ ذلك. غير أني كنت ، الى عهدٍ قريب ، إذا رأيت أحدًا يظنُّ فيّ خيرًا كبيرًا كنت أُفهِمُه خطاياي مداورةً أو أَصطَنِعُ وسائلَ لتنكشفَ له ، فأراني أستريح. وقد أثاروا شكوكي في هذه المسألة ايضًا.

الصلاح في الثقة بالله

١٦. لم يكنْ هذا التصرُّفُ صادرًا ، فيما أظن ، عن تواضعٍ بل عن تجربةٍ تولِّدُ تجارب. كنت أَحسبني ضَلَّلْتُ الجميع. ولئن صحّ أنّهم كانوا منخدعين باعتقادهم صلاحًا ما فيّ ، فما كانت رغبتي في أن أُضلِّلهم ولا حاولتُ غشَّهم قطّ ، بل إن الربّ ، لغايةٍ ما ، سمحَ بذلك. ولذا ، لم أكنْ أُفاتِحُ حتى معرّفيّ بأمرٍ ما لم أجدْ له ضرورةً لئلاّ يُثيرَ فيّ الوساوس.

وأدركُ الآن أنّ تلكَ التخوّفاتِ والهمومَ ، وظِلَّ التواضع ذاك ، كانت جميعُها

نقصًا خطيرًا ناجمًا عن قلّة التقشُّف ، لأن نفسًا جعلت قِيادَها في يد الله ، لا يُهمّها أَذُكِرَتْ بخيرٍ أم بسوءٍ إذا فَهمت تمامَ الفهم ، كما يريد الربّ أن يمنحها مننه لتفهم ، أنها لا تملك شيئًا من ذاتِها . إنها تثِق بمن يعطيها إيّاه ، لأنه يعرف لماذا يكشِفه لها ، وتستعدّ للإضطهاد ، والاضطهادُ أكيدٌ في أيّامنا ، حين يريد الربّ أن يعرف أنه يفيضُ مننه على شخصٍ ما ، لأن هناك ألفَ عينٍ تَرقُب نفسًا كهذه ، ولا عينَ واحدة ترقُب ألفَ نفسٍ من نوعٍ آخر.

نظرة العالم الى المباشر في الكمال

١٧. في الحقيقة ، ليست أسبابُ الخوف بيسيرةٍ ، فلا عجبَ من خوفي ؛ لم يكنْ ذلك تواضعًا بل جُبنًا ؛ فإن نفسًا يَسمح الله بأن يَذيعَ ذكرُها في العالم يجب أن تستعدَّ لتكونَ شهيدةَ العالمِ ، فإن لم تَمُتْ هي عنه ، فإن العالَم نفسَه يقتلها . والحقّ أقول ، إني لا أرى فيه شيئًا صالحًا سوى أنه لا يتغاضى عن نقائصَ في الصالحين إلّا ويُصلِحُها بقوّة النمائم . وأُؤَكِّدُ أنَّ من ليس كاملاً يَلزَمه شجاعةً أوفرَ ليسيرَ في طريق الكمال ممّا يلزَمه للاستشهاد في الحال . فالكمال لا يَبلغُه في وقتٍ قصيرٍ إلّا من يريد الربّ ، بامتيازٍ خاصٍ منه ، أن يعطيَه هذه النعمة . وإذا رآه العالم يباشِر السيرَ في هذا الطريق أرادَه كاملاً حتى إنه يُحسَب له نقصًا ، من مسافةِ ألف فرسخ ، ما قد يكون فيه فضيلةً ؛ ولأن من يَحكُم عليه يفعل ذلك عن رذيلةٍ فهو يُسنِدُها الى الآخر . فليس له أن يأكلَ ، أو ينامَ ، ولا أن يتنفّس ، كما يقولون ، ما داموا يقدّرونه هذا القدْرَ ؛ غير أنّه يَغيبُ عن بالِهم أنه ما زال يعيش بالجسد مهما كانت النفسُ كاملةً . أمثالُ هذا يَعيشون في الأرض خاضعين لشقاواتِها ولو اعتبروها موطئًا لأقدامِهم . وهكذا تحتاج تلك النفسُ المسكينةُ ، كما قلت ، الى شجاعةٍ أوفرَ لأنها لم تبدأ السيرَ بعد ويريدونها أن تطيرَ ؛ لم تقهر الأهواء بعد ويريدونها ، في ظروفٍ صعبةٍ ، راسخةَ الجنان ، كما قرأوا عن القديسين الذين ثُبِّتوا في النعمة .

إن ما يحدثُ في هذا المجال ليَدعو الى تمجيدِ الربّ ويُدمي الفؤاد ؛ فإن نفوسًا لا حصرَ لها تعود القهقرى لأنها ، مسكيناتٌ هي ، لا تُحسِنُ التصرّف . وإنّ نفسي

لكانت فعلتْ مثلَ تلك لو لم يصنع الربّ، بواسعِ رحمتِه، كلَّ شيءٍ بذاته. وسترى حضرتُك أني، إلى أن أُتمَّ، تعالى، بجودِه كلَّ شيء، لم أعرف سوى السقوط فالنهوض.

غرور النفوس المبتدئة

١٨. ليتني أُحسِن شرحَ المسألة؛ فأنا أظنّ أنَّ نفوسًا كثيرةً تغترّ لأنها تودُّ الطيران ولمّا يؤتِها الله بعدُ جَناحين. أظنني أقمتُ هذه المقارنةَ سابقًا لكنّها، هنا، تناسب المقام. سأعالِجُ، إذًا، هذا الموضوعَ لأنني أرى بعضَ النفوس تغتمُّ كثيرًا بسببه. فهي تبدأُ بتوقٍ شديدٍ، وحرارةٍ، وتصميمٍ على التقدّم في الفضيلة، وبعضُها يَترك كلَّ شيءٍ خارجيٍّ حبًّا به تعالى؛ لكن حين ترى آخرين، متقدّمين في الفضيلة، قد وهبَهم الربُّ فضائلَ ساميةً لا نستطيعُ، نحن، اكتسابَها، وتطالِعُ في جميعِ الكتب التي تتناول التأمّلَ والتطلُّعَ أمورًا علينا أن نصنَعها لنبلغ هذا المقام وتعجزِ، هي، عن تحقيقِها حالاً، تغتمُّ أيَّ غمّ. مثلاً: أن لا نكترثَ إذا طُعِنَ علينا، بل أن نشعرَ بسرورٍ أكبرَ ممّا لو ذُكِرنا بخير؛ أن لا نُقَدِّرَ الشهرةَ؛ ان نتجرَّد عن الأهل، ولا نرغبَ في مخالطتِهم إذا كانوا لا يُمارسون التأمل لأنَّ معاشرتَهم تُرهِق. وأمورٌ شتّى كهذه أعتبرُ أنّ اللهَ هو مَن يُعطيها لأنّها، في رأيي، خيراتٌ فائقةُ الطبيعة أو تناقِضُ ميلَنا الطبيعي. فلا يَجهَدنَّ هؤلاء، بل فليثِقوا بالربّ لأنه، عزّ وجلّ، يَجعلُهم يُحقِّقون رغائبَهم بفضلِ الصلاة وإذا بذلوا وُسعَ طاقتهم؛ فلا بدّ لميلِنا الطبيعي الضعيف من أن يتسلّح بثقةٍ كبيرةٍ، وألّا تخورَ عزيمتُه أو يفكِّرَ في أنّ جهودَنا قد لا تحقِّق لنا النصر.

الفضيلة تُختبَر بنقيضها

١٩. إنني، لخبرتي الواسعة في هذا الموضوع، سأوضِح لحضرتِك أمرًا. لا تَظُنَّنَّ الفضيلةَ ممتلَكَة، ولو بدا لك العكسُ، إذا لم تختبِرْها بنقيضِها. وعلينا أن نكونَ دائمًا حَذِرين وألّا نتهاونَ في أمرِنا ما حيينا، لأننا قد نتعلّق بأشياءَ كثيرةٍ إذا لم نُعطَ

بعد، كما قلت، النعمة، كلَّ النعمة، لنعرِفَ كلَّ شيءٍ على حقيقتِه وأن لا شيءَ في هذه الحياة خلوٌ من مخاطرَ جمَّة. لبضعِ سنواتٍ خلتْ ما كنتُ أتصوَّرُني متجرّدةً عن أهلي فحسب، بل كنتُ أعتبرهم يُتعِبونني. والواقع أنني ما كنتُ أُطيقُ محادثَتهم. حصلتْ مسألةٌ كبيرةُ الأهميّة فاضطُرِرتُ الى أن أمكثَ لدى أختٍ لي كنتُ أحبُّها قبلاً حبًّا جمًّا. وعلى كونِها خيرًا منّي فما كنت أستسيغُ أحاديثَها. إن حالتَها مختلفةٌ عن حالتي، فهي متزوّجة، وعليه فما كان يمكِن أن يأتيَ حديثُها منسجمًا ورغبتي؛ فكنتُ أنعزِل ما استطعت. رأيتُ أنّ همومَها كانت تُشغل بالي أكثرَ بكثيرٍ من همومِ قريبٍ ما، وتُحدِث لي شَجَنًا[٦]. أخيرًا، عرفت أنّني لستُ حرَّةً كما كنت أحسبني، وأن لا بدّ لي من اجتناب الظروف حتى تنموَ هذه الفضيلةُ التي كان الربّ قد بدأ يَمنحني بواكيرَها؛ وهذا ما سعيتُ الى تحقيقِه، بفضلِه تعالى، مذ ذاك.

عدم تعريض النفس للخطر

٢٠. يجب أن نقدِّر أكبرَ قدْرٍ فضيلةً يبدأُ الربّ بمنحِها وأن لا نُعَرِّض أنفسَنا في حالٍ لخطر فُقدانها. هكذا مثلاً فيما يتعلّق بالكرامة وأمورٍ أخرى كثيرةٍ. فلا تظنَّ حضرتُك أنّ جميعَ الذين يحسبون أنفسَهم متجرِّدين عن كل شيء، متجرِّدين في الواقع. فلا بدَّ لنا من الحذر دائمًا في هذا الموضوع. أيُّ إنسانٍ يتحسَّس في نفسِه قدْرًا من الكرامة، صدِّقْني أنّ عليه، إذا أراد التقدُّم، أن ينبِذ هذا الوثاق، فهو قيدٌ لا يكسرُه مِبْرَدٌ، بل وحدَه الله، على أن نصلّيٍ ونبذلَ الكثيرَ من طاقتِنا. فإنه، في رأيي، عائقٌ يقطع الطريق، ويُرهبني ما يجرُّه من ضرر.

أعرف أشخاصًا يأتون أعمالَ القداسة أعظمَها فيُذهلون الناس، أعوذ بالله! لِمَ هذه النفسُ ما تزالُ على الأرض؟ كيف لم تبلغْ بعدُ ذُروةَ الكمال؟ ما الأمر؟ من تُراه يعوقُ من يعملُ أعمالاً عظيمةً حبًّا بالله؟ – آه! إنَّ عنده قدْرًا من حبِّ الكرامة... !

---

(٦) تلمِّح القديسة هنا الى تأسيس دير القديس يوسف، وقد أدَّت لها أختُها خوانا وزوجُ هذه، خوان دي أوڤاليي، خدماتٍ جلّى لهذه الغاية.

وشرٌّ ما في الأمر أنّه لا يريد أن يُقِرَّ بذلك لأن الشيطان يُوحي إليه بأنّ ذلك واجبٌ عليه.

أذى الكرامة

٢١. فليُصدّقوني، إذًا؛ فليُصدِّقوا، حبًّا بالربّ، هذه النُمَيْلَةَ التي يُريدها الربُّ أن تتكلَّم: إن لم يُزيلوا هذه السلسلةَ، فقد لا تؤذي الشجرةَ كلَّها، لأن بعضَ الفضائل تبقى إلّا أنَّ السوسَ ينخرُها كلَّها. لا تكون شجرةً جميلةَ المنظر؛ لا تنمو ولا تَدَعُ ما بقربها ينمو. فثمرةُ المثلِ الصالح التي تُعطيها ليست سليمةً، فتدوم قليلاً. لطالما ردّدت القول: مهما يكن حبُّ الكرامة قليلاً فمثلُه مثلُ ما يحدُث في الغِناء، فإنّ أيَّ نَغمةٍ أو قياسٍ خاطىءٍ يُحدِث نشازًا في القِطعة كلِّها. الكرامة أمرٌ يسبِّب للنفس في كلِّ حالٍ أذًى بالغًا، إلّا أنه، في طريقِ التأمل، طاعونٌ.

درب الكرامة ليست دربَ الاتحاد

٢٢. تحاول أن تنضمَّ الى الله بالاتحاد، ونُريد اتِّباعَ مشوراتِ المسيح المثقل إهاناتٍ وشهاداتِ زور، ونريدُ التمسُّكَ بكرامتِنا وسمعتِنا كاملتَين؟ مستحيلٌ بلوغُ تلك الغاية فدَربُها ليست هذه الدرب. إن الربَّ يَصِلُ الى النفس عندما نبذُل جهدًا ونسعى لنخسَرَ حقَّنا في أشياءَ كثيرةٍ. سيقول البعض: ليس ما أخسرُ فيه حقِّي ولا مناسبةَ لخسرانِه. وفي اعتقادي أن من عقدَ هذا العزمَ لا يريده الربّ أن يُحرَمَ خيرًا عميمًا كهذا؛ فإنه، عزّ وجلّ، يرتِّب له وسائلَ عديدةً ليَكسِب هذه الفضيلةَ حتى يرى الوسائل تفوقُ الحاجة. فإلى العمل.

تواضعُها أمام المبتدِئات

٢٣. أودّ أن أتحدَّث عن التفاهات والسخافات التي كنتُ آتيها، أو أفعلُ بعضَها في البدء. إنها القشّاتُ التي ذكرتُ وكنتُ أُلقيها في النار؛ فأنا لا أصلُح لأكثر من ذلك. فالربّ يقبل كلَّ شيءٍ؛ تباركَ الى الأبد.

مِن نقائصي قلّةُ معرفتي بأصول الفرض وبِدَوري في رُتَبِ الخورس والاحتفالات، لمجرّد تهاوُني وانشغالي ببعض الأباطيل؛ وكنتُ أرى بعضَ المبتدئات قادراتٍ على تعليمي. ما كنتُ أسألهُنّ لئلاّ يلاحظن تقصيري. وتنتصب أمامي حالاً فكرةُ المثل الصالح؛ وهذا ما يَحدُث عادةً. ومنذ أن فتحَ الله عينيَّ قليلاً ما كنت أتردَّد في سؤال الشابّات إذا خالجَني أدنى شكٍّ في أمرٍ ولو كنت أعرفه. وما فقدتُ كرامتي أو اعتباري؛ بل إن الربّ أراد، فيما أظنّ، أن يُنعِمَ عليّ بذاكرةٍ أقوى من ذي قبل.

ما كنتُ أُحسِنُ الترتيل. كنت أغتمّ كثيرًا إذا لم أتعلّم جيِّدًا المقطعَ المعهودَ إليّ ترتيلُه (ليس خوفًا من ارتكاب خطإٍ أمام الربّ، لأن في ذلك فضيلةً، بل استحياءً من الكثيرات اللواتي يسمَعْنني)، حتى إني لمجرَّدِ اهتمامي بكرامتي كنت أضطرب أيَّ اضطراب فأُرتِّلِ أسوأ ممّا كان بإمكاني أن أفعل. فقطعتُ العزمَ فيما بعد على أن أقولَ، حين لا أُحسِنُ أمرًا، أنني لا أُحسِنه. كنتُ في البدءِ أُحِسّ بغمٍّ، فصرتُ من بعد أشعرُ بارتياح. ومذ بدأتُ لا أكترثُ بأن يُعرَفَ جهلي صرتُ أتقنُ الترتيل لأن «الكرامة السوداء» كانت تَحُول دون أن أحسِنَ ما كنت أعتبره كرامةً. وكلُّ إنسانٍ يضعُ كرامتَه في ما يطيب له.

ترتيب معاطف الأخوات

٢٤. بهذه التفاهات، وهي ليست بشيء – ولست، أنا، سوى عدمٍ طالما أنها كانت تَغمُّني – نتعوَّدُ أن نأتيَ أعمالاً رويدًا رويدًا. ولأن هذه الأشياءَ الصغيرةَ نصنعُها حبًّا بالله، فهو، عزّ وجلّ، يُضفي عليها قَدْرًا ويساعدُنا، تعالى، على صنعِ أعظمَ منها. فعلى سبيلِ المثال: كنت أرى جميعَ أخواتي يتقدَّمن في فضيلةِ التواضعِ ما عداي، لأني ما كنتُ أَصلُح لشيءٍ، فما أن يُغادِرْنَ الخورس حتى أُرتِّبَ معاطفَهنَّ جميعًا. كنت إخالني أخدم أولئك الملائكة الذين يُسبِّحون الله. واستمرَّ الحال هكذا الى أن اكتشفْنَ، لا أدري بأيِّ طريقةٍ، أمري؛ فخجِلْتُ أيَّما خجلٍ، لأن فضيلتي لم تبلغْ بي أن أرضى باكتشافِهن أمورًا كهذه؛ وما كان ذلك عن تواضعٍ بل حتى لا يسخَرن منّي لتفاهةِ هذه الأعمال.

ابتهال وخجل

٢٥. آه، ربّي! يا لَخَجلي حين أرى كثرةَ الآثام فيَّ ثم أُعدِّد بعض حبَّاتٍ من الرمل وما كنت لأرفعَها عن الأرض خدمةً لك، وأعمالي كلُّها كان يغمرُها ألفُ بؤس! ما كان ينبجس ماءُ نعمتِك بعدُ من تحتِ حبّاتِ الرملِ هذه ليَدفع بها الى العلاء! آه، خالقي! ليتَ لديّ شيئًا ذا قدْر أُحدِّث عنه وسطَ أعمالِ السوء هذه ما دمتُ أروي المنن العظيمة التي غمرتَني بها! حقًّا، يا ربِّي، لا أدري كيف يُطيق قلبي إحتمالاً، أو كيف لن يكرهَني من يطالع ما كتبتُ حين يراني أسأتُ التجاوبَ مع مننٍ عظيمةٍ جدًّا ولم أخجلْ من أن أرويَ أعمالاً كهذه، وهي أعمالٌ على صورتي. أجل، يا رب، إني أُخجَل. لكن ليس لديَّ ما أُرويه عن ذاتي خيرًا من هذا، فأقُصُّ هذه المحاولات الأولى ليرسَخ في الرجاءِ من يقومُ بأعمالٍ عظيمةٍ؛ فإذا كان الربُّ اعتبرَ أعمالي هذه، كما يبدو، فبالأحرى يُقَدِّرُ أعمالهم. عسى الله، عزّ وجلّ، يُعطيني النعمةَ حتى لا أبقى دائمًا في أوَّلِ الطريق. آمين.

الفصل الثاني والثلاثون

تروي كيف أراد الربّ أن ينقلها بالروح الى مكانٍ من جهنّم إستحقّته بخطاياها. تقصّ خلاصةَ ما تمثّل لها هناك. تبدأ الحديثَ عن كيفيّة تأسيسِ دير ماريوسف حيث تقيم حاليًّا

رؤيا جهنّم ومكانَها فيه

١. كان الربّ قد حباني، منذ زمنٍ طويل، كثيرًا من المنن التي تحدّثتُ عنها ومننًا أخرى ساميةً. وإذ كنتُ ذاتَ يومٍ مستغرقةً في التأمّل رأيتُني، فجأةً، دون أن أدري كيف، وكأنني غائصةٌ بكلّيّتي في جهنّم. فهمتُ أنّ الربَّ يُريدني أن أرى المكانَ الذي أعدّه لي الشياطينُ هناك واستَحْقَقتُه، أنا، بخطاياي. دامت الرؤيا طَرفةَ عين، غير أنه يستحيلُ عليَّ، فيما أظنّ، أن أنساها ولو عشتُ طويلاً. كان المدخلُ شبيهًا بزُقاقٍ طويلٍ جدًّا وضيّقٍ، على شكل فرنٍ مُنخفضٍ، مظلمٍ، خانق. وبدتْ لي أَرضُه من وحلٍ قذرٍ جدًّا، نتنةَ الرائحة تعجُّ فيها دُوَيْبات كريهة. وكان في أقصاه تجويفٌ على شكل خزانةٍ محفورٌ في الحائِط أُودِعتُهُ وضُيِّقَ عليّ فيه. كان كلُّ هذا مُتعةً للنظر إذا قورن بما شعرتُ به هناك؛ وليس في قولي مبالغةٌ.

وصف عذاب جهنّم

٢. اما ما عانيتُه، فلا إخال مستطاعًا حتى محاولةَ التعبير عنه، ولا فهمَه. لقد

شعرتُ في نفسي بنارٍ أراني عاجزةً عن تحديدِها أو وصفِها . إن الآلام الجسديَّة التي لا تُحتمَل ، وقد عانيتُ منها في هذه الحياة أخطرَها وأشدَّها ألمًا بشهادة الأطبّاء (كتقلُّص أعصابي جميعًا حين تيبّستْ مفاصِلي إضافةً الى أنواعٍ أخرى كابدتُها كانت ، كما قلتُ ، من صنع الشيطان) ، ليست شيئًا إزاء ما شعرتُ به هناك . مع العلم أنها آلامٌ دائمةٌ مقيمةٌ . فهذه الآلام ليست إذًا بشيءٍ إذا ما قورنت بنزاعِ النفس ؛ إنه ضغطٌ ، واختناقٌ ، وجزعٌ موجعٌ ، وحزنٌ يائسٌ مُمِضٌّ[1] ، لا أحسِنُ التعبيرَ عنه . فقليلٌ القولُ إنهم ينتزِعون نفسَك دون هوادة ، إذ يبدو وكأن آخرَ يقضي على حياتِك ؛ أمّا هنا فالنفس هي التي تمزِّق ذاتَها بذاتِها . الحقيقةُ أنني أعجزِ عن وصفِ تلك النارِ الداخليّة ، وذلك اليأسِ مضافًا إلى عذاباتٍ وآلامٍ خطيرةٍ كهذه . ما كنتُ أرى مَنْ يكبِّدُنيها ، بل إخالني كنت أشعر أنني أحترق وأتفتَّتُ . وأُكرِّر قولي إنّ تلك النارَ وذلك اليأسَ الداخلي شرٌّ ما في الوجود .

٣. في ذلك المكان النتِن ، حيثُ لا أملَ في عزاء ، لا مجالَ للجلوس او الإضطجاع ، ولا فسحةَ ، فقد وضعوني في ما يُشبه ثقبًا محفورًا في الجدار . فهذه الجدران الرهيبةُ المنظرِ هي نفسُها تَضغَطُ ، وكلُّ شيء يَخنُق . لا نورَ هناك بل ظلماتٌ حالكة . وأنا لا أفهم كيف يُرى واضحًا ، على انعدامِ النور ، كلُّ ما يؤذي النظر .

طريقة شعورها بعذاب جهنم

لم يشإ الربّ آنذاك أن أرى من جهنّم أكثر ممّا رأيت . وحصلتْ لي فيما بعد رؤيا شاهدتُ فيها أشياءَ مرعبةً ، وعقوباتِ بعضِ الرذائل . بدتْ لي العذاباتُ رهيبةَ المنظر ، غير أنّي ما شعرتُ بها ، فما أخافتني كثيرًا . أمّا في الرؤيا السابقة فقد أراد الربّ أن أشعر حقًّا ، بالروح ، تلكَ العذاباتِ وذلك الغمَّ كما لو كنتُ أُعانيها بالجسد . لا أدري كيف حدثَ ذلك ، لكنّي أدركتُ جيِّدًا أنها كانت نعمةً كبيرةً ، وأنّ الربَّ أرادَ أن أرى بعينيّ مما أنقذتْني رحمته . فليس شيئًا أن تسمعَ بهذا العذاب وأن تفكِّر

(١) مِن أَمَضَّ أي أَوْجَعَ .

بعذاباتٍ مختلفة (كما فعلتُ ولو أحيانًا قليلةً لأن الخوفَ ما كان سبيلاً مناسبًا لنفسي)، وليس شيئًا نهشُ الشياطين، ولا عذاباتٌ أخرى قرأتُ عنها إزاء هذا العذاب، لأنه شيءٌ آخر. وخلاصةُ القول إنّ الفرقَ بين السّمعِ والواقعِ كالفرقِ بين الصورةِ والحقيقة؛ ولفحُ النار في هذه الدنيا أمرٌ يسيرٌ إزاء نارِ الجحيم.

فائدةُ الرؤيا المرعبة

٤. لقد روّعني المشهدُ ترويعًا فتراني، وأنا أصِفه بعد ستِّ سنواتٍ تقريبًا[٢]، ما زلتُ مذعورةً، وإخالُ الدمَ يجمد في عروقي من الخوف حيث أنا الآن. ولا أتذكّره مرّةً، وأنا أعاني مشقّةً أو آلامًا، إلّا وأعتبرُ لا شيء كلَّ ما نُعانيه في هذه الدنيا، وأَعُدُّ تَشكّينا أحيانًا لا مبرِّرَ له. وأُكرِّر القول، إنْ تلكَ كانت من أكبر ما حباني الربُّ من أنعامٍ لأنها أفادتني فائدةً جمّةً لأطردَ عني الخوفَ من بلايا هذه الحياة ومضايقاتِها، وأُجهدَ في احتمالِها وأداءِ الشكرِ للربّ الذي حرَّرني، كما أرى الآن، من عذاباتٍ رهيبةٍ أبديّةٍ كهذه العذابات.

٥. ومذ ذاك، صرتُ أعدُّ كُلَّ شيءٍ يسيرًا إزاء لحظةٍ ممّا احتملتُه هناك. ويُصيبني الذهولُ من أنني، على كثرةِ ما قرأتُ من كتبٍ تُوضِح بعضَ الإيضاح عذاباتِ جهنّم، ما كنتُ أخشاها او أُكوِّنُ فكرةً عنها. فأينَ كنتُ؟ كيف كان لي أن أستنشِقَ نسيمَ الراحةِ ممّا كان يُوردُني هذا الموردَ المشؤوم؟ تباركتَ، إلهي، الى الأبد! لَكَمْ أفصحتَ، يا إلهي، عن حُبِّك إيّايَ بما يفوقُ كثيرًا حبّي ذاتي! لكم حرّرْتَني، ربّي، من هذا السجنِ الحالِكِ الظلام فكنتُ أعودُ أُدخلُه خِلافًا لإرادتك.

شفقة على الهالكين وغيرةٌ على خلاص النفوس

٦. إنفطرَ قلبي من تلك الرؤيا شفقةً على النفوسِ العديدة الهالكة (خصوصًا

---

(٢) يُحتمَل أن تكونَ حصلتْ لها رؤيا الجحيم هذه في أوائل سنة ١٥٦٠ باعتبار أن القديسة كتبت هذا في أواخر سنة ١٥٦٥.

نفوسِ اللوثيريين لأنهم كانوا ، بالعماد ، أعضاءَ الكنيسة) ، وكسبتُ اندفاعًا شديدًا لفائدة النفوس ؛ فأنا على يقينٍ من أنني مستعدّةٌ ، عن طيبةِ خاطر ، لتكبُّد ميتاتٍ عديدةٍ لأنقذَ نفسًا واحدةً من تلك العذاباتِ المريعة. في اعتقادي إذا عرفنا أنّ شخصًا على الأرضِ نُحِبُّه حبًّا خاصًا يُعاني مشقّةً أو ألمًا ، فإن طبعَنا نفسَه ، فيما أظنّ ، يدعونا لأن نُشفِقَ عليه ، وإذا كان ألمُه كبيرًا فإنه يؤلِمُنا. فمن تُراه يطيقُ أن يرى نفسًا تعاني الى الأبد مشقّاتٍ ما بعدها مشقّات؟ لا قلب إلّا ويتوجّع لذلك أيَّ وجع. إذا كان العذابُ في هذه الدنيا ، على معرفتِنا أنه ينتهي بانتهاء الحياة وأنه ، بالتالي ، محدودُ الأجل ، يحرِّكُ فينا العطفَ والشفقةَ ، فلا أدري كيف يهدأُ بالُنا إذ نرى الشيطانَ يجرُّ العديدَ من النفوس معه كلَّ يومٍ الى العذاب الآخر ، وهو عذابٌ مقيم.

حثٌّ على العمل

٧. هذا أيضًا يجعلُني أتمنّى ، في قضيّةٍ مهمةٍ كهذه ، أن لا نرضى بأن نعملَ دون طاقتِنا القصوى. فلا نُهملنّ شيئًا ، وعسى الربُّ يَتنازَلُ ويُعطينا النعمةَ لذلك. أنظرُ الى ما كنتُ عليه فأرى أنّي ، على شدّةِ رداءتي ، كنتُ أهتمّ أحيانًا بأن أخدمَ الله ، وأن أجتنبَ أمورًا يفعلُها الناسُ وكأن شيئًا لم يكن ، وكنتُ أحتمِلُ أمراضًا فادحةً بصبرٍ كبيرٍ يُؤتينيه الرب. ما كنتُ أتضجَّر ، ولا أذكرُ أحدًا بسوء ؛ وما كان باستطاعتي ، فيما أظنّ ، أن أتمنّى الأذى لأَحد ؛ ما كنتُ طمّاعةً وما ساورني حسدٌ قط ، فيما أذكر ، يشكِّل إهانةً جسيمةً للرب ؛ وكان بي بعضُ صفاتٍ أخرَى. وعلى بؤسي وحقارتي ، كانت مخافةُ الرب تلازمني. ومع هذا كلِّه ، فقد رأيتُ المكانَ الذي أَعدَّه لي الشياطين. في الحقيقة كنتُ أستحق على ذنوبي ، في ظنّي ، عِقابًا أشدّ. ورغم كلِّ شيء ، أقول إنه كان عذابًا مروِّعًا ، وإنه لأمرٌ خطيرٌ أن نُرضيَ ذاتَنا ، وأن نستريحَ وتُسَرَّ نفسٌ تسقطُ لدى كلّ خُطوةٍ في الخطيئة المميتة. فلنتجنّب الظروفَ الخَطِرة ، حبًّا بالله ، والربُّ يساعِدُنا كما ساعدني. عسى الله ، عزّ وجلّ ، لا يُرخي بي يدَه فلا أعودُ الى السقوط ، لأنّي شاهدتُ أين ينتهْي بي المطاف. لا سمحَ الربُّ بذلك ، إكرامًا لجلالِه ، هو. آمين.

هاجس التكفير

٨. بعد أن شاهدتُ ما شاهدتُ وأُمورًا أخرى عظيمةً وسرِّيَّةً أراد الرب ، بجودِه ، أن يكشِفَها لي عن المجدِ الذي يناله الأبرارُ والعِقابِ الذي يَنزِلُ بالأشرار ، كان هاجسي أن أجدَ طريقةً ووسيلةً لأستطيعَ التكفيرَ عن هذه الشرور الكثيرة وأستحقَّ أن أنال هذا الخيرَ العظيم. كنت أبتغي الهرب من الناس ، وأنتهي من ابتعادي عن العالم ابتعادًا نهائيًّا. ما كان روحي ليسكُنَ ، وما كان انشغالُه قَلِقًا ، بل عذبًا. كان يُرى واضحًا أنه من الله وأنه ، عزّ وجلّ ، أعطى النفسَ حرارةً لِتَهضِمَ أطعمةً أثقلَ ممّا كانت تأكل.

وصف سيرة راهبات دير التجسّد

٩. كنتُ أتساءل حول ما أستطيع أن أصنع حبًّا بالله ، فارتأيتُ أنَّ واجبي الأوَّل تلبيةُ دعوته ، عزّ وجلّ ، إياي الى الرهبنة وذلك بحِفظي القانونَ على أكمل وجهٍ أستطيعه. كان في الدير الذي أسكنه العديدُ من خادماتِ الله يعملْن له بأمانة ، إلّا أنَّ الفقرَ المدقِعَ كان يدفع الراهباتِ لأن يَمضِين غالبًا الى أماكِنَ نستطيعُ العيشَ فيها باستقامةٍ وتقوى. وما كان القانونُ ساريًا في صرامتِه الأولى ، بل كان يُطَبَّق كما في الرهبنة كلِّها ، وِفقًا لبراءةِ التلطيف البابويّة(٣). ومن المساوِئ في رأيي ، أني كنتُ أعيشُ في رفاهيَّةٍ لأنَّ الدير فسيحٌ وممتِعٌ. إلّا أن الخروجَ من الدير على إكثاري من الإلتجاء إليه ، كان بالنسبة لي سيِّئةً كبيرة ؛ فإنّ أشخاصًا ، ما كان للرؤساء أن يَرُدّوا طلبَهم ، كانوا يرغَبون في أن أكونَ بصُحبتِهم ؛ وبناءً على لحاجتِهم ، كان الرؤساءُ يأمرونني بالخروج. وحسبَما كانت الأمورُ تَترتَّب ، كان يُمكن أن لا أعيشَ في الدير إلّا قليلاً ، لأنّ الشيطانَ كان يساعد كيلا أمكثَ فيه لأنني كنتُ أُطلِع بعضَ الراهبات على توجيهاتِ مرشدِيَّ لي فيستفِدْنَ فائدةً كبيرةً.

---

(٣) إشارة الى براءةِ البابا أوجانيوس الرابع ، الحَبرِ الروماني ، الصادرة في ١٥ شباط ١٤٣٢ والتي سمحت للكرملِّيين بتلطيف صرامةِ القانون الكرملي الأول ، بسبب انتشار الأوبئة والطاعون.

فكرة تأسيس ديرٍ جديد

١٠. إتّفقَ أنْ كنتُ مرَّةً مع شخصٍ[٤] فسألني وبعضَ رفيقاتي إذا لم يخطُر ببالنا أن نعيشَ على طريقةِ الراهبات الحافيات[٥]، وقال إنّ تأسيسَ ديرٍ لهذه الغاية ما زال ممكنًا. ولما كانت هذه الأمنية تُراودني، بدأتُ أبحثُ الموضوعَ مع تلك السيِّدة، رفيقتي الأرملة، التي ذكرتُ أنها كانت تملك الرغبةَ نفسَها. فبدأتْ مساعِيَها لتأمين الموارِد. وأرى الآن أن الحظّ في النجاح كان ضئيلاً، لكنّ رغبتَنا كانت تصوِّر لنا النجاحَ مضمونًا. اما أنا فكنتُ شخصيًّا، متردِّدةً، إذ كنت أجدني سعيدةً جدًّا في الدير[٦] الذي أسكن، فقد كان يناسِب ذوقي كما كانت الحجرةُ التي أشغلها تلائمني. ومع هذا، إتفقنا ان نُوكِل الأمر الى الله.

أمرُ الربِّ بتأسيس الدير

١١. ذاتَ يومٍ، بعدَ المناولة، أمرني الربُّ أن أسعى بكلِّ قوايَ لتنفيذ المشروع، مؤكِّدًا أنّ الديرَ سينشأُ لا محالة، وأنه تعالى، سيكونُ مكرَّمًا فيه، وطلبَ أن يُجعلَ على اسمِ القديس يوسف فيَحفظَ أحدَ مَدخليْه وتَحفظ السيِّدةُ العذراء المدخلَ الآخر، ويقيمُ المسيحُ بيننا فيكونُ الدير نجمًا يَشعُّ نورُه ساطعًا. وقال أيضًا: ولئن أصابَ الرهبانيات التراخي، فلا أتصوّرنّ أنه يَلْقَى فيها تكريمًا ضئيلاً. فما كان ليحصُلَ للعالم لولا الرهبان؟ وطلب إليَّ الربُّ أن أُطلِعَ معرِّفي على ما يأمرني به وأنه، هو، تعالى، يسأله ألّا يناهضَ المشروعَ ولا يضَعَ في وجهي العراقيل.

---

(٤) أما الشخص، فهي ماريا دي أوكامبو، من نسيبات القديسة، وكانت من أوائل من ترهَّبنَ في دير القديس يوسف. وأما «الرفيقات»، فكّن كلُّهنّ تقريبًا من أقرباء القديسة، بعضُهن كرمليات والباقي عِلمانيات، وكنّ يعقدِن معها إجتماعاتٍ روحيّةً في دير التجسّد.

(٥) «الحافيات» اللواتي اقترحتْ إتّباع حياتهن ماريا دي أوكامبو هنّ المدعوات «الحافيات الملكيات» في مدريد، وقد أسّستْ طريقتَهنّ الأميرةُ خوانا أختُ الملك فيليب الثاني واتّبعن توجيهاتِ القديس بدرو دي ألقنطرة.

(٦) دير التجسّد.

تردّدها وتكرار أمر الربّ

١٢. صحب هذه الرؤيا مفاعيلُ عظيمةٌ، وأثّر فيّ خطابُ الربِّ تأثيرًا ما كنت أستطيعُ أن أشكَّ معه في أنه، هو، تعالى. شعرتُ بحزنٍ كبيرٍ؛ فقد تمثّلتْ لي المشقّاتُ العظيمةُ والقلقُ التي سيكلِّفنيها المشروع، بينما كنت سعيدةً جدًّا في ذلك الدير. ولئِن كنتُ قد بحثتُ المشروعَ قبلاً إلّا أنَّ عزمي عليه لم يكن قاطعًا ولا كنتُ واثقةً من تحقيقِه. أما هنا[٧]، فقد شعرتُ بإلحاحٍ عليّ، ورأيتُ أنّ الموضوعَ بدأ يُثير فيّ قلقًا كبيرًا، فاحترتُ في ما عليّ أن أعمل. غير أنّ الربَ عاد فحدّثني عن الأمر مرارًا وقدّم لي براهينَ وحججًا عديدةً كنت أراها واضحةً فأرى فيها إرادتَه حتى إني ما تجرّأتُ من بعدِها إلّا على إطْلاعِ معرِّفي على الموضوع؛ فعرضتُ له كتابةً[٨] كلَّ ما كان يحصل.

تداول الموضوع مع المرشدين والمسؤولين

١٣. ما جَرُؤَ معرِّفي على أن يجزِم فيطلب إليّ العدولَ عن المشروع، لكنّه ما كان يرى سبيلاً طبيعيًّا لتحقيقه لأنّ صديقتي التي كان يقعُ عليها تنفيذُه كانت إمكاناتُها قليلةً، بل معدومةً تقريبًا. فأوصاني أن أبحث الأمر مع رئيسي وأن أفعلَ ما يقرِّر. أما أنا، فما كنت أتداول والرئيسَ هذه الرؤى، بل إن تلك السيِّدة عرضتْ عليه رغبتَها ببناء هذا الدير، فحبَّذَ الرئيسُ الإقليمي[٩] الفكرةَ، وهو من مشجِّعي الحياةِ الرهبانية، ووفّر لها التأييدَ اللازم وقال لها إنه يقبلُ رعايةَ الدير. فبحثنا مسألةَ الدَخل اللازم. ما كنّا نريد قطّ، لأسبابٍ عديدةٍ، أن يتجاوزَ عددُ الراهباتِ ثلاثَ عشرة.

وقبل البدءِ بالتفاوض كتبنا الى الراهب القديس پدرو دي ألقنطره بالموضوع مفصَّلاً، فنصحنا ألّا نتخلّى عن المشروع وأبدى لنا رأيَه في كلِّ شيء.

---

(٧) أي إثر سماعها كلام الربّ.
(٨) المعرّف هو الأب بلطسار الڤاريث اليسوعي، لكن الرسالة لم تصل الينا.
(٩) الأب أنْخِل دي سالاثار وصار رئيسًا اقليميًا سنة ١٥٦٠.

موجة اضطهاد ومعارضة المشروع

١٤. ما إن بدأ الخبرُ يَشيع في المدينة حتى شُنَّ علينا اضطهادٌ كبيرٌ لا يُمكن وصفُه باختصار، ولا وصفُ الأقاويلِ والتهكُّم علينا والقول إنَّ المشروعَ ضربٌ من الغباء. أمّا أنا فكانوا يقولون عنّي: خيرٌ لي أن أبقى في ديري، وأما رفيقتي فلاحقَها الإضطهادُ حتى أنهكَها. وكنتُ في حَيْرةٍ من أمري، فقد بدا لي أنهم مُحِقُّون بعض الحقّ. وإذ كنت مرهقةً ومُسَلِّمة أمري الى الله، بدأ، عزّ وجلّ، يعزّيني ويشجّعني. وقال لي إنني، من خلال ما سيحصُل، سأعرف ما قاساه القديسون مؤسسو الرهبانيات، وأنْ سوفَ أُعاني إضطهادًا يتجاوزُ بقُوَّته ما يُمكنني تصوُّره. لكن ليس علينا أن نقلق. وقال لي أمورًا طلبَ إليَّ أن أكشفَها لصديقتي. وأكثرُ ما أذهلني أننا كنّا نشعرُ بارتياحٍ لما جرى، وبعزمٍ لمقاومةِ الجميع. والواقع أن لم يبقَ أحدٌ ممن يمارسون التأمل ومن سكّان المدينة كلِّها إلاّ وناصبَنا الخصومةَ واعتبر المشروعَ حماقةً كبرى.

عدول الرئيس الاقليمي عن دعمه

١٥. وبلغت الأقاويلُ واللغطُ، في الدير الذي أسكن، حدًّا جعلَ الرئيسَ الاقليمي يستصعب مقاومةَ الجميع، فعاد عن رأيه وعدلَ عن موافقته. قال إن الإيراد ليس مضمونًا، وهو قليل، والمعارضةُ شديدة. ويبدو أنه كان مُصيبًا في آرائه جميعًا، فأهملَ الموضوع ولم يوافِق على المشروع. أما نحن، وكنا نخال أنفسنا تلقَّينا الصدماتِ الأولى، فقد أورثَنا الأمرُ غمًّا كبيرًا، وحزِنتُ شخصيًّا، بنوعٍ خاص، لمعارضة الرئيس الاقليمي لأن موافقتَه كانت لِتُبَرِّئني أمام الجميع. وأما صديقتي، فقد رفضوا إعطاءها الحَلَّة ما لم تتخلَّ عن المشروع محتجِّين بأن عليها أن تُزيلَ الشكّ.

إستشارة عالِمٍ كبير

١٦. فذهبَتْ الى عالِمٍ كبير(١٠) وخادمٍ لله أمينٍ من رهبانية مار عبد الأحد

(١٠) الأب بدور أيبانييث، وهو الذي أمر القديسة بكتابة سيرة حياتها.

تروي له الأمرَ وتُطلعه على كلِّ شيء. وإنما قصدتْه قبل رفضِ الرئيس الإقليمي، لأنه لم يكن لدينا في المدينة كلِّها من يمحَضُنا النُصحَ، فكان الناسُ يقولون إننا نتصرّف على هوانا. فعرضتْ هذه السيِّدة على هذا الرجل القديس تقريرًا شاملاً وبيانًا عن إيراد أملاكِها مُعربةً عن رغبةٍ كبيرة في الحصول على مساعدته لأنه كان أكبر العلماء في المدينة الى جانب قِلَّةٍ غيره من رهبانيته. وأنا، بدوري، عرضتُ له كلَّ ما ننوي عملَه والدوافعَ اليه. لم أقصّ عليه شيئًا من أمر الظهورات بل بسطتُ البواعثَ الطبيعيَّة التي كانت تدفعُني، لأنني كنت أودّ أن يكونَ نصحَه مستندًا إليها فحسب. فاستمهلَنا ثمانيةَ أيّامٍ للإجابة وسألنا ما إذا كنا مصمِّمتَين على العمل بمشورتِه. فأجبتُه بالإيجاب. وبالرغم من جوابي هذا واستعدادي لتنفيذه، فيما أظن (لأنني لم أكن أرى سبيلاً آنذاك لتنفيذ المشروع)، فلم يكن يفارقُني اليقينُ أبدًا بأنه سيتحقّق. وكانت صديقتي أرسخَ إيمانًا، فإنها ما كانت لتعزِمَ أبدًا على الإقلاع عنه مهما قيل لها.

إصرار على التنفيذ واستعدادٌ للطاعة

١٧. أما أنا، كما قلت، فكنت أرى من المستحيل إهمالَ المشروع، كما إني أعتقد اعتقادًا ثابتًا بصِحَّة الإيحاءِ ما دام لا يناقِض مضمونَ الكتاب المقدس أو سُنُنَ الكنيسة التي علينا التقيُّدُ بها. ومع أنه كان يبدو لي حقًّا أنّ هذا الإيحاءَ من الله، فلو قال لي ذلك العالِمُ إننا لا نستطيع تنفيذَ المشروع دون أن نُهينَه، تعالى، وإننا نعمل بخلافِ ما يُملي علينا الضمير، لأقلعتُ عن الفِكرة حالاً أو بحثتُ عن وسيلةٍ أخرى، إلّا أنّ الربَّ لم يعطِني سوى هذه الوسيلة.

موافقة العالِم الكبير

وقال لي خادمُ الله هذا، فيما بعد، إنه كان قد عقدَ العزمَ بكلِّ تصميمٍ على صرفِنا عن المشروع، إذ كان قد بلغَه صخبُ الشعب ورأى، مثله مثل الجميع، أنّ المشروع ضربٌ من الحماقة، وإنَّ أحدَ الأشراف حين عرف أنّنا ذهبنا إليه، أرسل يحذِّرُه ممّا يَفعل ومن أن يساعدَنا، وإنه حين شرعَ يتبصَّر في ما يُجيبنا به، ويتأمل في

الموضوعِ وفي مقصدِنا منه وطريقةِ تنظيمِ الرهبنة، تيَقَّنَ أنّ مشروعَنا يؤول الى خدمة الله خِدمةً جُلّى وأنه لا يجب التقاعسُ عن تحقيقه. فكان جوابُه، اذًا، بأن نسرِعَ في تنفيذِه، وأوضحَ لنا الطريقةَ والوسائلَ التي يجبُ اعتمادُها؛ ومع أن المواردَ كانت ضئيلةً فعلينا أن نعتمدَ ولو قليلاً على الله. وقال لنا أيضًا أن نرسلَ إليه كلَّ مَن يعارضُ المشروعَ وهو يتكلَّف الردَّ عليه. ولقد ساعدَنا دائمًا، كما سأروي فيما بعد.

بدءُ التنفيذ

١٨. تعزَّينا أيَّ تعزيةٍ بهذا الجواب، وبأنّ بعضَ الأتقياء ممّن اعتادوا مناهضَتنا هدأتْ معارضتُهم، بل إنَّ بعضَهم ساعدونا، وكان من عدادِهم ذلك الشريفُ التقيُّ الذي أشرتُ اليه[١١]. فهو لِوَرَعِه، ولأن مشروعَنا بدا له يخطّ طريقًا الى كمالٍ رفيع، لأننا نركِّز على التأمل أساسًا، ومع أنه رأى الوسائلَ صعبةَ المنال ولا تؤدِّي الى الغاية، كان يُخضِعُ رأيه معتبرًا أنّ الله قد يكون وراءَ المشروع وأنّ الربَّ نفسه يهتمُّ به. فأقنع «المعلِّمَ»[١٢]، أي ذاك الكاهنَ خادمَ الله الذي كان أولَ من باحثتُه في الموضوع، وهو مرآةُ الفضيلة للمدينةِ كلِّها، وقد جعلَه الله فيها لعلاجِ نفوسٍ كثيرةٍ وفائدتِها. فراح منذئذٍ يساعدني في المشروع. وبلغْنا هذا الحدَّ تساعدُنا صلواتُ الكثيرين المستمرَّة، واشترينا البيتَ القائمَ في موقعٍ حسنٍ ولو أنه صغير. ما كان يَهمُّني كونُه صغيرًا فإنّ الربّ كان قد قال لي بأن أبدأ كما يتيسَّر لي فأرى فيما بعد ماذا يفعل، هو، عزّ وجلّ. وما أروعَ ما رأيت! وهكذا على ضآلة الرَيع، كنتُ على يقينٍ من أن الربّ سيرتِّب الأمر ويساعدنا بوسائل أخرى.

---

(١١) فرنثيسكو دي سالثيدو.

(١٢) غسبار داثا.

الفصل الثالث والثلاثون

تواصل الكلام على تأسيس دير القديس يوسف المجيد. تروي كيف أُمرتْ بأن تكفَّ عن المشروع والوقتَ الذي انقطعت فيه عنه، والمحنَ التي عانت، وكيف كان الربّ يعزّيها

أمرٌ بالكفّ عن المشروع

١. كانت الشؤون على هذه الحال، وقد أشرفتْ على نهايتها، وكنّا نستعدّ لتوقيعِ العقدِ في الغد، حين عدلَ الرئيسُ الإقليمي عن رأيه. أظنه حُمِلَ على ذلك بأمرٍ إلهيّ كما ظهر فيما بعد. لمّا كانت الصلواتُ كثيرةً جدًّا، كان الربُّ يعمل على تكميل المشروع ويرتّب تنفيذَه بشكلٍ آخر. فإذ رفض الرئيس الاقليمي الموافقة، أمرَني معرِّفي أن أنقطعَ عن الاهتمام بالمشروع؛ ويعلم الرب المحنَ والعذاباتِ التي كنتُ قد عانيتُ حتى بلغتُ به الى تلك المرحلة. فلمّا أُهمِلَ عند هذا الحدّ ثَبتَ أن الأمرَ حماقةُ نساء، وازدادت الأقاويل عليّ، رغم أني عمِلتُ بأمر الرئيس الإقليمي الى ذلك الحين.

بلبلة بين راهبات الدير

٢. كان يُنظَرُ إليَّ شزرًا في ديري لأنني كنت أودُّ أن أُنشئَ ديرًا أشدّ تحصُّنًا. كانت الراهبات يَقُلْنَ إنني أهينهنّ، ففي ديري أستطيع أيضًا أن أخدم الله لأن فيه

راهباتٍ خيرًا مني ، وإنني لست أُحِب ذلك الدير ، لأنه من الأفضل أن أُوفِّر له ريعًا لا لغيره. كان البعضُ يطلبن زجّي في السجن ، والبعض الآخر ، وهنّ قِلّة ، كنّ يدافعن عنّي قليلاً. وكنت أرى جليًّا أنّهنّ على حق في أمورٍ كثيرةٍ ، كما كنتُ أكشِف لهنَّ أفكاري أحيانًا ، لكنّي ما كنت أستطيعُ أن أفصِحَ لهنَّ عن أهمّ ما في الموضوعِ ، وهو أمرُ الربِّ لي ، فأحار في أمري وألزم الصمت. كان الرب يمنحني نعمةً كبيرةً بأن لا أشعرَ بأيِّ قلقٍ من جرّاءِ كلِّ هذا ، بل تخلّيتُ عن المشروع بارتياحٍ وسرور كبيرَين كأنه لم يكلِّفني شيئًا. وما كان أحدٌ ليصدِّقَ ذلك ، ولا ممارسو التأمل أنفسهم الذين كنت أتعاطى وإيّاهم ، بل كانوا يَتصوّرونني حزينةً مهمومةً ، حتى إن معرِّفي نفسَه ما كان يستطيع التصديق. ولمّا كنت أحسَبني عملتُ كلَّ ما أستطيع ، ما كنت أعتبرني مُلزمةً بأكثر مما أمرني به الرب ، فلزمتُ الديرَ الذي أسكنُ مسرورةً ، وعلى هواي. ومع أني ما كنت أستطيعُ الكفَّ أبدًا عن الاعتقاد بضرورة تنفيذ المشروعِ ، فما كنتُ أرى الوسيلة ، ولا أعرف كيف أو متى. إلّا أنّي كنتُ على يقينٍ من أنه سيتحقّق.

توبيخُ المعرِّف لها وغمُّها

٣. لقد أشجاني ذاتَ يومٍ كثيرًا معرِّفي – وهو مَن كنتُ أنتظر منه عزاءً في زحمة الاضطهادات هذه ؛ فكأنَّ الربَّ أيضًا كان يريد أن لا تفوتني المحنةُ من حيث كان يأتيني الألمُ الأشدّ – حين كتبَ إليَّ يقول ، وكأنّني خالفتُ إرادتَه بشيءٍ ، إنني سأرى أنَّ كلَّ ما حصل كان حُلمًا ، وإنَّ عليّ ، من الآن وصاعدًا ، أن أُصلحَ نفسي ولا أسعى الى تحقيق أيِّ شيءٍ ، أو أتحدّثَ بهذا الموضوع ، لأنني أرى العثارَ الذي حصل ؛ وقال لي أمورًا أخرى تثير كلُّها الهمّ. لقد سبّب لي كتابُه غمًّا يفوقُ ما سبّبته لي مواقفُ الآخرين مجتمعين ، إذ خِلتُني كنتُ مدعاةً لإهانتِه ، تعالى ، وأتيتُ بذلك ذنبًا ؛ ودارَ في خُلدي أنه إذا كانت تلك الرؤى أوهامًا فإنّ تأمّلي كلَّه كان خِداعًا ، وأنا أسيرُ تائهةً في ضلال. وقد أضنكني هذا الوضعُ الى أقصى حدٍّ حتى لفَّني الاضطراب وغمرني الحزن. إلّا أنَّ الربَّ الذي ما تركني قطُّ ، بل غالبًا ما عزّاني وشجَّعني في جميع المِحن التي رويتُ ، ولا داعي للكلام على ذلك هنا ، قال لي حينذاك أنْ لا أغتمَّ لأني قد خدمتُ الله كثيرًا في هذه القضيّة وما أغظتُه ؛ وطلبَ إليّ

أن أعملَ ما أمرني به معرِّفي ، أي أنْ ألزمَ الصمتَ حتى يأتيَ الوقتُ المناسبُ لمعاودة العمل. فتعزَّيتُ كثيرًا وارتحتُ أيَّ ارتياح حتى عددتُ كَلاَ شيءٍ كلَّ ما تراكمَ عليَّ من اضطهاد.

فائدة المحن

٤. لقد علَّمني الربّ آنذاك قَدْرَ الخير العظيم الذي نجتنيه من تحمُّل المحن والاضطهادات حبًّا به ؛ فقد عَظُمَ حبُّ الله في نفسي ، وأمورٌ أخرى عديدة ، حتّى أصابني الذهول. وهذا ما يجعلُني لا أقوى على عدم تمنّي المشقّات. وظنَّ الآخرون أنني خُولطتُ في عقلي ؛ والحقُّ أنَّ عقلي كان اختلط لو لم يمنحْني الربّ الى أقصى حدّ نعمةً كهذه عظيمةً. فبدأَتْ اذ ذاك إندفاعاتُ حبٍّ الله التي تحدّثتُ عنها تنتابني بقوَّةٍ أشدّ ، وتوالت الانخطافاتُ أقوى ، ولو أنّني كنت ألزمُ الصمتَ فلا أحدِّث أحدًا عن هذه المكاسب. وما كان الراهب الدومينكي القديس ينفكُّ عن الاعتقاد مثلي إعتقادًا ثابتًا بأنَّ المشروع سيتحقَّق ؛ ولأنّي ما كنت أريدُ الاهتمامَ بالمشروع حتى لا أخالف أمرَ معرّفي ، فقد كان ، هو ، يفاوض صديقتي فيكتبان معًا الى روما ويلاحِقان المعاملات.

ثقتها بالله وتإثيرُها على مرشدها

٥. وبدأَ الشيطانُ إذ ذاك أيضًا ينقلُ الخبرَ من شخصٍ الى آخر بأنّي رأيتُ رؤيا في شأن المشروع ، فكان هؤلاء يَفِدون إليّ مذعورين ويقولون إنّ الزمنَ عصيبٌ ، وقد تُرفَعُ بحقّي شكوى الى المفتِّشين[1] . فأثارَ ذلك هُزئي وأضحكني لأنّني ما خفتُ

---

(١) محاكم التفتيش التي شجَّعها في القرن السادس عشر الملك شارل الأول ، أو شارلكان ، ثم فيليب الثاني ، كانت مهمّتُها المحافظةَ على وحدة العقيدة وصحّتِها. فاستأصلتْ أولاً بعضَ الجماعات اللوثيرية. وحين ازدهرت الحركاتُ الروحية من زُهدية وصوفية ، طاردت المؤلفات المتطرِّفة ، كما لاحقت المُنَوَّرين الذين كانوا يُخفون رذائِلَهم تحت مظاهر من الورع ، ولاحقت مدّعي الرؤى والنبوّات ، حتى انتهى أمرهم في أواخر القرن.

أن أجدَني قطّ في هذا الوضع ، ليقيني بأنّي أقبلُ الموتَ ألفَ مرَّةٍ ولا أرضى بأن أخالفَ أبسطَ قواعدِ الإيمان التي تعلِنُها الكنيسة ، أو حقيقةً من حقائق الكتاب المقدّس . وقلتُ لهؤلاء ألّا يخافوا ، لأنه يكون شرٌّ عظيمٌ لنفسي لو وُجدَ فيها ما يجعلني أخافُ ديوانَ التفتيش ؛ فلو رأيتُ داعيًا لذلك لذهبتُ الى الديوان بنفسي ؛ وإذا رُفعتْ دعوى بحقّي ، فإنّ الربّ يحرِّرني وأُحقِّق مكسبًا . وبحثتُ الأمر مع أبي الروحي ، هذا الدومنيكي الذي ، كما قلتُ ، كان عالِمًا كبيرًا فيمكنه أن يطمئِنَني بكلامِه ، فرويتُ له عندئذٍ كلَّ الرؤى التي حصلَتْ لي وأطلعتُه ، بأقصى ما استطعت من الإيضاح ، على طريقتي في التأمّل وعلى المنن الكبيرة التي نفحَني بها الربّ ، ورجوتُه ان يتفحَّص الأمرَ ويُعلِمَني إنْ كان ثمَّة ما يخالِفَ الكتابَ المقدس ، ويُبديَ لي رأيَه في كلِّ شيء . فطمأنني كثيرًا وجنى ، هو ، فيما أظنّ ، فائدةً لأنه ، وإن كان كثيرَ الصلاح ، فقد نذرَ نفسَه ، مذ ذاك ، للتأمُّل ، وانعزل في أحدِ أديار رهبانيته حيث تتوفَّر خلوةٌ تامّةٌ ليحبس نفسَه على ممارسته . بقي هناك أكثرَ من سنتين حتى نقلتْه الطاعةُ ، على أسفٍ منه كبيرٍ ، لحاجتِهم الى شخصٍ بهذه الكفاءات .

عزاء بالخبرة الروحية

٦. أسِفتُ كثيرًا لذهابه ، لحاجتي الماسّة اليه ، إلَّا أنّي لم أضع لذلك عائقًا . لكني عرفتُ المكسب الذي يجنيه ؛ فإنني كنت يومًا مهمومةً جدًّا لذهابه فقال لي الربّ أن لا اغتمَّ بل أن أتعزّى لأنه يسير في طريق سديد . وعندما رجعَ ، كانت نفسُه على درجةٍ من الكمال ومن التقدّم الروحي حتى إنه قال لي إنه ما كان ليتخلّف عن الذهاب الى هناك مهما كان السبب . وكان بإمكاني أن أقولَ القولَ عينه . فإذا كان قبلاً يُطَمئِنُني ويعزِّيني بعلمِه فقط ، فهو يفعلُ هذا الآن بخبرتِه الروحيّة وهي مفعمةٌ بأمورٍ فائقةِ الطبيعة . وقد إستقدَمه الرب في الوقت المناسب لأنّه ، عزّ وجلّ ، إعتبرَه ضروريًّا للمساعدة في إنشاء هذا الدير الذي أراده ، تعالى ، أن يتحقّق .

تبدّل الرئيس اليسوعي بدّلَ الموقف

٧. ولازمتُ الصمتَ خمسةَ أشهرٍ أو ستّة لا أهتمّ بالمشروع ولا أتحدّث عنه، وما أمرني الرب قط أن أفعل. ما كنتُ أدري لذلك سببًا، لكن لم أكن أستطيع أن أنزع من رأسي الفكرةَ بأنَّ المشروع يجب أن يتحقّق. وفي نهاية هذه المدة، غادرَ المدينةَ رئيسُ الجمعية اليسوعية، فأوفدَ، عزّ وجلّ، رئيسًا[٢] آخر عميقَ الروحانية، مِقدامًا، سديدَ الرأي، علاّمة، في وقتٍ كنت أشعر فيه بضيقٍ خانقٍ؛ فمعلّم اعترافي كان له رئيسٌ – واليسوعيون إنما يتصرّفون وفقًا لإرادة الرئيس ويمتازون الى أقصى حدٍّ بممارسة هذه الفضيلة –، وهو وإن كان يعرف روحي معرفةً حقًّا ويرغب في أن أتقدَّم في الكمال، ما كان يجرؤُ على أن يجزِم في بعض الأمور لأسبابٍ عديدة تخصُّه؛ أمّا روحي فكان يتوثّب باندفاعاتٍ قويّةٍ جدًّا أتعذّب معها إذ أُبقيه مقيَّدًا. ومع هذا فما كنت أخرج على ما يأمرني به.

عزاؤها بقدوم الرئيس الجديد

٨. كنت ذات يومٍ حزينةً جدًّا لتصوُّري أنّ معرِّفي لا يصدِّقني، فقال لي الربّ أنْ لا أَغتمَّ لأنّ ذاك العناء سينتهي عاجلاً. فرحتُ فرحًا كبيرًا إذ حسبتُني سأموتُ عمّا قريب، وكنت أشعرُ بسرورٍ عظيمٍ حين أتذكّر الأمر. ثم أدركتُ جليًّا أن المقصودَ هو مجيءُ الرئيس الذي ذكرت، لأنّ ذلك الغمَّ لم يعاودْني البتة؛ فالرئيس الجديد لم يكن يقصِّر يدَ المدبِّر الذي كان معرّفي، بل كان يقول له بأن يعزّيَني، وأن لا شيء يدعو الى الخوف، وأن لا يقودَني في سبيلٍ ضيّقٍ كهذا بل أن يدعَ روحَ الرب يعمل. وبسبب اندفاعاتِ الروح القوية هذه، كنت إخال نفسي عاجزةً عن تنشّق الهواء.

---

(٢) الرئيس الذي غادر هو الأب ديونيسيو ڤاثكيث. وحلّ محلّه الأب غسبار دي سالاثار في نيسان سنة ١٥٦١.

فرحٌ كبير بلقاء الرئيس

٩. جاءني هذا الرئيس زائرًا وأمرني معرِّفي أن أخاطِبه بحريَّةٍ كاملة ووضوحٍ تام. أمّا أنا فكنتُ أتضايق كثيرًا من عرض هذه الأمور. وإذ كنت أدخل كرسيَّ الاعتراف شعرتُ في روحي بشيءٍ لا أدري ما هو، ولا أذكر أنني شعرت به تجاه أحدٍ من قبل أو من بعد، ولا أستطيعُ أن أصف كيف حدثَ لي ولو عن طريق التشبيه. فقد كان فرحًا روحيًّا وأدركتْ نفسي أن تلك النفس ستفهمها وتتّفق معها ولو أنّني، كما قلت، لا أعرف كيف. فلو كنت حادثْته او لو رُويتْ لي أخبارٌ طيّبةٌ جدًّا عنه لما كان عجيبًا أن أبتهجَ بأنه سيفهمني. ولكنّنا لم نكن قد تبادلنا، هو وأنا، كلمةً واحدة، ولم أكن أعرف عنه شيئًا من قبل. ورأيتُ من بعد أنّ روحي لم ينخدع، لأنّ تداولي معه أجداني وأجدى نفسي نفعًا جزيلاً من جميع النواحي، لأن إرشادَه ملائمٌ جدًّا لأشخاصٍ أوصلَهم الربّ بعيدًا في طريق الكمال، فإنه يحمِلُها على الركض لا على أن تمشي خُطوةً خُطوةً. ويهدفُ نهجُه الى أن يتجرَّدوا عن كلِّ شيءٍ ويمارِسوا الإماتات، وقد آتاه الرب في هذا المجال، وفي أمورٍ أخرى كثيرةٍ، موهبةً عظمى.

الربّ يحثّها على استئناف المشروع

١٠. ما إن بدأتُ التداولَ معه حتى فهمتُ حالاً أسلوبَه، ورأيتُ فيه نفسًا نقيّةً، قدِّيسةً، منحَها الربّ عطيّةً خاصةً لمعرفة الروح؛ فتعزيتُ كثيرًا. وبعد فترةٍ قصيرة من تعاملي معه، أخذ الربُّ يحثُّني من جديدٍ لأَستأنِف البحثَ في شأن الدير وأعرض لمعرّفي ولهذا الرئيس براهينَ وأمورًا كثيرةً كي لا يُعيقا تحقيقه. وكانت بعضُ البراهين تثير فيهما الخشيةَ لأنَّ هذا الأبَ الرئيس ما شكَّ قطُّ في أنَّ روحَ الله وراءَ هذا العمل، فقد كان يتفحّص بعنايةٍ واهتمامٍ كبيرَين جميعَ النتائج. خلاصة القول، إنهما، لأسبابٍ عديدة، ما تجاسرا على عرقلة مشروعي.

متابعة العمل بتكتّم

١١. وعاد معرِّفي فأجازَ لي أن أُجنِّدَ للمشروع طاقاتي كلَّها. كنت أدرك

الصعوباتِ التي سأجابهها ، فقد كنتُ وحدي وكانت طاقاتي ضئيلةً. فقرّرنا معالجةَ الأمر بتكتّمٍ تامٍ. فاتفقتُ وإحدى شقيقاتي (٣) ، وكانت تسكن خارجَ المدينة ، على أن تشتريَ البيتَ وتُصلحَه كأنه لها بأموالٍ وفَّرها لنا الربّ من مصادرَ مختلفةٍ لشرائه ؛ ولكان الكلامُ يطولُ لو أردتُ أن أروي كيف دبّر الربّ كلَّ شيء. كنت أحرص على أن لا أعمل ما يخالف الطاعةَ ، لكنّي كنت أعلم أنني لو أطلعتُ رؤسائي على الأمر لانتهى كلّ شيء الى الفشل ، كما في المرّة السابقة بل على أسوأ مما حدث. فللحصول على الأموال ، وشراءِ البيت ، وعقدِ الاتفاق ، وتنفيذِ الأشغال عانَيْتُ مشقّاتٍ كبيرة ، وقاسيتُ بعضَها وحدي ، مع أَنَّ صديقَتي كانت تفعلُ ما تستطيع ؛ غير أنّها كانت تستطيعُ القليلَ ، وقليلاً جدًّا او لا شيء تقريبًا سوى أن يجريَ الأمر باسمها وبرعايتِها ، أما القسطُ الأكبر من العملِ فكان على عاتِقي ؛ وقد تنوّعتْ تلك المشقّات حتى إنّي أَنذهلُ الآن كيف استطعتُ احتمالها. كان الحزن يأخذني أحيانًا فأقول : « ربّي ، كيف تسألني أمورًا تبدو مستحيلةً؟ ومع أني إمرأة ، فلو أوتيتُ حريَّةً... ؟ لكنّي مقيّدةٌ بقيودٍ متنوّعة ، لا مالَ لديّ ولا موردَ لتوفيرِه لمصاريف « الإجازة » (٤) أو لشيءٍ آخر ، فما تُراني أستطيع أن أعملَ ، ربّي ؟ » .

الربّ يعاتبها لقِلَّة ثقتها به

١٢. كنت يومًا في حاجةٍ ماسَّةٍ الى المال ولا أدري ما أعملُ أو كيف أدفع أجورَ بعض العُمّال ، فظهر لي القدّيس يوسف ، أبي وسيّدي حقًّا ، وأفهمني أَنَّ المال لن يُعوزني ، وأن أَتَّفقَ معهم. ففعلتُ ولا فلسَ معي ، فدبَّر الربُّ الأمرَ بطريقةٍ أذهلت كلَّ من اطّلع عليه (٥). كنت أرى البيتَ صغيرًا جدًّا ، بل كان من الضيق بحيث لا يُخالُ صالحًا لأن يكون ديرًا ؛ وكنت أودّ شراءَ بيتٍ آخرَ ملاصِقٍ لذاك ، صغيرٍ جدًّا هو ايضًا ، لأجعلَ منه كنيسةً ، ولم يكن المالُ متوفِّرًا لديّ ، ولا وسيلةَ

---

(٣) السيدة خوانا دي أهومادا ، وكانت تعيش في « ألبا » مع زوجها خوان دي أوڤاليي.

(٤) الاجازة أو الإذن البابوي بتأسيس الدير.

(٥) أرسل اليها أخوها لورنثو من كيتو ، في الپيرو ، حيث استقرّ بعد هجرته وشغل مناصب مهمة ، مبلغًا من المال سدَّ حاجتها.

لشرائه ، وما كنت أدري ما العمل . وذاتَ يومٍ بعد المناولة قال لي الرب : « **لقد قلتُ لكِ أن إبتدِئي كما تَستطيعين** » . وأضاف بتعجّب : « **يا لَطَمعِ البشر ! أتظُنّينَ أنْ ستُعْوِزُك حتى الأرض ! كم مرَّةٍ نِمتُ ، أنا ، في العراء لأنه لم يكن لي منزلٌ آوي إليه !** » فانذهلتُ أيَّ انذهال ورأيتُ أنّه على حقّ . فقصدتُ البيتَ الصغير ، ووضعتُ التصميمَ فوجدتُه ، على ضيقه ، ديرًا ممتازًا ، فما اهتممتُ بشراءِ مكانٍ آخر ، بل عملتُ على أن يُرَتَّبَ ليصيرَ صالحًا للسكن . كلُّ شيءٍ فيه بسيط ، خَشِنٌ ، على أن لا يَضُرَّ بالصحة . على هذه الحال يجبُ أن يكون دائمًا .

شفاعة القديسة كلارا

١٣. يوم عيد القديسة كلارا[٦] ، وفيما كنتُ ذاهبةً الى التناول ، ظهرتْ لي القديسةُ بجمالٍ رائع وقالت لي بأن أتشجّع وأمضيَ قُدُمًا في المشروع الذي بدأتُ وهي ستساعدني . فتعبَّدْتُ لها كثيرًا مذ ذاك وتحقّق وعدُها لي لأنَّ أحدَ أديار رهبانيتها وهو قريبٌ من ديرنا هذا ، يساعد في إعالتنا ؛ بل حدثَ أكثرُ من ذلك ، لأنها دفعت شيئًا فشيئًا رغبتي في كمالٍ رفيع حتى بِتْنا نحافظ في هذا الدير على الفقر الذي كانت تمارِسه القديسةُ السعيدةُ في ديرِها ؛ فنحنُ نعيش من الحَسَنات . وقد كلَّفني مشقَّةً كبيرةً أن لا نُخَوَّلَ توفيرَ موردٍ آخر ، وأن لا نُؤَمِّنَ ريعًا أبدًا ، وأن تتثبّت هذه القاعدة بقوّة الأب الأقدس وسلطانِه[٧] . والربُّ يفعلُ أكثرَ من ذلك بفضلِ توسُّلات هذه القديسة المباركة ولا شكّ ؛ فإنه ، عزّ وجلّ ، دون أن نطلبَ شيئًا ، يؤمّن لنا كلّ ما نحتاجه في حينه . تبارك ، تعالى ، على كل شيء . آمين .

---

(٦) في ١٢ آب ١٥٦١ .

(٧) لقد كلفها هذا الأمر استصدار ثلاث وثائق بابوية : ١) بتاريخ ٧ / ٢ / ١٥٦٢ ، لا تتضمّن إلتزامًا بالفقر المطلق ؛ ٢) قرار مجمع التوبة في ١٥٦٢/١٢/٥ يخوّل ان لا يكون للدير ريع ؛ ٣) براءة بابوية في ١٥٦٥/٧/١٧ تثبت نهائيًا القرار السابق .

انخطاف ورؤيا العذراء

١٤. في هذه الأثناء، يوم عيد انتقال السيّدة، وفي أحد أديار رهبانية القديس المجيد عبد الأحد، بينما كنت أتذكّر الخطايا الكثيرة التي اعترفت بها هناك في الماضي وأمورًا من حياتي البائسة، انتابني إنجذابٌ كان من قوّته أن كاد يُخرِجُني من ذاتي. فجلستُ وما استطعتُ، فيما أذكر، أن أرى القربان مرفوعًا أو أسمعَ القداس، فكان ضميري مُتعبًا من بعد. خلتُني، وأنا في الانخطاف، يُلبسونني ثوبًا أبيض ناصعًا وضّاء، وما كنتُ أرى، في البدء، مَنْ يُلبسني إياه. ثم شاهدتُ الى يميني السيِّدةَ العذراء، والى يساري ابي القديس يوسف، يُلبسانني ذلك الثوب. فأُفهِمْتُ بذلك أني طَهُرْتُ من خطاياي. وما إن توشَّحتُ بذلك الثوبِ، وأنا في لذّةٍ فائقةٍ وسعادةٍ، حتى خِلتُ السيِّدةَ العذراء تُمسك بيديّ. قالت لي إنه يَسُرُّها كثيرًا أن أخدُم القديسَ يوسف المجيد، وعليّ أن أثِقَ بأنَّ إنشاء الدير سيتّم، وأن الربّ والقديس يوسف وهي نفسُها سيُكرِّمون فيه خيرَ إكرام، وما عليّ أن أخشى فشلَ المشروع أبدًا ولو أن الطاعةَ التي ألتزم بها لا تلائم ذوقي فإنّهم، هم، سيَحرسوننا؛ ولأن إبنَها كان قد وعدنا بأن يكونَ فيما بيننا فإنها، تدليلاً على صحَّة هذا القول، تعطيني هذه الحِليه. وتراءى لي أنها طوّقت عنقي بعقدٍ رائع من ذهب يتدلَّى منه صليبٌ ثمين. وهذا الذهب وهذه الحجارة الكريمة تختلف عن ذهبِ الأرض وحجارتِها أيَّ اختلاف بحيث لا مجال للمقارنة بينها. فجمالُها يختلف تمامًا عمّا يُمكننا تصوُّره على الأرض، والعقلُ يعجِز عن أن يفهَم مادةَ ذلك الثوب، وأن يتصوَّر البياضَ الذي يتمثَّل به، فكأنّ كلَّ ما في الأرض، إذا ما قورن به، رُسِم بالشحّار[8]، إذا صحّ التعبير.

وصف العذراء وسعادةُ تريزا

١٥. إنّ جمالَ السيّدة العذراء الذي رأيتُه كان رائعًا، ولو أنّني لم أُميّزْ ملامحَه الخاصة، بل رأيته مجمَّلاً في تكوين وجهِها وثوبِها الأبيض المتلألئ بنعومة لا تَبْهُر.

---

(٨) الشَحّار: سوادُ الدُخان.

أما القديس يوسف فما رأيتُه بهذا الوضوح ولو أنّني تيقّنت من وجودِه هناك كما في الرؤى التي وصفتُها بأنّها لا تُرى بالعين. بدَت لي سيِّدتُنا طِفلةً صغيرة. ومكثا بجانبي قليلاً – فغمرني مجدٌ وسرورٌ عظيمان، بل أعظمُ مما نعمتُ به قط، ولا أتمنّى أن أُحرَم منهما أبدًا – وخلِتُني أراهما يصعدان الى السماء برفقة جمٍّ من الملائكة غفير. وبقيتُ في وحدةٍ تامة؛ إلّا انني كنت مرتاحةً جدًّا، ومتعاليةً ومستغرقةً في التأمّل، ومسترخيةً حتى لبثتُ فترةً من الوقت لا أستطيع الحراك او الكلام، بل كِدتُ أكونُ خارجَ ذاتي. بقي لديَّ إندفاعٌ عظيمٌ لأُضحِّيَ بنفسي حبًّا بالله، وشعرتُ بمفاعيلَ خيِّرة؛ وقد حصل كلُّ ذلك بطريقةٍ ما استطعت أن أشكَّ معها أبدًا في أنَّه صادرٌ عن الله. فغمرني العزاء والسلام.

الربّ يدلّها على طريق روما

١٦. أما ما أوصت به سلطانةُ الملائكة بشأن سلطةِ الولاية على الدير، فقد كان يَشُقُّ عليّ أن لا أُخضِعَ الديرَ لسلطةِ رؤساء الرهبانية. وكان الربّ قد قال لي إنه من غير المناسبِ إخضاعُه لسلطتِهم. وقدّم لي الأسبابَ التي تجعلُ الأمرَ غيرَ ملائمٍ في أيِّ حال، بل طلبَ إليّ أن أتوجَّه الى روما عن طريقٍ عيَّنها لي وهو يؤمِّن ورودَ التكليف من هناك. وهذا ما حصل؛ فأُرسِلَ الطلبُ بالطريق التي عيَّنها لي الرب، وما كانت مفاوضاتُنا انتهت الى نتيجة، فوُفِّقْنا كلَّ التوفيق. ودلّت الأحداث التي حصلت فيما بعد على أنّه من الأفضل أن نكونَ تحتَ سلطان الأسقف. ما كنتُ أعرف من هو آنذاك، ولا كنتُ أعلَم أيَّ رئيسٍ يكونُ لنا. فأراد الرب أن يكونَ في غاية الصلاح ويساعدَ هذا الدير مساعدةً كبرى كان يحتاجُ إليها لمجابهة المعارضة التي قامت ضدَّه، كما سأروي فيما بعد، ولتثبيتِه على وضعه الحالي. تباركَ، هو، الذي صنعَ كلَّ شيء. آمين.

الفصل الرابع والثلاثون

تشرحُ لماذا كان من المناسب أن تغادرَ المدينة في هذه الفترة. تعرض السببَ الذي دعا رئيسَها لأن يأمرَها بالذهاب لمؤاساة سيِّدةٍ رفيعةِ المقام كانت فريسةَ الغمّ. تبدأُ الكلامَ على ما حدث لها هناك، وتروي النعمة الكبيرة التي آتاها الربّ بأن تكون واسطةً ليَحُثَّ، عزّ وجلّ، شخصًا كريمَ المحتِدِ على خدمته خدمةً حقًّا، ووجدتْ لديه من بعد رعايةً وتأييدًا. إنه فصلٌ ذو أهميَّةٍ كبيرة

أرملة شريفة تستدعيها

١. رغم احتراسي الشديد بألّا يَذيعَ خبرُ المشروع، كان يستحيل إبقاءُ الأمر سرًّا فلا يطَّلع عليه بعضُهم إطّلاعًا وافيًا. منهم من اقتنع به وآخرون لم يقتنعوا: كنت أتخوّف، إذا ما جاءَ الرئيس الإقليمي، من أن يُطلعوه على الأمر فيأمرني أن أُقلِعَ عن المشروع، فيتوقّف العملُ به كليًّا. لقد رتَّبَ الربّ الأمرَ كما يلي: حدث في مدينةٍ كبيرةٍ تبعد عن هذه أكثر من عشرين ميلاً، أنَّ سيِّدةً[1] أخذها الحزنُ مأخذًا على موت زوجها حتى خِيفَ على صِحَّتها. بلغَها خبرُ هذه الخاطئة الصغيرة، فَرتّبَ الربُّ

(١) هي السيدة لويسا دي لاثيردا إبنة دوق «مدينة سالم» (مديناثيلي)، أرملة ماريشال اسبانيا آرياس دي سافيدرا، وكانت تسكن في طُلَيطِلَة.

أن يُثنَى عليّ أمامها ليحصُلَ من ذلك خيرٌ آخر. كانت هذه السيِّدةُ تعرف الرئيسَ الاقليمي معرفةً جيِّدةً، ولمّا كانت من عِلْية القوم وعلمت أنّني في ديرٍ يحقّ لراهباته مغادرتُه، أثارَ فيها الربُّ رغبةً مُلِحَّةً في لقائي، لم تكن تستطيع مقاومتَها، ظنًّا منها أنّ صُحبتي تعزِّيها؛ فسَعَتْ، حالاً، بكلِّ الوسائل ،لأنْ تُحضِرَني لديها. فكتبتْ بذلك الى الرئيسِ الإقليمي، وكان بعيدًا جدًّا عن المكان، فأرسلَ يأمرني بأمر الطاعة أن أمضيَ إليها بصُحبة راهبةٍ أخرى. وتبلّغتُ ذلك ليلةَ عيدِ الميلاد.

الربّ يشجِّعها على الذهاب

٢. إضطربتُ بعضَ الاضطراب وحزنتُ جدًّا حين رأيتُ أنَّ استدعائي ناجمٌ عن ظنِّهم بي خيرًا؛ أما انا فكنت أراني حقيرةً جدًّا فلا أحتملُ ذلك. توكّلت على الله بحرارة، ولبثت في حالة انخطافٍ طيلةَ صلاةِ الفجر أو جُلَّها. قال لي الربّ أنْ لا أتلكّأ في الذَهاب، ولا استمعَ رأيَ أحد، فقِلَّةٌ هم الذين يَنصحونني دون تهوُّر؛ ولو صادفتُ هناك مشقّاتٍ فإنّها تؤولُ الى خدمة الله. وإنه يُناسِبُ قضيَّةَ الدير أن أغيبَ عن المدينة الى أن يصلَ قرارُ الحبر الأعظم؛ وإنّ الشيطانَ قد دبّر مؤامرةً خطيرةً حين يأتي الرئيس الإقليمي، فليس عليّ أن أخافَ شيئًا، فإنه، هو، سيساعدُني حيثما كنت. فَتشدَّدَ عزمي وارتاحتْ نفسي، وأخبرتُ الرئيسَ اليسوعي بالأمر، فأجابني أن لا أتقاعسَ عن الذهاب مهما كان السبب، بينما كان آخرون يقولون لي أن لا أتجشّمَ الإنتقالَ، لأنه حيلةٌ إخترعَها الشيطان ليحصُلَ لي هناك شرٌّ ما، وأن أعودَ فأُراسِلَ الرئيسَ الإقليمي في الأمر.

عزاءُ الأرملةِ ومخاوفُ تريزا

٣. أطعتُ رئيسَ اليسوعيين، وبفضلِ ما كنت قد فَهِمتُ في التأمُّل مضيتُ بلا خوف، وإنْ يكن قد أربكني كثيرًا الداعي الذي حملَهم على إرسالي، وكيفَ أنّهم ضحيّةُ خداعٍ جسيم. وهذا ما جعلَني أُلِحُّ على الربّ كي لا يتركَني. وعزّاني كثيرًا وجودُ ديرٍ للجمعيّة اليسوعيّة في المدينة التي كنت أقصدُها؛ فإذا ما خضعتُ

لتوجيهاتِ هؤلاء الآباء كما كنتُ خاضعةً هنا ، سأكونُ ، فيما أظنّ ، على شيءٍ من الطمأنينة . ورضيَ الربّ فتعزّتْ تلك السيِّدة وبدأتْ تشعرُ بتحسُّنٍ ملحوظ ، ويزدادُ شعورُها بالعزاء يومًا بعد يوم . فأُعجِبَ القومُ بما حصل لأنّ الحزنَ ، كما قلتُ ، كان قد أجهدَها . ولا شكّ في أنَّ الربّ فعلَ ذلك إستجابةً لصلواتٍ كثيرةٍ رفعَها إليه ناسٌ أخيار أعرِفهم ، من أجلِ نجاحي في هذه المُهمَّة . كانت هذه السيِّدةُ تخافُ الله ، كثيرةَ الصلاح حتّى إنَّ روحَها المسيحي الراسخ سدّ ما كان ينقصُ لديّ . لقد أحبَّتني حبًّا عظيمًا ، فبادلْتُها مثلَه نظرًا لطيب سريرتها ، إلّا أنّ كلَّ شيء كان لي بمثابةِ صليب . فالمباهِجُ كانت تُربكُني أيَّ ارتباك ، وكثرةُ الإهتمام بي كانت تثيرُ فيّ الخوفَ . كانت نفسي منقبضةً فلا أجرؤُ على إهمالها ، وما كان الربّ يسهو عنّي ؛ فقد منحَني ، وأنا هناك ، مننًا عظيمةً أعطتني حرِّيَّةً كبيرةً وجعلتني أحتقر كلَّ ما أرى – وبقدر ما كنتُ أرى ، كان احتقاري يزداد – ؛ فكنت أعاشِر بحرِّيَّةٍ أولئك السيّدات الكريمات ، وهنّ مَن كنت لأتشرَّفَ بخدمتهنّ ، كأني لهنّ نظير .

ازدياد كُره تريزا لحياة القصور

٤ . انتفعتُ نفعًا جليلاً وحدّثت السيّدةَ بالأمر . رأيتُ فيها امرأةً تخضع ، مثلها مثلي ،للأهواءِ والنقائص ، وأدركتُ كم يجبُ أن يُحتَقَر الجاه ، فهو كلّما ازداد رِفعةً زاد الهمومَ والمشاغلَ ، وازداد الاهتمامُ بالتصرّفِ وفقًا لمقتضياتِه ، اهتمامٌ يُعَكِّرُ راحةَ العيش . فذو الجاهِ لا يتقيَّدُ بأوانِ الطعام أو بأصولِه ، لأنَّ كلَّ شيءٍ يجب أن يكون مطابِقًا لمقامِه لا لمزاجه ، وعليه أن يغتذيَ ، أحيانًا كثيرةً بمآكل تناسِبُ رُتبَتَه ولا تلائِم ذوقَه . وهكذا فقد كرهتُ كُلَّ الكُره أن أُكونَ سَيِّدةً نبيلةً . وقاني الله العَجرفةَ ! فهذه السيِّدة على كونِها من أرفع سيّداتِ المملكة ، فقِلَّةٌ هنّ ، في اعتقادي ، اللّواتي يحاكينها تواضعًا ولينَ جانب . لقد كنتُ أشفِقُ عليها ، وما زلتُ ، حين أراها تتصرَّف ، أحيانًا كثيرةً ، بما يخالِف طبعَها تقيُّدًا بواجباتِ مُقامِها . ثم إن الخدَمَ نادرًا ما يُؤتَمنون ، ولو أن خدَّامَها كانوا صالحين . لا يجبُ أن يحادَثَ أحدُهم أكثر من الآخر وإلّا طُعِنَ على الحَظيّ . إنّها لعبوديّةٌ وإحدى أكاذيبِ العالم أن يَدعوَ أمثالَ هؤلاء الأشخاص ، سادةً ، حين لا أرى فيهم سوى عبيدٍ لألفِ غرض .

سكان البيت يحسدون تريزا

٥. رضيَ الربّ أن يحقِّقَ سكّانُ ذلك البيت، أثناءَ إقامتي فيه، تقدُّمًا في خدمته، عزّ وجلّ، ولو أني لم أكنْ بمنجى من المِحن، ومن الحسد الذي كان بعْضُهم يُظهرونَه بسبب المودَّة الكبيرة التي خصَّتْني بها تلكَ السيِّدة. لعلّهم كانوا يظنّونني أطمح الى مصلحةٍ ما. ولا شكّ أنّ الربّ سمح بأن تبتلِيَني ببعض المِحن أمورٌ كهذه وأخرى مختلفةٌ حتى لا يسحَرَني الإكرامُ الذي كنت ألقاه، وقد تلطّف فأَخرجَني من هذا الوضع وقد جنتْ نفسي تقدُّمًا.

لقاء بمرشد قديم

٦. وصدفَ، أثناءَ وجودي هناك، أنْ جاءَ راهبٌ، إنسانٌ رفيعُ المكانة كنت قد تداولتُ وإيّاه بعضَ المسائل منذ سنواتٍ عديدةٍ[٢]. وكنتُ أسمع القدّاس ذات يومٍ في ديرٍ من أديار رهبانيته قريبٍ من مكان إقامتي، فتحرّكتْ رغبتي في أن أعرفَ أوضاعَ تلك النفس لأنّي كنتُ أتمنّى أن يكون خادمًا أمينًا لله، فنهضتُ لأمضيَ فأخاطِبه. ولمّا كنت مختليةً أقومُ بالتأمّل، بدا لي تصرُّفي إضاعةً للوقت. فمن تُراه يدعوني للتدخُّل في هذا الأمر؟ فعُدتُ وجلستُ. ولقد حدثَ لي ذلك ثلاثَ مرّاتٍ فيما أذكر، وانتصرَ أخيرًا ملاكُ الخير على ملاكِ الشرّ، فمضيتُ فدعوتُه، فجاءَ ليحدِّثني في كرسيِّ الإعتراف. فسأل أحدُنا الآخرَ عن حياتِه لأنّنا ما كنّا قد التقينا منذ سنواتٍ عديدة. بدأتُ أُخبِرُه أنّ حياتي كانت سِلسلةَ مِحنٍ لنفسي. أَلحّ عليَّ كي أُطلِعَه على تلك المحن. فأجبتُ: إنها ليست مُعدَّةً للكشف ولستُ لأفصِحَ عنها. قال: ما دامَ الراهبُ الدومينيكي الذي ذكرتُ[٣]، وهو صديقُه الحميم، يعرفُها، فإنه يُطلعُه عليها فيما بعد، وليس عليّ أن أخشى شيئًا.

---

(٢) الأب غارثيا دي توليدو. نبيلُ الأصل، كان عمُّه نائبًا للملك في البيرو. رافق حملةً الى المكسيك، صار فيمّا بعد رئيسَ اقليم البيرو، وعاد الى اسبانيا قبيل وفاةِ القديسة.

(٣) الأب پدور إيبانييث (سيرة ٣٣، ٥).

عزاء وحميّة رسوليّة

٧. الواقع أنه لم يستطِعْ أن ينقطعَ عن اللجاجة كما لم أتمالكْ نفسي، فيما أظنّ، عن الكلام. فعلى الحزنِ والخجلِ اللذَين كنت أشعرُ بهما، حين أتكلّم على هذه الأمور، ما شعرتُ بأدنى عناءٍ بأنْ أُحدِّثه أو أحدِّثَ عنها الرئيسَ اليسوعي الذي ذكرتُ، بل شعرتُ بعزاءٍ كبير. وقد أطْلَعْتُه عليها كَسِرٍّ اعتراف. لقد لاحَ لي فَطِنًا أكثرَ منه في أيِّ وقتٍ مضى، ولو أني كنت أعتبره، دائمًا، متوقِّدَ الذكاء. ورأيتُ أنّ مواهبَه الكبيرة وطاقاتِه تؤَهِّله ليحقِّقَ تقدُّمًا باهرًا لو كرَّس نفسَه كليًّا لله. فأنا، منذ سنوات، لا أرى شخصًا يُعجبني كثيرًا حتى أتمنّى حالاً أن أراه ينقطع كُلِّيًّا لله، وتأخذني لذلك حميَّةٌ لا أستطيع مقاومَتها. ولو أنّي أتمنّى أن يَخدُمَ الجميعُ اللهَ، فإنّني أتمنّى ذلك باندفاعٍ عارمٍ للذين يُعجبونني، فألحُّ على الربِّ من أجلهم. وهذا ما حصل لي بالنسبة للراهب الذي ذكرت.

سذاجة الحبّ

٨. رجاني أنْ أضرعَ الى الله كثيرًا من أجله. وما كان بحاجةٍ لأن يسألني ذلك فأنا ما كنتُ لأفعل، تقريبًا، شيئًا آخر. وأمضي الى حيث تعوّدتُ ممارسةَ التأمّل على انفراد، وأشرعُ في محادثة الرب، وانا مُغْرقةٌ في الاختلاء بأسلوبٍ ساذَجٍ فلا أدري، أحيانًا كثيرةً، ما أقولُ، لأن الحبَّ هو الذي يتكلّم، وتكون نفسي خارجَ ذاتِها تمامًا فلا أرى الفرقَ بينها وبين الله. لأن الحبَّ الذي تعرف النفسُ أنّه، عزّ وجلّ يخصُّها به يُنسيها ذاتَها، فترى ذاتَها في الله كشيء خاصٍ به غير منفصلٍ عنه، وتنطِقُ سخافاتٍ. أذكر أنّني، بعد أن سألْتُه بدمعٍ مدرارٍ أن تتكرَّس تلك النفسُ حقًّا لخدمتِه، قلتُ له، إنني على اقتناعي بصلاحِه فأنا أُريدُه صالحًا جدًّا وأضفْتُ: «ربّي، ليس لكَ أن تحرِمَني هذه النعمة؛ أُنظرْ فإنَّ هذا الشخصَ يصلُحُ لأن يكون صديقًا لنا».

حنان الله

٩. ما أعظمَ جودَ الله وحنانَه! انه لا يعتبِر الكلامَ بل ينظرُ الرغبةَ والحبّ يحرِّكان النطق به. كيف يُبيح لمثلي أن أخاطبَ جلالَه بهذه الجرأة! تباركَ دائمًا الى الأبد.

تيقّن من وجودها في حال النعمة

١٠. أَذكر أن قد أخذني، في ساعاتِ التأمل تلك الليلة، غمٌّ مريرٌ حين خطر في بالي أن قد أكونُ على عداوةٍ مع الله. ولمّا كنتُ عاجزةً عن أن أعرفَ ما إذا كنت بحال النعمة او لا (ليس رغبةً مني بالمعرفة، بل كنتُ أتمنّى أن أموت على أن أراني على قيدِ الحياة غيرَ واثقةٍ ممّا إذا كنتُ ميتةً، إذ لم يكن من موتٍ أشدَّ هولاً، بالنسبة لي، من تصوّري أنّني أغظتُ الله) كان هذا الغمُّ يضغَط عليَّ، فأتوسَّل إلى الله وأنا غارقةٌ بدموعٍ حرّى ألّا يسمحَ بذلك. فسمعتُ حينئذٍ أنني أستطيع الاطمئنان والتيقّنَ من أنني في حال النعمة، لأن حبًّا لله كهذا الحبّ، ومننًا يَنفَحُها، عزّ وجلّ، كتلك المنن، ومشاعرَ يحرِّكها في النفس كتلك المشاعر، لا يُعقَلُ أن تُصنَعَ مع نفسٍ في حال الخطيئة المميتة. فوثقتُ بأنّ الربَّ سيمنحُ ذلك الشخصَ ما سألتُه من أجله. وكلَّفني أن أنقلَ إليه بعضَ الكلمات. أسفتُ أسفًا شديدًا لأنني ما كنت أدري كيف أُبلِّغه إيَّاها، لأن أكثر ما يشقُّ عليّ دائمًا أن أنقلَ رسالةً الى شخصٍ ثالثٍ، كما قلتُ، خصوصًا الى شخصٍ لم أكن أعرف كيفَ سيتلقّاها، ولا إذا كان سيَسْخَرُ مني. فوجدتُني في ضيقٍ خانقٍ. وتيقّنت أخيرًا، تمامَ اليقين فوعدتُ الله، فيما أظنّ، أن لا أتقاعسَ عن إبلاغِ كلماتِه الى ذلك الشخص. ولِشدَّة استحيائي منها، كتبتُها وسلَّمتُها إليه.

رسالة إلهيّة فعّالة. أهميّة الخبرة الروحية

١١. ظهرَ واضحًا أنّ الرسالةَ واردةٌ من الله، من جرّاءِ المفاعيلِ التي أحدثَتْها فيه. فقد عزمَ عزمًا ثابتًا أن ينقطع الى التأمّل ولو أنه لم يبدأْ ذلك فورًا. ولمّا كان

الربّ يريده له ، فقد كان يبلّغه بواسطتي بعضَ الحقائق التي كانت تناسِبه ، دون أن أدركَ الأمرَ ، فينذهل . ولا شكَّ في أنّ الربَّ كان يُعدُّه ليؤمنَ بأنها صادرةٌ عنه ، عزّ وجلّ . أمّا أنا فقد كنتُ ، على بؤسي ، أكثِرُ التوسّلَ الى الربّ كي يجعلَه وقفًا عليه ويدفعَه لأن يكرَه مسرّاتِ الحياة وأشياءها . وهكذا – تباركَ الرب الى الأبد ! – لقد أتقن صنيعَه فيه فلا يخاطبني مرّة حتى يُحدِث فيَّ الذهول . ولو لم أرَ بعينيَّ لشكّكتُ في أن يكونَ الله قد غمره بمننٍ غزيرةٍ في فترةٍ مِن الزمن قصيرةٍ كهذه وجعلَه ينشغل به تعالى وحدَه فكأنّه لا يعيش بعدُ لشيءٍ ما أرضيٍّ . ألَا أخذ الله بيده ، فإنّه إذا سار قُدُمًا في هذا السبيل (وهو ما آمَلُ أن يصنعه الرب ، لأنه يركّز جيّدًا على معرفة الذات) سيكونُ من أشهر خدّامه تعالى ويفيدُ نفوسًا كثيرةً أكبر فائدة ؛ فقد اكتسبَ خبرةً واسعةً في الشؤون الروحيّة في زمنٍ وجيز ، فهذه عطايا يَمنحها الله حينَ يشاءُ وكيفما يشاء ، فلا حسابَ للزمن فيها ولاَ قيمةَ للخَدمات . لا أقصدُ أنَّ هذه لا تُؤَثِّر كثيرًا ، إلَّا أن الربّ لا يمنح البعضَ غالبًا في عشرين سنة التطلُّعَ الذي يمنحه آخرين في سنة . وهو عزّ وجلّ ، يعرف السبب . ونَنخدع إذ نعتَقِد أنّه يجبُ أن نفهمَ بفضلِ السنين ما لا يُستطاعُ بلوغُه بأيِّ حالٍ من دون اختبار . وهكذا يُخطئُ كثيرون ، كما قلتُ ، في معرفةِ الأرواح ، لأنّهم ليسوا بروحانيّين. لا أدّعي أنّ مرشدًا غيرَ روحاني ، إذا كان ضليعًا في العلم ، لا يستطيع أن يوجّه روحانيًّا . إنه يفهم بعقلِه الأمورَ الخارجيّة والداخليّة الموافقةَ لمجرى الطبيعة ، وينظرُ إذا كانت الأمورُ الفائقةُ الطبيعةِ تتّفِق والكتابَ المقدس . أمّا في ما عدا ذلك فلا يَجهدَنَّ نفسَه ، ولا يَظُنَّنَّ أنه سيفهم ما لا يُفهم ، ولا يخنِقَنَّ الأرواحَ لأن سيِّدًا أعظمَ يسوسُها في هذا المجال ، فهي ليست من دون رئيس .

تواضع المرشد غير الخبير

١٢. فلا يَرتعبنّ ولا يَتصورنّ هذه الأمورَ مستحيلةً – فكلُّ شيءٍ ممكنٌ لدى الربّ – بل فليحاولْ تشديدَ إيمانه وليتواضَع لأن الربّ جعلَ ، صُدفةً ، من عجوزٍ صغيرةٍ أكثرَ معرفةً بهذا العلم منه على كونِه ضليعًا في العلم ، وبهذا التواضع ينفعُ

النفوسَ وذاتَه نفعًا أوفرَ منه بادّعائه التطلّعَ دون أن يكون من أهله. وأكرِّرُ القولَ إنه إذا لم يكن ذا خبرةٍ، وكثيرَ التواضع ليُدرِك أنّه لا يَفهم الأمر، وأنّ عدمَ فهمِه إياه ليس سببًا لاعتباره مستحيلاً، فإنه يكسِب قليلاً ويُكسِب مسترشدَه دون هذا القليل. أما اذا كان متواضعًا فلا يخشيَنَّ لأنّ الربّ لا يسمح بأن يَنخدع ولا أن يُضِلَّ الآخرين.

ثمرة تواضع العالِم

١٣. فهذا الراهبُ الذي ذكرتُ، وقد حباه الربُّ التواضعَ في مجالاتٍ عِدّة، سعى لأن يدرسَ كلَّ ما يستطيعُ تحصيلَه بالدرس في هذا الموضوع لأنه ضليعٌ بالعلم، وما لا يعرِفه بالاختبار سأل فيه ذوي الخبرة؛ وإلى هذا فإنّ الربّ ساعدَه بزيادةِ إيمانه، فاذا به يجرّ منافعَ الى ذاتِه والى بعض النفوس ومنها نفسي. لمّا كان الربّ يعرف المشقّاتِ التي سأصادِفُها، وكان سيدعو إليه بعضَ مرشدِيَّ[٤] يبدو أنّه، عزّ وجلّ، إحتاطَ للأمر فأبقى آخرين ساعدوني في تحمُّل مشقّاتٍ مريعةٍ وصنعوا معي خيرًا عظيمًا. لقد بدَّل الله هذا الراهبَ تبديلاً كاملاً تقريبًا حتى لا يكاد، هو، يعرف نفسه، كما يُقال، وحباه قوىً جسديّةً لممارسة التقشّف (وما كان يملكها قبلاً بل كان سقيمًا)، وجعله مُقدِمًا على كلّ ما هو صالح، ومنحَه أمورًا أخرى يتّضح منها أن الربّ دعاه بدعوةٍ خاصة. تباركَ الى الأبد.

فاعليّة التأمل

١٤. في ظنّي أنَّ بِرّه كلَّه ثمرةُ المنن التي منحه الربّ إيّاها في التأمل، وهو ليس بِرًّا إصطناعيًّا. لقد أراده الربّ أن يختبرَ بعضَ الأمور، فيخرجَ منها كمن يعرِفُ حقيقةَ الكسب الذي يحقّقه باحتماله الإضطهادات. وإني لأرجو من عظمة الربّ أن

---

(٤) الأب پدرو دي ألقنطره (+ ١٨ تشرين الأول ١٥٦٢)، والأب إيبانييث (+ ٢ شباط ١٥٦٥).

ينجُمَ خيرٌ عظيمٌ بواسطته للبعض من رهبانيته ولرهبانيته نفسها. لقد بدأَ هذا يتَّضح. لقد رأيتُ رؤًى عظيمةً قال لي الربّ أثناءها أمورًا تُثير الدهشةَ عنه وعن رئيسِ الجمعية اليسوعية الذي ذكرتُ[٥]، وعن إثنين من رهبانية مار عبد الأحد[٦]، وعن أحدِهما بنوعٍ خاص إذ أوضحَ الربُّ أيضًا تَقدُّمَه بأعمالٍ كنت قد عرفتُها عنه. أمّا أعمالُ مَن أتحدّثُ عنه الآن فكثيرةٌ.

اختبارها تواضعَ الراهب وتقدُّمَه

١٥. أودُّ أن أذكر واحدًا منها هنا. كنت وإيّاه مرّةً في قاعةِ المحادثة فأدركتْ نفسي وروحي أنّ حبًّا عظيمًا يضطرم في روحه حتى كدت أن أتلاشى؛ فقد كنت أنظر كيف أنّ عظائمَ الله رفعتْ نفسًا الى حالةٍ ساميةٍ كهذه في زمنٍ وجيز. كنت مرتبكةً أيّ ارتباكٍ لأنني كنت أراه يُصغي بتواضعٍ كبير الى ما أقوله له في بعض مسائل متعلّقةٍ بالتأمّل. لقد أظهرتُ قِلَّةَ تواضعٍ بمخاطبتي بهذا الأسلوب إنسانًا مثله، لكنّ الربَّ احتملَ ذلك مني لرغبتي العظيمة بأن أراه متقدِّمًا في الكمال. لقد كانت محادثتي إياه توفِّر لي فائدةً جمّةً وكأنّها تُضرمُ في نفسي نارًا جديدةً لتندفعَ في خدمة الربّ، كما في البدء. آه يا يسوعي! ما أعظمَ ما تفعل نفسٌ ملتهِبَةٌ بحبِّكَ! كم كان علينا أن نقدِّرها ونتوسَّل الى الرب ليبقيَها في هذه الحياة! إنّ من يشعرُ بحبٍ كهذا الحبِّ عليه، إذا استطاع، أنْ يسيرَ على خُطى هذه النفوس.

التعاون في الحياة الروحية

١٦. إنه لأمرٌ عظيمٌ أن يصادف مريضٌ مريضًا آخر مصابًا بالداء نفسه، فيتعزّى أيَّ عزاءٍ حين يرى أنه ليس وحيدًا، فيتعاونان على الإحتمال بل وعلى الكسبِ أيضًا. إنّ أُناسًا مصمِّمين على تعريض حياتِهم لألفِ خَطَرٍ حبًّا بالله ويتمنَّونَ ملاقاةَ هذه الأخطار لبذلِها، هم أناسٌ يتكاتفون أفضلَ ما يكونَ التكاتف. إنّهم كجندٍ

(٥) الأب غسبار دي سالاثار (سيرة ٣٣،٩ – ١٠).

(٦) الأبوان بدرو إيبانييث ودومنغوبانييث، لا سيّما الأول منهما.

يرغبون في اندلاعِ الحرب ليحوزوا الأسلابَ فيغتنوا، ويعرفون أنَّهم لن يَغتنوا إلّا بهذه الوسيلة. هذا هو عمَلُهم: كدُّ النفس. آه! ما أَروعَ أن يدرك من يعطيه الربّ هذا النورَ عِظَمَ الكسبِ الذي يُحقِّقه بتألُّمه حبًّا به! لا يُفْهَمُ هذا جيِّدًا إلّا إذا تركَ الانسانُ كلَّ شيء؛ فإنّ من يتعلّق بشيءٍ يدلُّ على أنه يقدِّره، وإذا قدَّره يصعبُ عليه حتمًا التخلّي عنه، فيُصبح كلُّ شيءٍ عندَه ناقصًا وخاسرًا. ويصحّ المثل في هذه الحال: ضلَّ من اتّبع ضالًّا. وأيُّ ضلالٍ، وأيُّ عمًى، وأيُّ شقاءٍ أشدّ من اعتبار الانسان شيئًا ما ليس بشيء؟!

سرور الربّ بالحديث عنه. رؤيا المسيح

١٧. وأعود الى موضوع كلامي. حين كنت أنظرُ تلك النفسَ بفرحٍ عظيمٍ، وإخالُ أن الربّ يريدني أن أرى بوضوحٍ الكنوزَ التي أودَعها فيها، وأعتبرُ النعمةَ التي منحني بأن يتمَّ ذلك بواسطتي، على غيرِ جدارةٍ منّي، كنتُ أُقدِّر أسمى تقديرٍ المننَ التي غمره بها الربّ، وأعتبرُها أكثرَ مما لو صنعَها معي، فأُمَجِّدُ الربَّ كثيرًا إذ أرى أنَّه، عزّ وجلّ، كان يُحقِّق أمانيَّ، إذ كان قد استجاب صلاتي بأن يُوقِظَ أمثاله. وبلغَ الفرحُ في نفسي مبلغًا لم تَعُدْ تُطيق احتمالَه، فخرجتْ من ذاتِها[٧] وتاهتْ ليكونَ كسبُها أعظم. توقّفتْ خواطرُها، وإذ سمعتْ تلك اللغةَ الإلهية وكأنّ الروحَ القدس كان يُخاطبُها بها، أُخِذْتُ بانخطافٍ كاد يُفقِدُني الوعيَ، ولو أنّه دامَ قليلاً. رأيتُ المسيحَ في جلالٍ ومجدٍ عظيمَين يُفصِحُ عن سروره الكبير لِما كان يجري هناك. لقد قال لي ذلك، وأرادني أن أرى بوضوحٍ أنّه يَحضَرُ دائمًا محادثاتٍ كهذه، وأنّ الذين يلتذّون بالتحدّث عنه يخدمونه خدمةً جليلةَ القدر.

وكنت مرّةً أخرى بعيدةً عن هذا المكان[٨] فرأيتُه[٩] والملائكة تحمِله بمجدٍ عظيم، فأدركتُ من هذه الرؤيا أن نفسَه تقدّمت شوطًا بعيدًا في الكمال. فقد حدثَ

(٧) عبارة تعني بها بدء الانجذاب أو الانخطاف.

(٨) عن آفيلا.

(٩) الأب غارثيا دي توليدو.

أن افترى عليه افتراءً جسيمًا يلطِّخ صيتَه إنسانٌ كان، هو، قد أحسنَ اليه أيَّ إحسانٍ وأنقذ شرفَه ونفسَه معًا، فاحتمل الافتراء بسرورٍ كبيرٍ وحقّق أعمالاً أخرى كثيرةً لخدمةِ الله وقاسى إضطهاداتٍ أخرى.

نبوءات تريزا تتحقّق

١٨. لا أرى من المناسب أن أذكر الآن أمورًا غيرَ هذه. فإذا بدا لحضرتِك فيما بعد، وحضرتُك على علمٍ بها، يمكنُ إثباتُها تمجيدًا للربّ. إنّ التنبُّؤاتِ التي قُلتُها عن هذا الدير، وتنبُّؤاتٍ أخرى عنه وعن أشياءَ غيرِها سأذكُر فيما بعد، قد تَمَّتْ جميعُها. وكان الربّ يُطلعني على بعض الحوادث ثلاثَ سنواتٍ قبلَ حصولِها، وعلى بعضِها الآخر أكثر من ذلك أو أقلّ. وكنت أكشِفُها دائمًا لمعرِّفي ولصديقتي الأرملة[١٠] التي كان مأذونًا لي محادثتُها كما ذكرتُ. وعرفتُ أنّها، هيَ، كانت تُطلِعُ آخرين عليها وهؤلاءِ يعرفون أنّني لا أكذب، ولا سمحَ الله بأن أقول، في أيِّ أمرٍ، إلّا الحقيقة كلَّ الحقيقة، خصوصًا في أمور خطيرةٍ كهذه.

نبوءة تبدّل حياة أختها

١٩. حين تُوفّي أحدُ أصهاري[١١] فجأةً، وكنت في غمٍّ مؤرِّقٍ لأنّه لم يُتَحْ له الإعتراف، أُنبئتُ في التأمل أنَّ أختي ستموتُ هذه الميتة، فعليّ أن أقصدَها وأحاولَ أن أجعلَها تستعدّ لذلك. فأطلعتُ معرِّفي على الأمر، ولمّا لم يكن يُأْذَنُ لي بالذهاب، سمعتُ هذه النصيحةَ مرّاتٍ أخرى. وحين رأى المعرِّفُ ذلك سمح لي بالذهاب لأن ليس في الأمر خسارة. كانت أختي تسكن في قرية[١٢]. عندما وصلتُ، رحتُ أنيرُها حول كل المواضيع، ما استطعتُ دون أن أُخبرَها بما أنبئْتُ، وأقنعتُها بأن تعترفَ بتواترٍ وتهتمَّ في كلّ حال بأمرِ نفسها. كانت، هي،

---

(١٠) دونيا غيومار (سيرة ٣٠، ٣).

(١١) مرتين دي غوثمان، زوج اختها الكبرى، ماريا.

(١٢) حيث كانت القديسة قد ذهبت أثناء مرضها (سيرة ٣، ٣؛ ٤، ٦).

خيِّرةً ، فعملت بنصيحتي. وبعد أربع سنوات أو خمس من اكتسابها هذه العادة ومحاسبتها ضميرَها بدقَّةٍ ، فارقت الحياة ولا أحد بقربِها ودون أن تستطيع الاعتراف. لكن لحسن الحظّ ، وعلى عادتها ، ما كان قد مضى على اعترافها إلّا ما يزيد قليلاً عن ثمانية أيّام. فأخذني فرحٌ عظيم عندما أُحِطْتُ بموتِها خبرًا. لقد مكثتْ في المطهر قليلاً. فما إن مضى على موتها ثمانيةُ أيّام ، فيما أظنّ ، حتى ظهرَ لي الربّ بعد التناول وأراد أن أراها وهو يصطحبها الى المجد. وطوال تلك السنوات ، من حين أُبلغتُ الخبرَ الى حين فارقتِ الحياة ، لم يكن يفارقُ ذاكرتي ما كنتُ قد أُنبِئْتُ به وما كانت صديقتي لتغفُلَ عنه ؛ فحين توفِّيَتْ أختي ، جاءتْني منذهلةً لأنها رأَتْ كلّ شيء قد تمّ. تبارك الله الى الأبد ، فإنه يُعنى بالنفوس أكبرَ عنايةٍ حتى لا تهلك.

الفصل الخامس والثلاثون

تتابع موضوعَ تأسيس هذا الدير على اسم أبينا القديس يوسف المجيد. تشير الى أوامر الرب بالتقيُّد بالفقر الرهباني فيه، وتذكر السببَ الذي حملها على الانصراف من منزل تلك السيِّدة وأمورًا أخرى حدثتْ لها

مبادرة راهبة تقيّة

١. حين كنت بصحبة تلك السيّدة التي ذكرت، حيث مكثت أكثر من نصف سنة، رتّب الله أن تدريَ بأمري راهبةٌ تقيّةٌ[١] من رهبانيتنا، تقيم على مسافة أكثر من سبعين ميلاً من هذا المكان. ولما اضطرّتْ الى المجيء الى هذه الناحية إنحرفتْ عن طريقِها بضعةَ أميالٍ لمقابلتي. كان الربّ قد ألهمَها كما ألْهمَني، في السنة نفسها والشهر عينه، لِتُنشئَ ديرًا لهذه الرهبانية. وحرّكتها الرغبة فباعت كلَّ مقتناها ومضت إلى روما سيرًا على القدمين حافيةً تلتمس الإذن بذلك.

إكتشافها الفقرَ في القانون القديم

٢. إنها امرأةٌ كثيرةُ التقشّف والتأمّل، وكان الربُ يمنحها أنعامًا غزيرةً،

(١) ماريا ليسوع. وُلدت في غرناطة سنة ١٥٢٢. أسَّست ديرًا للكرمليات المصلحات سنة ١٥٦٣ في «ألكالا». واتجهت نحو تقشُّفٍ صارمٍ متطرِّفٍ، ليّنته فيما بعد القديسة تريزا نفسُها سنة ١٥٦٧.

وظهرت لها السيِّدة العذراء وأمرتْها أن تبنيَ الديرَ. كانت تفوقني كثيرًا في خدمة الرب حتى إني كنت أستحيي من الظهورِ أمامها. أبرزتْ لي الأذوناتِ التي جاءَتْ بها من روما، وأثناءَ خمسة عشر يومًا قضتْها بقربي وضعنا الترتيباتِ اللازمة لإنشاءِ الديرين. قبل أن أتحدَّث إليها لم يكن قد ترامى الى معرفتي أنَّ قانونَ رهبنتِنا، قبل أن يُلَطَّف كان يقضي بعدم التملّك، وما كنت، أنا، أفكِّر بتأسيسه دون تأمين دخلٍ له. لقد كان مرامي أن لا ننشغلَ بما نحتاج إليه، وما كنتُ أنظرُ الى الهموم العديدة التي يجْلُبُها إقتناءُ الأموال. وهذه المرأة المباركة التي كان الرب يُعلِّمُها، كانت قد علمت حقّ العلم، ولا معرفةَ لها بالقِراءة، ما كنتُ، أنا، أجهلُه، على كثرة مطالعتي الرسوم.[٢] وحين عرضتْ عليّ الأمرَ جارَيتُها فيه مع أني خشيتُ أن لا يوافقوني عليه، بل أن يتّهموني بالغباء ويفرضوا أن لا آتي ما يقاسي منه الآخرون بسببي. فلو كنت مَعْنيَّةً بذلك وحدي لما كنت تردّدتُ لحظةً، بل إن تفكيري في أن أحفظَ مشوراتِ المسيح ربّما كان لي متعةً عظيمةً لأنه، عزّ وجلّ، كان قد بثّ فيَّ رغبةً شديدةً في الفقر. فما خالجَني شكٌّ، إذًا، في أنَّ ذلك كان الأحسن لي؛ فمنذ أمدٍ بعيدٍ كنت أتمّنى لو تُتيحُ لي حالتي أن أتسوّل حبًّا بالله، وان لا أملكَ بيتًا ولا أيَّ شيءٍ آخر. غير أني كنت أخشى أن لا يُلهِمَ الربُّ رفيقاتي هذه الرغائب فيلازِمَهن الإستياء، وأخاف أن يكونَ ذلك سبيلاً للتلهّي، لأني كنت أرى بعض الأديار الفقيرة بعيدةً عن حياة الاختلاء؛ وما كنتُ أَفطَن الى أنّ عدمَ الإختلاء كان سببًا للفقر وليس الفقرُ سببًا للتلهّي. فالتلهّي لا يَزيدنا غنىً، والله لا يتخلّى أبدًا عمّن يخدمه. الخلاصة، أن إيماني كان ضعيفًا، ولم تكن هذه حالُ خادمةِ الله تلك.

معارضة الجميع لفقر الدير

٣. كنتُ أسألُ الكثيرين رأيَهم في كلّ شيء، فكدت أن لا أجدَ أحدًا يجاريني في رأيي، لا معرّفي ولا العلماء الذين كنت أستشيرهم. لقد كانوا يُدْلون

---

(٢) الرسوم هي مجموعة قوانين تفصيليّة للقانون الكرملي الأول.

بالكثير الكثير من الأسباب فلا أعود أدري ما العمل. لأني منذ عرفت أنَّ القانون يفرض الفقرَ، ورأيتُ في الفقر كمالاً أسمى، ما عدتُ أستطيعُ التصميمَ على تأمين الريع. وكانوا يُقنِعونني أحيانًا، فما إن أعود الى التأمل وأنظر المسيحَ على الصليب فقيرًا وعريانًا، حتى لا أعود أطيق على الغنى صبرًا. فكنتُ أتوسّل إليه، وأنا أذرف الدموع، أن يرتِّب الأمورَ لأكون فقيرةً على مثالِه.

مناقشات طويلة وإصرار على الفقر

٤. كنت أجد في تأمين الريع مساوئَ جمَّةً، وأرى فيه سببًا للكثير من القلق والتلهّي فأقتصر على مجادلة العلماء في المسألة. وكتبتُ بهذا الشأن الى الراهب الدومينيكي[٣] الذي كان يساعدنا، فأرسل إليّ صفحتين ضمّنهما حُججًا وأدلَّةً لاهوتيّةً بأنْ أُقلِعَ عن فكرتي، بعد أن أَشبَعَ الموضوعَ درسًا، كما قال. فأَجَبْتُه أني، كي لا أسلكَ طريقَ دعوتي، أو أتقيّدَ بنذريَ الفقرَ وأتبعَ مشوراتِ المسيح على أكمل وجه، لا أودّ اللجوءَ الى الإلهيات، وأن يعفيَني، في هذه الحال، من التكرُّم عليَّ بعلمه. وحين كنتُ أجدُ شخصًا يساعدني، كنتُ أبتهج كثيرًا. وقد ساعدتْني مساعدةً جُلّى السيّدةُ التي كنت بصُحبتها[٤]. وكان البعض، في البدءِ، يوافقونني في الرأي، ثم ما إن يُنعِموا النظرَ في الأمر حتى يجدوا فيه مساوئَ جمَّةً، فيعودوا ليلحّوا عليَّ بأن أقلِعَ عنه؛ فكنت أُجيبُهم بأنَّهم اذا كانوا يَعدِلون سريعًا عن رأيهم فأنا أتمسَّكُ بمشروعي الأول.

تشجيع بدرو دي ألقنطره

٥. في هذه الأثناء، وبناءً على طلباتي ولأن تلك السيِّدة لم تكن قد عرفت الراهبَ القديس بدرو دي ألقنطره، تلطّفَ الربّ فأوفدَه الى منزلِها. لقد كان يحبُّ

---

(٣) الأب بدرو إيبانييث، وكان قد اعتنق حياة النسك (سيرة ٣٢، ١٦ – ١٧).
(٤) السيِّدة لويسا دي لا ثيردا، صاحبة القصر.

الفقرَ حبًّا عظيمًا ، ومارسَه سنينَ عديدةً ، فكان يعرف حقَّ المعرفة ما ينطوي عليه الفقرُ من غنىً. فساعدني كثيرًا وأمرني أن لا أتراجع عن تحقيق غرضي بأيٍّ داع[٥]. واستنادًا الى هذا الرأي وهذه المساعدة من الشخص الأكثر كفاءةً لإعطائهما نظرًا لخبرته الطويلة ، قرّرتُ أن لا أشاورَ أحدًا بعد الآن.

تشجيع الربّ وتثبيت فكرة الفقر

٦. كنت ذاتَ يومٍ أتوسَّل الى الله بحرارةٍ في أمر الدير ، فقال لي الربّ أن لا أتراجعَ عن تأسيسه على الفقر لأن هذه إرادةُ أبيه وإرادتُه هو ، وهو سيساعدني. حدث هذا في انخطافٍ ذي مفاعيلَ عظيمةٍ فما استطعتُ الشكَّ في أنّه من لدن الله.

وقال لي الربُّ مرّةً أخرى إن الريعَ سبيلٌ الى البلبلة ، وامتدحَ الفقر مؤكِّدًا لي أنَّ من يخدمه لن يُعوِزه ما هو ضروريٌّ للعيش. وهذا العَوَزُ ما خشيتُه أبدًا ، كما قلت ، فيما يختصّ بي. وحوّلَ الربّ قلبَ «المجاز»[٦] أعني الراهبَ الدومينيكي الذي ذكرت أنه كتبَ لي بألّا أُنشئَ الديرَ من دون تأمينِ ريعٍ له. لقد صرتُ مسرورةً جدًّا لسماعي هذا وحصولي على هذه الآراء ، وكنت أراني أمتلك غنى العالم كلّه في تصميمي على العيش من حبٍّ الله.

إذن بالعودة الى الدير واحتمال انتخابها رئيسة

٧. في هذا الوقت رفعَ عنّي رئيسي الاقليمي أمرَ الطاعة الذي كان فرضَه عليَّ لأقيمَ لدى تلك السيِّدة وتركَ لي الخيارَ في أن أغادرَها أو أن أبقى لديها بعض الوقت. وفي هذه الأثناء اقتربَ موعدُ الإنتخاب في ديري ، وأُشعِرْتُ أن كثيراتٍ من الراهبات

---

(٥) الى جانب النصائح الشفوية ، تلقّت القديسة من القديس بِدرو دي ألقنطرة «رسالةَ الفقر» الشهيرة التي ثبّتتها في موقفها (أنظر سيرة ٣٦ ، ٢٠).

(٦) «المجاز» (Presentado) وهو لقب علمي اصطلاحي لدى رهبان مار عبد الأحد لحامل إجازة التعليم ، كمَا إنهم يعتمدون لقب «معلِّم» (Maestro) ، وهو أعلى الالقاب الاكاديمية عندهم.

يرغبن بإسناد مهمَّة الرئاسةِ إليّ. كان مجرَّدُ التفكير في هذا الأمر يثير فيَّ اضطرابًا بالغًا حتى كنت أراني أصمِّم على أن أحتملَ بسهولةٍ أيَّ استشهادٍ حبًّا بالله، ولا أرى من سبيلٍ الى إقناعي بقبول هذا المنصِب. فإضافةً الى العمل الشاقّ لكثرة عدد الراهبات وأسبابٍ أخرى جعلتني أنفرُ من أي وظيفةٍ بل وأرفضها دائمًا، كنتُ أرى في الرئاسة خطرًا كبيرًا على ضميري. فحمدت الله لعدم وجودي هناك، وكتبتُ الى صديقاتي حتى لا يقترعن لي.

الربّ يأمرها بالذهاب ويَعِدُها بصليب

٨. وإذ كنت مسرورةً جدًّا لعدم وجودي في تلك الضوضاء، قال لي الربُّ أنْ لا أَتخلَّفَ عن الذَهاب مهما كان الداعي. فما دمت أرغبُ في الصليب فإنَّ صليبًا كبيرًا يُعَدُّ لي وليس لي أنْ أرفضَه، بل فلأَتسلَّحْ بالشجاعة وهو يساعدني ولأمضِ حالاً. فحزِنتُ كثيرًا، وكنتُ أقضي وقتي في البكاء لأَنني حسبتُ الصليبَ أن أكونَ رئيسةً وما كنتُ أستطيعُ الإقتناعَ، كما قلتُ، بأنَّ في ذلك خيرًا لنفسي بحالٍ من الأحوال، وما كنتُ أَجِدُ لذلك مخرجًا. فرويتُ الأمرَ لمعرِّفي، فأمرني أن أحاولَ الذَهاب حالاً، لأنَّ من الواضح أنّ في ذلك كمالاً أسمى؛ ولأنَّ الطقس كان حارًا جدًّا فيُمكنني البقاءُ بضعةَ أيّامٍ بعدُ حتى لا يؤذيَني السفر، ويكفي أن أكونَ هناك في موعِدِ الانتخاب. لكنَّ الربّ كان قد رتّبَ خلافَ ذلك، فوجبَ أن يتحقَّق. لقد أصابني اضطرابٌ داخليٌّ بالغٌ، وكنت عاجزةً عن مباشرة التأمّل، وأتصوَّرُني أُخالفُ ما كان الربُّ يأمرني به؛ ولأني كنت أنعمُ بالراحة والرفاهية ما كنتُ أودُّ الذهابَ لمجابهة المشقَّة. أَفكلُّ علاقتي بالله كانت مجرّدَ كلمات؟ وما دمتُ أستطيع أن أكونَ حيث يتوفّر كمالٌ أرفع، أفأتخلّى عنه؟ إذا متُّ، أكونُ قد متُّ! ... يضافُ الى ذلك ضيقٌ يأخذ بنفسي، ويحرمني الربُّ كلَّ لذَّةٍ في التأمل. الخلاصة، كنتُ في حالٍ صعبةٍ تحوّلت إضطرابًا بالغًا، فرجوتُ تلك السيِّدةَ أن تتفضَّل فتدعني أذهب. ومعرِّفي، حين رآني على هذه الحال، قال لي أن أذهبَ؛ وكان الله يُلهمه كما ألهمَني.

أسف السيِّدة لذهابها

٩. إعترى تلك السيدةَ حزنٌ كبيرٌ لعَزمي على مفارقتِها فكان لي من ذلك أسىً جديدٌ. لقد كانت تكلَّفت كثيرًا ، وألحَّتْ بطرائقَ عديدةٍ لتحصلَ من الرئيس الاقليمي على السماحِ بمجيئي إليها. فقدّرتُ أرفعَ تقديرٍ موافقَتها على انصرافي نظرًا لشدَّة أسفِها لذلك. لكنّها كانت تخافُ الله خوفًا كبيرًا ، وقلتُ لها إن انصرافي خدمةٌ جليلةٌ له تعالى ، وأمورًا أخرى عديدةً ، وأمَّلتها بإمكانيةِ عودتي إليها ، فرضيَتْ بذهابي وبها أسفٌ شديدٌ.

شعور متناقض : إبتهالٌ وأسى

١٠. أما انا فما كنتُ آسفةً لانصرافي لإدراكي أن ذلك أرفعُ كمالاً وأنه خدمةٌ لله. وقد أزال سروري بإرضائه تعالى أسفي على مفارقة تلك السيِّدة التي رأيتُها تحزَن أشدَّ الحزنِ ، ومفارقةِ أشخاصٍ آخرين كنتُ أدين لهم بالكثير، خصوصًا معرِّفي ، وكان من الجمعيّة اليسوعيّة ، وقد كنتُ أشعر بارتياحٍ معه. على أني بقدْر ما كنت أراني أفقِدُ التعزياتِ حبًّا بالربّ ، بقدر ذلك كنت أُسَرُّ لفقدِها. وكنت أعجَز عن فهمِ حدوث هذه الظاهرة لأني كنت أرى بوضوح هذين النقيضين : كنت أفرح وأتعزّى وأبتهجِ بما يثير لوعتي. فقد كنت لدى هذه السيِّدة مطمئنّةً ومرتاحةً وكان بوسعي أن أُخصِّص ساعاتٍ طويلةً للتأمل ، فرأيتُ أني مقبلةٌ على أن أرميَ بنفسي في أتُّونِ نارٍ لأن الربّ كان قد قال لي إنني سأحمل صليبًا ثقيلاً ، لكنني ما حسبتُ أبدًا أنه سيكون ثقيلاً بمقدار ما عرفتُه فيما بعد. ومع هذا كلِّه ، مضيتُ فرحةً وكنت على أحرَّ من الجمر لأخوضَ المعركة حالاً لأن الربّ كان يريدني أن أخوضَها. وهكذا فإنه ، عزّ وجلّ ، كان يمدُّني بالشجاعة ويُحِلُّها مكان ضعفي.

تشبيه الجوهرة الثمينة

١١. كنت عاجزةً عن فهم حصول ذلك ، كما قلت. وخطرت في بالي هذه المقارنة : لو كنتُ أقتني جوهرةً أو تحفةً توفِّر لي فرحًا عظيمًا ، ويصدُف أن يرغبَ فيها

شخصٌ أُحبه أكثر ممّا أُحبّ ذاتي وأودّ أن أسِرَّه أكثر ممّا أرضي ذاتي ، فإنه ليسعدني أن أُحرَمَ السرورَ الذي كان يوفِّره لي ما أقتني ، على أن أُفرِّح ذلك الشخصَ. وبما أن هذه السعادة بإرضائه تتجاوز إرضاءَ نفسي ، يزول الحزنُ الناجم عن فقدان هذه الجوهرة أو الشيءِ الذي أُحبّ ، وعن حرماني السرورَ الذي كانت تسبِّبه لي. وهكذا فإني على رغبتي في أن أشعرَ بالحزن لمغادرتي أشخاصًا كانوا يأسفون جدًّا لافتراقهم عني ، ولكوني من طبيعتي حافظةَ الجميل بحيث كنت في ظروفٍ أخرى أغتمُّ كثيرًا لمثل هذا الأمر ، فإني الآن ، ولو أردت لما استطعت أن أغتمّ.

تجرّد الراهبات وفضائلُهنّ

١٢. كانت مسألةُ هذا الدير المبارك تُحتِّم ألّا أتأخّر يومًا واحدًا بعد حتى إنّي لا أدري الى ما كان آلَ الأمرُ لو أرجأتُ عودتي. يا لَعظمة الله! إنّها لَتُذْهِلُني غالبًا حين أتأمَّل وأرى كيف أنه ، عزّ وجلّ ، أراد أن يساعدَني مساعدةً خاصةً ليَنشأ هذا الركنُ الصغيرُ لله ، وهو كذلك فيما أظنّ ، وهذا المسكن الذي يُسَرُّ فيه تعالى ، كما قال لي مرّةً أثناءَ التأمل : «**إن هذا البيت**[7] **فردوسُ لذّتي**». وكأنِّي به ، عزّ وجلّ ، اختار النفوسَ التي أحضرَها اليه والتي أعيش معهنَّ بحياءٍ بالغ. فأنا ما كنت أصبتُ في أن أتمنّاهنّ مؤهَّلاتٍ كما هنّ لنمطِ العيش هذا في الضيق ، والفقرِ ، والتأمل. أمّا هنَّ فيقبَلْنه بفرحٍ وسرور ، بل إنّ كلَّ واحدةٍ منهنّ تجدُ نفسها غيرَ أهلٍ لأن تستحقّ المجيءَ الى هذا المقام ، وخصوصًا البعضَ منهنّ وقد دعاهنّ الربّ من بين أمجادِ العالم ونعيمِه ، حيث كان بإمكانهنّ أن يَعِشْنَ مسروراتٍ وفقًا لأعرافِه ، فوفّر لهنّ الربُّ هنا السرورَ أضعافًا ، فعرَفن بوضوحٍ أن الربّ اعطاهنّ مائةً بدلَ الواحد الذي تركنَ فلا يَكفُفْنَ عن شكرِه ، عزّ وجلّ. والبعضُ الآخر حوَّلهنَّ الله من حَسَنٍ الى أحسن. أمّا الشاباتُ فإنه ، تعالى ، يُعطيهنَّ الشجاعةَ والمعرفةَ حتى لا يشتهيْنَ شيئًا آخر ، وحتى يَفهمن أنَّ التجرُّدَ عن كلِّ ما في الحياة هو ما يؤمِّن حياةً أكثرَ هناءً ، حتى في هذه

---

(٧) دير مار يوسف.

الدنيا. وأمّا المتقدّمات في السن العليلات، فقد أعطاهنّ وهو يعطيهنّ القوّة ليَستَطِعن تَحمُّل شظفِ العيش والتقشُّفِ كسائر الأخوات.

مناجاة

١٣. إي ربي! ما أعجبَ ما تُرى قديرًا! ليس من حاجةٍ للبحث عن دوافعَ لما تريد، فإنّك تسمو كلَّ تفكيرٍ بشريٍّ فتجعلُ الأشياءَ ممكنةً للغاية لتُفهِمنا جيّدًا أنه يكفي أن نحبَّك حقًّا وأن نتركَ كلَّ شيءٍ حبًّا بك لتجعلَ، انت، ربّي، كلَّ شيءٍ سهلاً. ويصحُّ القولُ هنا إنك تتصنّع المشقَّة في شريعتك. فأنا لا أرى، يا ربّ، ولا أفهم القولَ إن الطريقَ المؤدّيَ إليك ضيّقٌ. إني أراه طريقًا ملوكيًّا لا دربًا. إنه طريقٌ، من سارَ فيه حقًّا كان أكثرَ أمانًا. فالشِعابُ والصخورُ التي قد نسقُط عليها بعيدةٌ عنه كلَّ البعد لأن ظروفَ السقوطِ بعيدةٌ. أمّا ما أدعوه دربًا، ودربًا حقيرًا، وسبيلاً ضيّقًا، فهو ما كان الى جانبٍ منه وادٍ عميقٌ جدًّا حيث يُمكن السقوط، والى جانبٍ آخر هاويةٌ. فما إن يَغفلُ الانسانُ حتى يَهويَ ويتحطّم أشلاء.

الطريق الملوكيّ

١٤. إن من يحبُّك حقًّا، يا خيريَ الوحيد، يمضي آمنًا في طريق ملوكيٍّ واسعٍ؛ فالهاويةُ بعيدةٌ عنه. وما إن يتعثّر حتى تمدَّ إليه، ربّي، يدَك. إذا كان يُحبُّكَ ولا يحبُّ أشياءَ العالم فلا تكفي سقطةٌ ليَهلِك ولا سقطات. إنه يسير في وادي التواضع. لا أستطيعُ أن أعرفَ ممّا يخافُ الناس فلا يسيرون في طريقِ الكمال. ألا ليتَ الربَّ الرحيمَ يُفهِمُنا سوءَ الاطمئنان في الأخطار الظاهرة كما هو الحال في السير في إثر الناس، وكيف أنّ الأمانَ الحقيقيَّ يَكمنُ في أن نسيرَ قُدُمًا في طريق الله. لِنَشْخَصْ بأنظارِنا إليه ولا نخفْ من أن تغيبَ شمسُ العدالة هذه، أو أن يدعَنا نسير في الليل فَنَتيه إن لم نتركْه، نحن، أولاً.

مخاطبة البشر

١٥. لا يخافون أن يسيروا بين أسودٍ وكأنّ كلَّ واحدٍ منها يودُّ أن ينتزعَ قطعةً منهم. وما الأسُود إلّا ما يسمّيه العالمُ الجاهَ والملذّاتِ والمسرّاتِ الماثلةَ، وفيها، على ما يبدو، يُخيفنا الشيطانُ بفئران. إنّي أرتعب ألفَ مرَّةٍ ولأودُّ عشرةَ آلافِ مرَّة أن تنهلَّ دموعي وأصرخَ في جميعِ الناس لأعلنَ شِدَّةَ غباوتي ورداءتي لعلّي أساعدهم قليلاً فيفتحوا عيونَهم. ألا فتحَها لهم، بجودِه، هو القادر على ذلك، ولا سمحَ بأن تَعمى عيناي بعدُ. آمين.

الفصل السادس والثلاثون

تتابع الموضوع نفسَه وتروي كيف تمّ تأسيسُ دير القديس يوسف المجيد والمعارضةَ والاضطهاداتِ التي حصلت بعد ارتداء الراهبات الثوبَ الرهباني. تقصّ المشقّاتِ والتجاربَ التي عانتْها وكيف أن الربّ أخرجها منتصرةً لمجدِه هو وحمدِه

وصولها إلى المدينة

١. غادرتُ تلك المدينة[١]، وكنت عائدةً في الطريق مسرورةً، مصمِّمةً على أن أعانيَ عن طوعٍ كلَّ ما يَطيب للربّ إرسالُه إليَّ. وليلةَ وصلتُ الى هنا وصلَ الإذنُ بتأسيسِ الدير ووصلتِ البراءةُ من روما فانذهلتُ وانذهلَ الذين كانوا يعرِفون أنّ الربّ استعجل عودتي حين أدركوا ضرورةَ حضوري والظروفَ التي أعادني الرب فيها الى هنا حيث وجدتُ الأسقف، والراهبَ القديس پدرو دي ألقنطره، ورجلاً نبيلاً خادمًا لله أمينًا[٢] ينزِل في بيتِه هذا الراهبُ القديس، وهو إنسانٌ كان خدّامُ الله يَنعمون في بيته بحسنِ استقبالٍ ورعاية.

(١) توليدو أو طليطلة حيث كانت لدى الأرملة النبيلة.

(٢) هو على الأرجح خوان بِلاَثْكيث الذي كان يُضيفُ القديس پدرو دي ألقنطره في منزله في آڤيلا.

وفاة الشيخ القديس

٢. وتمكّن الإثنان من إقناع الأسقف بأن يجعلَ الديرَ تحت سلطانِه، ولم يكن ذلك بالأمر السهل لأنّ الديرَ كان فقيرًا؛ لكنّ الأسقف كان يُعجَب بالأشخاص المصمِّمين على خدمة الرب فسُرَّ حالاً بأن يرعاه. وموافقةُ هذا الشيخ القديس وإلحاحُه في إقناع هؤلاء وأولئك لمساعدتِنا هما ما حقَّقَ كلَّ شيء. لو لم أصِلْ في هذه الأحوال، كما قلتُ، لا أدري ماذا كان حصل. فإنّ هذا الرجلَ القديس مكثَ هنا وقتًا قصيرًا لم يبلُغْ، كما أظنّ، ثمانيةَ أيام ثَقُلَ عليه المرضُ أثناءها، وما لبثَ الربّ أن نقلَه بعدها الى جواره. كأني به، عزّ وجلّ، حفِظَه الى أن ينتهيَ هذا المشروع؛ فقد كان منذُ وقتٍ طويلٍ، ربما منذ أكثر من سنتين، عليلاً.

ملازمتها صُهرَها أثناء مرضِه

٣. وتمَّ الأمر كلُّه في كتمانٍ شديدٍ، ولولا ذلك لما استطعنا أن نفعلَ شيئًا لِشدَّةِ معارضةِ السُكَّان، كما ظهرَ فيما بعد. لقد رتّبَ الربُّ أن يمرضَ صهرٌ لي[3] ولم تكن زوجتُه هنا، ووُجِد في ضيقٍ شديدٍ فأُذِنَ لي في أن أُلازِمَه. وفي هذه الأثناء لم يُثر الموضوعُ، ولو أن البعضَ كان يخامِرُهم شكٌّ فيه، لكنَّهم ما كانوا بعدُ مُتيَقِّنين من الأمر. والمذهل أن صهري لم يدُم مرضه إلّا الوقتَ اللازمَ للمشروع؛ ولما قضت الحاجةُ أن يتعافى، لأتحرَّرَ من ملازمته وأُغادِرَ المنزل، شفاه الله فجأةً فأَخذَه العجب.

تراكم المشقّات

٤. عانيتُ مشقَّةً بالغةً في سعيي للحصول على موافقة هؤلاء وأولئك، وفي اهتمامي بالمريض، ومع العمّال لتنتهيَ أشغالُ البيت سريعًا جدًّا فيأخذَ شكلَ ديرٍ،

(٣) خوان دي أوڤاليي، زوج أختِها خوانا، وكان قد انتقل من ألبا، مكانِ سكناه الى آڤيلا للمساعدة في إنشاء الدير، وذهب الى طليطلة لمرافقة القديسة في عودتها.

لأن الأشغالَ كانت متأخِّرةً كثيرًا. لم تكن صديقتي (٤) هنا، فبدا لنا أنَّ غِيابَها أفضلُ لِسَتْرِ الأمر. وكنت أرى أن يتمَّ كلُّ شيءٍ بأسرع وقتٍ لأسبابٍ عديدةٍ أحدُها خوفي من أن أتلقَّى الأَمرَ، في أيِّ ساعةٍ، بالعودة الى الدير. وكان من تراكُم المشقَّات التي صادفتُ أنْ فكّرتُ فيما إذا كان هذا هو الصليب، ولو أني كنت إخالُه دونَ الصليبِ الكبير الذي كان الربُّ قد أشعرَني بإرساله إليَّ.

تأسيس الدير: ٢٤ آب ١٥٦٢

٥. وبعد أن أُعِدَّ كلُّ شيءٍ شاءَ الربُّ فلبسَ بعضُ الفتيات (٥) الثوبَ الرهباني يوم عيد القديس برتلماوس، وعُرِضَ القربانُ المقدَّس ودُشِّنَ ديرُنا باحتفالٍ وأُبّهةٍ على اسم أبينا المجيد القديس يوسف وذلك سنةَ ألفٍ وخمسِ مائةٍ واثنتين وستّين. سلّمتُ، أنا، المبتدئاتِ الثوبَ وكان إلى جانبي راهبتان من ديرِنا وُفِّقتا لأن تكونا خارجَ الدير. ولما كان هذا البيتُ الذي جعلناه ديرًا يسكنه صهري (وكان قد اشتراه باسمه، كما قلتُ، لإخفاء الأمر)، فقد كنت مزوّدةً بإذنٍ للإقامة فيه؛ فما كنتُ أفعل شيئًا من دون أن أستشير المرشدين العلماءَ حتى لا آتيَ أدنى مخالفةٍ للطاعة. لقد وجدَ هؤلاء أن في المشروع فائدةً جلّى للرهبانية كلِّها لأسبابٍ عديدةٍ، فرأوا أنّ باستطاعتي أن أفعلَ ذلك، ولو أنّي فعلتُه سرًّا، واحترزتُ من أن يطَّلِعَ رؤسائي على الأمر؛ ولو قالوا لي إن في تصرّفي أدنى شائبةٍ لكنتُ أتخلَّى، فيما أظنّ، عن تأسيسِ الفِ ديرٍ، والأحرى أن أتخلّى عن ديرٍ واحد. هذه هي الحقيقة.

فمع أنّي كنتُ أرغبُ في تأسيسِ هذا الدير لأنقطعَ تمامًا عن كلِّ شيء، وأسلكَ في نذوري ودعوتي نهجًا أكثر كمالاً وتحصُّنًا، كنت أتمنّى ذلك بحيث لو عرفتُ أنّ في إهمال المشروع كلِّه خدمةً أكبر للربّ، لكنت تخلَّيتُ عنه، كما فعلتُ المرَّةَ السابقة، بهدوءٍ وسلام.

(٤) دونيا غيومار التي كانت قد انتقلت الى تورو.

(٥) كان ذلك في ١٠ آب ١٥٦٢، وكانت الفتيات أربعًا وتَسَمَّيْنَ في الرهبنة: أنطونيا للروح القدس، وماريّا للصليب، وأورسولا للقديسين، وماريا للقديس يوسف وقد أُعلِنت طوباويةً سنة ١٩٨٣.

إرتياحُ تريزا وفرحُها

٦. خلتْني في المجد حين شاهدتُ القربانَ المقدَّس يُصمَد ، وتُقبَلُ أربعُ يتيماتٍ مسكيناتٍ (لأنهنَّ كُنَّ يُقْبَلنَ من دون مهر) خادماتٍ لله وفيّاتٍ ، (وكان همُّنا في البدء أن ينضويَ أشخاصٌ يكونون بمثالهم في التأمُّل والكمال أساسًا ليتحقَّق هدفُنا من المشروع) ، ويتحقَّقَ عملٌ كنتُ أدرك أنه لخدمةِ الرب وتكريمِ ثوبِ أمّه المجيدة. وهذه كانت رغباتي المُلِحَّة. وشعرتُ بارتياحٍ عظيم لأنّي صنعتُ ما كان الرب قد حثَّني عليه ، وأنشأتُ كنيسةً جديدةً في هذه المدينة على اسم أبينا المجيد القديس يوسف ، إذ لم يكن ثمَّةَ كنيسةٌ مكرّسةٌ له. وما كان سببُ ارتياحي أنّي حسبتُني أسهَمْتُ في إنشائِها ؛ فما قام ذلك في ظنّي قط ، ولا يقوم ؛ بل أدركتُ دائمًا أن الربّ يصنع كلَّ شيء ، وأنَّ مشاركتي يشوبُها الكثيرُ من النقائص فأستحقّ اللوم أكثرَ من استحقاقي الشكران. ومع ذلك فقد أسعدَني جِدًّا أن يكون ، عزّ وجلّ ، قد استخدمني وسيلةً ، على حقارتي ، لعملٍ كهذا عظيم. فلبثتُ يغمرُني السرور ، وكأني خارجَ ذاتي ، غارقةً في تأمُّلٍ عميق.

هجمة الشيطان واضطرابها

٧. ما إن مضى على انتهاءِ الاحتفال ثلاثُ ساعاتٍ أو أربع حتى شنّ عليّ الشيطانُ هجمةً روحيّةً سأعرُضُها فيما يلي. مثّلَ لي أنْ قد أكون أسأتُ فيما فعلت ، وأنّي قد أكون خالفتُ الطاعةَ في سعيي الى تحقيقه ، من دون أمرِ الرئيس الاقليمي (وكنت أتصوّر أنه قد يستاءُ لوضعي الديرَ تحتَ سلطةِ الأسقف المحلّي بدون أن أُطلِعه على ذلك مسبقًا. ولمّا كان قد رفضَ الموافقةَ على تأسيسِ الدير ، بينما أنا لم أغيِّر طاعتي له [٦] ، كنت أظنُّه لن يُعيرَ الأمرَ اهتمامًا) ، ورحتُ أتساءَل عمّا إذا كانت اللواتي يلتزمن هنا نظامَ التحصّن الصارم سَيَكُنّ راضيات؟ ألنْ يُعوزُهنَّ الغِذاء؟ ألم يكن ما فعلتُ ضربًا من الحماقة؟ وما الذي دفعني الى التورّط في هذا المشروع ، ما دُمتُ أنتمي

---

(٦) ما زالت تخضع للرئيس الاقليمي.

الى دير؟ فالأوامر التي كان الربّ قد وجَّهها إليّ ، والمشوراتُ التي تلقَّيتُها ، والصلواتُ التي ما فتئتُ أردِّدها منذ ما يزيد على السنتين إقتُلِعَت كلُّها من ذاكرتي كأنَّ شيئًا لم يكن قط . ما كنتُ أذكر إلّا آرائي ؛ أما الفضائلُ جميعُها والإيمانُ فكانت موقوفةً عن العمل ، ولا قوةَ لي كي تعملَ أيٌّ منها أو تحمِيَني من هذه الهجمات الكثيرة.

شكوك واضطراب

٨. وكان الشيطان يثير فيَّ أيضًا هذه الأفكار : كيف لي أن أحبِسَ نفسي في بيتٍ ضيِّقٍ كهذا وأنا أعاني أمراضًا عديدةً؟ أنّى لي أن أحتملَ تقشّفًا قاسيًا كهذا وأبرحَ ديرًا فسيحًا هانئَ العيش حيث كان السرورُ يغمرني دائمًا ، وتحيطُ بي صديقاتٌ كثيراتٌ ؛ لعلّ اللواتي يكنّ هنا لا يلائِمنَ ذوقي ؛ وقد ألزَمْتُ نفسي حِملاً ثقيلاً قد يدفعُني الى القنوط . ولعلّ الشيطان قصدَ هذا ليحرمني السلامَ والطمأنينةَ فلا أقوى من بعدُ على ممارسةِ التأمل وأنا في اضطرابٍ ، فتهلِكَ نفسي.

كان الشيطان يمثِّل لي أشياءَ من هذا النوع فلا يتسنّى لي التفكيرُ في شيءٍ آخر ، ويصحب ذلك غمٌّ ، وظلمةٌ ودياجيرُ تغمرُ النفسَ ، لا يسعني وصفُها . ما إن رأيتُني في هذه الحال حتى مضيتُ أزورُ القربانَ المقدَّس ، مع أنّي ما كنتُ أستطيع إيكالَ أمري إليه . أظنُّني كنت في ضيقٍ كمن باتَ في نزاع الموت . وما كنت أجرؤ على مفاتحة أحدٍ بالأمر إذ لم يكن لي بعدُ معرِّفٌ معيَّن(٧) .

مناجاة

٩. عفوكَ أللّهمَّ ! ما أشدَّ بؤسَ هذه الحياة ! لا سرورَ مأمونٌ ولا شيء ثابتٌ . منذ قليلٍ قليلٍ ما كنت لأستبدلَ بسروري أيّةً من مسرّات الأرض ، وها إنّ سببَ سروري نفسَه يعذِّبني الآن فلا أدري ما العمل . آه ! لو تفحّصنا بإمعانٍ أمورَ حياتِنا لرأى كلُّ واحدٍ بالاختبار تفاهةَ ما يسرُّ منها وما يُحزِن.

---

(٧) تصريحٌ عجيبٌ ، رغم كثرةِ المرشدين الذين كانوا يهتمّون بحالِها الروحي وبعَمَلِها في ذلك الوقت بالذات.

محنة وتساؤل

في الحقيقة أظنّ تلك اللحظةَ كانت أصعبَ ما صادفتُ في حياتي. كأنّ روحي إستشفَّت فداحةَ ما سأُعاني، ولو أنّه لم يبلغْ مبلغَ محنتي هذه لو طالَ أمرُها. لكنّ الربَّ لم يدعْ عذابَ أمتِه المسكينة يطول. فهو ما تخلّى قطُّ عن نجدتي في شدائدي، وهذا ما فعلَه في هذه المحنة؛ فقد أمدَّني ببعض النور لأدركَ الحقيقةَ وأرى أنّ الشيطانَ كان هناك وإنما أراد أن يُرعبني بأكاذيبه. فبدأتُ أتذكّر قراراتي الثابتةَ بأن أخدمَ الربَّ ورغبتي في احتمال العذاب حبًّا به. وقلتُ في نفسي إنّه إذا كان عليّ تنفيذُها فما عليّ أن أسعى وراءَ الراحة؛ وإذا صادفتُ مشقّاتٍ ففيها أستحقُّ الكسب؛ واذا ضافَني الهمُّ فاعتبرتُه خدمةً للرب، كان لي الهمُّ مَطْهرًا. فمِمّ أخاف؟ ما دمتُ أتمنّى المشقّاتِ فهي صالحة؛ فبقدر ما تشتدُّ الصعوبةُ يزدادُ الكسبُ. فلِمَ يفوتُني العزمُ لأخدمَ من أدينُ له بالكثير الكثير؟!

وعلى ضوءِ هذه الاعتباراتِ وغيرِها، أجهدتُ نفسي ووعدتُ أمام القربان المقدس بأن أعملَ ما أستطيعُ لأحصلَ على الإذن بانتقالي الى هذا البيت[8]، وأن أنذرَ التحصّن[9] إذا قدرتُ على الإنتقال بضميرٍ مرتاحٍ.

عودة الاطمئنان والصحّة اليها

١٠. ولدى إبرازي وعدي فرَّ الشيطانُ وتركني مطمئنّةً، مسرورةً، وبقيتُ هكذا كما كنت دائمًا، وصرتُ أرى كلَّ ما نحفظه في هذا البيت من حصنٍ وتقشّفٍ وغيرِ ذلك من أنظمةٍ خفيفًا وفي غايةِ العذوبة. ويبلغُ سروري أقصى مبلغٍ فأُسائلُ نفسي أحيانًا: أيُّ شيءٍ أستطيعُ اختيارَه في الدنيا أعذبُ من هذا؟ لا أدري إن كان لحالتي هذه سهمٌ في أن أتمتّع بصحّةٍ أوفر مما تمتّعتُ بها قط، أو أنّ الرب اعتبر من

(٨) رغم تأسيس الدير الجديد، لم تكن قد حصلت على الإذن بترك دير التجسد، بل ما زالت تحت سلطة رئيسته التي ستستدعيها اليه.

(٩) لم تكن قوانين التحصّن ساريةً بعدُ وهي التي سيجدِّدُها المجمعُ التريدنتيني في كانون الأول سنة ١٥٦٣.

الضرورة والصواب أن أعمل ما يعمله سائرُ الأخوات فشاء أن يعطيَني هذا العزاءَ لأستطيعَ القيامَ به ولو بعناء. وجميعُ الذين يعرفون أمراضي يندهلون من قدرتي. تباركَ، هو، مَن يعطي كلَّ شيءٍ ومن بقدرته نملك القدرة.

هدف المحنة

١١. خرجتُ من هذه المعركة منهوكةَ القوى، هازئةً بالشيطان، وقد عرفتُ بوضوحٍ أنه كان وراءها. وفي اعتقادي أن الربَّ سمح له بذلك. فأنا ما شعرت باستياء، ولو لحظةً، لكوني راهبةً، منذ ثمانٍ وعشرين سنةً ويزيد، وإنما سمح، تعالى، به لأفهم النعمةَ العظيمة التي كان قد منحني، والعذابَ الذي وفّره عليّ، ولِئَلاّ أتعجَّب إذا ما رأيت راهبةً تأسف على حالتِها، بل أُشفِق عليها وأُحسن تعزيتَها.

أمر العودة وتوقّعات تريزا

بعد أن انتهى كلُّ شيء، أردتُ أن آخذ قسطًا من الراحة بعد الغداء، لأني ما تفيّأت ظلالَها طوال الليل، وما فاتني الكدُّ والهمّ في الليالي السابقة بعد أيّامٍ مضنِكة. وذاعَ في ديري، وفي المدينة، خبرُ عملِنا فحدثتْ فيه بلبلةٌ عظيمةٌ للأسباب التي ذكرت وكان لها، في رأيي، ما يبرِّرُها. فأرسلتِ الرئيسةُ تأمرني أن أعودَ الى الدير فورًا. وبناءً على أمرها، تركتُ راهباتي حزيناتٍ وعُدتُ في الحال. فاتّضح لي أن ستجابهُني مشقّاتٌ جسيمةٌ؛ أمّا وقد تمّ إنشاءُ المشروع فما كنتُ لأعبأَ بها. فصلّيت متوسّلةً الى الرب أن يساعدَني، وسألتُ أبي القديس يوسف أن يعودَ بي الى بيتِه، وقدّمْتُ له ما سأقاسي من عناء. ثم مضيتُ مغتبطةً بأن تُتاح لي فرصةٌ أعاني فيها من أجلِ الربّ، وأكونُ في خدمته، وفي يقيني أنّي سأُزَجّ في السجن حالاً. ولكنت، في ظنّي، سعيدةً جدًّا في هذه الحال بأن لا أخاطِبَ أحدًا، وأن أستريح في الخلوة قليلاً. لقد كنت في أشدِّ الحاجةِ الى ذلك لأنّ كثرةَ معاشرتي الناس سحقتني سحقًا.

مثولُها أمام الرؤساء

١٢. فور وصولي شرحتُ دوافعي للرئيسة فلانَتْ بعضَ الشيء، واتّفقتْ جميعُ الراهبات على إستدعاء الرئيس الإقليمي وعرضِ المسألة عليه. حين جاء، مَثُلْتُ أمامه للمحاكمة وأنا في غايةِ السرور لاحتمالي بعضَ الألم حبًّا بالربّ، لأنّي ما كنت أعتبر انّي اقترفت شيئًا في هذه المسألة يُغيظه، عزّ وجلّ، أو يُسيء الى الرهبانية؛ بل إنما سعيتُ لأن أُنمّيها بكلّ قواي، وإني لمستعدةٌ للموت في سبيل ذلك وما رغبتي، كلُّ رغبتي، إلّا في حفظِ القانون حفظًا تامًا. تذكّرتُ محاكمةَ المسيح فرأيتُ محاكمتي شيئًا تافهًا. إعترفتُ بخطاي كأنني أذنبتُ كثيرًا، وقد كنت مذنبةً بنظر من لم يطّلعوا على جميع الدوافع. عندها وبّخني الرئيسُ الاقليمي توبيخًا عنيفًا، ولو لم يبلُغْ عنفُه ما كان يستحقُّه الذنْبُ أو يناسبُ ما رواه الكثيرون للرئيس عنّي؛ فما قصدتُ أن أُبرِّرَ نفسي مع أني قد عزمتُ على ذلك، بل سألتُه أن يصفَح عنّي ويعاقبَني وأن لا يضمرَ لي حِقدًا.

تعدادُ التهم

١٣. كنتُ أرى بوضوحٍ أنّهم يَحكُمون عليّ في بعض أمورٍ أنا منها براء. فقد كانوا يتّهمونني بأنّي فعلتُ ما فعلتُ لأكسبَ تقديرَ الناس، والشهرةَ، وبِتُهَمٍ أخرى من هذا القبيل. إلّا أنّي كنت متيقِّنةً أنّهم مصيبون في أمورٍ أخرى كما في قولِهم: إنّي أحقرُ من سواي، وإنّي ما دمتُ لم أحفظ القانونَ حفظًا تامًا كما كان يُحفَظ في ذلك الدير، فأنّى لي أن أحفظَ قانونًا أشدَّ صرامةً في ديرٍ آخر، وإني أُثيرُ الشكوكَ في الناسِ وأبتدعُ أمورًا جديدةً. وما كان كلُّ هذا ليحرِّكَ فيّ إضطرابًا ولا غمًّا وإن تظاهرتُ بذلك حتى لا يقومَ في اعتقادِهم أنّي أحتقرُ أقوالهم. وأمرَني الرئيسُ الإقليمي، أخيرًا، بأن أُبرِّرَ أمام الراهبات ما عملتُ، فاضطُرِرتُ أن أفعل.

دفاعها عن نفسها ورضا الرئيس

١٤. لمّا كنتُ مطمئنّةَ الضمير وكان الربّ يساعدني فقد عرضتُ المسألةَ

بحيث لم يجدِ الرئيسُ الاقليمي ولا الراهباتُ الحاضرات ما يستوجِب إدانتي. ثم زدتُ الموضوعَ إيضاحًا في خطاب له على انفراد، فرضيَ كلَّ الرضى ووعدَني، إذا استمرَّتِ المؤسَّسة، أن يأذنَ لي بالعودة إليها حين تهدأُ المدينة، لأن البلبلةَ التي اجتاحتْها كانت مستفحلةً كما سأروي.

قضيّة الدير أمام مجلس الكهنة

١٥. بعد يومين أو ثلاثة أيامٍ إجتمعَ بعضُ الوكلاء، والمقرِّرُ، وأعضاءٌ من مجلس الكهنة فأجمعوا على عدم القَبول، بأيٍّ حالٍ، بالدير الجديد، لأن ضُرَّه بالمجتمع مشهورٌ، وعلى وجوبِ رفع القربان المقدس من هناك، وعلى أنّهم لن يُسلِّموا بالإبقاء على الدير مهما كلّف الأمر. وجمعوا الرهبانياتِ جميعَها، من كل واحدةٍ إثنينِ من ذوي العلم ليُبدوا رأيَهم، فكان بعضُهم يَلزَمُ الصمتَ والبعضُ الآخرُ يندِّدون. وأقرّوا، أخيرًا، إلغاءَ الدير. وحدَه أحدُ مُجازي[١٠] رهبانية القديس عبدِ الأحد، على معارضتِه نظامَ الفقرِ المعتمَد في الدير لا الديرَ نفسه، قال إنه لا يمكنُ إلغاؤه بهذه البساطة، بل ينبغي إنعامُ النظرِ، ولا داعي للتسرّع، وإن الأمرَ يعود الى الأسقف، وأورد حججًا أخرى من هذا النوع كانت ذاتَ فائدةٍ كبيرةٍ، إذ كان من حسن الحظ، وقد هاجَ هائجهم، أن لا يُنفَّذَ قرارُ الإلغاء في الحال. وحصلَ في النتيجة ما كان يجب أن يحصُلَ، فقد كان الربُّ راضيًا عن هذه المؤسَّسة وما كانوا جميعًا ليستطيعوا شيئًا يُذكَر ضدَّ إرادتِه. كانوا يعرُضون حُجَجَهم، ويُفصِحون عن غيرةٍ مخلِصة، فكانوا، من دون أن يغيظوا الله، يعذِّبونني وجميعَ الذين يساعدون المشروع؛ وكان هؤلاء عِدَّةً وقاسوا اضطهادًا شديدًا.

ازدياد حدة المعارضة وشمولها

١٦. بلغت البلبلةُ في المدينة حدًّا قصيًّا فما كان من حديثٍ للناس إلّا

---

(١٠) المعلم دومنغوبانييث، وقد أكدّ رواية القديسة في ملاحظةٍ على هامش مخطوط **السيرة** بتاريخ ٢ أيار ١٥٧٥.

المؤسَّسة ، وأجمعوا على إدانتي وإبلاغِ الرئيس الإقليمي وديري موقفَهم. أمّا أنا ، فما كانت كلُّ تقوُّلاتِهم عليّ لتكدِّرني. فسيّان كان عندي كلامُهم وصمتهم. لكن ما كنت أخشاه إنّما كان إلغاءُ الدير. والى هذا ، كان يشقّ عليّ أن يفقِدَ الثقةَ ويقاسيَ المِحَنَ الشديدة من كانوا يساعدونني. أما ما كان يُقال عنّي فكان ، فيما أظنّ ، يسبِّب لي فرحًا. لو كان لي ذرَّةٌ من إيمانٍ لما أصابني اضطراب ، لكن يكفي أن تضعُفَ فضيلةٌ ما حتى ترقُدَ الفضائلُ الأخرى جميعُها. ولذا غمرني حزنٌ عميقٌ طيلة اليومين اللذين انعقدتْ خلالَها في المدينةِ الاجتماعاتُ التي ذكرت. وبينما كنت منهوكة القوى قال لي الرب : «**ألا تعرفين أنني قديرٌ؟ فمِمَّ تخافين؟**» وأَكَّد لي أن الديرَ لن يُلغى. فشعرتُ بعزاءٍ كبير. وأطلَعَ المعارضون المجلسَ الملكيَّ على المسألة ، فصدرَ أمرٌ بأن يُرفَعَ اليه تقريرٌ عن الوقائع.

دعوى الدير أمام المجلس الملكي

١٧. وها نحن أمام دعوى كبيرةٍ تُفتَح. فذهبَ الى البلاطِ ممثِّلون عن المدينة واضطُرَّ أن يذهبَ من يمثِّل الدير ، وما كان المالُ متوفرًا ولا أنا أعرف ما العمل. ودبَّر الربُّ الأمرَ ، فلم يمنعْني رئيسي الاقليمي قط من الاهتمام بالقضيّة ، فهو يقدِّر كلَّ فضيلةٍ ايَّ تقدير بحيث لم يُرِدْ أن يخاصمَنا ولو أنّه لم يكن يساعدنا. لم يأذَنْ لي بالمجيء الى هنا قبل أن يَرى الى ما تؤول المسألة. وبقيتْ خادماتُ الله أولئك وحدهنَّ[١١] ، وكنّ يفعلنَ بصلواتهنَّ أكثر مما كنت أفعل بمفاوضاتي ، لكنّ المثابرةَ في السعي كانت واجبةً.

كان يَخال لي أحيانًا أنّنا خسرنا كلَّ شيء ، لا سيّما عشيّةَ وصولِ الرئيس الاقليمي حين أمرتني الرئيسة بألّا أهتمَّ بشيء ؛ لكان ذلك نهايةَ كلِّ شيء. فتوجّهتُ الى الله وقلتُ له : «ربّي ، هذا البيت ليس لي ، بل إنّما صُنِعَ لك. أما وليس هناك الآن من يفاوض ، فليفاوضْ جلالُك». فاطمأنّتْ روحي تمامًا وزالَ همّي ، فكأن العالمَ كلَّه يفاوضُ عنّي ، وتيقّنتُ من نجاح المشروع.

---

(١١) المبتدئات الأربع في دير القديس يوسف.

المحامي عن الدير

١٨. ومضى الى البلاط يُدافِع عن القضيّة ويعملُ الكثيرَ في شأنِها خادمٌ لله كثيرُ الصلاح، كاهنٌ[١٢] محبٌّ للكمال كان قد ساعدني دائمًا. وقد عمل الكثيرَ الكثيرَ ذلك النبيل[١٣] الذي ذكرتُ وساعدَنا بكافة الوسائل. لقد عانى مشقّاتٍ عدّةً واضطهادًا، وعددتُه وما زلتُ أعتبرُه، في كل شيءٍ، مثلَ أبٍ. وكان الربُّ يبثُّ في الذين يساعدوننا من الحماسة ما يجعلُ كلاً منهم يعتبرُ القضيَّةَ شأنًا من شؤونِه الخاصَّة، وكأنّ حياتَه وكرامتَه متعلّقتان بها، وكان يكفيهم أن يرَوا فيها عملاً يؤولُ الى خدمةِ الرب. وبدا واضحًا أنّه، عزّ وجلّ، يساعدُ المعلّم[١٤] الذي ذكرت، ذلك الكاهنَ الذي كان يشدُّ أزري أيضًا؛ وقد انتدبه الأسقفُ ممثّلاً عنه في اجتماعٍ كبيرٍ، وكان وحدَه في مواجهة الجميع، فهدَّأ خواطرَهم باقتراحه عليهم حلولاً كانت كافيةً لكسبِ الوقت، لكن أيًّا منها لم يكن كافيًا لمنعِهم من العودة حالاً الى تعريض حياتِهم، كما يقال، في سبيل إلغاء الدير. وخادمُ الله هذا الذي ذكرتُ هو مَن أعطى المبتدئاتِ الثوبَ وصمدَ القربانَ المقدّس، فكان هدفًا لاضطهادٍ شديدٍ. دامت هذه المعركةُ نصفَ سنة تقريبًا، فلو أردتُ أن أعرُضَ بالتفصيل المشقّاتِ القاسية التي عانينا، لطال بي المقام.

معارضة المدينة لفقر الدير

١٩. كان يُذهلني كيف كان الشيطان يلاحِق بعضَ نُسيّاتٍ وكيف كان الجميع، أعني أخصامَنا، يرَون ضيرًا كبيرًا للمدينة إثنتي عشرة امرأةً ورئيستَهن فقط، لأن عدد الراهبات لا يجب أن يتجاوزَ ذلك، يعِشْنَ هذه الحياةَ المتقشِّفة. فإذا كان هناك من ضررٍ أو ضلالٍ، فإنه يقع عليهِنَّ. أمّا أن يكونَ ثمّةَ ضررٌ على المدينة فما كان يبدو أثرٌ من ذلك. أما الخصوم فكانوا يجِدُون في المشروع من الأضرار

---

(١٢) غونثالو دي أراندا.
(١٣) فرنثيسكو دي سالثيدو.
(١٤) غسبار داثا (راجع سيرة ٢٣، ٦).

ما يحمِلهم على مناهضته بضميرٍ مرتاح. وانتهوا الى القول: لو أن للدير مواردَ لتجاوزوا الموضوع وأمكننا متابعة المشروع. وكنت مرهقةً مما يقاسيه مناصرونا من مشقَّةٍ أكثر مِمّا أقاسي، أنا، حتى قام في ذهني أن لا ضيرَ في القبول بتأمين الموارد الى أن تَهدأ الخواطرُ ثم في التخلّي عنها لاحقًا. وكان يُخيَّلُ لي أحيانًا أخرى، لكوني شقيّةً وناقصةً، أن الربّ قد يريد ذلك؛ فمن دون موارد ما كنا نستطيع النجاح. ومِلتُ الى هذا الاتفاق.

الرب وبدرو دي ألقنطره يحذّرانها من الرضوخ

٢٠. عشيّة اليوم الذي كنّا سنتداول فيه المسألة، وكنا قد بدأنا المباحثات، قال لي الربُّ أثناء التأمل، الى جانبِ أمورٍ أخرى، أن لا أرضى بالشرط، فإذا بدأنا بامتلاكِ الموارد فلن يُسمحَ لنا بعدئذٍ بالتخلّي عنها. وظهر لي في الليلة نفسِها الراهبُ القديس بدرو دي ألقنطره، وكان قد توفّاه الله. قبل أن تُدرِكه الوفاة، حين اطّلع على المعارضة والاضطهاد اللذَين كنا نلقى، كتبَ لي مُعرِبًا عن سروره بأن يصادِفَ المشروعُ هذه المعارضةَ القويَّةَ، فإنها دليلٌ على ان الربَّ سيكرَّم ايَّ تكريمٍ في هذا الدير ما دامَ الشيطان يتهالك ليمنع إنشاءه؛ وقال لي أيضًا أن لا أقبلَ، في أيّ حالٍ، باقتناءِ مواردَ. وشدّد على هذا مرّتين أو ثلاثًا في رسالته مؤكّدًا أنّي إذا فعلتُ ما يقول فكلُّ شيءٍ يجري كما أريد. كنت قد رأيتُه مرّتين غيرَ هذه بعد وفاته، وشاهدتُ المجدَ الذي ينعمُ به فما أثار خوفي، بل شعرتُ بفرحٍ كبير. لقد كان يَظهر لي دائمًا في جسدٍ ممجَّدٍ، مغمورًا بالسعادة، فكانت رؤيتي إيّاه تغمرني بسعادةٍ عظمى. أذكر أنه في المرّة الأولى قال لي، في ما قال وهو يحدّثني عن سموٍّ ما ينعم به: «طوبى لتقشّفٍ مارستُه فاستحقّ لي هذا الثواب العظيم».

إصرارها على رفض الريع

٢١. أظنّني قد تناولتُ هذه المسألة؛ فسأحصر كلامي هنا على تشديدِ لهجتِه واقتصارِه على القول لي أن لا أقتنيَ موردًا مهما كان السبب، ولماذا لا أتبع نصحَه؛ واختفى في الحال، فأخذني الذهول. وفي الغد، أطلعتُ النبيلَ على ما جرى، وكنت

أستنجد به في كل أمر لأنّه الأكثر اندفاعًا في هذه القضيّة ، وطلبتُ إليه ألّا يصيرَ الاتفاق في أيٍّ حالٍ على تأمين الريع ، بل أن تأخذ الدعوى مجراها . وكان ، هو ، أكثر مني تمسّكًا بهذا الموقف ، فسُرَّ أيّما سرور. وقال لي فيما بعد إنه كان يشترك في تداول هذا الموضوع على مضضٍ منه.

تعقيد جديد

٢٢. وقام ، من بعد ، إنسانٌ آخر متفانٍ وشديدُ الغيرة في خدمة الله فقال إنه ما دامت الدعوى تسير في الطريق الصحيح فليُترَكِ البتُّ فيها الى ذوي العلم. فأخذني من القلقِ المقيمُ المُقْعِدُ لأن بعضَ الذين كانوا يساعدونني وافقوا على هذا الاقتراح ، وكانت هذه الدسيسةُ التي حاكَها الشيطان أصعبَ الدسائس جميعِها هضمًا. لقد ساعدني الربّ في كل شيء ، لكنّ هذا العرض الموجز يقصِّر عن إيضاح ما عانيناه خلال سنتين منذ البدء بإنشاء هذا البيت الى الإنتهاء منه. وكان نصف السنة هذا الأخير والنصف الأول أشدّ تلك الفترة مشقّةً.

مساعدة الأبِ الدومينيكي لها

٢٣. وحين هدأت المدينة قليلاً تحرَّك ببراعةٍ الأبُ الدومينيكي المُجاز الذي كان يساعدنا ولو كان غائبًا ؛ لكنّ الربّ جاءَ به في وقتٍ أفادَنا فيه فائدةً جُلّى وكأن الربَّ ، عزّ وجلّ ، إنما أتى به لهذه الغاية وحدَها . وقد صرّح لي فيما بعد أن لم يكن هناك ما يُلزِمُه بالقدوم وأنه اطّلع على القضيّة صدفةً. ومكثَ طيلةَ الوقت اللازم. بعد ذهابه ، سعى بطريقةٍ ما لدى رئيسنا الاقليمي لِيأذَنَ لنا كي نأتيَ الى هذا البيت ، أنا وبعضَ الراهبات ، وكان الحصول على الإذن بهذه السرعة يبدو مستحيلاً ، لتأديةِ صلاة الفرض وتثقيفِ اللواتي كنّ هناك. وكان يومُ قدومِنا عزاءً كبيرًا لي[(١٥)] .

رؤيا المسيح والعذراء

٢٤. قبل دخولي الدير ، كنتُ في الكنيسة أقوم بالتأمّل ، فرأيتُ المسيحَ وانا

(١٥) تردّد الرئيس الاقليمي قبل أن يمنح تريزا الاذن خطيًّا بالعودة الى دير القديس يوسف

في الخطافِ تقريبًا، وبدا لي يستقبلني بحبٍّ كبيرٍ ويضَعُ على رأسي إكليلاً وهو يشكرني على ما صنعت من أجل والدته.

ومرَّةً أخرى، كانت الراهبات جميعهُن، في الخورس يقمن بالتأمّل بعد صلاةِ المساء، فشاهدتُ السيِّدةَ العذراء في مجدٍ عظيم ترتدي معطفًا أبيضَ وكأنّها تحمينا جميعًا تحتَه، فأدركتُ سموَّ درجةِ المجد الذي سيُعطيه الربُّ لراهباتِ هذا الدير.

نحو تعاطف الشعب

٢٥. ما إن بدأنا نتلو صلواتِ الفرض حتى أخذَ ينمو عطفُ الشعب على هذا البيت. قُبِلَتْ راهباتٌ جديداتٌ وبدأ الربّ يحرِّكُ من كانوا قد أمعنوا في اضطهادنا ليبالِغوا في مساعدتِنا ويُحسنوا إلينا. وهكذا كانوا يُوافقون على ما كانوا قد استنكروه. وتخلّوا عن الدعوى شيئًا فشيئًا، وكانوا يقولون إنهم أدركوا أنّ هذا الديرَ عملُ الله لأنه، عزّ وجلّ، رغمَ المعارضة الشديدة، أراد أن يُنشأ. وليس ثمّة من يَرى، في الوقت الحاضر، أنه كان من الحِكمة الاقلاعُ عن تأسيسه. ولذا فإنّهم يُعنون أشدَّ العناية بتوفير الحسنات لنا حتى إنّ الرب، دون أن نطلبَ منهم أو نسألهم، يحثُّهم ليرسِلوها لنا، فلا ينقصُنا الضروري للعيش، ورجائي بالرب أنّ الأمر سيكون على هذه الحال دائمًا. إن الراهبات قليلاتٌ، فإذا قمنَ بواجبهنّ كما يُعطيهنّ الربُّ نعمتَه الآن ليفعلْنَه، فأنا على يقينٍ أنْ لن يُعوِزهنّ شيء، ولن يحتجن لأن يُثقِّلْن على أحد أو يضايقْنَه لأنّ الربّ سيهتمُّ بأمرهنّ كما فعل الى الآن.

طريقة عيش الراهبات

٢٦. إنه لعزاءٌ لي فائقُ الحدّ أن أراني منزويةً، هنا، بين نفوسٍ تجرّدت عن

في ٢٢ آب ١٥٦٣. وربما سمح لها قبل ذلك التاريخ بزيارة المبتدئات.

وقبل أن تصل الى دير القديس يوسف، مرّت تريزا على كنيسة مار منصور، وأمام العذراء نزعت حذاءها، واتخذت اسم «تريزا ليسوع» ودخلت الدير حافيةً. وفي سنة ١٥٦٧ فرض الرئيس العام روسّي (Rossi) عادة تغيير الاسم على الكرمليين الحفاة جميعا.

الدنيا هذا التجرّد، ولا يتذاكرن إلّا الوسائل التي تؤدّي الى التقدّم في خدمة الله. عزاؤهنّ الوحدة، وعذابهُن التفكيرُ في مقابلة أحدٍ لا يساعدُهنّ على إيقاد حبٍّ العروس فيهنّ، ولو كان من ذوي القربى الأدنين[١٦]. وعليه، فليس يقصد هذا البيتَ سوى من يخوض في هذا الحديث، وإلّا فلا هو ينشرح صدرُه ولا هنّ يجدن مسرّة. لا يَخُضْنَ في حديثٍ إلّا عن الله، لذا لا يفهمنَ ولا يفهمهنَّ إلّا من كان هذا حديثَه. نلتزم قانونَ سيِّدة الكرمل، ونتقيّد به دون تلطيف بل كما فرضه الأخ هوغو، كردينال سانتا سابينا، ونُشِرَ سنة ١٢٤٨، في السنة الخامسة لحبرية البابا زخيا الرابع.

صوم وتقشّف

٢٧. في ظنّي أن المشقّات التي احتملناها لم تذهب سُدىً. فالآن، على صرامة القانون – إذ لا نأكل اللحمَ أبدًا إلّا عند الضرورة، ونصومُ ثمانيةَ أشهر، ونلتزم أمورًا اخرى كما هو الحال في القانون الأصلي –، فإن الأخوات يرين هذه الواجبات خفيفةً ويُلزِمْن أنفسهنَّ بممارساتٍ أخرى اعتبرناها لازمةً لحفظ القانون حفظًا أكمل. ورجائي بنعمةِ الرب أننا سنسيرُ قُدُمًا في ما بدأنا، كما قال لي عزّ وجلّ.

طريقة عيش دير ألكالا

٢٨. أما الدير الآخر الذي كانت تسعى الى تأسيسه الراهبةُ الورِعة[١٧] التي تحدّثتُ عنها فقد ساعدَ الربُّ على إنشائه وها هو قائم في ألكالا[١٨]، ولم يخلُ الأمر من معارضة شديدة، ولم تفُتْها المشقّاتُ الشديدة. وأعرف أن الراهباتِ يعِشْن هناك حياةَ ورعٍ كاملةً وفقًا لقانوننا هذا الأصلي. ألا رضيَ الربُّ أن يكون كلُّ شيءٍ لمجدِه وإكرامه، ولمجدِ العذراءِ مريم التي نلبس ثوبَها ولإكرامِها. آمين.

---

(١٦) أنظر كتاب **التأسيسات** ١، ٢.

(١٧) ماريا ليسوع. راجع **سيرة** ٣٥. ١ وما يليه.

(١٨) القلعة وهي مدينة على مقربة من مدريد.

تُشدِّد على الأمانة في هذه الطريقة

٢٩. يخيّل إليَّ أن قصةَ تأسيس هذا الدير الطويلةَ ستكدِّر حضرتَك ؛ ومع ذلك فهي قصيرةٌ جدًّا إذا نظرنا المشقَّاتِ الكثيرةَ والعجائبَ العديدةَ التي صنعها الربّ في هذا العمل ، والشهودُ على ذلك كثر ويُقْسِمون على صحته . لذا أسأل حضرتك حبًّا بالله ، أن تتلف ما عدا ذلك مما كتبتُه ، إذا بدا لك فيه ، وان تحفظ ما يخصّ هذا الدير ، وتسلّمَه ، بعد موتي ، الى الأخوات اللواتي قد يُوجَدْنَ هنا ، فانه سيشجّع اللواتي يقصِدنه تشجيعًا حتى يَخْدُمْنَ الله ، ويَحثّهنّ على الجدّ لئلاّ يعتريَ الانحطاط هذا المشروع ، بل أن يستمرّ دائمًا في تقدّمٍ لا سيّما حين يَرَيْنَ كلّ ما صنعه ، عزّ وجلّ ، من أجل تحقيقه بواسطة كائن حقيرٍ ودنيءٍ مثلي .

وما دام أن الربَّ أراد إظهارَ قدرته بشكلٍ خاص في مساعدته على إنجاز هذا المشروع ، ففي تقديري أنّ التي تشرع في إدخال التهاون في السعي وراءَ الكمال الذي دشّنه ، عزّ وجلّ ، هنا ، وساعد على أن يتّبع بعذوبةٍ كبيرة ، تسيءُ الصنيع ويعاقِبها الله عقابًا صارمًا . وواضحٌ أنّ طريق الكمال هنا خفيف الاحتمال ، سهلُ الاتّباع ، وقد أعدّ كلّ شيء أحسنَ إعدادٍ ليعيشَ فيه دائمًا من يَردنَ أن يتنعّمن في العزلة مع عريسهنّ المسيح . وهذا ما يجب أن يهدِفن اليه دائمًا ، وأن يكنّ وحدهنّ معه وحده ، وأن لا يزيدَ عددُهنَّ على ثلاث عشرة راهبةً . فقد تيّقنت من نصائحَ عديدةٍ ، وعرفتُ بالاختبارِ أن العددَ لا ينبغي أن يتجاوزَ الثلاث عشرة إذا أردنا المحافظةَ على الروحِ المقرَّر والعيشَ من الحسنات دونما حاجةٍ الى السؤال . وليثقنَ دائمًا بالتي سعت الى الأحسن ، واحتملت مشقّاتٍ كبيرةً في هذا السبيل تساعدها صلاةُ الكثيرين . إنّ السرور العظيم ، والفرحَ ، والارتياحَ التي ينعمُ بها جميعُ من سكن هذا البيت ، والصحّة التي لم يعهدوا مثلها من قبل ، تُثبت أنَّ ما أعتُمِد هو ما يناسب . فمن رأت هذا النهجَ شاقًّا فلتلقِ المسؤوليةَ على ضَعفِ روحِها لا على القانون المطبَّق هنا ، فإن أشخاصًا ضِعافَ البنية ، سقيمين ، لكنّهم ذوو روحٍ راسخ ، يرون فيه عيشًا رغدًا . فلتذهب ، إذًا ، الى ديرٍ آخر تخلِّص نفسها وفقًا لروحه .

الفصل السابع والثلاثون

تتحدَّثُ عن مفاعيل بعض النعم التي منحها الربُّ. ترفِقُ كلامَها بتعليمٍ مفيد. تتكلّم على كيفية السعي الى بلوغ درجةٍ أسمى من المجد، وعلى واجب تقديرها، وتعلن أنْ لا مشقّةَ ينبغي أن تُثنيَنا عن الخيرات الأبدية

لماذا تكتب

١. يشقُّ عليَّ أن أعودَ لأفيض في الحديث عن المنن التي منحني الربّ، فقد تواترت حتى ليصعب التصديقُ بأنه أولاها إنسانًا حقيرًا مثلي. غير أنّي، إطاعةً للربّ الذي أمرني بذلك، وإطاعةً لحضرتِكما[1]، سأروي بعضَ الأشياء تمجيدًا له تعالى، لعلّه، عزّ وجلّ، يجعل ذلك لفائدةِ نفسٍ ما حين ترى أن الربّ حَبَا شيئًا حقيرًا مثلي بهذه الهبات، - ومَا تُراه لا يعطيه مَن خَدَمَه خِدمةً نصوحًا؟ -، فيتشجّعَ الجميعُ لإرضائه، تعالى، إذ إنه، حتى في هذه الحياة، يُنْعِمُ بهذه الهبات.

مقابلة بين مُتَعِ الدنيا ومتعِ السماء

٢. يجب أن نفهمَ أولاً أن في هذه المنن التي يُعطيها الربُ النفسَ مجدًا يَزيد أو ينقص. فالمجدُ، واللذّةُ، والعزاءُ، التي يمنحُها في بعض الرؤى، تفوقُ كثيرًا ما

(١) الأبوين دومنغوبانييث وغارثيا دي توليدو.

يعطيه في غيرِها ، فأراني أنذهِلُ من الفرق الشاسع في الاستمتاع حتى في هذه الحياة. فقد يبلغ سموُّ اللذَّةِ والبهجة اللتين يعطيهما الله في رؤيا او في انخطافٍ ، درجةً يُخال معها أنه يستحيلُ وجودُ ما نستطيع أن نرغبَ فيه في هذه الدنيا ، فلا النفس تتمنّاه عندئذٍ ولا تطلبُ سرورًا أعظم. ومع ذلك ، فبعد أن أفهمني الربُّ عِظَمَ الفرق بين استمتاع البعض واستمتاعِ الآخرين في السماء ، أرى جليًّا أيضًا أنه ، حين يشاء ، يعطي في هذه الدنيا من دون حساب. وهكذا فإني ، انا ايضًا ، لا أودّ وضعَ حدٍّ لخدمتي إياه ، عزّ وجلّ ، بل أن أجعلَ حياتي كلَّها ، وقواي ، وصحّتي في خدمته ؛ ولا أودّ أن أخسرَ ، بذنْبي ، مقدارَ ذرَّةٍ مما يزيد في تنعّمي. وأؤكِّد أنّني لو خُيِّرتُ بين مقاساتي جميعَ أنواعِ المشقّات حتى انتهاءِ العالم وأرتقي ، من بعدُ ، في سُلّمِ المجد قليلاً ، وبين انعتاقي من أيِّ مشقّةٍ وأذهب الى درجةٍ أدنى قليلاً من المجد ، لرضيتُ ، بكلّ طيبة خاطر ، أن أَتحمَّلَ جَميعَ المشقّات لأتنعَّمَ ولو أكثرَ قليلاً بفهمِ عظائم الله ، لأني أرى أنَّ مَن تزدادُ معرفتُه لله يزدادُ حبًّا به وتمجيدًا له.

تواضع

٣. لا أَقصدُ أنّني لا أرضى بالسماء ، وإني لأحسَبُ نفسي مغبوطةً لوجودي فيها ، ولو في المكان الأدنى ، فإنَّ الربَّ لَيصنعُ معي بذلك رحمةً عظيمةً لأن مكاني كان في أدنى موضعٍ من جهنّم. ألا رضيَ ، عزّ وجلّ ، أن أمضيَ الى هناك ولا يحسَب لي خطاياي الفظيعة. أعني أنّي لو استطعتُ وأعطاني الربُّ نعمةً لاحتملَ كثيرًا ، ولو كلَّفني ذلك الكثيرَ الكثيرَ ، فلا أرضى بأن أخسرَ شيئًا بذنْبي.

ما أشقاني ، انا التي بكثرة ذنوبي كنتُ قد خسرتُ كلَّ شيء!

انطباع صورة جمال المسيح

٤. تجبُ الإشارةُ أيضًا الى أنَّ كلَّ نعمةٍ كان الربُّ يمنحينها ، رؤيا كانت أو وحيًا ، كانت توفّر لنفسي مكسبًا عظيمًا ، بل إن بعضَ الرؤى كانت تغمُر نفسي بمكاسبَ جمَّةٍ. فرؤيتي المسيحَ طبعت فيّ جمالَه الرائع ، وما زال الى اليوم مطبوعًا.

كانت تكفي لهذا رؤيته مرَّةً واحدةً. فالأحرى به ينطبعُ راسخًا ما دام الرب يمنحني غالبًا هذه النعمة! واستفدتُ أجزلَ فائدة وهي: انه كان بي نقيصةٌ جسيمةٌ سبَّبتْ لي أضرارًا بالغةً. فعندما كنتُ أشعرُ بأن شخصًا يكنّ لي المودَّةَ، ويروقُني أمرُه، أتعلّقُ به حتى تصيرَ ذاكرتي أسيرةَ التفكير فيه، ولو لم يكن في نيّتي إغاظةُ الله، إلّا أنّي كنت أرتاحُ الى رؤيتِه، والتفكير فيه وفي الصفاتِ الحسنة التي أجدُها فيه. لقد كان هذا الأمر وخيمًا بحيث ضلَّلَ نفسي تضليلاً. وبعد أن شاهدتُ جمالَ الرب الفائق ما عدتُ رأيتُ أحدًا بإزائه حَسَنًا ولا جديرًا بأن يَشغلَني. ما إن حدَّقتُ قليلاً بناظِرَيْ بصيرتي في الصورة المرسومة في نفسي حتى تَحرَّرْتُ من ذلك تمامًا. ومذ ذاك، صرتُ إخالُ كلَّ ما أراه يُثير فيّ النفورَ إذا ما قورن بالجمالات والمحاسن التي أراها في هذا الربّ. فلا علمَ ولا بهجةَ، مهما كان شكلُها، إلّا وأحسبُها لا شيء بالمقارنة مع كلمةٍ واحدةٍ أسمعها من ذاك الفم الإلهي. فكم بالحري إذا كانت كلماتُه كثيرةً. وإذا لم يسمح الربّ، بسبب خطاياي، أن تُمَّحى من ذاكرتي هذه الأفكار، أعتقد من المستحيل أن يستطيعَ أحدٌ أن يَشغلها؛ فما إن أعود فأتذكّر قليلاً هذا الربَّ حتى أستعيدَ حرِّيَّتي.

حبّها لمعرّفيها

٥. حصل لي ذلك مع أحد معرِّفيَّ. إنّي أحِبّ كثيرًا من يوجِّهون نفسي. ولأنّي أعتبرهم يقومون حقًّا مقامَ الله، يبدو لي أنّ عاطفتي تميلُ إليهم أكثرَ منها الى غيرهم. وكنت واثقةً بنفسي فكنت أُظهِرُ لهم ظرفًا. أما وهُمْ خُدَّام الله، يعيشون في خوفه تعالى، فكانوا يخشَون أن أتعلَّق بهم بشكلٍ ما وأتقيَّدَ بحبِّهم، ولو حبًّا مقدَّسًا، فكانوا يُظهرون لي الجفاء. كان هذا يحدث بعد التزامي بطاعتهم. وما كنت قبلِ ذلك لأحفظَ لهم هذه المحبَّة. كنت أسخر من كثرة سذاجَتِهم ولو أنّي ما كنت أُفصِحُ دائمًا بوضوح، كما كنت أفكّر، عن عدم تعلّقي بشخصٍ ما. لكنّي كنت أُطَمئِنُهم. وبعد أن يزدادوا معرفةً بي، كانوا يُدركون ما أنا مدينةٌ به للربّ. فكانت الشبُهات حولي، إذًا، تراودُهم في البدء فقط.

محادثة المسيح

وبدأ ينمو فيّ حبٌّ أعظم لهذا «السيِّد» وثقةٌ متينةٌ به مع تواتر رؤيتي إيّاه، لأني كنت أجاذبه أطرافَ الحديث دائمًا. وعلى كونِه الله، عرفتُ فيه إنسانًا لا يُذهله ضعفُ البشر، ويعرف طبيعتَنا البائسة، المعرَّضة للسقوط غالبًا بسبب الخطيئة الأولى التي جاء، هو، للتعويض عنها. يُمكنني أن أعاشرَه كصديقٍ على كونِه سيِّدًا، فأنا أعرف أنه ليس كالذين نعتبرهم في هذه الدنيا أسيادًا، فإنهم يجعلون سيادتَهم كلَّها في مظاهر سلطةٍ مصطنعةٍ، فيكون هناك أوقاتٌ للتحدُّث إليهم وأشخاصٌ محظوظون ليخاطبوهم. أما إذا كان لمِسكينٍ ما حاجةٌ، فما أكثرَ ما تكلِّفه مقابلتُهم من مداوراتٍ، وشفاعاتٍ، ومعاناة! وأما اذا كان المقصودُ مقابلةَ الملك، فلا يوفَّق بالدنوِّ منه الفقيرُ أو وضيعُ الأصل، بل يجب أن يسألَ من هم ذوو الحُظوة. والحقُّ أنّ ذوي الحظوة ليسوا أناسًا يدوسون العالمَ بأرجلهم، لأن هؤلاء ينطقون بالحقائق، فلا يخافون أحدًا وليسوا مدينين لأحد؛ هؤلاء ليسوا مهيَّئين للعيش في القصور، وما على سكّانِها أن يتعوّدوا هذه الأمور، بل عليهم أن يكتموا ما يبدو لهم شرًّا، فلا يجرُؤون حتى على التفكيرِ فيه لئلاّ يفقِدوا الحُظوة.

مناجاة الرب

٦. يا ملكَ المجد وربَّ الملوك جميعًا! ليست مملكتُك مسلّحةً بقضبانٍ، لأن ليس لها حدود! ما أقلّ حاجتَنا الى وسطاء للوصول إليك! يكفي أن نرى شخصَك فنرى حالاً أنّك وحدَك جديرٌ بأن تُدعى سيّدًا نظرًا لما توحي من جَلال. لستَ بحاجةٍ لمرافقين أو حرسٍ ليُعرفَ أنك ملك. هنا، على الأرض، لا يُميَّز ملكٌ عن غيره إذا كان وحيدًا، ومهما يحاول أن يُعرَفَ ملكًا لا يصدِّقوه، لأنه لا يمتازُ بشيءٍ عن الآخرين. لذا ينبغي أن يُرى ما يحمل على التصديق؛ فوجب أن يبديَ مظاهرَ السلطة المصطنعة هذه وإلّا، فمن دونِها لن يعتبروه. إن ملامح القدرة لا تنبعث من ذاته، فيجب أن تأتيَه السلطة من آخرين. إيه ربّي! إيه يا ملكي! من تُراه يستطيع أن يصفَ جلالك! يستحيل ألّا نرى أنّك، بذاتِك، أمبراطورٌ عظيمٌ؛ فمشاهدة هذا

الجلال تُذهلُ النفوس، لكنّ مشاهدةَ تواضعِك، ربّي، وهذا الجلالِ، والحبّ الذي تُبديه لإنسانٍ مثلي، تَزيد من الذهول. ما إن تنقضي لحظةُ الذهول الأولى والخوفِ من جلالِك حتى نستطيعَ أن نتداولَ وإيّاك أيَّ أمر، ونحدِّثك كما يحلو لنا الحديث، ولولا زَمَنا خوفٌ من إغاظتك أكبرُ من ذاك. لكنه ليس خوفًا من العِقاب، ربّي، لأن هذا ليس شيئًا إزاء الخوف من خسراننا إيّاك.

فوائد رؤيا المسيح

٧. هذه هي فوائد هذه الرؤيا، فضلاً عن أخرى جمّةٍ تُخلِّفها في النفس. فاذا كانت من الله، يُعرَف ذلك من المفاعيل، حين تستنير النفس: فإنّ الربّ، كما قلت مرارًا[٢]، يريدُها أن تكونَ في الظلمات وألّا ترى هذا النور؛ فلا عجبَ أن تخافَ نفسٌ ترى ذاتَها حقيرةً كما أرى حقارتي. لقد حدثَ لي، منذ فترةٍ قصيرةٍ جدًّا، أن قضيتُ ثمانيةَ أيّامٍ وكأني لا أعرف ولا أستطيع أن أدركَ ما أنا مدينةٌ به لله، ولا أذكر أنعامَه، بل كأنَّ بنفسي خبَلاً، لا أدري ما يَشغلُها، ولا كيف يَشغلها. لم تكن تراودُها أفكارٌ سيّئةٌ، لكنّي كنت عاجزةً عن تكوين الأفكار الصالحة حتى إنّي كنت أسخر من ذاتي وأرتاح لأن أرى دناءةَ نفسٍ حين لا يعمل الله فيها دائمًا. فهي ترى جليًّا، في هذه الحال، أنّها ليست وحدَها من دونه تعالى، كما في المشقّات الشديدة التي ذكرتُ وقاسيتُها احيانًا. فلو وضعتِ الحطَب، وبذلتِ القليلَ الذي تستطيع، فإن نارَ الحبِّ لا تتّقد. إنه لغزارةِ رحمتِه يدَعُنا نرى الدخانَ لنفهمَ أنّ هذا الحبَّ لم يمتْ تمامًا. ويُوقِدُ الربّ النارَ من جديد، وعبثًا تُجهِد النفسُ ذاتَها نفخًا وترتيبَ حطب، فكأنّ كلّ ما تفعل يُمعِن في إخماد النار. فمن الأفضل، في رأيي، أن تسلِّم كليًّا بأنها لا تستطيع شيئًا وحدَها، وتنصرفَ، كما قلتُ، الى أعمالٍ أخرى كَسْبيّةٍ. ولعلّ الربَّ يحرمُها التأمُّلَ لتنصرفَ الى هذه الأعمال وتعرفَ بالإختبار ما أقل ما تستطيع عمله بمفردها.

---

(٢) سيرة ٣٠، ٨–١٨.

مناجاة وشكوى

٨. في الحقيقة، لقد نعمتُ اليومَ بصُحبةِ الربّ وتجرّأتُ فشكوتُ منه، عزّ وجلّ، وقلتُ له: «ما هذا يا إلهي؟ ألا يكفي أنَّك تُبقيني في هذه الحياة البائِسة، وأني أحتمل ذلك حبًّا بك، فأرضى العيشَ حيث كلُّ شيءٍ عوائقُ تحول دون تنعّمي بك، فعليّ أن آكُل، وأنامَ، وأفاوضَ، وأتداولَ أمورًا مع الجميع، وأعانيَ كلَّ ذلك حبًّا بك؟ وأنت، ربّي، تعرفُ حقَّ المعرفة أن ذلك ألمٌ مبرِّحٌ لي، أفتحجب ذاتَك عنّي حتى في الأويقات اليسيرة التي تبقى لي كي أتنعَّمَ بك؟ فكيف يتوافق هذا مع رحمتك؟ كيف يُطيقه حبُّك إيّاي؟ في ظنّي، ربّي، أني لو استطعت أن أتخفّى عنك كما تحتجب، أنت، عني، ففي اعتقادي وحسباني أن الحبَّ الذي تكنُّه لي لا يُطيق ذلك. فإنّما أنتَ معي وتراني دائمًا. هذا لا يُطاق احتمالُه، ربّي. فأتوسّل إليك أن تعتبرَ ذلك إهانةً لمن تحبُّك هذا الحب».

ملك السماء وملوك الأرض

٩. لقد حدث أن قلت هذا وأشياءَ أخرى بعد أن عرفتُ أنَّ مكاني في جهنم كان أرحم مما أستحِقّ. غير أن الحبَّ يُضعِفُ العقلَ أحيانًا فلا أتمالكُ نفسي، فتدور هذه الشكاوى في دماغي وتدور، ويتحمّل الربّ منّي كلَّ شيء. تباركَ هذا الملكُ السامي الصلاح! ليتَنا نَصِلُ الى ملوكِ الأرض بمثلِ هذه الجسارة!... لا أعجبُ من أن لا يجرؤَ الناسُ على مخاطبة الملك، بل طبيعي أن يخافوه، وعلى مخاطبة السادة رؤساءِ القوم. أما والعالم على ما هو عليه، فيجب أنْ يطولَ عمرُ الناس كثيرًا ليتعلّموا أنماطَ العيش، ومستجدَّاتِه، وطرائقَه ليبذلوا قسطًا منها لخدمة الله. اني لأعوذ بالصليب ممّا يجري[٣]. الواقع أنني ما كنت أعرفُ كيف أعيشُ بعد، حين انزويت هنا. فلا يُعتبَرُ مزاحًا التقصيرُ في معاملةِ الناس بأكثر مما يستحقّون، بل يَعُدُّونه إهانةً حقًّا بحيث ينبغي عليك تقديمُ ترضيةٍ متذرّعًا بحسن النيّة، إذا كان ثمّةَ تقصيرٌ، كما قلت. ولعلّ الله يرضى فيصدّقوك.

(٣) أي انها ترسم إشارة الصليب تعوّذًا به وتعجّبا.

إرضاء الله واللياقات العالمية

١٠. أعود الى القول إني ، في الحقيقة ، ما كنت أعرفُ كيف أعيش بعد ، فالنفس المسكينة كانت في عناء : تُؤمَر أن تُشغِلَ فكرها دائمًا في الله ، وترى من الضروري توجيهَه نحوه ، تعالى ، لتتحرّر من مخاطر عديدة . وترى ، من جهة أخرى ، أنها لا تستطيع الإخلال بالأعراف المعهودة في العالم وإلّا أفسحت مجالَ التشكُّكِ أمام الذين يجعلون كرامَتهم في هذه الأعراف. لقد كنتُ في تعبٍ ، وما كنتُ لأقدِّمَ اعتذاري ، لأني ما كنت أستطيع ، رغم محاولاتي ، تحاشيَ الأخطاء في هذا المجال وهو ، كما قلت ، غيرُ قليل الأهمية بنظر العالم . أصحيحٌ أنّ الرهبان معذورون ، ولو كان من الواجب أن نعذرهم في هذا المجال ؟ – كلاّ ، فإنّ الأديار ، كما يقال ، يجب أن تكون بِلاطًا لحسنِ التصرّفات ومعرفتِها . أمّا أنا ، فلا أفهم هذا حقًّا . وتساءلتُ ما إذا قال أَحدُ القدّيسين إنها يجب أن تكون بلاطًا يُعلَّم فيه الذين يودّون أن يؤلِّفوا حاشيةَ البلاط السماوي ، ففُهِمَ القولُ على عكس معناه . إن الذين يقضي واجبُهم بأن يهتمّوا باستمرار بإرضاءِ الله واحتقار العالم ، لا أدري كيف يستطيعون أن يبذُلوا هذا الاهتمامَ لِيُرضوا الذين يعيشون في العالم بأشياءَ غالبًا ما تتبدّل . ولو أمكن تعلُّمُ هذه الأمور دفعةً واحدةً ، لهان الأمر . لكنَّ وضعَ العناوين للرسائل يحتاجُ وحدَه الى أستاذٍ يعلِّم طريقةَ إثباتها ، كما يُقال ، لأن الهامشَ يُترَكُ حينًا في جهة ، وحينًا في جهةٍ أخرى ، ومَن لم تكن العادة ان يُعطى لقبَ «أفخم» وُضِعَ له لقبُ «شهير»[٤] .

شقاء الروحيّين في العالم

١١. لا أدري إلامَ سيُفضي هذا ؛ فأنا لم أُكمِل الخمسينَ من عمري[٥] ، وفي ما رأيت من التحوّلات ما يجعلني لا أعرف كيف أعيش . فالذين يولَدون اليوم لو عاشوا طويلاً ، ما عساهم يفعلون؟ في الحقيقة ، إنّي أُشفِق على الناس الروحيّين الذين

(٤) راجت المبالغة في استعمال الالقاب في عصر القديسة حتى كانت تصل الى التحدّي ، ممّا دعا فيليب الثاني لنشر قرارٍ تنظيمي للالقاب .

(٥) ولدت سنة ١٥١٥ وهي تكتب هذا في أواخر سنة ١٥٦٥ .

عليهم أن يمكثوا في العالم لغاياتٍ مقدّسة، لأن الصليبَ الذي يحملونه في حياتهم لرهيب. فلو استطاعوا، أن يتّفقوا جميعًا، ويَصيروا جَهَلةً في هذه العلوم، ويُريدوا أن يعتبرَهم الناس كذلك، لَتحرّروا من عناءٍ كبير.

١٢. ولكن، يا لها من سخافاتٍ غُصتُ فيها! فبدلاً من أن أتحدّث عن عظائم الله، رحت أتحدّث عن دناءات العالم. وما دامَ الرب منحني نعمةً بتركي العالم، فإني أودُّ أن أخرجَ منه. أما الذين يتهالكون في التمسّك بهذه التفاهات، فليتدبّروا أمرهم. لا سمحَ الله بأن ندفعَ ثمنَها غاليًا في الحياة الأخرى التي لا تتبدّل. آمين.

الفصل الثامن والثلاثون

تتحدّث عن بعضٍ من كبيرةٍ منحَها الربّ إياها ككشفِهِ لها بعضَ أسرارِ السماء ، وعن رؤىً وتجلّياتٍ تكرّم بها عليها ، عزّ وجلّ . تتكلّم على المفاعيل التي كانت تُحدِثها فيها والفائدةِ الجزيلة التي جنتها لنفسِها

انخطافها الى قلب السماء

١. كنت ذاتَ ليلةٍ ، وقد ثَقُلَ عليّ المرضُ ، أودُّ أن أعفيَ نفسي من التأمل ، فأخذتُ سبحةً لأنشغلَ شفهيًّا ، ساعيةً في أن لا أجمعَ ذهني ، ولو أنّي ، خارجيًّا ، كنتُ مختليةً في مصلّى . لكن هذه المساعي قلّما تنفعُ متى أراد الرب خلافًا لذلك . مكثتُ قليلاً جدًّا على هذه الحال ، فاعتراني إنجذابٌ فيه من القوّة ما أعجزَني عن مقاومته . خُيِّل إليّ أنّي في قلب السماء ، وشاهدتُ ، أوّل من شاهدت هناك ، أبي وأمي وأشياء أخرى عظيمةً ، في حيِّزٍ من الوقت يكاد لا يكفي لتلاوة السلام الملائكي ، بحيث إني انفصلتُ عن ذاتي بقوّةِ هذه النعمة الفائقة . أما الوقت ، فقد يكون أطولَ ممّا قلت إنه وجيزٌ جدًّا ، لكنه يبدو قصيرًا جدًّا . خشيت أن يكونَ الأمرُ وهمًا ؛ ومع أني ما خلته كذلك . فما كنت أدري ما العمل لأن الحياء كان يقبضني عن إطلاع المعرّف على الأمر ؛ وما كان الحياء عن تواضع ، فيما أظن ، بل لأني خلته سيَسخر مني ، ويقول : « ها هو القديس بولس يرى أشياءَ من السماء[1] ، أو القديس

(١) اشارة الى انخطاف بولس الرسول الى السماء (٢ كور ١٢ ، ٢ و ٤).

أيرونيمس[٢] ! » وكون هذين القدِّيسَين المجيدين نَعِمَا بهذه الأمور زادَ في خوفي ، فكنت أذرف الدمعَ غزيرًا لأني ما كنت أراني سائرةً في طريقِها. أخيرًا ، مضيتُ الى المعرّف ، ولو شقّ عليّ ذلك ، لأني ما كنت أجرؤُ على كتمانِ شيءٍ عنه أبدًا ، ولو أن إعلاني الأمرَ له يَغُمّني كثيرًا ، خوفًا من أن أكون مخدوعةً . فحين رآني مرهقة ، عزّاني كثيرًا بأقوالٍ رقيقةٍ جدًّا ليبدِّدَ غمّي .

إنكشاف أسرار سامية

٢. وتوالت الأيام فحدثَ لي ويحدثُ أن يروحَ الربّ يكشف لي أسرارًا أشدَّ عمقًا. وعبثًا ترغب النفسُ في أن ترى ممّا يتمثّل لها ، بل يستحيل عليها ذلك. لذا ما كنت أرى ، في كلِّ مرَّةٍ ، أكثرَ ممّا كان الربّ يريد أن يكشفَ لي. وكان ذلك من السموّ بحيث إن أقلّه كان يكفي ليدعَ النفس في ذهولٍ ولِتُحقِّقَ فائدةً جلّى فتحتقر أشياءَ الحياة وتزدريها. أودّ لو أستطيع أن أوضحَ شيئًا من أدنى ما كنت أفهم ، وألتمِس الى ذلك سبيلاً ، فأجده مستحيلاً. فلا مجال للمقارنة بين النور الذي نرى هنا وذاك الذي يتمثّل هناك ، حيث كلُّ شيءٍ نورٌ ، لأن ضياءَ الشمس إزاءَه يبدو باهتًا جدًّا. الخلاصة إن المخيَّلة ، مهما بلغت حِدَّتُها ، تُقصِّر عن رسم هذا النور أو تصويرِه، أو وصفِ أيٍّ من الأمور التي كان الربّ يكشفها لي في لذَّةٍ سامية يستحيل التعبيرُ عنها. فتَنعُّمُ الحواس جميعِها يبلغُ درجةً من العذوبة رفيعةً يعجِزُ عنها الوصفُ ، فمن الأفضل ألّا أَزيدَ في القول.

رؤيا ومناجاة

٣. لبثتُ على هذه الحال مرَّةً أكثر من ساعةٍ والربّ يكشف لي أمورًا معجِبَةً وما خِلتُه يبتعد عنّي. قال لي : « **أنظري ، يا ابنتي ، ما يَخسِرُه الذين يُخاصِمونني. لا تُقَصِّري عن تَبليغِه إليهم** » .

---

(٢) اشارة الى رسالة القديس ايرونيموس الى اوستاكيوس. (الرسالة ٤١٦) .

آه، ربّي! ما أقلَّ ما يُفيد كلامي أولئك الذين تعمي أعمالُهم بصيرتَهم إذا لم تُنِرْهُم يا ذا الجلال! إن البعضَ ممن وهبتَهم نورَك استفادوا من معرفة عظائمِك؛ لكنَّهم يَرون، ربّي، أنك كشفتَها لمخلوقٍ حقيرٍ، بائسٍ مثلي، فمن العجَب أن يصدِّقني أحد. تباركَ إسمُك، وتباركَتْ رحمتُك لأني، فيما خَصَّني، عرفتُ تقدُّمًا ملموسًا في نفسي.

ومذ ذاك، تمنَّت نفسي لو تمكُثُ هناك دائمًا، ولازمني إحتقارٌ كبيرٌ لكلِّ أشياءِ الأرض، فكنت أعدُّها أقذارًا، وأرى بأيٍّ خساسةٍ نهتمُّ نحن الذين نتوقّف عندها.

تجرّدٌ ذاتي بقوة الربّ

٤. حين كنت لدى تلك السيِّدة التي ذكرت[٣]، حدث مرَّةً، وقد أصابني ألمٌ في القلب – (لقد عانيتُ منه، كما قلت، أمّا الآن فقد تعافى) –، أن أحضرتْ لي بدافعٍ من محبَّتِها الكبيرة حِلىً من ذهبٍ وحجارةٍ كريمةٍ رفيعةِ القيمة كانت تملكها، ومنها واحدةٌ من الماس، بنوعٍ خاص، غاليةُ الثمن. كان في تقديرِها أن ترفِّهَ عنّي. أما أنا، فكنتُ أضحك سرًّا، وأرثي للناس حين أراهم يقدِّرون ما يقدِّرون، وأتذكَّر ما أعدّه الربّ لنا. وكنت أفكّر كم يستحيل عليّ أن أعيرَ الأشياء اهتمامًا، ولو جهدتُ في ذلك، إذا لم ينزع الربّ من ذاكرتي صورةَ الهبات الأخرى. إن هذا لسلطانٌ كبيرٌ تملكه النفسُ، بل هو من الكِبَر بحيث أعتقدأنْ لا يقدِّرُه قَدْرَه إلّا من حصل عليه؛ إنه التجرّد الذاتي والطبيعي لأنه يتحقَّق من دون أن يُكلِّفَنا عناء. الله يعمل كلَّ شيء، وهو، عزّ وجلّ، يكشف هذه الحقائق بطريقةٍ تنطبع معها فينا فنرى بوضوحٍ أننا لا نستطيع تحصيلَها بذاتِنا بتلك الطريقة، وبهذا الوقت الوجيز.

تلاشي الخوف من الموت

٥. وبارحتْ مخافةُ الموت خلدي، أنا التي طالما روّعني الموت. صار يُخيَّل إليَّ

(٣) لويسا دي لاثيردا (سيرة ٣٤، ١).

أمرًا بالغَ السهولة لمن يخدم الله ، لأن النفسَ تنعتق ، في لحظة ، من هذا السجن وتنعم بالراحة . فأن يَنقلَ اللهُ الروحَ ، ويكشِفَ له أشياءَ ساميةً كهذه في الانخطاف يماثِل كثيرًا ، في رأيي ، حينَ تخرج النفسُ من الجسد فتجدُ ذاتَها ، في لحظةٍ ، مغمورةً بهذه السعادة . لندعْ جانبًا آلامَ الإنفصال إذ لا يجب أن نقيمَ لها وزنًا ؛ فإنّ الذين يكونون قد أحبّوا الله حقًّا وتحرّروا من أشياءِ هذه الحياة يجب أن تكونَ ميتَتُهم كثيرةَ العذوبة .

معرفة السماء يخفِّف عناء السفر إليها

٦. وفي اعتقادي أنَّ ذلك أفادني كثيرًا لأعرفَ وطنَنا الحقيقي ، وأُدركَ أننا على هذه الأرض سائحون ، وأنه لأمرٌ مهمٌّ جدًّا أن نرى ما يوجد هناك ونعرف أين سنقيم . فمن قصد بلدًا بعيدًا ليستقرّ فيه ، متى عرف أنه بلدٌ سينعم فيه بتمامِ الراحة ، ساعدَه ذلك على التخفيف من عناء السفر ؛ كذلك يسهِّلُ علينا أن نتبصَّرَ في الأمور السماوية ونجعلَ منها موضوعَ محادثاتِنا . وهذا مكسبٌ عظيمٌ لأن مشاهدةَ السماء وحدَها تبعث في النفس الخضوع ؛ وحين أرادَ الربّ فكشفَ لها شيئًا ممّا يوجد هناك ، فوق ، سَمّرتْ فيه تفكيرَها . ويحدُث ، أحيانًا ، أن يكون الساكنون في العلى صُحبتي ، وأن يكونوا عزائي ، وأرى فيهم الأحياءَ الحقيقيين ، كما أرى في ساكني الأرض أمواتًا حقًّا بحيث يَخال إليَّ أن العالم كلّه ليس بصحبتي ، خصوصًا حين تأخذ بي تلك الإندفاعات .

يخفّ ثقل الصليب

٧. كل ما أشاهده بعينَي الجسد يبدو لي حلمًا ، وسخريةً . أما ما رأيتُه بعينَي النفس ، فهو هو ما ترغب فيه ؛ لكنه بعيدٌ ، وهذا هو الموت . الخلاصةُ ، أن النعمةَ التي يمنحُها الربُّ من يعطيه رؤىً كهذه ، لهي نعمةٌ عظيمةٌ جدًّا ، لأنها تساعدُه كثيرًا ، وتخفِّف عنه حملَ صليبٍ ثقيلٍ ، اذ لا شيءَ يُرضيه ، وكلُّ شيءٍ يؤذيه . ولولا أن الربّ يسمح أحيانًا بنسيانِها ، ولو استعادتْها الذاكرةُ من جديد ، فلا أدري كيف يُستطاع

العيش. تباركَ الربّ وتمجَّدَ إلى أبد الدهورِ! أما وقد شاءَ، عزّ وجلّ، أن أفقهَ شيئًا من هذه الخيرات العميمة، وأن أبدأً بالتنعّم بها، على وجهٍ ما، في هذه الدنيا، فليرضَ، بالدم الذي سفكَه إبنُه من أجلي، بألّا يَحدُثَ لي ما أصاب لوسيفيروس الذي خَسرَ، بذَنْبِه، كلَّ شيء. ألا لا سمح تعالى بذلك بحقّه، هو؛ فإن خوفي ليس بيسيرٍ أحيانًا، ولو أنَّ رحمةَ الله، من جهةٍ أخرى، بل غالبًا، تُطمئِنُني؛ فما دام قد انتشلَني من بؤرةِ الخطايا، فلن يُرخي بي يَدَه لأهلِكَ. إني أرجو حضرتَك أن تتوسلَ اليه في هذا من أجلي.

مفاعيل جزيلة

٨. إن النعمَ التي ذكرتُ ليست كبيرةً بمقدار هذه التي سأتحدّث عنها الآن لأنها تركتْ فيَّ مفاعيلَ عديدةً، وخيراتٍ جزيلةً، وقوّةً في النفس كبيرةً. أما إذا نظرنا الى كلٍّ واحدةٍ على حدة، فإنها من العظمة بحيث لا يُمكِنُ مقارنةُ الواحدة بالأخرى.

إنخطاف قويّ

٩. كان ذلك عشيّةَ عيد الروح القدس[٤]، بعد القداس. ذهبتُ الى مكانٍ منعزلٍ جدًّا[٥] غالبًا ما كنت أقصده للصلاة، فبدأت أقرأ في **الكرتوسي**[٦] التأمل الخاص بهذا العيد. وكنت أطالع العلائم التي يجب أن تتوفّر في المبتدئين، والمتقدّمين، والكاملين ليعرفوا أن الروحَ القدس معهم. فما إن انتهيتُ من مطالعة هذه الحالات الثلاث حتى خيِّل إليّ، بقدر ما أمكنني أن أفهم، أنه، بفضل الله، ملازمٌ لي. فسبّحته وتذكّرت أني حين قرأت هذا الفصلَ فيما مضى، كنتُ خُلوًا من كلٍّ

(٤) أي عيد العنصرة في ٢٩ أيار ١٥٦٣.
(٥) إحدى المناسك في دير القديس يوسف.
(٦) **الكرتوسي**، هو كتاب **حياة المسيح** في أربعة مجلّدات من تأليف الراهب الكرتوسي لودولف السكسوني وقد ترجِم الى الرومنسية بأمر الكردينال ثيسنيروس.

هذا ، وكنت مُتَيَقِّنةً من ذلك بقدر ما أنا متيقِّنةٌ الآن من نقيضه . وهكذا أدركتُ عظمةَ النعمة التي منحنيها الربّ . ورحتُ أفكِّر في المكان الذي استحقَقْتُه في جهنم من جرّاء خطاياي ، فأفضتُ في تسبيحِ الله لأني ما كنت إخالني أعرفُ نفسي لفرط ما تغيّرت . وفيما أنا أقلِّب خواطري في هذا الموضوع ، اختُطِفْتُ باندفاعٍ قويّ لم أعرفْ له سببًا . خِلتُ نفسي تودُّ الخروجَ من الجسد ، فهو يضيق بها وهي عاجزةٌ عن أن تنتظرَ خيرًا عظيمًا كهذا . كان من شدَّة الإندفاع أني لم أستطع تمالكَ ذاتي ، إذ كان ، في رأيي ، مختلفًا عنه في مرَّاتٍ سابقةٍ ، فما كنتُ أفهمُ ما يحدُثُ لنفسي ، ولا ما تريد ، لشدَّةِ ما أصابني من إضطراب . واحتجتُ الى سَنَدٍ فما كنت أستطيعُ حتى المكوثَ جالسةً لأن قواي الطبيعية خانتني كلُّها .

فوق رأسها حمامة

١٠. ورأيتُ فوق رأسي ، وأنا في هذه الحال ، حمامةً تختلف كلَّ الاختلاف عن حمائم الأرض ، إذ لم يكن لها ريشُها ، بل جناحان من صُدَيْفاتٍ تَبعث نورًا ساطعًا . كانت أكبرَ من حمامة . يُصوَّر لي أنّي كنت أسمعُ حفيفَ جناحَيها . ربما ظلّت ترفرف وقتًا يوازي تلاوة السلام الملائكي . وكانت نفسي في حالةٍ راحَت تغيبُ معها عن ذاتها شيئًا فشيئًا ، حتى غابت الحمامةُ عن ناظري . واطمأنَّت نفسي بصحبةِ هذا الضيف الصالح ، بينما كان من شأن تلك النعمة الخارقة في نظري ، أن تُربِكَها ، وتصيبَها بالدهشة . وما إن بدأَتْ تَنعمُ بها حتى فارقَها الخوفُ ، وبدأ السكونُ مع المتعة ، واعتراني الإنخطاف .

فرحٌ وذهول وتقدّم في الفضائل

١١. كان لي بهذا الانخطاف سعادةٌ فائقةُ الحدّ . بقيتُ أكثر أوقاتِ عيد العنصرة مدهوشةً ، خرقاءَ لا أدري ما حلَّ بي ، ولا كيف أَستوعبُ فيّ هذا الفضلَ وهذه النعمةَ العظيمة . ما كنتُ أسمعُ أو أرى ، إذا صحَّ القولُ ، لشدَّةِ فرحي الداخلي . وأدركتُ من ذلك اليوم أنّي حققّتُ تقدُّمًا فائقًا في حبِّ الله حبًّا ساميًا ، وفي قوّة الفضائل ورسوخِها . تبارَك ، تعالى ، وتمجَّد الى الأبد . آمين .

الحمامة على رأس أحد الآباء

١٢. ورأيتُ الحمامةَ نفسَها مرَّةً أخرى على رأس أبٍ[٧] من رهبانية القديس عبد الأحد. إلّا أن أشعَّةَ جناحيها وسطوعَها كانت تمتد الى مسافةٍ أبعد. فأُفهِمْتُ أنه سيجلُب نفوسًا الى الله.

رؤيا العذراء ومظاهر قداسة أحد الآباء

١٣. ورأيت، مرَّةً أخرى، سيّدتَنا العذراء تضع معطفًا ناصع البياض على «المُجاز» من هذه الرهبانية نفسِها، وهو الذي تحدّثتُ عنه أحيانًا[٨]. فقالت لي إنها، جزاءَ الخدمة التي قَدَّمها بمساعدتِه على إنشاءِ هذا البيت، تُعطيه هذا المعطفَ عربونًا لحفظها نفسَه نقيَّةً من الآن فصاعدًا فلا يسقط في خطإٍ مميت. وأنا على يقينٍ من أنَّ هذا قد تحقّق. لقد ماتَ بضعَ سنواتٍ بعد ذلك. أما بقيَّةُ حياتِه مذ ذاك، فقضاها في تقشُّفٍ مرهِق، وأما موته فكان برائحةِ قداسةٍ مُثلى لا يسع أحدًا، في حدودِ ما نعرف، أن يشكّ فيها. روى لي راهبٌ رافقه في ساعاتِه الأخيرة أنه قال له، قبل أن تفيضَ روحُه، إن القديس توما كان بصحبته. ماتَ بفرحٍ عظيمٍ وبرغبةٍ قويَّةٍ لأن يخرج من هذا المنفى. وظهر لي عِدَّة مرَّاتٍ بعد موتِه في مجدٍ عظيمٍ وأبلغني عِدَّةَ أمورٍ. كان رجلَ تأمل، حتى إنه، في أواخر أيَّامه، عندما حاول أن يعفيَ نفسَه منه لذبولِ جسمه أعجزه الأمرُ لتواتُرِ انخطافاتِه. وكتب لي قبيلَ موتِه يسألني عن وسيلةٍ لهذه الحال، فإنه، بعد انتهائِه من إقامة القداس، كان يبقى في انخطافٍ فترةً طويلةً دون أن يستطيعَ اجتنابه. لقد أعطاه الله الثوابَ، أخيرًا، على كثرة خدمتِه له طوال حياته.

---

(٧) الأب بدرو إيبانييث.

(٨) الأب بدرو إيبانييث نفسه.

رؤى وكلام نبوءة وتعزية

١٤. أما بشأن الرئيس اليسوعي الذي أشرتُ إليه أحيانًا[٩]، فقد عاينت بعضَ ثمار الأنعام العظيمة التي كان الربّ يمنحه إيَّاها ؛ على أني لا أُثبتُها هنا اجتنابًا للإطالة. حدث ذات مرَّةٍ أن تعرَّضَ لمحنةٍ قاسيةٍ نتيجةَ اضطهادٍ شديد ، فأورثه الأمر غمًّا أليمًا. وفيما أنا ذاتَ يومٍ أحضَرُ القدَّاس ، شاهدتُ ، لدى رفع القربان ، المسيحَ مصلوبًا. فقال لي كلامَ تعزيةٍ لأنقلَه اليه ، وكلامًا آخر لأُخطِرَه بما سيحدث ، وأُذَكِّرَه بما احتمله الربّ من أجله وأَحُثَّه ليستعدَّ للاحتمال. فنفح هذا الكلام فيه عزاءً وشجاعةً ، وحصلَ كلُّ شيءٍ ، فيما بعد ، كما قال لي الربّ.

رؤيا عن الرهبانية اليسوعية

١٥. أما الرهبانية التي ينتمي إليها هذا الأب، وهي الجمعية اليسوعية، فقد شاهدتُ عنها كلِّها أمورًا عظيمةً. لقد عاينت الرهبان في السماء حاملين بأيديهم ، أحيانًا ، أعلامًا بيضاء ؛ ورأيت عنهم ، كما قلت ، أمورًا أخرى مدهشة. وعليه ، فأنا أحترم هذه الرهبانية احترامًا كبيرًا ؛ فقد تعاملتُ وهؤلاء الآباء طويلاً ، وأرى سيرتهم مطابِقةً لما أطلعني الربُّ عنهم.

توبيخ الربّ لها على حياتها السيِّئة

١٦. وحين أنا أقوم بالتأمل ذات ليلةٍ ، بدأ الربُّ يلقي إليّ كلامًا يذكِّرني به كم انّ حياتي كانت سيِّئة ، فأحدث كلامه في نفسي اضطرابًا شديدًا وغمًّا مريرًا. فلئن لم يكن كلام الربّ قاسيًا ، فإنه يولِّد أسفًا وحزنًا يحطِّمان ، وواحدةٌ منه تفيدُنا في معرفة ذاتِنا أكثر من قضائنا أيامًا عديدةً نتبصّر بؤسَنا ؛ فهو كلامٌ يطبع فينا حقيقةً لا نستطيع نكرانها. لقد ذكّرني الربّ أهوائي الباطلة الماضية ، وطلب إليّ أن أقدِّر كثيرًا رغبتَه في أن أُميلَ إليه إرادتي التي أسأتُ استعمالَها أيَّ إساءةٍ ، وقبولَه ذلك.

---

(٩) الأب غسپار دي سالاثار.

وقال لي، أحيانًا، أن أتذكّر حين كنتُ أفاخِر، كما يبدو، بالنيل من كرامته. وأحيانًا أخرى قال لي أن أتذكّر ما أنا مدينةٌ له به؛ فحين كنت أوجِّه إليه أشدَّ الضربات كان، هو، يُغدِق عليّ منته. حين أكون متلبِّسةً بخطإٍ، ويحصل ذلك مرارًا، فإن الربّ، عزّ وجلّ، يلومني بحيث أراني أنسحق انسحاقًا؛ ولأني آتي أخطاء كثيرة، فانه يُكثِر من لومي. كان يحدث أن يوبِّخني المعرِّف فأبحث عن عزاءٍ في التأمل، فأجد فيه التوبيخ الحقيقي.

رؤيا ناسوت ابن الله

١٧. أعود الى ما كنت أروي. ما إن بدأ الربّ يعيد الى ذاكرتي حياتي البائسة حتى رُحتُ أفكّر، والدموع تنهمر من عينيّ، وما كان في ظنّي أنّي فعلتُ أمرًا سيِّئًا، أنْ لعلّه يريد أن يمنحَني نعمةً خاصةً. فغالبًا ما أتلقّى من الربّ نعمةً خاصة بعد أن أكونَ قد تلاشيت أولاً. وأعتقد أنَّ الربّ يفعل ذلك ليريَني بوضوحٍ أكثر كم أنا بعيدةٌ عن استحقاقِها. بُعَيْدَ ذلك، اختطفَ روحي ايَّ اختطاف حتى خِلتُني انفصلتُ تمامًا عن الجسد، أو على الأقل، ما كنت أشعر أنني بعدُ في الجسد. رأيت الناسوتَ الأقدس بمجدٍ فائق الوصف كما لم أره من قبل قط. وتمثّل لي الإبن، بحدسٍ عجيبٍ واضح، في حضن الآب. لا يسعني أن أشرحَ كيف لأنني، من دون أن أرى، خلتُني في حضرة تلك الألوهة. وتملّكني الذهول بحيث بقيت بضعةَ أيام لا أستطيع العودة الى ذاتي، وكنت أتصوّرُني دائمًا ماثلةً أمام جلالة ابن الله، ولو لم يكن كالمرة الأولى. وهذا ما كنتُ أَفهمُه جيّدًا، لأن هذه الرؤيا مهما تكن قصيرةً، تبقى مطبوعةً في المخيَّلة، فلا تستطيع هذه إزالتَها لمدَّةٍ من الزمن. وتجني النفسُ منها عزاءً كبيرًا بل وفائدةً جمّةً.

فوائد هذه الرؤى

١٨. لقد شاهدتُ هذه الرؤيا ثلاث مرّاتٍ أخرى. إنها، في نظري، أسمي رؤيا تكرّم الربّ عليّ بأن أشاهدَها وهي تأتي بفوائد وافرة. في اعتقادي أَنَّها تطهر

النفس أيّما تطهير، وتنزع نزعًا كليًّا تقريبًا شهوةَ الحِسّ فينا. إنها شعلةٌ متّقدة، وكأنها تُحرق وتُتلِفُ رغائبَ الحياة جميعَها. أما أنا فلم تكن رغائبي تتّجه بعد إلى أشياء باطلةٍ، والحمدُ لله، فقد كشف لي جيِّدًا في هذه الرؤى أن كل شيء باطل، وباطلةٌ باطلةٌ أمجادُ الدنيا. إنه لتعليمٌ رفيعٌ للسموّ بالرغائب نحو الحقيقة الخالصة. إنه يطبَع فينا احترامًا لا يسعني وصفُه، لكنّه يختلف اختلافًا شاسعًا عن الذي نستطيع اكتسابَه على الأرض. وترتعب النفس أيَّ ارتعابٍ من أنّها تجرّأت، ومن أنّ أحدًا يتجرّأ على إهانة هذا الجلال الإلهي المهيب.

ذكريات ومناجاة

١٩. قد أكون تحدّثت أحيانًا عن مفاعيل الرؤى هذه وعن أشياء غيرِها، لكنني قلت إنها قد تُحدثُ فائدةً أوفرَ أو أقلّ. أما الفائدة الناجمة عن هذه الرؤيا فلا حدّ لها. فحين كنت أتقدَّم للتناول، وأتذكر ذلك الجلال المهيب الذي كنت قد رأيتُ، وأعتبر أنه هو الموجود في القربان الأقدس (وكثيرًا ما سمحَ لي الربّ أن أراه في القربانة)، كان شَعري ينتصب وإخالُني تلاشيتُ تمامًا. آه يا ربي! لولا أنك تستر عظمتَك، من تُراه كان يتجرّأ أن يجمعَ، مرارًا ومرارًا، بين شيءٍ شديد القذارة بائسٍ وجلالٍ كجلالِك عظيمٍ؟ تباركتَ، يا ربّ! فلْتُمَجِّدْك الملائكة والخلائق جميعًا، فإنك تنظِّم الأشياءَ قياسًا على ضعفِنا حتى إذا تمتّعنا بمننٍ ساميةٍ كهذه، لا تُرعبنا قدرتُك العظيمة حتى لا نتجرّأَ على الإستمتاع بها كأناسٍ ضعافٍ بائسين.

مثل الفلاّح والكنز

٢٠. قد يحدثُ لنا ما حدث لفلاّح. وأعرف حقًّا أن الواقعةَ صحيحةٌ. عثر هذا الفلاح على كنزٍ، ولما كان هذا الكنز يفوق ما يستطيع طبعُه إحتمالَه، وكان طبعُه دنيئًا، فقد أحزنه امتلاكُه الكنزَ حتى انتهى الى الموت غمًّا وهمًّا لجهلِه التصرّفَ بالكنز. فلو أنه لم يحظَ به دُفعَةً واحدةً بل أقساطًا يسدّ كل منها حاجته، لعاشَ أكثر سعادةً منه وهو فقير، ولما كان كلّفه حياتَه.

٢١. آه ، يا كنزَ الفقراء ، ما أعجبَ ما تُحسِنُ إعالة النفوس ، وتكشِفُ لهنّ هذه الكنوزَ العظيمة شيئًا فشيئًا بدون أن يروها !

خوف وتواضع

حين أرى جلالاً مهيبًا كهذا مختفيًا في شيءٍ صغير جدًّا كالقربانة ، يأخذني العجَبُ فيما بعد من هذه الحكمة الفائقة ، ولا أدري كيف يعطيني الربّ الشجاعةَ والقوَّةَ لأَصِلَ إليه. فلولا أنه يعطيني إيّاهما ، هو الذي منحني وما زال يمنحني مننًا عظيمة ، لما استطعتُ كتمانَ ذلك أو الجهرَ بهذه الأعاجيب الرائعة. فما تراها تشعر امرأةٌ بائسةٌ مثلي ، مشحونةٌ بالفظائع ، صرفتْ حياتَها بعيدةً عن خوفِ الله ، إذ تدنو من هذا الربّ العظيم الجلال حين يريد أن يكشفَ ذاتَه لنفسي؟ كيف يمكن أن يضمّ فمٌ طالما تفوّه بكلامٍ يُغيظُ الربَّ نفسَه ، هذا الجسدَ الفائق المجد ، المملوءَ نقاوةً وتُقًى؟ إن الحبّ الذي يُفصِح عنه ذلك الوجهُ الفائق الجمال ، بذَيْنِكَ الحنانِ واللطف، ليحرّكُ في النفسِ ألمًا وغمًّا ، لأنها لم تخدُمْه ، أكبرَ من الخوفِ الذي تشعر به حين تَرى فيه ذاك الجلال. فبمَ تُرى يمكنني أن أشعر بعد أن شاهدت مرّتين ما سأرويه؟

مناجاة وحسرة

٢٢. في الحقيقة ، يا سيِّدي ويا مجدي ، أكاد أقول إنني في خضمِّ هذه الغموم الشديدة التي تجتاح نفسي عملتُ شيئًا ما في خدمتك. واحسرتاه! لا أدري ما أقول... كأني لست أنا من يتكلّم حين أكتب هذا ، فإني أجدني مضطربةً وخارجةً عن طوري لأني استعدْتُ في ذاكرتي هذه الأشياء. لو كان هذا الشعور صادرًا عنّي ، لحقَّ لي القول إنني صنعتُ شيئًا ما من أجلك ، يا ربي. لكن ، ما دام ليس من فكرٍ صالحٍ إلّا وأنت تعطيه ، فليس ما يُوجب شكري. أنا المدينة لك ، ربّي ، وأنتَ المُهان.

قوّة كلام التقديس

٢٣. تقدّمتُ مرّةً للتناول فرأيتُ، بعيني النفس أكثر ممّا بعينَي الجسد، شيطانَين مُنكرَي الخِلقة. خُيِّل إليّ أن قرونَها تحيطُ بعنُقِ الكاهن المسكين، ورأيتُ ربّي، بالجلال الذي وصفتُ، في القربانة التي كان على أهبةِ إعطائي إيّاها، تحمله تانِك اليَدان وقد ظهر جليًّا أنهما تُهينانه. فأدركتُ أنَّ تلكَ النفس في حال الخطيئة المميتة. كيف يُتَصوَّرُ أن نشاهِدَ، ربّي، جمالَك بين شكلين بهذا القبح؟ كانا كأنهما مذعوران أمامك ومرتعبان، ولكانا هربا، على ما يبدو، بطيبة خاطر، لو يسرّتَ لهما الانصراف. تملّكني إضطرابٌ بالغُ الحدّ حتى إني لا أعرف كيف تناولتُ، ولبثت في خوفٍ شديد إذ قام في ذهني أنْ لو كانت هذه الرؤيا من الله، لما سمح، عزّ وجلّ، أن أرى الشرّ الكامنَ في تلك النفس. فأوصاني الربّ نفسُه بأن أصلّيَ من أجل ذلك الكاهن وقال إنه، عزّ وجلّ، إنما سمحَ بأن أرى ما رأيتُ لأفهم قوَّة كلام التقديس، وأن الله حاضرٌ دائمًا في القربانة مهما كان الكاهن الذي يتلوه شريرًا، ولأرى وجودَ الله العميم إذ يجعل نفسَه بين يدي عدوِّه، وذلك لخيري وخير الجميع. ففهمت حقَّ الفهم عظمةَ واجبِ الكهنة بأن يكونوا خيرًا من الآخرين، وشِدَّةَ خطورةِ اقتبال هذا السرّ الأقدس بدون استحقاق، ومدى سيطرة الشيطان على النفس وهي في حال الخطيئة المميتة. لقد أفادني هذا أيّما فائدة، وأعلمني، بيقينٍ، ما أنا مدينةٌ به لله. تباركَ دائمًا الى الأبد.

رؤيا مرعبة عن مائت

٢٤. وحدث لي، مرَّةً أخرى، أمرٌ آخر فأرعبني رعبًا شديدًا. كنت في مكانٍ توفِّي فيه شخصٌ كان قد سارَ سيرةً سيِّئة جدًّا، حسبما عرفت، طيلةَ سنواتٍ عديدة. وكان مريضًا منذ سنتين وقد غيَّر ما بنفسه بعضَ الشيء. مات من دون اعتراف، ورُغمَ كلِّ هذا، ما قام في اعتقادي أنه سيهلِك. وفيما كنت أكفِّن ذلك الجسد، رأيت جمهرةً من الشياطين تختطِفُه. كانوا كأنَّهم يتلاعبون به، ويحاكمونه، ويتناقلونه معلّقًا بخُطّافاتٍ كبيرة؛ فروّعني المشهد ترويعًا. وعندما حملوه ليُدفَنَ

بمراسمِ التكريم المألوفة ، رُحتُ أتأمّل في جودِ الله الذي لم يشأ أن يفتَضِحَ أمرُ تلك النفس ، بل أن يُكْتَمَ كونُها عدوًّا له.

٢٥. كنت مذهولةً ممّا رأيت. طوال رتبةِ الأموات لم أشاهد شيطانًا. وحين أُلقيَ الجسدُ في الرَمس ، كانت جماعةٌ من الشياطين غفيرةٌ في الداخل متأهّبةً لاختطافه ، فخرجتُ من طوري لهذا المشهد واحتجت الى كثيرٍ من الشجاعة لأخفيَ اضطرابي. أخذتُ أفكّر في ما عساهم يصنعون بتلك النفس إذا كانوا يستولون هكذا على الجسد التاعس. ألا قدَّر الربُّ لجميعِ الموجودين في حال الخطيئة أن يرَوا ما رأيت – ويا لَهولِ ما رأيت! – ، فإن ذلك سيدفعُهم بقوّة ، في رأيي ، ليسيروا سيرةً حسنة. كل هذا يَزيدني معرفةً بما أنا مدينةٌ به لله ، وبما خلَّصني منه. ولازمني خوفٌ مريعٌ الى أن تداولتُ الموضوعَ ومعرِّفي ؛ وكنت أسائِلُ نفسي ما اذا كان ذلك خِداعًا يتوسَّله الشيطانُ لِثَلْبِ تلك النفس ، ولو أنّها لم تكن مشهورةً بروحِها المسيحي الراسخ. الحقيقة ، أنّ ذلك ، ولو لم يكن خداعًا ، فإنه يثير فيّ الخوف كلّما تذكرته.

شفاعتها لأجل رئيس إقليمي

٢٦. وما دمتُ قد شرعتُ في الحديث عن رؤى الأموات فإنّي أودّ أن أرويَ بعضَ أمورٍ تلطّف الربّ فكشفَها لي حول بعضِ الأنفس. سأروي القليلَ منها حبًّا بالإيجاز ولامتناع الضرورة ، أعني أنْ لا فائدةَ منها.

بُلِّغتُ موتَ رئيسٍ إقليمي(١٠) لنا سابقٍ. عندما تُوُفِّيَ كان رئيسًا لإقليمٍ آخر. كنت قد عاشرتُه وكنت مدينةً له ببعضِ أعمالٍ صالحة. كان مزيَّنًا بالفضائل. حين علمتُ بوفاته ، شعرتُ باضطرابٍ كبيرٍ لخوفي على خلاصِه ؛ فإنه كان قد قضى في الرئاسة عشرينَ عامًا ، وهو أمرٌ أتهيَّبُه كثيرًا ، حقًّا ، لأني أعتبر تحمُّلَ مسؤولية النفوس أمرًا بالغَ الخطورة. فذهبتُ الى مُصلًّى وأنا في غايةِ التعب ، فحوّلت إليه كلَّ ما كنت قد صنعتُ من خيرٍ في حياتي ، وهو قليلٌ قليلٌ ، وسألتُ الربّ أن تسدّ استحقاقاتُه ما يلزم تلكَ النفسَ لتخرُجَ من المطهر.

(١٠) الأب غريغوريو فرنانديث.

٢٧. وفيما كنت أسأل الربّ هذا الطلب بأفضلِ ما أستطيع ، خيّل إليَّ أنه خرجَ من أعماق الأرض عنِ يميني ، ورأيتُه يصعد الى السماء بفرحٍ عظيم . لقد كان طاعنًا في السنّ ، لكن شاهدتُه في سنٍّ الثلاثين ، بل صُوِّرَ لي دون ذلك ، وكان وضّاء المُحيّا . إنقضتْ هذه الرؤيا سريعًا ، لكنّي تعزّيت أيّما عزاء ، فما غمّني موتُه من بعد قط ، مع أنّي كنت أرى الكثيرين آسفين ، لأنه كان محبوبًا جدًّا . لقد بلغتْ تعزيةُ نفسي مبلغًا ما كنت أشعر معها بأدنى همٍّ في شأنه ، وما كان يسعُني الشكُّ في أنَّ الرؤيا كانت رؤيا صالحةً ، أي إنها لم تكن خادعةً . ما كان انقضى أكثرَ من خمسة عشر يومًا على وفاته ، ورغمَ كلِّ شيء ، ما توانيتُ عن طلب الصلاة الى الله من أجله ، كما كنت أصلّي بدوري ، إلّا أني ما كنت أستطيعُ أن أفعلَ بتلك الرغبة لو لم أشاهد الرؤيا ؛ فحينَ يُظهِر لي الربّ نفسًا في هذه الحال فاودُّ بعدئذٍ أن أوصيَه بها ، عزّ وجلّ ، يُصوِّر لي ، في عجزي عمّا يزيد عن ذلك ، أنني أقدِّم حسنةً الى أحد الأغنياء . وعرفت فيما بعد – لكونه قضى في مكانٍ بعيدٍ جدًّا من هنا – أن الربّ حباه ميتةً مُؤثِّرة تأثيرًا عميقًا ؛ فقد أُعجِبَ الجميعُ بموتِه صافيَ الذهن ، يذرف الدمعَ ، متواضعًا .

رؤيا عن خلاص راهبة

٢٨. كانت قد توفيتْ في ديرِنا ، منذ ما يزيد قليلاً على يومٍ ونصفِ يوم ، راهبةٌ[11] شديدةُ التعبُّد لله . وفيما كانت إحدى الراهبات تتلو قراءةً من فرض الموتى الذي كنّا نُقدِّمه في الخورس عنِ نفسِها ، كنتُ ، أنا ، واقفةً لأساعدَها في تلاوة الآية . وكنا في وسط المقطع ، فرأيتُها وكأن نفسَها تخرج من الجهة نفسِها التي خرجت منها النفسُ السابقة ، وتذهب الى السماء . لم تكن هذه رؤيا خياليةً كالرؤيا السابقة ، بل كرؤى أخرى تحدّثت عنها ؛ لكن لا يُشَكّ فيها كما لا يُشَكّ في تلك التي تُشاهَد[12] .

(١١) توفيت الراهبة في دير التجسّد.

(١٢) أي أنها رؤيا عقلية كتلك التي تحدثت عنها في الفصل ٢٧ عدد ٢.

رؤيا عن راهبة أخرى

٢٩. وتوفّيت راهبةٌ أخرى في ديري الخاص وعمرُها ثمانية عشرة أو عشرون عامًا. كانت دائمًا عليلةً، كثيرةَ العبادة لله، تثابر على صلاة الخورس، راسخةً في الفضيلة. كنت على يقينٍ من أنها لن تمرّ في المطهر، فقد احتملت الأمراضَ الكثيرة، فزادت استحقاقاتُها. وفيما كنّا نتلو صلاةَ الساعات قُبَيْلَ دفنِها، وكان قد مضى على وفاتِها أربعُ ساعات، فهمتُ أنها قد خرجت من الجهة نفسِها وذهبت الى السماء.

رؤيا عن راهب يسوعي

٣٠. كنت مرّةً في مدْرسةٍ للجمعيّة اليسوعيّة، وكنتُ أعاني المحنَ الشديدة في نفسي وفي جسدي، تلك التي ذكرت أنها كانت تنتابُني أحيانًا وما زالت، بحيث كنت أعجزَ، في اعتقادي، من أن يساورَني فكرٌ صالح. كان أحد الأخوة[١٣] في دير اليسوعيين ذاك قد قضى نحبَه في الليلة السابقة. وفيما كنت أتوسَّلُ بحرارةٍ الى الله من أجله، وأنا اسمع قدّاسًا يقيمه أبٌ من الجمعية لراحةِ نفسه، استغرقتُ في الإختلاء فرأيتُه يصعد الى السماء بمجدٍ عظيم، ورأيتُ الربَّ في صحبته. فأدركتُ أنّ صحبةَ الربّ له، عزّ وجلّ، انما هي نعمةٌ خاصة.

رؤيا عن راهب كرملي

٣١. وكان أحد أعضاء رهبانيتنا[١٤]، وهو راهبٌ كثيرُ الصلاح، مُدْنِفًا. وفيما كنتُ أحضر القداس، استغرقتُ في الإختلاء فرأيتُ أنه مات وصعدَ الى السماء دون أن يدخلَ المطهر. لقد ماتَ حقًّا ساعةَ رأيتُه، كما عرفتُ فيما بعد. وأخذني العجَبُ لأنه لم يدخل المطهر. وقد فهمتُ أنه لكونه راهبًا حافظ على نذوره بأمانة،

---

(١٣) الأخ الونسو دي هيناو، مات في ١١ نيسان ١٥٥٧.
(١٤) الأب دييغو ماتياس، كرملي من آفيلا، كان معرّفًا في دير التجسدّ لفترة من الزمن.

فقد أفادته براءات الرهبانية[١٥] حتى لا يدخل المطهر. لا أدري لماذا فهمت هذا. لعلّي فهمته، فيمَا أظن، لأن الراهبَ الراهبَ ليس بثوبهِ، أي بِلُبْسِهِ الثوبَ، لِيَنْعَمَ بحالة الكمال الأسمى وهي كونه راهبًا.

خلاصة الرؤى

٣٢. لا أودّ الإسهاب في سرد هذه الأشياء، فليس ما يستدعي ذلك، كما قلت، ولو أنّ الربّ أنْعَمَ عليّ فأراني منها الكثير. غير أني ما عرفت، من جميع النفوس التي رأيت، نفسًا لم تدخل المطهر غير نفس الراهب القديس الأب بدرو دي ألقنطره، والأب الدومينيكي الذي ذكرت. وقد تكرّم الربّ فكَشفَ لي درجةَ المجد التي حازَها بعضُهم والمكانَ الذي يَشغَلون. والفرق بين البعض والبعض الآخر كبير.

(١٥) إشارة الى امتيازات البراءة المعروفة «بالسبتية» وهي التي يعلِن فيها البابا يوحنا الثاني والعشرون وعدًا قطعَتْه له العذراء بأنها تخلّص من المطهر، في أول سبت بعد الوفاة، من مات مُتَّشِحًا بثوب سيدة الكرمل.

الفصل التاسع والثلاثون

تتابع الموضوع نفسه في المنن العظيمة التي منحها الربّ. تروي كيف وعدها بأن يستجيب ما تطلبه لبعض الأشخاص. تذكر أمورًا بارزةً تكرّم الربّ عليها بهذه النعمة

رؤيا المسيح والمسمار في يده اليسرى. نعمة شفاء أعمى

١. كنت ذات مرة أَلِحُّ وأَلِحُّ في سؤالي الربَّ كي يُعيدَ البصرَ لذي فضلٍ عليّ، وكان قد فقدَ بصرَه كُلَّه تقريبًا، فكنت أرثي لحالِه وأخشى من أن لا يستجيب الربّ سؤالي بسبب خطاياي. فظهرَ لي كما في مرّاتٍ سلفتْ، وبدأ يُبرزُ لي جرحَ يدِه اليسرى، وينزع بيدِه الأخرى مسمارًا كبيرًا كان مغروزًا فيها. صُوِّرَ لي أن اللحمَ كان يُنتزَع مع المسمار. وكان العذابُ الكبيرُ باديًا عليه، فكنت أتألّم كثيرًا لذلك. فقال لي بألّا أشكّ في أنَّ من احتملَ هذه العذابات من أجلي حريٌّ به أن يستجيبَ طلبي. ووعدَني بأن يحقِّقَ كلَّ ما أطلب إليه، فهو يعرف أنّي لن أطلبَ إلّا ما يتّفِق ومجدَه، ولذا فإنه سيُحقِّق ما أسأله الآن. وقال لي أن أعتبرَ أنّني، حتى عندما لم أكن أخدمه، ما طلبتُ إليه شيئًا إلّا وحقّقه أفضلَ ممّا كنت أطلب؛ فالأحرى به أن يفعل ذلك الآن وهو يعرف أنّني أحبُّه؛ فيجبُ أن لا يخامرَني شكٌّ في الأمر. وما مضت ثمانية أيّام، فيمَا أظن، حتى أعادَ الربّ الى ذلك الشخص بصرَه. ودرى معرِّفي بالأمر حالاً. لعلّ ذلك لم يتِمّ بفضلِ صلاتي، إلّا أنّي، وقد شاهدت تلك الرؤيا، تثبّت اليقينُ لديّ فشكرتُه، عزّ وجلّ، على نعمةٍ صنعها معي.

نعمة شفاء أحد أقاربها

٢. وكان، مرّة أخرى، شخصٌ عليلٌ[1] يعاني من مرضٍ مؤلمٍ جدًّا، أجهل تسميتَه فلا أذكره هنا. كان قد مضى عليه شهران وهو يعاني آلامًا لا تُطاق، وكان يتمزّق من العذاب. ذهب لزيارتِه معرّفي، وكان الرئيسَ اليسوعي المذكور[2]، فرثى لحاله، وأوصاني بأنّ من الضروري أن أعودَه، وأنَّ باستطاعتي القيامَ بزيارته لأنه من أقربائي. فمضيتُ إليه، فأخذتني شفقةٌ عليه أيُّ شفقة، فبدأتُ أطلب الى الربّ، وألحّ في الطلب ليردّ له العافية. فرأيت هناك بوضوح، كما تصوّرت تمامًا، النعمة التي منحنيها، لأنه تعافى، في الغد، من ذلك الألم تمامًا.

شفاعة لأجل تَدارُك شر

٣. كنت مرةً أعاني من غمٍّ مؤلم لأني عرفتُ أنّ ذا فضلٍ كبيرٍ عليّ كان مزمعًا على إتيان أمرٍ يغيظ الله أيّما إغاظة ويحطّ من شرفه، وكان مصممًا تصميمًا ثابتًا على ذلك. وكان غمّي بالغًا أشدَّه فلا أدري ما العمل، وما كانت تُرى وسيلةٌ تجعله يُقلع عن عزمه. فتضرّعتُ الى الله من كل قلبي أن يوجدَها، هو، وما كان ليلطِّف غمّي إلّا أن أراها تتحقَّق. فذهبت، وأنا في هذه الحال، الى صومعةٍ من صوامع هذا الدير، منعزلةٍ تمامًا وفيها صورة المسيح مربوطًا الى العمود، فتوسّلتُ اليه أن يمنحني هذه النعمة، فسمعتُ صوتًا رخيمًا جدًّا، شبيهًا بالنسيم، يخاطبني. فاقشعرّ بدني خوفًا، وودِدتُ أن أفهمَ ما يقول لي، لكنّي ما استطعتُ، فقد مرّ سريعًا جدًّا. وما إن هدأً روعي، وقد هدأً عاجلاً، حتى لبثتُ في طمأنينةٍ، وبهجةٍ، ومتعةٍ داخليَّةٍ، حتى اندهشتُ من أنَّ مجرَّدَ سماعي صوتًا بأذُنَي الجسد، ومن دونِ أن أفهم كلمةً، يُحدِث هذا الأثرَ البالغ في النفس. وإذ كنتُ في هذه الحال، رأيتُ أن سيتحقّقُ ما طلبتُ، فزال غمّي من أمرٍ لم يَحدُثْ بعد، وكأني رأيتُه يتحقّقُ كما حصلَ لاحقًا. أطلعتُ معرّفي على الأمر، وكان لي، إذ ذاك، معرِّفان، صاحبَا علمٍ، ووَرِعَان[3].

(١) ربّما ابن عمّها بدرو ميخيًا.
(٢) لعلّه الأب غسبار دي سالاثار.
(٣) الأبوان غارثيا دي توليدو ودومنغو بانييث.

رؤيا عن ارتداد أحد الأشخاص

٤. عرفت أن شخصًا كان قد صمّم على خدمةِ الله خدمةً حقًّا، ومارس التأمل ردحًا من الزمن تلقّى أثناءه من الله، عزّ وجلّ، مننًا وفيرةً، لكنه ترك التأمل بسبب ظروفٍ عرضت له، ولم يبتعد عنها على شدَّةِ خطورتِها. فغمَّني ذلك أيّما غمّ لأني كنت أحِبُّ ذلك الشخصَ وأدينُ له بجميل. فقضيتُ أكثر من شهرٍ، فيما أظنّ، لا أنفكّ أتوسّل الى الله كي يُعيدَ تلكَ النفسَ إليه. وفيما أنا ذات يوم أقوم بالتأمل، رأيتُ بقربي شيطانًا يمسِكُ بيديه أوراقًا راحَ يمزِّقها، بغضبٍ شديدٍ، إربًا إرْبًا. ففرّج ذلك غمّي لأن طلبي، فيما بدا لي، قد استُجيب. وهذا ما حصل؛ فقد عرفت فيما بعد أنه اعترف بخطاياه، وندم ندامةً نصوحًا، ورجع الى الله رجوعًا صادقًا. ورجائي به، عزّ وجلّ، أن يسير قُدُمًا في الكمال دائمًا. تباركَ الله على كل شيء. آمين.

الربّ يستجيب لطلباتها

٥. غالبًا ما انتشل ربُّنا نفوسًا من خطايا جسيمةٍ، وقادَ أخرى الى مزيدٍ من الكمال لأنني توسّلتُ اليه في ذلك. وفيما يعود الى إنقاذ نفوسٍ من المطهر، وأمورٍ أخرى مرموقةٍ تختصُّ بصِحَّة النفس أكثرَ بكثيرٍ ممّا تختصّ بعافية الجسد، فقد حباني الربّ مننًا غزيرةً حتى إن سَردي إياها ليُتْعِبني ويُتعبُ من يطالعها. وما أرويه أمرٌ معروفٌ جيِّدًا يُثبته شهودٌ كثيرون. لأوّل وهلةٍ كان يلاحقني وسواسٌ، لأني لم أكن أكفّ عن الإعتقاد بأن الربّ يفعل هذا استجابةً لصلاتي، – ويفعله بنوعٍ خاص بجودِه وحسب –؛ غير أنّ الوقائع عديدةٌ ويعرفُها كثيرون، فلا أجد حَرَجًا في اعتقادي، بل أُسبِّحُه، عزّ وجلّ، ويبعثُ فيّ الحياء، لأني أجدني أكثرَ دَيْنًا له، وتنمو، في اعتقادي، رغبتي في خدمته، ويضطرم الحب. وما يزيد تعجُّبني، أنّي لا أستطيع، ولو أردتُ، أن أستعطفَ الربّ في أمورٍ يراها غيرَ ملائمة؛ بل أسأل بقليلٍ قليلٍ من الحماس، والإقتناع، والإهتمام حتى إني، ولو أردتُ أن أُرغِمَ ذاتي، لم أستطع، مثلي في أشياءَ عليه، عزّ وجلّ، أنْ يَمنحَها، إذ أرى بإمكاني أن أطلبها مرارًا وأن ألِحّ في طلبي؛ وإذا لم أهتمّ بطلبها، فكأنَّها تتمثّل أمامي.

طرائق مختلفة في طلب النعم

٦. والفرق كبيرٌ بين هاتين الطريقتين في الطلب، فلا أدري كيف أوضحه. فإن طلبتُ أشياءَ (وان كانت تخصُّني شخصيًّا، ولا أنفكُّ أبذل وسعي في التوسّل الى الربّ، ولو لم أشعر بالاندفاع كما في طلبي أشياء أخرى)، فكأني إنسانٌ غُلَّ لسانُه، ويودُّ أن يتكلّم فلا يستطيع، وإذا تكلّم رأى أنّهم لا يفهمونه؛ بينما حين أطلبُ أشياءَ أخرى أكونُ كمن يُخاطِب بوضوح، ووعي، من يصغي اليه بطيبةِ خاطر. لنقل الآن، إن بعضَ الأشياء يُطلَبُ بصلاةٍ شفهية، والبعضُ الآخر بتطلُّعٍ رفيعٍ جدًّا يَظهَرُ الربّ فيه بحيث نفهم أنه يَفهَمُنا، ويُسَرّ، عزّ وجلّ، بأننا نطلبها منه، وبأن يُنعِمَ بها علينا. تباركَ الى الأبد، هو الذي يُعطي بسخاء فيما أعطيه، أنا، القليلَ القليل.

وما يفعل، ربّي، من لا يذوبُ كلُّه حبًّا بك؟ كم من أمورٍ، كم من أمورٍ – وباستطاعتي أن أكرِّر القولَ ألف مرَّةٍ – كم من أمورٍ تنقُصني لبلوغِ هذه الحال! لذا، ليس لي أن أرغب في الحياة (وإن يكن هناك أسبابٌ أخرى)، لأني لا أعيش وفقًا لما أنا مدينةٌ لك به. ما أكثرَ ما أرى فيّ من نقائص! يا لميوعتي في خدمتك! في الحقيقة، أودّ أحيانًا أن أفقدَ الوعيَ لئلاّ أرى كلَّ هذا السوء فيّ. ألا شفاني منه القادر على شفائي.

حذرٌ من تقدير العالم

٧. أثناءَ إقامتي في منزل تلك السيِّدة التي ذكرت[٤]، كان عليّ أن أكونَ حَذِرة، وأعتبرَ دائمًا بُطلانَ جميعِ الأشياءِ في هذه الحياة؛ فقد كنتُ موضوعَ تقديرٍ وثناءٍ كبيرَين، وكنتُ ألقى أشياءَ كثيرةً من شأنِها، لو نظرتُ الى ذاتي، أن تشدَّني الى العالم؛ لكن من ينظر النظرَ الحق كان يحرص على أن لا يُرخيَ بي يده...

---

(٤) لويسا دي لا ثيردا (راجع سيرة ٣٤، ١ وما بعده).

تَنقُل ما تسمع بدقَّة

٨. حين أقول «النظر الحق»، أفكِّر في المحن الشديدة التي يكابدها أناسٌ أوصلَهم الله الى معرفة الحقيقة عندما يتعاطون أمورًا أرضيَّةً تُخفي وراءها أشياءَ كثيرةً، كما قال لي الربّ ذات مرَّةٍ. فإن أشياءَ كثيرةً ممّا أكتبُ هنا ليست من نِتاجِ فكري، بل إن معلّمي السماوي هذا أملاها عليَّ. لهذا عندما أقول صراحةً «سمعتُ هذا» أو «قال الربُّ لي»، أحرصُ كلَّ الحرص على ألَّا أضيفَ أو أُسقِطَ أدنى حرفٍ. وهكذا، فحين لا أتذكّر بدقَّةٍ كلَّ شيءٍ، أتكلّم وكأن الأفكارَ من عندي، أو لأن بعضَها قد يكون أيضًا من عندي. لا أنسبُ لنفسي ما هو صالح، فأنا أعرف أن ليس فيّ أمرٌ صالحٌ إلّا ما وهبني الربّ دون استحقاق؛ بل أكتبُ «هذا ما أقول»، لِيُفْهَمَ أنّني ما تلقَّيته بوحيٍ.

مناجاة. لا قياسَ للتقدُّم في التأمل

٩. لكن، واأسفاه، يا إلهي، كم يحلو لنا غالبًا أن نحكم في الأمور الروحية، كما في الأمور الدُنيوية، بحسب رأينا، فنشوِّهَ الحقيقةَ أيَّ تشويه؛ ونظنّ أنّ علينا أن نقيس تقدُّمَنا بعدد السنين التي مارسنا فيها بعضَ التأمل، بل كأننا نريد أن نرسُمَ حدودًا لمن يهبُ عطاياه، حين يريد، بدون حساب، وقد يعطي واحدًا في نصفِ سنةٍ أكثرَ ممّا يعطي آخرَ في سنين عديدة! إن هذه لحقيقةٌ تَثَبَّتُّ منها لدى كثيرين، حتى ليأخذني العجبُ من أننا نستطيعُ التوقّفَ عندها.

مقاييس معرفة الأرواح ومثال الراهبات

١٠. أعتقد يقينًا أنّ من أوتي موهبةَ معرفة الأرواح، وأعطاه الربّ تواضعًا حقيقيًّا، لا يقع في هذا الإنخداع. إنه يحكم إستنادًا الى المفاعيل، والمقاصد، والحب، ويعطيه الربّ نورًا ليعرفَ كلَّ هذه، وبها يميِّز تقدُّمَ النفوس واستفادتَها، وليس بعدد السنين. في نصفِ سنةٍ يمكن أن تتقدّمَ نفسٌ أكثر ممّا تتقدّم أخرى في عشرين سنة، لأن الربَّ، كما قلت، يَمنح هذه العطيَّة من يشاء، بل ومن يكون

أحسنَ استعدادًا... فأنا أرى، حاليًا، فَتياتٍ أتينَ الى هذا الدير، صغيراتِ السن، فما إن مَسَّهنّ الله وأعطاهنّ قبسًا من نورٍ وحب – أعني، بعد قليل من منحِهِ إيَّاهنَّ هبةً ما –، لم يتلكَّأْنَ، ولم يكترِثْنَ لعائقٍ، ولم يفكِّرن في ما يأكلن، بل ينحبِسْنَ الى الدوام في ديرٍ لا رَيع له، غير آبهاتٍ بالحياة حبًّا بمن يعرفن أنّه يحِبُّهنَّ. إنّهنّ يتركن كلَّ شيء، ويتخلَّين عن إرادتِهنّ، ولا يخطر ببالِهنّ أن قد يَلقين ما يكدِّرهنّ في حصنٍ شديدٍ وضيِّقٍ كهذا. إنهنّ يقدِّمن أنفسهنّ معًا ذبيحةً لله.

مفاضلة وتواضع

١١. بأيّ طيبةِ خاطر أعتبرهنّ مُميَّزاتٍ عليّ! يجدر بي أن أكونَ خجولةً أمام الله. فإنّ ما لم ينلْه منّي، عزّ وجلّ، بعد سنواتٍ عديدةٍ منذ أن بدأتُ أمارس التأمل وشرعَ يُغدق عليّ منَنه، نالَه منهنّ في ثلاثة أشهر – بل ومن بعضِهنّ في ثلاثة أيّام –، مع أنه حباهنّ مننًا دون ما حباني، لكنه يكافئهنّ مكافأةً جيِّدةً. ولَسْنَ، بالتأكيد، مستاءاتٍ ممّا فعلنَ من أجله.

إطلاق الحرية للنفوس بثقة

١٢. لهذا، أتمنّى أن نتذكّر أننا زاولنا الحياةَ الرهبانية ومارسنا التأمل سنواتٍ عديدةً، فلا نُرهقْ من يسبقوننا في فترةٍ وجيزةٍ بإعادتهم الى الوراء ليسيروا على خطانا، ولا نسعَ لأن نسيِّر، كفرّوجٍ مقيَّدٍ، من يطيرون كنسورٍ بفضل المنن التي يعطيهم الله، بل فلنوجِّهْ أبصارَنا اليه، عزّ وجلّ، وإذا لمسْنا فيهم تواضعًا، فلنُطلق لهم العِنان؛ فإن الربَّ الذي يمنحهم كلّ هذه المنن لن يدعَهُم يتدهورون في الهاوية. وهم أنفسُهم يتوكّلون على الله مستفيدين من معرفتهم حقائقَ الإيمان؛ أفلا نوكِل، نحن، أمرَهم اليه، بل نريدُ أن نقيسَهم بقياسِنا وفقَ عزيمتِنا الواهنة؟ لا نتصرّفنّ هكذا، بل إذا لم نبلغ ما حقّقوه من نتائجَ باهرةٍ ومقاصدَ قد يصعبُ فهمُها لانعدام الخبرة، فلنتواضعْ ولا نُدِنْهُم؛ ففيما يُخال أننا مهتمّون بتقدِّمهم نُسْقِطُ، نحن، فائدتَنا، ونضيِّعُ هذه الفرصة التي يقدِّمها لنا الربّ لنتواضَع، ولندركَ ما

يفوتُنا ، وكم تفوقُنا هذه النفوس تجرّدًا ، وقربًا من الله ما دام ، هو ، عزّ وجلّ ، يدنو منها هذا الدنوّ !

لا تجرّد بدون حُبٍّ كبير

١٣. إنما أفهم أمرًا واحدًا وأودّ لو أني لا أفهمُ غيره : إن ممارسةَ التأملِ منذ عهدٍ قريبٍ والإتيانَ بنتائجَ باهرةٍ (تَظهَرُ سريعًا ، لأنه يستحيل أن يُترَكَ كلُّ شيءٍ إرضاءً لله فقط من دون قوَّةِ حبٍّ كبيرةٍ) ، لأفضلُ ، بنظري ، من ممارسةٍ عمرُها سنواتٌ عديدةٌ لم تحمِلِ صاحبَها في النهاية على أكثر ممّا حملته في البدء ، على أن يعملَ أدنى شيءٍ في سبيل الله ، إلّا إذا اعتبرنا نتيجةً باهرةً وإماتةً كبيرةً أشياءَ صغيرةً كحبَّةِ ملح ، لا وزنَ لها ولا حجم – وكأنّ عصفورًا يستطيع حملَها بمنقاره – فنحن نولي إهتمامًا أشياءَ نعملُها من أجل الربّ ، من المؤسف أن نقيمَ لها وزنًا مهما كثرت .

إيَّايَ أعني ، وسأنسى المنن عند كلّ خُطوة. لا أقول إنه ، عزّ وجلّ، لا يقدّر كثيرًا ، بجودِه ، تلك الأشياءَ الحقيرة ؛ لكني أودّ لو اني لا أوليها اعتبارًا ، ولا أرى اني أصنعها ، لأنها ليست بشيء.

ولكن ، عفوَكَ ، ربّي ، ولا تلُمْني لأن عليّ أن أجدَ عزاءً لي ، فإني لا أقدِّم لكَ أيَّ خدمة ؛ فلو خدمتُك بأمورٍ عظيمةٍ ، لما اعتبرتُ التفاهات. طوبى للذين يخدمونك بأعمالٍ عظيمةٍ! فلو حُسِبَ لي حسدي على ما هم عليه ورغبتي في نهجِ سبيلهم ، لما قصّرتُ كثيرًا عن إرضائك ؛ لكن لا قَدْرَ لي ، يا ربّي. فَبُثَّ ، أنتَ ، فيّ الشجاعةَ ما دمتَ تحبّني هذا الحبّ.

مراجعة مواقفها الإيمانية

١٤. حدثَ في أحد هذه الأيام أن تسلَّمتُ براءةً من روما[٥] تخوِّل هذا الديرَ عدمَ اقتناء موارد ، فتمّ التأسيسُ نهائيًّا ؛ وقد كلّفني ، في اعتقادي ، بعضَ المشقّات.

---

(٥) البراءة صادرة عن روما سنة ١٥٦٥.

وفيما أنا مرتاحةٌ لرؤيتي العملَ قد أُنجِزَ ، وأفكِّر في الصعوبات التي صادفتُ ، وأسبِّح الربّ لأنه رضيَ فاستخدمني في عملٍ ما ، أخذتُ أفكِّر في الأمور التي عانيتُ ، فاذا بي ، في كلِّ عملٍ كنت قد عملته وإخالُه مكتسبًا ، أجد أخطاء ونقائصَ عديدةً ، وجبنًا أحيانًا ، وأحيانًا كثيرةً إيمانًا ضعيفًا . فأنا الى الآن ، مع أني أرى أن قد تمّ كلُّ ما قال لي الربّ عن هذا البيت أن سيتِمُّ ، فما كنت أنتهي الى تصديقِ ما قال تصديقًا حاسمًا ، وما كنت أستطيع الشكَّ فيه ، ولا أدري كيف كان ذلك . فمن ناحيةٍ ، غالبًا ما كنتُ إخال الأمرَ مستحيلاً ، ومن ناحيةٍ أخرى ، ما كنت أستطيع الشكّ ، أعني ما كنت أستطيعُ الاعتقادَ أنّ الديرَ لن يُنشأ . وأخيرًا ، وجدتُ أنّ كلَّ ما هو صالحٌ صنعَه الربّ بنفسِه ، وما هو سيّءٌ صنعتُه ، أنا ، فعدلتُ عن التفكير في الموضوع ؛ وأودّ لو أني لا أتذكّره حتى لا أعثرَ بأخطائي الكثيرة . فليكن ، هو ، مباركًا ، فإنه يُخرِجُ من أخطائِنا كلِّها أمرًا صالحًا حين يشاء . آمين .

جسارة الروحاني

١٥. أقول ، إذًا ، إنه لخطرٌ أن تُحسَبَ السنونُ التي قُضِيَتْ في ممارسة التأمل ؛ فإنَّ من يمارس التأمل ، ولو تحلّى بالتواضع ، قد يبدو له أنّه يستحق شيئًا على خدمتِه . لا أدّعي أنه لا يستحقُّ المكافأة ، وأنها لن تُؤَدَّى له ؛ إلاّ أنّي على يقينٍ من أنَّ أيَّ روحاني يتصوّر أنه لكثرة السنين في ممارسته التأمل يستحقُّ مباهجَ الروح هذه ، فلن يرقى ذُروةَ الروح . أليس كثيرًا أنه استحقَّ أن يأخذه الله بيده ، فلا يهينه كما كان يهينُه قبل ممارستِه التأمل ، ثم يدّعي عليه في أمواله ، كما يقال؟ ليس هذا ، في رأيي ، تواضعًا عميقًا . قد يكون كذلك ؛ أما أنا فأعتبرُه جسارةً . فأنا ، على قلّةِ تواضعي ، لا أراني تجرّأتُ قطُّ على هذا الموقف . ولعلّني لم أطلبْ ، لأنني ما خدمت البتّة ؛ ولو كنت خدمتُ لعلَّني كنتُ أردتُ أن يكافئَ الربُّ خدمتي أكثرَ من الآخرين جميعًا .

الأحكام لله

١٦. لا أقصدُ أنَّ النفسَ لا تنمو في الكمال ، وأن الله لا يمنحها إيّاه إذا كان

تأمُّلها متواضعًا ؛ بل فلتطوِ في النسيان تلكَ السنين ، لأن كل ما نفعله كريهٌ مقابل قطرةِ دمٍ واحدةٍ سفكَها الربّ من أجلنا. وإذا كان دَيْننا يزيد كُلَّما زادت خدمتُنا ، فما بالنا نطلبُ ما دُمنا اذا وَفَينا فلسًا من الدَّيْن نُعوَّض ألفَ دينار[6] ؟ فلنَدَعْ هذه الأحكام ، حبًّا بالله ، فإليه وحدَه يعودُ إصدارُها. وهذه المقارنات مكروهةٌ دائمًا حتى في شؤون الدنيا ، فكيف تكونُ في ما يعرِفه الله وحدَه؟ وقد أَوضحَ ذلك ، عزّ وجلّ ، كلَّ الايضاح عندما دَفَعَ للآخرين مثل ما دفع للأَولين[7] .

رؤيا المسيح يخلِّصُها من الأعداء

١٧. لقدْ كتبتُ هذه الأوراق الثلاث في جلساتٍ عديدةٍ وأيامٍ كثيرةٍ – لأن وقتي ، كما قلتُ ، كان وما يزال ضيِّقًا – ، حتى نسيتُ ما بدأتُ الحديثَ عنه ، أي تلك الرؤيا. رأيتُني ، وأنا أقوم بالتأمل ، وحيدةً في حقلٍ واسع ، وحولي جمعٌ غفير يطوِّقونني من كل جانب. خيّل إليّ أنهم ، جميعَهم ، يَمسكون أسلحةً بأيديهم لمهاجمتي : بعضُهم يحملون رماحًا ، وآخرون سيوفًا ، وآخرون خناجرَ ، وآخرون حِرابًا طوالاً جدًّا. الخلاصةُ ، انني ما كنت أستطيع الخروج من أيِّ ناحية دون أن أتعرّض لخطر الموت ، وأنا وحيدةٌ ولا أحدَ ليدافعَ عنّي. وفيما روحي غارقٌ في هذا الغمّ ولا أدري ما العمل ، رفعتُ عينيّ الى السماء فشاهدتُ المسيحَ ، ليس في السماء ، بل في الهواء عاليًا جدًّا ، يمدّ إليّ يدَه ويساعدني ، من حيث كان ، فما عدتُ أخاف كلَّ ذلك الجمع ، ولا هم كانوا ، بعد ، ولو أرادوا ، قادرين على إيذائي.

إدراك مغزى الرؤيا في الأحداث

١٨. يُخيَّل أن هذه الرؤيا لا تؤتي ثمرًا ، لكنَّها أفادتني فائدةً كبرى ، لأنني أُفهِمتُ مغزاها. فبعد وقتٍ قصير ، رأيتُني في معمعةٍ كتلك تقريبًا ، فعرفت في تلك

---

(٥) البراءة صادرة عن روما بتاريخ ١٧ تموز ١٥٦٥.
(٦) من النصّ الأصلي «اذا وفينا **ريالاً مرابطيا**... نعوّض ألفَ **دوقية**».

الرؤيا صورةَ العالم، وكأن كلَّ ما فيه يُصْلي سِلاحًا يحاربُ به النفسَ المسكينة. لا أعني من لا يخدمون الربّ خدمةً نصوحًا، والمقاماتِ، والأموالَ، والملذّاتِ وما يشبُهها؛ فمن الواضح أن هذه، لدى أدنى غفلةٍ من النفس، تُوقِعها في شِراكها، أو، على الأقل، تحاول، جميعُها، معًا، إيقاعَها في الشراك؛ بل أعني الأصدقاء، والأقاربَ، وأناسًا صالحين، وهذا أكثرُ ما يُذهِلني؛ ضيّقوا عليّ أيَّ ضيقٍ، وفي اعتقادهم أنهم يُحسنون إليّ، فما كنت أعرف كيف أُدافع عن نفسي ولا ما العمل.

الاتكال على الله في المحن

١٩. عونَك، اللهم! لو تحدّثتُ عن أشكالِ المشقّات وألوانها، التي قاسيتُها في هذه الفترة، حتى بعد هذا الذي رويتُ، فما أروعَ ما يكون لنا من أمثولة لِنَكْرَهَ كُرهًا تامًّا كلَّ ما في العالم! لقد كان ذلك، فيما أظنّ، أشدّ ما كابدتُ من إضطهاد. وأكرِّر القولَ إني رأيتُني أحيانًا مضيَّقًا عليّ من كلّ ناحية أيَّ تضييق، فما كان لي من حيلةٍ إلّا أن أرفعَ عينيَّ الى السماء وأناديَ الله؛ كنتُ أتذكَّرُ جيّدًا ما شاهدتُ في هذه الرؤيا. وأفادني ذلك أيَّ فائدةٍ حتى لا أتّكلَ كثيرًا على أحد لأن ليس من دائمٍ إلّا الله. وكان الربّ يرسل إليّ دائمًا، في هذه المشقّات الشديدة، شخصًا يمدّ يده اليّ باسمِه تعالى، كما أَظهَرَ ذلك وأَثْبَتَه في هذه الرؤيا، وما كان شيءٌ يربِطُني إلّا مرضاةُ الربّ؛ فشدّدَ ذلك فضيلَتِي الضعيفةَ القائمةَ على الرغبةِ في خدمتك، ربي. تباركتَ الى الأبد!

الربّ يطمئنها في مخاوفها

٢٠. كنت ذاتَ يومٍ فريسةَ القَلَقِ والإضطراب، لا أقوى على الإختلاء، وفي عراكٍ وصراعٍ، تشرُدُ أفكاري الى أمورٍ لا تخلو من شوائب، وما كنتُ بلغتُ، فيما أعتقد، التجرّدَ الذي تعوّدتُ. فلمّا وجدتُني في هذه الدرجة من الشقاء، انتابني خوفٌ من أن تكون المنن التي منحنيها الربّ أوهامًا. باختصار، كانت نفسي في ظلمةٍ حالكةٍ. وفيما أنا غارقةٌ بهذا الغمّ، بدأ الربّ يخاطِبُني فقال لي أنْ لا أجزعَ

فإني ، هكذا ، أدركُ بؤسي حقًّا إذا ابتعدَ ، هو ، عنّي ، وأن لا أمانَ لنا ما دُمنا في هذا الجسد. لقد أُتيحَ لي أن أفهم قيمةَ هذه الحرب وهذا الصراع لكسبِ هذه المكافأة ، وخُيِّل إليّ أنّ الربَّ يُشفِقُ علينا ، نحن الذين نعيشُ في هذا العالم ؛ وقال لي أنْ لا أظنَّه قد نسيني ، فإنه لن يهملَني أبدًا ، لكن لا بدّ لي من أن أعملَ ما في طاقتي . هذا ما قاله لي الربّ بوداعةٍ ولطفٍ ، وبكلماتٍ أخرى حباني بها منة عظمى ، ليس من داعٍ الى سردها .

مخاطبة ودّية

٢١. غالبًا ما يقول لي ، عزّ وجلّ ، مُظهِرًا لي حبَّه الكبير : « **أنتِ منذ الآن لي ، وأنا لكِ** » . أما ما اعتدتُ أن أقولَه دائمًا ، وأقوله بإخلاص ، فيما أعتقد ، **فهو** : « ماذا يهمُّني ، أنا ، من أمري ، يا رب؟ بل يَهمُّني ما يعنيك ! » . إن هذه الكلمات والملاطفات تُثير فيَّ اضطرابًا كبيرًا حين أتذكَّر ما أنا عليه . فكما قلتُ سابقًا ، فيما أعتقد ، وأقولُ الآن لمعرِّفي أحيانًا : لا بدّ ، في رأيي ، من شجاعةٍ ، لاقتبال هذه الأنعام ، أكبرَ مما يقتضي لاحتمال محنٍ شديدة . عندما يحدث لي هذا ، أكاد أنسى أعمالي ، ولا أتصوَّرُني إلّا حقيرةً ، والعقلُ معطّلٌ عملُه ، وهو ما يبدو لي أحيانًا فائقَ الطبيعة .

رؤيا عرش الله في السماء

٢٢. ينتابني أحيانًا شوقٌ الى التناول قويٌّ لا أدري اذا كنت أستطيع وصفَه . حدث لي هذا ذاتَ صباحٍ ، وكان المطر ينهمر غزيرًا ، فيبدو الخروجُ من البيت مستحيلاً . إذ كنتُ خارجَ البيت ، كنتُ خارجةً عن طوري بقوَّة ذلك الشوق بحيث لو صُوِّبَتْ إلى صدري حرابٌ لكنتُ تجاوزتُها ، فالأحرى بي أن أقتحمَ المطرَ . وما إن وصلتُ الى الكنيسة حتى أخذني إنخطافٌ عميق . ولاح لي أني رأيتُ السماواتِ انفتحت ، لا مدخلاً واحدًا كما رأيتُ في السابق . ظهر لي العرشُ الذي حدّثت حضرتَك مرارًا أني شاهدته ، يعلوه عرشٌ آخرُ فهمتُ ، ولو لم أرَ بِعَيْنيَّ ، بعلامةٍ لا

أحسِنُ التعبيرَ عنها ، أنَّ الألوهةَ مستويةٌ عليه. بدا لي أنّ حيواناتٍ تحمل ذلك العرشَ ، وأظنُّني سمعتُ تفسيرًا لهذه الحيوانات ، ففكَّرت لعلّهم الانجيليون[٨] . وما رأيت العرشَ ولا من استوى عليه ، بل شاهدتُ جموعًا غفيرةً من الملائكة بَدَوا لي أجملَ بما لا يقاس من الذين رأيتُهم في السماء. فتساءلتُ عمّا إذا كانوا الساروفيم أو الكاروبيم ، لأنهم يختلفون في المجد إختلافًا كبيرًا ، وكأنهم نارٌ ملتهبة ؛ والفرق بينهم كبير ، كما قلت. أما المجدُ الذي غمرني عندئذٍ فيستحيلُ وصفُه أو الإفصاحُ عنه ، ويعجزُ عن تصوّره من لم يَخْبَر الأمرَ بنفسه. فهمتُ أنّ كلَّ ما يمكن أن يتوقَ إليه الانسانُ مجتمِعٌ هناك ، وما رأيتُ شيئًا. قيل لي ، ولست أدري من قال ، إنّ ما يمكنني فعلُه هناك هو أن أفهمَ أنني لا أستطيع أن أفهمَ شيئًا ، وأن أعتبرَ كلَّ شيء عَدَمًا بإزاء ما هناك. لذا شعرتْ نفسي من ثمّ بالعار إذ وجدتْ ذاتَها قادرةً على الاهتمام بخليقةٍ ما ، والتعلُّقِ بها لأن كلَّ شيءٍ كان ، في نظري ، وكْرَ نمل.

النفس كطائر الفينيق

٢٣. تناولتُ القربان ، وسمعتُ القداس ، لكنني لا أدري كيف استطعتُ المكوث. خِلتُ الوقتَ قصيرًا جدًّا. أصابني الذهول حين دقَّت الساعة وعرفتُ أني قضيتُ ساعتين في ذينِك الانخطاف والمجد. وأخذَني العجَبُ ، فيما بعد ، من أنه ، مع الوصول الى نارِ حبِّ الله هذه ، الآتية ، كما يبدو ، من السماء (لأنني مهما أردتُ ، وحاولتُ ، وتفانَيتُ للحصول عليها فلستُ قادرةً على الفوزِ بشرارةٍ منها إلّا حين يريد ، عزّ وجلّ ، أن أحصلَ عليها ، كما قلت مرارًا) ، يبدو الإنسان العتيقُ المكوَّنُ من أخطاءٍ ، وفتورٍ ، وبؤسٍ ، وكأنه يتلاشى ؛ وعلى غرارِ ما يحدث لطائر الفينيق ، كما طالعتُ[٩] ، إذ ينبعثُ من رمادِه ، بعد احتراقه ، طائرٌ جديد ، تتبدّل النفسُ كلّيًّا من بعدُ ، تحرِّكُها رغائبُ مختلفةٌ وشجاعةٌ فائقةٌ. كأنها ليست النفسَ السابقة ، بل تنطلقُ بطهارةٍ جديدةٍ في طريق الربّ. وفيما أنا أتوسَّل اليه ، عزّ وجلّ ، كي يُحدِثَ

---

(٨) اشارة الى رؤيا ٤ ، ٦–٨ ؛ حزقيال ١ ، ٤ وما يليه.

(٩) طالعت ذلك على الأرجح في كتاب **الأبجدية الثالثة** ، لفرنثيسكو دي أوسونا.

فيّ هذا التبدُّلَ وان استأنفَ خدمتَه ، قال لي : « **لقد اعتمدتِ تشبيهًا مناسبًا ؛ فلا يغيبنَّ عن بالك كي تستمرِّي في التقدُّم دائمًا** » .

إثبات أصل الرؤى الإلهي

٢٤. كنت يومًا فريسةَ الشكّ نفسِه الذي تحدَّثتُ عنه منذ لحظة، فيمَا إذا كانت هذه الرؤى من الله ، فظهرَ لي الربُّ وخاطبني بلهجةٍ قاسية ، قال : « **يا بني البشر ! حتّامَ تظلّون قساةَ القلوب ؟** » . وطلبَ إليّ أن أتفحَّصَ ذاتي إذا كنت مكرّسة كليًا له أم لا ؛ فإذا كنتُ كذلك ، فلأَثِقْ من أنه لن يدعني أهلك . لقد غمّني كثيرًا ذلك الهتاف . وعاد يقول لي بحنانٍ ولطفٍ أن لا أغتمَّ ، فهو يعرف أنني لن أتوانى في أيِّ أمرٍ لخدمته ، وأن كلَّ ما أتمنّاه سيتحقّق (وقد تحقق ما كنت أطلبه منه حينئذٍ) ، وأن أعتبرَ ازديادَ حبِّي له كلَّ يومٍ فأرى أن تلك الرؤى ليست من الشيطان ، وأن لا أظن أن الله يرضى بأن يكون للشيطان هذا التسلُّطُ على نفوسِ خدّامِه . وقال : « **إنَّ الشيطانَ لا يسعُه أن يُعطيكِ صفاءَ العقلِ والطمأنينةِ اللذين بهما تنعمين** » . وأفهمَني أني أكون على خطإٍ إذا لم أعتقد أنّ تلك الرؤى من الله بعد أن أكّد لي ذلك كثيرون ، وهم حُجَّةٌ في الموضوع .

نعمةُ فهمِ سر الثالوث

٢٥. وكنت مرَّةً أتلو المزمور « من أراد » [١٠] ، فأوتيتُ أن أفهمَ ، بطريقةٍ واضحةٍ كلَّ الوضوح ، كيف أنه إلهٌ واحدٌ وأقانيمُ ثلاثة ، فاعتراني العجَبُ ، وغمرَني العزاء . وقد أفادني ذلك أيّما فائدة لأعرفَ عظمةَ الله وعجائبَه بصورةٍ أفضل ؛ وحين أفكِّر في الثالوث الأقدس أو يدور الحديثُ عنه ، أظنّني أفهم كيف يكون ذلك ، وأشعر بسرورٍ كبير.

---

(١٠) ليس مزمورًا بل هو قانون القديس اثناسيوس حول لاهوت الثالوث الأقدس ، كما وافق عليه مجمع نيقية ٣٢٥م. ، وكان يُتلى في صلاة الفرض يوم عيد الثالوث الأقدس ، أي في الأحد الأول بعد العنصرة ، ويبدأ في اللاتينية بكلمتي «quicumque vult» : من اراد.

رؤيا إنتقال العذراء

٢٦. يومَ عيدِ انتقال سلطانةِ الملائكة وسيِّدتِنا، شاءَ الربُّ أن يهَبَني هذه النعمة: تمثّل لي، في الخطافِ، صعودُها الى السماء، والبهجةُ والحفاوةُ اللتان استُقْبِلَت بهما، والمكانُ الذي تبوَّأته. أما كيف حدث ذلك، فإني عاجزةٌ عن وصفه. لقد غمر روحي مجدٌ فائقٌ لدى مشاهدةِ هذا المجدِ العظيم. وأحدثت فيَّ الرؤيا تأثيراتٍ كبيرةً، وزادتَ من رغبتي في معاناةِ مشقّاتٍ شديدةٍ، وترسّختْ في نفسي رغبةٌ قويةٌ لخدمةِ هذه السيدة، التي استحقَّت بهذا المقدار.

٢٧. كنت يومًا في مدرسةٍ للجمعيّة اليسوعيّة[11]، وفيما كان إخوةُ ذلك البيت يتناولون القربان، رأيت فوق رؤوسِهم مظلَّةً ثمينةً. لقد رأيتُ هذا المشهدَ مرّتين. وما كنتُ أراه حين كان آخرون يتناولون.

(١١) مدرسة سان خيل في آفيلا.

الفصل الأربعون

تتابع سردَ المنن الكبيرة التي منحها الربّ.
ينجم عن بعضها تعليمٌ مفيدٌ جدًّا ، كان ،
كما قالت ، هدفَها الرئيسَ بعد الطاعة ، أي :
أن تضعَ بمتناول النفوس ما يعودُ عليها بنفع .
بهذا الفصل ينتهي ما كتبتْ من سيرتها .
فليكن لمجد الربّ. آمين

إنخطاف وتعليم سماوي

١. كنت مرّةً أقوم بالتأمّل ، فشعرتُ بمتعةٍ فائقةٍ حتى إني ، لاعتباري نفسي غيرَ جديرةٍ بهذا الخير ، بدأتُ أفكّر في أنّي أستحقّ ، أكثر ما أستحقّ ، المكانَ المعدَّ لي في جهنّم لأني ، كما قلتُ ، ما نسيتُ البتّة الوضعَ الذي وجدتُني فيه هناك. وبدأتْ نفسي ، مع هذه الفكرة ، تزدادُ اضطرامًا ، فأخذَ روحي إنخطافٌ لا يسَعُني وصفُه : صُوِّرَ لي أني أدخِلْتُ ذلك الجلالَ الذي عرفتُه مرارًا ، وامتلأتُ منه. وأُعطِيتُ ، وأنا في هذا الجلال ، أن أفهمَ حقيقةً هي تمامُ الحقائقِ كلِّها. لا يسعُني أن أقول كيف حدثَ ذلك ، لأنني لم أرَ شيئًا . قيل لي ، دون أن أرى القائلَ ، لكني فهمتُ جيِّدًا أن « الحقّ » عينَه هو من قال : « **ليس بالأمرِ اليسيرِ هذا الذي أفعلُه من أجلِكِ** ، **بل إنه واحدٌ من الأمور التي بها تَدينين لي أكثرَ ما تدينين ؛ إن الشرَّ الكبيرَ الذي يصيبُ العالمَ ناجِمٌ عن كونِه لا يعرِفُ حقائقَ « الكتاب المقدّس » معرفةً حقًّا ؛ وحرفٌ منه**

لن يزول». في ظنّي، أني اعتقدتُ دائمًا بهذه الحقيقة، وأن المؤمنين جميعًا كانوا يصدّقونها. قال لي: «**واأسفاه، يا ابنتي! ما أقلّ الذين يحبّونني حبًّا حقيقيًّا! لو أنّهم يُحبّونني لما كنتُ أكتمُهم أسراري. أتعرفين ما معنى حبي حبًّا حقيقيًّا؟ معناه أنّ كلّ ما لا يَسُرُّني كَذِبٌ. ستفهمين بوضوحٍ ما لا تُدركينه الآن، من التقدّم الذي تحقّقه نفسُكِ**».

من فوائد الرؤيا: الفهمُ والشجاعة

٢. ولقد أيقنتُ ذلك، تباركَ الربّ، لأني، مذ ذاك، أعتبر كلّ ما لا أراه يهدِفُ الى خدمةِ الربّ بطلاً وكذبًا؛ ولا يسعُني أن أوضحَ كيف أفهمُ هذا، وكم أرثي لحالِ الذين أراهم يَعمهون في الظلامِ بعيدًا عن هذه الحقيقة. والى هذا، جنيتُ فوائدَ أخرى سأذكرُها هنا، وأخرى كثيرةً أعجزُ عن وصفها. قال لي الربّ كلمةً خاصةً تنمّ عن هبةٍ سامية[1]. لا أدري كيف حصلَ ذلك، لأني ما رأيتُ شيئًا؛ ولا أستطيعُ أيضًا أن أصفَ الحال التي لبثتُ فيها، ممتلئةً شجاعةً، وعلى أتمّ استعدادٍ لأُتِمَّ بكل قواي أدنى جزءٍ من الكتاب الإلهي. وما كانَ من شيءٍ، في ظنّي، ليحولَ دون إنجازي مقصدي.

من فوائد الرؤيا: حقيقةُ الله وفهمُها

٣. وانطبعتْ فيّ، عن هذه «الحقيقة» الالهية التي صُوِّرَتْ لي، حقيقةٌ، لا أدري لماذا ولا كيف تمّ ذلك، ولّدت فيَّ احترامًا جديدًا لله، لأنّها أعطتني عن جلالِه وقدرتِه معرفةً لا توصَف؛ لكنّني أعرفُ أنها لأمرٌ عظيم. ورسخ في نفسي توقٌ شديدٌ الى الكلام على أشياءَ حقيقيّةٍ وحسب، أشياءَ تسمو على ما يُتداوَلُ من أحاديثَ في هذا العالم، وبدأتُ أشعرُ بعذابٍ من العيش فيه. وقد خلّفَ ذلك فيّ رقّةً بالغةً، وبهجةً، وتواضعًا. أظنّ أن الربّ أعطاني الكثيرَ، هكذا، دون أن أعرفَ كيف. لم

---

(١) أنظر سيرة ٣٩، ٢٠–٢١. من عادتها إهمال الكلماتِ التي تعود الى مديحها.

يخالِجْني أدنى خوفٍ من أن يكونَ ذلك وهمًا. ما رأيتُ شيئًا، لكنّي أدركتُ الفائدةَ العظيمة في أن لا نهتمَّ بأشياء لا تزيدُ من قربنا الى الله، وفهمتُ ما معنى أن تسيرَ نفسٌ في الحق أمام «الحق» نفسه. إن ما فهمتُه هو ما أفهمني الربُّ من أنه هو «الحقيقةُ» بالذات.

من فوائد الرؤيا: علمٌ واضح

٤. كلّ ما ذكرت، فهمتُه بكلامٍ قيلَ لي أحيانًا، وأحيانًا بدون كلام؛ وبعضُ هذه الأشياء فهمتُها بوضوحٍ أكبر ممّا كان يُقال لي بالكلام. علمتُ حقائقَ رفيعةً حول هذه «الحقيقة»، أكثرَ ممّا لو لَقّنَنيها كثيرون من ذوي العلم. ولا أظنّهم كانوا استطاعوا، في أيِّ حال، أن يطبعوها فيّ راسخةً كما انطبعت، ولا أن يُفهموني بأوضحَ ممّا فهمتُ بطلانَ هذا العالم.

إن هذه الحقيقةَ التي أقول إنّي أُعطِيتُ فهمَها، هي حقيقةٌ بذاتها، لا بدءَ لها ولا إنتهاء، وسائرُ الحقائق مرتبطةٌ بها، كما أن أيَّ حبٍّ مرتبطٌ بهذا الحب، وسائرَ العظائم مرتبطةٌ بهذه العظمة؛ إن ما أقوله لغامضٌ إزاء الوضوح الذي شاء الربّ أن يُفهمني اياه به. ما أروع ما يُظهِرُ سلطانَه، عزّ وجلّ، فإنه، بوقتٍ وجيزٍ، يُغني النفسَ أيما غنىً ويطبعُ فيها هذه الأشياءَ الباهرة!

مناجاة

أيَّتُها العظمة، ويا أيُّها الجلال! ماذا تصنع، يا سيِّدي القدير؟ أنظرْ إلى التي تمنحُها مننًا عظمى كهذه! ألا تذكُر أنّ هذه النفس كانت بحرًا من الأكاذيب، وخضمَّ أباطيل؟ وكلُّ هذا بِذَنْبي؛ فمع أنك ربِّي، وهبتَني طبعًا يَكرَهُ الكذب، انصرفتُ، أنا، غالبًا الى اعتمادِ الكَذِب. كيف يُتصوّر، يا إلهي، وكيف يُحتمَل أن تمنحَ، أنتَ، أفضالاً ومننًا كهذه كبيرةً مَنْ أساءَ استحقاقَها منكَ أيَّ إساءة؟

رؤيا النفس كالمرآة

٥. فيما كنت أتلو ذاتَ يومٍ صلاة الساعات[٢] مع جمهورِ الراهبات، فرغتْ نفسي فجأةً الى الإختلاء، وظهرتْ لي بأكملِها كمرآةٍ صافيةٍ، فلا قَفا، ولا جوانبَ، ولا أَعلى، ولا أسفل، إلّا وهو ضياء، وتمثَّلَ لي في وسطِها المسيحُ ربُّنا كما اعتدتُ أن أراه[٣]. كان يُصوَّر لي أني أراه بوضوحٍ في كلِّ جزءٍ من أجزاءِ نفسي كما في مرآة، وأنّ هذه المرآة كانت، لا أدري كيف، تُنْقَشُ كلُّها في الربّ، باتّصالٍ وديّ حميمٍ لا يسعُني وصفُه. أعرف انّي كلَّما تذكّرتُ هذه الرؤيا جنيتُ منها فائدةً كبيرةً، لا سيّمَا بُعَيْدَ تناولي القربان. فقد أُفْهِمْتُ أنّ النفسَ حين تكون في حالِ الخطيئة المميتة، يغطِّي هذه المرآةَ ضبابٌ كثيفٌ فتصيرُ سوداءَ، فيستحيلُ أن نتمثّل فيها هذا الربّ أو نراه، ولو أنه دائمًا حاضرٌ يعطينا الوجود؛ أما بالنسبة الى الهراطقة، فكأنما المرآةُ محطّمةٌ، وهذا شرٌّ من أن تكون قاتمة. والفرقُ شاسِعٌ بين أن يُرى الشيءُ وأن يُوصفَ، فقد يَصعُب إيضاحُه. لكنّه أفادني فائدةً ثمينةً وحرَّك فيّ أسفًا شديدًا لأني أظلمتُ نفسي غالبًا بذنوبي فحُرِمتُ رؤيةَ هذا الربّ.

نفع رؤيا المرآة للمتأمِّلين

٦. في تقديريَ أن هذه الرؤيا ذاتُ نفعٍ لمن يعيشون في الإختلاء؛ فإنَّها تعلِّمهم أن يتأمَّلوا الربَّ في قرارةِ نفسهم؛ وهو تأملٌ يشدُّنا إليه بطريقةٍ أوثق، ويؤتي من الثمر ما يفوقُ كثيرًا ما يؤتيه تأمُّلُهم إيّاه من الخارج، كما قلتُ مرارًا وكما هو مكتوبٌ في بعض كتب التأمّل[٤] التي تُعيِّن أينَ يجبُ أن نَبحث عن الله. ويقول القديس اغسطينوس المجيد، بنوعٍ خاص، إنه لم يجدْه في الساحات، ولا في

---

(٢) صلاة الساعات قسمٌ من الصلوات المفروض أن يُصلّيها الرهبان والرهبات في أوقاتٍ معيّنة من اليوم.

(٣) منةٌ اختبارية سماوية إستقت منها القديسة تعليمَها في كتاب **المنازل**.

(٤) لعلّها الكتبُ الروحية التي عرفتها وطالعتْها مثل **الأبجدية الثالثة**، لأوسونا، أو **طلوع جبل صهيون**، لِلاريدو.

المسرّات ، ولا في أيٍّ مكانٍ آخر كان يبحثُ عنه فيه مثلما وجدَه في داخِله . ومِن الواضح أنّ هذا خيرُ مكان. فلا حاجةَ للذَهاب الى السماء ، ولا الى أبعدَ من ذاتِنا ، لأن ذلك يُتعِبُ الروح ، ويُلَهّي النفسَ ، ولا يؤتي ثمارًا كافيةً .

نتيجة الانخطاف على قوى النفس

٧. أودّ أن أنبِّه الى شيءٍ قد يحصُل لأحدٍ ما . يحدُث في انخطافٍ عميقٍ ، بعد انقضاء حالةِ الاتحاد (حيث تكون قوى النفس مأخوذةً كلُّها ، وهي حالةٌ ، كما قلتُ ، تستمرُّ قليلاً) ، أن تبقى النفسُ مستغرقةً وأن لا تقوى على العودة الى ذاتِها ، حتى خارجيًّا ، غير أن اثنتين من القوى ، الذاكرةَ والعقلَ ، ينتابهما تولُّهٌ ، وهيامٌ . وأُوضح أنّ هذا يحدُثُ أحيانًا ، لا سيَّمَا في البدء . وأتساءل ما إذا كان يتأتّى عن كونِ ضعفِنا الطبيعي لا يسعُه أن يتحمَّل قوَّةَ الروح الشديدةَ ، فتضعُف المخيَّلة . أعرف أن هذا يحدث لبعضِ الأشخاص . فأعتبر من الخيرِ لهم أن يَجهَدوا حينئذٍ في تركِ التأمل ويَسْتَدركوا في وقتٍ لاحقٍ ما فاتَهم ، على أن لا يكونَ ذلك في الحال ، لأنه قد يسيءُ إليهم كثيرًا . والخبرةُ خيرُ برهانٍ ، والحكمةُ تقضي بأن نراعيَ طاقةَ صحَّتِنا .

ضرورة المرشد ، وتقدّم النساء على الرجال في هذا المجال

٨. لا بدّ من خبرةٍ ومعلِّمٍ في كلِّ حال ؛ فحين تصل النفس الى هذه الدرجة ، تطرأُ أشياءُ كثيرةٌ لا بدّ من تداولِها مع مرشد . فإذا بحثت النفسُ عن مرشدٍ ولم تجدْه ، فإن الربَّ لن يتركَها ، ما دامَ لم يتركْني مع ما أنا عليه . في اعتقادي أن الذين توفّرتْ لهم الخبرة في هذه الأمورِ الكثيرة قليلون ، وإذا نقصَتْهم الخبرةُ ، فعبثًا يعالِجون دون أن يُحدِثوا اضطرابًا وغمًّا . لكنَّ الربُّ يحسَب لهذا الأمر حسابًا ؛ ولذا فمن الأفضل ، (كما قلت سابقًا ومرارًا كلَّ ما أقوله هنا ، لكنّني لا أتذكّر ، وأرى أنه مهمٌّ جدًّا) ، تَداولُه مع معرِّفٍ ، لا سيَّما بالنسبة الى النساء ، وأن يكونَ المعرِّف على ما وصفت . إن النساءَ اللواتي يُغدِقُ الربُّ عليهنّ هذه المنن يفُقْن الرجالَ عددًا ؛ وهذا ما سمعتُه من الراهب القديس بدرو دي ألقنطره (وعاينتُه بنفسي) ، وكان يقول

عنهنّ إنهنّ يتقدّمن الرجال أشواطًا في هذا الطريق، ويقيمُ حججًا دامغةً على ذلك لا حاجةَ لذكرِها هنا، وكلُّها في صالح النساء.

رؤيا حضور الله في الخلائق

٩. كنت أقوم بالتأمل ذات يوم، فتمثَّل لي بلحظةٍ خاطفةٍ (دونَ أن أرى شيئًا محدَّدًا ولو كان تمثيلاً واضحًا جدًّا)، كيف تُرى في الله جميعُ الأشياء، وكيف يحتويها كلَّها في ذاتِه. أما أن أشرحَ هذا، فليس في وُسعي، لكنّه انطبَع عميقًا في نفسي؛ وهذه واحدةٌ من المنن الكبيرة التي حباني الربّ ومن التي أثارت فيَّ الخوفَ والحياء، لدى تذكّري الخطايا التي اقترفت. وفي اعتقادي، أن الربّ لو كان تنازلَ وآتاني أن أرى، فيما مضى، ما رأيتُ، وأن يراه الذي يهينونه لما كانوا يتهوَّرون، أو يتجرّأون على إهانته. وأُكرِّرُ أنَّ هذا ما تمثَّل لي ولا أستطيع التأكيد أنّي رأيت شيئًا، لكنّ شيئًا ما يُرى، لأن بوسعي أن أُقيمَ مقارنةً؛ إنَّما ما يُرى من الدقَّةِ واللطافة بحيث إن العقلَ لا يستطيع إدراكَه، أو إنني أقصِّر في فهمِ هذه الرؤى، وهي لا تبدو خياليَّةً وإن طُبعَ بعضُها بشيءٍ من الخيال. لكن بما أن هذه الرؤى تَحدُث في حال الإنخطاف، فإن القوى لا تستطيع، بعدها، أن تُصوِّرَ ما شاهدتْ كما مثَّله الربُّ لها وأراد أن تَنعَمَ به.

تشبيه الألوهة بِألماسةِ

١٠. لنقل إن الأُلوهةَ ألماسةٌ بالغةُ الصفاء، أكبرُ حجمًا بكثيرٍ من الكون كلِّه، أو هي مرآةٌ كتلك التي تمثِّل النفسَ في الرؤيا السابقة، لكنَّها تسمو عليها أيَّ سموٍّ بحيث أَعجزُ عن وصفه. كلّ ما نعمله يُرى في هذه الألماسة، لأنها تستوعبُ في ذاتِها كلَّ شيء، ولا شيءَ يقعُ خارجَ اتِّساعِها. أخذتْني الدهشةُ لدى مشاهدتي في هذه البرهةِ الوجيزة أشياءَ عديدةً معًا مجتمعةً في هذه الأَلماسةِ الصافية، وأرثي لحالي الى أقصى حدٍّ كلَّما تذكّرتُ أنّي رأيتُ أشياءَ بالغةَ القبحِ كخطاياي مصوّرةً في ذلك النقاءِ الصافي. فحين يخطرُ الأمرُ في بالي، لا أدري كيف أُطيقه؛ لذا لقِّني الحياءُ إذ

ذاك فما كنتُ أدري ، فيما أظنُّ ، أين أختبئ. آه ! ليتني أستطيعُ أن أُفهِمَ الذين يرتكبون خطايا بشعةً وشنيعةً ، فيتذكَّروا أنها ليست بخافية ، وأن الله يغتمُّ لها عن حقّ ، لأنها تُقْتَرف في حضرةِ جلالِه ، ونحنُ نتصرَّفُ أمامه ، تعالى ، بكلِّ وقاحةٍ ! رأيتُ أننا ، بسبب خطيئةٍ واحدةٍ مميتةٍ ، نستحقُّ ، بعدلٍ ، جهنَّم ، اذ لا يُمكننا أن نقدِّر الخطورة البالغة في اقترافها في حضرة جلالٍ رفيعٍ كهذا ، وكم هي بعيدةٌ عن سموِّه أشياءُ كهذه. وهكذا يُرى فيضُ رحمته ؛ فعلى معرفتنا بكلّ هذا ، نراه بنا حليما.

تساؤل عن يوم الدينونة

١١. حملتني الرؤيا على التفكير في أنه إذا كان مشهدٌ كهذا يروِّع النفسَ ترويعًا ، فما عسى الأمرُ يكونُ يومَ الدينونة ، حين يَظهرُ لنا علنًا هذا الجلالُ ونرى الإهاناتِ التي اقترفنا ؟

رُحماكَ ، أللَّهمَّ ! ما أشدَّ العمى الذي لازمني ! كثيرًا ما دَهِشتُ وأنا أكتبُ ما كتبتُ ، فلا تندهشنَّ حضرتُك[٥] إلَّا من كوني ما أزالُ حيَّةً ، أرى هذه الأشياءَ وأتأمل في ذاتي. تباركَ الى الأبد من احتملني هذا الاحتمال !

رؤيا نبوية عن احدى الرهبانيات

١٢. فيما كنت ذات يوم أقوم بالتأمل باختلاءٍ عميق ، وعذوبةٍ ، وسكونٍ ، تراءى لي أنَّ ملائكةً يُحيطون بي وأنّني قريبةٌ من الله. بدأتُ أتضرَّع إليه ، عزّ وجلّ ، من أجل الكنيسة ، فأوتيتُ أن أدركَ الخيرَ العظيمَ الذي ستصنعُه إحدى الرهبانيات في المستقبل. والشجاعةَ التي سيُدافِع بها أعضاؤُها عن الايمان[٦].

---

(٥) تخاطب معرِّفَها غارثيا دي توليدو.

(٦) رأى البعض أنها تشير الى رهبانية القديس عبد الأحد ، فيما رأى آخرون انها تقصد الجمعية اليسوعية.

رؤيا نبوية عن ازدهار رهبانية

١٣. وكنت مرَّةً أصلِّي أمام القربان المقدَّس، فظهرَ لي قِدِّيسٌ آلت رهبانيته الى بعض الإنحطاط، وكان يحمِل في يديه كتابًا كبيرًا، ففتحَه وطلب إليَّ أن أقرأَ بعضَ كلماتٍ مكتوبةٍ بأحرف كبيرةٍ، سهلةِ القراءة، وهي: «**في الأزمنةِ المقبلة ستزدهِرُ هذه الرهبانية، ويكون منها شهداءُ كثيرون**»[٧].

رؤيا نبوية عن المدافعين عن الايمان

١٤. وكنت، مرَّةً أخرى، أُصلِّي صلاةَ الفجر في الخورس، فتمثّل أمامي حاضرين ستةُ رهبانٍ أو سبعةٌ، فيما أظن، من الرهبانية نفسِها حاملين بأيديهم سيوفًا. وهذا يعني، في اعتقادي، أنّ عليهِم الدفاعَ عن الايمان. فقد كنت أقومُ بالتأمل في مناسبةٍ أخرى، فاختُطفتُ بالروح وبدا لي أنّني في حقلٍ واسعٍ يتصارع فيه حشدٌ من المقاتلين، وكان أفرادُ هذه الرهبانيةِ يكافحون بحماسةٍ كبيرة. كانت وجوهُهم صبيحةً، مضطرمةً إضطرامًا، وكانوا يرمون الكثيرين أرضًا مغلوبين، ويقتلون آخرين. خُيِّل إليَّ أنّ هذه المعركة كانت ضدّ الهراطقة.

فطنتها في كتمان الأسماء

١٥. لقد شاهدتُ هذا القديسَ[٨] مرارًا، وحدَّثني ببعضِ أمورٍ، وشكرني على صلاتي من أجل رهبانيتِه، ووعدَني بأن يتشفَّع بي لدى الربّ. لا أُسمِّي الرهبانيات (إذا شاء الربّ أن تُعرَف، فهو يُعلِن ذلك)، كي لا أَمسّ شعورَ الرهبانيات الأخرى. على أنّ كلَّ رهبانيةٍ، بل كلَّ راهبٍ، يجب أن يسعى ليُسْعِدَ الربَّ بواسطتِه رهبانيتَه فتخدمَ الكنيسةَ، وهي أشدُّ ما تكون بحاجةٍ الى هذه الخدمة الآن. طوبى للذين يقضون في هذا السبيل!

---

(٧) قيل إنها رهبانية القديس عبد الأحد، فيما يؤكد آخرون أنها تعني الرهبانية الكرملية.
(٨) القديس عبد الأحد.

استيضاح في قبول الأسقفية

١٦. رجاني أحدُهم[٩] يومًا أن أتوسّل إلى الله ليعلِمَه إذا كان قَبولُه الأسقفيّة يؤول الى خدمتِه. فقال لي الربّ بُعَيْدَ المناولة: «**عندما يُدرك إدراكًا حقًّا، واضحًا، أن السلطانَ الحقيقي يقومُ على عدمِ امتلاك شيء، عندئذ يُمكنه قبولُها**»، يعني بذلك أن المدعوَّ الى الحبريَّة يجب أن يكونَ بعيدًا عن التوقِ إليها، والرغبةِ فيها، أو، على الأقل، عن السعيِ إليها.

نتيجة كتابها: انكشاف نفسِها

١٧. هذه المنن وأخرى كثيرة منحَني الربّ، أنا الخاطئةَ، وما زال يمنحني، ولا أرى ضرورةً في الكلام عليها. فمِمَّا قلت يُمكن التعرُّف الى نفسي والى الروح الذي آتاني الربّ. تباركَ الى الأبد، هو، الذي عُنِيَ بي كلَّ هذه العناية!

في هذه الحياة تقلّب دائم

١٨. قال لي الربّ ذاتَ يومٍ، معزِّيًا (بحبٍّ كبير)، ألّا أغتمَّ، فإننا، في هذه الحياة، لا نستطيعُ البقاءَ على حالٍ واحدٍ دائمًا؛ فأحيانًا آلف الوَرَع وأحيانًا أنقطِع عنه؛ ينتابُني القلقُ أحيانًا، وأحيانًا يغمرُني السكونُ وتجتاحُني التجارب. لكن عليّ أن أثقَ به ولا أخاف.

المودّة بين الصالحين

١٩. كنتُ أسائِل نفسي، ذاتَ يومٍ، إذا كان تقييدًا لي إظهاري السرورَ بمعاشرتي من أُباحِثُهم في أمر نفسي، ومحضُهم وُدِّي، وكذلك من أعتبرُهم خدّامًا أمناءَ لله وأرتاحُ إليهم، فقال لي الربّ: إنَّ مريضًا أشرفَ على الموت إذا رأى أن طبيبًا

---

(٩) هو أحد أعضاء محاكم التفتيش فرنثيسكو دي سوتو وصار فيما بعد أسقفًا على سلمنكا (١٥٧٥).

يشفيه ، فليس من الفضيلةِ أن يمتنعَ عن امتنانِه وحبِّه ؛ فماذا كنتُ صنعت ، أنا ، لولا هؤلاء ! وإن التباحثَ مع الصالحين لا يسبِّبُ ضررًا ، على أن تكونَ كلماتي دائمًا متّزنةً وتقويّةً ، وأن لا أقطعَ صلتي بهم ففيها بالأحرى خيرٌ لنفسي لا ضرر. فعزّاني هذا الكلامُ كثيرًا ، لأني فكَّرْتُ ، أحيانًا ، بقطعِ كلِّ علاقةٍ ، خوفًا من تعلّقي بهم.

وكان هذا الربّ ينصحني دائمًا في كل أمرٍ ، حتى إنه كان يقول لي كيف عليّ أن أتصرَّفَ مع الضعفاء ومع بعض الأشخاص. إنه لا يُهمِلُني أبدًا.

«ربّي : إما الموت أو الألم»

٢٠. أَغتمُّ أحيانًا إذ أراني مقصِّرةً في خدمته ، ومرغَمةً على أن أكرِّسَ من الوقت أكثر ممّا أودّ للعناية بجسدٍ ضعيفٍ وبائسٍ كجسدي. كنت مرّةً أقوم بالتأمّل ، وحانتْ ساعةُ الرقاد ، وكنت أعاني آلامًا حادّةً ، فجاشت نفسي للقَيءِ الذي يُعاوِدُني[١٠]. ولما رأيتُني مقيَّدةً بذاتي ، بينما الروح ، من ناحيةٍ أخرى ، يطالِب بوقتٍ يُخصَّصُ له ، هدَّني الغَمُّ ، فبدأتُ أذرفُ الدموعَ وأتحسَّر. لم يحدُثْ هذا مرّةً واحدةً بل ، كما قلتُ ، مرارًا ؛ فكنتُ ، فيما يُخيَّلُ إليَّ ، أسخَطُ على ذاتي حتى أكرهَها ، عندئذٍ ، حقًّا. لكنّي ، عادةً ، لا أشعرُ بكرهٍ نحو ذاتي ، ولا أقصِّرُ في ما أعتبره لازمًا. وعسى الله أن يرضى فلا أتجاوزَ الضروريَّ ، لأن هذا قد يحدث لي. وبينا أنا أتقلَّب في الغمِّ هذه المرّة ، ظهر لي الربُّ وأكثرَ من ملاطفتي ، وطلبَ إليّ أن أعملَ هذه الأشياءَ حبًّا به ، وأن أتحمَّل ذلك ، فإنّ حياتي ما تزال الآن ضروريةً. وهكذا ، يُخيَّلُ إليّ أني ما وجدتُني في غمٍّ قطّ بعد أن عزمتُ على أن أخدمَ بكل قواي هذا الربّ الذي يعزّيني ؛ فإنّه ، وإن كان يَدَعُني أتألّم قليلاً ، كان يعزّيني بحيث لا يكون لي فضلٌ حين أرغبُ في المشقّات. وهكذا ، لا أعتبرُ أنّ هناك ، الآن ، أمرًا آخرَ يُبرِّر عيشي سوى هذه المعاناة ؛ وهذا ما أطلبه من الله بإلحاح. أقولُ له أحيانًا بكل إرادتي : «ربّي ، إما الموت أو الألم ؛ لا أسألُك لِذاتي غيرَ هذا». ويعزّيني سماعُ

---

(١٠) تشير الى القيء الذي كانت تستثيره كلّ يومٍ لتستطيع أن تنام (سيرة ٧ ، ١١).

دقّاتِ الساعة ، إذ أتصوّرني أقتربُ قليلاً من مشاهدةِ الله حين أرى تلكَ الساعةَ من حياتي تنقضي.

نتائج شيوع منن الربّ عليها

٢١. وأكونُ أحيانًا أخرى في حالةٍ لا أشعرُ معها بأسفٍ لكوني أعيش ، ولا برغبةٍ في الموت ، فيما يلوح لي ، بل يعتريني فتورٌ وتُحيطُ بي الظلمةُ من كلِّ جانب ، كما قلت[١١] ، من جرّاءِ المحن الشديدة التي تنتابني غالبًا . وما دام الربّ قد شاء أن تشيعَ هذه المنن التي ينفحني بها ، عزّ وجلّ ، (كما قال لي منذ بضعِ سنواتٍ بأن أمرَها سيشتهر ، فاغتممتُ أيَّ غمّ ، وقد عانيتُ من ذلك الكثير ، كما تعرف حضرتُك[١٢] ، لأن كلّ إنسان يحكم على الأمر كما يحلو له) ، فقد أصابني العزاءُ لأنه لم يكن لي شأنٌ باشتهارِ أمرها ؛ فقد حرِصْتُ أشدَّ الحِرص على أن لا أُطلِعَ عليها سوى معرِّفيَّ ، أو أشخاصًا كنتُ أعلمُ أنَّهم عرفوها بأنفسهم ؛ وما كنتُ أفعل ذلك عن تواضع ، بل لأنه ، كما قلت ، كان يؤلمني أن أُفصِحَ عنها حتى الى معرّفي . أما الآن ، والحمد لله ، (مع أنّ كثيرين يَصْدُقونني اللومَ بنيَّةٍ صالحةٍ ، وآخرين يخشون معاشرتي بل وسماعَ اعترافي ، وآخرين يوجِّهون إليّ أقوالاً وأقوالاً) فلأني أُدرك أن الربّ أرادَ ، بهذه الوسيلة ، أن يساعدَ نفوسًا كثيرةً ، فقلّما أَكترِثُ للأمر ، (لقد تبيّنت ذلك ، وأذكرُ ما يمكنُ الربَّ أن يقاسيَه من أجل نفسٍ واحدة) . لا أدري إذا كان السببُ في ذلك أنه ، عزّ وجلّ ، أخفاني في هذا الركنِ المحصَّنِ فلم يعدْ أحدٌ يذكرُني ، فيما أظن ، وكأنني شيءٌ ميِّت . لكنّ اختفائي لم يكن بقدْرِ ما كنت أتمنّى ، فأنا مضطرّةٌ لأن أحادِثَ بعضَ الأشخاص . وبما أني لست حيثُ يُمكِنُهم رؤيتي ، فكأن الربّ شاء أن يدفَعَني إلى مرفإٍ آمَلُ منه ، عزّ وجلّ ، أن يكون المرفأ أمينا .

---

(١١) تشير الى التطهرات الصوفية والحالات الروحية التي عانتها وقد تكلّمت عليها في الفصل ٣٠ ، مقطع ٨ وما يليه.

(١٢) مرشدها غارثيا دي توليدو.

عدم اكتراثها بالأقاويل

٢٢. أما الآن، وأنا خارجَ العالم بصحبةِ قِلّةٍ من الرفيقات القدّيسات، فكأنما أنظر من علٍ، فلا يهمُّني بعدُ ما يُقال ولا ما يُشاع. إني لَأُولي اهتمامي تقدُّمَ نفسٍ، مهما كان قليلاً، أكثرَ من كلِّ ما يُمكن أن يُقالَ عنّي؛ فمنذ أن قدمتُ الى هنا، شاء الربّ أن تنتهي رغائبي عند هذا الإهتمام. لقد صارت الحياة لي شبهَ حلمٍ، فكأن ما أراه، أراه دائمًا، تقريبًا، في حلم. لا أُحِسُّ في ذاتي سرورًا كبيرًا ولا غمًّا شديدًا. وإذا ما سبّبتْ لي بعضُ الأمورِ سرورًا أو غمًّا فيزول وشيكًا وشيكًا، فيأخذني العجَبُ، ويترك في النفس شعورًا كأنه حُلُمٌ مضى. إنها الحقيقةُ كلُّ الحقيقة. فلو أردتُ فيما بعد، أن استمتعَ بذلك السرور أو أجزعَ من ذلك الغمّ، لما كان لي في الأمر يدٌ، مثلي مثل إنسانٍ عاقلٍ لا يغتمّ أو يسعدُ لحُلُمٍ رآه؛ فقد أَعتقَ الربُّ نفسي من تلك الحساسيّة، لأني لست متقشّفةً أو ميتةً عن أمور العالم، ولا يريدها، عزّ وجلّ، أن تسقطَ في العمى من جديد.

تمنيّاتها

٢٣. هكذا أعيشُ حاليًّا، يا سيِّدي، ويا أبتِ(١٣). فتوسّلْ حضرتُك الى الله كي ينقلَني إليه، أو يُعطيَني النعمةَ لأخدمَه. ألا رضيَ الله، عزّ وجلّ، أن يكون في ما كتبتُ هنا فائدةٌ لحضرتِك، وقد كلَّفني مشقّةً لضيقِ الوقت. لكن، يا سعدَها من مشقّةٍ إذا أصبتُ في قولِ شيءٍ يحمِلُ على تمجيد الله ولو مرّةً واحدةً! بهذا أعتبرني لقيت جزائي، ولو أن حضرتَك أحرقتْ حالاً ما كتبتُ.

رغبةٌ في ألّا يُحرقَ الكتاب

٢٤. وبودِّي أن لا يُحرَقَ من دون أن يَنظُرَ فيه الأشخاص الثلاثة الذين

---

(١٣) الأب غارثيا دي توليدو. تدعوه «سيِّدي» لأصله النبيل؛ وتدعوه «أبتِ» لأنه مرشدٌ روحيٌّ لها.

تعرِفُهم[١٤] ، فقد كانوا وما زالوا معلّمي اعترافي . فإذا كان سيّئًا ، فحَسَنٌ أن يُقلِعوا عن الظنّ بي خيرًا . وإذا كان جيّدًا ، فأعرف ، وهم ذوو صلاحٍ وعلمٍ ، أنّهم سيعلمون مصدرَه ويمجّدون من قاله بواسطتي .

أخذَ اللهُ ، عزّ وجلّ ، دائمًا بيدِ حضرتِك وجعلَك قدّيسًا كبيرًا يضيءُ بروحِه ونورِه هذه البائسةَ ، القليلةَ التواضع ، المتهوّرةَ ، التي اجترأتْ فأقدَمَتْ على الكتابة في مواضيعَ سامية . فإن شاء الله لا أكونُ أخطأتُ في ما كتبتُ ، فقد كانت نيّتي ورغبتي أن أصيبَ في القول وأن أطيعَ ، وأن أُسهِمَ ، ولو قليلاً ، في أن يُمَجَّد الرب ؛ وهذا ما أرجوه منه منذ سنواتٍ عديدةٍ . وعِوَضًا عن الأعمالِ ، فقد اجترأتُ على ترتيبِ حياتي هذه المشوَّشة ، دون أن أبذلَ في ذلك عنايةً او وقتًا يزيدُ على ما كان ضروريًّا لكتابتِها ، بل أَثْبَتُّ ما حدثَ في نفسي بكلِّ ما أوتيتُ من بساطةٍ وصدق .

ألا رضيَ الرب ، وهو الكلّي القدرة ، وإذا شاء استطاع ، أن أوفَّق دائمًا في صنعِ مشيئتِه ، ولا سمحَ بأن تهلِكَ هذه النفسُ التي أخرجَها ، عزّ وجلّ ، مرارًا ومرارًا ، بوسائلَ وأساليبَ شتى ، من الجحيمِ وأعادَها إليها . آمين

(١٤) أحد هؤلاء الثلاثة بالتأكيد هو الأب بانييث ، أما الآخران فعلى الأرجح هما الأب بلطاسار ألفاريث وغسبار دي سالاثار أو ربما غسبار داثا .

(خاتمة)

J H S[1]

١. ليكن الروح القدس مع حضرتِك[٢] دائمًا، آمين.

لا بأس في أن أغتَنِمَ هذه الخدمة لأُلزِمَ حضرتَك فتهتمَّ اهتمامًا كبيرًا بالصلاة الى الربّ من أجلي؛ ويحقّ لي طلبُ ذلك نظرًا لما قاسيتُ حتى أنهيتُ كتابةَ سيرتي وتذكّرتُ شقاواتي الوفيرة. على أني، في الحقيقة، أستطيعُ القولَ إني أسفتُ لكوني ذكرت المنن التي منحنيها الربّ أكثر من أسفي لعدم ذكري إهاناتي له، عزّ وجلّ.

تجاوب واعتذار ورغبة في التثبّت من صحة الرأي

٢. لقد صنعتُ ما أمرتني، حضرتُك، به من إسهابٍ في السرد، شرطَ أن تنفِّذ ما وعدتَني من تمزيقِ ما تراه سيِّئًا. ما كدتُ آتي على قراءة الكتاب بعد فراغي من وضعه، حتى أرسلتَ حضرتُك في طلبه. قد يكون هناك بعضُ أمورٍ مشوَّشة وأخرى مكرَّرة، فهذا يعود الى ضيقٍ في الوقت شديدٍ، فما كنت أستطيعُ إعادةَ النظر في ما كنت أكتب. أرجو، إذًا، حضرتَك، أن تصحِّحَه وتُكلِّفَ من ينسخه، إذا، تقرّر إرسالُه الى الأب المعلِّم آڤيلا[٣]، فقد يتعرَّف أحدٌ الى خطي. وإني لأتمنّى

---

(١) الاحرف اللاتينية الاولى لعبارة ترجمتها الحرفية: «يسوع مخلص البشر».

(٢) هذه الخاتمة موجّهة الى الأب غارثيا دي توليدو عندما أرسِلَ اليه كتابُ السيرة.

(٣) المعلم خوان دي آڤيلا (١٤٩٩–١٥٦٩) كان واسعَ الشهرة لعلمه، وغيرته الرسولية، وقداسته، وتأسيسِه المعاهدَ التعليمية، ومؤلفاتِه الروحية. إستشارتْه القديسة تريزا في أمر سيرتِها سنة ١٥٦٨. ولمّا بلغَها خبرُ وفاتِه هتفت: «أبكيه لأن الكنيسة خسرت أحد أعمدتِها الكبرى». وإليك مقطعا من رسالته الى القديسة:

بحرارة أن يُرتَّبَ الأمرُ لينظرَ، هو، فيه؛ لأني بهذا القصدِ شرعتُ أكتبُ؛ فإذا رأى أنّني في الطريق الصحيح، شعرتُ بعزاءٍ كبيرٍ، لأن لم يبقَ لديّ ما أزيد، قيامًا بما هو من واجبي. تصرّف، حضرتك، في كلٍّ شيء كما يبدو لك، واعتبرْ أنك ملزمٌ تجاه من عهدتْ بنفسها إليك.

٣. أما نفسَك، فسأوصي بها ربَّنا طوالَ حياتي. فعجِّل، رجوتُك معروفًا، في أن تخدمَه، عزّ وجلّ، لأن حضرتَك سترى ممّا كتبت، ما أحسنَ أن يعطيَ الانسان نفسَه كلَّها – كما بدأتَ تفعل – لمن يعطينا ذاتَه بدون حساب.

«١٢ أيلول ١٥٦٨
يبدو لي، من رواية هذا الكتاب، أنكِ قاومتِ هذه المنن الخارقة أكثر ممّا كان ينبغي. أظنُّ أنها أفادت نفسَك إفادةً جلّى. هذه المنن جعلت نفسَك تعرف بؤسَها وأخطاءها معرفةً أوضح، وتُصلِحُها. لقد دامت مدةً طويلة يرافقها دومًا فائدةٌ روحية. لقد حثّتْكِ على محبّة الله واحتقار ذاتك وممارسة التقشّف. فلا أرى ما يستوجب التنديدَ بها. إني أعتبرها صالحةً، شرط ألا يوثَقَ بها دائمًا ثقةً تامة، وعلى الأخص حين تبدو غيرَ عاديَّة. وبما أنه يصعُبُ التمييزُ إن كانت من الله أم لا، على الانسان ألّا يتوقّف عندها طويلاً، لأن القداسةَ، في النهاية، ليست سوى الحبّ المتواضع لله وللقريب.» (رسالة ١٥٨) (Dictionnaire de Spiritualité; VIII, col. 298)

٤. تباركَ الى الأبد! وإني آملُ من رحمتِه أننا سنلتقي حيث يُمكننا، أنا وحضرتُك، أن نشاهِدَ بصورةٍ أجلى المنَن الكبيرةَ التي منحنا، وأن نسبِّحَه الى أبد الآبدين. آمين.

تمّ هذا الكتاب في حزيران، سنة ١٥٦٢[٤]

---

(٤) بعد هذا التاريخ (١٥٦٢) كتب الأب بانيّث ما يلي: «هذا التاريخ يدلّ على الصيغة الأولى التي وضعت بها الأم تريزا ليسوع هذا الكتاب دون تقسيمه الى فصول. ثم كتبت هذه النسخة وأضافت أشياءَ كثيرةً حصلت بعد هذا التاريخ مثل تأسيس دير القديس يوسف في آڤيلا». وأُثبِتَت في المخطوطةِ صفحاتٌ ستٌ بخط الأب بانييث تتضمَّن موافقتَه على الكتاب وعلى روح مؤلفته، وهي موجَّهة الى محكمة التفتيش التي فرضت أن تجريَ الرقابة عليه إثر شكوى. وقد وقّع الأب بانييث موافقتَه في ٧ تموز ١٥٧٥.

انجزت المطبعة الكاثوليكية ش.م.ل
(عاريا - لبنان)
طبع هذا الكتاب في العشرين من كانون الثاني ١٩٩١

❝ إنَّ سموّ تريزا الأڤيليّة بين الصوفيِّين يكمن في كونِها تَفتحُ لنا في الحال أبوابَ هذا العالم المجهول. إنَّها تدفعُ بنا الى وسط العالم الفائق الطبيعة، وتُحَدِّثنا عنه حديثًا مباشرًا وكأنما تتكلَّمُ على حقيقةٍ خَبرَتْها بذاتِها. الآخرون يبحثون في الاتِّحاد الصوفيّ ويصوغون حولَه النَظريَّات، أمَّا هي فتجعلُنا نشعرُ به، نوعًا ما، بل ونَحْدِسُه أحيانًا. ويبدو معها أن لا وسيطَ بين القارئ والحقائقِ السامية التي تتحدَّث عنها. إنَّها تَضعُنا في حضرتِها. لقد شاهدَتْها، هي، ونعتقدُ، نحنُ، أنَّنا نشاهِدُها بعَيْنَيْها. والحقُّ أن ليس غيرها من تكلَّم على أشياءَ متعذِّرَةِ الإدراك كالتي تكلَّمتْ عليها بلُغَةٍ تنبضُ بالحقيقة كَلُغَتِها. إنَّنا لَنُحِسُّ بأنَّها على اتّصالٍ بهذه الأشياء، وأنَّ صوتَها يبلُغُ إلينا، من الأماكن ذاتِها التي خُطِفَتْ نفسُها إليها، عذبًا كلَّ العذوبة، صافيًا كلَّ الصفاء... ❞

أحد الكتّاب المعاصرين